



الطريق إلى مكة

المشروع القومي للترجمة

تأليف: ليوبولد فاس [محمد أسد]

ترجمة: رفعت السيد على

894

المشروع القومى للترجمة

الطريق إلى مكة

تأليـــف : محمـــد أســـد

(ليـوبـولـد ڤايس)

ترجمـــة : رفعت السيد على

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٨٩٤
- الطريق إلى مكة
- محمد أسد (ليوبولد ڤايس)
- رفعت السيد على
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

The Road to Mecca

by : Muhammad Asad

Simon and Schuster, 1954

Reprinted by : Fons Vitae, The Book Company, May 2001

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

مقدمة

ما أرويه في هذا الكتاب لا يُعدُّ سيرةً ذاتيةً لامرئٍ يشعر بالفخر لدور قام به في الحياة العام ، كما لا يُعدُّ رواية لمغامرات خضتها - على الرغم من أنني صادفت مغامرات عجيبة - فإنها لم تمثل لي أكثر من مجرد أحداث مرافقة ومصاحبة لما كان يدور داخلي وما أصادفه، عدا كل ذلك فهو لا يُعدُّ قصة حياة رجل يفتش بقصد ونية عن إيمان عميق أو عقيدة بذاتها ؛ فذلك الإيمان حلّ عليّ عبر رحلة السنين دون أن أسعى إليه. حكايتي ببساطة هي حكاية اكتشاف رجل أوروبي للإسلام كدينٍ متكاملٍ في أي مجتمع إسلامي.

لم يخطر بذهني ولا طاف بخاطري أن أكتب تلك الحكاية ؛ لأنني لم أعتقد في أي وقت أن أحداث ووقائع رحلة حياتي من الممكن أن تشكل أي أهمية لأي إنسان باستثنائي أنا بالطبع، إلا أن عودتي إلى باريس بعد غياب واغتراب داما أكثر من خمسة وعشرين عامًا عن عالم الغرب الذي أنتمي إليه، ثم انتقالي بعدها إلى نيويورك عام ١٩٥٢، صادفت ما جعلني أقتنع بوجهة نظر جديدة. فبحكم وظيفتي مندوباً للحكومة الباكستانية لدى الأمم المتحدة في نيويورك، كنت موضع اهتمام الصحافة والرأي العام، كما كنت محل فضول كثير من الأصدقاء والمعارف الغربيين من أوروبيين وأمريكيين، اعتقد كل من عرفني في البداية أنني لست إلا «خبيرًا» أوروبيًا يعمل لدى حكومة شرقية لغرض وظيفي بحت، وظنوا أنني قد سايرت نمط حياة وفكر الأمة التي

أمثلها، إلا أن جهودى المتفانية والمكثفة فى الأمم المتحدة من أجل قضايا البلد الذى أمثله وتحقيق أهدافه السياسية والثقافية التى تهم كل العالم الإسلامى، أصابتهم بالحيرة والدهشة. واشتد الفضول، وتزايد عدد مَنْ يتساءلون عن حياتى وخبراتى وتجاربى، وكان لابد لى من أن أحكى حكايتى.

رويت لهم كيف بدأت حياتى العملية فى باكورة شبابى مراسلاً للصحف الأوروبية من دول الشرق الأوسط، وبعد أعوام من الترحال والتنقل المتواصل بين دول الشرق الأوسط اعتنقت الإسلام عام ١٩٢٦، وعشت بعد ذلك ستة أعوام فى أماكن مختلفة من الجزيرة العربية شرُفت خلالها بصداقة الملك ابن سعود، ثم توجهت بعد ذلك إلى الهند، والتقيت هناك بالشاعر والفيلسوف الإسلامى والأب الروحى لمشروع إقامة دولة باكستان الإسلامية محمد إقبال، الذى كان له الفضل فى إقناعى بالعدول عن مواصلة سفرى إلى شرق تركستان والصين وأندونيسيا، وأن أبقى معه بالهند لبلورة التصور الفكرى لإقامة دولة إسلامية مستقلة تحمل اسم باكستان، والتى لم تكن فى ذلك الوقت إلا حلمًا يراود خياله. مثَّل لى ذلك الهدف، كما مثَّل لإقبال هدفًا جوهريًا وطريقًا لا بديل له لإعادة إحياء الآمال الإسلامية الخامدة، وإحياء هوية سياسية واحدة لشعوب إسلامية نبتت من جذر واحد وتعتنق كلها عقيدة واحدة.

كرست نفسى أعوامًا طويلة لتحقيق ذلك الهدف النبيل، كدارس، وكاتب، ومحاضر. ومع مضى الأعوام اكتسبت شهرة واسعة كشارح ومفسر للشريعة والثقافة الإسلامية . ولما تحقق الحلم وأُعلِنَ عن قيام دولة باكستان الإسلامية المستقلة عام ١٩٤٧، كلفتنى الحكومة الوليدة بإنشاء إدارة خاصة تسعى لإحياء النهضة الإسلامية على أن أتولى إدارتها، كان ذلك المشروع يهدف إلى وضع البرامج والخطط، وبلورة نظريات، وتحديد أهداف وأطر المفاهيم الإسلامية للدولة وللمجتمع الإسلامى كأسس يرتكز عليها التوجه النهائى العام للدولة الإسلامية. وبعد عامين من العمل على إنجاز تلك المهمة الجليلة، نُقلت للعمل بوزارة الخارجية الباكستانية وعُينت رئيسًا لإدارة شئون الشرق الأوسط، وركزت كل جهودى لتأسيس علاقات وروابط قوية بين باكستان ودول العالم الإسلامى، ثم عُينت بعد ذلك مندوبًا لباكستان لدى الأمم المتحدة بنيويورك.

كان ذلك يعنى أن الأمر يتجاوز عمل رجل أوروبى فى مجتمع إسلامى تصادف وجوده به، فقد كان تحولاً واعيًا وإراديًا عن ثقافة وفكر معين تشبعت به من مولدى إلى شبابى، إلى ثقافة أخرى وفكر آخر مغايرين كلية لما درجت عليه، وكان ذلك التحول هو ما بدا مدهشًا وغريبًا ولا يمكن تبريره من وجهة نظر مَنْ عرفتهم وصادقتهم من أبناء الغرب. لم يتصوروا كيف يمكن لامرئ غربى المولد والتنشئة والتربية أن يقدم نفسه إليهم بلا تحفظ وبكل وضوح كمندوب لدولة إسلامية، وكيف أمكنه أن يبدل إرثه الثقافى الغربى ويعتنق الإسلام، وتساءلوا عن ذلك الدافع الذى يجعله يتقبل مفاهيم دينية واجتماعية أدنى فى نظرهم بمراحل كثيرة من كل المفاهيم الغربية المتحضرة (ويؤمن أهل الغرب بذلك بيقين تام يتجاوز احتمال المراجعة).

تساءلت بدورى، لماذا يتبنى الغربيون تلك الأحكام ويؤمنون بها بيقين لا يقبل المراجعة؟ هل اهتموا فى أى وقت بالبحث الجاد للتوصل إلى رؤية صحيحة ومباشرة للإسلام، أم أن ما يوقنون به لا يستند إلا إلى مجموعة من الأقوال الموروثة بالغرب والمفاهيم الشائهة التى ورثوها ضمن إرثهم الثقافى من أجيال سبقتهم دون بحث أو تمحيص؟

هل يعود ذلك إلى توارث نمط الفكر اليونانى - الرومانى القديم الذى كان يقسم الأمم إلى إغريق ورومان فى جانب وباقى البشر المصنفين «برابرة» فى جانب آخر، وأن ذلك النمط من التفكير انتقل إلى الفكر الغربى وتأصل به حتى إنهم أصبحوا عاجزين - ولو نظريًا - عن قبول فكرة وجود قيم إيجابية فى ثقافات أخرى تقع خارج محيطهم الثقافى والفكرى والمعرفى؟

من عصر الإغريق والرومان ظل المؤرخون والمفكرون الأوروبيون ميالين إلى رؤية تاريخ العالم بوجهة نظر وبمصطلحات وخبرات ثقافة الغرب فقط. وطبقًا لتلك الرؤية المحدودة فإن أية حضارة غير أوروبية يُحكم لها أو عليها بمقدار تأثيرها على مصائر أهل الغرب فقط، وهكذا كان تاريخ العالم وتعدد ثقافاته، لم يكن أكثر من مجرد امتداد لتاريخ الغرب.

لابد بالطبع أن تخلق تلك النظرة الضيقة منظوراً مشوهاً، لقد اعتاد الأوروبى والأمريكى على قراءة ما يخص الحضارة الغربية ويناقش قضاياها بتفاصيل وأشكال متعددة، فى حين لا تحتوى قراءاته إلا على النذر اليسير عن شئون العالم وحضاراته، وجعله ذلك يوقن بأن التجربة الحضارية للغرب ليست فقط الأفضل والأسمى، بل إنها فوق أى قياس مقارنة بحضارات العالم الأخرى؛ وهكذا، يؤمن المواطن الغربى أن نمط الحياة لديهم هو النمط الوحيد الصالح والملائم للحياة، وأنه النموذج الأوحد الذى لابد أن تُقاس عليه أية أنماط أخرى، ويستتبع ذلك بالطبع أن أية مفاهيم معرفية أو ثقاية أو أنساق اجتماعية أو قيم أخلاقية تختلف عن النمط الغربى إنما تنتمى إلى مستوى أدنى من الحياة.

لقد اقتفت الثقافة الغربية أثر الإغريق والرومان فى تصنيفهم للعالم، وآمنوا أن حضارات «الآخرين» ليست إلا خطوات متعثرة على مسار التقدم والتحضر الذى قطعه الغرب معصوماً من أى خطأ، أو على أفضل الأحوال أنها ليست إلا بعض الفصول المتابعة فى كتاب، تُعَدُّ الحضارة الغربية فيه فصل الختام.

حين شرحت وجهة نظرى لصديق أمريكى ـ وهو مفكر متميز ـ قال «أوافقك على أن الإغريق والرومان كانوا محدودين فى منهجهم الفكرى ونظرتهم إلى الحضارات الأخرى المغايرة، ولكن ألا تُعَدُّ تلك المحدودية نتيجة حتمية لصعوبات التواصل اللغوى والفكرى بينهم وبين بقية شعوب العالم فى عصرهم؟ أولم يتم تجاوز تلك المحدودية فى عالمنا المعاصر؟ ألا نشغل أنفسنا فى الغرب بما يجرى خارج مدار فلكنا الثقافى؟ هل نسيت تلك الكتب الكثيرة التى أُلِّفت هنا بالغرب عن الفنون والفلسفات الشرقية، تلك الكتب نشرت فى أوروبا وأمريكا فى آخر ربع قرن.. عدا الدراسات التى وضعت عن الأفكار السياسية التى تشغل بال أهل الشرق. لا يمكن لأى منصف أن يتجاهل أو ينكر تلك الرغبة لدى أهل الغرب لفهم نتاج الثقافات الأخرى».

أجبته: «قد تكون على صواب إلى حدٍ ما، لاشك أن النظرة العتيقة للحضارة الإغريقية ـ الرومانية فى تصنيف العالم لم تعد بالحدة نفسها فى تقسيم الغرب

للحضارات وخفت وطأتها إلى حدٍ كبير، ويعود السبب إلى النضج الفكرى لكثير من مفكرى الغرب، فتخلوا عن كثير من التصورات الخاطئة، بل أصبحوا يتشككون فى جوانب كثيرة لثقافتهم وحضارتهم الغربية، وبدأوا فى البحث والتنقيب فى أماكن أخرى من العالم لاستجلاء ثقافاتها ومعارفها. وأيقن كثير من الباحثين والمفكرين أنه لا يوجد مصدر واحد ولا قصة واحدة لتاريخ الإنجازات البشرية؛ فمصادر التقدم متعددة لا أحادية: ويرجع ذلك ببساطة إلى أن الجنس البشرى، من منظور تاريخى لا يُعد جنساً واحداً، بل أجناساً متباينة ذات أهداف متباينة فيما يختص بمعنى الحياة البشرية وهدفها. رغم ذلك لا أشعر بأن الغرب لم يصبح أقل شعوراً بتفوقه وعلوه تجاه الحضارات المغايرة، وأنه يتبنى التقسيم الإغريقى - الرومانى: أصبح الغرب فقط أكثر تسامحًا. وأذكرك أن ذلك التسامح لم يشمل نظرته إلى الإسلام بقدر ما شمل الحضارات الشرقية الأخرى، التى تقدم نوعاً من الجاذبية الروحية للغرب الجائع روحياً، وهى توجهات روحية بعيدة كل البعد عن جوهر التقدم الغربى مما لا يشكل أى تحد للقيم الغربية».

سألنى باهتمام: «ما الذى تعنيه؟».

أجبته: «حسنًا، حين يقوم أى دارس أو باحث غربى بدراسة الهندوسية أو البوذية، يظل طوال الوقت على وعى دائم بالاختلافات الجوهرية بين تلك العقائد وعقيدته. قد يعجب بفكرة أو بأخرى فى تلك العقائد، إلا أنه لا يضع فى اعتباره جدياً أنه قد يعتنق واحدة من تلك المعتقدات؛ فهو يؤمن سلفًا بتلك الاستحالة، ولذلك يدرس ويقارن تلك الديانات باتزان ودون خوف، بل أحيانًا بتقدير وتعاطف. أما حين يصل الأمر بالباحث الغربى لدراسة الإسلام - الذى يُعَدُّ هو الآخر غريبًا على القيم الغربية كالهندوسية والبوذية - نجد أن تلك الموضوعية تتوارى وتختل وتشوبها انحيازية عاطفية ومعنوية. ربما يرجع ذلك - فيما أظن - إلى أن قيم الإسلام قريبة قربًا شديداً من جوهر تلك القيم السائدة فى الغرب مما يشكل تحدياً حقيقيًا لمفاهيم غربية عديدة، روحية واجتماعية.

شرعت أشرح له نظرية توصلت إليها منذ عدة أعوام مضت، نظرية تفسر العداء العميق الذى نصادفه للإسلام في محتوى الثقافة الغربية واتجاهاتها السياسية المعاصرة.

قلت له: «حتى نصل إلى تفسير مقنع لذلك العداء لابد لنا من العودة إلى التاريخ القديم لندرك الخلفية النفسية للعلاقة المبكرة بين العالم الغربى والعالم الإسلامى؛ فما يعتقده الغرب تجاه الإسلام فى عصرنا الحالى ترجع جذوره إلى الانطباعات التى تولدت بين الأمم الأوروبية فى أثناء الحروب الصليبية».

تعجب صاحبى متسائلاً: «الحروب الصليبية؟ أظنك لا تعنى أن ما حدث من ألف عام تقريباً مازال مؤثراً على البشر فى القرن العشرين؟» قلت له: «بل هو كذلك، أعرف أن ذلك يبدو عسير التصديق، ولكنك تتذكر ما واجه علماء التحليل النفسى حين أثبتوا أن كثيراً من المكونات المعنوية للشخص البالغ - والذى تختلف ميوله وأذواقه وأغراضه وأهدافه وأهواؤه عن أى امرئ آخر، يتلخص فيما أُطلق عليه «الخصوصية الفردية» - وأن كل تلك التعقيدات الفردية يمكن تتبعها وكشفها بالوصول إلى مصادرها الأولى، فيما مرَّ به المرء من تجارب وخبرات وأحداث تعرض لها فى مقتبل طفولته المبكرة؟

حسناً، ألا تتكون الأمم من مجموع أفرادها؟ تطور الأمم ومكوناتها الفكرية مرتبط بالخبرات والتجارب والأحداث التى مرت بها فى طفولتها الحضارية، قد تكون تلك التجارب والخبرات مبهجة، وقد تكون مؤلمة طبقاً لتصورات الطفولة الساذجة عن حدث معين، وأثر كل حدث وتجربة يتوقف على درجة حدته والألم الذى يسببه. كان القرن السابق للحروب الصليبية مباشرة هو نهاية الألف عام الأولى للميلاد، ومن الممكن أن نعتبر أنه يشكل الطفولة المبكرة للحضارة الأوروبية الغربية الحالية...».

استطردت مذكراً صديقى - وهو مؤرخ - أن ذلك القرن هو العصر الذى بدأت أوروبا تتبين فيه لأول مرة معالم طريق ثقافتها الخاصة، مستقلة تماماً عن الإرث الرومانى المنسى، ثقافة جديدة ظهرت للوجود بلغات أوروبية غير رومانية ولاتينية، تستلهم الخبرات والرؤى الدينية للمسيحية الغربية، فى ذلك القرن كانت الفنون الرفيعة تستيقظ

على مهل من السبات الطويل الناتج عن هجرات الشعوب الأوروبية التى كانت أقرب إلى الحروب، والتى قام بها القوط والهون والآفار، بدأت النهضة بعد أن تخلصت من الأحوال المتردية التى سادت فى الأعوام المبكرة من العصور الوسطى، عالم حضارى جديد كان ينهض ويبرز إلى الوجود وتتشكل ملامحه. فى تلك المرحلة الأولى من تكوينها تعرضت أوروبا لأعنف صدمة يمكن أن تتعرض لها، أو هى بالأحرى " جُرح " ألا وهى صدمة الحروب الصليبية ...

كان للحروب الصليبية أقوى تأثير «جمعى» على حضارة كانت بالكاد قد بدأت تعى ذاتها. بمصطلحات تاريخية، كانت الحروب الصليبية أول وأنجح محاولة مبكرة فى رؤية أوروبا لذاتها، وقد توحدت تحت راية ثقافية واحدة، ولم تمر أوروبا بتجربة مماثلة لا قبلها ولا بعدها، لقد خاضت الأمم الأوروبية تلك الحرب متفقة لأول مرة على هدف واحد.

موجة مسمومة اجتاحت كل أرجاء القارة الأوروبية، حماس ملتهب تجاوز وعَبَرَ كل الحواجز التى كانت تفصل بين تلك الأمم والقبائل والطبقات المختلفة. كانت أوروبا تموج بشعوب وقوميات لا يربطها رابط، الفرانك والساكسون والجرمان والبورجاند والصقليون والنورماند واللومبارد، ممالك إقطاعية ودول مدن من شذرات الإمبراطورية الرومانية وبقاياها بعد انهيارها النهائى، ولم يكن يربط ذلك الخليط المتباين إلا رابط واحد، هو أنها جميعًا تعتنق الديانة المسيحية: أثناء الحروب الصليبية وبسببها ارتفع الرابط الدينى إلى مستوى جديد؛ فقد أصبحت قضية مشتركة لكل الشعوب الأوروبية المسيحية على حد سواء - مفهوم سياسى دينى «للمسيحانية» ولد بدوره المفهوم الثقافى لـ «أوروبا» ككل. وحين حث البابا أوروبان الثانى المسيحيين فى خطابه فى مدينة كليرمونت، فى نوفمبر عام ١٠٩٥، على خوض الحرب ضد «الجنس الشرير» الذى يسيطر على الأرض المقدسة، أعلن - ربما دون أن يدرى - ميثاقًا مشتركًا للحضارة الغربية.

وهبت التجربة الجارحة والمريرة للحروب الصليبية أوروبا وعيًا بثقافاتها ووحدتها، إلا أن تلك الحروب ذاتها قُدِرَ لها أن تُبرز الإسلام بوجهٍ شائنٍ مزيف فى عيون الشعوب

الأوروبية. ولا يعود الأمر ببساطة إلى أن الحروب الصليبية كانت تعنى فقط صراعًا عسكريًا وإراقة دماء. فحروب كثيرة نشبت بين أمم كثيرة ثم نسيت آثارها مع الزمن، كما نشأت عداوات بدت فى حينها أنها لا تُمحى ثم تحولت مع الزمن إلى علاقات صداقة وتعاونٍ مثمر. الخسائر التى نجمت عن الحروب الصليبية لم تقتصر على الصدام المسلح: كانت الخسارة الكبرى الأولى والأهم خسارة فكرية - نتجت عن تسميم الفكر الأوروبى ضد العالم الإسلامى عَبْر التصوير الإرادى المشوه والكريه لتعاليم الإسلام ومُثُله العُليا. فحتى يستمر الزَخَم الداعى لاستمرار الحرب الصليبية، دمغوا الرسول بأوصاف كريهة، وادعوا أنه معاد للمسيح، ووُصفتْ ديانته بأشنع الأوصاف، وأنها منبع الشرور اللاأخلاقية والانحراف والشذوذ. وكان زمن الحروب الصليبية هو الزمن الذى أُشيعَ فيه فى أنحاء أوروبا أن الإسلام دين حسٍ خالص وعنف وقسوة، وأنه دين طقوس لا دين تطهر من القلب، دخلت كل تلك الأفكار الشائهة عن الإسلام الفكر الغربى، ولم تخرج منه بعد ذلك أبدًا، وكان أيضًا ذلك العصر الذى حول فيه متعصبو الحروب الصليبية اسم محمد (ﷺ) - وهو محمد (ﷺ) ذاته الذى علَّمَ المسلمين أن الإيمان بمَنْ سبقه من الرُسُل من شروط الإسلام - على سبيل الذراية والازدراء إلى «ماهاوند»، كانت روح البحث الموضوعى مازالت فى علم الغيب بالنسبة لأوروبا، كان من السهل على القوى المسيطرة على أوروبا أن تبذر بذور الكراهية السوداء لدين وحضارة تختلف عن دينها وحضارتها. ولذلك لم يكن من المصادفة أن مؤلفات «تشانسون دى رولان» المحمومة، والتى يصف فيها النصر الأسطورى للمسيحية على المسلمين «الكفار» فى جنوب فرنسا، قد كُتِبَت بعد تلك المعركة بثلاثة قرون - وقبل الحرب الصليبية الأولى مباشرة - وتحولت بعد ذلك لتصبح مثل النشيد القومى لأوروبا، وليس من قَبيل المصادفة أيضًا، أن قمة الحروب الصليبية كانت علامة فارقة فى بداية تكوُّن الثقافة الأوروبية المشتركة، والتى اختلفت عن الثقافات السابقة المحلية: لقد كانت كراهية الإسلام ومعاداته هى مهد الحضارة الأوروبية التى رُبيَت عليه.

إنه لمن سخرية الأقدار - تاريخيًا - أن يظل ذلك العداء للإسلام – الذى كان دينيًا فى منشئه - موجودًا فى لا وعى أهل الغرب حتى بعد أن فقدت المعتقدات الدينية زخمها

وقوتها لديه. ولا يبعث ذلك على الدهشة فى حقيقة الأمر؛ فنحن نعرف أن المرء قد يتخلى عن كل معتقدات الدين التى ورثها ونُقلت إليه فى طفولته، بينما تظل بعض المشاعر العاطفية التى ارتبطت بتلك المعتقدات ماثلة فى ذهنه بطريقة لا عقلانية تُجافى المنطق بقية أيام حياته ـ وهذا هو ما حدث بالضبط للشخصية الجمعية الغربية. أشباح وظلال الحروب الصليبية مازالت تحوم فى الغرب حتى اليوم، ومازالوا يتعاملون مع الإسلام برؤية تحمل بقايا ذلك الشبح العنيد...» .

ظل صديقى صامتًا لفترة طويلة. مازلت أذكر هيئته الطويلة النحيلة وهو صامت يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، يداه فى جيبىْ معطفه، يهز رأسه كما لو كان مفاجأً، وقال أخيرًا: «قد يكون هناك شىء ما فيما تقول بالفعل . قد يكون فيما تقول شىء ما، وعلى الرغم من أننى لست فى الوضع الذى يسمح لى بالحكم على «نظريتك» بارتجال أو تسرع، لكن على أية حال، ألا ترى على ضوء ما ذكرته لى عن حياتك – والتى قد تبدو لك بسيطة وغير معقدة – أنها قد تبدو غريبة جدًا وغير عادية فى نظر الرجل الغربى؟ ألا تود أن تشركهم معك فى تلك التجربة؟ لماذا لا تكتب قصة حياتك؟ أنا على يقين أنها ستكون من القراءات الممتعة».

أجبته ضاحكًا: «حسنٌ، قد أُغرى نفسى بترك العمل الدبلوماسى وأضع مثل ذلك الكتاب، بالرغم من أى شىء، فالكتابة حرفتى الأساسية...» .

ودون وعىٍ منى فَقَدَتْ المزحة جانبها الهازل وبدأتُ أفكر جديًا على مدى أسابيع فى كتابة قصة حياتى، وبالتالى أعاون – ولو بقدر ضئيل – فى رفع تلك الحُجُب السميكة والأستار الثقيلة التى تفصل الإسلام وحضارته عن العقل الغربى. لقد كان طريقى إلى الإسلام فريداً من عدة أوجه؛ فأنا لم أتحول إلى الإسلام لأنى عشت زمنًا طويلاً بين مسلمين ـ بل على العكس – قررت أن أعيش بينهم لأنى اعتنقت الإسلام.

ألا أكون أكثرنفعًا لو حققت بعضًا من الفهم المتبادل بين الإسلام وعوالم الغرب، بتقديم تجاربى الخاصة جداً للقارئ الغربى، أكثر من النفع الذى أقدمه فى العمل الدبلوماسى، والذى يمكن أن يقوم به رجال أكفاء غيرى من أبناء البلد الذى أمثله؟

ففى كل الأحوال يمكن لأى امرئ ذكى أن يمثل باكستان لدى الأمم المتحدة - ولكن كم من الرجال بمقدورهم مخاطبة المواطن الغربى بمعطياته العقلية كما يمكننى أنا؟ أنا مسلم - إلا أننى أنتمى إلى الغرب - وبذلك يمكننى أن أتكلم بلغة واعية مفهومة للمسلمين ولأهل الغرب...

وهكذا، قُرْب نهاية عام ١٩٥٢ استقلت من عملى بوزارة الخارجية الباكستانية وبدأت فى كتابة هذا الكتاب، ولا أدرى إن كان سيشكل «قراءة ممتعة» كما توقع صديقى الأمريكى أم لا. لا أستطيع إلا أن أُعيد استشارة (تنشيط) ذاكرتى - مستعينًا فقط ببعض المذكرات القليلة، وبعض اليوميات المتناثرة، وبعض المقالات الصحفية التى كتبتها أثناء تلك الأحداث التى واكبت حياتى الماضية - وأفض الخيوط المتشابكة فى ذاكرتى عن أحداث حياتى، تلك الخيوط الممتدة لأعوام كثيرة، وبامتداد مساحات شاسعة من الجغرافيا.

هذه ليست قصة حياتى بأجمعها، ولكنها عن السنوات التى قضيتها بالجزيرة العربية قبل أن أنتقل إلى الهند - تلك السنوات المثيرة التى قضيتها مرتحلاً بين كل دول المنطقة على وجه التقريب من أقصى صحراء ليبيا حتى مرتفعات باميرز المغطاة بالجليد فى أفغانستان، وبين مضيق البوسفور حتى بحر العرب. لقد ذكرت فى النص - ولابد أن يظل ذلك فى الأذهان - المدى الزمنى الذى استغرقته آخر رحلة صحراوية من أعماق الجزيرة العربية إلى مكة فى أواخر صيف عام ١٩٣٢؛ فعلى مدى تلك الأيام الثلاثة والعشرين اتضح فى ذهنى تمامًا نمط حياتى وما أحب أن أكون وما أود أن أحقق عَبْر تلك الحياة.

والجزيرة العربية الموصوفة والمصورة فى هذا الكتاب لم يعد لها وجود. تداعى تفردها وتكاملها تحت تيار النفط المتدفق وما جلبه من عوائد. بساطتها التامة اختفت وتلاشت، واختفت معها الجوانب الإنسانية الفريدة من الفطرة. ومع الألم الذى تحسه بفقد الأشياء الثمينة، التى تفقدها إلى الأبد، مازلت أذكر مسار رحلتى الأخيرة عبر الصحارى، حين سرنا، وسرنا، كنا رجلين على ناقتين، عبر الأضواء السابحة فى الصحراء....

الفصل الأول

العطش

ركوب متواصل يبدو بلا نهاية، رجلان على ناقتين، وشمس ملتهبة حارقة، كل شيء يسبح في ضوء مبهر قوي، كثبان رملية تعكس أضواءً حمراء وبرتقالية تبهر البصر، كثبان بعد كثبان بلا نهاية، وحدة وصمت محرق، رجلان على ناقتين يتأرجحان في رتابة لا يتغير إيقاعها على وقع الخُطى التي تجلب النُّعاس، تجعلك تنسى في أي يوم أنت، وتنسى الشمس المحرقة، والريح الملتهبة، والطريق الطويل الذي لا تبدو له نهاية.

[١]

مجموعات متناثرة من حشائش جافة صفراء تنمو على حواف الكثبان، في أماكن متباعدة تتناثر أعشاب الحمدة وتشكل على الرمال أشكالاً تشبه أفاعٍ عملاقة، الحواس كلها في غَشْية ناعسة، الجسم يتمايل على سَرْج الناقة، لا يصل الإدراك عَبْر السمع إلا صوت انسحاق الرمال تحت أخفاف الناقتين وصوت احتكاك كلابة ركاب السَّرْج بالركبتين. الوجه مُلَثَّم بالغطرة للحماية من الشمس والرياح المحملة بالرمال، تشعر كما لوكنت تحمل وحدتك مثلما تحمل الأغراض المادية المحسوسة، عَبْر ذلك الإحساس الثقيل بالوحدة – عبره تمامًا تختلط الأفكار.. حتى آبار تايما.. آبار تايما المظلمة أعماقها، إلا أنها تهب الماء الذي يطفئ لهيب الظمأ...

سمعت صوتًا: «... لابد من عبور النفود حتى نصل إلى تايما ...»، لم أدر إن كان هاتفًا طاف بذهنى أم أنه صوت مرافقى.سألته: «هل قلت شيئًا يا زيد؟».

رد مرافقى: «لا يوجد من يجازف بعبور النفود فقط من أجل زيارة منطقة آبار تايما، إلا أنت بالطبع...» .

كنت عائداً برفقة زيد من منطقة قصر التايمين شمال نجد على تخوم العراق، بعد أن أنهيت مهمة أسندها إلىَّ الملك ابن سعود، فى وقت أقصر من المتوقع، ووجدت أن أمامى وقتًا متوفراً أقضيه أينما شئت، فقررت أن أزور واحات تايما القديمة، والتى تقع على مسافة بعيدة عن موضعنا الذى كنا فيه، مسافة تربو على مائتى ميل إلى الجنوب الغربى. واحات تايما المذكورة باسم تيما فى العهد القديم والتى قال عنها النبى أشعيا، «وشعب تيما الذى أعطاه ماءً حين كان عطشًا». جعل ماء تايما الغزير وآبارها العظيمة التى لا مثيل لها فى كل الجزيرة العربية، منطقة تجارية كبيرة قبل الإسلام فكانت مقصد ومحط ترحال القوافل السارية فى أرجاء الجزيرة العربية وموطنًا للثقافة العربية المبكرة. تشوقت قبل ذلك كثيراً لزيارة تلك المنطقة، لم أسلك المسالك والدروب الالتفافية الطويلة التى تسلكها القوافل للوصول إلى تايما، اتخذت طريقًا مباشراً من قصر التايمين عبر قلب صحراء النفود الكبرى، ذات الرمال الحمراء الممتدة على مساحات شاسعة تفصل بين الأراضى المرتفعة وسط الجزيرة وبين صحراء سوريا. لا طرق ولا مدقات ولا أثر لمسير فى تلك البحار الشاسعة من الرمال الحمراء المقفرة. تتولى الرياح مهمة إزالة أى آثار على سطحها لقدم بشر أو حيوان، لا يبقى أثر يسترشد به مْن يقطعها أو مْن تحمله أقداره على اختراقها. تحت وقع هبْات الرياح التى لا تنقطع تتغير أشكال ومواضع كثبان الرمال على الدوام، تنتقل فى إيقاع بطىء إلا أنه مستمر ودءوب، غير محسوس لكنه لا يتوقف، وتتبدل أشكالها من شكل إلى آخر، ومن موضع إلى غيره، تتسطح التلال الرملية وتتحول إلى وديان، وتتراكم الرمال فى وديان فتحولها إلى كثبان، تبرقشها حشائش صفراء جافة ميتة، تصدر أصواتًا خفيفة واهنة عند هبوب الرياح، أعشاب ذات طعم مرْ تعافها حتى الإبل.

على الرغم من أننى قد قطعت تلك الصحراء قبل ذلك فى اتجاهات مختلفة ولأسباب متباينة، فإننى لم أجرؤ على عبورها بمفردى دون دليل من البدو، وهكذا كان زيد دليلى ورفيقى فى تلك الرحلة.

كانت تلك المنطقة موطنه وموطن قبيلته؛ فهو من قبائل شمّار، التى تحيا على المشارف الشرقية والغربية لصحراء النفود الكبرى.. وحين تهطل أمطار الشتاء المفاجئة الغزيرة، تتحول تلك الكثبان الرملية إلى مروج تموج بالعشب والكلأ، فترعى قبائل شمار إبلها على ذلك الكلأ عدة أشهر من كل عام. كانت تلك الصحراء تسرى فى دم زيد، كما كان قلبه يخفق متجاوبًا مع نبضها.

ربما كان زيد واحداً من أبهى مْن قابلت من رجال الجزيرة العربية: جبهة عريضة، وبدن نحيل، قامة متوسطة الطول وممشوقة، ملىء بحيوية فائقة. فوق بشرته قمحية اللون تبرز وجنتان فى قوة، وشفتان مزمومتان فى حزم يزيد من جاذبيته، فى آن واحد تختلط أمارات الحزم بالجمال الحسى مما يكون جاذبية مميزة لبدو صحراء العرب، عدا الاعتداد بالذات مع مودة إنسانية حميمة وصادقة. كان زيد خليطًا رائعًا من الطبيعة البدوية وحياة المدينة فى نجد، إلا أنه احتفظ فى أعماقه بيقين المشاعر الغريزية البدوية وصدقها بلا انفعالات سريعة الاشتعال، كما اكتسب الحكمة العملية التى تميز أهل المدن دون أن يكون ضحية لآفات حياة المدن المعاصرة. كان يعشق المغامرات مثلى دون اختلاق ولا اصطناع. منذ نعومة أظافره امتلأت حياته بالأحداث المثيرة: فقد كان صبياً مقاتلاً ضمن فرقة غير نظامية من قوات الجمال الراكبة كانت تمولها الحكومة التركية فى شبه جزيرة سيناء أثناء الحرب العالمية الأولى؛ ثم محاربًا بين المدافعين عن موطن قبائل شمّار ضد قوات ابن سعود، ثم عمل مهربًا للسلاح فى الخليج الفارسى، وعاشقًا جموحًا لنساء كثيرات فى مناطق مختلفة من العالم العربى (كُنَّ بالطبع زوجات شرعيات، ثم يطلقهن)، وعمل بتجارة الخيول فى مصر، ثم جنديًا مرتزقًا بالعراق، وفى الأعوام الخمسة الأخيرة، كان مرافقًا لى فى انتقالى عبر أرجاء الجزيرة العربية.

الآن، فى أواخر صيف ١٩٣٢، كنا نرتحل معًا، كما فعلنا كثيراً من قبل، نشق طريقنا عبْر الكثبان الرملية الموحشة المقفرة نتوقف كلما وصلنا إلى أحد الآبار التى

تفصلها عن بعضها مسافات طويلة، نستريح ليلاً تحت قبة من نجوم ترصع السماء، وفى الآذان صوت أبدى رتيب لوقع أقدام الإبل فوق الرمال الساخنة؛ وأحياناً، يرتفع حداء زيد منشداً بصوت أجش على وقع خُطَى الإبل؛ نستريح ليلاً، يعد زيد القهوة العربية ويطهى الأرز، ونخوض أحياناً منافسات عنيفة، يهْب النسيم البارد على أبداننا فى هدأة الليل ونحن ممدان على الرمال؛ ثم تشرق الشمس من بين هامات الكثبان الرملية، حمراء كالدم، ثم تصب حرارتها بعنف كالألعاب النارية، وأحياناً أرى معجزة انبعاث الحياة فى الأعشاب التى تبدو ميتة وجافة حين تنساب إليها قطرات من الماء بالمصادفة.

كنا قد توقفنا لأداء صلاة الظهر. وبينما كنت أتوضأ من قربة ماء، تساقطت قطرات على بقعة من حشائش جافة بين قدمى، مجموع من سيقان الحشائش الجافة الباهتة، صفراء ذابلة بلا حياة تحت حرارة شمس لافحة. حين تساقطت عليها قطرات الماء، بدا كما لو كانت رعشة تسرى فى أنصال أوراقها الجافة المتغضنة، رأيت أوراقها وأنا مشدوه وهى تتفتح ببطء وارتجاف. نثرت قطرات ماء أخرى عليها، تحركت أنصال أوراقها واستدارت ثم استقامت ببطء، باستحياء وتردد... كتمت أنفاسى دهشة وأنا أصب مزيداً من الماء على بقعة الأعشاب. تحركت أسرع وانفردت سيقانها المائلة واستقامت أوراقها بحيوية أشد، كما لو كانت هناك قوة خفية تدفعها للاستيقاظ من أحلامها المليئة بالموت والفناء. كان مشهداً رائعًا لا يمكن أن أنساه، بدت أنصال أوراق الأعشاب الضئيلة تتمدد كما تتمدد أطراف نجمة البحر، كأنها مأخوذة بنشوة خجولة لا يمكن كبح جماح متعتها، احتفاء جامح من المتعة الحسية: عادت الحياة منتصرة إلى ما كان يبدو من لحظات من الموتى، رأيت ذلك ووقع تحت بصرى، حدث باتقاد مشبوب، بقوة طاغية تتوق إلى الحياة، وتفوق فى قوتها وعظمتها القدرة على الفهم والتفسير.

لا تحس بعظمة الحياة وسطوتها، إلا فى الصحراء . الاحتفاظ بالحياة صعب وعسير فى الصحراء، والحياة فيها كالهبة، كالكنز، ودائمًا تحفل بالمفاجآت. تدهشك الصحراء على الدوام بمفاجآتها حتى لو كنت خبيراً بها لأعوام طويلة، لا تكف أبداً عن

إظهار المفاجآت المدهشة وفى اللحظة التى تظن فيها أنك قد أحطت بها بقسوتها وقفرها، تجدها تستيقظ من حلمها، وتهب أنفاسها ورحمتها، وتجد عشباً قد ظهر فى موضع لم يكن به فى اليوم السابق إلا شظى حصى ورمال. وتبعث أنفاسها مرة أخرى فترى أسراباً من طيور صغيرة تحلق وتحوم فى سمائها... من أين؟ وإلى أين؟ طيور ضئيلة بأجنحة طويلة، خضراء زمردية زاهية، وأسراب من جراد تظهر محلقة فى السماء فجأة، تدنو وتنأى فى سرعة، رمادية كالحة، بأعداد لا نهائية كحشود المقاتلين الجائعين...

تجد الحياة فى الصحراء فى أوج عظمتها وتدفقها وحيويتها: عظمة التنوع، دائماً ما تثير الدهشة والحيرة: فى هذه الصحراء يكمن شذى الجزيرة العربية الذى يصعب تسميته، كما يكمن فى ربوع صحاريها الأخرى، تحسه فى التغيرات الدائمة فى قفارها الشاسعة. فى مواضع منها تجد أرضاً صخرية نارية المنشأ، صخور سوداء ذات سطح خشن، ثم كثبان رملية تبدو بلا نهاية، ووديان بين جبال صخرية، تغطيها أعشاب شوكية، ينطلق فجأة من بينها أرنب برى مذعور يمرق كالسهم ويمر أمامك كالبرق، ثم مناطق من رمال ناعمة تبرقشها آثار أقدام غزلان البرارى، وقطع أحجار أسود لونها، استعملت كموقد للطهو أو إعداد القهوة، أقامها عابرو سبيل طهوا عليها طعامهم فى أزمان لا تعرف مداها؛ ثم قرية صغيرة بين أشجار نخيل فى منطقة آبار تعلوها بكرات خشبية تسحب عليها دلاء الماء بالحبال من أعماقها، بكرات تصدر أصواتاً كأنها موسيقى رائعة للآذان المتعطشة وكأنها تغنى للحلوق الجافة التى أضناها العطش؛ وقد تجد بئراً فى وادٍ صحراوى، يتجمع حولها رعاة البدو لسقى قطعان ماعزهم وإبلهم العطشى، ترتفع أصواتهم بغناء جماعى وهم يرفعون الدلاء المليئة بالمياه والمصنوعة من جلد من أعماق بئرٍ مليئةٍ بالمياه، يسكبون ماء الدلاء فى أحواض السقى المصنوعة من الجلد والتى تقبل عليها الأغنام والإبل العطشى فى شغف وحبور.

ثم من جديد سهوب شاسعة جرداء تعلوها شمس حارقة دون رحمة؛ وتجمعات أعشاب ذابلة خشنة صفراء، ونباتات ورقية زاحفة على سطح الرمال ملتفة الأفرع

كالأفاعى كأنها تشير بإيماءة ترحيب بالإبل الجائعة، ثم شجرة أكاسيا وحيدة تمد غصونها فى رحابة تحت سماء بلون الصلب الأزرق، من بين الروابى والكتل الصخرية تظهر فجأة سحالى ذات جلود ذهبية يشاع عنها أنها لا تشرب ماءً طوال حياتها، تدور عيناها يمينًا ويسارًا فى نظرات حائرة، ثم تختفى فجأة كما تختفى الأطياف والأشباح. فى فراغ بين جبال صخرية تنتصب خيام مصنوعة من جلد الماعز السوداء، وقطيع من الإبل يُساق إلى مرابطه قبل غروب الشمس، راعى القطيع يقوده فوق بعير يركبه بلا سرج، حين ترتفع أصوات الرُعاة لجمع القطيع ودفعه للمسير، يمتص الفراغ اللانهائى أصواتهم ونداءاتهمْ ويبتلعها بلا صدى.

تلمح أحيانًا أشباحًا وأطيافًا عند الأفق البعيد: ترى أهى سُحُب أم غيوم كثيفة؟ تقترب الأشباح واطئة مغيرة ألوانها ومواضعها من لحظة لأخرى، ثم تتخذ شكل جبال بنية رمادية - إلا أنها طافية فى الهواء كالسُحُب، ترتفع قليلاً فوق خط الأفق ، عند الاقتراب منها تبدو كأعمدة صخرية من دبابيس عملاقة ذات قمم مدببة عالية فى الهواء، ثم تنخفض تلك الأشكال وتقترب من أديم الأرض وتتحول إلى أشكال بحيرات وأنهار متدفقة ترتعش على سطوحها اللامعة أشكال جبال وأشجار، مياهها تدعوك إليها وتجذبك باتجاهها، ثم تكتشف فجأة أن ذلك من مداعبات الجن، وأن ما تراه ليس إلا سرابًا طالما أفضى بالمرتحلين إلى آمال زائفة مخادعة ثم إلى الهلاك: فى تلك اللحظات امتدت يدى بلا إرادة منى لتتحسس قربة الماء المعلقة بسرج الناقة...

هناك ليالٍ تحفل بأنواع أخرى من المخاطر، قد تكون فى منطقةٍ قبيلتان متحاربتان يغيران على بعضهما ليلاً، حينئذ لابد أن تتجنب إشعال النار ليلاً، وتظل يقظًا طول الليل حادًا كل حواسك وبندقيتك بين ساقيك. فى المناطق التى يسودها السلام قد تلتقى بعد ترحال طويل بقافلة، وفى المساء تستمع إلى أحزان وهموم المتحلقين حول النيران، رجال لوحت الشمس وجوههم: يتحدثون عن أشياء عظيمة كما يتحدثون عن أمور بسيطة، عن الحياة والموت، عن الجوع والتخمة، الفخر والحب والكراهية، عن التوق الشديد وشهوة البدن وإرواء ظمأ الشهوات، عن الحروب، عن غياض النخيل فى قراهم

النائية ـ لا تسمع أبدًا حديثًا تافهًا يخلو من معنى، ولا ثرثرة خاوية لإزجاء الوقت: فالمرء لا يسعه الثرثرة بلا معنى فى ترحاله عبر الصحراء...

فى أيام العطش يلح عليك نداء الحياة، حين يلتصق لسانك بسقف فمك ويصبح مثل حطبة جافة، ولا يظهر فى الآفاق أمل غير رياح السموم اللافحة وعواصف الرمال.

فى أيام أخرى، حين تحل ضيفًا على مضارب بدو، ويقدمون إليك آنية مليئة بحليب دسم من إناث النوق فى بداية الربيع، حين تزهر الآكام والكثبان وتعلوها الخضرة بعد فصل المطر وتغدو قطعان الحيوانات وأثداؤها ثقيلة مليئة باللبن، ومن ركن الخيمة تسمع أصوات نساء ضاحكات وهن يطهين خروفًا على النار، نحروه إكرامًا للضيف.

مثل كرة من الحديد الأحمر تتوارى الشمس خلف التلال الرملية، فى المساء تبدو السماء مكتظة بالنجوم، وتبدو أعلى وأعمق من أى سماء تبدو فى مكان آخر من العالم، ننام تحتها نومًا عميقًا يخلو من الأحلام، ثم يحل الفجر الرمادى الشاحب بنسمات باردة حتى يحل صباح ساطع الضياء. ليالى الشتاء باردة، خفقات رياحه الباردة تهب على مخيم المرتحلين المتجمعين حول النار يتقاربون من بعضهم طلبًا للدف؛ أيام الصيف حارقة وأنت ترتحل على ظهر بعيرك تهتز على وقع خُطاه، الوجه ملثم بالكوفية للوقاية من الرمال الساخنة التى تذروها الرياح، تغوص حواسك فى غلاف من النعاس، بينما يحوم فوق رأسك طير مفترس فى خطوط ترسم دوائر على صفحة السماء.

[٢]

مرَّ العصر منسربًا ببطء بكثبانه وصمته ووحدة تغلفنا. بعد فترة، قطع الصمت التقاءنا ببدو مرتحلين، أربعة أو خمسة رجال وامرأتين يركبون الجمال، ويسحبون بغلاً يحمل على ظهره خيمة سوداء مطوية، وأوانى طهو وأدوات متباينة، ويعتلى كل حمولة البغل طفلان. حين اقتربوا توقفوا على مسافة منا:

ـ «السلام عليكم».

رددنا: «عليكم السلام ورحمة الله».

سألونا: «إلى أين؟»

أجبنا: «تايما، إن شاء الله».

سألونا: «من أين؟»

أجبت: «من قصر التايمين».

ساد الصمت بعد ذلك، كان المتحدث شيخًا ضئيل الجسم، حاد الملامح بلحية سوداء مدببة، كان كبيرهم؛ نظراته الحادة الثاقبة مرت على وجه زيد فى تمعن، ثم استقرت فى ريبة على وجهى، ساورته الريب، أجنبى ذو بشرة بيضاء يظهر بلا توقع قادمًا من مكان مجهول فى تلك البرية المقفرة؛ أجنبى قادم من بلاد العراق التى يحتلها البريطانيون، وقد يكون (قرأت أفكاره التى ارتسمت على صفحات وجهه) كافرًا يقتحم أرض الجزيرة خفية. راحت أصابعه تعبث فى حيرة بمقدم سرج ناقته، بينما التف حولنا باقى جماعته بغير نظام، كانوا ينتظرون ما سيقوله. بعد لحظات، بدا من الصعب عليه أن يتحمل صمتًا أطول من ذلك، فسألنى:

- «من أى عرب أنت؟»

كان يقصد إلى أى قبيلة أنتمى، ولكن قبل أن أتمكن من الرد، أضاءت ملامحه ابتسامة مفاجئة دلت على تذكره لى:

«أوه، تذكرتك توًا، لقد رأيتك بصحبة عبد العزيز، ولكن كان ذلك من زمن طويل مضى - ربما من أربعة أعوام...».

فرد ذراعيه علامة على الترحيب والود، وتذكر الأيام التى رآنى فيها فى القلعة الملكية فى الرياض، كان قد أتى إلى الرياض كزعيم لقبائل الشمار معلنًا ولاء قبيلته لابن سعود، كان البدو عادة ما يذكرونه باسمه الأول، عبد العزيز، بلا ألقاب رسمية ولا صفات تشريف: فهم فى تلقائيتهم وفطرتهم يرون الرجل فى الملك قبل أن يروا الملك فى

الرجل، كانوا يجلونه بلا جدال فى إطار ما تفرضه البيئة الصحراوية. رحنا نتبادل الذكريات، ونتحدث عن رجال عرفناهم، نتبادل الطرائف وما إليها، عن ألف ضيف فى ضيافة الملك، يتلقون عند رحيلهم الهبات والهدايا التى تختلف من ضيف إلى آخر حسب مكانته؛ من حفنة من النقود الفضية أو عباءة إلى أكياس مليئة بهدايا ذهبية، أما الخيول والجمال فقد كان غالبًا ما يمنحها إلى زعماء القبائل.

لم يكن كرم الملك وسخاؤه ينبع من خزانته بقدر ما كان ينبع من قلبه وأريحيته. كان صدق مشاعره وحميميتها أثمن من أى هبات أو هدايا وهو ما جعل كل الشعب يلتف حوله، بمن فيهم أنا بالطبع، فقد أحببته حبًا صادقًا. فعلى مدى أعوام إقامتى بالجزيرة العربية، كانت صداقة ابن سعود لى مثل ضوء دافئ يغمر كل جوانب حياتى.

كان يناديني بصفة الصديق، كما كان يعاملنى بهذه الصفة، ذلك على الرغم من كونه ملكًا وأنا لست إلا مراسلاً صحفيًا. كنت أناديه بدورى بلقب الصديق، لا بسبب ما أظهره تجاهى طوال فترة إقامتى فى مملكته فقد كان ذلك جانبًا من خصاله تجاه كثيرين ممن اعتبرهم أصدقاء له، ولكن لأنه كان يفتح لى قلبه ونفسه فى مناسبات كثيرة، تمامًا مثلما كان يفتح خزائنه لكثيرين من أبناء شعبه، كنت أحب أن أناديه بلقب الصديق، فعلى الرغم من أخطائه ـ وهى ليست كثيرة ـ كان رجلاً لا يضارع. لم يكن فقط «طيب القلب»؛ فطيبة القلب وحدها أحيانًا ما تبدو رخيصة، وما أعجبنى فى شخصه يماثل من يعجب بنصل سيف دمشقى قديم، فالسيف الدمشقى سلاح «جيد»؛ فهو يجمع كل الصفات التى تتطلبها من سلاح من ذلك النوع. هكذا كنت أعد ابن سعود رجلاً جيدًا، فقد كان صادقًا مع ذاته ومتسقًا معها فى كل سلوكياته، ودائمًا ما كان يمضى إلى تحقيق ما ارتآه بعزيمة صادقة، وإن أخطأ فى جانب ما، فلأنه لم يحاول أبدًا أن يكون شيئًا آخر غير ذاته.

* * *

كان أول لقاء لى بالملك عبد العزيز بن سعود فى مكة مع بدايات عام ١٩٢٧، كان ذلك بعد اعتناقى الإسلام بعدة أشهر. وكان أيضًا بعد موت زوجتى المفاجئ؛ حيث

كانت بصحبتي عند أول حج لي، وأحدث رحيلها المفاجئ في نفسي تأثيراً شديداً، شعرت بالمرارة واجتنبت الناس، واعتزلت كل معارفي. حاولت مراراً أن أخرج من تلك المرحلة المؤلمة من حياتي وأنهي وحدتي الموحشة. كنت أقضي جُل وقتي وحيداً بمسكني؛ متجنباً كل البشر إلا أقل القليل منهم، وعلى مدى أسابيع طويلة لم أقم بزيارة مجاملة للقصر. ثم قمت ذات يوم بزيارة واحد من ضيوف ابن سعود من الأجانب وهو الحاج أجوس سالم من مسلمي أندونيسيا - قيل لي أثناء تلك الزيارة إنه بناء على أمر الملك تم وضع اسمي على قائمة ضيوفه - ويبدو أنه قد نما إلى علمه سبب تخلفي عن الحضور إلى قصره قبل ذلك، وأنه تقبل ذلك بصمت الفاهم لما أعانيه. وهكذا، كنت صيداً لم يتسن له أن يرى مضيفه من قبل. توجهت في الموعد المحدد إلى بيت جميل في جنوب مكة يقع على حافة صخرية تشرف على بداية الطريق المتجة جنوباً إلى اليمن. من شرفات المنزل الرحب تبدو أجزاء ومناطق عظمى من المدينة: مآذن الكعبة، آلاف من البيوت تبدو كمكعبات بيضاء وأسوار شرفات أسطحها مشيدة من أحجار ملونة، خلف البيوت تبدو تلال الصحراء الساكنة تعلوها سماوات متوهجة كمعادن منصهرة.

ربما كنت سأتمادى في تأجيل زيارتي لقصر الملك لو لم أكن قد التقيت بالأمير فيصل مصادفة، والأمير فيصل هو الابن الثاني للملك عبد العزيز، والتقيت به في مكتبة الكعبة الواقعة تحت العقود المحيطة بها. كنت أشعر بمتعة الجلوس في تلك القاعة الطويلة التي تصطف على جدرانها خزائن المخطوطات العربية القديمة، عدا المخطوطات الفارسية والتركية؛ وكان الهدوء المخيم بداخلها وضوؤها الخافت يبثان في نفسي مشاعر من الدعة. في أحد الأيام، كسر الصمت المخيم حفيف ملابس وهمس رجال تسبقهم مجموعة من الحراس: كان الأمير فيصل في مروره المعتاد من خلال المكتبة إلى الكعبة: كان الأمير فيصل طويلاً ونحيلاً وعليه سيماء الجلال والمهابة التي تتجاوز عمره البالغ اثنين وعشرين عاماً على الرغم من أنه كان بلا لحية. ومع صغر سنه، فإنه كان حاكماً للحجاز نائباً عن الملك بعد أن غزاها الملك وأخضعها لحكمه قبل ذلك بعامين (كان سعود، ابن الملك الأكبر وولي العهد، نائباً للملك على نجد، وكان الملك يقضي نصف العام في مكة، عاصمة الحجاز، ونصف العام الآخر في الرياض، عاصمة نجد).

قام أمين المكتبة، وهو أحد باحثى مكة من الشباب جمعتنى به صداقة لحين من الزمن، بتقديمى إلى الأمير فيصل، فصافحنى، وحين انحنيت أمامه، مد يده ورفع هامتى بلطف وابتسامة دافئة تضىء وجهه قائلاً: «نحن أهل نجد لا نحب أن ينحنى رجل أمام رجل آخر، لا ينحنى الرجل لغير الله»، بدا عطوفًا رقيق الحاشية، حالمًا بشكل ما مع بعض التحفظ والحياء.

برهنت الأيام بعد ذلك على صدق انطباعى الأول عن الأمير فيصل بعد أن عرفته شخصيًا معرفة وثيقة دامت لأعوام. كانت هيبته ونبل سلوكه طابعًا أصيلاً فى شخصيته غير مفتعل ونابع من داخله. حين تبادلنا الحديث فى ذلك اليوم فى مكتبة الحرم، شعرت فجأة برغبة عميقة للقاء من أنجب مثل ذلك الأمير.

قال الأمير فيصل: «سيسر الملك لقاؤك، لماذا تتجنب لقاءه حتى الآن؟»

فى الصباح التالى أتى مساعدا الأمير فى سيارة لاصطحابى إلى قصر الملك. شقت السيارة طريقها عبر شارع المعلا التجارى المزدحم بصعوبة، كان الشارع مزدحمًا بالإبل، وكان مركزًا لبيع السلع البدوية بمختلف أنواعها - سروج إبل، عباءات، طنافس، قرب مياه جلدية، سيوف ذات أغمدة فضية، خيام، أباريق القهوة النحاسية - أفضى الطريق التجارى عند نهايته إلى طريق آخر أهدأ وأوسع وأرحب، حتى وصلت السيارة إلى دار كبيرة يقيم بها الملك. كانت أمام الدار أعداد كبيرة من الإبل المسرجة، وعدد من الحراس المسلحين وساسة الإبل يعتنون بها وكان من الواضح أنها إبل ضيوف الملك. انتظرت فى قاعة فسيحة ذات عمد على أرضها أبسطة عادية، وحول الجدران صفت آرائك رحبة مغطاة بمفارش كاكية اللون، ومن النوافذ بدت غصون خضراء لأشجار تقع خارجها، أشجار زرعت بمشقة وعناء فى تربة مكة العصية الزرع. ظهر عبد أسود قائلاً: «الملك يدعوك». دخلت غرفة أخرى أقل مساحة وأكثر إضاءة، وأحد جوانبها مفتوح بأجمعه على الحديقة. كانت الأرض مغطاة بطنافس فارسية ثمينة، وكان الملك جالسًا تحت نافذة عريضة تطل على الحديقة، مربعًا ساقيه على ديوان عريض؛ تحت قدميه جلس سكرتيره يتلقى تعليماته ويدونها. حين دخلت

عليه، نهض فارداً ذراعيه فى ترحيب قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وهى تعنى للضيف أنه إنما نزل بين أهل له، وأنه يخطو فى سهولة ويسر حيث شاء، وهى من أقدم وأحر عبارات الترحيب العربية.

تطلعت فى تعجب لقامة ابن سعود الفارعة. وحين لثمت طرف أنفه وجبهته (كنت على دراية بعادات أهل نجد فى تحية العظماء) كان علىَّ أن أشب على أطراف أصابع قدمى، بينما انحنى هو قليلاً حتى أتمكن من لثم جبهته، ثم أومأ إلى سكرتيره الذى جلس من جديد، ثم أمسك يدى وجذبنى برقة للجلوس إلى جواره. قال الملك: «أمهلنى دقيقة، أوشك على الانتهاء من هذه الرسالة».

استمر فى الإملاء على سكرتيره فى هدوء، وبدأ حواراً معى، دون أن يخلط للحظة بين ما يُمليه وما يوجهه إلىَّ من حديث، وبعد عدة جمل رسمية، قدمت إليه خطاب تعريف بشخصى، بدأ فى قراءته، مما عنى لى أنه يقوم بثلاثة أعمال فى آن واحدٍ، دون أن يقطع إملاءه، أو الاطمئنان على راحتى، ونادى الخدم لتقديم القهوة.

أتيحت لى الفرصة أن أتأمله عن كثب. كان متناسق الأعضاء رغم ضخامته ـ كانت قامته لا تقل عن ستة أقدام ونصف القدم ـ ولا يبدو طول قامته إلا حين ينهض واقفًا، كان وجهه، الذى تحيط به كوفية ذات مربعات تقليدية بيضاء وحمراء يعلوها عِقال منسوج من خيوطٍ ذهبيةٍ، يحمل أمارات الرجولة والقوة. وكانت له لحية وشارب محفوفان على طريقة أهل نجد، وكان عريض الجبهة، ذا أنف مستقيم طويل، أما فمه فقد كان يشى بالرقة لا بالتهاون، وحين يتحدث يبدو وجهه مفعمًا بحيوية فائقة، أما فى أوقات صمته فقد كان يتبدى على وجهه حزن دفين، كأنما انسحب بأفكاره إلى عالم داخلى فريد، وكانت عيناه العميقتان فى محجريهما يشيان بذلك الانطباع. كان بهاء وجهه يتأثر أحيانًا بتعبير غامض يتبدى من جهة عينه اليسرى، التى كان يبدو على سوادها جزء من بياض. وعلمت بعد ذلك بزمن قصة الإصابة التى ألمت بعينه اليسرى، التى يعتقد أغلب الناس أنها إصابة طبيعية. أما الحقيقة، فهى أن تلك الإصابة ألمت به فى ظروف مأساوية، فقد وضعت له إحدى زوجاته من أعوام طويلة مضت بتحريض من

قبيلتها التى لم تكن على وئام مع ابن سعود، مادة سامة فى وعاء البخور، وهو وعاء نحاسى يُسْتَعمل فى المناسبات الاحتفالية لحرق البخور المعطر كعادة أهل نجد، كانت تهدف إلى قتله بذلك السم حين يستنشقه. وطبقًا للتقاليد، لابد أن تبدأ المبخرة أولاً بالملك ثم تمرر بعد ذلك إلى ضيوفه. وحين تنشق أول استنشاقة، أحس ابن سعود على الفور أن هناك شيئًا مريبًا فى البخور فألقى المبخرة بسرعة بعيدًا عنه. كانت يقظته وبداهته سببًا فى إنقاذ حياته، إلا أن عينه اليسرى قد طالها بعض من تلك المادة المسممة فأصابها ذلك التلف وبعض القصور فى الرؤية بالعين اليسرى. وبدلاً من الانتقام من تلك الزوجة كما يفعل غيره من الملوك والحكام، غفر لها؛ فقد كان على يقين من أنها قد تعرضت لضغوط لا قبل لها بها، وأنها كانت ضحية عائلتها التى تنتمى لقبائل ابن رشيد، كل ما فعله أنه قام بتطليقها، وأرسلها إلى قومها فى حائل، محملة بالذهب والهبات.

* * *

بعد ذلك اللقاء الأول، داوم الملك على استدعائى يوميًا على وجه التقريب. ذهبت إليه ذات يوم وأنا أُبيت النية أن أستأذنه فى السماح لى بالرحيل فى رحلة طويلة إلى أعماق الجزيرة العربية لمشاهدة مناطقها المختلفة، وكان أملى ضعيفًا فى نيل تلك الموافقة؛ فلم يكن ابن سعود يسمح للأجانب بزيارة نجد كعُرف متوارث أصبح له قوة القانون. بينما كنت أهم بإخباره عن رغبتى، سدد إلىَّ نظرة بدت وكأنها تنفذ إلى مكنون خواطرى وأفكارى - ثم ابتسم قائلاً :«هل تأتى معنا يا محمد إلى نجد وتمكث معنا بالرياض بضعة أشهر؟» أصابتنى الدهشة كما أصابت الحاضرين، فدعوة مثل تلك إلى أجنبى للإقامة فى نجد لم تقع من قبل على وجه التقريب. أردف قائلاً قبل أن أفيق من دهشتى: «من الأفضل أن تسافر معى بالسيارة فى الشهر القادم».

أخذت نفسًا عميقًا، وأجبته: «أطال الله عمرك يا إمام، ولكن مافائدة السفر بالسيارة لى؟ ما فائدة أن أنتقل بسرعة من مكة إلى الرياض فى خمسة أو ستة أيام دون أن

أشاهد أى مناطق فى البلاد خارج الطريق؟ لن أشاهد من السيارة إلا كثبان الرمال، وربما بعض الناس فى آفاق بعيدة تبدو كالأطياف.. إن لم يكن لديكم مانع، فمن الأفضل لى قطع تلك المسافة على ناقة، وذلك أفضل لى من كل الجوانب يا طويل العمر».

ضحك ابن سعود قائلاً: «أبك هذا الشوق إلى مشاهدة عيون أبناء شعبى من البدو؟ لابد أن أحذرك مقدماً: فالبدو أناس متخلفون، ونجد أرض صحراوية بلا جمال يميزها عن غيرها، وسَرْج الجمل يابس وصلب والطعام شحيح خلال الرحلة ـ لن تجد إلا الأرز والتمر وقد تجد اللحم فى أحيان نادرة. ولكن إن شئت واستقر عزمك على ذلك سأتركك تسافر بالجمال. على أى حال أتمنى ألا يعتريك الندم على معرفتك بشعبى: إنهم فقراء، وجهلاء، إلا أن قلوبهم مليئة بالإخلاص».

بعد ذلك بأسابيع، انطلقتُ من مكة بعد أن منحنى الملك ناقتين وزاداً للطريق وخيمة وأمر بأن يصحبنى دليل ليرشدنى إلى الطريق ووصلت إلى الرياض بعد شهرين من مغادرتى مكة. كانت تلك الرحلة هى الأولى لى عبر الأرجاء الداخلية للجزيرة العربية، المرة الأولى لمرات عديدة ستأتى لاحقًا بعد ذلك: أما الشهور التى طلب منى الملك أن أقضيها معه فى الرياض فقد امتدت إلى أعوام ـ لم أشعر بمرور الزمن، ولم أدر كيف امتد إلى أعوام قضيتها بين أغلب أرجاء المملكة مرتحلاً من مكان إلى مكان. لم يعد السرج يابساً ولا صلباً بأى حال...

* * *

قال العجوز صاحب الملامح الحادة وقائد الجماعة المرتحلة التى قابلتنا: «أطال الله عمر الملك عبد العزيز، فهو يحب البدو، ولذا يحبه البدو» تساءلت فى داخلى: «ولماذا لا يحبونه؟ إن راحة يده هو وإدارته مبسوطة على الدوام لكل بدو نجد، وهى إحدى صفاته التى ذاع صيتها، إلا أن تلك الصفة لم تنل رضاى ولا إعجابى، فكثرة الهدايا والهبات

والأموال التى يغدقها عليهم ابن سعود فى سخاء جعلتهم يعتمدون كليًا على كرمه حتى إنهم فقدوا أى دافع للعمل على تحسين نمط حياتهم بالكد والجهد، وانزلقوا بالتدريج إلى حالة المتلقين لإعانات، وبذلك ظلوا قانعين وراضين بجهلهم وكسلهم.

فى أثناء حديثى مع الشيخ ذى الملامح الحادة، بدا على زيد نفاد الصبر. فبينما كان يتحدث مع أحد الرجال، كانت عيناه تحطان من آنٍ لآخرٍ على وجهى، كما لو كان يذكرنى أن أمامنا طريقًا طويلاً مازال علينا أن نقطعه، وأن تبادل أحاديث الذكريات مع أولئك القوم لن يسرع من خطو الجمال. ركب بدو الشمار ركائبهم وواصلوا مسيرهم باتجاه الشرق وسرعان ما اختفوا خلف التلال. ومن مكاننا وصلت إلى مسامعنا كلمات أغنية بدوية راح واحد منهم يشدو بها، لحث جمالهم على المسير، ودفعًا للل السفر الطويل، وبينما ولينا أنا وزيد وجهينا باتجاه الغرب، إلى تايما، كان صوت الحادى يتلاشى رويدًا رويدًا، حتى اختفى تمامًا وساد الصمت من جديد.

[٣]

ارتفع صوت زيد فجأةً محطمًا الصمت السائد: «انظر، أرنب برى» حولت بصرى بسرعة فرأيت كتلة من الفِراء الرمادى تقفز مندفعة بين تجمع عشبى، فى حين كان زيد ينزلق بسرعة من على سرج ناقته وحل عصا الصولجان التى تثبت مقدم السرج واندفع باتجاه الأرنب مؤرجحًا العصا فوق رأسه ليقذف بها الأرنب، فى اللحظة التى أوشك فيها على قذف العصا، اشتبكت قدمه فى جذر جاف لشجرة حمدة، فسقط منبطحًا على وجهه، بينما اختفى الأرنب فى لمح البصر.

ضحكت، بينما كان زيد ينهض من عثرته، وهو يتطلع إلى العصا التى كانت بيده فى حسرة وأسى وقلت له: «أضعت علينا عشاءً شهيًا، لا عليك يا زيد، من الواضح أن ذلك الأرنب لم يكن من نصيبنا ولا قسمتنا ...».

أجاب بذهن شارد: «لا، لم يكن مقسومًا لنا»، ثم تبينت أنه كان يعرج فى خطواته وعلامات ألمٍ شديدٍ تبدو على وجهه . سألته: «هل أُصبيت قدمك؟».

قال: «كلا، لا شيء، التوى كاحلى فقط، سيتحسن بسرعة»، إلا أنه لم يتحسن. فبعد ساعة وهو على ناقته كان وجهه يطفر بحبات العرق من شدة الألم المتزايد، وحين انتقل بصرى إلى كاحله، وجدته قد تورم بشدة.

قلت: «لا فائدة يازيد من ارتحالنا وأنت على هذه الحال، فلنضع رحالنا هنا، ليلة من الراحة تعيد قدمك سليمة إن شاء الله».

* * *

لم يستقر زيد على حال طوال الليل من شدة الألم جافاه النوم حتى مطلع الفجر، كان تقلبه وتحركاته القلقة من شدة ألمه تقلق نومى الذى لم يكن مريحًا.

عند الفجر قال: «لا أرى إلا ناقة واحدة. وحين تطلعنا حولنا، اكتشفنا أن إحدى الناقتين قد اختفت، وكانت ناقة زيد. أراد زيد أن يركب ناقتى وينطلق باحثًا عن الأخرى التى شردت، إلا أن كاحله المصاب جعل من الصعب عليه حتى الوقوف، ناهيك عن السير وركوب الناقة والنزول عنها.

قلت له: «استرح أنت يازيد، سأذهب أنا للبحث عنها، لن تصعب عودتى، سأرجع مقتفيًا آثار ذهابى».

على ضوء الفجر الوليد ركبت ناقتى وانطلقت باحثًا عن الناقة الشاردة، تتبعت آثار أقدامها على الرمال فى السهل الرملى حتى الكثبان. مضيت لمدة ساعة متتبعًا أثر الناقة، ثم ساعة أخرى، ثم ثالثة، وأثر الناقة ظل ممتدًا إلى مسافات لا تنتهى ولا ألحق بها. أوشك النهار على الانتصاف فتوقفت لالتقاط أنفاسى، ترجلت، أكلت حفنة تمر، وارتويت من قربة الماء المعلقة فى سرج الناقة. الشمس فى كبد السماء، إلا أنها لم تكن بسطوتها المعتادة. كانت سحب داكنة – وهى غير معتادة فى ذلك الوقت من العام – تغطى أجزاءً من صفحة السماء دون حركة، كانت السحب كثيفة بأشكال عجيبة، وهبت ريح شديدة أطاحت بحواف الكثبان الرملية الناعمة.

على قمة تل رملى عال فى مواجهتى ظهر شكل غريب أمامى شد نظرى إليه، هل هى حركة لحيوان؟ هل هى الناقة الشاردة؟ حين دققت النظر، وجدت أن الحركة تنتقل من أعلى التل إلى حافته الجانبية، كانت الحافة تتحرك حركة طفيفة متموجة رقراقة للأمام باتجاهى، مثل حافة موجة تتقدم ببطء. ثم زحفت عتمة حمراء وغطت صفحة السماء كأنها قادمة ونابعة من خلف الكثيب المواجه لى، وأصبح شكل الكثيب فى تلك العتمة الحمراء بلا ملامح ولا معالم، بدا كما لو كان حجابًا قد أُسدِلَ عليه، وامتدت العتمة الحمراء بسرعة وحلّت على كل المرئيات من حولى، ثم هبت على وجهى دفقة قوية من رياح محملة بحبات الرمال، ودارت من حولى فى دوامة شديدة، ثم راحت الرياح تهدر فى عنف من كل الاتجاهات، تكنس وجه الوادى الرملى فى هبات عاتية، وانتقلت الحركة المتموجة التى كانت تبدو على التل المواجه لى وشملت كل الكثبان والتلال الرملية التى يصل إليها بصرى. وخلال دقائق أظلمت السماء وتحولت إلى لون بنى مثل صدأ الحديد المتدرج فى قتامته وامتلأ الجو بدوامات من الرمال الدقيقة وتعلقت فى الجو مثل ضباب أحمر. كانت العاصفة الرملية قادمة وكان كل ما رأيته مقدمتها المنذرة.

ذُعِرَتْ ناقتى الباركة، ارتجفت، حاولت أن تنهض لتركض، إلا أننى قبضتُ على لجامها بقوة، قاومت بكل قوتى لأحافظ على توازنى حتى لا تطيح بى العاصفة العاتية التى تحولت إلى قوة الإعصار، كافحت حتى قيدت قدمى الناقة الأماميتين، ثم قيدت الخلفيتين، ألقيت بنفسى خلفها فوق الرمال ولففت عباءتى حول رأسى ووجهى ودفنت رأسى تحت رقبة الناقة حتى لا أختنق من الرمال الناعمة. أحسست بالناقة وهى تدفن خطمها فى كتفى للسبب ذاته. شعرت بالرمال تتراكم حول جسمى وتدفنه داخلها بوصة بعد بوصة من الجانب البعيد عن الناقة، رحت أغير وضع جسمى مرة بعد أخرى حتى لا تدفننى الرمال الهائجة. لم أصب بخوف ولا وجل، فلم تكن أول عاصفة أصادفها. مكثت منبطحًا، محكمًا لف العباءة حول رأسى ووجهى، ولم يكن هناك ما أفعله غير الانتظار، وهدير الرياح وخفقات جلبابى الذى أصبح مثل شراع مركب حلّت حباله يَصُمّان سمعى، أصبح جلبابى مثل راية خفاقة فى الرياح، مثل رايات القبائل التى تحملها عالية على صواريها فى مسيراتها: ذكرتنى برايات خفاقة رأيتها من خمسة أعوام مضت كان يحملها فرسان نجد من البدو- آلاف منهم وكنت واحداً منهم -

عائدين من عرفات إلى مكة أثناء الحج. كان الحج الثانى لى، وكنت قد قضيت عامًا فى الارتحال بين أرجاء الجزيرة العربية، وقررت العودة إلى مكة فى الوقت المناسب لأشارك فى وقفة عرفات، شرق المدينة المباركة، فى طريق العودة من عرفات وجدت نفسى وسط جمع غفير من بدو نجد يرتدون ملابس الإحرام البيضاء، يركبون جمالهم فى سهلٍ متربٍ ـ بحر متلاطم من الرجال بملابس الإحرام البيضاء، على جمال صفراء بلون العسل، وجمال بنية ذهبية، وجمال بنية داكنة ـ تركض فى هدير وترتج الأرض من ركض آلاف الجمال المندفعة كموجةٍ عاتيةٍ لا يملك لها أحد صداً، وأعلام القبائل مرفوعة عالية تخفق فى الرياح، وهدير أبناء القبائل وصياحهم يُعلن عن قبائلهم ومآثر أسلافهم فى الحروب والنزال، أبناء نجد ينبع الحج والحرب عندهم من منبع الفخر.. أما باقى الحجيج من الأماكن الأخرى، من مصر والهند وشمال أفريقيا ويافا ـ غير المعتادين على ذلك الحماس البدوى – فقد تفرقوا فى ذعر عند اقتراب جحافل الجمال العادية منهم، فلن يظل حيًا مْنِ يقف فى طريق الجمال ومسيرة القبائل الماضية كالرعد، والموت الفورى نصيب من يسقط من على سَرْج جمله وسط آلاف الآلاف من راكبى الجمال العادية كعاصفة.

ومهما كان جنون مْنِ يقومون بتلك الانتقالة الراكبة العاصفة من عرفات إلى مكة، فقد شاركت فيها وانتقلت إلىَّ عدوى حماسها وأسلمت نفسى لجموحها واندفاعها وزئيرها وإحساس بفرحة وسعادة مفرطة يملآن قلبى ـ كانت الرياح التى تمر فوق رأسى وأنا أدفنها فى إبط الناقة تنشد قائلة: «لن تكون أجنبيًا ولا غريبًا بعد الآن.. لن تكون غريبًا أبدًا بين أبناء هذه الأرض...».

لم أعد أجنبيًا ولا غريبًا: أصبحت الجزيرة العربية موطنى. تحول ماضىّ الغربى إلى حلم بعيد ـ لم يصبح حلمًا غير واقعى تمامًا حتى أنساه، كما لم يعد واقعيًا تمامًا ليشكل جانبًا من حاضرى. لا يعنى ذلك بالطبع أننى أصبحت من آكلى اللوتس(*)، بل

(*) شعب ورد ذكره فى أوديسة هوميروس يقتات بأزهار اللوتس ويحيا فى تراخ وكسل نتيجة لذلك.(المترجم)

على العكس، فكلما مكثت عدة أشهر فى إحدى المدن - مثل المدينة على سبيل المثال التى كان لى بها زوجة عربية وطفل ومكتبة مليئة بالكتب عن التاريخ المبكر للإسلام - يزداد قلقى ويعزونى الشغف إلى المغامرة والحركة، وأشتاق إلى جو الصحراء الجاف المنعش، إلى رائحة الإبل وإحساسى بسروجها. من العجيب أن دوافعى الملحة للتجوال، التى كانت تجعلنى لا أستقر فى موضع أغلب فترات حياتى (كنت فى ذلك الوقت قد تجاوزت الثانية والثلاثين من عمرى) كانت تغرينى مرة بعد أخرى وتدفع بى إلى أنواع من المخاطر والمفاجآت المهلكة ومواجهة الموت، وعلى الرغم من ذلك لم تنل تلك المخاطر من تلك الرغبة، كما لم تهن من عزيمتى وتطلعى إلى العثور على مكان أشعر فيه بالاستقرار فى هذا العالم - أن أصل إلى مرحلة أستطيع بعدها أن أخلق علاقة بين ما يحدث لى وبين ما أفكر به وما أحسه وما أرغبه. لو فهمت الأمر على وجهه الصحيح، فإن ما يشكل شخصيتى هو شغفى الشديد باكتشاف عالمى الداخلى، وقد دفعتنى تلك الرغبة إلى عالم مختلف تماماً، مختلف فى مداركه الدفينة وفى مظهره الخارجى، عالم يتباين كلياً مع عالمى الذى ولدت ونشأت فيه فى أوروبا وما كان يمكن أن يشكله ذلك العالم من شخصيتى..

* * *

بعد أن خمدت العاصفة، نزعت جسمى من الرمال التى دفنتنى، كانت ناقتى أيضاً نصف مدفونة فى الرمال، لم يكن هناك أسوأ من تلك التجربة التى لابد أن الناقة قد مرت بها عدة مرات من قبل. من أول نظرة لم يبد أن العاصفة قد تسببت فى أية أضرار باستثناء الرمال المتراكمة فى فمى وأنفى وأذناى، وفقد قربة الماء التى كانت معلقة بسرج الناقة إلى حيث لا أدرى. ولكن سرعان ما اكتشفت خطأ تقديراتى الأولى للخسائر.

لقد تغيَّر شكل ومواضع كل ما كان يحيط بى من كثبان قبل العاصفة، وانمحت تماماً آثار خطوات ناقتى على الرمال، وكذلك آثار خطوات ناقة زيد التى كنت أسعى

خلفها. اكتشفت أننى فى أرض بكر جديدة بمعالم جديدة وتضاريس جديدة وبلا أية آثار قديمة على سطحها، أرض بكر تماماً.

لم يعد هناك ما أفعله إلا محاولة العودة إلى مكان خيمتنا - حيث تركت زيد - بالاستعانة باتجاه حركة الشمس والحس الداخلى الغريزى بالاتجاهات عند مَنْ اعتادوا قطع الصحارى والترحال عَبْرها، إلا أن الوسيلتين لا يمكن الاعتماد عليهما تماماً، فكثبان الرمال تعوق السَيْر فى خطٍ مستقيمٍ فلا تستطيع المحافظة على الاتجاه الذى خمنته إذ لابد من الدوران حولها.

أصابتنى العاصفة الساخنة بعطش شديد، توقعت أننى لا أبعد عن موضع خيمة زيد إلا بمقدار ساعات، وكنت قد شربت آخر جرعة ماء من قربتى الصغيرة منذ ساعات. خمنت أننى لا أبعد كثيراً عن موضع الخيمة؛ وعلى الرغم من أن ناقتى أيضاً لم ترتو من يومين منذ آخر مرة توقفنا فيها عند بئر، فإن الجمال ذات بأس فى احتمال العطش وقطع المسافات الطويلة ويمكننى أن أعتمد عليها حتى أصل إلى زيد. وجهت خطم الناقة فى الاتجاه الذى خمنت أننى سأجد فيه زيد وخيمتنا، وقُدتها فى خَطْوٍ سريعٍ.

مرت ساعة ثم ساعتان ثم ثلاث ساعات، ولا أثر لزيد ولا الخيمة. لم تكن التلال الرملية برتقالية اللون تشكل معلماً ذا قيمة؛ فكلها تقريباً ذات شكل موحد.

فى وقت متأخر من العصر وصلت إلى موضع صخرى من الأرض يبرز فوق سطح الرمال، كان من صخور الجرانيت، والجرانيت من الصخور النادرة وسط ذلك البحر اللانهائى من الرمال، وتذكرت تلك المنطقة ذات الصخر على الفور: لقد مررنا بها أنا وزيد عصر البارحة، وكانت على مسافة يسيرة من الموضع الذى أقمنا خيمتنا به. أحسست براحة عميقة - بدا لى أنه لم يعد من الصعب الوصول إلى موضع الخيمة إذا سرت فى اتجاه الجنوب الغربى كما فعلنا البارحة حين كنا عند تلك الصخرة.

كنا قد قطعنا المسافة أنا وزيد من عند الصخرة إلى مكان خيمتنا فى ثلاث ساعات، ولكن بعد أن سرت بالناقة ما يزيد على ثلاث ساعات لم أجد أثراً للخيمة ولا لزيد. هل

فقدت الاتجاه مرة أخرى؟ حثثت السير باتجاه الجنوب الغربى الذى حافظت عليه على الدوام، مسترشداً بموضع الشمس، ومرت ساعتان بلا أى أثر للخيمة ولا لزيد. حلَّ عليَّ الظلام، ولم يكن ملائماً مواصلة السير؛ كان من الأفضل أن أستريح حتى يشرق نور النهار. ترجلت عن راحلتى، عقلتها، حاولت أن آكل حفنة من التمر، إلا أن عطشى كان شديداً فوهبتها للناقة، وتمددت لاصقاً جسمى ببدن الناقة.

نمت نوماً متقطعاً غير مريح، لم يكن استغراقاً فى النوم كما لم يكن يقظة واعية، امتلأ نومى بأحلام مزعجة نتيجة لإنهاك بدنى، وكان نومى متقطعاً من شدة عطشى الذى تحول إلى نوع من الألم؛ عدا ذلك، كان فى الأعماق الداخلية الدفينة التى لا يتوصل المرء إلى كُنهها، والتى يخشى المرء أن يكشف عنها حتى لذاته، خوفُ هلامى رمادى خجول، يتوارى إلا أنك تشعر بوجوده فى الأعماق: ما الذى يحدث إذا لم أصل إلى زيد والخيمة وقربة الماء؟ بقدر ما أعلم، لا يوجد ماء، ولا مأوى لبشرٍ على مسيرة أيام فى كل الاتجاهات.

عند الفجر نهضت من جديد، أعدت حساباتى أثناء الليل وخمنت أننى ابتعدت كثيراً إلى الجنوب، وأن زيداً والخيمة فى مكان ما إلى الشمال والشمال الشرقى من موضعى. وجهت الناقة إلى اتجاه يقع ما بين الشمال والشمال الشرقى وأنا عطشان ومُنهَك وجائع، أمضى فى خطوط متعرجة حول الكثبان من وادٍ إلى وادٍ، أدور حول الكثبان مرة إلى اليسار ومرة إلى اليمين. عند الظهر توقفت لأستريح، كان لسانى قد التصق بحلقى وشعرت به مثل جلد جاف قديم متشقق، وحلقى ينبض بالألم وعيناى ملتهبتان، التقصت ببطن الناقة، وسحبت عباءتى ولففت بها وجهى ورأسى، حاولت أن أنام، إلا أن النوم لم يواتنى، بعد الظهر بدأت السير من جديد، ولكن فى اتجاه أميل إلى الشرق - أيقنت أننى مضيت باتجاه الغرب أكثر مما ينبغى - إلا أن الخيمة وزيد لم يظهرا فى أى أفق.

حلت ليلة جديدة، تحول العطش إلى عذاب وألم مبرح، وبلغ الاشتياق إلى جرعة ماء أشده، رغبة ملحة استحوذت على عقلى وفكرى، اختفت وتلاشت أى رغبات وأفكار

أخرى عداها. بمجرد أن أضاء الأفق بنور الفجر الوليد، ركبت من جديد حتى طلع الصباح، سرت حتى الظهر، واصلت المسير حتى العصر، ولا جديد يلوح فى الآفاق إلا كثبان رملية وحرارة محرقة. كثبان بعد كثبان بلا نهاية، أم ربما كانت تلك هى النهاية؟ نهاية كل الطرق التى سلكتها، ونهاية كل ما أسعى إليه وكل ما تمنيت تحقيقه؟ ونهاية انتمائى إلى شعب لن أصبح غريباً عنه بعد الآن؟ دعوت من أعماقي: «يارب، لا تجعلنى أنتهى بهذه الوسيلة...».

فى العصر ارتقيت كثيبًا عاليًا علّى أتمكن من إلقاء نظرة أشمل على الأنحاء من حولى، لمحت بقعة داكنة فى الشرق البعيد، كدت أصيح فرحًا، إلا أننى كنت أضعف من القيام بذلك، لابد أن اللون الداكن هو الخيمة، وزيد، والقربتان الكبيرتان المليئتان بالمياه.

كانت ركبتاى ترتجفان حين ركبت ناقتى. سرت ببطء وحرص فى اتجاه البقعة الداكنة حتى لا أفقد الاتجاه، بكل تأكيد ليست البقعة الداكنة إلا الخيمة وزيد. فى تلك المرة سرت فى خط مستقيم، لا أدور حول التلال والكثبان بل أصعد فوقها وأنحدر عنها وكان ذلك يضاعف المسافة، إلا أن الأمل يحثنى أنه خلال ساعتين على أكثر تقدير، سأصل إلى الماء. بعد أن عبرت آخر كثيب، أصبح الهدف أشد وضوحًا أمامى، شددت لجام الناقة، ورحت أتأمل ذلك الشيء الداكن الذى كان يبعد نصف ميل، أوشك قلبى على التوقف: فالشكل الداكن لم يكن إلا البروز الصخرى الجرانيتى الذى مررت به أنا وزيد من ثلاثة أيام ومررت بها بمفردى من يومين مضيا...

على مدى يومين كنت أهيم فى دائرة.

[٤]

حين انزلقت من فوق ظهر الناقة، كانت قوتى قد تلاشت، لم أعبأ بأن أعقل الناقة، كانت هى الأخرى فى حالة من الإجهاد تمنعها من الشرود. بكيت، إلا أن عينى الجافتين المتورمتين لم يكن بهما دمعة واحدة.

كم مضى علىَّ من زمنٍ حين بكيت آخر مرة... بدت كل حياتى وكأنها ماضٍ سحيق البعد، كل شىء أصبح ماضياً، لا يوجد حاضر. لا يوجد إلا عطش، وحر لافح، وعذاب.

أمضيت حتى الآن ثلاثة أيام بلا قطرة ماء، وخمسة أيام من آخر مرة ارتوت فيها الناقة. قد تتحمل العطش ليوم آخر، أو يومين، أما أنا فلن يمكننى الاحتمال أكثر من ذلك، ربما يصيبنى الجنون قبل الموت، وقعت آلام بدنى فى شراك الرعب الذى ألم بعقلى، كان كل منهما يصب فى الآخر وينميه، ذبول وزواء وتمزق...

أردت أن أستريح، إلا أننى كنت على يقين من أننى لو استرحت الآن لن أنهض بعد ذلك أبداً، جررت أقدامى المتثاقلة وركبت الناقة، أجبرتها بالضرب والنخس على النهوض، أوشكت على السقوط من فوق السرج حين مالت للأمام وهى تنهض على ساقيها الخلفيتين، وكدت أسقط للخلف حين نهضت على قائميها الأماميين. تحركت الناقة بتثاقل باتجاه الغرب المنشود، ياللسخرية، ما الذى يعنيه «الغرب المنشود» فى هذا البحر المخادع المتماوج من الرمال؟ إلا أننى كنت أتوق إلى الحياة. هكذا مضيت مضنياً متهالكاً، نمضى أنا والناقة متثاقلين بما تبقى فينا فى ظلام الليل. لابد أن الصباح كان قد أشرق حين تهاويت ساقطاً من على السرج. لم تكن السقطة عنيفة؛ كانت الرمال ناعمة فاحتضنتنى برفق، ظلت الناقة واقفة بموضعها لفترة، ثم انهارت من عليائها باركة على ركبتيها ثم رقدت إلى جوارى مادة عنقها على الرمال. تهاويت أنا فى منطقة الظل الضيقة التى كونها جسم الناقة وأنا ملتف بالعباءة محتمياً بها من حرارة الشمس ومن آلام بدنى ومن العطش والخوف النابعين من داخلى. لم يعد لدىَّ أى قدرة على التفكير بل حتى لم أعد قادراً على إغلاق عينى. كل حركة جفن أضحت كحديد محمى يجرى على صفحة العين. عطش وحر، عطش وصمت قاتل، صمت جاف يابس يحش كالمنجل ويكفنك فى وحدة ويأس، صمت يجعل من تدفق دمائك فى أذنيك ومن زفرة الناقة من حين إلى آخر يبدوان بشكل محدد كأنها آخر أصوات تسمعها على الأرض، وأنا كلاينا، الإنسان والحيوان، آخر كائنات حية، آخر كائنات مشئومة على الأرض.

فى الأعالى من فوقنا، فى بحار الحر اللافح فى صفحة السماء، حَوَّم نسرٌ فى بطء دون أن ينقض علينا، كأنه رأس دبوس على صفحة سماء شديدة الشحوب، منطلق بحرية فوق كل الآفاق...

تورّم حلقى، انقبض وضاق وانغلق، كل شهيق أتنفسه كان يغرس آلافًا من الإبر الشائكة المؤلمة من قاعدة لسانى حتى طرفه - ذلك اللسان - الذى كبر وتضخم، والذى يجب ألا يتحرك، إلا أنه لا يكف عن الحركة المؤلمة، للخلف داخل الحلق، ثم للأمام، كمبرد خشن فى تجويف جاف. كان كل ما بداخلى يحترق ويعتصر فى قبضة آلام لا تتوقف. لثوان تحولت السماء التى كانت بلون الفولاذ إلى لون أسود حالك. تحركت يدى بلا إرادة منى ومرت على العلامة المثبتة على سرج الناقة، ثم توقفت عن الحركة، موجة إدراك باهت هبت على عقلى الضبابى وبرزت من بينها خمس طلقات موجودة ببندقيتى مع فكرة غائمة عن النهاية السريعة لآلامى التى يمكن أن أتجنبها بضغطة على زنادها... همس هاتف بداخلى: أسرع، تناول البندقية قبل أن تفقد القدرة نهائيًا على تحريك يدك، ثم شعرت بشفتىّ تنفرجان وتتمتمان بكلمات دون صوت، كلمات تأتى من حشايا وأعماق ميتة فى ثنايا عقلى: «لنبلونكم.. سنبلونكم..»، اكتسبت الكلمات التى كانت غامضة شكلاً وصوتًا وتدفقت فى شكل ومعنى.. فى آية من آيات القرآن، راحت تترى على شفتى وفى أعماقى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾. صدق الله العظيم.

كل ما أحسه أصبح ملتهبًا يسبح فى ظلام دامس، من وسط الظلام الملتهب أحسست بنسمات هواء بارد، وسمعت حفيفه الحانى - حفيف هواء عليل يهب على أشجار حافة جدول ماء، والماء يتدفق فى تيار جارٍ بين ضفتين معشبتين، كان المكان هو مسقط رأسى، وأنا مستلق على الضفة صبيًا صغيرًا فى التاسعة، ألوك سيقان العشب والحشائش وأتطلع إلى أبقار بيضاء ترعى بالقرب منى وفى عيونها دعة وهدوء واستكانة وبراءة الرضا. على مسافة كانت هناك نساء قرويات يعملن فى حقل، كانت إحداهن تربط منديلاً أحمر على رأسها وترتدى تنورة زرقاء ذات خطوط عريضة بيضاء، على حافة الماء أشجار صفصاف باسقة، فوق صفحة الماء تطير بطة بيضاء، ترتعش صفحة الماء تحت وقع خفقات أجنحتها، هواء عليل يهب على وجهى كزفير

الحيوانات: آه، حقًا، كان زفير حيوان: كانت بقرة بيضاء ببقع بنية قد دنت من وجهي، كانت تمس وجهي برفق، وتزفر من خطمها، شعرت بحركة أقدامها إلى جواري....

فتحت عيني، شعرت بزفرة بعيري وحركة أقدامه بجواري. كان قد نهض نصف نهوض على ساقيه الخلفيتين ورقبته ورأسه مرفوعان، اتسعت فتحتا أنفه كأنه يشم رائحة طيبة ظهرت فجأة في هواء الظهيرة. زفر بقوة من جديد، أحسست بتموجات الإثارة التي تجتاح رقبته باتجاه أكتافه وتنساب إلى جسده نصف الناهض.

كنت قد رأيت جمالاً قبل ذلك تزفر وتشخر حين تشم رائحة الماء بعد أيام طويلة في الصحراء، إلا أن هذه المرة لم يكن هناك ماء... أم ترى أن هناك ماءً؟ رفعت رأسي وتابعت الاتجاه الذي أدارت الناقة رأسها. كان بذلك الاتجاه كثيب رملي قريب واطئ تعلوه صفحة سماء فولاذية خالية ولا صوت من أي اتجاه. ولكن كان هناك صوت، صوت خافت يشبه تردد وتر قيثار بعيد، خافت رقيق وعميق، كان الصوت آتيًا بالكاد من خلف الكثيب، بدا قريبًا جدًا بعد لحظة.. ولكني أدركت في جزء من ثانية - أنه أبعد من إمكان الوصول إليه، وأبعد من المدى الذي يمكن أن يبلغه صوتي المحبوس في أعماقي. أدركت أن هناك بشرًا على مسافة ما، ولكن يستحيل أن أصل إليهم، بل لم يكن بإمكاني أن أقف على قدمي من ضعفي وهزالي، ظهر الصوت أكثر رقة، كان البدو ينشدون أثناء ترحالهم على إيقاع خطو الجمال. حاولت أن أصيح فلم يخرج من حلقي صوت. اصطدمت يدي بطريقة آلية بقربينتي(*) المعلقة بالسرج... بعين خيالي رأيت الطلقات الخمس الموجودة بها.. بجهد فائق رحت أحلها. كان حمل طلقة يماثل رفع جبل وطيد، نجحت آخر الأمر، أسندت القربينة على كعبها وأطلق طلقة رأسية في الهواء. دوت الطلقة في الهواء كالعواء. جذبت الشاحن وأطلقت طلقة ثانية، وأصخت السمع. توقف الغناء الذي كان يشبه القيثار. للحظات لم يكن هناك إلا صمت عميق. فجأة ظهر فوق الكثيب رأس رجل، ثم ظهر كتفاه، ثم رجل آخر إلى جواره. نظرا إلى أسفل للحظة، ثم استدارا وصاحا بكلام ما إلى أشخاص في الجانب الآخر من الكثيب، ثم انزلق الرجل المتقدم عاديًا إلى أسفل باتجاهي.

(*) القربينة : سلاح ناري قديم يجمع بين البندقية والمسدس . (المترجم)

بعد لحظات كان هناك تجمع حولي: اثنان، ثلاثة رجال ـ ما هذا الزحام بعد الوحدة الطويلة؟ كانوا يحاولون رفعي، كانت حركتهم مضطربة.. شعرت بشيء بارد حارق، شيء مثل الثلج والنار في آن واحد على شفتي، رأيت وجهًا بدويًا ذا لحية ينحني فوقي، كانت أصابعه تعتصر قطعة مبللة من القماش القذر بين شفتي، ويده الأخرى تحمل قربة ماء مفتوحة الفوهة، تحرك فمي غريزيًا باتجاه فوهتها، إلا أن البدوي دفعني برفق بعيداً عنها. غمس القماش في الماء وقطره قطرات بين شفتي. حاولت أن أضغط فكي لأمنع الماء من الوصول إلى حلقي الملتهب، إلا أن البدوي ضغط فكي لإبعادهما عن بعضهما ثم قطر بعض قطرات أخرى في فمي.. لم يكن ماء: كان رصاصًا مصهوراً. لماذا يفعلون ذلك بي؟ أردت أن أفر من ذلك العذاب، إلا أنهم أعادوني إلى موضعي، أولئك الشياطين.. جلدي يحترق. كل بدني يسبح في لهب حارق، هل ينوون قتلي؟ آه لو كانت لدي القوة والقدرة على جذب قربينتي للدفاع عن نفسي، إلا أنهم لا يدعونني أنهض: أمسكوني على الأرض وفتحوا شفتيَّ وفمي بالقوة من جديد وسكبوا بعض الماء، وكان لابد أن أبتلعه ـ للغرابة الشديدة لم يكن حارقًا كما كان من لحظات مضت، كما راحت الكوفية المبللة التي وضعوها حول رأسي تبعث فيَّ إحساسًا بالراحة، وحين صبوا بعض الماء على ملابسي، كان إحساسي بالملابس المبللة يبعث في بدني رعشة لذة ممتعة...

ثم ساد الظلام، كنت أسقط، وأستمر في السقوط في جب عميق، وكانت سرعة سقوطي تجعل الهواء يدوي في أذنيَّ، وتحول الدوي إلى ضجيج، ضجيج من سواد وظلام، ظلام، ظلام.

[٥]

ظلام، ظلام، ظلام رقيق بلا صوت، ظلام حنون ودود يضحك مثل غطاء دافئ؛ ويجعلك تظل متدثرًا به على الدوام، خليط من الإجهاد والنوم والخمول، إحساس بأنه لا حاجة لك إلى فتح عينيك ولا حتى تحريك إصبع، إلا أنك تجد نفسك تفتح عينيك وتحرك

ذراعك، لا ترى إلا ظلاماً فوقك، ظلاماً منسوجاً تصنعه خيمة بدوية تجدها فوق رأسك، خيمة من شعر الماعز الأسود، خيمة بفتحة أمامية ضيقة يظهر منها جانب من صفحة السماء مرصعة بنجوم لا حصر لها، وتحتها انحناء رقيق لحافة كثيب رملى يتألق تحت ضوء النجوم... أظلمت فتحة الخيمة وشغلها جسم رجل يقف بها، كان إطار عباءته الخارجي يرسم صورة محددة على صفحة السماء من خلفه، ثم سمعت صوت زيد يقول فى فرح وتعجب: «لقد استيقظ، لقد استيقظ» دنا بوجهه الحازم الجاد من وجهى وأمسك كتفىّ بكفيه، دخل الخيمة رجل آخر، لم أتمكن من رؤيته بوضوح، وبمجرد أن تحدث بتلك اللهجة البطيئة الوقورة عرفت أنه بدوى من قبائل شمار.

من جديد شعرت بعطش حارق، وجذبت بلهفة إناء الحليب الذى مده زيد باتجاهى، تجرعته فى نهم ولم أشعر بأى ألم عند البلع، فى حين راح زيد يقص علىّ كيف تصادف أن حطت جماعة البدو رحالها بالقرب منه حين هبت العاصفة، وكيف عادت ناقته الشاردة من تلقاء ذاتها أثناء الليل، ولما قلقوا على مصيرى، خرجوا جميعاً للبحث عنى، وبدأوا يفقدون الأمل بعد مرور ثلاثة أيام على غيابى، ثم سمعوا صوت الطلقات التى أطلقتها من خلف الكثيب الرملى.. وعلمت منه أنهم أقاموا الخيمة فوقى فى المكان الذى عثروا علىّ فيه وأمرونى أن أظل بها طوال الليل والنهار التالى. لم يكن أصدقاؤنا البدو في عجلة من أمرهم، وكانت قربهم مليئة بالمياه، بل إنهم وهبوا ثلاث قرب لناقتى العطشى: كانوا يعلمون أن هناك واحة على مسيرة يوم واحد باتجاه الجنوب، حيث الماء ونباتات الحمدة التى ترعى عليها الإبل.

عاوننى زيد فى الليل على الخروج من الخيمة، مد لى بطانية فوق الرمال، تمددت فوقها تحت النجوم الساطعة.

* * *

بعد ساعات لا أدرى عددها استيقظت على قعقعة أقداح القهوة بيد زيد؛ كانت رائحة القهوة الطازجة مثل حضن امرأة. ناديت: «زيد»، أدهشنى بسعادة أن صوتى على الرغم من ضعفه الواضح قد فقد حشرجته: «أعطنى بعض القهوة».

رد زيد: «بالله سأفعل ياعمى»، كان قد نشأ على عادة عربية أصيلة فى مخاطبة مَنْ يُظهِر لهم التبجيل والاحترام بلقب العم، سواء كان أكبر أو أصغر منه عمرًا (بالمناسبة، كنت أصغر من زيد ببضعة أعوام)، استطرد: «سأعطيك قهوة بقدر ما يود قلبك».

احتسيت القهوة، وتطلعت إلى وجه زيد الملىء بسعادة رزينة، قلت له: «لماذا يا أخى نعرض أنفسنا لهذه المهالك بدلاً من المكوث فى بيوتنا مثل العقلاء من الناس؟

رد زيد: «لأنه لا يليق بنا أن ننتظر فى بيوتنا حتى تتيبس أعضاؤنا وتجتاحنا الشيخوخة. عدا ذلك، ألا يموت الناس أيضًا فى بيوتهم؟ ألا يحمل الناس مصائرهم حول أعناقهم أينما كانوا؟»

كانت الكلمة التى استعملها زيد للدلالة على المصير هى كلمة قسمة المعروفة فى الغرب فى شكلها التركى «قسمت». بينما كنت أرتشف قدحًا آخر من القهوة، جال بخاطرى أن ذلك التعبير العربى يحتوى على معنى مختلف وأعمق: «وهو ما يكون للمرء فيه نصيب أو حصة».

«مالك فيه نصيب».

أصابت الكلمات وترًا رقيقًا مراوغًا فى ذاكرتى... وابتسامة عريضة كانت تصاحب ذلك القول حين سمعته أول مرة... ابتسامة تبدو مْنِ خلف سحابة من الدخان، دخان له رائحة نفاذة، مثل دخان الحشيش: بلى - كان دخان الحشيش، وكانت الابتسامة لواحد من أغرب مْنِ رأيت وقابلت، الذى التقيت به بعد مرورى بتجربة غريبة وخطيرة: كنت أحاول النجاة من خطر يبدو محيقًا - يبدو فقط - فهرعت فى سباق محموم فى فرارى منه دون أن أدرى إلى أحضان خطر حقيقى كدت ألقى فيه حتفى - وقادنى كلاهما - الخطر المفترض، والخطر الحقيقى الذى كنت غافلاً عنه إلى نجاتى من موت محقق...

كان ذلك من ثمانية أعوام مضت، كنت متوجهًا على جواد بصحبة خادمى التترى إبراهيم من شيراز إلى كيرمان جنوب إيران - كانت كيرمان مدينة نائية قليلة السكان، وليس لها طريق ممهد يؤدى إليها وتقع على بحيرة نيريس. كنا فى الشتاء، وكانت

الأرض موحلة غارقة في طين وماء، وكانت المنطقة عبارة عن سهول واسعة ممتدة بلا قرى فى أى جوار قريب، يحدها من الجنوب «كوح - إى - جشنجان»، والتى تعنى «جبال الجياع»، وفى اتجاه الشمال تتلاشى الأرض متحولة إلى مستنقعات تحيط بالبحيرة. فى عصر ذلك اليوم درنا حول تل منعزل، فبرزت البحيرة فجأة أمامنا: سطح هائل من المياه الساكنة الراكدة خضراء اللون، بلا صوت، وبلا نفس، وبلا حياة، مياهها شديدة الملوحة حتى إنه لا يمكن لأى نوع من الأسماك أو الأحياء المائية أن يحيا بها. أما سواحل البحيرة فلم يكن عليها إلا بعض الشجيرات المتاقزمة والأعشاب الصحراوية، فلم تكن التربة الملحية المجاورة لشواطئ البحيرة تسمح لأى نوع من النباتات بالنمو كان سطح الأرض مغطى بجليد مختلط بالطين وعلى بعد مائتى ياردة من موضعنا، ظهر أثر ممر ضيق يفصل البحيرة عن المستنقعات ويسلكه المسافرون.

حلّ المساء، ولم نصل بعد إلى «خان - إى - خيت»، وهى استراحة على الطريق يقضى فيها المسافرون الليل. كان علينا أن نصل إلى ذلك الخان بأى ثمن؛ فلم يكن بتلك الأصقاع أي مأوى آخر، كما كان قربنا من المستنقعات يجعل من استمرارنا فى السير ليلاً فى غاية الخطورة. وبالفعل، كان بعض أهل المنطقة قد حذرونا فى الصباح ألا نسافر وحدنا بذلك الطريق، فأى خطوة غير محسوبة قد تقودنا إلى الغرق فى المستنقعات. عدا ذلك، كانت خيولنا قد أصبحت فى غاية الإجهاد بعد سير طويل مرهق على أرض رخوة، وكانت لابد أن تستريح هى الأخرى وتقتات لتسترد عافيتها.

مع حلول الظلام تساقط مطر غزير. مضينا راكبان مبللان ومكتئبان وصامتان، معتمديّن على غريزة الخيل فى معرفة الاتجاهات أكثر من اعتمادنا على أبصارنا التى لم تكن تميز شيئًا فى ذلك الظلام الدامس. مرت ساعات ولم يظهر أى أثر للخان. ربما نكون قد تجاوزنا لا فى الظلام ونقضى الليل فى العراء تحت وابل منهمر من الأمطار التى كانت تزداد ساعة بعد أخرى... خاضت حوافر الخيل فى المياه، والتصقت ملابسنا بأبداننا بعد أن تشبعت بالمياه. بدت لنا أشكال سوداء وداكنة فى ظلام الليل تحت وشاح من سيل مياه الأمطار، ارتجفنا حتى العظام، وجعلنا إدراكنا أن المستنقعات

قريبة منا نرتعد أكثر خوفًا من السقوط فيها .فإذا انحرفت الجياد فى أى ثانية عن طريقها كما قال لنا أهل المنطقة فى الصباح، إذن «فليرحمك الله».

كنت أقود فى المقدمة، وإبراهيم من خلفى ربما على مسافة عشر خطوات. مرة بعد أخرى راح ذلك الخاطر يطوف بذهنى: هل تجاوزنا خان - إى - خيت فى هذا الظلام الدامس؟ ياله من احتمال مرعب، أن يفرض علينا قضاء الليل تحت تلك الأمطار الباردة؛ وإن تقدمنا أكثر من ذلك هناك احتمال سقوطنا فى المستنقعات.

فجأة، سمعت صوتًا ناعمًا كأنه خوض حوافر الجواد فى طين أملس طرى؛ وأحسست بجوادى وكأنه ينزلق على وحل لزج، وغطس قليلاً، ورفع إحدى قائمتيه فى خوف وفزع، لينزلق من جديد، اخترق الاحتمال ذهنى فى قسوة: المستنقع! جذبت اللجام بشدة وشددت كعبى بقوة إلى بطن الحصان الذى رفع رأسه عاليًا وبدا فى جذب قوائمه فى غضب وتخبط. انبثق العرق البارد من كل مسام جسمى. كانت ليلة حالكة الظلام حتى إننى لم أتمكن من رؤية كفى، فى غمرة تقلصات جسد حصانى المنتفضة أحسست أنه يناضل نضالاً يائسًا ضد الغوص فى أعماق المستنقع. وبلا تفكير جذبت السوط المعلق بجانب الحصان ورحت أسوطه على قائمتيه الخلفيتين بكل ما أوتيت من قوة لأدفعه لبذل أقصى ما لديه من قوة - فإن توقف عن المسير لابد أن تبتلعه مياه المستنقع وأنا معه بالطبع إلى أعمق أعماق بطن أوحال المستنقع... قفز الجواد الذى لم يتعود على ذلك الضرب المجنون - وكان من خيول كاشجاى التى تتميز بالسرعة والقوة - على قائمتيه الخلفيتين، إلى أرض صلبة استقرت عليها كل قوائمه من جديد، قفز وانزلق، وجر نفسه للأمام من جديد، لينزلق مرة أخرى وطوال الوقت كانت قوائمه تقاوم بيأس ذلك الغرين اللزج فى شبه سيولة.

اندفع شىء ما لم أتبينه فى الظلام بقوة فوق رأسى مصدرًا حفيفًا... رفعت ذراعى لحماية رأسى فتلقيت عليه ضربة مؤلمة لم أعرف مصدرها.. من أين؟ تراكمت الأفكار والاحتمالات بسرعة فوق بعضها فشتت فكرى.. من بين أصوات تساقط قطرات المطر ولهاث الجواد استطعت أن أميز لثوان بدت كأنها دهور، صوت شفط المستنقع لنا...

أيقنت أن النهاية قد حانت. خلصت ساقى من الرِكاب استعداداً للقفز من فوق صهوة الجواد لأجرب حظى فى النجاة بنفسى - ربما أستطيع النجاة لو تركت جسمى ممداً على صفحة المستنقع - على حين غرة وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة صدر عن حوافر الجواد صوت ارتطامها بأرض صلبة، مرة، مرتين... بزفرة راحة عميقة، جذبت العنان وأوقفت الجواد المرتعد. لقد نجونا..

فى تلك اللحظة فقط تذكرت مرافقى فى السفر وناديته فى الظلام وأنا أفيض رعباً: «إبراهيم»، ولم أسمع رداً. وغمرت برودة قاسية أعماق قلبى، ناديت من جديد: «إبراهيم» - لم يكن حولى إلا ظلام دامس وسيل أمطار منهمر. ألم يتمكن من النجاة؟ بصوت متحشرج من الخوف ناديت: «إبراهيم».

ثم سمعت مالم أصدقه فى البداية، فقد أتانى صوته من مسافة بعيدة إلى الخلف: «هنا... أنا هنا».

وهنا وقف عقلى عند تفسير لكيفية انفصالنا بمثل هذه المسافة الطويلة. ناديت من جديد: «إبراهيم».

أتانى صوته من جديد: «هنا... هنا» - اتجهت إلى مصدر الصوت بعد أن ترجلت عن جوادى وسحبته من عنانه مختبراً بحرص كل بوصة من الأرض، سرت ببطء متناه وعناية شديدة صوب الصوت البعيد: حتى وصلت إلى إبراهيم الجالس بهدوء فوق سرج جواده.

بادرته: «ما الذى حدث لك يا إبراهيم؟ ألم تنزلق أنت أيضاً إلى المستنقع؟»

رد متسائلاً: «مستنقع؟! كلا - لقد وقفت فى موضعى حين وجدتك تركض بالجواد فجأة مبتعداً عنى».

أركض مبتعداً؟.. فهمت سر اللغز. لم يكن كل كفاحى للنجاة من المستنقع إلا ثمرة تخيلاتى. لقد خطا جوادى داخل بقعة طينية خلت عندها أننا سقطنا فى المستنقع، فسطت الجواد وجعلته يركض بجنون، وخدعنى الظلام حين فسرت ركض الجواد بأنه

صراع يائس للنجاة من المستنقع ورحت أركض به فى الظلام، غير مدرك لوجود الأشجار المتأقزمة المنتشرة بالوادى... تلك الأشجار، لا المستنقع، كانت هى الخطر الحقيقى الذى كاد يودى بحياتى أثناء عدوى بالجواد: وفرع الشجرة الذى ضرب ذراعى كان من الممكن أن يكون فرعًا أضخم يحطم رأسى أثناء عدوى المجنون بالجواد فى الظلام الدامس وبذلك أصل برحلتى إلى نهاية محتومة فى لحد بلا شاهد فى جنوب إيران...

كنت حانقًا على نفسى، وتضاعف حُنقى لأننا فقدنا الإحساس بالاتجاه بعد ركضى المجنون بالجواد وأصبح من المستحيل الآن أن نعثر على الممر الذى كنا نسير به قبل ذلك، أى أنه يستحيل الآن أن نعثر على الخان... مرة أخرى كنت على خطأ..

فقد ترجل إبراهيم عن جواده ليجس الأرض بيده ويفحصها ربما يعثر على أثر للممر الذى كنا نسير عليه؛ وبينما كان يزحف بتلك الطريقة على يديه وركبتيه، اصطدم رأسه فجأة بجدار - كان الجدار هو الجانب المظلم من خان - إى - خيت.

لو لم أكن قد تخيلت أنى قد سقطت فى المستنقع، ربما كنا قد سرنا متجاوزين الخان، وكنا ضعنا بالفعل فى المستنقع الذى كان على بُعْد مائتى ياردة فقط من الخان كما علمت بعد ذلك...

كان الخان أحد المبانى القديمة من عصر شاه عباس الأعظم - كان مكونًا من حجرات عظيمة الاتساع مشيدة من الحجارة وممرات مسقوفة بينها، كانت الأبواب قد أصبحت متهالكة والمدافئ متداعية. فى أماكن متفرقة لا تزال توجد آثار نقوش فنية قديمة فوق أقواس الأبواب وخزف شققه القدم؛ أما الحجرات القليلة الصالحة للإقامة فقد كانت مفروشة بالقش المخلوط بروث الخيول الجاف. حين دخلنا أنا وإبراهيم القاعة الرئيسية، وجدنا المشرف على الخان يجلس بجوار نار مشتعلة على الأرض، إلى جواره كان هناك رجل حافى القدمين ضئيل الحجم يرتدى معطفًا باليًا كثير الرقع. حين رأيانا نهضا، وانحنى الرجل الضئيل برزانة أقرب إلى تمثيل المسارح وهو يضع راحة يده اليمنى فوق موضع قلبه. كان معطفه مرقعًا بقطع كثيرة من أقمشة مختلفة الألوان

والأنواع؛ كان قذراً، أشعث، إلا أن عينيه تميزتا بحيوية فائقة فى وجه هادئ مرتخى الملامح.

غادر المشرف القاعة ليخدم خيلنا ويقدم لها الغداء، فى حين خلعت أنا معطفى المشبع بماء الأمطار، بينما انهمك إبراهيم على الفور فى إعداد الشاى على النار المشتعلة. ويتنازل النبلاء والعظماء الذين لا يتنازلون عن كرامتهم ومهابتهم حين يجاملون من هم دونهم تقبل الرجل الضئيل قدحاً من الشاى قدمه إبراهيم إليه.

وبدون أن تظهر عليه أية أمارات لفضول زائد، وبطريقة مَنْ يبدأ حواراً فى إحدى قاعات الاستقبال الرسمية، استدار الرجل الضئيل نحوى متسائلاً: «جنابك إنجليزى؟»

أجبته: «كلا، أنا نمساوى».

سألنى: «أيعد من غير اللائق إن سألتك أهو عمل الذى دفعك إلى المجىء إلى هذه الأصقاع؟»

أجبته: «أنا مراسل للصحف، وأنتقل فى أنحاء بلدكم لأصفها لأبناء شعبى، إنهم يحبون أن يعرفوا كيف تعيش الشعوب الأخرى، وبماذا يفكرون».

هز رأسه وعلت شفتاه ابتسامة موافقة واستغرق فى صمته. بعد فترة تناول وعاء تدخين فخارى وأخرج قصبة من طيات معطفه البالى، وثبت القصبة إلى الوعاء الفخارى الملىء بالماء، ثم سحق شيئًا فى راحة يده خمنت أنه طمباق ووضعه بتأن وعناية فائقة على حجر الحقة كأنه أغلى من الذهب، ثم غطاه بالجمر المشتعل. وبمجهود واضح راح يشفط الدخان من القصبة، فيسعل بعنف ويبصق مخاطًا من حلقه، كان الماء داخل الحقة يقرقر برتابة حين بدأت رائحة نفاذة تملأ أرجاء القاعة فتعرفت على الرائحة فى الحال: كانت رائحة القنب الهندى، الحشيش ـ ففهمت سر سلوك الرجل الغريب، لقد كان حشاشًا مدمنًا. لم تكن عيناه غائمتين كما يحدث لعيون مدمنى الأفيون(*)؛ فمدمنو

(*) مادة مخدرة تستخرج من زهرة نبات الخشخاش (المترجم) .

الأفيون تظهر عليهم معالم الانفصال عن الواقع وعما يحيط بهم، كما تبدو عليهم حدة غير نابعة من ذواتهم، ويحدقون إلى معالم بعيدة لا يدركها غيرهم وغير موجودة فى العالم المحيط بهم.

تطلعت إليه فى صمت، حين انتهى من التدخين، سألنى:

«ألن تجربه؟»

رفضت شاكراً، كنت قد جربت الأفيون مرة أو مرتين (دون الشعور بأى متعة)، إلا أن تجربة الحشيش بدت لى شاذة وغير مغرية. ضحك الحشاش بلا صوت وتفحصنى بعينيه نصف المغمضتين وتعبير ساخر على وجهه، وقال:

«أنا أعرف ما تفكر به يا صديقى المحترم، أنت تعتقد أن الحشيش من أعمال الشيطان وتخشى تجربته. هذا كلام فارغ. الحشيش هبة من عند الله... وهو ممتاز جداً خاصة للعقل. انظر إلىّ يا حضرة، دعنى أفسر لك الأمر. الأفيون شر - لا يوجد شك فى ذلك - فهو يوقظ لدى المرء دوافع وتطلعات إلى أشياء مستحيلة، ويجعل أحلامه مليئة بالأطماع، يجعله مثل الحيوانات. أما الحشيش فيكبت كل المطامع ويجعل المرء لا مباليًا بكل ما هو موجود فى هذا العالم. وهنا مربط الفرس، إنه يجعل المرء راضياً بما قسم له. إن وضعت جبلاً من الذهب أمام حشاش - ليس فقط أثناء تدخينه الحشيش، بل فى أى وقت - فإنك لا تجده يحرك إصبعاً واحدة تجاه ذلك الذهب. أما الأفيون، فإنه يحول البشر إلى ضعفاء وجبناء، فى حين يقتل الحشيش كل المخاوف ويبعث فى المرء شجاعة مثل شجاعة الأسود. لو طلبت من حشاش أن يغوص فى أعماق بحيرة ثلجية فى الشتاء، فإنه سيقفز بكل بساطة إلى أعماق البحيرة وهو يضحك فى سعادة... لأنه تعلم أن خلاصه من أطماعه يخلصه أيضًا من المخاوف - ومن يتجاوز الخوف فإنه يتجاوز أيضاً المخاطر وينجو منها، مؤمنًا أن ما يقع له من أحداث ليست إلا نصيبه...».

ضحك فى حبور من جديد تلك الضحكة القصيرة التى تهز كل بدنه، ضحكة بلا صوت، تجمع بين السخرية والحكمة، ثم توقف عن الضحك وكشر تكشيرة ساخرة خلف سحابات الدخان، وعيناه اللامعتان مثبتتان على هدف ثابت بعيد غير مرئى.

«نصيبى من الحياة»... رحت أفكر فى تلك العبارة وأنا مستلق تحت صفحة السماء المرصعة بنجوم الليل العربية الودود. «أنا ـ هذه الحزمة من اللحم والعظم والمشاعر والإدراك ـ خلقت فى مسار هذا الوجود، وحين أكون داخل أى حدث اكتشف أن «الخطر» ليس إلا وهمًا: وأن ذلك الخطر لا يستطيع أن «يقهر» إرادتى، وأن كل ما يحدث ويقع لى ليس إلا بعضًا من التيار المكون للحياة والذى يحتضن كل الوجود الذى أنا بعض منه. ألا يمكن على سبيل المثال أن يكون الخطر والأمان، والموت والسعادة، والمصير والتحقق، ليست كلها إلا وجوهًا متباينة لتلك الحزمة الضئيلة من اللحم والعظم التى هى أنا؟ يالها من حرية مطلقة بلا حدود، ياالله، ما أعظم هباتك للإنسان...».

كان لابد أن أغلق عينى، فقد كانت السعادة التى أشعر بها فى تلك اللحظة حادة وقوية إلى درجة الإيلام، مسدتنى أجنحة السعادة القادمة من بعيد مع أنفاس الرياح التى تحنو على وجهى.

[٦]

دبت العافية فى بدنى مما مكننى من الجلوس، وأحضر لى زيد أحد سروج الإبل لأتكئ عليه. قال وهو يضعه خلفى: «استرح ياعمى. السعادة تملأ قلبى حين أراك بخير بعدما عددتك بين الأموات». قلت له: «أنت صديق مخلص يا زيد. لا أدرى ماذا كنت أفعل بدونك كل تلك السنوات لو لم تستجب لرسالتى وتحضر إلىّ من العراق». قال: «لم أندم أبدًا على تلك الأعوام التى قضيتها معك ياعمى. مازلت أذكر اليوم الذى تلقيت فيه رسالتك، مرَّ على ذلك خمسة أعوام حين أرسلت تطلب منى القدوم إلى مكة... كان مجرد التفكير فى رؤيتك من جديد يملأنى بالسعادة، خاصة أن الله أنعم عليك فى ذلك الوقت بنعمة الإسلام. كنت فى ذلك الوقت قد تزوجت من فتاة عراقية، عذراء، أبهجنى حبها فوق ما يطيق عقلى، ياللفتيات العراقيات... لهن خصور دقيقة ونهود صلبة مثل هذا»، وقبض بكفه على كرة السرج الصلبة وهو يبتسم للذكرى وأردف: «من الصعب أن تترك تلك الأحضان وتمضى بعيدًا... لذلك قلت لنفسى... سأذهب إلى مكة ولكن ليس

على الفور، بعد بضعة أسابيع أخرى، إلا أن الأسابيع مرت، وتلتها شهور. وعلى الرغم من أني قد طلقت تلك المرأة سريعًا ـ بنت الكلب، كانت عينها على ابن عمها ـ فإنني لم أستطع ترك العمل مع عجايل العراق، ولا أن أترك بسهولة أصدقائي الذين عرفتهم هناك ومباهج بغداد والبصرة، كنت دائمًا أقول لنفسي: ليس الآن، بعد فترة أخرى... وفي يوم كنت أركب ناقتي مبتعداً عن معسكرنا بعد أن قبضت راتب الشهر المنقضي، وكنت أفكر في قضاء الليل لدى أصدقائي، في تلك اللحظة تذكرتك وتذكرت ما قلته في رسائلك عن موت زوجتك الغالية ـ رحمها الله وتخيلت كم تشعر بالوحدة بعد موتها، وفي لحظة قررت العودة إلى مكة، وفي نفس اللحظة مددت يدي ونزعت النجمة العراقية من على عقالي وقذفتها بعيداً، وبدون أن أعود إلى معسكري لأجمع أغراضي وحوائجي أدرت وجه الناقة باتجاه صحراء النفود، وانطلقت إلى نجد، لم أتوقف إلا عند أول قرية لأبتاع قربة ماء وبعض المؤن، لم أتوقف بعد ذلك إلا في مكة بعد أربعة أسابيع من انطلاقي...».

قلت: «هل تذكر يازيد أول رحلة لنا معًا في أعماق الجزيرة العربية باتجاه الجنوب قاصدين وادي بيشا حيث بساتين النخل وحقول القمح، ثم إلى صحراء رانيا التي لم يطأها أجنبي قبلي؟»

قال زيد: «كيف أنساها ياعمي؟ وجدتك مصراً على زيارة الربع الخالي في المنطقة التي يدفع فيها الجن الرمال إلى الغناء تحت نار الشمس... وما رأيك بالبدو الذين يعيشون على حدود الربع الخالي الذين لم يروا زجاجًا في حياتهم حتى إنهم ظنوا أن زجاج نظارتك مصنوع من الماء المجمد؟ كانوا هم أيضًا مثل الجن ذاته، يقرأون الأثر على الرمال كما تقرأ الشعوب الأخرى الكتب، ويقرأون على صفحة السماء والهواء ما ينبئهم بالعاصفة قبل هبوبها.. أتذكر يا عمي ذلك الدليل الذي استأجرناه من رانيا، ذلك البدوي الشرير الذي كدت ترديه قتيلاً بالرصاص حين أراد أن يتركنا وسط الصحراء؟ كان في شدة غيظه من آلة التصوير التي كانت معك».

ضحكنا من أعماقنا من ذكرى تلك المغامرة التي مرت عليها أعوام كثيرة. في حينها لم يكن فيها ما يبعث على الضحك. كنا على مسيرة ستة أو سبعة أيام جنوب الرياض

حين تلبست الدليل حالة من الضيق والغضب بل والرفض حين شرحت له وظيفة آلة التصوير التى أحملها، وأنها تصور ما أريد تصويره.. كان بدويًا متعصبًا ينتمى إلى تنظيم الإخوان فى الريان. قرر أن يتركنا فى الصحراء؛ لأن معنا آلة مكروهة تصنع صورًا والصور محرمة دينيًا.

كان لا يهمنى فراقه لو لم نكن فى منطقة مجهولة لى ولزيد، فإن تركنا بمفردنا فإننا لابد هالكين فى تلك الصحراء. حاولت فى البداية أن أقنع ذلك البدوى الشرير أنه لا ضرر من آلة التصوير ولكن بلا جدوى، لم تفلح معه كل وسائل الإقناع وأدار ناقته باتجاه رانيا ناويًا تركنا وحدنا بالصحراء. قلت له بحزم إن تركنا فإن ذلك سيكلفه حياته؛ لأنه إن تركنا فإنما يتركنا للموت فى الصحراء. لم يهتم بما قلت وهمز ناقته للمسير، صوبت بندقيتى نحوه، وأنذرته بأنى سأطلق النار عليه إن غادرنا وكنت مصممًا على فعل ذلك، وكان ذلك كافيًا لأن يختار بين سلامته الشخصية وسلامته الروحية، وبعد قليل من التمنع وافق أن يصحبنا فقط إلى أول منطقة مأهولة على مسيرة ثلاثة أيام، أو نذهب إلى القاضى الشرعى لنحتكم إليه فى شرعية آلة التصوير.

جردناه أنا وزيد من كل سلاح معه، وتناوبنا حراسته أثناء الليل حتى لا يهرب.. بعد عدة أيام وصلنا إلى القويعية وتوجهنا إلى قاضيها، فى البداية أصدر حكمًا مؤيدًا للدليل؛ لأنه كما قال: «من العار والحرام صنع صور للأحياء» (قياسًا على فهم خاطئ لحديث للرسول (ﷺ) - من أن رسم الكائنات الحية حرام، ولا تحتوى الشريعة الإسلامية على أى تحريم فى هذا الشأن). عند ذلك أخرجت للقاضى الخطاب المفتوح الموجه من الملك **«إلى كل أمراء البر وكل مَنْ يطَّلِع على هذا الخطاب»** - اِستطال وجه القاضى أكثر وأكثر وهو يتابع القراءة: **«محمد أسد ضيفنا وصديقنا وعزيز علينا، كل من يظهر ودًا له فقد أظهر ودًا لنا، وكل من أظهر عداوة تجاهه فإنما يظهر عداوته لنا»**، كان لخطاب ابن سعود وختمه الذى ذيل به الخطاب فعل السحر على القاضى المتشدد، فحكم بعد قراءة الخطاب بأنه «تحت ظروف معينة، يجوز عمل صور...» إلا أننا تركنا الدليل المتعصب يمضى إلى حاله، واستأجرنا دليلاً آخر ليقودنا إلى الرياض.

قال زيد: «هل تذكر تلك الأيام في الرياض ياعمي، حين كنا ضيوفًا على الملك، لم يعجبك في ذلك الحين امتلاء مرابض الخيل القيمة بالسيارات الجديدة اللامعة... وكرم الملك...».

قلت له: «هل تذكر أنت يوم أرسلنا الملك في مهمة لاستجلاء سر تمويل تمرد البدو، وكيف رحلنا على مدى ليال عديدة، ثم تسللنا إلى الكويت، حتى توصلنا إلى سر الريالات الفضية الجديدة والبنادق التي كانت ترد إلى المتمردين عبر البحر؟».

رد زيد: «وتلك المهمة الأخرى ياعمي التي كلفك بها سيد أحمد أطال الله عمره حين أرسلك إلى طبرق - وكيف عبرنا البحر سرًا في دهو(*) - وكيف واصلنا سفرنا حتى الجبل الأخضر في ليبيا، متخفين من رقابة الإيطاليين لعنة الله عليهم، وكيف التحقنا بالمجاهدين تحت زعامة عمر المختار؟ تلك الأيام المثيرة».

هكذا رحنا نسترجع الذكريات ونذكر بعضنا بأيام كثيرة مضت، أيام بلا حصر قضيناها معًا، وراحت عبارة «هل تتذكر»، «وهل تتذكر» تتأرجح فيما بيننا وتوغل بنا في أعماق الليل، حتى بدأت جمرات الأخشاب المشتعلة تخمد نارها، لم يبق منها إلا توهج جمرات بعضها، ووجه زيد يتقهقر إلى ظلال تدريجية مع انطفاء لهب الأخشاب حتى غاص وجهه في ظلام دامس كأنه أصبح ذكرى في نظري الذي أثقله النعاس.

في صمت الصحراء الذي تنيره النجوم، مع هبات نسيم عليل يداعب سطح الرمال الناعمة، تتداخل صور الماضي والحاضر، ثم تنفصل متداعية واحدة إثر أخرى مع أصوات استغاثة عجيبة، عادت الذاكرة عبر الأعوام إلى أعوامي الأولى بالجزيرة العربية، وأول حج أؤديه في مكة، وإلى عتمة وكآبة أحاطت بتلك الأيام المبكرة: إلى وفاة السيدة التي أحببتها كما لم أحب أي امرأة أخرى إلى اليوم، والتي ترقد الآن تحت تراب مدينة مكة، لا يميز موضع قبرها إلا حجر بسيط دون كتابة عليه، والذي كان نهاية طريقها وبداية طريقي: نهاية وبداية، النداء والصدى تعانقا بغرابة في الوادي الصخري لمكة.

(*) الدهو : مركب شراعي مألوف في سواحل الجزيرة العربية . (المترجم)

«زيد، هل هناك مزيد من القهوة؟»

«بأمرك يا عمي».

رفع في إناة إبريق القهوة النحاسي بيده اليسرى وفنجانين صغيرين بلا مقبض يرتطمان فيصدران رنينًا بيده اليمنى - واحدًا لي والآخر له - وصب بعض القهوة في فنجاني وقدمه إليَّ، من تحت الظلال التي تلقيها كوفيته على وجهه راحت عيناه ترعيانني في يقظة وهدوء، كما لو كان الأمر أخطر كثيرًا من احتساء فنجان قهوة. تلكما العينان - العميقتان بأهدابهما الطويلة - ذات نظرات صارمة وحازمة يبدو فيها الحزن العميق في حالات السكون، إلا أنها مستعدة على الدوام إلى التحول إلى مرح وسرور مفاجئ - تلكما العينان تقرأ فيهما حياة مئات الأجيال التي عاشت في البوادي والصحاري في حرية: تلكما العينان لرجل انحدر من أسلاف لم يستعبدوا من شعوب أخرى كما لم يستعبدوا شعوبًا أخرى.

أجمل ما فيه خفة حركته: هادئة، واعية بإيقاعها، في غير عجلة وبلا تكاسل: اكتمال مع اقتصاد وقسط يذكرك بتكامل وتناغم الفرق الموسيقية. لا ترى هذا النمط من الحركة إلا بين البدو. انعكس اتساع الصحراء عليهم وعلى حركتهم. وباستثناء بعض المدن والقرى لم تتأثر الحياة في الجزيرة العربية بالبشر بقدر ما أثرت الجزيرة العربية بقسوة صحاريها وصرامتها في البشر وأجبرتهم على سلوكيات معينة واختزال كل الأفعال التي تمليها عليهم رغباتهم، واختزال الضرورات الخارجية إلى حدها الأدنى، حتى تصبح محددة تمامًا وأساسية ولازمة لاستمرار الحياة، تلك الحياة التي ظلت على ما هي عليه لأجيال طويلة متعاقبة واكتسبت بمر الزمن بريق ولمعان الحدة الناعمة للبلورات: تلك البساطة الموروثة في السلوكيات والأفعال واضحة في إيماءاتهم وحركاتهم وفي سلوكهم ومواقفهم إزاء الحياة.

- «قل لي يازيد، إلى أين نتوجه غدًا؟»

نظر إلي وابتسامة تعلو شفتيه: «كيف تسأل ياعمي، إلى تايما بالطبع..؟»

قلت: «لا ياأخي، كنت أريد الذهاب إلى تايما، ولكني لم أعد أشعر بأي رغبة في ذلك. سنتوجه إلى مكة...».

الفصل الثانى

بداية الطريق

[١]

كان الوقت قُرْب المساء، وكانت قد مرت بضعة أيام بعد مواجهة تجربة الموت عطشًا، وصلنا إلى واحة صغيرة بسيطة قررنا أنا وزيد أن نبيت ليلتنا. بدت التلال الرملية الشرقية تحت أشعة الشمس الغاربة كأنها تلال من عقيق ذات ألوان زاهية مثل ألوان قوس قزح، وظلال متباينة كأنها مرسومة من ألوان الباستيل ومن ظلال الضوء. كانت الألوان المتباينة فى غاية الرقة حتى بدت وكأن النظر إليها يدميها، ثم يتتابع تدفق الظلال التى تتحول إلى غبشة من الإعتام المتزايد. ومع الإعتام المتزايد كان مازال بالإمكان تمييز التيجان المريشة لأشجار النخيل، والمنازل الواطئة التى تكاد تتوارى خلفها، البيوت وأسوار بساتين النخيل مشيدة من الطين المجفف، البكرة الخشبية التى تعتلى فوهة البئر تصدر صريرًا كالترانيم.

أنخنا الإبل على مسافة من القرية تحت أشجار النخيل، أنزلنا مخل الأمتعة المعلقة على جوانبها، كما حللنا السروج ورفعناها عن الجمال لتبترد. تجمع حولنا بعض الأطفال والصبية فى فضول، عرض واحد منهم - له عينان واسعتان ويرتدى ملابس رثة - على زيد أن يريه مكانًا به أغصان جافة تصلح لإشعالها؛ وبينما ذهب معه زيد

لجلب الأغصان، أخذت الإبل إلى البئر لأسقيها. حين أدليت الدلو الجلدى إلى أعماق البئر ثم رفعته مليئًا بالمياه، أقبلت بعض نساء القرية وهن يحملن جراراً نحاسية وفخارية لملئها بالماء، كن يحملن الجرار على رؤوسهن فى اتزان ورشاقة دون أن يسندنها بأيديهن التى امتدت على الجوانب لحفظ توازن الجرار حاملات أطراف أغطية رؤوسهن باليد الأخرى فبدون مثل طيور تخفق بأجنحتها.

قلن: «السلام عليكم أيها المسافر».

رددت: «عليكن السلام ورحمة الله».

كانت ثيابهن سوداء، ووجوهن سافرة - كما هو حال نساء البدو والقرى فى تلك المنطقة من الجزيرة - فبدت عيونهن سوداء واسعة. وبالرغم من استقرارهن بالواحات من أجيال طويلة، فإنهن لم يفقدن صفات الأسلاف التى تمتد إلى حياة البرية القبلية. فى اقتصاد الحركة، لم يخجلن أن يمددن أيديهن ويتناولن حبل الدلو من يدى فى صمت ويسحبن الماء من البئر لسقى إبلى - تماماً كما حدث من أربعة آلاف عام مضت، كما فعلت أسلافهن مع خادم إبراهيم (عليه السلام) حين أتى من أرض كنعان للبحث عن زوجة لإسحق (عليه السلام) ابن سيده بين بنات أقاربه فى بادان - آرام. تذكر التوراة ذلك(*):

وأناخ الجمال خارج المدينة عند بئر الماء وقت المساء وقت خروج المستقيات. وقال أيها الرب إله سيدى إبراهيم يسِّر لى اليوم واصنع لطفًا إلى سيدى إبراهيم. ها أنا واقف على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء. فليكن أن الفتاة التى أقول لها أميلى جرتك لأشرب فتقول إشرب وأنا أسقى جمالك أيضًا هى التى عينتها لعبدك إسحق. وبها أعلم أنك صنعت لطفًا إلى سيدى.

وإذا كان لم يفرغ بعد من الكلام إذا رفقة التى ولدت لبتوئيل ابن ملكة امرأة ناحور أخى إبراهيم خارجة وجرتها على كتفها. وكانت الفتاة حسنة المظهر جدًا وعذراء لم

(*) سفر التكوين : ١٠-٢٠ : ٢٤ (المترجم) .

يعرفها رجل. فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت. فركض العبد للقائها وقال اسقيني قليل ماء من جرتك. فقالت اشرب ياسيدى. وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته. ولما فرغت من سقيه قالت استقى لجمالك أيضًا حتى تفرغ من الشرب. فأسرعت وأفرغت جرتها فى المسقاة وركضت أيضًا إلى البئر لتستقى. فاستقت لكل جماله.

طفت القصة التوارتية على سطح أفكارى وأنا واقف بناقتى أمام بئر واحة صغيرة فى قلب صحراء النفود العظمى وتأملت المرأة التى تناولت حبل الدلو من يدى وسحبت الماء من البئر لتسقى جمالى. كانت منطقة بادان - آرام - بعيدة وكذا عصر إبراهيم (عليه السلام): إن تلك النسوة فى تلك المنطقة، وما أثاره سلوكهن من تذكر أحداث مرت عليها أربعة آلاف عام، جعلن ما مضى من قرون كأنها أحداث الأمس القريب.

«فليبارك الله أيديكن يا أخواتى، وليحفظكن».

رددن: «وأنت أيضًا يحفظك الله أيها المرتحل».

واستدرن إلى جرارهن فملأنها بالماء وعدن إلى بيوتهن.

* * *

بعد عودتى إلى موضع أمتعتنا تحت النخيل، أنخت الإبل وعقلتها حتى لا تشرد فى الصحراء أثناء الليل. كان زيد قد أشعل النار وانهمك فى إعداد القهوة. كان الماء يغلى فى إبريق القهوة ذى البزباز المنحنى على شكل قوس، وكان هناك إبريق أصغر جاهزًا تحت كوع زيد. فى يده اليسرى أمسك بمقبض ملعقة معدنية ضخمة يبلغ طول مقبضها نحو قدمين يحمص بها على النار قبضة من حبوب القهوة، فى الجزيرة العربية تصنع القهوة طازجة كل مرة. بمجرد أن يغمق لون حبوب القهوة، يضعها فى هاون نحاسى ويطحنها. ثم يصب الماء المغلى من الإبريق الكبير إلى الإبريق الصغير، ويفرغ فيه البن المطحون ويضعه على حافة النار حتى تنضج ببطء. حين تنضج القهوة يضيف إليها عدداً من حبوب الهيل التى تزيد القهوة مرارة؛ لأنه، طبقًا للقول الشائع فى الجزيرة العربية، لابد أن تكون القهوة الجيدة «مرة كالموت ملتهبة كالعشق».

لم أكن مهيئًا لتناول قهوتى باستمتاع، كنت مجهدًا ولزجًا من العرق الذى غمر بدنى بعد ساعات طويلة فوق سرج الناقة، أما ملابسى فقد كانت متسخة ولزجة أيضًا تلتصق ببدنى، كنت أتلهف إلى الاستحمام؛ فعدت سائرًا إلى البئر بين أشجار النخيل.

كان الظلام قد أرخى سدله وبساتين النخيل مهجورة فى ذلك الوقت من الليل؛ لم يكن هناك على البعد حيث تقع البيوت إلا كلب ينبح. خلعت ملابسى ونزلت إلى البئر، أمسكت بالأحجار الناتئة وارتكزت عليها بقدمى واستعنت بحبل الدلو حتى وصلت إلى المياه ثم غصت فيها. كانت المياه باردة ووصل ارتفاعها إلى صدرى والحبال مدلاه إلى جوارى فى الظلام، منتصبة رأسيًا وتحفظها الدلاء الغاطسة مشدودة باستقامة، تحت قدمى كنت أشعر بالتدفق الرقيق للماء تندفع إلى أعلى من عين تحت الأرض وتغذى البئر بتيار رقيق لا يتوقف.

بالأعلى كانت النسمات تهمهم على حافة البئر فترتد الهمهمة إلى أعماقه كطنين يصدر من قوقعة حين تضغطها على أذنك، مثل تلك القوقعة الضخمة التى كنت أشغف بالاستماع إلى طنينها وأنا طفل فى منزل أبى الذى نشأت به من أعوام طويلة مضت، طفلاً صغيرًا كنت، بالكاد، تصل عيناه إلى حافة المائدة وتطول سطحها بصعوبة. أتذكر أننى كنت أضغط القوقعة على أذنى وتنتابنى الحيرة والتساؤلات: هل تلك الأصوات موجودة بداخلها على الدوام، أم تصدر منها فقط إذا ضغطتها إلى أذنى؟ هل تبعث ذلك الطنين بصفة مستمرة أم أن استماعى إليها هو الذى يبعثه من داخلها؟ حاولت مرارًا أن أخدع القوقعة بأن أبعدها عن أذنى حتى يتوقف الطنين ثم أقربها فجأة فى غفلة منها إلى أذنى: فأسمع الطنين من جديد - لم أتيقن أبدًا إن كان الطنين دائمًا داخلها حتى لو لم أضعها على أذنى أم لا. لم أعلم فى ذلك الوقت بالطبع، أننى شغلت ذهنى بسؤال حيَّر فلاسفة أحكم منى على مدى دهور طويلة: كانت القضية هى: هل يوجد «واقع» مستقل عن إدراكنا، أم أن أدوات إدراكنا هى التى تخلق الواقع الذى ندركه؟ لم أدرك ذلك وقتها، ولكن حين أتذكر ذلك أكتشف أن التفكير فى تلك المعضلة لازمنى من طفولتى حتى أعوام قريبة مضت - كما لازمت من وقت لآخر كل عقل بشرى

مفكر سواء فى الوعى أو فى اللاوعى: فمهما تكن الحقيقة الموضوعية، فإن العالم يتبدى لكل منا فى شكل وحدود انعكاساته على فكر كل امرئ على حدة: ولذلك لا يدرك أى منا من «الواقع» إلا ما له علاقة بوجوده الشخصى. ومن هنا نجد تفسيراً ملائماً لاعتقاد البشر المستمر منذ البداية النشطة لوعيهم فى وجود حياة ثانية بعد الموت - وهو اعتقاد شديد العمق، شائع الانتشار عبر كل العصور وعند كل أجناس البشر، ويتخلصون من فكرة الموت بنوع آخر من التفكير «بالتمنى» ويبدو أنه يمكن القول بلا تجاوز أن ذلك النمط من التفكير كان ضرورة لا يمكن تجنبها وتتواءم تماماً مع التركيبة الخاصة للعقل والفكر البشرى. التفكير المجرد بعبارات نظرية فى موت الفرد كفناء نهائى ليس صعباً، ولكن إدراك ذلك واستيعابه وقبوله لمن المستحيل. لأن ذلك يعنى أنه يمكن أن يستوعب أيضاً فناء كل الواقع كما يدركه - وبعبارات أخرى، أن تتخيل العدمية: وهو ما لا يقدر عليه العقل البشرى.

لم يعلمنا الفلاسفة والأنبياء الإيمان بالبعث بعد الموت، كل ما فعلوه أن أعطوا شكلاً ومحتوًى روحياً لإدراك غريزى قديم قدم البشر.

* * *

ابتسمت فى داخلى لتعارض ما أفكر فيه من أمور ذهنية عميقة مع ما أنا منهمك فيه من أعمال أرضية دونية من إزالة العرق والأقذار التى تراكمت على بدنى من سفر دام أياماً. ولكن على أى حال هل هناك حد واضح مميز بين ما هو دنيوى وما هو ذهنى عميق مبهم؟

هل يوجد على سبيل المثال ما هو أكثر دنيوية من الانطلاق بحثاً عن جمل شارد، وهل يوجد ما هو ألغز وأعصى على الفهم من الوشك على الموت عطشاً؟

ربما كانت الصدمة الناجمة عن تلك التجربة القاسية هى ما جعلت حواسى وأفكارى أكثر حدة وتيقظاً كرد للاعتبار لذاتى: الاحتياج إلى الفهم والإدراك بعمق أكبر لمسار

حياتى الشخصية. إلا أننى استدركت متسائلاً: هل يوجد حقًا من يستطيع أن يفهم المعنى والمغزى من حياته مادام هو على قيد الحياة؟ نحن لا نعرف بالطبع ما حدث لنا فى فترات ومراحل عمرنا المختلفة، وقد ندرك ونفهم أحيانًا لماذا وكيف حدث لنا ما حدث، إلا أن هدفنا ووجهتنا ـ مصيرنا ـ لا يمكن أن نلمحه أو نحيط به؛ لأن المصير هو مجموع ما اعتمل بداخلنا وحركنا فى الماضى والحاضر، وكل ما سيعتمل بداخلنا ويحركنا فى المستقبل ـ ولذلك فهو لا يفصح عن مكنونه إلا عند نهاية الطريق، ولابد أن يظل مغلقًا على الفهم أو نصف مفهوم مادمنا على درب الحياة.

كيف لى أن أحدد، وأنا فى الثانية والثلاثين من عمرى، ما الذى كان عليه مصيرى، أو ما هو الآن؟

أحيانًا يتراءى لى أننى أرى حياة رجلين حين أستعيد ما مضى من حياتى بعين التذكر. وحين أنغمس فى هذا التفكير، أتساءل، هل ذلكما الجانبان من حياتى متغايران إلى هذا الحد ـ أم أن هناك خلف كل الأشكال المختلفة فى النمط والاتجاه، مشاعر واحدة وهدفًا واحدًا لهما معًا؟

رفعت رأسى فرأيت جزءًا مستديرًا من السماء بحجم فوهة البئر مليئة بالنجوم. فى وقفتى الساكنة بلا حركة أحسست أننى أرى انتقالها البطىء عن مواضعها فى حركة مستديمة لا تتوقف، صفوف بعد صفوف على مدى ملايين السنين. انتقل فكرى إلى ذلك الصف الضئيل من الأعوام – الذى يكون عمرى – السنوات الباهتة فى ذاكرتى عن دفء وأمان غرفة طفولتى فى مدينة كنت على دراية بدروبها المنعزلة وأركانها النائية مثل درايتى بشوارعها المعروفة ومعالمها البارزة، ومن بعد تلك المدينة مدن أخرى مليئة بالمباهج والمسرات وآمال لا نهائية تموج فى صدور شباب فى مقتبل أعمارهم، ثم بعد ذلك الانتقال إلى عالم جديد ومختلف بين أناس لهم سلوكيات مختلفة بدوا فى نظرى غير متحضرين أول الأمر ومع مرور الزمن أحسست بتآلف عميق معهم، وأننى أنتمى إليهم أكثر ما كنت أنتمى إلى شعبى فى موطنى، ثم بعد ذلك مرتحلاً بين الفيافى والقفار وصحراوات بلا نهاية، ثم فى مدن قديمة قدم الوعى الإنسانى، فى بيدٍ بلا أفق،

وجبال تذكرك وحشتها بوحشة القلب الإنسانى، والوحدة فى هجير الصحارى؛ والنمو البطىء المطرد ليقين جديد، ثم ذلك اليوم بين جليد منطقة هندو ـ كوبن فى أفغانستان، بعد مناقشة طويلة مع صديق أفغانى، صاح بعدها: «ولكنك مسلم، إلا أنك لا تعى ذلك...»، وذلك اليوم بعد شهور أخرى، حين تيقنت أننى مسلم؛ ثم حجى الأول إلى مكة؛ وموت زوجتى، واليأس الذى تلاه؛ ثم تلك الأعوام الطويلة التى قضيتها بين عرب الجزيرة العربية بعد إسلامى: ثم أعوام طويلة من الصداقة العميقة مع ملك خلق بسيفه مملكة من عدم ثم توقف على بُعْد خطوة واحدة من العظمة الكاملة، وأعوام من التجوال فى صحارى الجزيرة العربية، ومهام خطرة أسندها إلىَّ الملك وقمت بها فى مناطق القبائل المتمردة، ورحيلى إلى مواقع ثوار ليبيا الذين يجاهدون فى سبيل استقلال بلادهم، ثم الإقامة الطويلة بالمدينة حيث كرست كل جهدى لتعميق معرفتى بالإسلام فى مكتبة مسجد الرسول (ﷺ)، وحجى السنوى إلى مكة، وزواجى من فتيات بدويات، ثم تطليقى لهن؛ والعلاقات الإنسانية الحميمة التى ربطتنى بكثير من الأصدقاء، ثم أيام من الانطواء والوحدة؛ وخوض المناقشات رفيعة المستوى مع مثقفين وعلماء مسلمين من جميع أرجاء العالم الإسلامى، ثم رحلات إلى مناطق لم يطأها أجنبى من قبل بالجزيرة العربية: كل تلك الأعوام من الانغمار فى عالم ينساه الغرب ويتجاهل وجوده.

وجدت صف أعوام حياتى طويلاً، لا قصيراً كما بدا لى، طفت الأعوام الغارقة فى أعماق النسيان على السطح، أماطت اللثام عن وجهها من جديد وراحت تنادينى بأصوات مختلفة متباينة: فجأة، وبخفة متناهية فى أعماق القلب، اكتشفت أن طريقى كان طويلاً وبلا نهاية حتى الآن. قلت لنفسى: «كنت على الدوام تجرى بلا توقف، لم تبن حتى اللحظة شكلاً محدداً لحياتك يمكنك أن تتلمسه، كما لم تتوصل إلى الآن إلى إجابة للتساؤل، إلى أين تمضى؟... تنقلت بين بلاد كثيرة، وكنت ضيفاً على بيوت لا تستطيع عدها، إلا أن توقك ورغبتك إلى ما لا تعرفه لم يصلا إلى إشباع حتى اللحظة، لم تزل غريباً حتى اللحظة، لم تضرب جذراً فى مكان».

لماذا تدور بذهنى تلك الأفكار، حتى بعد أن وجدت مكانى بين شعب أومن بما يؤمن به، لماذا لم أضرب جذراً فى مكان؟

منذ عامين، حين اتخذت زوجة من بنات المدينة، رغبت أن تهبنى ابنًا. وقد وهبتنى ابنًا، طلال، بدأت بعدها أشعر أن العرب هم أهلى وعشيرتى وأصهارى وإخوتى فى الإسلام. أردت لابنى أن يضرب بجذوره عميقًا فى هذه البلاد، وأن يشب واعيًا بإرثه الحضارى والإنسانى العظيم. وقد يبدو هذا كافيًا لأى امرئ لجعل أى مرتحل مثلى راغبًا فى الاستقرار، وأن يشيد بيتًا لأسرته. لماذا إذن لم ينته حلى وترحالى؟ ولماذا لا تشبعنى تمامًا تلك الحياة التى اخترت نمطها بنفسى؟ ما الذى ينقصنى بهذا الموطن؟ بالطبع ليست القضايا الفكرية التى تشغل أهل أوروبا والغرب عامة. لقد تركتها خلفى، ولم أشعر أنى افتقدتها فى أى لحظة. فى الحقيقة، أصبحت بعيدًا عنها بُعدًا هائلاً حتى إنه أصبح من الصعب أن أكتب إلى أى صحيفة أوروبية من الصحف التى تدفع لى ما أتعيش به؛ فى كل مرة أرسل فيها تقريرًا، كنت أشعر بأنى ألقى حجرًا فى بئر بلا قرار: يختفى الحجر فى دياجير ظلام البئر بلا صدى صوت ينم عن وصوله إلى قاع البئر.

كنت منهمكًا فى أفكار مقلقة ومحيرة، نصف غاطس فى مياه بئر مظلمة فى واحة عربية، فجأة طفا صوت من أعماق ذاكرتى، صوت رجل عجوز من قبائل الأكراد بشمال إيران، قال لى ذات يوم: المياه الراكدة فى بركة تتعطن وتتشبع بالطين والعكر، أما المياه المتحركة المتدفقة، فإنها تظل نقية.. هكذا الإنسان فى سكونه أو تجواله.

كأن سحرًا ألم بى، اختفت الحيرة. بدأت أنظر إلى نفسى بعين مغايرة من بعيد، أتصفح نفسى كمن يفر صفحات كتاب ليختار من بين محتوياته ما يصلح للقراءة، وبدأت أدرك أن حياتى لم تكن لتأخذ مسارًا مختلفًا عما هى عليه الآن، أبدًا.

والآن، حين أسأل نفسى: «ما الحصاد الكلى لحياتى التى عشتها حتى اللحظة؟» أجد أن بعضًا منى يجيب: «خرجت لتستبدل عالمًا بعالم ـ كسبت عالمًا جديدًا لنفسك بدلاً من عالم قديم لم تمتلكه قطّ»، أدركت بوضوح تام أننى قد أخذت على عاتقى مهمة قد تستغرق عمرًا بأكمله.

تسلقت خارجًا من البئر، ارتديت ملابس نظيفة كنت قد أحضرتها معى، ثم عدت إلى الموضع الذى وضعنا رحالنا فيه، كان زيد قد أعد القهوة، احتسيتها ثم تمددت منتعشًا ومستدفئًا بالنار التى أشعلها زيد.

[٢]

كانت ذراعى متشابكتين تحت عنقى، وأنا ممدد على الرمال، أتأمل ليل الجزيرة العربية الذى يغشانى، ليل حالك تزين سماءه نجوم كثيرة. هوى نجم فى قوس عظيم، ثم تلاه آخر بعد فترة، ثم ثالث: أقواس من ضوء تخترق حجب الظلام. ترى أهى كتل شهبية من كواكب مدمرة، أم شذرات كوارث كونية تسبح فى فراغ الكون الهائل؟ لو سألت زيد، سيرد بأنها ليست إلا رماحًا من نار ترجم بها الملائكة الشياطين الذين يحاولون التسلل فى ليالٍ معينة إلى السماء للتجسس على الأسرار الإلهية... ربما تكون تلك الومضة الشديدة التى تهوى فى الشرق موجهة إلى ابليس نفسه ملك الشياطين؟

أصبحت أعرف كثيرًا من الأساطير المرتبطة بالسماء والنجوم، أكثر مما هو معروف عنها فى موطن طفولتى وشبابى فى النمسا.

كيف يمكن أن أكون شيئًا آخر؟ منذ أن جئت إلى الجزيرة العربية وأنا أعيش كما يعيش أهلها، وأرتدى الزى العربى مثلهم تمامًا، وأتحدث العربية، أحلامى التى أراها فى المنام بالعربية؛ العادات والتصورات والوجدان العربى صاغ أفكارى دون إرادة منى؛ لم تعقنى أية تحفظات فكرية من التى تحول دون الأجنبى والتوصل إلى حالة من التفهم الحقيقى والتواصل مع شعب آخر.

فجأة، وجدت نفسى أضحك بصوت عال، ضحكة سعادة وتحرر - كانت ضحكة بصوت مرتفع حتى أن زيد نظر إلى بدهشة وأدارت ناقتى رأسها باتجاهى مستطلعة فى بطء وشموخ، كان سبب سعادتى اكتشافى المفاجئ أن طريقى فى الحياة كان سهلاً ومستقيمًا بالرغم من طوله البالغ، ويمتد ما بين عالم لم أمتلكه إلى عالم أمتلكه تمامًا لأنه من صنعى وإرادتى.

ألا يشبه مجيئى إلى هذه البلاد عودة الغائب إلى وطنه؟

عودة القلب إلى موطنه الأول الذى هجره من آلاف الأعوام وعاد الآن ليتعرف على سماوات تلك المنطقة، سماواتى، بسعادة وفرح يؤلمان من حدتهما. هذه السماء العربية - الأشد ظلامًا والأكثر علوًا، الحافلة بالنجوم أكثر من أى سماء أخرى - كانت هذه السماء ذاتها التى علت أسلافى الأوائل أثناء هجراتهم وتجولهم فى قوافل، قوافل جوالة من الرجال المقاتلين، انطلقوا من آلاف السنين من هذه الأرض مع قوة تناميهم، يدفعهم الطمع إلى امتلاك أرض خصبة والحصول على الأسلاب باتجاه أرض كلدان الخصبة، إلى مستقبل مجهول: تلك القبيلة البدوية الصغيرة من العبرانيين، أجداد ذلك الرجل الذى سيولد بعد ذلك فى مدينة أور الكلدانيين. ذلك الرجل، إبراهيم، لا ينتمى إلى مدينة أور التى ولد بها. فلم يكن إلا ابنًا من أبناء قبائل عربية عديدة شقت طريقها فى وقت ما مهاجرة من شح وجفاف الجزيرة العربية إلى أرض الأحلام بالشمال التى سمعوا أنها تفيض لبنًا وعسلاً - أراض آمنة فى الهلال الخصيب، بلاد سوريا وما بين النهرين. كانت تلك القبائل المهاجرة تنجح أحيانًا فى هزيمة وطرد القبائل التى سبقتهم وينصبون أنفسهم حكامًا بدلاً منهم، ثم يختلطون ويذوبون تدريجيًا مع المهزومين ويخطون معًا إلى أعتاب تكوين أمة جديدة - كما فعل الآشوريون والبابليون الذين أقاموا ممالكهم على حطام الحضارة السومرية، وكما فعل الكلدانيون الذين تنامت قوتهم فى بابل، أو العموريون الذين عرفوا بعد ذلك باسم الكنعانيين فى فلسطين والفينيقيين على سواحل سوريا. فى عصور أخرى كانت القبائل المهاجرة شديدة الضعف لا تقدر على هزيمة من سبقوهم إلى الاستقرار فيذوبون داخلها؛ أو يدفعون بهم من جديد إلى الصحراء، ليبحثوا من جديد عن مراعٍ أخرى أو أرض أخرى لغزوها.

كانت عشيرة إبراهيم من تلك القبائل الضعيفة، وكان أصل اسمه كما - ذكره سفر التكوين - آب - رام الذى يعنى بالعربية القديمة «شديد الرغبة»، سكنوا مدينة أور على حافة الصحراء، فى عصر لم تتمكن فيه القبيلة من الاستيلاء على أرض فى بلاد النهرين، وكانوا على وشك الهجرة إلى الشمال بمحاذاة نهر الفرات باتجاه حاران ثم

إلى سوريا. كان «شديد الرغبة» هوسلفى الأول الذى قاده الله إلى آفاق مجهولة اكتشف فيها ذاته، وكان هو وحده من كان بإمكانه أن يتفهم لماذا أنا هنا ـ فهو الآخر جال كثيرًا وظل فى رحيل دائم عبر بلاد كثيرة قبل أن يشيد بنيان حياته على أساس متين يمكنه أن يلمسه بيديه ويرى أبعاده، نزل هو أيضًا ضيفًا على بيوت كثيرة فى أماكن شتى قبل أن يسمح له بضرب جذوره فى مكان. حيرتى تبدو ضئيلة بجوار تجربته الإلهية التى تكتنفها الأسرار. لابد أنه علم فى حياته ـ كما أعلم أنا الآن عن حياتى ـ أن المعنى الكامن فى ترحالى يكمن فى رغبة خفية أن ألتقى بذاتى عن طريق التقائى بعالم يعد الالتقاء به إجابة على جوهر مسألة الوجود، والواقع الحقيقى، الذى يختلف كلية عما ألفته فى طفولتى وشبابى.

[٣]

ما أطوله من طريق يمتد بين طفولتى وشبابى فى قلب أوروبا حتى حاضرى الحالى فى الجزيرة العربية، إلا أنه طريق ممتع عند تذكر معالمه، خاصة إذا عدت به عكسيًا، مرتحلاً إلى الماضى.

تلك الأعوام المبكرة من طفولتى فى مدينة لوردو البولندية ـ كانت فى ذلك الوقت من ممتلكات النمسا ـ منزل هادئ ورصين مثل الطريق الذى يطل عليه: شارع طويل جميل إلا أنه مترب قليلاً، تحفه من جانبيه أشجار البندق.. ممهد بكتل خشبية كانت تضخم وقع خطوات الخيل عليها.. أحببت ذلك الطريق بوعى يفوق وعى طفولتى، لا لأنه طريق بيتى فقط، ولكن كما أظن لأنه كان يبعث مشاعر نبيلة بامتلاك الذات النابع من مرح وسعادة أسعد مدينة كما بدت لى فى طفولتى بغاباتها الساكنة على حافتها وساحة المقابر الكائنة فى مكان خفى غير ظاهر داخل تلك الغابة. وتمضى العربات الجميلة ذات العجلات الصامتة المغطاة بالكاوتشوك، إلا من صوت الإيقاع الرتيب لحوافر الخيل، أو، إن كنا شتاءً، تغطى الشارع طبقة جليد بسمك لا يقل عن قدم، تنزلق عليه الزلاجات، ويخرج البخار كالسحب من مناخر الخيول ويدوى صوت أجراسها المعلقة برقابها فى

الجو القارس: لو كنت أنت ذاتك الجالس على الزلاجة، وتشعر بالصقيع يمرق ملامسًا لوجهك ويجمد خديك، فإن قلبك الطفولى يوقن أن شكل الخيول التى تجر الزلاجة، يحملك إلى سعادة لا تبدأ أبدًا ولا تنتهى.

كانت هناك أيضًا أشهر الصيف فى الريف؛ حيث كان يعيش جدى لأمى، وكان من رجال المصارف الأثرياء، اقتنى ضيعة بالريف ليسعد بها أسرته. كان بتلك الضيعة جدول ماء جارٍ تحف به أشجار الصفصاف؛ تحوطه مراع عشبية مليئة بأبقار متكاسلة، والضوء والظلال محملان بروائح الحيوانات والقش والتبن وضحك الفتيات القرويات اللاتى ينشغلن فى المساء بحلب الأبقار، تشرب الحليب الدافئ الذى تعلوه رغوة طازجة، مباشرة من السطل - ليس لأنك عطشان - بقدر ما تجده مثيرًا أن تشرب لبنًا محلويًا لتوه...

وتلك الأيام من شهر (آب) أغسطس، أيام حارة تقضيها فى الحقول بين عمال المزرعة المشغولين بحصاد القمح، ومع النساء اللاتى كن يجمعن سيقان القمح ويربطنها فى حزم: منهن شابات فى مقتبل العمر، ممتعات عند النظر إلى أجسامهن القوية المشدودة، وأثدائهن الناهدة، وأذرعهن القوية الدافئة، تشعر بقوتها حين يحطنك بها معتصرات إياك فيما يبدو وكأنه مداعبة بريئة فى راحة الظهيرة بين أعواد القمح: كنت صغيرًا فلم أفهم ما يبعد عن اللعب من تلك الاحتضانات الدافئة...

هناك رحلات اصطحبنى إليها أبى وأمى إلى ڤيينا وبرلين وجبال الألب وغابات بوهيميا وبحر الشمال وبحر البلطيق: أماكن بعيدة جدًا عن مدينتنا حتى إنها كانت تبدو لى كأنها عوالم أخرى جديدة. فى كل مرة أبدأ فيها واحدة من تلك الرحلات، كانت أول صافرة للقطار البخارى وأول دورة لعجلاته تجعلان قلبى يوشك على التوقف من توقعى للعجائب التى سأراها وتكشف لى عن نفسها... ورفاق اللعب، أولاد وبنات، شقيقى وشقيقتى وأبناء أعمام وأخوال؛ وأيام الآحاد العظيمة التى كانت تعنى الحرية بعد أيام الأسبوع الكئيبة المضنية فى المدرسة: نخرج معًا لإقامة المخيمات فى الأماكن الخلوية.

اللقاءات الأولى المختلسة مع البنات الجميلات من سنى، وحمرة الخجل من الإثارة التى لا يفيق المرء منها إلا بعد ساعات وساعات.

طفولة سعيدة كانت، مشبعة حتى بعد انقضائها. كان أبواى يعيشان عيشة رغدة، وعاشا الجانب الأعظم من حياتهما من أجل أطفالهما. كانت أمى هادئة الطباع وكان هدوءها متصلاً ببساطتها، وهى بساطة كيفت نفسى عليها في أعوامى الأخيرة، كان أبى من داخله قلقًا متوترًا، وربما كان ذلك ما انعكس علىّ وتطبعت به.

* * *

إن كان علىّ أن أصف أبى، فلابد أن أذكر أن ذلك الرجل الذى كان حبيبًا إلى نفسى، كان نحيلاً، متوسط القامة، داكن البشرة والعينين، عيناه تفيضان عاطفة، ولم يكن متوافقًا مع ظروفه. فى شبابه المبكر حلم بتكريس حياته للعلوم، خاصة الفيزياء، إلا أنه لم يتمكن قط من تحقيق حلمه واضطر إلى أن يرضى بمهنته التى عمل بها وهى المحاماة.. وعلى الرغم من نجاحه فى عمله بعقليته الذكية المتفتحة، فإنه لم يجد ذاته فى ذلك العمل، وربما كان ميله إلى الوحدة ناتجًا عن إدراكه الدائم أن اهتماماته الحقيقية قد خذلته.

كان أبوه - جدى - حَبْرًا يهوديًا فى مدينة شيرنوڤيتس عاصمة إقليم بوكوڤينا الذى كان تابعًا للنمسا. مازلت أتذكره كرجل عجوز حلو الشمائل والخصال، له كفان رقيقان ووجه رقيق الملامح تحيطه لحية طويلة بيضاء، وعدا اهتمامه الشديد بالرياضيات وعلوم الفلك - وكان يدرسهما فى أوقات فراغه - كان أيضًا لاعبًا ماهرًا للشطرنج، بل من أمهر لاعبى الحى الذى كان يقطنه. وكان الشطرنج سببًا فى الصداقة العميقة التى ربطت بينه وبين القس المسيحى الأرثوذوكسى اليونانى. كانا يقضيان أمسيات كثيرة حول رقعة الشطرنج، وكانا كثيرًا ما يقطعان الانهماك فى اللعب بمناقشات مطولة حول الجوانب الميتافيزيقية فى ديانتيهما. قد يظن امرؤ بأن مثل ذلك الاهتمام من جانب جدى بالمسائل العقلية فإنه لابد وقد رحب باهتمام ابنه - أبى - بدراسة العلوم. ولكن على عكس ذلك، قرر بلا تراجع أن ابنه البكر لابد أن يحافظ على التقاليد الروحية التى

حرصت عليها العائلة على مدى أجيال طويلة، ورفض مجرد التفكير فى أى مهنة أخرى لأبى عدا وراثة مهنته الحبرية. ربما قوى من إصراره واقعة مؤسفة أساءت لسمعة العائلة وحرصت أسرة جدى على إخفاء أخبارها وتكتمها: فقد «خان» عم جدى تقاليد العائلة بطريقة مشينة وتحول عن الديانة اليهودية، دين أجداده.

كان من الواضح أن جد الجد الأسطورى هذا، والذى لم يكن اسمه يذكر قط بصوت مسموع، قد نشأ بنفس الطريقة المتشددة، رسموه حَبْرًا كامل الصلاحيات فى سن مبكرة، وزوجوه امرأة لم يكن يحبها، وحيث إن مهنة الحبر لم تكن تُدْر ما يكفى للمعيشة فى أيامه، فقد كان يزيد من دخله بالمتاجرة فى الفِراء، وكان ذلك يستلزم قيامه برحلة سنوية إلى سوق الفِراء المركزى لأوروبا فى مدينة ليبزج. وذات يوم، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، انطلق بعربته التى تجرها الخيل - فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - إلى واحدة من أسفاره التجارية البعيدة. فى مدينة ليبزج باع الفِراء الذى كان قد جمعه كما يفعل كل عام، إلا أنه باع العربة والحصان أيضًا، وحلق لحيته وأزال سوالفه، ونسى زوجته التى يبغضها، ثم توجه إلى إنجلترا. وظل فترة يعمل أعمالاً وضيعة، ويدرس الرياضيات والفلك فى المساء. واستشعر أحد الذين عمل لديهم مواهبه العلمية، فعاونه على متابعة دراسته بجامعة أوكسفورد، وتخرج فيها كباحث واعد، ثم تحول إلى المسيحية. وبعث وثيقة طلاق إلى زوجته اليهودية، ثم تزوج فتاة مسيحية من طبقة النبلاء، ولم تعرف عنه عائلتنا شيئًا بعد ذلك، باستثناء أنه قد تميز كعالم فلك وأستاذ جامعى ناجح، وحصل فى آخر حياته على لقب «فارس» الإنجليزى.

كان ذلك المثال المروع سببًا فى إصرار جدى لأبى على اتخاذ موقف صارمٍ تجاه ميول أبى لدراسة العلوم الدنيوية، أصر على أن يصبح أبى رجل دين، وتحقق له ذلك. لم يكن أبى من الذين يستسلمون بسهولة، فبينما كان يدرس التلمود بالنهار، كان يقضى أغلب الليل فى الدراسات التى يحبها سرًا، دون مساعدة مدرس راح يدرس تاريخ تطور الرياضيات. فى وقت ما، وثق بأمه فأخبرها بما يفعل، وبالرغم من قلقها، إلا أن طبيعتها السمحة لم تشأ أن تحرم ابنها من تحقيق رغبة عمره. فى سن الثانية

والعشرين كان قد درس ما يُدَرَّس فى المدارس فى ثمانية أعوام فى أربعة أعوام فقط، وتقدم إلى امتحان البكالوريا واجتازه بنجاح وتفوق. وبعد حصوله على الشهادة واتته الجرأة هو وأمه على إفشاء السر المخيف إلى جدى، وترتب على ذلك مشهد مأساوى، ولكن جدى رضخ فى النهاية ووافق على أن يترك أبى الدراسات الدينية، وأن يكمل تعليمه الجامعى.

لم تسمح الحالة المادية للأسرة على أى حال لأبى أن يحقق حلمه الكبير فى دراسة الفيزياء، ووجد أنه لابد أن يعمل بمهنة مُربحة تُدر عليه دخلاً فتحول إلى المحاماة. بعد ذلك بأعوام استقر فى مدينة لو ـ وو فى جاليشيا الشرقية وتزوج أمى، وكانت واحدة من أربع بنات لمصرفى ميسور الحال. فى تلك المدينة، فى عام ١٩٠٠، ولدت كثانى الأبناء الثلاثة لأبى.

ظلت رغبة أبى العارمة لدراسة العلوم تبدو فى قراءاته الموسعة للموضوعات العلمية، كما بدت فى اهتمامه الشديد الذى لا يظهره بوضوح بابنه الثانى ـ أنا ـ مع أنى أظهرت ميلاً لدراسات لا تتصل مباشرة باكتساب المال ولا تعد بتحقيق «مهنة» ناجحة فلم يكتب لآماله فى خلق عالم من ابنه النجاح. بالرغم من أننى لم أكن غبيًا، فإننى كنت لا مباليًا، كانت الرياضيات والعلوم الطبيعية على وجه الخصوص تصيبنى بالضجر والملل، فى الوقت الذى كنت أشعر فيه بمتعة كبيرة فى قراءة الروايات التاريخية الرومانسية المثيرة التى كان يكتبها «سانيكو ڤتش»، وقصص الخيال العلمى التى كان يكتبها «چول فيرن»، وروايات الهنود الحمر التى كان يكتبها «چيمس فينمور كوبر» و«كارل ماى»، وبعدها أشعار «ريلكه»، والاستماع إلى المقطوعات الموسيقية الإيقاعية لـ «ألسو سبراخ زارا ڤوسترا»، كانت ألغاز الجاذبية الأرضية وقوانين الكهرباء لا تقل ضجرًا عن قواعد اللغة اللاتينية واليونانية، كنت أنتهى من دروسها وبرودة تسرى فى أوصالى ـ وغنى عن القول أنى كنت أجتاز اختبارات تلك المواد بشق النفس. أصاب ذلك أبى بإحباط شديد، إلا أنه وجد بعض العزاء فى رضاء المدرسين عن ميولى للآداب البولندية والألمانية بالإضافة إلى التاريخ.

وطبقًا لتقاليد عائلتنا، تلقيت دروسًا دينية خاصة بالمنزل، وكانت عن القصص الدينى العبرى. لم يكن ذلك عائدًا إلى اهتمام خاص بالدين لدى أبوى؛ فقد كانا ينتميان إلى جيل يؤدى الطقوس الدينية باللسان والشفاه، فعلى الرغم من أن تلك الطقوس شكلت حياة أسلافهم الأوائل، فإنهم لم يبذلوا أى جهد لتوافق حياتهم اليومية تعاليم الدين أو حتى بالالتزام الأخلاقى الذى تمليه عليهم تلك التعاليم. فى مثل ذلك المجتمع تراجعت مفاهيم العقيدة الدينية وتقلصت إلى موقف من اثنين: ممارسة طقوس جامدة من قبِل المتمسكين بالتعود لإرثهم الدينى، أو لا مبالاة ساخرة من قبِل الأكثر «تحررا» الذين يعتبرون الدين خرافة عفّى عليها الزمن والتى يتقبلونها فى بعض المناسبات كمظاهر لابد منها إلا أنهم يسخرون منها سرًا، كما لو كانت موقفًا عقليًا لا يمكن الدفاع عنه. كان أبواى ينتميان إلى الصنف الأول، إلا أن الشك قد اعترانى أن أبى كان يميل إلى الصنف الثانى. على أية حال أصر أبى أن أواظب على دراسة النصوص الدينية لساعات طويلة كل يوم. وهكذا، وجدت نفسى وأنا فى سن الثالثة عشرة أقرأ العبرية بطلاقة وأتحدثها بإتقان، كما ألمت بالآرامية (وهو ما يفسر سرعة إتقانى للعربية بعد ذلك). ودرست التوراة فى نصوصها الأصلية، والمشنا، والچيمارا.. وهى نصوص التلمود وتفسيره.. أصبحت عالمًا بمضامينها، وكان بإمكانى شرح الفرق بين التلمود البابلى والتلمود الأورشليمى بإتقان وتمكن وثقة، ثم انغمست فى دراسة التفسير المعقد للتوراة المسمى «ترجوم»، درسته كما لو كنت أكرس نفسى لمنصب دينى.

على الرغم من النبوغ فى دراسة الدين، أو ربما بسببه، نمت لدى مشاعر بالتعالى تجاه جوانب كثيرة من العقيدة اليهودية وما تتضمنه من منهج فكرى. لم أرفض بالتأكيد الحقوق الأخلاقية التى أكدتها النصوص اليهودية ولا الوعى الرفيع والسامى بالرب لأنبياء اليهود - ولكن ما رفضه عقلى هو مابدا من أن الرب فى النصوص التوراتية والتلمودية يهتم اهتمامًا غير مفهوم ولا مبرر له بالطقوس التى لابد على عباده من أدائها، كما وجدت أن الرب مشغول فوق العادة بمصير أمة معينة دون غيرها، وهم اليهود بالطبع. مالت نصوص التوراة التى تؤرخ لنسل إبراهيم إلى إبراز الرب لا

كخالق وحافظ لكل خلقه من البشر، بل كرب قبلى يسخر كل المخلوقات لخدمة ما يحتاجه «الشعب المختار»؛ ويعدهم بمكافآتهم بتوفيقهم فى غزواتهم إن كانوا مخلصين له، كما يعرضهم للتعذيب على أيدى الكافرين به حين يبتعدوا عن طريق الإخلاص له كما وصفه لهم. على ضوء ذلك العيب الجوهرى، نجد الحماس والتوهج الدينى لأنبياء اليهود المتأخرين لا يرقى إلى كونه رسالة عالمية لكل البشر.

على الرغم من أن تلك الدراسات الدينية أتت بنتائج عكسية - فقد أبعدتنى أكثر مما أدنتنى من عقيدة أهلى وأجدادى - فإن تلك الدراسات أفادتنى فى الأعوام الأخيرة فى فهم الغرض الجوهرى لأى دين، كما هو، ومهما يكن شكله. لم يؤد شعورى بالإحباط تجاه الديانة اليهودية فى ذلك الوقت إلى البحث عن معتقدات روحية أخرى. فتحت تأثير تلك البيئة اللاإرادية الدينية اليهودية، وجدت نفسى أندفع، أنا وأولاد كثيرون من عمرى، إلى رفض ذلك الواقع وكل مؤسساته الدينية؛ حيث إن عقيدتى لم تعن لى أكثر من مجموعة من النواهى، لم أشعر بأى تأثير فارق فى ابتعادى عن تلك التعاليم. لم تكن الأفكار الدينية والفلسفية تعنينى فى قليل أو كثير؛ ما كنت أتطلع إليه لم يكن يختلف كثيرًا عما يتطلع إليه باقى أبناء جيلى وهو: خوض المغامرات والأفعال المثيرة.

فى أواخر عام ١٩١٤ كانت الحرب العالمية مشتعلة الأوار، وبدت فى نظرى أول فرصة سانحة لتحقيق أحلامى الطفولية، كنت فى الرابعة عشرة، وهربت من المدرسة والتحقت بالجيش النمساوى تحت اسم مستعار، كنت أطول مما يشى به عمرى، وتم إلحاقى على أن عمرى ثمانية عشر عامًا، وهو الحد الأدنى للعمر لمن يلتحق بالخدمة العسكرية، إلا أننى لم أكد أحمل عصا الماريشالية فى حقيبة ظهرى. فبعد أسبوع أو نحو ذلك، نجح والدى المسكين فى اقتفاء أثرى بمعاونة الشرطة، وعدت فى حراستهم إلى ڤيينا بشكل مخز، حيث كانت أسرتى قد استقرت بها من فترة سابقة، بعد ذلك بأربعة أعوام التحقت بالجيش بطريقة مشروعة، ولكنى كنت قد كففت عن الحلم بعظمة أحققها فى الحياة العسكرية، ورحت أبحث عن مسارات أخرى لتحقيق ذاتى. على أى حال، اندلعت ثورة بالنمسا بعد التحاقى بالجيش بعدة أسابيع، وانهارت الإمبراطورية النمساوية، كما انتهت الحرب العالمية الأولى.

على مدى عامين بعد انتهاء الحرب درست بلا نظام وبلا تواصل تاريخ الفن والفلسفة بجامعة ڤيينا ولم أجد بنفسى ميلاً إلى تلك الدراسات فلم تكن المهن النظرية تستهوينى. كنت شغوفًا بالتوصل إلى جوانب حميمة محببة إلى نفسى من الحياة، وأن أقتحم تلك الجوانب دون أن أضفى على نفسى وسائل مصطنعة كما يفعل كثيرون، وأن أصل بنفسى إلى مثل روحية حقيقية كنت أوقن أنها موجودة إلا أننى لم أتوصل إليها بعد.

ليس من اليسير أن أشرح ما كنت أعنيه بتعبير «مثل روحية»، إلا أنه لم يدر بخلدى أن أحقق ذلك وأدركه عن طريق الوسائل التقليدية للدين، أو فى نفس الصدد عن طريق أى مقولات جاهزة مهما كانت متقنة، لم تكن تلك الضبابية الفكرية وغياب الوضوح حتى أكون منصفًا لنفسى من صنعى أنا؛ فقد كانت ضبابية فكرية وغياب وضوح رؤية أصاب جيلى بأجمعه.

كانت العقود الأولى للقرن العشرين تصطدم بالخواء الروحى للأجيال الأوروبية. كل القيم الأخلاقية التى اعتنقتها الأمم الأوروبية على مدى قرون عديدة أصبحت هشة متداعية تحت وطأة التداعيات المرعبة لما حدث بين عامى ١٩١٤و ١٩١٨ وهى السنوات التى استغرقتها الحرب العالمية الأولى، فى الوقت الذى لم تبد فيه أى قيم روحية جديدة فى أى أفق. كانت مشاعر الهشاشة وعدم الإحساس بالأمان متفشية بين الجميع ـ إحساس داخلى بالكارثة الاجتماعية والفكرية أصابت الجميع بالتشكك فى استمرارية أفكار البشر وفى كل مساعيهم وأهدافهم. بدا كل شيء وكأنه طاف فوق فيضان لا شكل له، والقلق الروحى لدى أجيال الشباب لا يجد مستقرًا لأقدامه الوجلة. ومع غياب أى مقاييس يقينية أخلاقية، لم يعد بقدرة أى فرد من الأجيال السابقة أن يجيب إجابات مقنعة على أسئلة كثيرة كانت تؤرق وتحير كل جيل الشباب. العلم يقول: «المعرفة أصل كل شيء»، وينسى العلم أن المعرفة بدون هدف أخلاقى لا تؤدى إلا إلى فوضى عارمة.

كل المصلحين الاجتماعيين والثوار، والشيوعيين، كانوا يسعون بلا شك إلى بناء عالم أفضل وأسعد حالاً، وكلهم كان يفكرون بمصطلحات ورؤية خارجية فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، وحتى يتجاوزوا ذلك العيب، طرحوا نظرية «المفهوم المادى

للتاريخ»، كنوع من الميتافيزيقية المضادة للميتافيزيقية. من جهة أخرى كان المتدينون التقليديون لا يجيدون إلا أن ينسبوا إلى ربهم صفات مستمدة من سلوكياتهم البشرية وعاداتهم الفكرية، والتى أصبحت على المدى الزمنى جامدة بلا معنى: وحين كنا نرى - نحن الشباب صغار السن - أن تلك الصفات المدعاة من البشر على الرب تقف دائماً فى مقارنة جادة ومتناقضة مع البؤس الواقع فى عالم البشر من حولنا، كنا نقول لأنفسنا: «إن القوى المحركة والمتحكمة فى المصائر والأقدار لابد أن تكون مختلفة عن مضمون تلك الصفات التى يصبغها البشر على الرب - ولذلك - فإنه لا يوجد رب».

أيقن بعض منا أن سبب ذلك التخبط الفكرى قد يكمن فى السذاجة التى يتصف بها حراس العقيدة ممن يظنون أنهم لا يأتيهم الباطل ويزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق فى «وصف» و«تعريف» الرب، ثم يلبسونه ملابسهم وأرديتهم، وبعد ذلك يفصلونه عن البشر ومصائرهم.

على المستوى الفردى أدى عدم استقرار المبادئ والأخلاق إلى فوضى أخلاقية وغوغائية فكرية، كما أدى بالأفراد إلى البحث عن مفاهيم شخصية وفردية لما يمكن أن يحقق حياة سعيدة متوازنة.

ربما كان ذلك الإدراك الغريزى هو ما دفعنى إلى اختيار دراسة تاريخ الفن كموضوع أساسى فى دراستى الجامعية.

افترضت فى ذلك الوقت أن وظيفة الفنون الحقيقية هى إثارة الرؤى وحثها لخلق نموذج منطقى مترابط يعيد ربط صورة الأحداث المهشمة. على الرغم من ذلك لم تشبعنى تلك المناهج الدراسية التى واظبت عليها. كان أساتذتى ومنهم أسماء كبيرة ومشهورة مثل «شتر زيجوفسكى» و«دفوراك» مهتمين بشكل أساسى باكتشاف القوانين الجمالية التى تحكم الخلق الإبداعى الفنى أكثر من اهتمامهم بالتوصل إلى النبض الروحى الكامن فى جوهر الأعمال الخلاقة الداخلى: بعبارات أخرى، كان منهجهم موجهاً إلى جانب ضيق يتعلق بالإجابة عن مشكلة الشكل كما يبدو من خلال الفنون الإنسانية.

كانت أيضًا دراسات التحليل النفسى التى درستها فى تلك المرحلة التى اتسمت بالحيرة والتخبط الفكرى أقل إشباعًا مثلها مثل تاريخ الفنون، ولكن لأسباب مغايرة. كانت علوم التحليل النفسى فى ذلك الوقت تشكل ثورة فكرية عظمى حتى إننى أحسست فى أعماقى أن تلك العلوم قد فتحت مغاليق أبواب المعرفة التى كانت موصدة وأنها تبشر بتغيير تفكير الإنسان ومعرفته بذاته ومجتمعه. لقد فتح اكتشاف الدوافع الكامنة فى اللاوعى والتى تشكل الشخصية الإنسانية طرقًا واسعة تتيح فهمًا أوسع للذات. كان من الممكن أن أنجذب لتلك الدراسات الجديدة فى التحليل النفسى، فقد كان للأفكار «الفرويدية» تأثير يماثل تأثير النبيذ المعتق على أفكارى، وما أكثر الليالى التى قضيتها على مقاهى «ڤيينا» مستمعًا إلى مناقشات ساخنة ومثيرة بين رواد التحليل النفسى المبكرين، كان منهم «ألفريد أدلر»، و«هيرمان ستيكل»، و«أوتو جروس»، إلا أن الحيرة والقلق والتشوش حل علىّ من جديد بسبب عجرفة وتعالى العلم الجديد، الذى حاول أن يختزل ألغاز الذات البشرية ويحولها إلى سلاسل من ردود الأفعال العصبية.

كانت النتائج «الفلسفية» التى توصل إليها رواد التحليل النفسى ومن آمنوا بهم تبدو مبالغة فى الدقة ومبالغة فى تبسيط المشاكل البشرية، وعدا أنهم وضعوا أنفسهم فى موضع أصحاب الحقائق المطلقة، إلا أنهم فى النهاية لم يحددوا أى طريق يحقق حياة جيدة للبشر.

وعلى الرغم من أن تلك المشاكل شغلت ذهنى، فإنها لم تزعجنى؛ فلم أكن اهتم كثيرًا بالاتجاهات الميتافيزيقية التى تبحث عما وراء الطبيعة، كما لم تشغل ذهنى أية تساؤلات حول «الحقائق» الكلية المطلقة. كان اهتمامى ينصب فى ذلك الوقت على النواحى التى يمكن إدراكها والإحساس بها من جوانب الحياة: البشر، والأنشطة البشرية، والعلاقات بين البشر. وكان ذلك هو الوقت الذى بدأت فيه فى تكوين علاقات بالنساء.

فى مجرى التفكك والانحلال العام للقيم الأخلاقية التى كانت راسخة قبل الحرب العالمية الأولى، تحللت كوابح وقيود كثيرة كانت تسود العلاقة بين الجنسين. والذى حدث لم يكن ثورة مقننة مضادة للقيود والتحريمات الصارمة الأخلاقية للقرن التاسع عشر

بقدر ما كان رد فعل سلبياً نقل العلاقات بين الجنسين من حالة كانت تحكمها مقاييس أخلاقية معينة تبدو وكأنها مقاييس أبدية لا تقبل التشكيك، إلى حالة معاكسة مضادة. أو تأرجح البندول بين معتقدات الأمس التى آمنت باستمرارية وديمومة الجنس البشرى وتقدمه المستمر، إلى مرارة الوضوح العارى الذى قدمه «شبنجلر»، والنسبية الأخلاقية التى قدمها «نيتشه»، إلى النهلستية(*) الروحية (العدمية الروحية) التى رضعت من التحليل النفسى.

حين أتطلع خلفى إلى تلك الأعوام التى تلت الحرب العالمية الأولى، أشعر أن الشباب من الجنسين الذين تحدثوا وكتبوا بحماس بالغ عن «حرية الجسد»، كانوا أبعد ما يكونون عن روح الحماس الحقيقية التى كانوا يظهرونها: كانت نشوتهم وعياً شديداً بالذات أقرب إلى الحماس والاستهتار الشديد الذى لا يرقى إلى الثورة، كان لعلاقتهم الجنسية المتحررة جانب عرضى غير مقصود - يؤدى فى الغالب إلى اتصالات جنسية غير شرعية.

وحتى لوكنت مازلت أشعر فى ذلك الوقت أننى مازلت مقيداً ببعض بقايا الأخلاقيات التقليدية، كان من الصعب أن أتجنب الانجراف إلى سلوكيات أصبحت واسعة الانتشار. لقد افتخرت أنا أيضاً بذلك التحول وابتهجت له مثل كثيرين غيرى من أبناء جيلى لما كان يعتبر «تمرداً على التقاليد البالية الجوفاء». تحولت العلاقات بسهولة إلى ممارسات جنسية، وتحولت بعض الممارسات إلى حب عاطفى. وعلى الرغم من كل ذلك لا أظن أبداً أننى كنت متحرراً، لأن كل العلاقات التى خضتها ومارستها، مهما تكن سطحيتها وقصر مداها، كان دافعها السعى إلى أمل متفائل، غامض إلا أنه مسيطر، يسعى إلى إثبات أن الفردية المخيفة والعزلة التى فصلت البشر عن البشر قد يحطمها التحام رجل وامرأة.

(*) نظرية ترى أن القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة ، وأن الوجود لا معنى له ، وأن المجتمعات البشرية فى حالة من السوء تجعل الهدم مرغوباً به لذاته . (المترجم)

نما قلقى وتزايد وجعل إتمام دراستى الجامعية يبدو مستحيلاً، ولذا قررت أن أترك تلك الدراسات للأبد وأن أجرب نفسى فى الصحافة. عارض أبى ذلك القرار بأسباب كانت أقوى مما أملت فى تسليمه برغبتى، أصر على أنه يجب علىَّ قبل أن أقرر العمل بالكتابة الصحفية لابد أن أثبت أولاً أننى يمكننى الكتابة، وبعد مناقشة حادة بيننا قرر «أن درجة الدكتوراه لم تمنع أبداً من يحصل عليها من أن يكون كاتبًا ناجحًا». كانت حجته معقولة ومنطقية، إلا أننى كنت صغير السن، مندفعاً نحو ما أراه، شديد الأمل والطموح، ومليئًا بالقلق. حين أيقنت أنه لن يغير رأيه، لم يعد هناك ما أفعله إلا أن أبدأ حياتى بنفسى. ودون أن أخبر أحداً بنياتى، ودعت مدينة «فيينا» ذات يوم من أيام صيف عام ١٩٢٠، وركبت القطار متجهًا إلى مدينة «براغ».

كل ما كنت أحمله عدا أمتعتى الشخصية، خاتمًا من الماس تركته لى أمى قبل موتها فى العام السابق. بعت الخاتم إلى أحد سقاة مقهى المثقفين فى «براغ» وعلى الرغم من خديعتى فى تلك الصفقة، إلا أن ما تلقيته من ثمن للخاتم بدا وكأنه ثروة. وبتلك الثروة فى جيبى واصلت سفرى إلى «برلين»، ولما وصلت إليها قدمنى بعض أصدقائى القدامى الذين كنت أعرفهم فى «ڤيينا» قبل أن يرحلوا إلى «برلين» إلى دوائر الأدباء الساحرة وفنانى برلين الذين يجتمعون عادة على مقهى «ڤيستين» العتيق.

كان على منذ تلك اللحظة أن أدبر أمور حياتى دون أن أنتظر معونة من أحد؛ كما انتويت ألا أقبل وألا أتوقع أى معونة من أبى. بعد ذلك بأسابيع، بعد أن هدأ غضب أبى، كتب إلى قائلاً: «أتوقع أن ينتهى بك الأمر إلى متسكع ومتسول فى حفرة على جانب أحد الطرق»، فرددت عليه قائلاً: «لست أنا من يتسول على جنبات الطرق - سيعلو نجمى حتى أصل إلى القمة». أما كيفية وصولى إلى تلك القمة، فلم تكن واضحة فى ذهنى بأى شكل من الأشكال، كل ما كنت أدركه رغبتى فى العمل بالكتابة الصحفية، كان يملأنى الاقتناع بالطبع أن عالم الصحافة ينتظرنى بأذرع مفتوحة.

بعد بضعة أشهر نفد كل ما كان معى من مال، فبدأت أبحث عن عمل، وبالنسبة لشاب صغير السن يتطلع إلى امتهان الصحافة، فإن الاختيار الواضح هو صحيفة يومية كبرى، إلا أننى بالطبع لم أكن أمثل اختياراً لأى صحيفة، وتحققت من ذلك يومًا

بعد يوم، استنفد ذلك أسابيع طويلة من التسكع المضنى على أرصفة «برلين» ـ فقد أصبح أجر قطار الأنفاق أو الحافلات العامة عزيز المنال ـ ومقابلات مهنية ومتكررة مع رؤساء تحرير صحف ومحررى أخبار ومساعدى محررين حتى أيقنت أن الأمر يتطلب معجزة ليقبلوا كاتبًا بلا خبرة وبلا سطر واحد مكتوب فى أى صحيفة قبل ذلك، ولا تتسنى له أدنى فرصة لدخول الساحة المقدسة لأى صحيفة. ولم تقع معجزة تيسر لى تحقيق هدفى. بدلاً من ذلك تعودت على تحمل الجوع وأمضيت عدة أسابيع لا آكل فيها إلا وجبة واحدة يومية مكونة من كوب من الشاى وشطيرتين صغيرتين فقد كان إيجار الغرفة التى أسكنها يتضمن الإفطار. لم يتمكن أصحابى المثقفين فى مقهى «ڤيستين» من تقديم معونة إلى شاب غض بلا خبرة مثلى، وعدا ذلك، كان أغلبهم يعيشون فى ظروف لا تختلف كثيرًا عن ظروفى، يحيون من يوم إلى يوم على حافة العدم والخواء، ويناضلون بكل قوة ليحافظوا على أنوفهم فوق سطح الماء. أحيانًا، حين كان الحظ يسعد واحداً منهم بنشر مقال أو بيع لوحة، كان يقيم احتفالاً تراق فيه الجعة والمقانق ويدعوننى للمشاركة فى تلك النفحة المفاجئة، كما كان أدعياء الثقافة من الأغنياء يقومون أحيانًا بدعوة الصعاليك من المثقفين إلى العشاء فى منازلهم، ثم يحملقون في فزع ونحن نحشو أمعاءنا الخاوية بشرائح الخبز المحمص المغطى بالكاڤيار ونجرع معه ما تصل إليه أيدينا من شمبانيا، ونرد له جميله بأحاديث منمقة مليئة بمصطلحات ثقافية عن رؤيتنا «للحياة البوهيمية»، إلا أن تلك الدعوات كانت استثناءً، فالقاعدة فى أغلب الأيام كانت جوعًا مطلقًا ـ أما الليل فقد كان يزخر بالأحلام المليئة بشرائح اللحم والسجق، وشرائح الخبز المغطاة بالزبد. فكرت عدة مرات فى الكتابة إلى أبى وأطلب معونته، وكنت متأكداً أنه لن يتردد لحظة فى معاونتى، إلا أن كرامتى كانت تحول دون ذلك فى اللحظة الأخيرة بل كنت أكتب له عوضًا عن ذلك عن أخبار الوظيفة الرائعة المرموقة والأجر الجيد الذى أتلقاه عن تلك الوظيفة... وأخيراً واتانى الحظ الذى كسر تلك الحلقة. قدمنى أحد الأصدقاء إلى ف. و. مورنو، الذى ذاعت شهرته كمخرج سينمائى (كان ذلك قبل أن تجتذبه هوليوود إلى مزيد من الشهرة، ثم موته المفاجئ غير المتوقع)، كان «مورنو» شخصية محببة ذات تأثير، وحاز إعجابى أيضًا على الفور، سألنى «مورنو» إن كنت أود أن أعمل معه فى فيلم جديد سيبدأ تصويره، وعلى الرغم

من أن الوظيفة كانت مؤقتة، فإننى رأيتها وكأن السماء تفتح لى بابًا، فقلت بتلعثم: «نعم، أقبل...».

قضيت شهرين عظيمين متحرراً من القلق والحصار المالى ومعجباً بخبرات «مورنو» التى لم أر مثيلاً لها من قبل، عملت مساعداً له. ازدادت ثقتى بنفسى إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك بالطبع بسبب أن بطلة الفيلم - وهى ممثلة شهيرة فائقة الجمال - لم ترفض مغازلة مساعد المخرج الشاب لها. حين انتهى تصوير الفيلم كان على «مورنو» أن يسافر إلى خارج ألمانيا لتصوير فيلم آخر، وتركته وأنا على اقتناع بأن أيامى السيئة قد انتهت.

بعد ذلك بفترة قصيرة، دعانى صديق يدعى «انطون كوه» - وهو صحافى من ڤيينا اشتهر فى برلين كناقد مسرحى - إلى الاشتراك معًا فى كتابة مشاهد فيلم تقاضى عربونًا لكتابته. قبلت الفكرة بحماس وبذلت جهوداً كبيرة فى كتابة النص، على أية حال، دفع المنتج بسعادة المبلغ المتفق عليه، قسمناه أنا و«أنطون» مناصفة. واحتفالاً بدخولنا إلى «عالم السينما» دعونا الأصدقاء إلى العشاء فى واحد من أشهر مطاعم برلين، حين تلقينا قائمة الحساب وجدنا أن كل ما حصلنا عليه تبخر ثمنًا لسرطان البحر والكاڤيار والنبيذ الفرنسى، إلا أن حظنا كان قد تحسن، فقد بدأنا على الفور فى كتابة مشاهد فيلم آخر، ملهاة تخيلية عن شخصيتى «بلزاك» و«بتسار»، ووجدنا مشترياً للسيناريو فى اليوم ذاته الذى انتهينا فيه من كتابته. فى تلك المرة رفضت أن «نحتفل» بنجاحنا، وبدلاً من ذلك ذهبت فى إجازة لمدة أسابيع قضيتها على بحيرات «باڤاريا». بعد عام آخر ملىء بالمفاجآت الجيدة والسيئة التى قابلتنى فى مختلف مدن وسط أوروبا وحفل بكثير من الوظائف المؤقتة، نجحت أخيرًا فى اختراق عالم الصحافة.

* * *

وقع اختراقى لعالم الصحافة فى خريف عام ١٩٢١، بعد فترة أخرى من المتاعب المالية. كنت جالسًا ذات عصر بمقهى «دى ڤيستين» متعبًا ومكتئبًا، وجلس أحد

الأصدقاء إلى الطاولة التى كنت أجلس عليها. وحين علم بالمشاكل والمتاعب التى أمر بها، قال مقترحًا: «قد تكون هناك فرصة لك. لقد بدأ «داميرت» فى إنشاء وكالة أنباء بالتعاون مع وكالة «يونايتدبرس» الأمريكية، وسيطلق عليها اسم «يونايتد تليجرام» وأنا متأكد من أنه سيحتاج إلى عدد كبير من مساعدى التحرير، ويمكننى أن أقدمك إليه إن أحببت».

كان «داميرت» من الشخصيات المعروفة فى الأوساط السياسية فى برلين، وكان عضوًا بارزًا فى الحزب الكاثوليكى المركزى، وكون ثروة بمجهوده الشخصى، كما كان يتمتع بسمعة طيبة؛ وراقت لى كثيرًا فكرة العمل معه.

فى اليوم التالى اصطحبنى صديقى إلى مكتب دكتور «داميرت»، دعانا الرجل الأنيق المهذب الذى كان فى منتصف العمر إلى الجلوس قائلاً: «حدثنى السيد «فنجال» (وكان ذلك اسم صديقى) عنك. هل عملت من قبل بأى صحيفة؟

أجبته: «كلا ياسيدى» ثم أردفت: «إلا أن لدى خبرات كثيرة، تستطيع أن تعدنى خبيرًا بأمور أوروبا الشرقية وأجيد عدة لغات». (فى الحقيقة - كانت اللغة الوحيدة من لغات أوروبا الشرقية التى أجيدها هى اللغة البولندية، كما كنت لا أعرف إلا القليل عما يدور فى ذلك الجانب من العالم، إلا أننى كنت قد قررت ألا أهدر الفرص التى تتاح لى بسبب تواضع لا مبرر له).

رد قائلاً فيما يشبه الابتسام: «هذا مثير»، ثم أردف «لدى فرصة للخبراء، إلا أننى لسوء الحظ لا أحتاج إلى خبير فى شئون أوروبا الشرقية فى اللحظة الراهنة»، رأى علامات الإحباط التى ارتسمت على وجهى فواصل حديثه: «إلا أننى مازال لدى فرصة عمل لك - قد تكون أقل من قدراتك...».

سألته فى لهفة وإيجار المسكن الذى لم أسدده يتراءى لى فى ذهنى: «ما تلك الفرصة يا سيدى؟».

قال: «فى الحقيقة أنا بحاجة إلى مزيد من موظفى الهاتف.. أوه، كلا، كلا، لا تنزعج، ليس عامل بدالة هاتف: أعنى أننى أريد موظفى هاتف ينقلون الأنباء ويملونها بالهاتف إلى الصحف المحلية بالولايات...»

كانت الوظيفة بالطبع دون توقعاتي. نظرت إلى دكتور «داميرت» ونظر إلىَّ، وحين رأيت تجعدات نظرة السخرية البادية حول عينيه تتزايد، أيقنت أن الموقف قد وصل إلى نهايته. قلت وأنا أتنهد من أعماقى بضحكة قصيرة مفتعلة: «قبلت الوظيفة».

بدأت مهنتى الجديدة فى الأسبوع التالى، كانت مملة وتبعث على الضجر وتبعد كثيراً عن مهنة الصحافة التى أحلم بمزاولتها. لم يكن هناك ما أفعله إلا نقل الأنباء بالهاتف عدة مرات فى اليوم من أوراق مكتوبة إلى الصحف المحلية المشتركة بالوكالة؛ إلا أننى كنت موظف هاتف جيداً كما كان المقابل جيداً أيضاً. دام الحال على ذلك لمدة شهر، وفى نهايته ساقت لى المصادفة فرصة سانحة لم أحلم بها.

كانت روسيا السوفييتية تعانى فى عام ١٩٢١ من مجاعة شديدة قاسية. كان الملايين من أبناء الشعب يعانون من وطأة المجاعة حتى إن مئات الآلاف لقوا حتفهم جوعًا حتى ذلك الوقت. كانت كل الصحف الأوروبية تعرض أخبار المجاعة والموقف العصيب فى روسيا السوفيتية؛ وسارعت هيئات كثيرة لوضع خطط لإرسال مساعدات غذائية للتخفيف من وطأة المجاعة. وكان من تلك البرامج برنامج تزعمه «هربرت هوفر» الذى قام ببرامج مماثلة قبل ذلك لمساعدة دول وسط أوروبا بعد انتهاء الحراب العالمية الأولى، كما كان الكاتب الروسى الشهير «مكسيم جوركى» يقوم بنشاط كبير من داخل روسيا للعمل على تخفيف وطأة المجاعة، كانت نداءاته المؤثرة لدول العالم عبر وسائل الإعلام تهز المشاعر فى أوروبا، وأشيع أن زوجته ستقوم قريباً بزيارة عواصم وسط أوروبا وغربها لتحريك الرأى العام لمد يد المساعدة بوسائل أكثر فعالية.

واتتنى فرصة عمرى، عن طريق أحد معارفى (واتتنى فرص عديدة فى أماكن ومواقف غريبة عن طريق معارفى وأصدقائى) وجذبتنى حتى وضعتنى فى قلب الأحداث الساخنة.

واتتنى الفرصة تلك المرة عن طريق البواب الليلى لفندق «إيسبلاناد»، وكان أحد أفخم فنادق «برلين»، حين رآنى بادرنى قائلاً: «السيدة جوركى هذه سيدة عظيمة، لا يمكن لأى امرئ أن يخمن أنها من بولندا ...».

صحت في دهشة: «السيدة جوركى؟ أين رأيتها بحق الجحيم؟». خفض محدثى صوته حتى تحول إلى همس: «إنها تقيم فى فندقنا هذا. وصلت بالأمس إلا أنها تقيم هنا باسم مستعار، المدير وحده هو الذى يعلم حقيقة شخصيتها. إنها تريد أن تتجنب مطاردة الصحفيين لها».

سألته متشككًا: «وكيف عرفتها؟».

رد باعتزاز: «نحن البوابين نعلم كل ما يدور بالفندق»، ثم تنهد متسائلاً: «هل تعتقد أنها ستكون فرصة عظيمة لو تمكنت من إجراء حوار وحديث مطول مع السيدة جوركى، وسيضاعف من قيمة الحوار أنه لا توجد صحيفة واحدة فى برلين تعرف بوجود السيدة جوركى.. اشتعل الحماس فى أوصالى مثلما تشتعل ألسنة اللهب فى أغصان جافة.

سألت صديقى: «هل بإمكانك أن ترينى إياها بأية وسيلة؟»

أجاب: «لا أدرى، إنها تبذل كل جهدها لكى لايعلم أحد عنها شيئًا... إلا أننى قد أستطيع القيام بشىء لك.. لو جئت إلى البهو فى المساء، قد يكون بإمكانى أن أشير إليها خفية».

بعد أن اتفقت معه، ذهبت راكضًا إلى مكتبى فى وكالة أنباء يونايتد تليجرام: كانت المكاتب خاوية على وجه التقريب بعد انتهاء وقت العمل، ولحسن الحظ كان رئيس التحرير مازال بمكتبه. أمسكت بتلابيبه قائلاً فى تعجل: «هل تعطينى بطاقة صحفية إذا وعدتك أن أعود إليك بخبطة صحفية مدوية؟».

سألنى بتشكك: «أى نوع من الخبطات».

قلت: «أعطنى البطاقة وأنا أعود إليك بخبطة كبرى. إن لم أفعل بإمكانك أن تستعيد البطاقة منى الليلة».

فى النهاية، وافق صائد الأنباء العجوز، وخرجت من مكتبه أتيه فرحًا ببطاقة صحفى مكتوب بها أنى أمثل وكالة يونايتد تليجرام.

قضيت الساعات التالية فى بهو فندق «إيسبلاند». فى التاسعة مساءً وصل صديقى ليبدأ نوبة عمله. من الباب غمز لى بعينه ثم اختفى خلف طاولة الاستقبال، ظهر بعد دقائق وأخبرنى أن السيدة جوركى خارج الفندق، قال: «إذا انتظرت بالبهو، فمن المؤكد أنك ستراها عند عودتها.

فى الحادية عشرة التقطت إشارة صديقى، كان يشير خفية إلى سيدة كانت بالكاد قد تخطت الباب: كانت رقيقة دقيقة الحجم فى حوالى منتصف الأربعينيات من عمرها، وترتدى رداء أسود محبوكًا على جسدها، وعليه معطف أسود من الحرير كان ينساب من خلفها على الأرض. وشت حركتها بأرستقراطية أصيلة حتى إنه كان من الصعب تخيل أنها زوجة شاعر «الشعب العامل»، وأصعب منه تخيل أنها مواطنة سوفيتية. اعترضت طريقها وانحنيت فى احترام ووجهت إليها الحديث بأغرب نغمة فى صوتى: «السيدة جوركى؟»

أخذتها المفاجأة لوهلة، ثم استردت عيناها بريقهما الجميل وردت بلغة ألمانية لا تشوبها إلا لكنة سلافية بسيطة لا تكاد تبين: «أخطأت.. أنا لست السيدة جوركى - اسمى كذا.. كذا» (وذكرت لى اسمًا روسيًا طويلاً إلا أننى نسيته) أصررت على رأيى قائلاً: «كلا ياسيدة جوركى.. أنا متأكد أننى لم أخطئ، وأعلم أيضًا أنك لا تودين أن يزعجك الصحافيون - إلا أن هذا الأمر يعنى لى الكثير - بل الكثير جداً إن سمحت لى بالحديث بضع دقائق فقط. هذه أول فرصة لى لأثبت بها ذاتى. أنا متأكد أنك لا تودين تدمير فرصتى وما يترتب على ذلك من آثار سيئة على مستقبلى العملى فى الحياة...؟» ثم أظهرت لها بطاقتى الصحفية قائلاً: «لقد حصلت عليها اليوم فقط، ويتحتم علىَّ إعادتها إلا إذا قدمت حديثًا أجريه مع السيدة جوركى».

استمرت السيدة الأرستقراطية فى التبسم: «وإذا أخبرتك بكلمة شرف أننى لست السيدة جوركى، هل ستصدقنى حينئذ».

قلت لها: «كل ما تذكرينه لى مقرونًا بكلمة شرف منك سأصدقه على الفور».

صدرت منها ضحكة رقيقة مفاجئة وقالت: «يبدو أنك شاب لطيف، (كان رأسها الجميل يصل بالكاد إلى كتفى) لن أكذب عليك أكثر من ذلك. أنت تكسب، هل تمنحنى

شرف تناول الشاى فى جناحى؟» وهكذا، كان لى شرف تناول الشاى مع السيدة جوركى فى جناحها الخاص.

على مدى ما يقرب من الساعة وصفت بحرارة بالغة أحوال المجاعة التى تمر بها بلادها، وحين غادرتها بعد منتصف الليل، كان معى مجموعة سميكة من الأوراق التى سجلت بها الحوار.

فتح مساعدو التحرير الليليون فى يونايتد تليجرام أعينهم فى دهشة عندما رأونى فى تلك الساعة من الليل، إلا أننى لم أهتم بهم فقد كان لدى عمل عاجل لابد أن أتمه، كان علىَّ أن أنتهى من صياغة الحوار بسرعة قدر ما أستطيع، ثم حجزت مكالمات هاتفية عاجلة لكل الصحف المحلية المشتركة فى يونايتد تليجرام دون إذن أو تصريح من رئيس التحرير.

فى الصباح التالى دوت القنبلة الصحفية، فبينما خرجت صحف برلين اليومية الكبرى دون أية إشارة لوجود السيدة جوركى فى برلين، كانت كل الصحف المحلية المشتركة لدى وكالة أنباء يونايتد تليجرام تنشر على صدر صفحاتها الأولى خبر إجراء الممثل الخاص للوكالة حديثًا شاملاً مع السيدة جوركى الموجودة سرًا فى برلين، وقدم موظف الهاتف سبقًا صحفيًا كبيرًا.

بعد الظهر عقد دكتور «داميرت» اجتماعًا للمحررين بمكتبه، وتم استدعائى لحضور الاجتماع، وبعد محاضرة استهلالية ركز فيها على أنه لا يجوز إرسال أى مادة صحفية إلى الصحف المشتركة بالوكالة مهما تكن أهميتها إلا بعد إجازتها من محرر الأخبار، أخبرنى أننى قد رقيت إلى درجة محرر.

أخيرًا أصبحت صحفيًا.

[٤]

سمعت أصوات أقدام خفيفة قادمة على الرمال: إنه زيد، عائد من البئر بعد أن ملأ القرب بالمياه، أسقطها على الرمال بالقرب من النار فصدر عنها رنين ارتطام الماء

بالماء، ثم أكمل إعداد العشاء: طهى أرزًا ولحم بعير كان قد اشتراه من القرية عند حلول المساء. وبعد أن قلب الطعام بالمغرفة التقليب النهائى والبخار يتطاير من الإناء، استدار إلىّ متسائلاً: «هل تأكل الآن ياعمى؟».

ودون أن ينتظر ردى، أفرغ الطعام فى قصعة متسعة فى كومة كبيرة، قرب القصعة أمامى، ثم تناول وعاءً نحاسيًا ملأه بالماء لأغسل يدى: «بسم الله، أدام الله عليك نعمة الحياة».

انهمكنا فى الأكل، جالسين متربعى الساقين فى مواجهة بعضنا ومن بيننا القصعة ونتناول الطعام بأصابع يدنا اليمنى.

رحنا نأكل فى صمت، لم يكن أى منا من مكثرى الحديث، عدا ذلك، كنت قد وجدت نفسى غارقًا فى خضم ولجة ذكريات تتوالى على ذهنى، أفكر فى العمر الذى عشته قبل قدومى إلى الجزيرة العربية، قبل أن أعرف زيد، لذا لم أتمكن من الحديث بصوت مرتفع، فرحت أتحدث فى صمت مع نفسى وإلى نفسى، أتذوق طعم الحاضر عبر أحوالى فى الماضى.

بعد أن تناولنا عشاءنا، وبينما أنا متكئ على سرج الناقة، وأصابعى تعبث بالرمال، أحملق فى نجوم الجزيرة العربية الصامتة على صفحة السماء، فكرت أنه كان من الممكن والرائع لو وجدت بصحبتى من يمكننى أن أحكى له ما حدث لى فى تلك الأيام البعيدة، إلا أنه لم يكن بصحبتى إلا زيد. كان زيد عظيمًا ومخلصًا فى وفاء نادر، وكان رفيقى فى أيام الوحدة. كان أريبًا، دقيق الفهم حسن الإدراك، وخصاله حميدة.

ألقيت عليه نظرة جانبية - كان وجهه بملامح حادة تحيطها خصل طويلة من الشعر، كان منحنيًا بانهماك على إبريق القهوة، أدرت رأسى باتجاه الناقتين الباركتين تلوكان طعامهما فى أناة - أيقنت أنى أحتاج إلى مستمع آخر: امرؤ لم يلعب دورًا فى حياتى الماضية، وبعيد عن مشاهد وروائح وأصوات الأيام والليالى الحالية: امرئ استطيع أمامه أن أسرد الأفكار التى ترد إلى ذهنى واحدة بعد أخرى بلا تزويق، فقد ترى عيناه ما بتلك الأفكار وأراها أنا من جديد وبذلك يساعدنى على اصطياد أطراف حياتى وهى تمر من شبكات كلامى.

إلا أنه لم يكن يوجد معى إلا زيد. وزيد هو الحاضر.

الفصل الثالث

ريـــاح

[١]

سرنا، وسرنا، رجلان على ناقتين، وانداح الصباح مبتعداً. كسر زيد حاجز الصمت السائد: «شيء غريب، شيء غريب جداً». سألته: ما الغريب يا زيد؟» قال: «أليس غريباً يا عمي، أننا كنا متوجهين منذ أيام قليلة إلى تايما وغيرنا وجهتنا الآن إلى مكة؟ أنا متأكد أنه لم يكن بنيتك التوجه إلى مكة قبل تلك الليلة التي تهت فيها. أعرف أنك متقلب مثل البدو.. مثلي تماماً. هل كان ذلك من عمل الجن ياعمي؟ مَنْ يغير وجهته هكذا فجأة، منذ أربعة أعوام مضت طلبت مني أن أوافيك بمكة - والآن تأمرني فجأة أن نغير اتجاهنا إلى مكة، هل نترك أنفسنا هكذا توجهنا الرياح كأننا لا نعرف ما نريد؟».

أجبته: «كلا يازيد - أنت وأنا، نترك أنفسنا للرياح لأننا نعرف ما نريد: قلوبنا تدرك ما نريد، حتى لو كانت أفكارنا أبطأ في ملاحقة ما تريده قلوبنا، إلا أنها تدرك في النهاية ما يدور في القلوب ثم نعتقد بعد ذلك أننا اتخذنا قراراً ...».

* * *

ربما كان قلبى يدرك هذا فى ذلك اليوم منذ عشرة أعوام مضت، حين وقفت بجوار سور السفين التى أقلتنى فى أول رحلة لى إلى الشرق الأوسط، كان السفين يتجه جنوبيًا عبر البحر الأسود إلى مضيق البسفور، وكانت ليلة ضبابية لم يبد فى عتمتها أى شىء، وتلى الليل نهار ضبابى أيضًا ، كان الماء بلون الرصاص، يتناثر زبده ويتطاير على سطح السفين؛ أما محرك السفين، فكان له إيقاع يشبه دقات القلب.

وقفت بجوار السور المعدنى، أتطلع عبر قتامة الضباب الشاحبة. إن سألنى امرؤ عما كنت أفكر به وما توقعاتى التى أحملها فى ذهنى فى أول رحلة لى إلى الشرق الأوسط، لما وجدت إجابة محددة لتساؤله. ربما كان الفضول.. ربما، إلا أنه لم يكن فضولاً يفصح عن نفسه بطريقة سافرة مباشرة، على الأقل لم تكن فى ذهنى أهداف عظيمة القيمة. وجد قلقى الداخلى علاقة تربطه بالضباب السائد على صفحة البحر. لم يشغل فكرى أنى أزور بلاداً غريبة وشعوبًا مختلفة، كما لم يشغل فكرى صور لمستقبل قريب أو مدن غريبة بأشكال غير مألوفة أوشك أن أصل إليها، وبشر بأزياء غريبة وسلوكيات مغايرة سأراها عاجلاً، اعتبرت أن تلك الرحلة حدث وقع بالمصادفة، ويحتمل أن تكون مبهجة، إلا أنها لا تحمل أهمية خاصة على الإطلاق. فى تلك اللحظة تعكر فكرى وتشتت بهموم الماضى.

الماضى؟ هل لى أى ماض؟ كان عمرى اثنين وعشرين عامًا .. إلا أن أبناء جيلى - أولئك الذين ولدوا مع مطلع القرن العشرين - عاشوا عصراً سريع الإيقاع عن أى زمن عاشته أية أجيال أخرى سابقة، بدا الماضى الذى أتذكره كما لو كنت أنظر إلى مدى زمنى سحيق غائر القدم. نهضت من مخيلتى كل المصاعب والمشاكل والمغامرات التى خضتها فيما مضى من عمرى، كل التطلع والشوق واللهفة والسعى وخيبة الأمل والخذلان والنساء وأول علاقات فى حياتى.

كانت الليالى تبدو لنا بلا نهاية، نسير تحت ضوء النجوم، لا ندرى على وجه التحديد ما الذى نريده، أسير برفقة صديق فى شوارع تخلو من المارة، نتحدث عن أشياء تبدو لنا جوهرية، متغافلين عن جيوبنا الخاوية وافتقاد الأمان فى الأيام المقبلة.. تلك المشاعر من عدم الرضا السعيد التى لا يعرفها إلا الشباب والرغبة العارمة فى هدم العالم

وبنائه من جديد.. وإحساس يقيني بحتمية إعادة تشكيل المجتمع ليحيا الجميع حياة صائبة ومشبعة.. وتنظيم علاقاتهم لتحطيم عزلة الفرد، الحياة بصدق فى تشارك تام.. ما هو الخير وما هو الشر؟ ما هو المصير؟ ما هى الأفعال الجوهرية التى يجب القيام بها دون تظاهر لتتطابق مع طبيعة المرء وحياته حتى يمكن له أن يقول بصدق وارتياح من الأعماق: «أنا وقدرى شىء واحد»؟

مناقشات مثقفين لا تصل أبدًا إلى نهاية ولا إلى حلول... على مقهى المثقفين فى ڤيينا وبرلين، مناقشات ساخنة غاصة بمصطلحات عن «الشكل» و«المضمون» وتعبيرات ومصطلحات عن الحرية السياسية ومعناها، عن علاقة الذكر والأنثى.. جوع إلى المعرفة، وأحيانًا إلى الطعام... وليالى الغرام بلا قيود: فراش مبعثرة أغطيته عند الفجر، فى الوقت الذى تكون فيه إثارة الليل قد ذوت وانطفأت جذوتها وتحولت إلى لون رمادى فاتر لا حياة فيه: وحين يأتى صباح جديد ينسى المرء رماد الفجر ويسعى من جديد بخطوات مترنحة ويشعر أن الأرض ترتجف فى مرح تحت وقع أقدامه... والإثارة المصاحبة لكتاب جديد أو وجه جديد؛ البحث، ثم التوصل إلى أنصاف إجابات، وتلك اللحظات النادرة حين يتبدى العالم فجأة، ولثوان، وكأنه سكن تمامًا وأضاءته ومضة عابرة من الفهم واعدة بكشف لم يصل إليه أحد من قبل: ومضة كاشفة تحمل إجابات كل الأسئلة الحائرة.

* * *

كانت سنوات عجيبة تلك السنوات التى شكلت واستهلت عشرينيات القرن العشرين فى وسط أوروبا. كان الجو العام يسوده انعدام الأمان الاجتماعى والأخلاقى، وأدى إلى شيوع اليأس الذى عبر عن نفسه فى أعمال موسيقية تجريبية تتسم بالجرأة، وعبر اليأس عن نفسه فى التصوير والفنون التشكيلية والمسرح، كما بدا فى تلمس اتجاهات جديدة دارت حول تساؤلات رائدة عن شكل الحضارة المطلوبة، إلا أن كل ذلك أفضى بمصاحبة التفاؤل الإجبارى إلى فراغ روحى وغموض متشائم ولد من فقدان الأمل المتزايد فى مستقبل البشر.

على الرغم من حداثة سنى، فإنه لم يخف عنى أنه بعد كارثة الحرب العظمى لم تعد الأمور تحتوى على أى قدر من الصواب فى عالم أوروبى محطم، غير راض ومتوتر عاطفيًا. إلههم الحقيقى لم يعد إلهًا روحيًا: بل أصبح إلههم البحث عن الراحة والرفاهية. ولا جدال أنه كان هناك كثيرون أحسوا وفكروا بشكل روحى وبذلوا جهوداً يائسة ضد التيار ليصالحوا معتقداتهم الأخلاقية والروحية مع روح الحضارة المادية السائدة، إلا أن من نجح منهم كان استثناءً نادراً. أما الأوروبى العادى الذى يمثل الغالبية - سواء الديموقراطى أو الشيوعى، العامل اليدوى والمفكر - فقد بدوا جميعًا وكأنهم باتوا لا يؤمنون إلا بمعتقد إيجابى واحد: هو عبادة التقدم المادى، والإيمان بأنه لا يوجد أى هدف للحياة أهم من تحويلها بصفة دائمة ومستمرة إلى حياة سهلة ومريحة، أو كما يذكر المصطلح الذى ساد: «الاستقلال عن الطبيعة». كانت معابد وكنائس تلك العقيدة هى المصانع العملاقة، ودور السينما، والمعامل الكيميائية، والمراقص، والكهرباء، كما كان قساوستهم ومبشروهم هم رجال البنوك، والمهندسون، والساسة، ونجوم الأفلام، والإحصائيون، وكبار رجال الصناعة، ورجال الطيران، ومفوضو الأحزاب الشيوعية. كان الفزع الأخلاقى واضحًا فى افتقاد أى اتفاق حول معانى الخير والشر وخضوع كل القيم الاجتماعية والاقتصادية لقانون «النفعية» - حتى إنه صبغ بصبغته نساء الشوارع، اللاتى رحن يهبن أنفسهن لأى عابر فى أى وقت يطلب منهن ذلك. التوق الذى لا يشبع للقوة والمتعة عند الضرورة الذى يقود إلى انفصال المجتمع الغربى إلى مجموعات متناحرة متعادية مسلحة حتى أسنانها ومصرة على إفناء بعضها البعض حينما وحيثما تتعارض اهتمامات تلك الجماعات أو تتناقض. وعلى الجانب الفكرى، كان الناتج بشراً تنحصر أخلاقهم فى إحراز المنفعة ومثلهم الأعلى للحق هو النجاح المادى.

رأيت كيف اضطربت حياتنا وافتقدت السعادة الحقة، وكيف تقلص التواصل والتعايش بين فرد وآخر على الرغم من الإصرار الهستيرى على تماسك «المجتمع» و«الأمة»، وإلى أى مدى شردنا بعيداً عن الفطرة، وإلى أى مدى ابتذلت أرواحنا. شاهدت كل ذلك وعشته، إلا أنه لم يصبنى - كما لم يصب بعضًا ممن عشت بينهم - ورأيت أن الحل، أو على الأقل الحل الجزئى لتلك الحيرة موجوداً فى ثقافة أخرى، كانت

أوروبا هى بداية ونهاية تفكيرنا: حتى اكتشفت الحكيم لاو ـ تسى ، وأنا فى سن السابعة عشرة أو نحوها.

* * *

بدا اكتشافى لـ «لاو ـ تسى» اكتشافًا حقيقيًا، لم أكن سمعت عنه قبل ذلك، حتى وقعت عيناى على ترجمة ألمانية لـ «تاو ـ تى ـ كنج» موضوعة على طاولة مكتبة بڤيينا. أثار الاسم الغريب بعض فضولى ففتحت الكتاب بطريقة عشوائية، وجرت عيناى على فصل قصير من الحكم ـ شعرت برجفة مفاجئة فى أعماقى، طعنة من السعادة المفاجئة جعلتنى أنسى ما حولى ولا أشعر بوجوده وأتجمد فى مكانى مسحوراً ومأخوذاً بما قرأت: كان ما أقرأه يظهر لى جوهر حياة البشر فى صفائها، خالية من النزاعات والصراعات، تسمو إلى سعادة خالصة مفتوحة لا تنضب أمام القلب البشرى إذا هفا إلى رفع ذاته إلى حريته وخلاصه: وجدت فيما قرأته صدقًا خالصًا، تعرفت إليه ونفذ إلى عقلى ومشاعرى بفرح يماثل فرح العائد إلى وطنه بعد غياب طويل... على مدى أعوام، كان «لاو ـ تسى» بمثابة نافذة أتطلع من زجاجها النقى إلى حياة بعيدة عن ضيق الرؤى ومخاوف الذات، والهواجس الطفولية التى ترغم البشر إلى محاولة تأمين وجودهم فى كل لحظة عن طريق «تحسين الوسائل المادية» بأى ثمن، لم أكن أرى أن تحسين الوسائل المادية غير ضرورية بالنسبة لى، بل على العكس، ظللت معتقداً أنها مهمة وضرورية، إلا أننى كنت مقتنعًا فى الوقت ذاته أنها ـ أى الوسائل المادية ـ لا يمكن أن تحقق غاية نهائية أو هدفًا جوهريًا وهو تحقيق سعادة البشر، إلا إذا صاحبها تصالح وتوافق مع المكونات الروحية وإيمان بالقيم المطلقة. أما كيفية تحقيق إعادة التصالح تلك، وأى نوع من القيم ذلك الذى كان يدور بخلدى، فلم يكن واضحًا تمامًا فى ذهنى.

كان من الحماقة بالطبع أن أتوقع إمكانية تغيير البشر لأهدافهم، وبالتالى توجهاتهم ومسعاهم بمجرد أن يبشرهم أحد بذلك، كانت رؤية لاو ـ تسى تذهب إلى أن المبشر لابد أن يفتح نفسه للحياة بدلاً من جذبها ومحاولة قهرها بالعنف.

لم يكن التبشير وحده، ولا الإدراك الذهنى وحده أن يغير أى منهما على حدة المجتمع الأوروبى؛ فما كان ينقص المجتمع الأوروبى الإيمان النابع من القلب، واستسلام صادق وحميم للقيم لا يحتوى على «لو» و«لكن: متى يتحقق مثل ذلك الإيمان...؟

بشكل ما لم يتبادر إلى ذهنى فى ذلك الوقت أن أفكار لاو - تسى لا تهدف فقط إلى اختراق الذهن لتحقيق تغيير فى المواقف الفكرية، بل كان يسعى أيضًا إلى تغيير المفاهيم الجوهرية التى تنبع منها المواقف الفكرية. لو كنت قد أدركت ذلك لكنت قد أدركت أن أوروبا لا يمكن أن تحقق ذلك الصفاء الروحى الذى يتحدث عنه لاو - تسى إلا إذا امتلكت أوروبا شجاعة التساؤل عن أصل وحقيقة جذورها الروحية والأخلاقية. كنت بالطبع أصغر من أن أصل بوعيى إلى مثل ذلك الاستنتاج: أصغر من أن أتمكن من الإحاطة بالتحدى الذى يطرحه الحكيم الصينى بكل عظمة مضامينه. حقيقة، صدمتنى رسالته حتى الأعماق، لقد كشفت لى عن أفق للحياة يمكن فيه للمرء أن يصبح هو وقدره شيئًا واحدًا، أى أن يتوحد المرء مع ذاته: ولكن حيث إنى لم أدرك بوضوح كيف يمكن لتلك الفلسفة أن ترسى مقاييس يمكن تطبيقها فى الواقع العملى للحياة لذلك النسق الأوروبى، بدأت تدريجيًا أتشكك فى إمكانية تطبيقها. لم أتوصل حتى إلى نقطة ما أتوقف عندها وأتساءل إن كانت طريقة الحياة الأوروبية فى جوهرها هى الطريقة الوحيدة الملائمة للحياة. أى أننى كنت مثل كل المحيطين بى، مغلف تمامًا ومشبع كليًا بالنظرة الثقافية الذاتية الأوروبية.

وهكذا، وعلى الرغم من أن صوت لاو - تسى لم يصمت أبدًا داخلى، فإنه تراجع خطوة بعد خطوة إلى أن احتل مكانه بين التأملات الفكرية الذهنية المجردة، وبمرور الوقت كفت أن تكون أكثر من رؤى فكرية رائعة فى صياغة شعرية جميلة. داومت على قراءته من آن لآخر؛ وفى كل مرة كنت أشعر بطعنة الرؤى السعيدة، ثم أضع الكتاب جانبًا مع الإحساس بالأسى أن ذلك لم يكن إلا نداءً حالمًا إلى برج عاجى لا يوجد إلا فى الخيال، وعلى الرغم من قسوة التناقضات والنزاعات ومرارة عالم تسوده الأطماع كنت جزءًا منه، إلا أننى لم أكن أبحث عن برج عاجى أحيا فيه من صنع لاو - تسى.

وجدت نفسى لا أشعر بحمية ولا حماس للأهداف والمساعى التى كانت تسرى فى الحياة الفكرية الأوروبية وتموج بها الآداب والفنون والاتجاهات السياسية وطنين المناقشات الحامية. فمع أوجه التناقضات بين كل التيارات والاتجاهات إلا أن هناك جانبًا مشتركًا جمعها كلاً فى افتراض واحد، هو الافتراض الساذج بأنه من الممكن انتشال الحياة من فوضاها الحالية والارتقاء بها إلى الأفضل لو تم تغيير الأحوال الاقتصادية والسياسية إلى الأفضل. كنت أوقن أن التقدم المادى فى حد ذاته ليس هو الحل، على الرغم من أننى لم أكن أعرف على وجه اليقين أين يمكن أن أجد الحل، كما لم أتمكن من إقناع نفسى بذلك الحماس الذى اعترى كل جيلى من أجل «التقدم».

لم أكن تعيسًا، كما لم أكن انطوائيًا، بل كنت فى ذلك الوقت سعيدًا بما هو أكثر من النجاح فى حياتى العملية، لم أكن أستمد سعادتى من وظيفتى، كان عملى فى وكالة يونايتد تليجرام يرجع إلى تمكنى من عدة لغات، وكنت قد أصبحت نائبًا لرئيس تحرير قطاع أخبار الصحافة الإسكندنافية، وفتح أمامى ذلك العمل سبلاً وطرقًا عريضة إلى عالم أرحب وأوسع. كان مقهى «دى ڤيستين» ومن بعده مقهى «رومانشيه» ملتقى الكتاب والمفكرين البارزين والفنانين ومشاهير الصحفيين وممثلين ومنتجين، وكانوا كلهم يمثلون لى البيت الفكرى. ربطتنى بهم جميعًا علاقات صداقة توفرت بها الندية، كان لى أيضًا شهرتى التى لم تقل عن شهرة كثيرين منهم. كانت حياتى مليئة بصداقات عميقة، وعلاقات حب وغرام عابرة. كانت الحياة مثيرة، مليئة بأحلام واعدة صاخبة الألوان. كلا، لم أكن تعيسًا بالتأكيد - لكنى لم أكن أشعر بالرضى ولا بالإشباع، لا أدرى بالتحديد ما الذى أسعى إليه وما الذى أتوق إلى تحقيقه، وفى الوقت نفسه كنت مقتنعًا، مع فورة الشباب وجموحه، أننى سأعرف فى يوم ما، ما أبحث عنه وأحققه. هكذا كنت أتأرجح بين ما أحسه فى قلبى من رضا وعدم رضا مثلى مثل كثير من شباب تلك السنوات الغريبة: فمع أن أيًا منا لم يكن تعسًا، إلا أن قليلاً من كان سعيدًا بوعى وإدراك. لم أكن تعسًا: ولكن عزوفى عن المشاركة فى الاتجاهات والصراعات المتعارضة للتوجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية نما مع الوقت ليتحول إلى إحساس غامض من عدم الانتماء الكامل، وصحب ذلك الإحساس غموض آخر، رغبة عارمة للانتماء، إلى من؟ - وأن أصبح جزءًا من كل - أى كل؟

ثم فى أحد أيام ربيع عام ١٩٢٢، تلقيت رسالة من خالى دوريان، كان خالى دوريان أصغر أشقاء أمى، ربطتنى به علاقة صداقة أكثر منها قرابة. كان طبيبًا نفسيًا وأحد تلاميذ عالم النفس الشهير «فرويد»، وكان فى ذلك الوقت يشغل وظيفة طبيب نفسى فى مصحة عقلية فى مدينة القدس. ولأنه لم يكن صهيونيًا ولا يتعاطف مع المخططات الصهيونية - كما كان لا يميل إلى العرب، فقد شعر بوحدة وعزلة فى عالم لا يفعل به إلا أن يعمل ويتلقى أجراً. لم يكن متزوجًا، ولذا فكر فى ابن شقيقته كرفيق ملائم فى تلك الوحدة. أشار فى رسالته إلى تلك الأيام المثيرة حين كان يرشدنى إلى ذلك العلم الفذ الجديد، علم التحليل النفسى، واختتم رسالته قائلاً:

«لماذا لا تأتى وتقيم بضعة أشهر هنا؟ سأدفع نفقات سفرك قدومًا وعودة، وسأترك لك تحديد موعد عودتك إلى برلين. وحين تكون معى هنا، ستعيش معى فى منزل عربى قديم مشيد من الحجارة، جوه لطيف صيفًا وبارد حتى التجمد فى الشتاء، سنقضى وقتًا ممتعًا معًا. لدى كتب كثيرة هنا، حين تشبع من تأمل المناظر الغريبة حولنا، يمكنك أن تقرأ كما تشاء..».

اتخذت قرار السفر بتصميم وعزيمة اتصفت بها دائمًا قراراتى الكبرى. فى الصباح التالى أخبرت دكتور «دامبرت» فى وكالة يونايتد تليجرام أن هناك اعتبارات وأسبابًا مهمة تحتم على التوجه إلى الشرق الأوسط، وأننى سأترك العمل خلال أسبوع.

لو أخبرنى أى امرئ فى ذلك الوقت أن أول معرفة مباشرة لى بالعالم الإسلامى ستؤدى إلى ما يفوق كثيراً ما يخرج به أى مسافر فى رحلة أو إجازة عمل، وأنها ستصبح نقطة تحول عظمى فى حياتى، لكنت قد ضحكت كثيراً من مثل تلك المزحة المجافية للعقل. ليس بالطبع لأننى محصن ضد إغراءات البلاد التى ترتبط فى ذهنى - وذهن كل الأوروبيين - بالجو الرومانطيقى لحكايات ألف ليلة وليلة؛ فقد توقعت أن أرى ألوانًا وأصنافًا من البشر، وأزياء مختلفة متباينة والمرور بمواقف رائعة مثيرة، إلا أننى لم أتوقع أية مغامرات روحية. لم تمثل لى تلك الرحلة وأنا أعد نفسى لها أى وعد خاص أو حلم بتحقيق أى جانب شخصى. كل ما كان يدور بذهنى عن تلك الرحلة كنت أتعامل

معه برؤية غربية، فقد كان رهانى لايزال محصوراً فى تحقق أعمق فى المشاعر والإدراك من خلال البيئة الثقافية الوحيدة التى نشأت بها وهى البيئة الثقافية الأوروبية. وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ لم أكن إلا شاباً أوروبياً صغيراً فى مقتبل عمره، نشأت على الاعتقاد بأن الإسلام وكل رموزه ليس إلا محاولة التفافية رومانطيقية حول التاريخ الإنسانى، محاولة لا تحظى حتى «بالاحترام» من الناحية الروحية والأخلاقية، وبالتالى لا يستحق الذكر، فضلاً عن أنه أقل من أن يقارن بالعقيدتين الوحيدتين اللتين يرى الغرب أنهما تستحقان الاهتمام والبحث وهما المسيحية واليهودية.

بذلك الفكر الضبابى الغائم، والانحياز الغربى ضد كل ما هو إسلامى (لا يشمل ذلك بالطبع المظهر الرومانطيقى الفولكلورى لمظاهر الحياة الإسلامية كما تبدو فى نظر الغرب) ولو تعاملت بعدل مع ذاتى، لابد أن أقرر أننى أيضاً كنت غارقاً حتى أذنى فى تلك الرؤية الذاتية الأوروبية والعقلية الذاتية الثقافية التى اتسم بها الغرب على مدى تاريخه.

* * *

والآن، كنت على سطح سفين فى طريقى إلى الشرق. كان السفر ممتعاً من برلين حتى القسطنطينية، وفى هذا الصباح الضبابى على متن تلك السفين. ظهر شراع أحمر من بين حُجُب الضباب ومرق بجوار السفين، عرفت أن الشمس على وشك الظهور. كانت حزم من ضوء شاحب، رفيعة كالخيوط، تسقط على العتمة الضبابية السائدة على سطح الماء، كان للعتمة الضبابية لون شاحب مثل الألوان المعدنية. تحت تواصل تزايد أشعة الشمس الموشكة على الإشراق، ترسبت الكتل اللبنية للضباب ببطء وتثاقل على سطح الماء، ثم تفرقت عن بعضها، ثم تناثرت محيطة بجوانب حزم ضوء الشمس المتزايد كأقواس متطايرة، مثل أجنحة الطيور.

سمعت من خلفى صوتاً عميقاً ممتلئاً يقول: «صباح الخير» استدرت وتعرفت على الفور على رفيقى فى السفر ذى الرداء الكنسى الأسود، والذى قابلته فى الليلة الماضية،

وجه ودود تعلوه ابتسامة محببة جعلتنى أميل إليه بسهولة. كان قسًا جزويتيًا نصف بولندى ونصف فرنسى ويعمل معلمًا للتاريخ فى واحدة من كليات مدينة الإسكندرية، وكان عائدًا إليها بعد انقضاء إجازته. كنا قد تبادلنا الحديث فى الليلة السابقة حول مواضيع مختلفة اتضح منها أننا مختلفان فى مناحى فكرية عديدة، وكنت ناضجًا بما يكفى لأدرك أنه طراز من الرجال الأذكياء الجادين، كما يتمتع بروح مرحة.

رددت تحيته: «صباح الخير يا أب فيليكس، انظر إلى البحر...» كان نور الصباح قد أشرق واستعادت المرئيات ألوانها الطبيعية بعد انقشاع الضباب. وقفنا على مقدم السفين تهب علينا رياح الصباح. حاولت متابعة تغيرات الألوان السريعة والمتعاقبة فى أمواج المياه المتلاطمة على صفحة البحر: أزرق، أخضر، رمادى. من الممكن أن تكون زرقاء إلا أنها عكست لونًا أرجوانيًا من الشمس المتصاعدة، انزلق اللون المنعكس على صدر الأمواج، بينما تطاير زبد أبيض من نصل الأمواج وتشكل كأنه رغوة جليدية تجرى على حافة ألوان معدنية مجعدة ثم تحولت الأمواج العاتية إلى مجرد حركة ارتجاجية وسطح مياه مرتجف - وإلى آلاف الدوامات الدقيقة المستقلة عن بعضها وتحول لون فجواتها من الأرجوانى إلى الأخضر الداكن، ثم يتصاعد اللون الأخضر فى قلب الدوامة متحولاً إلى لون بنفسجى مرتجف؛ ثم يتحول فى لحظة إلى لون النبيذ القانى، ثم فى وهلة إلى لون التركواز الأزرق ويصبح حافة موجه، ويتكسر من جديد؛ مرة بعد أخرى فى الرغوة البيضاء التى نشرت شباكها على تلال الأمواج المتتابعة... مرة بعد مرة فى تتابع لا ينتهى.

بعثت حركة الأمواج وألوانها المتغايرة فى نفسى إحساسًا بالقلق والتوتر لعدم قدرتى على متابعة تبايناتها السريعة. حين تطلعت إليها بنظرة شاملة، أحسست لثوان أنه يمكن أن ألم بكل ذلك من خلال صورة كلية متكاملة؛ فعادة التركيز الإرادى وربط مفهوم منفصل مستقل بمفهوم آخر لم يؤد إلا إلى إدراك سلسلة من الصور المنفصلة التى لا يربطها رابط ومن مشكلة العجز عن الفهم والإحاطة، والتشتت الذهنى الغريب المقلق، تولدت فكرة سطعت فى ذهنى بوضوح شديد - أو هكذا بدت لى فى ذلك الوقت - قلت بطريقة لا إرادية معبرًا عن الفكرة التى راودتنى: «من يتمكن من الإلمام بكل تلك المتغيرات السريعة بحواسه سيكون بإمكانه السيطرة على قدره ومصيره».

رد الأب فيليكس: «أعرف ما تعنيه، ولكن لماذا يرغب البشر فى السيطرة على أقدارهم؟ للنجاة من المعاناة؟ ألا يكون من الأفضل أن يتحرر البشر من أقدارهم»؟

قلت: «أنت تتكلم تقريبًا مثل بوذى يا أب فيليكس. هل تعتبر أيضًا أن النيرفانا هى هدف الوجود؟»

رد قائلاً: «أوه، كلا، بالتأكيد لا أعنى ذلك... نحن المسيحيين لا نسعى لإخماد الحياة والمشاعر ـ نحن نسعى فقط إلى السمو بالحياة فوق مستوى المادة والحس إلى مملكة الروح».

سألته: «ألا يعد ما تذكره نوعًا من إلغاء الذات والوجود والحياة لحساب الروح؟»

رد قائلاً: «لا، ليس كذلك يا صديقى الشاب، فما أذكره هو السبيل الوحيد للحياة الحقة، للسلام...»».

فجأة ظهر أمامنا مضيق البسفور، بدا طريقًا مائيًا واسعًا تحفه من جانبيه أمواج يتصاعد منها زبد أبيض من ارتطامها بالتلال الصخرية على جانبيه. تناثرت على التلال الصخرية قصور عالية شغلت جانبًا من سماء ضفتى المضيق، من بينها حدائق بدت كشرفات تطل على المياه، وقلاع عثمانية قديمة بدت وكأنها كتل صخرية ضخمة معلقة على حافة الماء مثل أعشاش طيور جارحة.

سمعت صوت الأب فيليكس يتابع حديثه وكأنه آت من مسافة بعيدة: «أنت تعرف أن أعمق رموز الطموح البشرى هو رمز الجنة، ستجده فى كل الديانات فى صور تخيلية مختلفة، إلا أن المعنى هو ذات المعنى، وهو تحديداً، الرغبة فى التحرر من القدر والمصير. البشر فى الجنة بلا مصير؛ لقد استسلموا لإغراء البدن وسقطوا فيما نسميه الخطيئة الأولى. إثم الروح أمام متطلبات البدن المتدنية والتى تعتبر بقايا حيوانية فى الطبيعة البشرية. أما الجوهر البشرى، أى الجانب الإلهى المقدس فهو الروح فقط. الروح تجاهد ساعية إلى النور، النور هو الروح القدس، ولكن بسبب الخطيئة الأولى فإن طريق الروح إلى النور ملىء بالعثرات المادية، وهى الجانب غير المقدس ـ البدن ـ واحتياجاته ورغباته وغرائزه. ما تهدف إليه التعاليم المسيحية، أن يحرر البشر أنفسهم

من تلك المتطلبات الزائلة والمتطلبات الشهوانية الفانية وأن يعود البشر إلى ميراثهم الروحى الذى أخذوه من الرب».

ظهرت على حافة الصخور العالية فى تلك اللحظة قلعة «روميلى حصّار» العثمانية الشهرية ذات البرجين، كان أحد جوانبها الصخرية ينزل ممتدًا حتى حافة المياه، وعلى الشاطئ، فى شبه الدائرة التى تكونها جدران القلعة، كانت هناك مقبرة تركية صغيرة بشواهد حجرية محطمة.

قلت: قد يكون الأمر كذلك يا أب فيليكس، إلا أننى أشعر ـ وهو الشعور ذاته لدى أعداد كبيرة من جيلى ـ أن هناك خطأ ما فى الفصل بين ما هو «جوهرى» وما هو «غير جوهرى»، أى الفصل بين الروح والجسد... باختصار لا أوافقك على إنكارك لأهمية الاحتياجات الجسدية الفسيولوجية أو الغريزية، أو المصير المرتبط بالأرض والاحتياجات الدنيوية. ما أومن به وما أرغبه يسعى فى اتجاه مختلف؛ فأنا أحلم بشكل للحياة ـ وأنا أعترف أننى لا أعرف ملامح هذا الشكل بوضوح ـ فى ذلك الشكل من الحياة تجاهد الروح والبدن، لتحقيق أعمق وأعمق للذات، فى ذلك النوع من الحياة الذى أنشده لا تغدو الروح والبدن عدوين لبعضهما ولا متناقضين فى مسعيهما، وبذلك يمكن للإنسان أن يحقق التوحد بين ذاته، وقدره، حتى يمكنه أن يقول عندوصوله إلى تلك القمة «أنا هو قدرى، وقدرى هو أنا».

رد الأب فيليكس: «لقد كان ذلك هو الحلم الهيلينى؛ فإلى أين قاد البشر ذلك الحلم الهيلينى؟ قادهم إلى ألغاز أورفيوس وديونيس، ثم إلى فلسفة أفلاطون وبلوتينوس، وهكذا، حتى عاد بهم من جديد إلى يقين حتمى بتناقض الروح والجسد فى مسعاهما.. إن الخلاص المسيحى يسعى إلى تحرير الروح من هيمنة الجسد، وهو معنى نستمده من إيماننا بتضحية المسيح بذاته على الصليب...»، وهنا توقف بغتة عن مواصلة حديثه والتفت إلىّ وهو يغمز قائلاً: «أنا لست على الدوام من المبشرين... سامحنى إن كنت قد تحدثت إليك بمعتقداتى وإيمانى، الذى يختلف عن معتقدك وإيمانك...».

قلت له مخففًا عنه الحرج الذى أحس به: «لا عليك، أنا بلا إيمان» رد الأب فيليكس: بلى، أعرف ذلك، نقص الإيمان، أو بمعنى أدق، عدم القدرة على الإيمان، تلك هى العلة

فى عصرنا الحالى أو المرض المتفشى، إنك، مثل آخرين كثيرين، تعيشون على وهم عمره آلاف السنين، وهو أن الذكاء وحده يمكن أن يقود الإنسان فى جهاده، إلا أن الذكاء لا يمكن أن يقود الإنسان إلى معرفة الروح؛ فالذات غارقة فى تحقيق أهدافها المادية الدنيوية، الإيمان، الإيمان وحده هو الذى يمكن أن ينتشلنا من ذلك الغرق والاستغراق اللاهث وراء متطلبات البدن».

سألته: «الإيمان؟ أنت من جديد تذكر الكلمة على لسانك. هناك شىء لا أفهمه: لقد قلت إن العقل لا يمكن أن يصل وحده إلى اليقين وإلى الحياة الحقة؛ وأن هناك حاجة إلى الإيمان بجانب العقل كما ذكرت، وأنا أوافقك تماماً على ذلك. ولكن كيف يمكن للمرء أن يتوصل إلى الإيمان إن لم يكن لديه إيمان؟ هل هناك وسيلة لتحقيق ذلك - أعنى معرفة طريق إرادتنا؟

رد الأب فيليكس: «ياصديقى العزيز، الإرادة وحدها لا تكفى. الطريق متاح فقط برحمة الله، إلا أنه لا يتاح إلا لمن يصلى بقلبه ومن أعماقه حتى ينير الرب طريقه».

قلت متسائلاً: «يصلى! ولكن حين يكون المرء قادراً على ذلك يا أب فيليكس فإنه يكون لديه إيمان أصلاً. إنك تدور بى فى حلقة مفرغة - لأنه إذا كان المرء يصلى، لابد أن يكون مقتنعاً أولاً بوجود الإله الذى يصلى له. كيف وصل إلى هذا الاقتناع؟ هل من خلال عقله؟ ألا يشير ذلك إلى أنه يمكن الوصول إلى الإيمان من خلال العقل؟ وعدا ذلك، هل تعنى «الرحمة» أى شىء لمن يمر بتجربة إيمانية من هذا النوع؟».

رفع القس كتفيه بأسف، بدا وكأنه يريد أن يقول: «إذا لم يكن المرء قادراً على معرفة الرب بنفسه، فمن الأفضل أن يترك نفسه لينقاد إلى تجارب الآخرين الذين يعرفون الله بقلوبهم».

* * *

بعد عدة أيام أخرى رسونا فى الإسكندرية، وفى مساء اليوم نفسه كنت متوجهاً إلى فلسطين. انطلق القطار بنا من الإسكندرية فى عصر ذلك اليوم عبر أرض دلتا النيل

المنبسطة. عبرنا قنوات مائية كثيرة متفرعة من النيل تعلو صفحة مياهها مراكب شراعية. كانت المدن الصغيرة تظهر وتختفى، وتجمعات من منازل طينية لقرى صغيرة ذات مآذن واطئة. وحقول قطن، وقصب السكر؛ وأشجار نخيل شاهقة؛ وقطعان جاموس أسود تعود وحدها بلا راع من البرك الطينية التى كانت تتمرغ بها طول اليوم. على مسافات كان يظهر رجال فى ثياب طويلة: بدوا كأنهم طافون، كان الهواء خفيفًا ونظيفًا تحت سماء صافية زرقاء كالزجاج الشفاف. على ضفاف القنوات كانت نباتات البوص تتمايل فى رشاقة تحت وقع النسيم، ونساء بملابس فضفاضة سوداء يملأن جرارًا فخارية بالمياه: كان مشهدهن رائعًا، كن نحيفات طويلات السيقان؛ ذكرنى مشيهن بأشجار طويلة السيقان تتمايل فى طراوة إلا أنها قوية فى مواجهة الرياح. كانت للشابات الصغيرات منهن والنساء الخطوات نفسها: رشيقة وخفيفة الوقع. زادت العتمة وناءت بثقلها كتنفس كائن عملاق يهجع إلى الراحة. الرجال نحاف القامة بوجه عام، يسيرون فى جماعات عائدين من الحقول، بدت حركتهم متثاقلة وتختفى بالتدريج مع اختفاء نور النهار: كل خطوة كانت تبدو ذات وجود مستقل بذاته، كل خطوة مكتملة بذاتها: بين دهر ودهر هناك تلك الخطوة. ربما كان إحساسى بالخفة والنعومة راجعًا إلى أضواء الغروب المبهجة فى أراضى دلتا النيل. وربما كان راجعًا إلى رؤية تلك المشاهد الجديدة علىّ - ولكن مهما يكن السبب، شعرت فجأة فى داخلى بكل وطأة وثقل أوروبا: وطأة الهدف الإرادى فى كل ما نفعله. فكرت: «ما أشق اقترابنا من الواقع.. نحاول الإمساك به، ولكنه يستعصى على الإمساك، وحين يقهر الإنسان يجد الإنسان نفسه منصاعًا للاستسلام له».

كانت خطوات الفلاحين المصريين قد اختفت على البعد فى الظلام الذى كان يتزايد، مازالت تتأرجح فى ذهنى مثل ترنيمة وترتيل لكل ما هو سام رفيع.

وصلنا قناة السويس فاستدار القطار بزاوية قائمة وواصل سيره لفترة باتجاه الشمال بمحاذاة ضفة القناة التى بدت رمادية داكنة. كانت القناة تبدو كنغمة مختلفة ممتدة تحت ضوء الليل الشحيح.

أحال ضوء القمر القناة إلى واقع قريب من الحلم، بدت صفحة المياه مثل طريق واسع عريض، كشريط داكن لمعدن لامع، تحول المشهد بسرعة مدهشة من أرض خصبة خضراء بوادى النيل إلى سلاسل من كثبان رملية أحاطت بالقناة على جانبيها فبدت باهتة فى مواضع وحادة وبارزة فى مواضع أخرى.

فى السكون المخيم بدت هياكل رافعات الرمال العملاقة من قاع القناة، ومن خلفها على الضفة الأخرى، ظهر شبح رجل يركب جملاً ويحث السير فى الظلام، لمحته بصعوبة ثم اختفى فى أعماق الظلام..

ما أعظمه من ممر مائى يتسم بالبساطة: يمتد من البحر الأحمر، إلى البحيرات المرة، ثم عبر الصحراء إلى البحر المتوسط. ممر جعل خفقات المحيط الهندى تصل إلى أرصفة موانئ أوروبا.

انتهت رحلة القطار فى مدينة القنطرة، وعبر ركاب القطار القناة فى صندل بحرى. كان قطار فلسطين سيبدأ رحلته بعد ساعة. جلست أمام محطة القطار. كان الهواء رقيقًا والجو دافئًا وجافًا والصحراء ممتدة إلى اليمين واليسار. انتشر دخان فى الهواء، من آن لآخر كنت أسمع عواء، ربما كانت ذئابًا أو كلابًا. نزل بدوى من العبارة وهو يحمل حملاً ثقيلاً من مخالى الإبل مصنوعة من أقمشة ملونة، سار باتجاه مجموعة تقف على مبعدة وبجوارهم مجموعة جاثمة من الجمال مسرجة وجاهزة للرحيل، كانوا ينتظرون ذلك الذى وصل، فقد ألقى بحمولته الثقيلة على ظهر أحد الجمال، وتبادل حديثًا سريعًا مع من كانوا ينتظرونه وركبوا الجمال التى نهضت أولاً على قوائمها الخلفية، ثم انتصبت على قوائمها الأمامية فمال الراكبون إلى الأمام بحدة ثم إلى الخلف، ثم انطلقوا وأقدام الجمال تبعث أصواتًا ناعمة من خطوها على الرمال، للحظات كان يمكن أن أتابع الألوان المتباينة للإبل المتأرجحة فى عدوها والملابس الفضفاضة للبدو ذات الخطوط البنية والبيضاء تقدم باتجاهى عامل من عمال السكة الحديدية، كان يرتدى سروال العمال الأزرق ويبدو أن به عرجًا. أشعل لفافته من لفافتى، وسألنى بلغة فرنسية ركيكة: «أنت ذاهب إلى القدس؟» وحين أجبته بالإيجاب،

استطرد متسائلاً: «أول مرة؟» هززت رأسى مرة أخرى، كان على وشك الاستمرار فى الحديث إلا أنه استدار قائلاً: «هل رأيت القافلة القادمة من صحراء سيناء؟ لا؟ إذن تعال معى لتراهم. مازال أمامك وقت».

سرنا فى فراغ صامت صاعدين دربًا ممهداً باتجاه التلال الرملية. نبح كلب فى الظلام. وبينما كنا ماضين فى طريقنا، نتعثر فى النباتات الشوكية، وصلت إلى مسامعنا أصوات مشوشة ومتداخلة لكثير من الناس واختلطت روائح حادة لحيوانات بهواء الصحراء الجاف. فجأة، ظهر شعاع ضوء ضيق من أسفل التل كما لو كان صادراً من أعماق الأرض، ويرتفع تدريجيًا كلما هبطنا منحدر التل، كان ضوء نار عظيمة مشتعلة فى واد ضيق بين تلين رمليين، والوادى مغطى بأشجار شوكية كثيفة حتى يصعب أن ترى أرضه. تبينت بوضوح أصوات رجال يتكلمون وسمعت أصوات تنفس الجمال ظهر فجأة شبح رجل أمام النيران، كان يركض حتى منحدر التل ثم يعود من جديد. بعد أن تقدمت خطوات أخرى، تبينت ما يحدث بوضوح، كانت هناك دائرة واسعة من الجمال الباركة وكوم عظيم من سروج الجمال ومخالى الأحمال متناثرة هنا وهناك؛ وبينهم أشباح الرجال. كانت رائحة الحيوانات مركزة كالنبيذ. أحيانًا ما يحرك جمل جسمه فيتغير شكل شبحه فى الظلام، ويرفع عنقه ويمدها فى الظلام مع صوت شخير، كما لوكان يتنهد: هكذا سمعت لأول مرة تنهدات الجمال. ثغت بعض الماعز بنعومة؛ وزمجر كلب؛ أما خارج ذلك الوادى فقد كان الوجود مظلمًا بلا نجمة واحدة فى السماء.

كان الوقت قد حان، فبدأت العودة إلى محطة القطار، سرت متمهلاً نازلاً أسفل الممر الذى قدمت منه مندهشًا ومهتزًا من أعماقى، تجربة غامضة سكنت جانبًا من قلبى ولن تبرحه بعد ذلك أبدًا.

* * *

سار القطار عبر صحراء سيناء. كنت مجهداً، إلا أن النوم جافانى من شدة برودة الصحراء واهتزازات القطار العنيفة فقد كان يمضى على قضبان ممدوة على رمال ناعمة غير متماسكة. جلس أمامى رجل بدوى فى عباءة بنية فضفاضة وكان هو الآخر يعانى من شدة البرد فلف وجهه بغطاء رأسه. كان جالساً متربعاً، وعلى ركبتيه أراح سيفه المنحنى ذا الغمد المزين بنقوش فضية. كان الوقت يقترب من الصباح. ويمكن تمييز الأشكال الخارجية لتلال الرمال، وتجمعات نباتات الصبار.

مازلت أتذكر كيف انبثق نور الفجر - رمادياً، أزاح بعض العتمة، حدد الأشكال وراح ببطء يرسم خطوطها الخارجية، ويدفع بالتدريج تلال الرمال التى كانت غارقة فى الظلام إلى عالم المرئيات، ظهر تجمع من الخيام واندفع مسرعًا إلى الخلف، بقرب الخيام كنت هناك شباك صيد ذات لون فضى داكن منشورة بين أعمدة لتجف وكانت تتطاير مثل ستائر الضباب: شباك صيد فى الصحراء - تتطاير مع هبوب رياح الصباح - مثل حجب الأحلام، شفافة، فى لاواقعية الحلم، مابين حلكة الظلام ونور النهار.

إلى اليمين امتدت الصحراء وإلى اليسار امتد البحر. على الساحل كان راكب جمل يمضى وحده متهادياً؛ من الواضح أنه كان راكباً طوال الليل فقد كان مستغرقًا فى النوم على سرج الجمل، وكلاهما يهتز فى حركة متناغمة: الرجل والجمل. ظهرت من جديد خيام بدوية سوداء، ونساء بدويات خارج الخيام يحملن جراراً فخارية على رؤوسهن، فى طريقهن لجلب الماء. من بين طيات شبه الضوء الذى راح يتزايد إلى ضوء، انبثق عالم شفاف وواضح، يتحرك بنبضات غير مرئية، معجزة على بساطتها إلا أنها لا تنتهى.

انسكب ضوء الشمس على الرمال بقوة متزايدة وتحول نور الفجر الرمادى إلى لون ذهبى أحمر نارى. اخترقنا واحات العريش، بدا نخيلها كأنه أعمدة كاتدرائيات ضخمة مشيدة من نخيل بسعفها المقوس. لوحة تشكيلية رائعة من اللونين البنى والأخضر، من النور والظل. كانت هناك امرأة تحمل جرة على رأسها تسير تحت النخيل وتصعد

منحدراً ببطء، ترتدى عباءة طويلة ملونة بالأحمر والأزرق، بدت سيدة سماوية خارجة من ثنايا أسطورية.

اختفت تجمعات نخيل العريش بسرعة كما ظهرت.. دخلنا فى منطقة نورها كنور المحار والأصداف. خارج إطار نوافذ القطار المتأرجحة المهتزة، كان يعم سكون لم أجد مثيلاً له فى أى مكان زرته. كل الأشكال والمرئيات كانت خارج نطاق الأمس والغد - أشكال متفردة تدير الرؤوس. رمال ناعمة حولتها الرياح إلى آكام رخوة تومض بألوان برتقالية باهتة تحت أشعة الشمس الوليدة، مثل مخطوطات نفيسة قديمة، رقيقة، متماسكة، تنحنى حافة أسطحها انحناءات حادة صارمة، وتهبط فى رقة على الأجناب، بظلال ألوان مائية شفافة - أرجوانى ليلكى وقرمزى قاتم فى التجاويف السطحية والفراغات البينية وسحب متلألئة وتجمعات نباتات صبار متناثرة هنا وهناك وأعشاب خشنة سميكة فى مناطق أخرى. بدو حُفاة وقافلة جمال مُحمَّلة بسعف نخيل آتية من مكان وماضية إلى مكان أجهله. كنت مأخوذاً ومشدوهاً بالصحراء الشديدة الاتساع.

توقفنا عدة مرات فى محطات صغيرة، كل ما فيها لا يزيد على بضعة أكواخ مشيدة من الأخشاب وألواح الصفيح. وأولاد عليهم أسمال بالية ممزقة يتجولون داخل القطار وخارجه يبيعون ثمار التين، والبيض المسلوق وأرغفة خبز رقيق طازج. نهض البدوى الذى كان جالساً أمامى ببطء وأزاح غطاء رأسه عن وجهه وفتح نافذة القطار المجاورة له، كان وجهه نحيلاً داكناً حاد الملامح، يشبه وجوه الصقور الحادة. اشترى فطيرة، ثم هم بالجلوس، حين وقعت عيناه علىّ؛ دون أن ينطق بكلمة، قسم الفطيرة نصفين وقدم لى نصفها، حين لاحظ ترددى ودهشتى، ابتسم - لاحظت أن ابتسامته تليق بوجهه كما كانت لائقة عليه النظرات الصقرية الحادة - قال كلمة لم أفهم معناها فى ذلك الوقت ولكنى أعرف الآن أنها كانت تفضل. أخذت نصف الفطيرة وهززت رأسى شاكراً. مسافر آخر يرتدى ملابس أوروبية وطربوشاً أحمر - تدخل مترجماً: وبإنجليزية متعثرة قال: «يقول لك أنت على سفر وهو على سفر، وطريقكما واحد».

حين أفكر الآن فى ذلك الحدث الصغير، يتبين لى أن كل الحب الذى أحببته للشخصية العربية بعد ذلك، لابد وأنه قد تأثر تأثراً كبيراً بتلك الواقعة الصغيرة. كان

لتلك اللفتة الكريمة من ذلك البدوى، الذى شعر بالصداقة تجاه مسافر معه بالصدفة رغم حواجز اختلاف الأجناس واقتسم معه خبزه، ما أشعرنى بأنفاس الإنسانية الحرة الخالية من أية عاهات وعلل نفسية بشرية.

بعد فترة قصيرة وصلنا إلى غزة القديمة، كانت قلعة طينية تحيا حياتها المنسية على تل رملى بين نباتات صبار كثيفة، جمع رفيقى البدوى أجولته وحيانى بابتسامة أسى وهزة من رأسه، وغادر عربة القطار، مثيراً للغبار من خلفه بردائه الطويل الفضفاض الذى كان يكنس الأرض. كان هناك بدويان آخران يقفان على رصيف المحطة صافحاه وقبلاه على خده.

وضع التاجر الذى يتحدث إنجليزية ركيكة كفه على ذراعى قائلاً: «هيا ننزل، أمامنا ربع ساعة قبل أن يسير القطار من جديد».

خلف مبنى المحطة كانت هناك قافلة من الجمال الباركة؛ كانت القافلة كما أخبرنى مرافقى لبدو من شمال الحجاز. كانت لهم وجوه داكنة متربة عفوية ودودة. كان مرافقى البدوى بالقطار قد انضم إليهم، وبدا لى أنه شخصية مرموقة بين قومه، فقد تجمع حوله أفراد القافلة فى دائرة عفوية ويتحدثون معه. تحدث إليهم التاجر فاستداروا إلينا فى مودة ـ فيما أحسست أنا ببعض التكبر والتعالى، إحساساً منى بتحضرى عنهم. أحاطهم جو من الحرية، وراودتنى رغبة عارمة فى فهم حياتهم والإحاطة بها. كان الجو جافًا كأنه يخترق البدن وأذاب تكبرى ومشاعر التعالى الأولى. كانت هناك حالة من انعدم الإحساس بالزمن مما جعل كل المرئيات والموجودات والأصوات والروائح تكتسب قيمًا خاصة بها. بدأت تشرق فى ذهنى فكرة أن من يحيون فى الصحراء يستجيبون للحياة ويستشعرونها ويتجاوبون معها بطريقة مغايرة تمامًا عن أى بشر يحيون فى مناطق أخرى؛ خمنت أنهم متحررون من أى مخاوف ـ وربما أيضًا من أى أحلام ـ التى يتصف بها سكان المناطق الباردة الغنية، ومتحررون بالتأكيد من عوائق وقيود كثيرة؛ فهم يعتمدون بشكل أكبر على إدراكهم الخاص؛ واستقروا على نسق من القيم مغايرة لأية أنساق أخرى.

ربما كان إحساسي المسبق بالتغير والتحول الذى سيقع لحياتى القادمة هو الذى جعل مشهداً للبدو يأسرنى. كان إحساساً بعالم تخلص من كل محدودية البشر وشوائبهم، وكان له أنساق تجعله متماسكًا من داخله ومنفتحاً على الخارج فى الآن نفسه: عالم يوشك أن يصبح عالمى أنا أيضاً.

لم أكن أعى بالطبع ما يخفيه المستقبل ويقدره لى، كان إحساسى يشبه إحساس من يدخل منزلاً غريباً عليه لأول مرة ويجد رائحة فى مدخله لا يستطيع تحديدها إلا أنها تخلق لديه إحساساً داخلياً بأحداث ستقع فيه وستقع له أيضاً، وأنها إن كانت مبهجة، تبعث الجذل والنشوة فى نفسك وقلبك - وتتذكر تلك اللحظة بعد ذلك بزمن طويل، حين تتحقق كل الأحداث التى أحسست بها دون تحديد، حينها تقول لنفسك: «أحسست بذلك من زمن طويل مضى، فى لحظات دخولى البيت الأولى، عند مدخله».

[٢]

هبت دفقة من الرياح القوية. لوهلة اعتقد زيد أننا مقبلان على عاصفة رملية أخرى. لم تتحول الرياح إلى عاصفة إلا أن حدتها لم تخف، تتابعت هباتها القوية ثم تجمعت وتلاشى الفاصل الزمنى بينها لتصبح ريحاً متواصلة حين كنا نهبط إلى وادى رملى. كانت واحة من أشجار النخيل محتجبة وسط الوادى وراء ساتر ملأ الجو بدوامات الرمال التى تذروها الرياح، كانت الواحة مكونة من بيوت منفصلة يحيط كل منها سور من الطين.

كانت تلك المنطقة نوعاً من مناطق تجاويف الرياح؛ ففى كل يوم من مشرق الشمس حتى مغربها تظل الرياح تضرب ذلك الوادى الرملى بأجنحة قوية لا تكل، ثم تهدأ فى الليل، وتهب فى الصباح التالى كما كانت فى اليوم السابق؛ لذا كانت أشجار النخيل لا تنمو أبداً إلى أطوالها الطبيعية تحت وطأة تلك الرياح الدائمة وتظل متاقزمة قريبة فروعها من سطح الرمال، وسعفها عريض ممتد، إلا أن النخيل فى تلك الواحة مهدد

بالدفن تحت الكثبان الرملية، بل إن الواحة بأجمعها مهددة بالدفن تحت الكثبان لو لم يقم أصحابها بزراعة أحزمة من أشجار الطرفاء، حول مواضع النخيل والبيوت، وأشجار الطرفاء طويلة السيقان وأشد مقاومة للكثبان الرملية، من جذورها القوية وفروعها اليانعة الخضراء على الدوام، يتكون حائط حى حول النخيل والمزروعات الأخرى، يقدم لهما أمنًا غير مأمون.

ترجلنا وحططنا رحالنا أمام منزل أمير القرية، نوينا أن نستريح فى ذلك الموضع لاتقاء قيظ الظهيرة. كان موضع صنع قهوة الغرباء والضيوف بسيطًا عاريًا يدل على فقر الواحة وأمامه وسادة من قش لجلوس الضيوف أمام موضع النار. ولكن، وكالمعتاد، فاق الكرم العربى أى فقر وتغلب عليه: مجرد أن جلسنا على وسادة القش، كانت النيران تئز فى موقد القهوة، كما بعث رنين هاون طحن حبوب القهوة المحمصة روحًا من الحياة فى المكان الصامت؛ ووضعت أمامنا قصعة عظيمة بها كوم كبير من التمر البنى لسد جوع الضيوف المرتحلين.

دعانا مضيفنا - وهو رجل عجوز ضئيل الحجم له عين دامعة حولاء، يرتدى رداءً قطنيًا بسيطًا وغطاء رأس - أن نتناول وجبتنا قائلاً:

«وهبكم الله الصحة والعافية، والبيت بيتكم، كلوا باسم الله. هذا كل ما لدينا» - وأشار بيده إشارة اعتذار، حركة بسيطة عفوية عبرت بصدق وبساطة عن رضاه بنصيبه من الحياة، نوع من التعبير الطبيعى الذى يميز من يحيون بالفطرة النقية - أردف قائلاً: «لكن التمر ليس رديئًا، كلوا مما نستطيع أن نقدمه لكم».

كان التمر من أفضل أنواع التمر التى ذقتها فى حياتى، وسعد مضيفنا حين رآنا مقبلين بشهية على تناول تمرهم. وبدأ يحدثنا من جديد: «الرياح، الرياح تجعل حياتنا شاقة؛ إلا أنها إرادة الله. الرياح تدمر زراعاتنا. نقاوم الرمال حتى لا تدفنها. لم تكن الحال كذلك من قبل. فى الأزمنة السابقة لم تكن هناك رياح كثيرة فى هذه المنطقة، وكانت الواحة كبيرة وغنية. الآن تضاءلت؛ يهجرها كثير من الشباب، مثل تلك الحياة القاسية لا يحتملها أى فرد. الرمال تحاصرنا وتزحف علينا يومًا بعد يوم. فى القريب

لن يبقى مكان للنخيل.. تلك الرياح.. إلا أننا لا نشكو كما تعرفون، فقد قال الرسول - ﷺ - : «قال الله في حديث قدسي: لا تلعنوا الدهر، فأنا الدهر...».

لابد أنني أجفلت فقد توقف العجوز عن الكلام، ونظر إليَّ في انتباه وتركيز، وكما كان قد أدرك لماذا أجفلت، ابتسم ابتسامة أقرب لابتسام النساء، وبدت غريبة على وجهه النحيل الجاف، ثم كرر بعذوبة كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «فأنا الدهر» - كان في إيماءة رأسه التي صاحب قوله فخار وتيه وقبول ورضا بما وهبته له الحياة، ولم أر أبداً حتى عند الأكثر حظًا من الناس قبولاً بالواقع ورضا به مثل قبول ذلك العجوز وبإشارة مبهمة غامضة من ذراعه التي رسمت دائرة في الفراغ - دائرة احتوت على كل شيء في حياته: الفقر، الجدران الداكنة المتهالكة، الرياح وطنينها الدائم، زحف الرمال، التوق إلى السعادة، التسليم بما يفوق القدرة عليه ولا يمكن تغييره، القصعة المليئة بالتمر، أشجار النخيل خلف أسوارأشجار الطرفاء، النار الموقدة، ضحكة فتاة شابة بالفناء الخلفي للدار: كل تلك الأشياء وحركة يده التي أحاطت بما يراه وما لا يراه كنت كمَن يستمع إلى غناء روحي عميق لا يعرف العجز أمام المصاعب والحوائل ويغمره سلام النفس التي أسلمت نفسها لله.

عاد بي ما أراه إلى زمن قديم مضى، إلى يوم خريفي بالقدس من عشرة أعوام مضت، حين حدثني رجل عجوز آخر عن التسليم لله، كطريق وحيد يحقق به المرء صلة وثيقة بالله، ومن ثمّ، مع مصيره وقدره.

* * *

في خريف عام ١٩٢٢ كنت أعيش مع خالي دوريان في منزله بمدينة القدس القديمة. كانت الأمطار تهطل كل يوم تقريبًا، وكنت أجلس بجوار نافذة تطل على فناء واسع خلف المنزل يملكه رجل عجوز عربي يطلقون عليه الحاج لأنه كان قد حج إلى مكة؛ وكان يؤجر حميراً للركوب ولحمل البضائع، وكان الفناء والزريبة الملحقة به يشبه نوعًا من الخان أو النُزل.

كانت أحمال الخضروات والفواكه تصل كل يوم قبل الفجر محملة على الجمال من القرى المحيطة بالمدينة، ثم تجزأ وترسل على الحمير إلى محلات البيع المنتشرة فى حوارى القدس القديمة الضيقة. فى ضوء النهار ترى الجمال وهى باركة تستريح فى الفناء الخلفى؛ ولا يكف الرجال الذين يعتنون بها عن الصياح، إلا إذا أرغمتهم شدة الأمطار على الاحتماء بالزريبة. كان سائسو الجمال والحمير رجالاً فقراء يرتدون أسمالاً بالية،إلا أنهم كانوا يبدون ويسلكون مسلك النبلاء حين يجلسون معًا على الأرض لتناول وجبة طعام من خبز القمح الرقيق مع قطعة جبن أو حبات من الزيتون، لم يسعنى إلا الإعجاب بنبلهم وببساطتهم وهدوئهم النفسى العميق. كان الحاج يعرج فى سيره ويستعين بعكاز - كان يعانى من التهاب المفاصل وركبتاه متورمتان - وكان بمثابة الزعيم بينهم، فقد كانوا يطيعونه بلا نقاش. كان يجمعهم عدة مرات كل يوم للصلاة، وإذا لم تكن الأمطار غزيرة، كانوا يصلون فى الساحة المكشوفة: ينتظم الرجال فى صف واحد طويل جنبًا إلى جنب ويقف هو أمامهم إمامًا عليهم. بدوا فى نظرى مثل جنود فى تكامل وتوحد حركتهم - كلهم ينحنون فى اتجاه مكة، ثم ينتصبون، ثم يسجدون، ويلمسون الأرض بجباههم، كأنهم يستجيبون لأوامر غير مسموعة من قائدهم، الذى كان يقف بين السجدة والسجدة حافى القدمين على سجادة صلاته، مغمض العينين وذراعاه مضمومتان إلى صدره، يحرك شفتيه بلا صوت ويبدو عليه الاستغراق التام فيما يفعل: كان يصلى بكل وجدانه.

أصابتنى الحيرة حين شاهدت صلاة تتضمن حركات آلية للبدن، فسألت الحاج ذات يوم - وكان يفهم بعضًا من اللغة الإنجليزية -: «هل تعتقد حقًا أن الله ينتظر منك أن تظهر له إيمانك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل أن تنظر إلى داخلك وتصلى إلى ربك بقلبك وأنت ساكن؟ لماذا كل هذه الحركات بالجسد؟».

بمجرد أن انتهيت من تساؤلاتى أحسست بالندم، فقد أكون قد جرحت مشاعر الرجل الدينية، إلا أنه لم يبدُ على الحاج أى أثر لإهانة أو جرح. ابتسم كاشفًا عن فم يخلو من الأسنان ورد قائلاً:

«بأى وسيلة أخرى تعتقد أننا يمكن أن نعبد الله؟ ألم يخلق لنا الروح والجسد معًا؟ وكونه خلقنا جسدًا وروحًا، ألا يجب علينا أن نصلى بالجسد والروح؟ اسمع، سأخبرك لماذا نصلى نحن المسلمين كما نصلى. نتوجه إلى الكعبة، وهى أول بيت لله فى مكة، ونعلم أن وجه كل المسلمين فى أى موضع كانوا من الأرض تتوجه إليه أثناء الصلاة، فنشعر أننا جسر واحد،نتوجه إلى مركز واحد بفكرنا ووجداننا. نبدأ أولاً بالوقوف منتصبين، ونتلو بعض آيات القرآن، واضعين نصب أعيننا أنها كلام الله، أُنزِلَ للبشر لهدايتهم ونفعهم فى الحياة الدنيا. ثم نقول «الله أكبر» مذكرين أنفسنا أنه لا يوجد من يستحق العبادة غير الله وحده، ثم نركع أمامه لأننا نجله فوق كل شىء، ونسبح بعظمته وقدرته. ثم نسجد على الأرض وجباهنا على أديمها حتى نشعر أننا لسنا إلا ترابًا، وأننا لا شىء أمامه، وأنه خالقنا والحافظ لنا، ثم نرفع وجوهنا ونجلس، وندعوه أن يغفر لنا، وأن ينزل رحمته وسكينته علينا، وأن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يهبنا الصحة والرزق، ثم نسجد من جديد على الأرض ونمس الأرض بجباهنا اعترافًا بعظمته وقدرته. ثم نجلس وندعوه أن يصلى على النبى محمد - ﷺ - الذى بلَّغ رسالة الله إلينا،كما ندعوه أن يصلى على الأنبياء الذين سبقوا محمد - ﷺ، وأن يباركنا ويبارك كل من اهتدى بهديه، ثم ندعوه أن يرزقنا من خير الدنيا وحسناتها، وأن يهبنا حسنات الآخرة، ثم نختم صلاتنا بأن ندير رؤوسنا إلى اليمين ثم إلى اليسار، قائلين فى اتجاه، السلام عليكم ورحمة الله - وهكذا نحيى كل من اتبعوا الحق، أينما كانوا. هكذا صلى نبينا، وهكذا علَّم من آمنوا كيف يصلون فى كل عصر وفى كل آن؛ فهم يسلمون أرواحهم وأبدانهم لله - وذلك هو ما يعنيه الإسلام - فيكون البشر فى علاقة سلام مع الله ومع ما قدره لهم».

لم يستخدم الرجل العجوز الكلمات التى ذكرتها حرفيًا، إلا أن ما ذكرته كان معناها، وهى المعانى التى تذكرتها من حديثه. بعد ذلك بسنوات أيقنت أن ذلك الشرح البسيط من الحاج قد فتح لى أول باب للإسلام، ولكن فى ذلك الوقت، بدأت أشعر بتواضع لم آلفه من قبل كلما رأيت - وكنت أرى ذلك كثيرًا - رجلاً يقف حافى القدمين على سجادة صلاته، أو على بعض القش، أو على أرض عارية، وذراعاه معقودتان على

صدره ورأسه منحن فى خشوع، مستغرق بكل حواسه، غائب عما يدور حوله، سواء كان فى مسجد أو فى ممشى جانبى لشارع مزدحم: رجل فى سلام مع ذاته.

* * *

كان المنزل العربى المشيد من الحجر مبهجًا بالفعل كما ذكر لى خالى دوريان فى رسالته. كان ينهض على حافة المدينة القديمة بالقرب من باب يافا. توحى غرفاته الواسعة عالية السقف بأنها مترعة بذكريات حياة نبلاء كثيرين مروا عليها فى عصور سابقة، وتجاويت الجدران بصدى الحاضر الحى الذى يسرى إليها من الحوانيت التجارية المجاورة - مشاهد وأصوات وروائح لم أعايشها أبدًا من قبل.

من شرفة السطح كنت أرى مشارف المدينة القديمة وشبكة شوارعها المتعرجة وحواريها المنحوتة فى الصخر. على الجانب الآخر وفى ساحتها الواسعة، يظهر الموضع الذى كان به هيكل سليمان؛ والمسجد الأقصى - وهو الأقدس بعد الكعبة ومسجد الرسول بالمدينة - ينهض على الحافة الأبعد، وفى منتصف الساحة مسجد قبة الصخرة. من خلفهم كانت منازل المدينة القديمة تتدرج نزولاً حتى وادى قدرون، خلف الوادى تناثر تلال رقيقة القمم، فرشت منحدراتها أشجار الزيتون. باتجاه الشرق كانت هناك بقعة خصيبة أخرى، بها بساتين تنحدر باتجاه الطريق عميقة الخضرة، تحيطها أسيجة حجرية، الحديقة الجثمانية(*). ومن بين أشجار الزيتون والسرو، كانت ترتفع قباب الكنيسة الروسية المذهبة والمشيدة على شكل البصل الجاف.

مثل مشهد يتأرجح بين الحلم والحقيقة، وكرجع الصدى، وبلون شفاف إلا أنه يموج بآلاف الألوان التى لا اسم لها، فوق قدرة الكلام على الوصف، بل فوق قدرة العقل على التخيل، كان يبدو من فوق قمة جبل الزيتون وادى الأردن والبحر الميت.

(*) الحديقة التى اعتقل فيها المسيح خارج القدس. (المترجم)

تلال بعد تلال متماوجة التوزيع، واضحة مدركة كالتنفس، وعرق شديد الزرقة يتماوج بينها هو نهر الأردن، ثم استدارة البحر الميت من خلفهم جميعًا - وإلى أبعد من ذلك،كان هناك عالم آخر يستقل بذاته وجماله، تلال منطقة موآب الترابية:سهوب ذات جمال أخاذ متعدد الأشكال والأوصاف يبعث فى القلب ارتجافة نشوة.

كانت القدس بالنسبة لى عالمًا جديداً تماماً. عبق التاريخ ينضح من كل زاوية وحجر بالمدينة العتيقة. الشوارع التى شهدت نبوءات أشعيا، حجارة الشوارع التى سار عليها المسيح، الجدران التى كانت عتيقة أيضًا حين تردد منها صدى صوت خطى فرسان الإمبراطورية الرومانية التى غزت المدينة، الأقواس الحجرية على الطرقات التى تحمل على صدرها نقوشًا ونصوصًا إسلامية من عصر صلاح الدين، سماء زرقاء صافية اللون، بدت لمن هو مثلى ومن عاش وتربى فى طقس وجوأقل وداً، مثل نداء ووعد.

بيوت وشوارع وحارات تنبض بنبض خاص، والناس تملأهم حيوية خاصة ونبل حركة وإشارة. كان الناس - العرب بوجه خاص لأنهم من خلقوا لدى الانطباع بأنهم أصحاب المدينة - يرتدون ملابس فضفاضة غنية بالألوان تذكرك بالملابس الجوخية التوراتية المنسدلة حتى الأرض، يرتدى كل منهم أردية مميزة له من فلاحين أو بدو (كان البدو يفدون إلى المدينة على الدوام للشراء أو البيع).

أمام منزل دوريان، وعلى بعد أربعين ياردة، نهضت حوائط قلعة داوود ذات الجدران المنحدرة التى ظهر عليها آثار الزمن، كانت فى الماضى تكوّن جانبًا من استحكامات المدينة مع أسوارها القديمة، ربما شيدت القلعة على الأساسات التى أرساها هيرود الرومانى، ويعلوها برج مراقبة رفيع يشبه المئذنة (على الرغم من أنها لا علاقة لها بالملك داوود، فإن اليهود اعتادوا إطلاق اسمه عليها، ويدعون أن قصره الملكى كان بهذا الموضع من جبل الزيتون).

على جانب من المدينة القديمة يوجد برج عريض، تمضى من أسفله بوابة تفضى إلى طريق رئيسى، وقنطرة من حجر فوق خندق مائى. كانت القنطرة الحجرية ملتقى البدو الذين يفدون إلى المدينة. ذات يوم رأيت بدويًا يقف عليها دون حركة، بدا فى وقفته

المنتصبة ومن خلفه سماء فضية داكنة مثل شخص بعث لتوه من ثنايا الأساطير القديمة. كان له وجه ناتئ عظام الوجنتين، تحيطه لحية كثة قصيرة داكنة، تحمل ملامحه همًا واستغراقًا فى أمر ما يشغله، كمن كان يتوقع شيئًا إلا أن ما يتوقعه غير قابل للتحقق. كان قفطانه الواسع ذو الخطوط البنية والبيضاء باليًا ورثًا، رأيت بعين خيالى أن ملابسه قد بليت بعد أن تعرض لمخاطر كبيرة جعلته دائم الفرار من موضع إلى موضع. ربما كان واحدًا من جماعة المقاتلين الذين صحبوا داوود فى شبابه وفى فراره من غيرة الملك شاول الحقودة؟ قد يكون داوود مختبئًا فى هذه اللحظة فى أحد كهوف تلال منطقة يهودا، وذلك الرجل الواقف على القنطرة، صديقه الشجاع والمخلص، جاء خلسة مع رفيق آخر إلى المدينة ليستطلعوا أخبار ما يدبره شاول من مكائد، ويتبينوا إن كانت الأوضاع آمنة تسمع بعودة داوود أم لا، وأنه الآن ينتظر عودة رفاقه، مليئًا بالهواجس: لم تكن الأنباء سارة، ولا يمكن لداوود أن يعود...

فجأة، تحرك البدوى نازلاً عن القنطرة، وتبخرت تخيلات اليقظة بابتعاده. تذكرت مجددًا أن ذلك البدوى من العرب، بينما كانت الشخصيات التى أتخيلها توراتية من العبرانيين. إلا أن دهشتى لم تستمر غير برهة؛ فقد أدركت على الفور بوضوح يتفجر أحيانًا داخلنا مثل البرق الوامض، أن داوود وعصر داوود، مثله مثل إبراهيم وعصره، كانا أقرب إلى جذورها العربية وبالتالى أقرب إلى بدو العرب المعاصرين منهم إلى اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم من سلالتهم. كثيراً ما كنت أجلس على الإفريز الحجرى تحت بوابة يافا أراقب الجموع الداخلة إلى المدينة القديمة والخارجة منها. فعند البوابة كان البشر يتلاحمون، ويتدافعون، العرب واليهود،كل الأنماط والأشكال المختلفة لكليهما. كان هناك فلاحون أقوياء الأبدان بأغطية رؤوسهم البيضاء والبنية أو عمامات برتقالية، وكان هناك بدو بوجوههم الحادة الواضحة الهزيلة، يرتدون عباءاتهم ويسيرون بثقة غريبة بأنفسهم، وغالبًا ما تكون أكفهم على خواصرهم والكوعان مفرودان متباعدان، كما لو كانوا على ثقة أن كل من يقابلهم سيفسح لهم الطريق. نساء الفلاحين لهن زى مميز أسود أو أزرق مزين بزركشة بيضاء على الصدر، يحملن فى الأغلب سلالاً على رؤوسهن ويمشين مشية لدنة هينة. من الخلف تبدو من بلغت الستين

كأنها شابة صغيرة السن، كذلك جمال أعينهن الذى لا يتأثر بعمر - إلا إذا أصبن بالرمد الحبيبى،ذلك المرض «المصرى» اللعين المتوطن فى بلاد كثيرة شرق البحر المتوسط.

كان هناك أيضًا اليهود: يهود فلسطين يرتدون عباءات واسعة ويضعون الطرابيش على رءوسهم، أما وجوههم فتماثل بشدة وجوه العرب؛ أما يهود بولندا وروسيا فقد كان يبدو عليهم أنهم حملوا معهم كثيراً من ضيق حياتهم الماضية فى أوروبا وكانوا يطلبون مساواتهم بيهود المغرب وتونس الفخورين بالبرنس المغربى الأبيض المميز للبلاد التى أتوا منها. وعلى الرغم أنهم كانوا خارج نطاق التجانس البشرى والبيئة التى من حولهم، فإنهم هم من أرسى نسق الحياة والسياسة اليهودية، وكانوا مسؤولين عن الاحتكاكات والصدام والنزاع بينهم وبين العرب.

ما الذى كان يعرفه الأوروبى العادى عن العرب فى تلك الأيام؟ عمليًا: لا شىء. حين هاجر اليهودى الأوروبى إلى فلسطين جاء مصحوبًا بمفاهيم عاطفية مغلوطة، ولو كان لديه حسن نية وذكاء ذهن، كان سيقر أنه لم يكن لديه فكرة عن الوجود العربى بها. أنا أيضًا قبل أن آتى إلى فلسطين، لم أعرف أبدًا أنها أرض عربية تخص العرب. كنت أعرف فقط بشكل مبهم أن «بعض» العرب يعيشون فيها، إلا أننى تخيلت أنهم بعض قبائل مرتحلة تعيش فى خيام، وأنهم رعاة يسكنون واحات صحراوية، وأغلب ما قرأته عن فلسطين فى أعوامى السابقة كتبه صهاينة - يعرضون قضيتهم فقط - لم أكن أعرف أن مدن فلسطين مدن عربية يعيش فيها العرب - كانت النسبة السكانية عام ١٩٢٢ تبلغ خمسة من العرب مقابل كل يهودى، ويعنى ذلك بكل وضوح أنها بلد عربية.

حين ذكرت هذا الأمر للسيد «أوزيشكين»، رئيس جمعية «رواد المجتمع الصهيونى» الذى التقيت به فى ذلك الوقت، كان يبدو لى أن الصهاينة لا يميلون إلى إعطاء أية أهمية إلى حقيقة الأغلبية العربية، ومعارضتها للظاهرة الصهيونية. ولذلك لم يبدُ على «أوزيشكين» أى رد فعل لما قلته غير إظهار ازدرائه للعرب، وقال: «لا توجد حركة مقاومة عربية حقيقية فى فلسطين ضدنا، لا توجد حركة مقاومة ذات جذور بين الناس.

كل ما تراه وتظنه مقاومة ليس إلا صراخًا وصياحًا من بعض الساخطين الملتاثين، وسينهارون خلال بضعة أشهر أو بضعة أعوام على الأكثر».

كانت رؤيته بعيدة تمامًا عن تصديقى. من البداية كان يتملكنى اعتقاد أن فكرة إقامة مستعمرات يهودية فى فلسطين ليست إلا فكرة مصطنعة، والأسوأ من ذلك، أنها تهدد بتحويل ونقل كل التعقيدات والمشاكل المستعصية على الحل فى المجتمعات الأوروبية إلى بلد كان سيظل أسعد حالاً لو لم يأتوا إليه. لم يكن اليهود يأتون إلى فلسطين كما يعود الغائب إلى منزله، بل كانوا يحاولون ويسعون أن يجعلوها منازلهم مخدوعين بالنموذج الأوروبى. باختصار، كانوا غرباء يقفون على الأبواب. ولذلك لم أجد أى غضاضة فى إصرار العرب على مقاومة فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى قلب بلادهم.

كان وعد «بلفور» الذى صدر عام ١٩١٧ واعدًا اليهود «بوطن قومى» فى فلسطين مناورة سياسية فى غاية القسوة والوحشية، وتم إصداره لترسيخ السياسة التى اتبعتها كل القوى الاستعمارية، وهى سياسة «فرق تسد». فيما يخص فلسطين كان ذلك هو القرار الأقسى والأكثر إثمًا؛ ففى عام ١٩١٦ وعد البريطانيون شريف مكة وهو الشريف حسين بدولة عربية مستقلة من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى مقابل تحالفه معهم ضد العثمانيين الأتراك، ثم حنثوا بوعدهم بعد ذلك بعام باتفاقية أخرى أقاموها مع فرنسا تحمل اسم «سايكس - بيكو» (أطلقت فيها بريطانيا يد فرنسا فى سوريا ولبنان) كما تضمنت الاتفاقية استثناء فلسطين من وعدهم للشريف حسين.

ومع أننى كنت يهوديًا، فإننى تبنيت موقفًا معاديًا للصهيونية، وأدنت الموقف اللا أخلاقى للقوة العظمى التى تدفع بالمهاجرين اليهود من كل أنحاء الأرض حتى يصبحوا أغلبية وينتزعوا الأرض والبلاد من أصحابها الشرعيين الذين يحيون فيها من أزمان سحيقة.

لذلك كنت أميل إلى الوقوف فى صف العرب فى كل مناسبة تثار فيها المسألة اليهودية - العربية. وكان موقفى يصعب فهمه لكثير من اليهود الذين صادفتهم أو

جمعتني بهم مناسبات مختلفة في تلك الشهور، لم يفهموا ما الذي أراه في العرب الذين لا يرون فيهم إلا أناسًا متخلفين همج، ولم تكن نظرتهم إليهم ترقى عن نظرة الأوروبيين إلى الأفريقيين في وسط إفريقيا. لم يهتموا بأي قدر بما يشغل فكر العرب ولم يكلف أحد نفسه عناء تعلم اللغة العربية، تقبلوا جميعًا بلا أي قدر من التشكك أن فلسطين حق لهم وأنها إرثهم التوراتي.

مازلت أتذكر مناقشة مختصرة مع الدكتور «حاييم وايزمان»، قائد الحركة الصهيونية بلا منازع؛ فقد أتى في واحدة من زياراته الدورية إلى فلسطين (كانت إقامته الدائمة على ما أظن في لندن)، والتقيت به في منزل صديق يهودي. لم أملك إلا الإعجاب بالطاقة الفائقة لذلك الرجل - وهي طاقة ظهرت في حركات بدنه بخطواته الواسعة التي كان يقطع بها الغرفة جيئةً وذهابًا وقوة عقلية وذهنية بدت في جبهة عريضة ونظرات نفاذة - كان يتحدث عن المصاعب المالية التي تعوق تحقيق حلم الوطن القومي اليهودي في فلسطين، واستجابة اليهود الضعيفة في الخارج. تملكني انطباع أنه هو أيضًا، مثل أغلب الصهاينة، يميل إلى إلقاء المسئولية الأخلاقية لكل ما يحدث بفلسطين على «العالم الخارجي». دفعني ذلك إلى استغلال فترة صمت في حديثه إلى مستمعين ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير وسألته: «وماذا عن العرب؟».

بدا كما لو كنت قد ارتكبت خطأً جسيمًا بتلك الملاحظة الشاذة؛ فقد أدار الدكتور «وايزمان» وجهه ببطء إليّ، ووضع القدح الذي كان يحمله بيده، وكرر سؤال: «ماذا عن العرب؟» وأكمل: «حسنًا، كيف تتوقع بأية حال أن تكون فلسطين وطنك القومي وتلك المقاومة العنيفة من العرب تواجهنا، وعدا ذلك يشكلون أغلبية؟».

هز الزعيم الصهيوني كتفيه كإجابة لتساؤله ثم أردف بجفاء:

«نتوقع ألا يكونوا أغلبية بعد بضعة أعوام».

رددت قائلاً: «ربما، أنت تسعى في هذا الأمر على مدى أعوام طويلة ولابد أنك تعلم حقائق الموقف أفضل مني، ولكن بعيدًا عن المشاكل السياسية التي قد تضعها

المعارضة العربية أو لا تضعها فى طريق تحقيق أهدافكم - ألم يؤرقك الجانب الأخلاقى من المشكلة فى أى وقت؟ ألا تظن أنه من الخطأ من جانبكم طرد شعب عاش طول عمره فى هذا البلد؟».

أجاب «وايزمان» رافعًا حاجبيه فى تحفز: «ولكنها أرضنا، نحن لا نفعل أكثر من استرداد ما سُلِبَ منا بطريق الخطأ».

رددت: «ولكنك كنت بعيدًا عن فلسطين على مدى ألفى عام تقريبًا. قبلها كنت سيد هذا البلد، ليس كله بالطبع، لمدة تقل عن خمسمائة عام. ألا تعتقد أن العرب بإمكانهم بالمنطق ذاته المطالبة بإسبانيا - فهم على الأقل حكموا إسبانيا لمدة سبعمائة عام، وخرجوا منها من خمسمائة عام فقط؟»

تحول الدكتور «وايزمان» إلى حالة من نفاد الصبر الواضح، قال: «كلام فارغ. العرب غزوا إسبانيا فقط، لم تكن أبدًا أرضهم، والصحيح والصواب فى نهاية المطاف أن يطردهم الإسبان منها».

رددت على حجته قائلاً: «عفوًا، يبدو الأمر وكأن هناك تجاوزًا فى الرؤية التاريخية. فرغم أى شىء، جاء العبرانيون أيضًا كغزاة لفلسطين. قبلهم بعصور طويلة كانت قبائل سامية وغير سامية تسكن فلسطين - العموريون والأدوميون والفلسطينيون، والموآبيون، والحثينيون. واستمرت تلك القبائل فى المعيشة فى فلسطين حتى بعد غزو العبرانيين لها، وكذلك فى عصر مملكتى يهودا وإسرائيل، واستمروا فى العيش هنا بعد أن طرد الرومانيون أسلافنا اليهود من أرض فلسطين. وهم مازالوا يحيون على الأرض ذاتها حتى اليوم. حتى إن العرب المسلمين الذين غزوا فلسطين وسوريا فى القرن السابع الميلادى كانوا أيضًا أقلية مقارنة بسكان البلاد؛ كان السكان الذين يشكلون الأغلبية هم من نطلق عليهم اليوم عرب فلسطين وعرب سوريا أى سكان البلاد الذين تعربوا. بعضم تحول إلى الإسلام عبر القرون الماضية، وظل آخرون على ديانتهم المسيحية، وتزاوج من أسلموا مع إخوانهم فى الدين أهل الجزيرة العربية، ولكن هل تنكر أن الكتلة الرئيسة للشعب الذى يعيش على أرض فلسطين، ويتحدث العربية، سواء مسلم أو

مسيحى، هم الامتداد المباشر ونسل السكان الأصليين الذين كانوا على هذه الأرض من آلاف السنين؟ وكانوا أيضًا يعيشون هنا قبل وصول العبرانيين بقرون طويلة؟».

ابتسم الدكتور وايزمان فى أدب ردًا على حماسي وأدار الحوار فى اتجاه آخر ومواضيع أخرى.

لم أشعر بسعادة تجاه ما تمخضت عنه تلك المواجهة. لم أتوقع أن تكون الخطة الصهيونية بهذا التهافت وافتقاد المنطق والحجة: أملت أن يبعث دفاعى عن القضية العربية بعض التشكك لدى قادة الخطة الصهيونية - عدم يقين قد يدفعهم إلى مراجعة أفكارهم ودوافعهم، وربما أدى عدم اليقين إلى استعداد أكبر لقبول وجود حق أخلاقى وراء المعارضة العربية.. إلا أن أى من ذلك لم يحدث. بل على العكس، وجدت أنى أقابل بحائط بارد من النظرات المتسائلة: نظرات استنكار لتهورى وجرأتى على التشكيك فيما لا يقبل الشك، وهو حق اليهود فى أرض أسلافهم...

تعجبت، كيف يمكن لأناس تميزوا بذكاء مبدع وخلاق مثل اليهود أن يفكروا فى الصراع بوجهة نظر أحادية فقط؟ ألم يرد إلى أذهانهم أن مشكلة اليهود فى فلسطين من الممكن أن تحل على المدى البعيد بتفاهم وتعاون ودى مع العرب؟ هل هم فاقدو البصر بدرجة ميئوس منها لما يمكن أن تؤدى إليه سياستهم فى المستقبل من آلام؟ معاناة، ومرارة، وكراهية ستتكون وتولد فى نفوس العرب ضد جزيرة يهودية صغيرة - حتى لو نجحوا مرحليًا - وسط بحرى عربى معاد؟

وتعجبت أيضًا، كيف لأمة، عانت مثل تلك المعاناة العسيرة ووقعت عليها مظالم عديدة فى مسيرة هجراتها الطويلة المؤسفة، ثم توقع الظلم الذى عانت منه، برؤية أحادية الجانب، على أمة أخرى، بريئة من الآلام والفظائع والويلات التى تعرض لها اليهود فى أرجاء العالم. مثل تلك الظاهرة، كما أعرف، لم تكن الأولى فى التاريخ، إلا أنها كانت مبعث حزنى الشديد لأنها تقع هذه المرة على مرأى منى.

* * *

لم يؤد المشـهد السياسى فى فلسطين إلى مـجرد تعاطفى مع العرب، ولكن أدى أيضًا إلى إيقاظ اهتمامى الصحفى: أصبحت مراسلاً خاصًا لصحيفة «فرانكفورتر زيتونج» الألمانية، وكانت واحدة من أهم الصحف الأوروبية. حدث ذلك أيضًا بالمصادفة. فذات مساء، كنت أعيد ترتيب المجلات والجرائد المتراكمة فى حقائبى، ووجدت البطاقة الصحفية التى كنت أحملها فى برلين كممثل لوكالة أنباء يونايتد تليجراف. حين هممت بتمزيقها، أمسك خالى دوريان بيدى وتساءل مازحًا: «لا تمزقها! لو قدمت هذه البطاقة إلى المندوب السامى البريطانى، ستتلقى بعد عدة أيام دعوة للغداء فى دار المعتمدية.. ألا تعلم أن الصحفيين كائنات مرغوب فيها فى هذا البلد؟

وعلى الرغم من أننى مزقت البطاقة التى لم أشعر بجدواها، فإن مزحة دوريان أثارت فى ذهنى استجابة من نوع آخر. لم أكن بالطبع مهتمًا بالحصول على دعوة غداء فى دار المعتمدية - ولكن، لماذا لا أستغل فرصة وجودى فى فلسطين فى الوقت الذى لا تتاح فيه فرصة السفر إلى الشرق الأوسط إلا لقلة قليلة من صحفييّ وسط أوروبا؟ لماذا لا أستعيد عملى بالصحافة - لا مع يونايتد تليجراف، بل مع إحدى الصحف اليومية الكبرى؟ فجأة، وكما اعتدت أن أتخذ قرارات كبرى، قررت فى تلك اللحظة أن أقتحم الصحافة الحقيقية.

على الرغم من عملى لمدة عام ليونايتد تليجرام، لم يكن لدى أى اتصال مباشر بأى صحيفة مهمة، وحيث إننى لم أنشر أى شىء باسمى قبل ذلك، لم يكن اسمى معروفًا لأى صحيفة يومية، إلا أن ذلك لم يفت فى عضدى. كتبت مقالاً عن انطباعاتى كما رأيتها على أرض الواقع فى فلسطين وأرسلت نسخًا من ذلك المقال إلى ما لا يقل عن عشر صحف ألمانية مصحوبة بعرض منى أن أكتب سلسلة من المقالات عن الشرق الأدنى وما يدور فيه.

كان ذلك فى الشهر الأخير من عام ١٩٢٢ - وهو وقت الأزمة الاقتصادية الألمانية الكبرى. كانت الصحافة الألمانية تعانى بشدة من أجل الصمود فى مواجهة الأزمة الاقتصادية، ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الصحف التى تقدر على دفع راتب مراسل بالخارج بالعملة الصعبة، ولذلك لم يدهشنى أن توالت علىَّ ردود عشر من الصحف التى

أرسلت إليها نسخًا من المقال بالرفض والاعتذار الرقيق. واحدة فقط من العشر صحف قبلت عرضي، وكان من الواضح أنهم قد أعجبهم ما كتبته، وعينوني كمراسل خاص جائل في الشرق الأدنى، واحتوى المغلف الذى أرسلوه على عقد لأوقعه وأعيد إرساله إليهم. كانت تلك الصحيفة الوحيدة التى قبلت عرضى هى «فرانكفورتر ذيتونج».

أصابنى الذهول ليس فقط لنجاحى فى خلق علاقة بصحيفة - وأى صحيفة! - ولكن من أول مرة حققت صفة يحسدنى عليها كثير من الصحفيين الكبار.

كان بالعقد بالطبع عقبة صغيرة. فبسبب الأزمة الاقتصادية الألمانية ومعدل التضخم العالى، لم يكن بإمكان الصحيفة أن تدفع لى راتبى بالعملة الصعبة وكان الراتب الذى عرضوه بالعقد مع اعتذار رقيق بالمارك الألمانى، وكنت أعرف كما كانوا هم يعرفون أن ذلك الراتب بالمارك الألمانى لا يكفى لشراء طوابع البريد التى سأضعها على المغلفات لأرسل فيها مقالاتى. ولكن أن أكون مراسلاً خاصًا «لفرانكفورتر ذيتونج» كان تميزًا يفوق بمراحل العسر المالى المؤقت من عدم قدرتهم على الدفع بأى عملة أجنبية. بدأت بكتابة مقالات عن فلسطين، آملاً أن يتيح لى بعض الحظ أن أسافر إلى جميع أرجاء الشرق الأدنى.

* * *

أصبح لى الآن أصدقاء كثيرون بفلسطين، من اليهود والعرب. وفى الحقيقة، نظر إلىَّ الصهاينة نظرات دهشة واسترابة بسبب تعاطفى مع العرب الذى كان واضحًا فى مراسلاتى التى أبعث بها إلى صحيفة «فرانكفورتر ذيتونج». كانوا فى حيرة من أمرى إن كان بعض العرب قد «اشترونى» (كان الصهاينة يؤمنون بأن شعب فلسطين اعتاد على شرح مواقفه بالمال) أم أننى من ذوى الأفكار الشاذة الذين يهوون الإثارة.

ولكن، لم يكن كل اليهود الذين كانوا بفلسطين فى ذلك الوقت من الصهاينة. كان بعضهم قد قدم إلى فلسطين من دون دافع سياسى، ولكن بشغف دينى للأرض المقدسة وما تثيره فى أنفسهم الأحداث التوراتية من حنين لرؤيتها.

انتمى صديقى الهولندى «چاكوب دى هان» إلى تلك الفئة الأخيرة، كان قصيراً، بديناً، ذا لحية شقراء فى بدايات الأربعينيات من عمره، وكان قد درس القانون فى واحدة من كبرى جامعات هولندا وكان فى ذلك الوقت مراسلاً خاصاً لجريدة «هاندلسبلاد» التى تصدر من «أمستردام» ولصحيفة «ديلى إكسبريس» اللندنية. كان ذا إيمان دينى قوى - مثله مثل يهود أوروبا «الأرثوذوكس» - إلا أنه لم يقبل المخطط الصهيونى، كان يؤمن بأن عودة شعبه إلى أرض الميعاد لابد أن تنتظر حتى تتحقق عودة المسيح كما ورد فى التوراة.

قال فى أكثر من مناسبة: «نحن اليهود طردنا من الأرض المقدسة وتشتتنا فى جميع أرجاء العالم لأننا رسبنا فى أداء المهمة التى كلفنا الرب بها. لقد اختارنا لنبشر بكلمته، ولكن فى ذروة عنادنا الأجوف اعتقدنا أنه اختارنا «كشعب مختار» من أجل خاطرنا نحن - وهكذا خنا ما اختارنا لأدائه. لم يتبق لنا إلا أن ننقى ونطهر قلوبنا، وحين نصبح مستحقين تلك الأمانة من جديد، وأن نكون حملة رسالته، فإنه سيرسل مسيحه ليقود عبيده إلى الأرض الموعودة...»

سألته: «ولكن ألا تشكل الفكرة المسيحانية هذه أساساً للحركة الصهيونية أيضاً؟ أنت تعلم أننى لا أوافق عليها، ولكن أليست رغبة طبيعية لكل شعب أن يكون له وطن قومى خاص به؟».

نظر الدكتور دى هان إلىَّ بسخرية: «هل تعتقد أن التاريخ ليس إلا سلسلة من الحوادث؟ أنا لا أعتقد بذلك. لم يجعلنا الرب نفقد الأرض بلا غاية محددة ولم يشتتنا بلا هدف، إلا أن الصهاينة لا يريدون أن يقبلوا ذلك ويعترفوا به صراحة بينهم وبين أنفسهم. إنهم يعانون هم أيضاً من ذلك العمى الروحى الذى تسبب فى انهيارنا. ولم تعلمهم الألفا عام من الشتات أى شىء. وبدلاً من السعى لفهم الأسباب الدفينة لتعاستنا، فإنهم يسعون الآن لتعميقها، ببناء «وطن قومى» على أسس مستمدة من القوى الغربية السياسية؛ وفى عملية بناء وطن قومى، يرتكبون جريمة أكبر بحرمان شعب آخر من وطنه».

كانت آراء «چاكوب دى هان» السياسية سببًا فى أن يكون مكروهًا بشدة من قِبل الصهاينة (وبالفعل، بعد مغادرتى لفلسطين بفترة وجيزة، أصبت بصدمة حين علمت أنه اغتيل بإطلاق الرصاص عليه من قِبل إرهابيين صهاينة). حين تعارفنا، كات علاقاته الاجتماعية محدودة بعدد قليل من اليهود الذين يؤمنون بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظره، وبعض الأوروبيين، والعرب. وفيما يخص العرب فقد بدا لهم أن لآرائه وزنها وتأثيرها، ومن جانبهم كانوا يقدرونه وكانوا يدعونه كثيراً إلى بيوتهم، وفى الحقيقة، كانوا فى تلك الفترة غير متحاملين على اليهود مثلما هم الآن لم يحدث ذلك إلا بعد إعلان وعد بلفور - فبعد قرون من الجيرة الطيبة وحسن المعاشرة والوعى بالأصل المشترك بدأ العرب بعد وعد بلفور ينظرون إلى اليهود كأعداء سياسيين. ولكن حتى فى التغيرات السياسية التى واكبت بداية العشرينيات من القرن العشرين، كان العرب يفرقون بين الصهاينة واليهود الذين كانوا على علاقة طيبة بهم مثل الدكتور «دى هان».

* * *

تلك الشهور المصيرية الأولى التى عشتها فى بلد عربى حركت قطاراً طويلاً من الانطباعات والانعكاسات؛ بعضها كان آمالاً ذات طبيعة شخصية لم أدر كنهها ولم أتمكن من التعبير عنها كانت تتطلب منى إبرازها بوضوح إلى مجال عقلى الواعى.

لقد واجهت مسألة مغزى الحياة وجهًا لوجه وكان ذلك جديداً تماماً على حياتى.

الأنفاس البشرية الدافئة تتدفق من مجرى دم أولئك الناس إلى أفكارهم وإيماءاتهم، بلا تمزقات روحية مؤلمة من عدم الاطمئنان والخوف والطمع والإحباط الذى جعل من الحياة الأوروبية حياة قبيحة وسيئة لا تعد بأى شىء.

أما مع العرب فقد وجدت لديهم ما كنت أبحث عنه بعقلى الباطن دون أن أحسه بشكل ظاهر: وجدت لديهم سهولة معنوية وفكرية فى التعامل مع كل مشاكل الوجود - إحساس سامٍ مشترك، إذا جاز أن نطلق عليه ذلك. بمرور الوقت أحسست بضرورة

فهم روح تلك الشعوب المسلمة: لم يكن ذلك بسبب أن ديانتهم جذبت اهتمامي (في ذلك الوقت لم أكن أعرف إلا القليل عن الإسلام)، ولكن لأني وجدت لديهم تلاحمًا عضويًا بين الفكر والحواس الذى فقدناه نحن الأوروبيين. اعتقدت أنه من خلال فهم أقرب وأفضل لحياتهم يمكن أن أكتشف الحلقة المفقودة التى تسبب معاناة الغربيين - وهى تآكل التكامل الداخلي للشخصية الأوروبية - وجذور تلك المعاناة. قد اكتشف كنه ذلك الشىء الذى جعلنا نحن أهل الغرب ننأى عن الحرية الحقة بشروطها الموضوعية التى يتمتع بها العرب، حتى فى عصور انهيارهم الاجتماعى والسياسى، والتى يفترض أنها كانت تميزنا فى عصور أسبق؟ - أو كيف يتسنى لنا أن ننتج تلك الفنون العظمى فى الماضى، الكاتدرائيات القوطية فى القرون الوسطى، والغنى الروحى والمعنوى الذى صاحب عصر النهضة، روعة «رامبراندت» فى لوحاته، وروائع «باخ»، وهدوء وجلال «موتسارت»، الفخر التياه في فنون مزارعينا، هدير «بيتهوڤن» وتطلعه وسعيه نحو الجوانب الغامضة من الوجود وقممه الموسيقية التى تدرك بصعوبة، إن أدركتها يمكنك وقتها أن تصيح فى سعادة: «أنا وقدرى شىء واحد».

لأننا لم نعد ندرك طبيعتهم الحقة، ولا أن نستخدم قوانا الروحية على الوجه الصحيح، لن ينهض بيننا «بيتهوفن» آخَر ولا «رامبراندت» آخر. بدلاً من ذلك، لم نجد إلا ما نراه الآن من أن هناك مساعٍ يائسة نحو «أشكال جديدة من التعبير» فى الفن، والاجتماع، والسياسة، وذلك الصراع المرير بين الشعارات المتعارضة والمبادئ الشكية وكل منتجنا الآلى وناطحات السحاب التى لا يمكن أن تكون ذات جدوى فى استعادة تكامل نفوسنا المحطمة... إلا أنه يتبقى تساؤل - هل ضاعت العظمة الروحية للماضى الأوروبى إلى الأبد؟

ألا يمكن استعادتها، أو بعض منها باكتشاف كنه الخطأ الذى ألم بنا؟ ما كنت أشعر فى البداية أنه لا يعدو أكثر من تعاطف مع الأهداف السياسية وشكل الحياة العربية والأمان المعنوى الذى أحسه بينهم، تحول بطريقة لا أدركها إلى ما يشبه المسألة الذاتية. زاد وعيى برغبتى الطاغية لمعرفة كنه ذلك الشىء الذى يكمن فى أسس الأمن

المعنوى والنفسى وجعل حياة العرب تختلف كلية عن حياة الأوروبيين: ارتبطت تلك الرغبة بشكل غامض بمشاكلى الشخصية الدفينة.

بدأت أبحث عن مداخل تتيح لى فهم أفضل للشخصية العربية، والأفكار التى شكلتهم وصاغتهم وجعلتهم يختلفون روحياً عن الأوروبيين. بدأت أقرأ كثيراً بتركيز فى تاريخهم وثقافتهم ودينهم... وفى غمرة اهتمامى أحسست بأننى قد توصلت إلى اكتشاف ما يحرك قلوبهم ويشغل فكرهم ويحدد لهم اتجاههم، أحسست أيضاً بضرورة اكتشاف القوى الخفية التى تحركنى أنا ذاتى، وتشكل دوافعى، وتشغل فكرى، وتعدنى أن تهدينى إلى سبيل......

الفصل الرابع

أصوات

[١]

مضينا راكبين، وزيد يغنى. أصبحت الكثبان أوطأ، وعلى مسافات أبعد، وفراغات أوسع. تنحسر الرمال من مكان إلى آخر كاشفة عن مساحات من الحصى وصخور البازلت الحادة. وأمامنا، بعيدًا إلى الجنوب تبدو كتلة هائلة فوق مستوى الأفق: كانت مرتفعات جبال شمّار كلمات أغانى زيد تنفذ غير واضحة بين ثنايا نعاس، لم يلتقط ذهنى الكلمات بوضوح، بدت وكأنها تحتوى على مغزى أعمق من معانيها السطحية المباشرة. واحدة من أغانى مسافرى الصحراء على ظهور الإبل، أغانٍ تدفع الإبل إلى المحافظة على خطاها وتدفعها إلى السير السريع. أغانٍ يغنيها رجال اعتادوا على رحابة الصحراء واتساعها بلا حدود.

دائمًا تبدو أغانى الصحراء ذات نغمة واحدة ومستوى صوتى رتيب، طويل الإيقاع قوى وأجش يأتى من أعلى الحلق، ويتلاشى بنعومة فى هواء الصحراء الجاف: تبدو الأغانى كأنها تنفس الصحراء صاعد من صوت البشر. مضينا راكبين، وزيد يغنى، كما كان والده يغنى، وكما غنى كل رجال قبيلته، والقبائل الأخرى التى سبقتهم على مدى آلاف الأعوام: مرت آلاف الأعوام حتى تشكلت تلك الأغنيات ذات المعانى المكثفة

أحادية النغم. وبعكس الموسيقى الغربية متعددة الأصوات والتى تعبر فى الغالب عن مشاعر فردية، تبدو تلك الأغانى العربية كأنها رموز صوتية لمخزون معنوى لملايين البشر وتنقل عواطفهم المكثفة. ولدت الأغانى من أزمان قديمة فى بيئة الصحراء على إيقاع الرياح والعواصف وهجرات القبائل وأحاسيس الآفاق الواسعة والمسافات الكبيرة ومن تأمل الحاضر الأبدى: ومثل كل ما هو مهم فى حياة البشر ويظل على جوهره، ظلت تلك الأغانى بلا تغير على مدى دهور.

من الصعب أن تجد مثل تلك الأغانى فى الغرب، بسبب التعددية لا فى الأصوات ولا فى الموسيقى فحسب، بل فى مشاعر البشر ورغباتهم. برودة الطقس، وغزارة المياه، وتتابع الفصول توجد تعددية شكلية لمظاهر الحياة تتباين فى دلالاتها ومعانيها ولذلك يشعر الرجل الغربى برغبات كثيرة ودافع قوى لفعل أشياء من أجل فعلها. يجد أن عليه أن يبتدع ويبنى ويتغلب حتى يرى ذاته متحققة مرة بعد أخرى فى تعقيدات الحياة المتغيرة. وينعكس ذلك على موسيقاه أيضاً وغنائه الغربى الصاخب والصوت الآتى من الصدى، يوحى بطبيعة «فاوستية» تدفع بالرجل الغربى إلى أحلام كثيرة، ورغبات متعددة؛ الزمن ليس إلا عدواً، يتطلعون إليه بتشكك وريبة، ولا يحمل الحاضر لهم أبداً أى معنى من معانى الخلود والأبدية والديمومة...

أما عرب الصحراء فلا يوجد فى صحاريهم وبواديهم الواسعة الممتدة ما يغرى بالحلم: الصحراء قاسية واضحة كالنهار لا تعرف لون المشاعر. الظاهر والباطن، الذاتى والعام، لاتناقض بينها عنده بقدر ما هى أوجه متباينة لحاضر لا يتغير؛ لا تهيمن على حياته مخاوف دفينة، وحين يقوم بفعل فإنه يقوم به لضرورة خارجية لا لرغبة داخلية ولا احتياجاً لتأمين ذاته. نتيجة لذلك لم يتقدم فى الإنجاز المادى بنفس سرعة الرجل الغربى ـ إلا أنه احتفظ بروحه سليمة.

* * *

تساءلت في داخلي بفضول، إلى أي مدى يستطيع زيد وقومه أن يحافظوا على سلامة أرواحهم في مواجهة الخطر المتسلل إليهم والذي يكاد أن يطبق عليهم في قسوة وشراسة؟

إننا نحيا في عصر لا يمكن فيه للشرق أن يظل على سلبيته في مواجهة تقدم الغرب، آلاف القوى - سياسية، واجتماعية، واقتصادية - تحاول اقتحام أبواب العالم الإسلامي.

هل سيرضخ لغرب القرن العشرين، وإن خضع، ألن يفقد تقاليده وجذوره الروحية؟

[٢]

خلال الأعوام التي قضيتها بالشرق الأوسط، كمجرد متعاطف من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٦، ثم كمسلم من بعد ذلك له أهداف مشتركة مع العالم الإسلامي، شهدت حصار الغرب للحياة الثقافية الإسلامية وللاستقلال السياسي للعرب والمسلمين. وإذا حاولت الشعوب الإسلامية دفع تلك الهيمنة، يتهم الرأي العام الأوروبي تلك المقاومة، بطريقة البراءة الجريحة، بأنها «كراهية الأجانب».

اعتادت أوروبا لأزمان طويلة أن تتعامل مع كل ما يقع في الشرق الأوسط برؤية مصالحها فقط فيما أسمته «مجالات المصالح» الغربية.

وبينما أبدى الرأي العام الغربي خارج بريطانيا تعاطفًا تجاه الكفاح الأيرلندي للاستقلال عن بريطانيا. كما تعاطف الرأي العام الغربي (خارج ألمانيا وروسيا) مع أحلام بولندا في الاستقلال، إلا أن ذلك التعاطف الغربي لم يمتد ليشمل تطلعات المجتمعات الإسلامية. وحجة الغرب دائمًا تنحصر في التمزق السياسي العربي والتخلف الاقتصادي للشرق الأوسط. وكل تدخل غربي في شؤون الدول الإسلامية يوصف بنفاق بأنه دفاع عن المصالح «المشروعة» للغرب بل والأغرب أنه يتم تبريره بأنه لتأمين تقدم ورقي شعوب تلك البلاد.

كان دارسو الشرق الأوسط على استعداد دائم لبلع ذلك الطعم من الادعاءات، متجاهلين أن كل تدخل مباشر أو غير مباشر من خارج البلاد لا يؤدى إلا إلى تعويق تطور ونمو أى مجتمع إسلامى بعكس ما يدّعون لا يرى الدراسون إلا خطوط السكك الحديدية التى مدتها القوى الاستعمارية، ولكنهم لا يرون ما دمره المستعمر من الصناعات الوطنية، ويحصون أعداداً من «كيلو ـ واط» خطوط الكهرباء، ولا يرون ما يدمرونه من اعتزاز قومى وروح قومية. إنها الشعوب الغربية نفسها التى لم تقبل أبداً دخول بعثة للإمبراطورية النمساوية لمنطقة البلقان، وقبلوا بتسامح شديد دخول بريطانيا إلى مصر، ودخول روسيا إلى وسط آسيا، ودخول فرنسا دول المغرب العربى، ودخول إيطاليا إلى ليبيا.

لم تمر أبداً فى أذهانهم فكرة أن أكثر العلل والآفات الاجتماعية والاقتصادية التى يعانى منها الشرق الأوسط ليست إلا نتيجة مباشرة «للمصالح» الغربية، وعدا ذلك، يهدف التدخل الغربى بشكل أو بآخر إلى توسيع وزيادة بؤر الاضطرابات الداخلية لتصعيب سيطرة الشعوب المعنية على مقدراتها.

* * *

تحققت من ذلك لأول مرة وأنا فى فلسطين عام ١٩٢٢، وتأكدت من السياسة المراوغة ذات الوجهين التى تتبعها الإدارة البريطانية فيما يخص الصراع العربى ـ الصهيونى، واتضح لى بكامل أبعاده فى بدايات عام ١٩٢٣، بعد أن قضيت عدة أشهر متجولاً فى أنحاء فلسطين، كما ذهبت إلى مصر التى كانت فى حالة غليان مستمر ضد «الوصاية» البريطانية عليها. كانت القنابل تلقى على مناطق يرتادها الجنود البريطانيون، وترد عليهم قوات الاحتلال بإجراءات فى غاية القسوة والتعسف، من إعلان للأحكام العرفية العسكرية، إلى الاعتقالات السياسية، ونفى قادة المقاومة، وإغلاق الصحف ومصادرتها إلا أن كل تلك الإجراءات القاسية لم تنل من عزيمة الشعب المصرى وتطلعه إلى الحرية ونضاله من أجل تحقيقها. كان يسرى فى كل الأمة المصرية

ما يمكن وصفه بموجة من التشنج العاطفى. لم يكن نشيج يأس، بل نشيج عزيمة وتصميم من اكتشف جذور قواه الكامنة.

كان الباشاوات فقط وهم أصحاب الإقطاعيات الزراعية الكبيرة متحالفين مع الحكم البريطانى، أما الأغلبية الساحقة من الشعب - بما فيهم الفلاحون الفقراء - الذى كان الفدان الواحد من الأرض الزراعية يعد أثمن ممتلكات أسرة بكاملها، فقد دعموا جميعاً الحركة الساعية للاستقلال.

فى صباح أحد الأيام تصاعد نداء باعة الصحف الجائلين فى الشوارع: «القبض على قادة الوفد بأمر الحاكم العسكرى» - فى اليوم التالى كان قادة جدد قد حلوا محل من تم اعتقالهم، كانت الفجوة تمتلئ مرة بعد أخرى: تنامى شوق المصريين إلى الحرية كما تنامت كراهية المحتل. ولم يكن لدى أوروبا إلا كلمة واحدة إزاء كل ما يجرى: «كراهية العرب للأجانب».

كان مجيئى إلى مصر فى ذلك الوقت لتوسيع مجال تغطيتى الصحفية كمراسل لجريدة «فرانكفورتر ذيتونج». ولم تسمح أحوال خالى «دوريان» المالية بتمويل تلك الجولة، إلا أنه قدم لى مبلغًا ماليًا صغيراً يكفى لدفع ثمن السفر من القدس إلى القاهرة بالقطار وما يعيننى على المعيشة لمدة أسبوعين بالقاهرة.

وجدت مسكنًا بسيطًا فى القاهرة فى حارة ضيقة يحيا بها الفنانون البسطاء، وبعض أصحاب المحلات الصغيرة من اليونانيين. كانت صاحبة المنزل سيدة كئيبة، طويلة، ثقيلة الوطأة، داكنة البشرة، وكانت تتجرع النبيذ اليونانى القوى من الصباح حتى المساء وتتناوب عليها حالات مزاجية متباينة. كانت ذات مزاج عاطفى سريع التقلب وعنيف، ويبدو أنها لم تحقق ذاتها أبداً من أى جانب من جوانب حياتها، إلا أنها رغم كل ذلك كانت ودوداً تجاهى، وكنت أشعر بمشاعر طيبة فى حضورها.

بعد أسبوع أو نحو ذلك، أوشكت الأموال القليلة التى كانت معى على النفاد. لم أرغب أن أعود بتلك السرعة إلى فلسطين لأمكث فى منزل خالى من جديد، فبدأت أبحث عن وسيلة لكسب العيش.

كان صديقى الذى تعرفت عليه بالقدس، الدكتور «دى هان» قد زودنى برسالة توصية إلى رجل أعمال هولندى بالقاهرة، توجهت إليه وطلبت نصحه بشأن إيجاد فرصة عمل. كان رجل أعمال هولندى يتسم بشخصية لطيفة واهتمامات ثقافية تتجاوز مجال عمله. علم من رسالة التوصية التى كتبها إليه «چاكوب دى هان» أننى مراسل لصحيفة «فرانكفورتر ذيتونج»، وحين أطلعته بناء على طلبه على بعض مقالاتى الأخيرة، رفع حاجبيه فى دهشة:

- «قل لى، كم يبلغ عمرك؟».

- «الثانية والعشرون».

- «قل لى أيضاً، من فضلك: من أعانك على كتابة هذه المقالات، هل عاونك دى هان؟»

ضحكت وأجبته: «كلا بالطبع، كتبتها بنفسى، دائماً أقوم بعملى بنفسى، ولكن لماذا تشك فى ذلك؟».

هز رأسه وكأنما فاجأه تساؤلى: «لأنها مدهشة.. كيف وصلت إلى هذا النضج حتى تكتب مثل هذه المادة الصحفية؟ وكيف تمكنت أن تعبر فى نصف جملة عن معان تبدو ملغزة فى ظاهرها؟»

راقنى المديح الذى تضمنه رأيه ورفع ذلك من معنوياتى وإحساسى بذاتى. فى سياق حوارنا تبينت أن الرجل ليس لديه عمل لى، إلا أنه يعتقد أن بإمكانه أن يجد عملاً لى فى شركة مصرية يتعامل معها.

كان المكتب الذى أرشدنى إليه يقع فى أحد أحياء القاهرة القديمة، ولا يبعد كثيراً عن مسكنى: كان يقع فى ممر بين مبنيين، كان أحدهما من المبانى العريقة القديمة التى تحولت إلى مكاتب شركات وشقق رخيصة للإيجار. كان مدير العمل، وهو مصرى أكبر منى عمراً أصلع الرأس، وكان فى حاجة إلى موظف بعض الوقت يتولى مسئولية مراسلاته باللغة الفرنسية؛ أقنعته أننى أستطيع أن أقوم بذلك مع أنه لا خبرة لى إطلاقاً بالأعمال التجارية. توصلنا إلى اتفاق بسرعة وسهولة، وهو أن أعمل ثلاث ساعات يومياً

مقابل أجر بسيط، إلا أنه كان يكفى لدفع إيجار المسكن والمعيشة بالكاد على الخبز واللبن والزيتون».

كان حى الأضواء الحمراء فى القاهرة يقع فى المنطقة المحصورة بين مسكنى ومكان عملى الجديد، حى بأكمله بحوارٍ ضيقة متعرجة تقطنه كبار وصغار الداعرات.

بعد الظهر، فى طريقى إلى العمل، أجد تلك الحوارى خالية يسودها صمت وسكون. عبر النوافذ أرى امرأة تتمطى فى تراخ وكسل، ومن نافذة أخرى فتيات المنزل يرتشفن فناجين القهوة بصحبة رجال ملتحين على وجوههم علامات الجدية ويتحدثون فى عبوس، عن أشياء تبدو بعيدة عن إثارة البدن والمتع المحرمة.

حين يحل المساء، وفى طريق عودتى من العمل إلى مسكنى، يستقيظ الحى بأجمعه وتدب فيه الحياة، يصدح بموسيقى العود العربى تصاحبه الطبول والدفوف وضحكات النساء. حين تسير تحت أعمدة الإنارة والفوانيس الملونة، تجد فجأة ذراعًا ناعمة تلتف فى رقة حول رقبتك، ذراعًا بيضاء أو داكنة أو قمحية اللون، إلا أنها جميعًا على اختلاف ألوانها توسوس بصوت الأساور والسلاسل الذهبية والفضية، ورنات خلاخيل القدمين الفضية، وتفوح منها رائحة المسك ورائحة البشرة الدافئة.

لابد أن تكون قوى العزيمة والإرادة حتى تظل بمنأى عن أسر تلك الأحضان الدافئة وتفر من نداءات متكررة: «ياحبيبى» و«سعادتك». لابد أن تشق طريقك بين أطراف بضة لامعة تغرى بالنظر وتدير الرأس بما تتضمنه من إيحاءات. كل زائرى مصر تراهم فى تلك الأماكن، من مغاربة إلى جزائريين وسودانيين ونوبيين، وأبناء الجزيرة العربية وأرمينيا وسوريا وإيران... رجال فى ثياب حريرية طويلة يجلسون على أرائك بجوار حوائط المنازل، يشعرون بالبهجة، يضحكون ويداعبون فتيات الليل أو يدخنون الأراجيل صامتين متفرجين. ليسوا جميعًا من «زبائن» المتعة: جاء كثير منهم لقضاء بعض الوقت فى مكان غريب سمعوا عنه، مبهج ومثير فى جو غير تقليدى..

أحيانًا لابد أن تتنحى بسرعة قبل أن يصطدم بك درويش من السودان يرتدى

أسمالاً بالية، يغنى أغانى المتسولين ووجهه مغيب وذراعاه مفرودتان للأمام. سحب البخور تتصاعد من مباخر تتأرجح وتدور وتمس وجهك بروائح ذكية. تتصاعد أصوات الغناء الجماعى وتتخافت من أكثر من موضع، مع التكرار بدأت فى فهم معانى بعض الألفاظ العربية.. ومرات تسمع أصواتًا مصاحبة للمتعة ـ الأصوات الحيوانية لتلك الفتيات وهن يمارسن المتعة المحرمة ـ فى أزيائهن التى لا تخفى أبدانهن وتتراوح بين الأزرق الفاتح، والأصفر، والأحمر، والأخضر، والأبيض، والذهبى، كلها من الحرير ونسيج التوللى، أو نسيج شفاف أو حرير دمشقى ـ كانت ضحكاتهن تبدو كأنها خطوات القطط على أحجار الطريق، ترتفع مجلجلة، وتتخافت، لتتصاعد ضحكات أخرى من أماكن أخرى.

كيف يمتلك المصريون تلك القدرة على الضحك؟ كيف يسايرون الأيام والزمن يومًا بعد يوم فوق شوارع القاهرة، منتصبى القامة بخطوات مرحة فى قمصانهم الطويلة التى يسمونها «جلابية» المخططة عادة بكل ألوان الطيف ـ مرحين، عقولهم حرة، حتى يعتقد المرء أن كل ذلك الفقر الطاحن وعدم الرضا والاضطرابات السياسية لا تؤخذ بجدية إلا بشكل نسبى، وتجد أن مرحهم الصاخب المتفجر يبدو دائمًا على استعداد لترك مساحة إلى صفاء النفس والهدوء الذى يصل إلى التراخى والكسل.

لهذا السبب، يعتبر أغلب الأوروبيين (ومازالوا) أن العرب سطحيون، إلا أننى اكتشفت أن ذلك الحكم على العرب ينبع من ميل الغرب إلى المبالغة فى وصف الانفعالات التى تبدو لهم متجهمة وجادة ورزينة بأنها «عميقة»، وأن يصفوا «بالسطحية» أى سلوك فيه خفة ومرح. أدركت أن العرب قد ظلوا متحررين من تلك التوترات الداخلية والضغوط النفسية التى يتصف بها أبناء الغرب بصفة خاصة: فكيف لنا إذن أن نطبق عليهم مقاييسنا الخاصة؟

لو بدا أنهم سطحيون، فربما كان ذلك عائد إلى تدفق مشاعرهم وانفعالاتهم مباشرة إلى سلوكياتهم. وربما يتحولون تحت وطأة «التغريب» إلى فقد تدريجى لتلك التلقائية فى تواصلهم مع الواقع: فمع أن التأثير الغربى يعمل فى بعض المجالات والمناحى كحافز

ومخصب للفكر العربى المعاصر، إلا أنه لابد أن يعمل على خلق المشكلات الخطيرة نفسها التى تهيمن على المشهد الروحى والسياسى فى الغرب.

* * *

مقابل المنزل الذى كنت أقطن به فى القاهرة، مقابله تماماً فى تلك الحارة الضيقة أو الممر، كان هناك مسجد صغير ذو مئذنة قصيرة كنت أسمع منها الأذان للصلاة خمس مرات كل يوم. يظهر رجل ذا عمامة بيضاء فى شرفة المئذنة، يرفع كفيه إلى جانبى وجهه، ثم يرفع عقيرته بالأذان: «الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله»، فى تحوله البطىء فى شرفة المئذنة ليوجه النداء إلى الجهات الأصلية الأربع، يرتفع صوته متسلقاً الأعالى، ويتضخم ويتضاعف فى الجو الصافى، بعمق الأصوات الحلقية للكلمات العربية، يتماوج، يتقدم ويتراجع، جهيراً عميقاً، ناعماً وقوياً واسع المدى، إلا أنك تدرك أن تلك الصفات الجمالية الصوتية التى تميز الأذان إنما هى ناتجة عن توهج إيمانى، لا عن نوع من الصنعة الفنية.

كان أذان المؤذنين الذى كنت أسمعه فى الأيام التى قضيتها بالقاهرة، هو ذاته الأذان الذى كنت أستمع إليه بالقدس، وقدر لى أن أسمعه بعد ذلك فى كل البلاد الإسلامية رغم اختلاف اللغات واللهجات وأصوات الأداء: جعلنى توحد الأذان أدرك فى تلك الأيام عمق التوحد الإسلامى بين كل الشعوب الإسلامية، وأدرك أن الاختلافات مصطنعة ولا معنى لها. تميز ذلك التوحد عقيدة واحدة، وتوحد أساليب التفكير، والتمييز بين الصواب والخطأ والحلال والحرام، وإدراك واحد لما يجب أن يكون عليه صلاح الحياة.

بدا لى أنه لأول مرة أصادف مجتمعات تكون فيها الرابطة بين فرد وآخر لا تعود إلى انتماء لجنس واحد ولا لاهتمامات مادية اقتصادية ومصالح مشتركة مبنية على المنفعة، بل تعود إلى ما هو أعمق من كل ذلك وأشد رسوخاً: إلى الاشتراك فى رؤية

واحدة إلى الهدف من الوجود، رؤية تزيل كل الحواجز التى يمكن أن تعزل فرداً عن فرد آخر من بنى البشر.

عدت فى صيف ١٩٢٣ إلى القدس، وقد أثْرَتنى التجارب بفهم أفضل لطبيعة الحياة فى الشرق الأوسط وما يتعلق بها من جوانب ومشاكل سياسية. وتعرفتُ إلى الأمير عبد الله - أمير عبر الأردن عن طريق صديقى الحميم «چاكوب دى هان»، ودعانى إلى زيارة بلده. كنت لأول مرة أرى بلداً عربياً بدوياً بأجمعه. كانت العاصمة عمان فى ذلك الوقت - قد بنيت على حطام المستعمرة اليونانية القديمة التى أسسها بطليموس فيلادلفيوس وأسماها فيلادلفيا - مدينة صغيرة لايزيد سكانها على ستة آلاف نسمة، تموج شوارعها بالبدو القادمين من الصحارى والبرارى، كانت الخيول تعدو فى شوارع عمان، كل بدوى كان مسلحًا بخنجر فى حزامه وبندقية على ظهره، وكانوا من أصول چركسية (وكان الچراكسة هم من أسسوا المدينة الحديثة بعد هجرتهم من وطنهم شمال القفقاص بعد الغزو الروسى لبلادهم فى القرن التاسع عشر)، يتجولون فى جماعات كبيرة بالأسواق التى كانت تموج بالحركة وتناسب مدينة أكبر من عمان.

كان الأمير عبد الله فى ذلك الوقت يعيش فى معسكر من الخيام على تل يشرف على المدينة حيث لم تكن بها مبان كافية وملائمة له. وكانت خيمته أكبر من باقى الخيام، وتتكون من مساحات تفصلها عن بعضها حواجز من أقمشة الخيام السميكة المزركشة وتحتوى على أساس بسيط فقد كان بركن واحدة من تلك المساحات جلد دب أسود يستعمل فراشاً للنوم، وفى غرفة الاستقبال كان هناك زوج من سروج الإبل يستعمل متكئًا لمن يجلس على البساط.

لم يكن بالخيمة أحد - باستثناء خادم أسود يرتدى زيًا مقصبًا ويضع خنجراً مذهبًا فى حزامه - عند دخولنا إليها أنا والدكتور رضا توفيق بك كبير مستشارى الأمير عبد الله. كان رضا توفيق بك تركيًا وأستاذاً جامعيًا سابقًا ووزير تعليم سابقًا أيضًا بتركيا على مدى ثلاثة أعوام قبل وصول كمال أتاتورك إلى الحكم.أخبرنى الدكتور رضا أن الأمير عبد الله لن يتأخر كثيراً؛ إذ كان يعقد اجتماعًا مع بعض زعماء قبائل البدو

بسبب الهجوم الذى شنه أهل نجد على جنوب الأردن. وشرح لى الدكتور رضا طبيعة المشكلة قائلاً: «أولئك النجديون الوهابيون لعبوا دوراً فى الإسلام لا يقل عن دور الإصلاحيين البيوريتانيين فى العالم المسيحى، فبقدر ما منعوا كل تقديس للأولياء والأسلاف الصالحين، ونهوا عن كل الخرافات الغيبية الغامضة التى تسللت إلى الإسلام عبر القرون؛ كانوا بنفس القدر أعداءً للعائلة الشريفة التى يتزعمها الشريف حسين ملك الحجاز، ووالد الأمير عبد الله، وطبقًا لما ذكره لى رضا توفيق بك، فإن وجهات النظر الدينية التى تبناها الوهابيون لا يمكن رفضها، لأنهم اقتربوا بالفعل من روح القرآن ومضمونه أكثر من أية اتجاهات أخرى كانت سائدة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت، وأنها من الممكن أن تؤدى مع مضى الزمن إلى تنقية الفكر الإسلامى من كل ما علق به من مدخلات، إلا أن تطرفهم الشديد، أدى إلى نفور كثير من المسلمين مما تدعو إليه الحركة الوهابية، وكانت تلك العقبة موضع ترحيب من «بعض الجهات» التى تخشى عودة اتحاد الشعوب العربية لدرجة الرعب.

بعد فترة وجيزة دخل الأمير عبد الله - كان فى حوالى الأربعين من عمره، متوسط القامة، له لحية قصيرة شقراء، يخطو بنعومة لابسًا خفًا من الجلد الأسود، وعباءة عربية فضفاضة من الحرير الأبيض الشفاف، فوق جلباب عربى أبيض. بادرنى قائلاً: «أهلاً وسهلاً»، وكانت أول مرة توجه لىّ فيها تلك التحية العربية الحميمة.

كان بشخصية الأمير عبد الله جانب جذاب وآسر، روح ودود قوية، تعبيرات دافئة وسرعة بديهة. لم يكن من الصعب اكتشاف سر شعبيته فى تلك الأيام وحب شعبه له. وبالرغم من عدم تقبل كثير من العرب للدور الذى لعبه فى تنفيذ السياسة البريطانية فى تمرد العائلة الشريفة بالجزيرة وعبر الأردن ضد الحكم التركى لصالح البريطانيين مما اعتبر خيانة مسلمين لمسلمين آخرين، إلا أنه اكتسب مكانة متميزة بسبب دوره الذى أداه للقضية العربية ضد الصهيونية، إلا أنه سيأتى يوم تؤدى فيه مواقفه المتغيرة مع التغيرات السياسية إلى جعل اسمه مكروهاً ومبغوضاً فى كل أرجاء العالم العربى. كنا

نحتسى القهوة فى أقداح صغيرة يدور بها الخادم الأسود، وتحدثنا ـ كان الدكتور رضا يتدخل أحيانًا للترجمة، وقد كان يجيد الفرنسية إجادة تامة ـ عن المصاعب الإدارية فى الدولة الوليدة، بسبب اعتياد كل فرد على حمل السلاح، وعدم انصياع أى بدوى إلى أى قانون إلا قانون عشيرته.

قال الأمير: «العربى لديه كثير من حسن الفهم والإدراك، حتى البدو بدأوا يدركون أن عليهم التخلى عن الفوضى إذا أرادوا أن يتحرروا من الهيمنة الأجنبية، وحالات الثأر بين القبائل التى لابد أنك سمعت عنها، تختفى الآن تدريجيًا».

تناقشنا حول طبائع القبائل البدوية العنيدة التى اعتادت على قتال بعضها لأتفه الأسباب. كانت ثارات الدم تستمر على مدى أجيال ويورث الثأر المستحق من أب لابنه حتى على مدى قرون، وتؤدى إلى مزيد من إراقة الدماء فى سلسلة ثأر متبادل لا ينتهى وما يتمخض عنه من كراهية مريرة تدوم على مدى دهور مع أن السبب الأصلى الذى بدأ بسببه القتال يكون قد نسى لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لوضع حد لتلك الانشقاقات: وهى تزويج شاب من القبيلة صاحبة الثأر من فتاة عذراء من القبيلة التى عليها الثأر، وتعد دماء العذرية رمزًا للدم المطلوب من القبيلة التى عليها الدم. كانت بعض القبائل قد أنهكت من سلسلة الثأر المتبادل المستمر من أجيال، واستنزف قوى كل من القبيلتين المتناحرتين؛ فى مثل هذه الحالة، كان طرف ثالث يدبر ترتيب هذه الزيجة التى تنهى سلسلة الانتقام المتبادل.

قال لى الأمير عبد الله: «لقد فعلت ما هو أفضل من ذلك، لقد كونت مجالس تعويض لثأر الدم مكونة من رجال أجلاء محل ثقة الجميع يدورون فى أنحاء البلاد لترتيب خطب العروس الرمزى والزواج بها بين القبائل المتحاربة، ولكن...»، وهنا ارتجف جفناه «دائمًا أؤكد لأعضاء تلك المجالس أن يهتموا عند اختيارهم للعروس العذراء، حتى لا تنتقل الثارات داخل قبيلة العريس الذى أسىء اختيار زوجة له...» ظهر صبى فى حوالى الثانية عشرة من عمره من خلف أحد الحواجز، مضى خلال ضوء الخيمة المعتم قليلاً بخطوات سريعة وقفز فى سرعة على ظهر جواد طافر يثب على قائمتيه خارج الخيمة

وخادم يمسك لجامه: كان الابن الأكبر للأمير عبد الله، الأمير طلال بقامته النحيلة، انقض على الجواد وبريق فى عينيه رأيت فيه وجوداً بلا حلم جعل العرب يبدون أبعد ما يكونون، عن كل ما عرفته عنهم وأنا فى أوروبا.

حين لاحظ إعجابى الواضح بابنه، قال الأمير عبد الله: «إنه مثل أى صبى عربى آخر، يكبر وفكرة واحدة فى رأسه: الحرية، إننا لا نعتقد أننا بلا أخطاء، إلا أننا نحب أن نرتكب أخطاءنا بأنفسنا، وبذلك نتعلم كيف نتجنب الوقوع فيها من جديد ـ تماماً كما تتعلم الشجرة كيف تنمو باستقامة وذلك بقيامها بالنمو بنفسها، أو كما تشق المياه الغزيرة مجراها لتتدفق فيه.لا نريد أن يوجهنا أحد إلى الحكمة من قِبل شعوب لا توجد لديها أصلاً أية حكمة، ليس لديهم إلا القوة فقط والمدافع والأموال ولا يجيدون إلافقد أصدقائهم الذين كان يمكنهم الاحتفاظ بهم بسهولة...»(*).

* * *

لم يكن بإمكانى البقاء لأمد غير محدد بفلسطين دون مورد مالى؛ ومرة أخرى عاوننى «چاكوب دى هان». كان له اتصالات وعلاقات كثيرة عبر كل أوروبا كصحفى معروف. وأدت توصيته بى لدى صحف كثيرة إلى تعاقدين مع صحيفتين ناشئتين، واحدة فى هولندا والأخرى فى سويسرا، لكتابة سلسلة مقالات أتلقى أجرها بالجيلدر الهولندى والفرنكات السويسرية. ولأنها صحف محلية غير واسعة الانتشار فلم يكن بإمكانهم دفع أجر مجزٍ، إلا أنه لامرئ مثلى بسيط العادات، بدا الأجر كافياً لتمويل جولتى التى أخطط لها عبر الشرق الأوسط.

(*) لم يكن بإمكان أحد فى ذلك الوقت (١٩٢٣) أن يتنبأ بالصراع المرير الذى سينشأ ويفسد العلاقة بين الأمير عبد الله وابنه الأمير طلال ـ كان الابن يكره خضوع والده التام لسياسات بريطانيا فى العالم العربى، كما كره الأب أحاديث وخطب ابنه الوطنية، كما لم يتنبأ أحد بأية إمارة تدل على «الاضطراب العقلى» للأمير طلال، والذى اتخذ ذريعة للإطاحة به من على عرش الأردن عام ١٩٥٢.

قررت أن أبدأ بسوريا، إلا أن السلطات الفرنسية التى كانت تحتل سوريا وتواجه بعداء شديد من قِبل شعب سوريا، رفضت إعطاء تأشيرة دخول لشخص يحمل الجنسية النمساوية حيث كانت النمسا معادية لفرنسا فى الحرب العالمية الأولى، ولم يكن هناك ما أستطيع عمله إزاء ذلك؛ فقررت التوجه إلى حيفا، ومنها أسافر بحراً إلى استانبول، وكانت ضمن الجولة التى أخطط لها.

فى رحلة القطار من القدس إلى حيفا، وقعت لى كارثة جديدة، فقد فقدت معطفى الذى كانت به حافظة نقودى وجواز سفرى. لم يبق معى إلا بعض قطع نقود معدنية كانت بجيب سروالى. واتضح أن سفرى إلى أسطنبول أصبح مستحيلاً أيضًا. لم يتبق أمامى إلا العودة إلى القدس بالسيارة العامة؛وأن أدفع ثمن العودة عند وصولى إلى القدس مقترضًا إياه من خالى دوريان كالمعتاد. وفى حالة عودتى إلى القدس لابد أن أنتظر عدة أسابيع حتى أحصل على جواز سفر جديداً من القنصلية النمساوية بالقاهرة (لم تكن هناك قنصلية للنمسا فى ذلك الوقت فى فلسطين)، ثم أنتظر وصول قطرات مالية أخرى من هولندا وسويسرا.

هكذا وجدت نفسى فى الصباح أمام مكتب السيارات العامة على مشارف مدينة حيفا. وانتهيت من التفاوض حول أجر الركوب، وتبقت ساعة على انطلاق السيارة إلى القدس، ولإضاعة الوقت، رحت أتمشى جيئة وذهابًا على الطريق، تملأنى مشاعر الضيق من نفسى ومن القدر الذى أجبرنى على تلك العودة المهينة ومن جولة انتهت قبل أن تبدأ. كان الانتظار يضايقنى على الدوام وتشعرنى فكرة عودتى إلى القدس مهزوماً وذيلى بين ساقىّ بمرارة أشد وزاد من إحساسى بالمرارة تشكيك دوريان الدائم فى قدرتى على تحقيق خططى بتلك الأموال الضئيلة الهزيلة. فوق كل ذلك لن أتمكن من زيارة سوريا، والله وحده يعلم إن كانت تتاح لى فرصة أخرى لزيارة سوريا. لن أرى دمشق.. لماذا؟

تساءلت بمرارة، هل دمشق محرمة علىّ؟

هل هى فعلاً محرمة علىّ؟ كانت الإجابة سريعة ومنطقية - فلا جواز سفر، ولا مال. ولكن هل من المحتم أن يكون هناك جواز سفر ومال...؟

حين وصلت إلى ذلك المدى من التفكير، توقفت فجأة عن السير.. من الممكن إذا كانت هناك عزيمة كافية وقدرة على التحمل أن أقطع الرحلة سيراً على الأقدام، وأن أقبل كرم ضيافة الفلاحين العرب، ويحتمل أن أتمكن من عبور الحدود خفية دون جواز سفر ولا تأشيرات دخول.

قبل أن أعى أبعاد الأمر تماماً، كان عقلى قد اتخذ القرار: سأتجه فوراً إلى دمشق.

فى دقيقة أخبرت مشرفى السيارة العامة أننى قد غيرت رأيى، ولن أسافر إلى القدس. وفى بضع دقائق أخرى استبدلت ملابسى بملابس العمال الزرقاء والكوفية العربية (وهى أفضل حماية عربية للمرء من ضربة الشمس)، وقمت بشراء بعض المتطلبات الضرورية وضعتها فى حقيبة ظهر صغيرة، وأنهيت إجراءات إعادة حقيبة سفرى التى كانت معى إلى دوريان بالقدس. وانطلقت مبتدئًا طريقى الطويل إلى دمشق.

كان من الصعب التمييز بين إحساسى الطاغى بالحرية الذى ملأنى وإحساسى الطاغى بالسعادة التى اعترتنى. كانت معى بعض العملات المعدنية فى جيبى، منطلق إلى مهمة غير مشروعة قد تنتهى بى إلى السجن، ومشكلة عبور الحدود تبدو أمامى غير واضحة وغير يقينية، راهنت على قدرتى العقلية وحدها: وبعث ذلك فى نفسى قدراً كبيراً من السعادة.

* * *

سرت على طريق الجليل. بعد الظهر كانت سهول أزدرلون تقع إلى أسفل على يمينى، مرصعة بمساحات من الظلال والضوء. مررت بالناصرة، وقبل حلول الظلام وصلت إلى قرية عربية تحوطها أشجار الفلفل والصبار. على باب أول منزل كان يجلس بعض الرجال والنساء. توقفت وسألتهم إن كانت هذه القرية هى الرانية، وبعد أن ردوا بالإيجاب وأوشكت على مواصلة سيرى، نادتنى امرأة منهن: «ياسيدى، ترتاح قليلاً؟»

كما لو كانت تتنبأ بعطشى، مدت إبريقًا مليئًا بالماء البارد تجاهى، شربت حتى الارتواء، سألنى أحد الرجال - وكان من الواضح أنه زوج السيدة التى سقتنى - «ألا تأكل معنا كسرة خبز، وتقضى ليلك عندنا»؟

لم يسألنى أحد منهم من أكون، وإلى أين أمضى، أو ما عملى وبقيت الليل عندهم ضيفًا عليهم.

إن تكن ضيفًا على العرب؛ فهو شىء ذائع الصيت ومعروف لأطفال مدارس أوروبا. فأن تكون ضيفًا على العرب يعنى أن تدخل عندهم لساعات، وعلى مدى بقائك عندهم يعاملونك كما لو كانوا أشقاءك وشقيقاتك. نزولك ضيفًا على العرب ليس مجرد تقليد نبيل يجعل منهم مضيافين بذلك السخاء: إنها حريتهم الدفينة. متحررون من مشاعر عدم الثقة ويفتحون حياتهم بكل سهولة أمام ضيفهم. إنهم لا يحتاجون إلى جدران سميكة مثل تلك التى يقيمها أبناء الغرب بينهم وبين جيرانهم.

تناولت العشاء معهم، الرجال والنساء، كانوا جالسين متربعى الساقين على بساط حول قصعة كبيرة مليئة بالخبز الجاف المهشم، وعليه لبن كان أصحاب الدار يقطعون قطعًا من أرغفة خبز طرية رقيقة يدورونها ويغترفون بها مما بالقصعة دون أن تمس أصابعهم ثريد اللبن الذى بالقصعة. أما أنا فقد أعطونى ملعقة، إلا أنى رفضتها وحاولت أن آكل مثلهم بنجاح مما أسعد مضيفى لمحاكاتى لهم فى طريقتهم الطيبة فى تناول الطعام.

عند النوم تمددنا جميعًا، حوالى دستة من البشر فى الغرفة نفسها - رحت أحملق فى القواطع الخشبية بسقف الغرفة الذى كان يتدلى منه حبال بها فلفل مجفف وباذنجان، كانت هناك طاقات بالجدار موضوع بها أوانى طهو نحاسية وفخارية، دارت عيناى باتجاه الرجال والنساء النائمين، وسألت نفسى، هل كان من الممكن أن أشعر بمثل تلك المشاعر لو كنت فى موطنى؟

فى الأيام التالية، بدأت تلال الأردن ذات اللون البنى الصدئ وظلالها الزرقاء الرمادية والبنفسجية فى الاختفاء التدريجى كلما واصلت السير لتحل محلها تلال

الجليل الخضراء الأكثر بهجة. من آنٍ إلى آخر تجد نبع ماء يشق مجرى لمياهه بين الأشجار، والحياة النباتية أصبحت أغزر وأكثف، أشجار الزيتون تنمو بكثافة، وتجمعات لأشجار صبار داكنة طويلة؛ كانت آخر أزهار الصيف مازالت تنتثر هنا وهناك على جوانب التلال.

سرت جزءًا من الطريق برفقة أصحاب قوافل الجمال، وسعدت بصحبتهم البسيطة؛ ارتوينا من الماء الذى أحمله فى وعاء مائى، دخنّا لفائف التبغ معًا، ثم انفصلت عنهم حين تفرعت مقاصد كل منا. قضيت ليالى فى منازل العرب وأكلت معهم من خبزهم وسرت لأيام فى منخفض الجليل الحار بجوار بحيرة الجليل، ثم فى برودة الجو المحيطة ببحيرة هيول التى كان سطح مياهها يشبه مرآة معدنية يعلوها ضباب فضى رقيق تشوبه حمرة خفيفة تحت أشعة الشمس الغاربة. بالقرب من شاطئ البحيرة كان يسكن الصيادون الفقراء فى أكواخ من حصير مثبت على قوائم من أغصان الأشجار الجافة. كانوا فى غاية الفقر، وعلى الرغم من ذلك بدا عليهم أنهم لا يريدون أكثر من تلك الأكواخ فى العراء، وتلك الملابس البسيطة التى محيت ألوانها، وحفن من الدقيق لعمل الخبز، والسمك الذى يصطادونه: ودائمًا يبدو عليهم أن لديهم ما يزيد على حاجتهم حتى إنهم يصرون على استضافة الغريب ليشاركهم طعامهم القليل.

* * *

كانت أقصى نقطة شمال فلسطين هى مستعمرة المطلة اليهودية، كنت أعلم أنها منطقة تفصل بين منطقتى الإدارة البريطانية لفلسطين والإدارة الفرنسية لسوريا. وبناء على اتفاق بين الحكومتين كانت مستعمرة المطلة ومستعمرتان أخريان سيخضعان للإدارة البريطانية. فى أثناء تلك الأسابيع قبل انتقال المستعمرات إلى السيطرة السياسية البريطانية، لم تكن المطلة تحت سيطرة أى من الحكومتين، ولذلك كانت مكانًا مثاليًا أتسلل منه إلى سوريا. كانت أوراق الهوية الشخصية مهمة جدًا كما فهمت بعد ذلك لمن

ينتقلوا عبر الطرق الرئيسية، وكانت السلطات الفرنسية فى غاية التشدد، وكان من المستحيل أن أمضى على طريق رئيس داخل الأراضى السورية دون أن توقفنى قوات الجندرمة الفرنسية. كانت المطلة مازالت تعد رسميًا تحت الهيمنة الفرنسية، وكان كل فرد بالغ فيها يحمل أوراقًا ثبوتية من السلطات الفرنسية، وأصبح من الضرورة الحصول على مثل تلك الأوراق.

قمت ببعض التحريات فى حذر، وأوصلنى ذلك إلى منزل رجل من الممكن أن يتنازل، عن أوراقه كان رجلاً ضخمًا فى أواخر الثلاثينيات من عمره، وكان وصفه ذاك مذكورًا فى الوثيقة التى يحملها. كانت الوثيقة مطوية قد تثنت وتهالكت وعليها بقع من الزيت. أخرجها من جيب سترته، ولأن الوثيقة كانت بغير صورة شخصية، بدا الأمر أكثر سهولة.

سألته: «كم تطلب ثمنًا لها»؟

أجاب: «ثلاثة جنيهات».

أخرجت من جيبى كل العملات المعدنية التى أملكها وعددتها فوجدتها خمسة وخمسين قرشًا، وهو ما يزيد قليلاً على نصف الجنيه.

قلت له: «هذا كل ما أملك، وحيث إننى لابد أن أحتفظ بشىء لباقى رحلتى فلن أستطيع أن أعطيك أكثر من عشرين قرشًا (وكان ذلك واحدًا من خمسة عشر مما طلبه).

بعد دقائق من المساومة، استقر الثمن على خمسة وثلاثين قرشًا، وأصبحت الوثيقة ملكى. كانت ورقة مطبوعة على عمودين - أحدهما بالفرنسية والآخر بالعربية - أما بيانات حاملها فقد كانت مكتوبة بالحبر على السطور المنقطة. لم تهمنى خانة «الصفات الجسمانية»؛ لأنها كالمعتاد فى مثل تلك الوثائق تذكر بغموض. ولكن العمر المسجل فى الوثيقة كان تسع وثلاثين سنة - بينما كان عمرى ثلاثة وعشرين عامًا؛ ويبدو على ملامحى عشرون عامًا فقط. كان لابد لأكثر الضباط إهمالاً فى عمله أن يلحظ فارق العمر بين ما هو مدون وما أنا عليه؛ لذلك كان من الضرورى أن أغير العمر

المذكور فى الوثيقة. إذا بدلت العمر فى أحد العمودين فقط، فإن التغيير لن يكون صعبًا، إلا أنه لسوء الحظ كان العمر مسجلاً باللغتين. وعلى الرغم من حرصى الشديد أثناء تغيير العمر، فإن ما أنجزته لا يمكن وصفه إلا بأنه أسوأ أنواع التزوير وأوضحها، وأى امرئ ذى عينين سيكتشف على الفور أن الأرقام قد تم تزويرها فى العمودين، إلا أنه لم يكن بإمكانى أفضل من ذلك. وكان علىَّ أن أعتمد على حسن الحظ، وعلى إهمال رجال الجندرمة.

فى الصباح الباكر قادنى صاحب الوثيقة إلى ممر خلف القرية، وأشار إلى بعض الصخور التى تبعد نحو نصف ميل وقال: «هذه سوريا». سلكت الممر، وعلى الرغم من أن الوقت مازال باكرًا فى الصباح، فإن الجو كان حارًا، كانت امرأة عجوز تجلس أسفل الصخور التى تقع سوريا خلفها؛ نادتنى العجوز بصوت مرتعش: «هل تعطى جرعة ماء لامرأة عجوز يابنى؟»، ناولتها وعاء الماء المعلق بكتفى وكنت قد ملأته قبلها بالماء البارد. شربت حتى ارتوت ثم أعادته إلىَّ قائلة: «باركك الله، وحماك وهداك إلى ما تسعى إليه».

رددت عليها: «شكرًا لك يا أمى، لا أبغى أكثر من هذا».

مضيت فى طريقى، وبعد فترة التفتُ خلفى باتجاهها، رأيت شفتى العجوز تتحركان كما لو كانت تصلى وشعرت بارتفاع معنوياتى.

وصلتُ الصخور وتجاوزتُها: الآن أصبحتُ فى سوريا. كان أمامى سهل واسع وعارٍ عند الأفق البعيد شاهدت أشباح أشجار وأشياء تبدو منازل؛ خمنت أنها لابد أن تكون مدينة بانياس. لم أرتح لذلك السهل العارى والخالى من أى شىء يسترنى لأننى كنت على منطقة الحدود، إلا أنه لم يكن هناك اختيار آخر. أحسست كما يشعر المرء أحيانًا فى الحلم حين يجد نفسه فى شارع مزدحم وهو عار تمامًا.

كان النهار قد انتصف حين وصلت إلى جدول ماء يقسم الوادى. وحين جلست وخلعت حذائى وجوربى، رأيت على مبعدة أربعة من الخيالة يتحركون باتجاهى، كانت

بنادقهم على السروج أمامهم، بدا أنهم من رجال الجندرمة المشؤومين، واتضح أنهم كذلك. لم يكن هناك أى جدوى من محاولة الفرار؛ لذلك أهلت نفسى أن ما سيحدث لابد واقع. لو ألقوا القبض على الآن، فمن المتوقع أن أتلقى ضربات بمقابض البنادق ثم أساق إلى المطلة خارج سوريا.

خضت فى جدول الماء وجلست على حافته الأخرى وانهمكت فى هدوء فى تجفيف قدمى منتظرًا اقتراب رجال الجندرمة. وصلوا أمامى على الحافة الأخرى، تطلعوا إلىّ فى ارتياب؛ فعلى الرغم من أننى كنت أرتدى زيًا عربيًا، فقد كان من الواضح أننى أوروبى:

سألنى أحدهم فى حدة: «من أين أتيت؟»

أجبته: «من المطلة».

عاود سؤالى: «إلى أين ذاهب؟».

أجبته: «إلى دمشق».

سألنى: «لماذا؟!».

رددت فى مرح: «رحلة ترفيه».

سألنى: «معك أوراق تثبت شخصيتك؟».

أجبته: «بالطبع...».

أخرجت الوثيقة، وكأنى كنت أخرج معها قلبى الذى طفر إلى فمى. فحص رجل الجندرمة الوثيقة وتطلع إليها وعاد قلبى منزلقًا إلى موضعه وبدأ فى الخفقان بارتياح من جديد؛ فقد رأيته يمسك الوثيقة مقلوبة، اتضح لى أنه لا يعرف القراءة... وكانت الأختام الحكومية الكبيرة الثلاثة كافية لإقناعه، أعاد تطبيق الوثيقة بتثاقل وأرجعها إلىّ قائلاً: «نعم، الوثيقة سليمة، اذهب».

لوهلة، ألحت على فكرة أن أصافحه بحرارة، إلا أننى وجدت من الأفضل أن تظل العلاقة رسمية تماماً. أدار الرجال خيولهم وانطلقوا مبتعدين، بينما واصلت سيرى.

قبل وصولى إلى بانياس ضللت الطريق. فما كان موصوفاً فى خريطتى بأنه «طريق صالح لسير العربات»، تبين أنه ليس إلا ممراً يصعب تمييزه فى جميع مواضعه، اختفى الطريق تماماً فى منطقة تلال صخرية تنتثر عليها صخور كثيرة. تجولت عبر تلك التلال لساعات، صاعداً وهابطاً، حتى صادفت بعد الظهر بعض العرب يقودون حميراً تحمل عنباً وجبناً فى طريقهم إلى بانياس فسرت معهم ما تبقى من الطريق، أعطونى بعض عناقيد العنب؛ وافترقنا عند حديقة على مشارف المدينة. كان تيار من الماء الصافى يتدفق فى سرعة فى مجرى ضيق على جانب الطريق. استلقيت على بطنى وغمرت رأسى حتى أذنى فى الماء البارد وشربت حتى ارتويت...

رغم إجهادى الشديد، فلم أنوِ البقاء فى بانياس، فلأنها أول مدينة على الجانب السورى، لابد أن بها مركز شرطة لمراقبة الحدود كانت مقابلتى لرجال الجندرمة قد تركت فى نفسى أثراً طيباً فيما يخص الأفراد السوريين فى تلك القوات، فقد افترضت أن أغلبهم لا يعرفون القراءة. أما أى مركز شرطة فلابد أن به ضابطاً وهنا سيختلف الأمر. لذلك انطلقت فى همة عبر شوارع ضيقة ومسالك جانبية، مبتعداً قدر الإمكان عن الشوارع الرئيسة الواسعة التى يحتمل أن يقع بها مركز الشرطة. فى إحدى الحوارى سمعت عزفاً على عود يصاحبه غناء جماعى لرجال على وقع تصفيق بالأيدى، استدرت عند زاوية الحارة تجاه الموسيقى - وتسمرت فى موضعى؛ فأمامى تماماً، على مسافة لا تزيد على عشر خطوات كان هناك باب كبير مكتوب عليه بالفرنسية «مركز الشرطة» وعدد من رجال الشرطة السوريين بينهم ضابط، جالسين على مقاعد فى شمس ما بعد الظهيرة الحانية يستمعون إلى عزف واحد منهم ويصاحبونه بالغناء الجماعى. كان قد فات أوان التراجع، فقد رأونى، بل إن الضابط - وكان سورياً - نادانى: «أنت، تعال هنا» لم يكن بإمكانى إلا الطاعة. تقدمت على مهل، ثم اجتاحت عقلى فكرة سريعة. أخرجت آلة تصويرى، وحييت الضابط بأدب بالفرنسية، وواصلت

دون أن أعطيه فرصة لسؤال: «أتيت من المطلة فى زيارة سريعة، ورأيت ألا أعود قبل أن ألتقط صورة تذكارية لك أنت وأصدقاءك فقد أطربنى غناؤكم وأشجانى».

والعرب يحبون التملق، كما يحبون التقاط صور لهم؛ وافق الضابط فى سرور وطلب منى أن أرسل إليه الصور بعد طبعها (وقد فعلت وأرسلت إليه الصور مع تحياتى). لم يهتم بعد ذلك بسؤالى عن أية أوراق، بل إنه دعانى إلى قدح من الشاى وتمنى لى رحلة طيبة حين كنت أغادرهم للعودة إلى المطلة كما زعمت له. عدت أمامهم من حيث أتيت، ثم سرت فى دورة واسعة حول المدينة، وغذذت السير باتجاه دمشق.

* * *

بعد أسبوعين بالضبط من مغادرتى حيفا، وصلت إلى قرية كبيرة ـ أو مدينة صغيرة – هى مجدل شمس، كان يقطنها أغلبية من الدروز والمسيحيين اخترت منزلاً يبدو عليه يسر الحال وطلبت من الشاب الذى فتح لى الباب أن يسمح لى بالمبيت عندهم، و«بأهلاً وسهلاً» المعتادة فتح الباب على مصراعيه، وخلال دقائق كنت كفرد من أفراد البيت.

وحيث إننى قد أصبحت فى عمق سوريا، ومتاح لى طرق عديدة للوصول إلى دمشق، أوليت صاحب الدار الدرزى ثقتى وطلبت منه النصح وكنت على يقين أن العرب لا يخونون ضيوفهم، وضعت أمامه كل الحقائق، بما فيها أننى أسافر بوثيقة مزورة. قال لى إنها مخاطرة كبيرة إن رحلت على الطرق الرئيسة؛ لأنه توجد دوريات تجوب الطرق من مجدل شمس حتى دمشق من رجال الأمن الفرنسيين، ثم قال: «سأرسل ولدى لمرافقتك» وأشار إلى الشاب الذى فتح لى الباب عند قدومى: «سيقودك ولدى من طريق الجبال حتى لا تسير على الطرق الرئيسة».

بعد العشاء جلسنا فى شرفة أمامية مفتوحة وتحدثنا عن المسار الذى سنسلكه فى الصباح . كنت أفرد على ركبتى خريطتى المكتوبة بالألمانية لمنطقة فلسطين وسوريا التى أحضرتها معى من القدس وأحاول أن أتبين عليها المسار الذى ذكره مضيفى الدرزى.

حين كنا منهمكين فى ذلك ظهر فجأة من زاوية الطريق ضابط سورى بزى الشرطة حتى إنه لم يتيسر لى وقت لتطبيق الخريطة، عدا إخفائها. على الفور أدرك الضابط أننى غريب، فبعد أن مر من أمامنا وهو يهز رأسه محييًا مضيفى، استدار عائدًا ببطء تجاهنا: سأل بالفرنسية بلطف: «مَنْ أنت؟».

أعدت عليه القصة المختلقة من أننى من المطلة فى رحلة ترفيه، وحين طلب رؤية أوراقى الثبوتية، كان علىَّ أن أطلعه عليها. تطلع إلى الوثيقة بتركيز وانتباه، زم شفتيه قائلاً فى عبوس: «ما هذا الذى بيدك؟ وأشار إلى الخريطة الألمانية. قلت له إنها شىء غير مهم، إلا أنه أصر على رؤيتها، وفضها بأصابع فيها اتهام بإحراز خريطة، تطلع إليها لثوان، ثم طواها بعناية وأعادها إلىَّ مبتسمًا، ثم قال بلغة ألمانية ركيكة: «لقد خدمت أثناء الحرب فى الجيش التركى جنبًا إلى جنب مع الألمان»، ثم حيانى بالطريقة العسكرية، وعبست ملامحه من جديد ومضى منصرفًا. قال مضيفى: «لقد ظن أنك ألمانى. إنه يحب الألمان ويكره الفرنسيين. لا تخشه فلن يسبب لك ضرراً».

فى الصباح التالى انطلقت بصحبة الشاب الدرزى إلى أصعب مسيرة مررت بها فى حياتى. سرت لما يزيد على إحدى عشرة ساعة، لم نسترح إلا لتناول الغداء، سرنا عبر تلال صخرية وفى باطن ممرات جبلية، وعبر مجار مائية جافة، ثم صعوداً إلى تلال جديدة بين كتل صخرية عملاقة وعلى حواف صخرية حادة، صعوداً وهبوطًا، حتى تهالكت وأحسست أننى لن أستطيع أن أسير أكثر من ذلك. ولما وصلنا مدينة القطنة على مشارف دمشق، كنت قد تهالكت تماماً، كان حذائى قد بلى وتمزق وتورمت قدماى. أردت أن أتوقف لقضاء الليل، إلا أن مرافقى الشاب رفض بشدة وحسم، لأن المنطقة بها كثير من رجال الأمن الفرنسيين، ولأن القطنة مدينة وليست قرية، ولن أجد مكانًا أبيت فيه دون أن ألفت الأنظار.كان البديل الوحيد هو ركوب إحدى سيارات الأجرة التى تجوب المسافة بين القطنة ودمشق.

فى مكتب النقل المتهالك الواقع بالميدان الرئيسى لمدينة القطنة، أخبرونى أن علىَّ أن أنتظر نصف ساعة حتى موعد رحيل السيارة التالية. ودعت مرافقى الشاب الذى

احتضننى مودعًا كما لو كنت شقيقه، وغادرنى عائدًا إلى قريته. جلست وحقيبة ظهرى إلى جوارى بمكتب السفر، غفوت تحت أشعة الشمس الغاربة ـ وأفقت على من يهز كتفى بطريقة خشنة ليوقظنى! كان رجل أمن سورى. ألقى علىَّ الأسئلة المعتادة، وتبعتها الإجابات المعتادة، إلا أن الرجل لم يبد عليه الاقتناع وقال لى:

«هيا إلى قسم الشرطة وقل ما تريد للضابط المسؤول».

كنت فى غاية الإجهاد حتى إننى لم أبال إن اكتشفوا حقيقة أمرى.

كان الضابط فى قسم الشرطة جاويشًا فرنسيًا ضخم الجثة، يرتدى سترة مفكوكة الأزرار، يجلس خلف مكتب عليه زجاجة عرق لم يبق بها إلا قليل منه، وإلى جوارها كوب متسخ.

كان ثملاً تمامًا ويبدو عليه الغضب، تطلع إلى رجل الأمن السورى بنظرات نارية قائلاً: «ماذا هناك؟».

أخبره رجل الأمن السورى بالعربية أنه وجد أننى رجل غريب أجلس فى الميدان الرئيس وأنه يشك فى أمرى؛ أخبرته بالفرنسية أننى لست غريبًا وأننى ملتزم بالقوانين.

صاح الجاويش الفرنسى: «ملتزم بالقوانين؟ لستم إلا أوغادًا متشردين تمضون جيئة وذهابًا لمضايقتنا. أين أوراقك؟» حين كنت أبحث فى جيبى بأصابع متوترة لإخراج الوثيقة، دق المكتب بقبضته وتابع قائلاً: «لا تشغل بالك، اخرج من هنا» حين كنت أغلق الباب خلفى، لمحته يمد يده إلى الزجاجة ويتجرع ما بقى منها.

ما أجمل الراحة بعد العناء، بعد ذلك السير الطويل على الأقدام، ما أجمل الركوب، كلا، ليس ركوبًا، بل انزلاق فى سيارة تطوى الطريق المتسع العريض فى سهل من البساتين الخضراء فى الطريق إلى دمشق. فى الأفق البعيد هدفى: بحر مترامى الأطراف من قمم الأشجار الخضراء، بينها بعض القباب اللامعة، ومآذن مساجد ترى بصعوبة تحت السماء. بعيدًا إلى اليمين من الطريق، كان هناك تل وحيد عار، تلمع حافته تحت ضوء الشمس، وظلال ناعمة تزحف تحت سفحه. فى السماء فوق التل، كانت تسبح غيمة مستطيلة، تلمع حوافها بأضواء الشمس الذهبية ومن خلفها زرقة

عميقة للسماء؛ ومن بعيد وراء السهل الأخضر، ظهرت جبال رمادية اللون، إلى اليمين واليسار، وهواء منعش من كل اتجاه.

تتابعت المشاهد من بساتين فاكهة تحوطها أسوار طينية، إلى راكبى حمير وعربات تجرها حمير، مجموعات من جنود (فرنسيين). تحولت العتمة إلى لون الماء الأخضر. مرق جوار السيارة ضابط دورية فرنسى يقود دراجة نارية، يضع عوينات كبيرة لحماية عينيه من الهواء المندفع فبدا مثل سمكة أعماق كبيرة، ثم أول بيوت المدينة، ثم: دمشق، موجة من الأصوات والضجيج بعد صمت السهل الواسع. كانت أول أضواء الليل تضىء بعض النوافذ والشوارع، أحسست بسعادة وبهجة لا أتذكر أنى شعرت بمثلها من قبل، إلا أن سعادتى لم تدم طويلاً؛ فقد توقفت السيارة عند نقطة تفتيش على مشارف المدينة.

سألت السائق: «ماذا هناك؟»

أجاب: «لا شىء، كل السيارات القادمة من خارج دمشق لابد أن تسجل وصولها فى نقطة التفتيش..».

خرج رجل شرطة سورى من المبنى الذى يشرف على الطريق وسأل السائق: «من أين؟»

أجاب السائق: «من القطنة فقط».

قال الشرطى: «فى هذه الحالة امض فى طريقك» (كان ذلك يعتبر انتقالاً محليًا من مسافة قريبة لا تستحق التمحيص) بدل السائق وضع عصا القيادة التى زمجرت وأنّت. تحركنا وتنفست بارتياح من جديد. فى تلك اللحظة صاح صوت من الشارع «غطاء السيارة محلول» - أوقف السائق السيارة المتهالكة بعد أمتار قليلة من نقطة التفتيش لفحص غطاء السيارة الذى تدلى على أحد الجوانب. وبينما كان منهمكًا فى تثبيته، اقترب منا رجل الشرطة فى تراخٍ وهو يراقب المشكلة التى يعالجها السائق، ثم سقطت نظراته مصادفة على وجهى ، رأيت وبدنى يتيبس أمارات الاهتمام والانتباه تبدو عليه فجأة ، كانت نظراته تتفحصنى بتأمل اقترب أكثر، نقل نظره إلى حقيبة الظهر التى كنت أضعها على أرض السيارة.

سألنى فى ارتياب: «من أنت؟»

وبدأت: «من المظلة...»، إلا أنه كان يهز رأسه فى عدم تصديق كلما أوغلت فى الرواية التى ذكرتها كثيراً قبل ذلك، ثم همس بشىء للسائق، لم أتبين منه إلا بضع كلمات هى: «جندى إنجليزى.. هارب» لأول مرة أدرك أن الزى الأزرق والكوفية البنية بالعقال الذهبى وحقيبة الظهر بطرازها العسكرى (وكنت قد اشتريتها من محل يبيع الأشياء القديمة بالقدس) تشبه جميعًا زى الجنود الأيرلنديين الذين جندتهم السلطات البريطانية للخدمة العسكرية فى فلسطين، وتذكرت أن هناك اتفاقية بين السلطتين الفرنسية والبريطانية تنص على إعادة الفارين من الخدمة لدى أى منهما إلى الطرف الآخر...

حاولت بلغتى العربية الركيكة أن أشرح للشرطى أنى لست فارًا من الخدمة، إلا أنه تجاهل كل ما أقول وصاح: «اشرح كل ذلك للمفتش».

وهكذا، أجبرت على التوجه إلى نقطة الشرطة، بينما اعتذر السائق بكلمات مبهمة عن عدم استطاعته انتظارى، وقاد السيارة مبتعداً حتى اختفى عن نظرى.

لم يكن المفتش موجوداً بالنقطة عند دخولى إليها، كان على وشك الوصول فى أية لحظة. أدخلونى غرفة خالية لا يوجد بها إلا أريكة مستطيلة، وعدا باب الدخول إلى تلك الغرفة، كان بها بابان آخران فوق أحدهما مكتوب بالفرنسية: «حراس السجن»، وعلى الآخر كلمة واحدة: «السجن».

انتظرت فى تلك الغرفة ذات المحتويات التى لا تسر ما يزيد على نصف الساعة، وكلما مرت دقيقة يزيد يقينى أن رحلتى قد وصلت إلى نهايتها؛ لأن «مفتشًا» أكثر وعيًا من «ضابط»، ولو اكتشف أمرى الآن، لابد أن أقضى أسابيع فى السجن حتى موعد المحاكمة، ومن بعدها العقوبة المعروفة وهى ثلاثة أشهر بالسجن، بعدها أسير على قدمى مصحوبًا بشرطة راكبة ـ إلى حدود فلسطين، ثم يتوج كل ذلك بطردى من فلسطين لخرقى قوانين الجوازات. لم تكن العتمة فى الغرفة التى كنت أنتظر بها تقاس بأى حال مقارنة بالعتمة والإحباط اللذين كانا بداخلى فى ذلك الوقت.

سمعت فجأة صوت محرك سيارة توقفت أمام المركز. بعد لحظات دخل رجل يرتدى ملابس مدنية ويضع على رأسه طربوشًا أحمر، كان سريع الخطى، ويتبعه الشرطى الذى أحضرنى وهو يتحدث إليه بحماس، كان من الواضح أن المفتش فى عجلة من أمره.

لم أعرف بالضبط كيف وقع ما وقع، إلا أن ما فعلته فى تلك اللحظة الحرجة كان نتاج ومضة نادرة للعبقرية الكامنة، والتى تؤثر فى مسار الأحداث فى مواقف حرجة - وربما تؤدى عند رجال آخرين إلى تغيير مسار التاريخ - بقفزة واحدة اقتربت من المفتش، ودونما انتظار لأى سؤال منه، وجهت إليه سيل من الشكايات بالفرنسية من الإهانات الخرقاء التى قام بها رجل الشرطة الذى أخذنى فى حين أنى مواطن برىء وهو يعتقد أنى من الهاربين من الخدمة فى الجيش البريطانى وتسبب فى تخلفى عن السيارة التى كنت أستقلها إلى المدينة. حاول المفتش أكثر من مرة أن يقاطعنى، إلا أننى لم أتح له فرصة للكلام وحاصرته بسيل من الحديث المتواصل بلا توقف خمنت أنه لم يدرك منه حتى عشره، وربما لم يدرك إلا أسماء «المطلة» و«دمشق» التى رحت أكررها بعدد لا نهائى من المرات. كان من الواضح أنه متوتر ويعتريه الضيق لتأخره عن مهمة كان لابد أن يقوم بها فورًا، إلا أننى لم أمكنه من الكلام واستمررت دون أن أتوقف حتى لالتقاط أنفاسى ووابل كلماتى لا ينقطع. فى النهاية رفع يديه فى يأس وصاح:

«توقف بحق الله. هل معك مستندات؟»

توجهت يدى بصورة آلية إلى جيب الصدر، وأنا مستمر فى سيل الكلام، ودفعت إليه وثيقتى المزورة. ويبدو أن الرجل المسكين كان يشعر أنه يوشك على الغرق، فقد رفع حافة الوثيقة المطوية دون أن يفضها، ولمح الخاتم الرسمى، وألقاها من جديد صائحًا:

«حسن، حسن، اذهب، فقط اذهب» - ولم أنتظر أن يكررها أكثر من ذلك.

* * *

قبل ذلك بعدة أشهر، كنت قد التقيت بمدرس دمشقى فى القدس، ودعانى أن أكون ضيفه متى جئت إلى دمشق، وفور وصولى بدأت السؤال. عرض صبى صغير أن يرشدنى واصطحبنى يدًا بيد ليدلنى على المنزل.

المساء المتأخر فى المدينة القديمة، حوارٍ ضيقة، أضافت الشرفات الممتدة فوق الرؤوس إلى عتمة الشارع الضيق. محل فاكهى ينير مصباح كيروسين، وتكومت أمام محله أكوام من البطيخ وسلال العنب. الناس كالأشباح: أسمع أحيانًا أصواتًا حادة لنساء خلف النوافذ العربية من الخشب المعشق. قال الصبى مشيرًا إلى منزل: «هنا». دققت الباب. أجاب شخص من الداخل، رفعت السقاطة ودخلت عبر ردهة معبدة. ميزت فى الظلام أشجار فاكهة خضراء وحوضًا صخريًا تتوسطه فسقية. نادى شخص من الدور العلوى: «تفضل ياسيدى»، صعدت درجات ضيقة على امتداد الجدار الخارجى، أفضى الدرج إلى شرفة علوية مفتوحة وأفضت الشرفة إلى أذرع صديقى المفتوحة فى ترحيب حار. كنت فى غاية التهالك، تركت جسمى يتداعى بلا مقاومة على الفراش الذى خصنى به. خشخشت أوراق الأشجار تحت وقع النسيم بالفناء الأمامى والحديقة الخلفية. ومن بعيد تناهت إلى سمعى أصوات مبهمة كثيرة: أصوات مدينة عربية كبرى توشك أن تنام.

* * *

تجولت فى تلك الأيام الصيفية فى الشوارع التجارية العتيقة الضيقة لدمشق، بإحساس رائع من الإثارة ناجم عن رؤية جديدة، وكلى أعين مفتوحة على جوانب لم ترد إلى وعيٍ من قبل وعلى رأسها عمق الجوانب الروحية عند أهل دمشق. كان الإحساس بالأمن الداخلى لدى الأفراد ظاهرًا من خلال تعاملاتهم مع بعضهم البعض، وفى حرارة وحميمية التقائهم أو افتراقهم؛ فى مشهد صديقين يسيران معًا وأيديهم متماسكة كالأطفال والعائد لإحساسهم بعمق الصداقة التى تربطهم، كما تراه فى سلوك أصحاب

المحال التجارية تجاه بعضهم، تبدو كأنها لا تحمل خشية خوف ولا منافسة ولا حسداً ولا ضغينة. قد يترك صاحب متجر متجره فى حراسة جاره ومنافسه حين يضطره أى ظرف لترك متجره لبعض الوقت. رأيت فى مرات كثيرة بعض الزبائن يقفون أمام متجر خلا من صاحبه، وحين يبدو عليهم التردد إن كانوا ينتظرون عودة صاحبه أم ينصرفون إلى متجر آخر، أجد أن جاره ومنافسه يدخل بلا تردد مكان جاره الغائب ويبيع للزبائن ما يريدون، ليس من بضائعه، ولكن من بضاعة جاره الغائب - ويترك ثمن ما باعه على طاولة جاره الغائب. فى أى مكان من أوروبا يجد المرء مثل تلك المعاملات التجارية الأمينة تجاه المنافسين؟

كانت بعض الشوارع التجارية مكتظة ببدو خشنين فى أزيائهم الواسعة الطويلة الفضفاضة: إنهم يحملون معهم جميع أغراضهم اللازمة للحياة، ويعرفون طريقهم إلى ما يريدون. رجال طوال القامة، بنظرات حادة جادة يقفون فى جماعة ويجلسون جماعة أمام المحلات. لا يثرثرون كثيراً - كلمة واحدة، جملة قصيرة يلقيها قائلها باهتمام، وتحل محل مجادلات ومحاورات طويلة. أولئك البدو لا يعرفون لغو الحديث، ولا الكلام لمجرد الكلام، فذلك علامة تآكل روحى؛ ذكرونى بوصف الجنة فى آية من آيات القرآن تقول: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ﴾(*). الصمت صفة من صفات البدو الجوهرية. يضمون أطراف عباءاتهم الواسعة المخططة بالأبيض والبنى أو الأسود ويمضون أو يجلسون صامتين؛ يمرون بك فى صمت وينظرون نظرة مستطلعة مثل نظرة الطفل المستطلع، تياهين، ومتواضعين فى حساسية عالية. حين توجه إليهم الحديث بلغتهم، وتضىء أعينهم بابتسامة مفاجئة. غير مستغرقين فى ذواتهم وتسعدهم أن يشعر الآخرون بهم، نفوس عظيمة، متحفظين تماماً، إلا أنهم منفتحى الفكر على كل شىء فى العالم..

يوم الجمعة - سبت المسلمين - تدرك أن هناك تغيراً فى وقع الحياة فى دمشق - دوامات صغيرة من الفرح والسرور مع إجلال ومهابة دينية. فكرت فى أيام الآحاد فى

(*) (سورة الواقعة - آية ٢٥) .

أوروبا؛ فى الشوارع الصامتة فى المدن يوم الأحد والمحال المغلقة؛ تذكرت كل تلك الأيام من الآحاد الخاوية والإحساس بالقهر الذى كانت تلك الأيام تجلبه.

لماذا هى كذلك؟

الآن بدأت أفهم وأدرك: الحياة اليومية لأغلب الناس فى الغرب تشكل عبئًا ثقيلاً لا يحلهم منه إلا إجازة يوم الأحد، لم يعد الأحد يوم راحة بل يوم هروب نسيان وهمى مصطنع من وطأة الواقع الذى يحيونه، ويكون ثقله مضاعفًا وخطرًا ذلك اليوم الأسبوعى للهروب..

أما عند العرب، فلا يبدو أن يوم الجمعة يوم هروب أو نسيان، ليس لأن ثمار الحياة تتساقط بسهولة فى حجورهم بلا جهد ولا مشقة، بل يعود السبب ببساطة إلى أن أعماله - حتى أشقها - لا تتعارض مع رغباتهم الشخصية. لا توجد لديهم آلية لذاتها فى العمل؛ على العكس من ذلك، هناك تواصل عميق ودفين بين العامل وما يعمله: لذلك تصبح الراحة ضرورية حين يشعر بالإجهاد. لقد رسخ الإسلام ذلك التناغم بين العامل وعمله كحالة تتسق مع التركيب والتكوين البشرى، لذلك لا توجد راحة إجبارية يوم الجمعة. الحرفيون وأصحاب المحال الدمشقية يعملون يوم الجمعة بضع ساعات، ثم يغلقون أشغالهم بضعة ساعات يذهبون فيها للجوامع لصلاة الجمعة وبعدها يلتقون بالأصدقاء على المقاهى ثم يعودون إلى أعمالهم وصناعاتهم لبضعة ساعات أخرى فى سعادة واسترخاء نفسى، كل واحد وما يود. محلات قليلة تغلق يوم الجمعة، وباستثناء وقت صلاة الجمعة تجد الشوارع مليئة بالناس مثل بقية أيام الأسبوع.

ذهبت مع صديقى ومضيفى إلى الجامع الأموى يوم الجمعة. الأعمدة الرخامية التى تعلوها قبة عظيمة كانت تلمع تحت ضوء الشمس الساقط من النوافذ. الجامع يفوح برائحة المسك، الأرض مغطاة بأبسطة حمراء وزرقاء. اصطف مئات المصلين فى صفوف طويلة منتظمة خلف الإمام، ركعوا، سجدوا، مسوا الأرض بجباههم، ثم نهضوا من جديد؛ كلهم فى توحد مثل الجنود. كان المكان يسوده الصمت والناس وقوف، يسمع المرء صوت الإمام العجوز من أعماق صحن الجامع الواسع، يتلو آيات من القرآن؛

وحين يركع أو يسجد، يتبعه كل المصلين كرجل واحد، يركعون ويسجدون لله كما لو كان حاضراً أمام أعينهم.

فى تلك اللحظة أدركت مدى قرب الله منهم وقربهم منه. بدا لى أن صلاتهم لا تنفصل عن حياتهم اليومية؛ بل كانت جزءاً منها - لا تعينهم صلاتهم على نسيان الحياة، بل تعمقها أكثر بذكرهم لله.

قلت لصديقي ومضيفي ونحن ننصرف من الجامع بعد الصلاة: «ما أغرب ذلك وأعظمه، إنكم تشعرون أن الله قريب منكم، أتمنى أن يملأنى أنا أيضًا مثل ذلك الشعور».

رد صديقي: «ما الذي يمكن أن تحسه غير ذلك يا أخى؟ الله يقول فى كتابه العزيز إنه أقرب إلينا من حبل الوريد».

* * *

مأخوذاً بمدركاتى الجديدة، قضيت جل وقتى فى دمشق أقرأ من الكتب كل ما له علاقة بالإسلام. كانت لغتى العربية تسعفنى فى تبادل الحديث، إلا أنها كانت أضعف من أن تمكننى من قراءة القرآن، لذا لجأت إلى ترجمتين لمعانى القرآن – واحدة فرنسية والأخرى ألمانية – استعرتهما من مكتبة. أما ما عدا القرآن، فقد اعتمدت فيه على أعمال المستشرقين الأوروبيين، وعلى ما يشرحه لى صديقى.

ومهما كانت ضآلة ما عرفت، إلا أنه كان أشبه برفع ستار. بدأت فى معرفة عالم من الأفكار كنت غافلاً عنه وجاهلاً به حتى ذلك الوقت.

لم يبد لى الإسلام دينًا بالمعنى المتعارف عليه بين الناس لكلمة دين، بل بدا لى أسلوبًا للحياة؛ ليس نظامًا لاهوتيًا بقدر ما هو سلوك فرد ومجتمع يرتكز على الوعى بوجود الله الواحد. لم أجد فى أى آية من آيات القرآن أى إشارة إلى احتياج البشر

إلى «الخلاص» الروحي. ولا يوجد ذكر «لخطيئة أولى» موروثة تقف حائلاً بين المرء وقدره الذى قدره الله له ـ ولا يبقى لابن آدم إلا عمله الذى سعى إليه. ولا توجد حاجة للترهب والزهد لفتح أبواب خفية لتحقيق الخلاص: الخلاص حق مكفول لكل البشر بالولادة، والخطيئة لا تعنى إلا ابتعاد الناس عن الفطرة التى خلقهم الله عليها. لم أجد أى أثر يدل على الثنائية فى الطبيعة البشرية: فالبدن والروح يعملان فى المنظور الإسلامى كوحدة واحدة متكاملة لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

أدهشنى فى البداية اهتمام القرآن لا بالجوانب الروحية فقط، بل بجوانب أخرى غير مهمة من الأمور الدنيوية، ولكن مع مرور الوقت بدأت أدرك أنه حيث إن البشر وحدة متكاملة من بدن وروح – وقد أكد الإسلام على ذلك ـ لا يوجد وجه من أوجه الحياة يمكن أن نعده مهمشًا بل إن كل جوانب حياة البشر تأتى فى صلب اهتمامات الدين. فى كل المجالات، لم يدع القرآن المسلمين ينسون أن الحياة الدنيا ليست إلا مرحلة فى طريق البشر نحو تحقيق وجود أسمى وأبقى، وأن الهدف النهائى ذا سمة روحية. ويرى أن الرخاء المادى لا ضرر منه إلا أنه ليس غاية فى ذاته: لذلك لابد أن تقنن شهية الإنسان وشهواته ويتم السيطرة عليها بوعى أخلاقى من الفرد. وهذا الوعى لا يوجه إلى الله فقط بل يوجه أيضًا إلى علاقته بغيره من البشر؛ لا من أجل الكمال الدينى وحده، بل لخلق حالة اجتماعية تؤدى إلى تطور روحى للمجتمع بأجمعه، حتى يتمكن المجتمع كله من أن يحيا حياة كاملة...

نظرت إلى كل تلك الجوانب الفكرية والأخلاقية بتقدير وإجلال. كان منهجه فى تناول مشاكل الروح أعمق كثيرًا من تلك التى وجدتها فى التوراة. هذا عدا أنه لم يأت لبشر دون بشر ولا لأمة بذاتها دون أخرى، كما أن منهجه فى مسألة البدن بعكس الإنجيل، منهج إيجابى لا يتجاهل البدن. الروح والبدن معًا يكونان البشر، كتوأمين متلازمين تساءلت، ألا يمكن أن يكون ذلك المنهج هو السبب الكامن وراء الإحساس بالأمن والتوازن الفكرى والنفسى الذى يميز العرب والمسلمين؟

* * *

ذات مساء دعانى مضيفى إلى مصاحبته إلى احتفال فى منزل أحد أصدقائه الأثرياء من أهل دمشق بمناسبة مولد ابن له.

سرنا عبر شوارع متعرجة فى المدينة القديمة، كانت حوارى ضيقة حتى إن الشرفات ذات الطراز العربى توشك أن تتلامس. الظلال والصمت يسودان المنازل المشيدة من الحجر؛ من آن لآخر كانت تقابلنا بعض نساء محجبات بحجب سوداء ويسرن بخطوات قصيرة سريعة، أو نلتقى برجل ملتح يرتدى قفطانًا طويلاً، يظهر من منحنى الطريق ويختفى فى بطء خلف منعطف يليه، الحى القديم ملىء بشوارع ضيقة تتكرر وتتقاطع مع بعضها البعض فى كل الاتجاهات، توحى إليك دائمًا أنها تقودك إلى كشف مذهل، إلا أنها تفضى إلى حارة ضيقة أخرى مماثلة لا تختلف عنها فى شىء.

إلا أن الكشف قد جاء فى النهاية. توقف صديقى أمام باب لا يميزه شىء عن غيره من الأبواب، كان الباب فى منتصف سور من الطين المدهون بالجص وقال: «هاقد وصلنا» ودق بقبضته الباب المغلق. فتح الباب وأصدر صريرًا، وجدنا أمامنا رجلاً طاعنًا فى السن يرحب بنا بفم خلا من الأسنان «أهلاً، أهلاً وسهلاً» مضينا عبر ردهة قصيرة دارت بنا مرتين بزاوية قائمة أفضت بنا فى النهاية إلى فناء ذلك المنزل الذى لا يشى مظهره الخارجى بأكثر من سور طينى مدهون بالجص. كان الفناء واسعًا ومكشوفًا، أرضه مصممة وكأنها رقعة شطرنج هائلة الاتساع بمربعات من الرخام الأبيض والأسود. فى أوطأ مستوى كان هناك حوض فسقية من الحجر ثمانى الأضلاع من منتصفه يخرج ماء الفسقية موسوسًا رقراقًا. فى مربعات بين رخام الأرضية نمت أشجار الليمون والدفلى، تنشر أريج أزهارها عبر الفناء بأجمعه وإلى داخل المنزل، أما جدران المنزل التى تحيط بالفناء فقد غطتها من الأرض حتى قمتها نقوش من الرخام دقيقة الصنعة رقيقة الجمال فى أشكال هندسية عربية متداخلة لايقطعها إلا نوافذ الغرف التى تطل على الفناء ويؤطرها رخام عريض محزم بأشكال بديعة الصنعة. على أحد جوانب الفناء كان هناك فراغ على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض ترتقى إليه بدرج عريض من الرخام وعلى جوانب هذا الفراغ - يسمى ليوان صُفَّتْ أرائك

مقصبة بينما فرشت أرضه بأبسطة ثمينة. كانت حوائط الليوان مغطاة بمرايا ضخمة يصل ارتفاعها إلى خمسة عشر قدمًا – كان الفناء بأشجاره ومربعات أرضه من الرخام الأبيض والأسود، ونقوش الرخام البارزة بالحوائط، والنوافذ الرخامية والأبواب المنقوشة التى تفضى إلى داخل المنزل، والألوان الكثيرة لأزياء الضيوف الجالسين بالليوان والمجتمعين حول الفسقية ـ تضاعف كله خلال مرايا الليوان: وحين تنظر إلى تلك المرايا والتى يقابلها مرايا أخرى على الحوائط المقابلة، ينعكس المشهد مرتين، أربع مرات، بل مئات المرات بلا نهاية وبذلك يتحول إلى مشهد سحرى من عقود رخامية لا نهاية لها، وفسقيات بلا نهاية، وأعداد لا نهائية من الضيوف، وغابات من أشجار الليمون وأزهار نبات الدفلى – مكان يشبه الحلم، يتألق تحت سماء المساء التى مازالت وردية من آخر بقايا أشعة الشمس التى غربت.

مثل ذلك المنزل ـ البسيط من الخارج، والمبهج الثرى من الداخل ـ كان جديداً تماماً على شخص مثلى؛ وبمرور الزمن أدركت أنه النمط والطراز لبيوت المسلمين التقليديين ميسورى الحال، ليس فى سوريا والعراق وحدهما، بل فى إيران أيضاً. لم يهتم العرب ولا مسلمو إيران فى العصور المبكرة للإسلام بالواجهات الخارجية: فالغرض من المنزل أن نحيا داخله ووظيفته محدودة بداخله. ويختلف ذلك كلية عن التوجه العملى «النفعى» الذى يتبعه معماريو الغرب المحدثين. لقد سقط أهل الغرب فى نوع من الرومانسية المعكوسة، وفى عدم ثقتهم بمشاعرهم الذاتية فإنهم يشيدون مشاكل لا منازل؛ أما العرب والإيرانيون فإنهم يبنون منازل لا مشاكل.

أجلسنى صاحب الدار إلى يمينه على الأريكة، ودار خادم حافى القدمين بأقداح صغيرة من القهوة مصفوفة على صينية من نحاس منقوشة بأشكال، اختلط الدخان المتصاعد من الأراجيل برائحة ماء الورد بالليوان وارتفع فى موجات تجاه الفوانيس الزجاجية التى كانت تضاء واحداً بعد آخر على امتداد الجدران وبين الخضرة الداكنة للأشجار.

كان جمع الضيوف – وكلهم رجال – فى أزياء متباينة: رجال فى قفاطين من الحرير الدمشقى أو الصينى الخالص بلون العاج، عليها جبة من الصوف بألوان خفيفة

متداخلة، وعمامة ذات حواف مذهبة تحكم وضع الطربوش على الرأس؛ بعض آخر فى ملابس أوروبية، إلا أنهم كانوا يجلسون متربعى الساقين على الأرائك، وبعض زعماء البدو بشكلهم المعتاد: عيون سوداء تلمع ببريق حى يشى بالعظمة، ولحى صغيرة حول وجوه نحيلة داكنة. ملابسهم الجديدة تصدر حفيفاً مع كل حركة ويحملون جميعاً سيوفاً فى أغماد فضية. كان جميع الضيوف مسترخين فى دعة واطمئنان عميق: أرستقراطية حقيقية. كان الجو الطيب يحوطهم، طقس جاف وصافى - الجو نفسه الذى أحسسته على حافة الصحراء، يحيطهم فى بساطة ولا يقتحمهم. بدوا مثل أصدقاء متباعدين، مثل زائرين مارين بمكان؛ حياتهم الحرة الخالية تنتظرهم فى مكان آخر غير هذا.

دخلت فتاة راقصة من أحد الأبواب، صعدت الدرج حتى الليوان. كانت فى مقتبل شبابها، لا تتجاوز العشرين من عمرها، ذات جمال طاغ، ترتدى سروالاً فضفاضاً من الحرير الشفاف فى ثنيات، وزوج من الأخفاف الذهبية بقدميها، وصدرية موشاة بما يشبه اللؤلؤ، لا يغطى ولا يخفى ثدييها بقدر ما يرفعهما ويزيد من نفورهما وفورتهما، كانت تتحرك بإحساس من العظمة يحسه من اعتاد أن يكون موضع إعجاب ومرغوباً: سرت همسات الاستحسان والسرور بين الرجال عند رؤيتهم جسدها اللدن الفائر بالحيوية والشباب وبشرتها المشدودة فى لون العاج.

رقصت بمصاحبة ضابط إيقاع دخل فى إثرها، رقصة تقليدية تموج بالإيماءات البدنية الموحية وهو رقص يلقى إقبالاً فى الشرق - رقص يثير كوامن الرغبات ويعد بتحقق يبهر الأنفاس.

همس صديقى وهو ينظر باتجاهها: «ما أجملك، ما أروعك»، ثم ضرب بكفه على ركبتى بخفة وقال: «أليست كالكف الحانية على الجرح؟» وكما ظهرت بسرعة، اختفت أيضاً بسرعة، لم يتبق منها إلا بريق خافت فى أعين الرجال. احتل مكانها على البساط فى الليوان أربعة موسيقيين - بعضهم من أفضل العازفين فى سوريا كما أخبرنى أحد الضيوف واحد منهم كان يحمل عوداً طويل العنق، وآخر كان يحمل طبلة، والثالث يحمل آلة القانون الوترية، وكان الرابع مصرى يحمل طبلة نحاسية. بدأوا فى شد الأوتار ونقر

الطبول برقة، كل منهم على آلته دون توافق، كل منهم يضبط آلته وإيقاعها قبل أن يبدأ العزف فى إيقاع متناغم. أجرى صاحب القانون أصابعه على الأوتار؛ أما حامل الطبلة النحاسية فقد كان ينقر عليها بأصابعه ويتوقف برهة ثم يعاود النقر، وعازف العود راح يجرب نغمات قرار كأنه شارد الذهن فى تتابع سريع، نغمات أوتار بدت كأنها تتوافق بالمصادفة مع إيقاع الطبلة ثم نغمات القانون وقبل أن تعى تمامًا ما يحدث، يبدأ اللحن الجماعى يربط العازفين الأربعة معًا فى لحن متناغم واحد. لحن؟ لا أستطيع أن أقول لحنًا، فقد بدا لى أننى لا أستمع إلى أداء موسيقى بقدر ما أشاهد حدثًا مثيرًا. فعدا النغمات الصادرة عن الآلات الوترية نما إيقاع جديد، يرتفع فى دوامات حادة، ثم فجأة، يهبط ويتخافت - مثل إيقاع ارتفاع وانخفاض أداة معدنية، أسرع ثم أبطأ، أرق ثم أشد، هدوء ودوام، تنويعات لا نهائية، نغم يشى بالدوام، صوت يرتجف فى سكر مقفن، ينمو، وينتشر بقوة، يقتحم العقل، ثم فجأة وبعد أن يصل إلى قمة عالية من التناغم ينتهي ويسود صمت. أحسست أننى وقعت في هوى تلك الموسيقى. شدتنى النغمات التى كانت أحادية إيقاعها الظاهرة تستدعى إلى ذهنى رتابة وقوع وتكرار الظواهر الأبدية فى هذا الوجود وتدق أبواب المشاعر الدفينة وتستل منها خطوة بعد خطوة كل ما كان يموج داخلها دون أن نعيه... تعرى أمامنا أشياء كانت داخلنا على الدوام وتجعلها واضحة حميمية وحارة صادقة تدفع قلبك إلى الخفقان.

كنت قد اعتدت بالطبع الموسيقى الغربية التى تتدفق فيها كل انفعالات المؤدى فى أداء فردى يعكس على المستمع حالته المزاجية، إلا أن تلك الموسيقى العربية تبدو كأنها تتدفق من مستوى ما فى اللاوعى، من توتر واحد إلا أنه ليس إلا توترًا، وبالتالى يمثل مزاج ومشاعر شخصية لدى كل مستمتع على حدة...

بعد ثوان من الصمت، تدفقت إيقاعات الطبلة النحاسية من جديد، ثم تبعتها كل الآلات معًا. نغمات راقصة رقيقة، لحن أنثوى أرق من سابقه، وراح المغنون يضبطون أصواتهم فى إيقاع واحد، يحتضن كل صوت الآخر بدفء ونعومة ثم كأنها اتحدت معًا فى دفقة واحدة، زادت بهجة وابتهاجًا؛ كانت الأصوات تلاحق بعضها، وتتدفق حول

بعضها فى موجات ناعمة تتصادم فى البداية مرة بعد أخرى، مع إيقاع الطبلة النحاسية الذى يبدو كحائل تتصادم على دقاته الأصوات، إلا أن الأصوات تصاعدت فغلبت الحائل وقهرته وسيرته طبقًا لإيقاعها هى وجرته إلى إيقاع عام حلزونى متصاعد: أما الطبلة النحاسية التى قاومت فى البداية فسرعان ما سقطت فريسة للهجوم العاتى من الأصوات المنشدة واتحدت فى نشوة مع باقى الأصوات، وفقد لحن البداية المتماوج رقته النسائية وراح يعدو بعنف متزايد، أسرع، وأعلى، وأكثر حدة، إلى غضب بارد من عاطفة واعية تخلصت من كل الكوابح وتحولت إلى تصاعد متسلق إلى قمم غير مرئية من القوة والامتلاك، ومن تدفق النغمات الدائرة حول بعضها، انبثق تناوب عظيم من اتساق النغمات - اندفاع عجلات مندفعة من ديمومة إلى ديمومة، دون قياس ولا حدود ولا هدف، مبهورة النفس، كالسير مقيد على حد سكين، عبر حاضر المرء الأبدى، إلى وعى بالحرية والقوة، فوق كل فكر. وفجأة، فى منتصف تدفق حميم: توقف مباغت وصمت مطلق. قاس. أمين. ونقى.

مثل خشخشة أوراق الشجر، استعاد المستمعون أنفاسهم، وهمسات مبهورة تسرى: «الله، الله». كانوا مثل أطفال حكماء عقلاء يلعبون ألعابًا طالما حفظوها عن ظهر قلب، إلا أنها مازالت تغريهم بلعبها. كان كل من بالفناء يبتسم فى سرور وبهجة...

[٣]

كنا راكبين، سائرين، وزيد يغنى: اللحن نفسه على الدوام، اللحن نفسه أحادى النغمة. روح العرب أحادية النغمة - لا بمعنى فقر الخيال والإبداع، فهم يحوزون الكثير منه؛ إلا أن غريزته لا تمضى منطلقة مثل غريزة الرجل الغربى خلف فراغ ثلاثى الأبعاد ذى جوانب انفعالية متعددة. أما الموسيقى العربية فتعبر فى كل مرة عن رغبة واحدة أو انفعال واحد يحمل تجربة عاطفية أو معنوية واحدة إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه تلك العاطفة المعنوية. وتدين الشخصية العربية بقوتها إلى أحادية النغم هذه، برغبة حسية ترمى إلى تكثيف المشاعر فى خط متصاعد مستمر. وتدين إليها أيضًا

بأخطائها. وهى خطأ؛ لأنه لابد من المرور بالتجارب الشعورية فى فضاء الأبعاد الثلاثية المجسدة بعيداً عن المشاعر المجردة وحدها. كما تستمد منها قوتها: فى الإيمان بإمكانية الصعود الخطى المضطرد للمعارف الانفعالية، والتى يمكن فى مجال العقل ألا تؤدى إلا لمعرفة الله. لقد نما التوحيد على أسس من ذلك الميل الفطرى المميز فقط لأهل الصحراء، وظهر أول ما ظهر بين العبرانيين المبكرين الأوائل، واكتمل برسالة محمد(ﷺ) المظفرة. ومن خلفهم جميعًا تقف الصحراء الأم.

الفصل الخامس

روح وجسد

[١]

مرت الأيام، وقصرت الليالي، ونحن نمضى راكبين باتجاه الجنوب فى سير حثيث. كانت الإبل فى أفضل حال - فقد شربت الناقتان حتى الارتواء وطعما كميات وفيرة من الكلأ والأعشاب. مازال أمامنا أربعة عشر يومًا حتى نصل إلى مكة، وربما أكثر إن أمضيا وقتًا أطول فى حائل وفى المدينة من بعدها، وهما تقعان فى طريقنا إلى مكة.

كانت قد سيطرت علىّ حالة من افتقاد الصبر: حالة من التعجل لم أدر لها سببًا أو تفسيراً. فحتى تلك اللحظة كنت أستمتع بالترحال فى استرخاء نفسى، دون دوافع ملحة تدفعنى إلى الوصول إلى مقصدى بسرعة؛ كانت الأيام والأسابيع التى أقضيها مرتحلاً تحقق إشباعًا محببًا إلى نفسى، ولم يكن مقصدى يشكل الأهمية نفسها أبداً.

بدأت الآن أشعر بما لم أشعر به خلال كل الأعوام التى قضيتها بالجزيرة العربية: تعجل بنفاد صبر للوصول إلى نهاية الطريق. أى نهاية لرؤية مكة؟ قضيت بمكة المكرمة قبل ذلك أوقاتًا طويلة، وأعرف حياتها اليومية بكل تفاصيلها، حتى إنها لم تعد تثير فى نفسى أى إحساس بتوقع شىء جديد، أم أنه نوع جديد من الكشف أشعر به مقدمًا؟ لابد أنه كذلك - فمكة دائمًا ما كانت تجذبنى بإحساس وتوقع داخلى استشعره

فى نفسى، كما لو كان ذلك المركز الروحى للعالم الإسلامى، بتجمعاته البشرية القادمة من كل أرجاء الأرض، نوعًا من الوعد، بوابة مرور إلى عالم أرحب من الدنيا والعالم الذى عشته حتى اللحظة. لم يكن تعجلى ونفاد صبرى يعنى أننى سأمت ومللت الجزيرة العربية؛ كلا بالطبع، فأنا أعشق صحاريها، ومدنها، وشعبها وأسلوب حياته كما أحببته على الدوام قبل ذلك: فمنذ اللمحة الأولى التى رأيت فيها لأول مرة فى صحراء سيناء من عشرة أعوام مضت بدوًا من الجزيرة العربية، سكن فى قلبى حبهم ولم يهن بعد ذلك أبدًا، ثم أكدت الأعوام التالية انطباعاتى الأولى المبكرة: إلا أنه منذ تلك الليلة التى نزلت فيها البئر للاستحمام من يومين، نمت داخلى قناعة أن الجزيرة العربية قد وهبتنى كل ما يمكن أن تهبه لى.

كنت مازلت شابًا، قوى البنية، وصحتى فى أفضل حال، يمكننى ركوب الإبل لساعات طويلة دون تعب أو إجهاد. يمكننى أن أرتحل - وقد فعلت ذلك على مدى أعوام - مثلما يرتحل بدو الصحراء، بلا خيمة وبدون وسائل الراحة التى لا يستغنى عنها أهل «مدينة» نجد، ويرون أنها ضرورية فى رحلات الصحراء الطويلة على الإبل. أشعر كأنى فى منزلى فى رحلات الصحراء، اعتدت دون أن أشعر، عادات وتقاليد عرب نجد، فهل ذلك ما أردته؟ هل عشت كل ذلك الزمن فى الجزيرة العربية لأصبح عربيًا فقط؟ - أم أن ما فات كان تحضيرًا وإعدادًا لشىء أجهله وسيأتى فى حينه؟

* * *

كان افتقاد الصبر الذى أشعر به يماثل افتقاد الصبر الذى أحسسته عند عودتى إلى أوروبا بعد أول سفر لى إلى الشرق الأدنى: إحساس من أجبر على التوقف قبل وهلة من توصله إلى كشف عظيم سيميط عن نفسه الحجب لو أتيح لى مزيد من الوقت...

كان قد خفف من وطأة الانتقال من عالم العرب عائدًا إلى أوروبا بقائى لشهور فى تركيا بعد أن غادرت سوريا فى خريف عام ١٩٢٣. لم يكن مصطفى كمال أتاتورك فى

تلك الأيام قد بدأ حركته «الإصلاحية»، وكانت تركيا مازالت تحيا بكل تقاليدها الموروثة الأصيلة، ولانتمائها حتى ذلك الوقت إلى العالم الإسلامى كان نمط الإطار العام للحياة يمضى نفس الوتيرة الغريبة للحياة العربية، إلا أن إيقاع الحياة التركية الداخلى بدا أثقل وأشد وطأة وأقل شفافية - وأكثر تأثراً بالغرب من البلاد العربية.

حين رحلت بطريق البر من اسطنبول إلى صوفيا وبلجراد لم يكن الانتقال فجائيًا من الشرق إلى الغرب؛ فالأشكال والصور كانت تتغير تدريجيًا خلال ذلك الانتقال، يتقهقر عنصر من عناصر الحياة ليحل محله عنصر آخر بشكل مغاير ومختلف فى بلد يليه، بدأت مآذن المساجد تقل أعدادها وتزداد بينها المسافات، قفطان الرجال الطويل يختفى تدريجيًا يحل محله كلما اتجهت غربًا قميص طويل من فوقه حزام لمزراعى شرق أوروبا، الأشجار المتناثرة وبساتين الأناضول حلت محلها غابات كثيفة فى مناطق الصرب - حتى وصلت إلى حدود إيطاليا: فجأة وجدت نفسى فى أوروبا.

بدأت انطباعاتى عن تركيا تفقد حيويتها وأنا بالقطار المتجه إلى مدينة «تريست» إلى «ڤيينا»؛ أما ما ظل راسخًا فهو الثمانية عشر شهراً التى قضيتها فى البلاد العربية. صدمنى إدراكى أننى كنت أتطلع إلى المشاهد الأوروبية التى اعتدت عليها بعينى من هو غريب عنها. بدا الناس فى نظرى فى غاية القبح، وحركاتهم حادة خالية من الرقة، ولا علاقة مباشرة بين حركاتهم وما يريدونه ويشعرونه، أدركت فجأة أنه بالرغم من المظهر الذى يشى بالغرضية وإدراك الهدف فى مساعيهم، إلا أنهم لا يعون أنهم يحيون فى عالم يصطنع المعتقدات.. اتضح لى أيضًا أن حياتى بين العرب غيرت منهجى ورؤيتى لما كنت أعده مهمًا وضروريًا للحياة. تذكرت بشىء من الدهشة أن أوروبيين آخرين قد مروا بتجارب حياتية مع العرب وعايشوهم لأزمان طويلة؛ فكيف إذن لم تعترهم دهشة الاكتشاف كما اعترتنى؟ أم أن ذلك قد وقع لهم أيضًا؟ هل اهتز أحدهم حتى أعماقه كما أنا عليه الآن...؟

(لم أتوصل إلى إجابة عن تلك التساؤلات إلا بعد أعوام وأنا فى الجزيرة العربية: وقد أجاب على تساؤلاتى الدكتور «ڤان دير ڤولين» سفير ألمانيا فى جدة، وكان واسع

الثقافة والمعارف، ويتعلق بإيمانه المسيحى باقتناع نادر وجوده بين الغربيين المعاصرين. وهكذا، بالرغم من أنه لم يكن أخًا فى الإسلام ، فإنه اعترف لى أنه يحب الجزيرة العربية أكثر من أى مكان آخر عرفه، ولم يستثن من ذلك بلده الذى ينتمى إليه. وحين أشرفت خدمته بالحجاز على نهايتها، ذكر لى مرة أخرى: «أعتقد أنه لا يوجد من يتصف بسلامة الحس ويظل منيعًا ضد سحر الحياة العربية، أو ينتزع ذلك السحر من قلبه بعد أن يكون قد عايش العرب لفترة من الزمن، حين يغادر المرء المنطقة العربية سيحمل داخله دائمًا بيئة الصحراء، وينظر إليها من بعيد برغبة قوية وشَوْق - حتى لو كان يحيا فى بلده الأغنى، والأجمل...».

توقفت لبضعة أسابيع فى ڤيينا واحتفلت بتصالحى مع أبى. كان قد تجاوز غضبه علىّ لعدم إكمالى لدراستى الجامعية ومغادرتى منزل الأسرة بتلك الطريقة الفجة. على أى حال، كنت مراسل لجريدة «فرانكفورتر تسايتونج».. وهو اسم كان يلقى التقدير والتبجيل فى وسط أوروبا فى ذلك الوقت، وهكذا حققت مصداقية فى نظره فيما زعمت له قبل ذلك من أننى سأحقق ما أصبو إليه و«أصل إلى القمة».

رحلت بعد ذلك من «ڤيينا» مباشرة إلى «فرانكفورت» لأقدم نفسى شخصيًا إلى الصحيفة التى كنت أمثلها بالخارج على مدى عام. كنت فى طريقى إليها وأنا أشد ثقة بنفسى، فالرسائل التى كنت أتلقاها من «فرانكفورت» أظهرت لى أن مقالاتى كانت تلقى ترحيبًا وتقديرًا بالصحيفة. وبشعور من وصل بنفسه إلى المكان الذى كان فيه اسمًا فقط خطوت داخل ذلك الصرح العريق العتيق فى طرازه المعمارى، أرسلت بطاقتى إلى رئيس تحرير الجريدة، وكان وقتها الدكتور «هنريك سيمون» الذى كان مشهورًا فى أرجاء العالم.

حين دخلت مكتبه، تطلع إلىَّ بدهشة دون أن يتفوه بكلمة، حتى إنه نسى أن ينهض من مقعده، إلا أنه تمالك نفسه بسرعة، ونهض ليصافحنى قائلاً: «اجلس، اجلس، كنت أنتظر وصولك». لكنه استمر بعد ذلك فى التطلع إلىّ فى صمت حين بدأت أشعر بعدم الارتياح. قلت: «هل هناك خطأ ما يادكتور سيمون؟».

رد بسرعة: «كلا، كلا، لا يوجد أى خطأ - أو على الأصح، كل شيء خطأ....» ثم ضحك وأردف قائلاً: «توقعت أننى سأقابل رجلاً فى منتصف العمر بعوينات ذات إطار ذهبى - والآن أجد أمامى صبياً... أوه، اعذرنى؛ ما عمرك على أى حال؟».

تذكرت فجأة ذلك الهولندى المرح الذى التقيته فى القاهرة وسألنى السؤال ذاته من عام مضى؛ فضحكت وقلت: «أنا أربو على الثالثة والعشرين يا سيدى - كدت أتم الرابعة والعشرين» ، ثم أضفت: «هل تجد أننى أصغر مما يجب للعمل فى فرانكفورتر ذيتونج؟»

أجاب سيمون ببطء: «كلا، ليس لفرانكفورتر ذيتونج، ولكنه سن صغير بالنسبة لمقالاتك. لقد كنت أوقن أن الرجل الناضج وحده هو الذى بإمكانه أن يقهر ذاته ويتجاهل شخصيته وآراءه الشخصية، كما فعلت أنت عند كتابة مقالاتك. إن ذلك كما تعلم هو سر الصحفى الناجح والناضج: أن يكتب بموضوعية عما يراه ويسمعه، ويفكر دون أن يخلط كل ذلك مباشرة بخبراته وآرائه الشخصية والذاتية.. من جهة أخرى، وهذا الأمر ورد إلى ذهنى الآن، فالشاب الصغير هو الذى يكتب بذلك الحماس الذى وجدته في مقالاتك، وبذلك القدر من الإثارة والتشويق...» ثم تنهد وأردف: «أتمنى ألا تتآكل تلك الروح وألا تصبح من المتعالين ولا من المنهكين مثل باقى الكُتّاب..».

ويبدو أن الدكتور «سيمون» قد وجد فى صغر سنى ما قوى من اقتناعه أننى مراسل صحفي واعد ومبشر: وافق بحماس على عودتى إلى الشرق الأوسط بسرعة قدر ما أستطيع - وكلما كانت عودتى أسرع كان أفضل. أما من جهة التمويل، فلم يعد هناك عائق، فقد تم التغلب على التضخم المالى الألمانى، وأدى ثبات قيمة العملة الألمانية إلى انتعاش اقتصادي وأصبحت الصحيفة في وضع مالى يسمح بتمويل مراسليها في بلاد العالم.

قبل أن أرحل من جديد، كان لابد أن أنتهى أولاً من الكتاب الذى تعاقدت مع الجريدة على كتابته.

وبالرغم من نفاد صبرى وتطلعى إلى العودة إلى الشرق الأوسط، فإن الشهور التى قضيتها بمدينة «فرانكفورت» كانت فائقة الروعة. لم تكن «فرانكفورتر ذيتونج» مجرد صحيفة كبرى، بل كانت أقرب إلى مركز أبحاث. كان يعمل بها بتفرغ كامل خمسة وأربعون محرراً، عدا نواب التحرير ومساعدى تحرير الأخبار. كان العمل التحريرى بالصحيفة شديد التخصص، كل منطقة من العالم لها متخصصوها وكل موضوع سياسى أو اقتصادى عالمى أو محلى يسند إلى المختص به: كان ذلك نتاج تاريخ طويل من المصداقية التى جعلت من مقالات ومراسلات الصحيفة أقرب إلى التوثيق المعرفى أكثر من كونها انعكاسًا إخباريًا يوميًا للأخبار، لذلك اتخذها السياسيون والمؤرخون كمصدر موثوق يعتمدون على أخبارها وتحليلاتها بمصداقية ومرجعية يعتمد عليها. وكان من المعروف أن مكتب الصحيفة فى برلين يزود بنسخ من الملفات والمذكرات التى يتم تسليمها إلى الحكومات الأخرى (نقل عن بسمارك أنه قال ذات مرة عن مدير مكتب الأخبار الخارجية فى برلين التابع لصحيفة فرانفكورتر ذيتونج وهو يوجه حديثه إليه «دكتور شاتين سفير فرانفكوتر ذيتونج فى بلاط برلين». وأن أكون عضواً عاملاً فى مثل تلك الصحيفة، كان مصدر فخر واعتزاز لشاب فى سنى، وعلى الرغم من أن مقالاتى عن الشرق الأوسط قد قوبلت باهتمام شديد من كل المحررين وغالبًا ما كانت موضوع اجتماعات التحرير اليومية، فإن نصرى الكامل تحقق فى اليوم الذى كلفت فيه أن أكتب مقالاً افتتاحيًا بالصحيفة عن مشكلة الشرق الأوسط.

* * *

كان من نتائج عملى فى جريدة «فرانكفورتر ذيتونج» النضج المبكر لتفكيرى الواعى كما نتجت عنه رؤية ذهنية أكثر وضوحًا من أى وقت مضى فبدأت فى مزج خبرتى بالشرق بعالم الغرب الذى أصبحت جزءًا منه من جديد. فمن شهور عديدة مضت اكتشفت العلاقة بين الاطمئنان النفسى والعاطفى السائد فى نفوس العرب وبين عقيدة الإسلام التى يؤمنون بها، كما بدأ يتبلور فى يقينى أن نقص

واتقاد التكامل النفسى الداخلى للأوروبيين وحالة الفوضى اللاأخلاقية التى تسيطر عليهم قد تكون ناتجة عن عدم وجود إيمان دينى وقد تكونت الحضارة الأوروبية الحديثة فى غيابه.

كان المجتمع الأوروبى الذى أراه يبحث عن إيمان روحى جديد بعد أن ابتعدوا عن طريق الرب والإيمان به وكان قليل من الأوروبيين من يدرك ذلك. أما الأغلبية فقد كانت تمضى بوعى أو بلا وعى فى إطار فكرى يتلخص فى التالى:

«حيث إن السببية، وتجارب العلم، والحسابات العقلية، لم تتوصل بعد إلى إثبات علمى محدد عن أصل الحياة البشرية ومصير البشر بعد الموت؛ فإننا لابد أن نركز كل طاقاتنا فى التطوير المادى وتطوير إمكانيات العقل البشرى وألا نخضع لمعوقات السمو الروحى والدينى فوق عالم المادة والمسلمات الأخلاقية المعتمدة على فرضيات تتناقض مع البرهان العلمى». وهكذا، فى الوقت الذى لم يفكر فيه المجتمع الغربى فى وجود الإله، لم يترك له مكانًا فى انساقه الفكرية. فى الأعوام المبكرة من شبابى أصابنى الإحباط وخيبة الأمل فى العقيدة اليهودية التى أنتمى إليها، واتجه فكرى إلى المسيحية بعد أن وجدت أن المفهوم المسيحى للإله يتميز عن المفهوم التوراتى؛ لأنه لم يقصر اهتمامات الإله فى مجموعة معينة من الناس ترى أنها وحدها «شعب الله المختار»، ووجدت أن الإله فى المسيحية يضفى أبوته على كل البشر. وعلى الرغم من ذلك كان هناك جانب من الفكر المسيحى قلل أيضًا من إمكانية تعميمه وصلاحيته لكل البشر: ألا وهو التفريق والتمييز بين الروح والبدن، أى بين عالم الروح وعالم الشئون الدنيوية وبسبب تنائى المسيحية المبكر عن كل المحاولات الإصلاحية التى تهدف إلى تأكيد أهمية المقاصد والأغراض الدنيوية، كفت من قرون طويلة عن أن تكون دافعًا أخلاقيًا للحضارة الغربية، وسادت فكرة أنه ليس من عمل الدين عامل ملطف، المقصود منه تقوية وتغذية الإحساس الغامض بالأخلاق - خاصة السلوكيات الجنسية - لدى الذكور والإناث. عاونهم الموقف التاريخى العتيق للكنيسة على ترسيخ ذلك الاتجاه فى التفريق بين «ما لله، وما لقيصر»، ونتج عن ذلك الفصل ترك الجانب الاجتماعى والاقتصادى يعانى

من فـراغ ديني، ومـا ترتب على ذلك من غيـاب الأخـلاق فى الممـارسـات السـيـاسـيـة المسيحية والمعامـلات الاقتصادية مع باقى دول العالم. ومثل ذلك فشلاً فى تحقيق ما هدفت إليه رسالة المسيح، أو أى دين آخر، فالهدف الجوهرى لأى دين هو تعليم البشر، ليس فقط كيف يدركون ويشعرون، بل الأهم كيف يعيشـون معيشـة صحيحة وينظمون العلاقات المتبادلة بطريقة سوية لا غبن فيـهـا. ولإحسـاس الرجل الغربى أنه قد خذل الدين فقد كرد فعل عبر القرون كل إيمانه بالمسيحية. وبفقد إيمانه، فقد اقتناعه بأن الكون والوجود تعبير لقوة خلق واحدة وأن الوجود وحدة عضوية واحدة، وبفقده تلك القناعة، عاش فى خواء روحى وأخلاقى.

كـان انحـدار الغـرب التدريجـى بعيـداً عن المسيحيـة مظهـراً من مظاهـر التمـرد على نمـط الحيـاة الذى فرضـه «بولس» الرسـول الذى أخفـى فى وقـت مبكر من المسيحيـة كل تعاليـم المسيح الحقيقيـة، فكيـف يظـل العالم الغـربى مدعيًا أنه عالم مسيحى؟ وكيف يأمل بلا إيمان، أن يتغلب على الفوضى الأخلاقية المعاصرة التى ينغمر فيها؟

عـالم يعانى من غليان وتقلبات عنيـفة: هذا هو عـالمنا الغربى. إراقة دمـاء، عنف ينتشر على نطاق واسع، تدمير وانهيار قيم اجتماعية كثيرة، صدامات بين النظريات والمفاهيم والمناهج والمذاهب، صراعات وحروب مريرة لإيجاد سبل أخرى للحياة: كلها علامات بارزة فى حياة الغرب المعاصرة. ومن بين دخان مجازر الحرب العالمية الأولى، نشـبت حـروب أخـرى أصـغـر بأعـداد لا تحـصى، وثـورات، وثورات مـضـادة، ومن بين الكوارث الاقتصـادية التى جرفت كل شىء، تبين أن تركيـز العـالم الغربى على المادة، والتقدم التقنى لا يحل، ولا يفضى إلى حلول للفوضى القائمة.

كان اقتناعى فى شبابى المبكر أن الإنسان «لا يحيا بالخبز وحده» قد تبلور إلى اقتنـاع فكرى بأن عبادة «التقدم» المادى ليس إلا بديلاً شبحيًا للإيمان السابق القديم بالقيم المجـردة، وأن الإيمان الزائف بالمادة يجـعلهم يعـتـقـدون أنهم سـيـقـهـرون كل المصـاعب التى تواجـهـهم حـاليًا .كانت كل النظم الاقتصـادية التى خرجت من مـعطف

المادة علاجًا مزيفًا ومخادعًا ولا يصلح لعلاج البؤس الروحى للغرب: كان بإمكانهم فى أفضل الحالات شفاء بعض أعراضه، إلا أن من المستحيل علاج سبب العلة.

* * *

فى الوقت الذى كنت أعمل فيه مع هيئة التحرير لصحيفة «فرانكفورتر ذيتونج»، قمت بزيارات كثيرة إلى برلين، حيث كان يقيم أغلب أصدقائى، وفى واحدة من تلك الزيارات التقيت بالسيدة التى ستصبح زوجة لى بعد ذلك.

من اللحظة التى قدمونى فيها إلى «إلزا» بمقهى «رومانسكى»، انجذبت إليها بشدة، لا بسبب جمالها الرقيق ـ كانت ذات وجه دقيق، رقيقة الملامح، وعيناها حادتان ذات لون أزرق عميق الزرقة، وفم رقيق عطوف ـ بل لما يزيد على ذلك من حدس داخلى صادق وحسن تخمين وتوقع للأمور والناس والمواقف. كانت رسامة، لم تكن أعمالها متميزة بين ذوى الأعمال الفنية، إلا أن تلك الأعمال كانت تحمل صفاءً شديداً مثل ما كان عليه فكرها وحديثها.

على الرغم من أنها كانت تكبرنى بخمسة عشر عامًا ـ كانت فى أواخر الثلاثينيات من عمرها ـ إلا أن وجهها الرقيق، وبدنها النحيف فى مرونة، كانا يعطيان انطباعًا لمن يراها أنها أصغر عمراً.

كانت خير تمثيل للجنس الاسكندنافى، ولديها كل صفاؤهم، كانت سليلة إحدى أسر «هولشتاين» العريقة وهى من أسر شمال ألمانيا العريقة، وتوازى فى نبل المحتد الأسر البريطانية العريقة التى خدمت التاج البريطانى، إلا أن نمط حياتها الحر جعلها متحررة من تقاليد تلك الأسر. كانت أرملة وكان لها ابن يبلغ السادسة من عمره، كرست كل حياتها له.

ويبدو أن الإعجاب كان متبادلاً من أول لقاء، فبعد تعارفنا الأول أصبحنا نلتقى بعد ذلك كثيراً. ولأننى كنت متخمًا بانطباعاتى عن العالم العربى، فقد نقلت إليها تلك

الانطباعات؛ وبعكس أغلب أصدقائى، أظهرت تفهمًا غير عادى وتعاطف، حتى إننى عندما كتبت مقدمة لكتابى الذى أصف فيه رحلاتى إلى الشرق الأوسط، أحسست وأنا أكتب تلك المقدمة أننى أقدم نفسى إليها: كتبت فى تلك المقدمة:

«حين يرحل أوروبى إلى دولة أوروبية أخرى لم يرها من قبل، فإنه يمضى فى بلد مختلف وقد يلاحظ بعض الاختلافات والفروق فى بعض الجوانب، وبغض النظر إن كنا ألمانًا أو إنجليزًا، وبغض النظر إن كنا نزور فرنسا أو إيطاليا أو المجر، إلا أن الروح الأوروبية، روح الحضارة الغربية توحدنا جميعًا؛ فنحن نحيا داخل إطار محدد تمامًا من التماثل، ويمكن أن يفهم بعضنا البعض كما لو كنا نتحدث لغة واحدة. ونطلق على تلك الظاهرة «البيئة الثقافية الواحدة» وهى ميزة بالطبع، إلا أنها تعد عيبًا فى الوقت نفسه: لأننا نجد أنفسنا أحيانًا مغمورين فى تلك الروح المشتركة كما لو كنا ملفوفين فى ضمادات من القطن؛ وأن تلك الروح تهدهدنا كما يهدهد الطفل قبل نومه، مما يبعث على خمول القلب ويدفعنا إلى نسيان وتناسى المسيرة التى خضناها فى العصور الغابرة، تلك الأزمنة الخلاقة القديمة، والتى بزغت على أوروبا بعد واقع لم تكن فيه أوروبا شيئًا. أما الرجال الذين أخذوا على عاتقهم تلك المهمة الصعبة ـ سواء كانوا المكتشفين أو المغامرين أو الفنانين المبدعين – فإنهم كانوا يبحثون جميعًا عن الينابيع الداخلية الدفينة فى أعماقهم. ونحن سلالتهم المعاصرة ونبحث أيضًا عن حياتنا، إلا أننا مليئون بالمخاوف التى تدفعنا إلى تأمين حياتنا دون أن نصل إلى أغوارها وأعماقها، ونشعر أن هناك خطيئة تكمن فى مثل تلك الدوافع والمقاصد. لقد بدأ بعض الأوروبيين يشعرون الآن بالخطر العظيم المترتب على تجنب الخطر. فى هذا الكتاب أصف رحلة إلى منطقة «اختلافها» عن أوروبا كبير، حتى إنه لايمكن تجاوزه ولا اجتيازه، وهو اختلاف يقترب بشكل ما من حد الخطر. والخطر ناجم عن تركنا أمان بيئتنا الموحدة، التى لا نجد فيها ما يثير ولا ما يدهش، ونخوض غرابة أخرى لعالم «آخر» مختلف. دعونا لا نخدع أنفسنا: ففى ذلك العالم «الآخر» قد نظهر بعض التفهم لهذا أو ذاك من الانطباعات عن أمور نراها أو تصادفنا هناك، إلا أنه لا يمكننا ـ بعكس ما يحدث فى دولة غربية ـ أن

نتفهم بوعى الصورة الكلية. ما يفصلنا عن ذلك العالم «الآخر» ليس المسافة الجغرافية وحدها. كيف نتواصل معهم؟ لا يكفى أن نتحدث لغتهم؛ وحتى نتفهم ما يشعرونه تجاه الحياة لابد للمرء أن يدخل بيئتهم بكامل وعيه وإرادته ويحيا فى تجمعاتهم. هل هذا ممكن؟

بل هل هو مرغوب؟ قد تكون صفقة سيئة أن نستبدل بعاداتنا التى اعتدناها من أنساق فكرية فكرًا غريبًا غير معروف لنا.

ولكن هل نحن مستثنون فى هذا العالم؟ لا أعتقد ذلك.

فإحساسنا أننا مستثنون يرتكز أساسًا على خطأ يكمن فى طريقتنا الغربية فى التفكير. فنحن نميل إلى التقليل من أهمية القيم الخلاقة لمن لا نعرفهم كما نميل إلى السلوك العدوانى تجاههم. كثيرون منا بدأوا يدركون أن المسافة الثقافية والفروق الحضارية يمكن التغلب عليها بوسائل أخرى غير الاغتصاب الفكرى؛ إذ ربما يمكن التغلب على ذلك التغاير الثقافى بتسليم حواسنا إليه.

ولأن ذلك العالم «الآخر» المغاير يختلف كلية عن كل ما عرفناه فى بيئتنا، فإنه يفاجئك أحيانًا إذا أعطيته الاهتمام والانتباه الكافيين، ويذكرك بأشياء معروفة من آجال كما هى منسية من آجال، إلا أن تلك الحقائق المنسية تصل إليك من خلف الهاوية الفاصلة مع أنفاس التذكر. فى هذا الموضع أؤكد على أهمية معرفة الآخر، أما بالنسبة لى، فإن معنى التجوال وأهميته يكمنان فى إيقاظى لوعى بأن هناك عالمًا آخر من حولنا، وأن وعينا بوجوده يزيد من إيقاظ وعينا بواقعنا الشخصى والمنسى...».

ولأن «إلزا» قد فهمت تخمينًا ما حاولت قوله وإن لم يكن بوضوح كامل، مثل من يحاول تبين معالم شىء فى الظلام، وإن لم أتمكن من إيضاح ما يعتمل فى ذهنى فى تلك المقدمة المتلعثمة، فإنه كان لدى إحساس قوى أنها ـ هى وحدها ـ تستطيع أن تتفهم ما أسعى إليه، وأن تساعدنى على البحث عنه.

[٢]

مر يوم آخر من أيام الرحيل، صمت داخلى يسيطر علىّ، وصمت الليل الخارجى يحوطنى. الرياح تنزلق بنعومة فوق كثبان الرمال فتتموج الرمال الناعمة على منحدراتها. بدت هيئة زيد على ضوء دائرة النور المنبعثة من النار التى أشعلها، كان مشغولاً بآنيته وأدواته، الخروج مكومة بالقرب منا حيث حططنا الرحال، بجوارها سروج الجمال بسنّاداتها الخشبية العالية. وراءها بقليل، تبرك ناقتانا بعد أن عقلناهما، منهكتين بعد مسيرة النهار الطويلة، عنقاهما ممتدان على الرمال، إلى أبعد منهما بقليل، تبدو الصحراء فى غير وضوح تحت ضوء النجوم الشحيح، إلا أنها رغم ذلك قريبة منك قرب خفقات قلبك.

صحارى العالم كثيرة، إلا أن هذه الصحراء هى التى يمكن أن تشكل وجدانك، فى مشاقها ومصاعبها واتساعها، تنزع منك الصحراء رغبتك فى فهم الصغائر، وتنزع عنك كل الأوهام التى تدفعها الطبيعة وتأسر بها ذهن البشر وتدفعهم إلي تكوين تصورات خاصة تبعد عن الحقائق الكلية. أما الصحراء فجرداء وواضحة ونقية ولا تعرف المصالحات. تمحو من قلب المرء رغبته فى متع الحياة وتحولها إلى أشكال مزيفة واضح زيفها، وبذلك تحرر المرء وتجعله يستسلم للمطلق فى جوهره لا فى صوره، ذلك المطلق الذى هو أبعد من كل بعيد، إلا أنه أقرب من كل قريب.

منذ أن بدأ وعى البشر فى التكون، كانت الصحراء مهد كل إيمان بالخالق الواحد. حتى فى المناطق المعتدلة الأطيب مناخًا والألطف طقسًا، كان الإحساس الغامض بوجوده ووحدانيته يهيمنان على ذهن البشر، ظهر ذلك فى المفهوم الإغريقى القديم عن «مويرا» كقوة غير محددة أعلى من آلهة جبال الأوليمب، إلا أن المفهوم لم يزد على كونه مشاعر مبهمة غير متبلورة إلى مفهوم متكامل، إحساس بالألوهية أكثر منه معرفة يقينية - حتى تفجرت المعرفة بيقين متوهج بين سكان الصحراء وفى قلب الصحراء. انبثق اليقين من عليقة متوهجة فى صحراء ميديان ومنها انبعث صوت الله إلى كليمه موسى؛ كما انبثق من صحراء الأردن التى تلقى فيها المسيح رسالة «مملكة

الرب»؛ وانبثق اليقين من غار «حراء»، فى تلال الصحراء بالقرب من مكة، حين نزل أول وحى على محمد، ابن الجزيرة العربية.

نزل عليه فى ذلك الممر القاحل المقفر بين الجبال الصخرية، فى ذلك الوادى العارى الذى أحرقته شمس الصحراء - نزل عليه ليصحح مفاهيم ويقدم إجابة صريحة واضحة بالإقبال على الحياة بالروح والجسد: رسالة أعطت شكلاً ومضموناً وهدفاً لأمة كانت بلا شكل وقبائل شتى متفرقة. بذلك المفهوم انتشرت الرسالة فى بضعة عقود مثل الوعد والوعيد حتى أقاصى الغرب على مشارف المحيط الأطلنطى وإلى الشرق حتى سور الصين العظيم: نزلت الرسالة لتظل قوة روحية عظيمة حتى اليوم بعد ثلاثة عشر قرناً.

* * *

أغفو وأستيقظ، أفكر فيما خلا من أيام إلا أنها لم تمت: أغفو من جديد وأحلم، ثم أستيقظ من جديد وأجلس، فيتدفق الحلم مختلطاً بذكريات فى وعيٍ مابين يقظة وغفوة.

كان الليل قد اقترب من نهايته. والنار خمدت؛ وزيد ملتحف بملحفته ويغط فى النوم؛ وجملينا مقعيان بلا حركة مثل مرتفعين من الأرض، النجوم لم تختف بعد، ينتابك إحساس أنه مازال هناك وقت للنوم، إلا أن ضوءاً شاحباً وليداً ظهر فى الأفق الشرقى، خطوط وعروق من الضوء الواهن خط فوق آخر، تختلط بعروق الظلام فى شرق الأفق، إنها تباشير الفجر، وحان وقت صلاة الفجر.

فى زواية مائلة من صفحة السماء رأيت نجمة الصباح التى يسميها العرب «الزهرة»، أو النجم الأبرق. إن سألتهم عنها سيقولون لك إن «النجم الأبرق» أو «الزهرة» كان فى سالف الزمان امرأة...

يقولون إنه فى سالف الزمان كان هناك ملاكان، هما هاروت وماروت، نسيا فضيلة التواضع التى ينبغى ألا ينساها الملائكة، وتباهيا بنقائهما الذى لا يمكن تلويثه، كانا يقولان: «نحن مخلوقان من النور، فوق الخطايا والذنوب والرغبات، بعكس أبناء البشر

ضعفاء الإرادة، أبناء الأرحام المظلمة، إلا أنهما تناسيا أن نقاءهما لا ينبع من إرادتهما، وأنهما صالحان لأنهما خاليان من الرغبات والشهوات، وبالتالى لم يطلب الله منهما أن يقاوما ما لا يشعران. لم يرض تباهيهما وتكبرهما ربهما الذى خلقهما، فقال لهما: «اهبطا الأرض واختبرا نقاءكما وقوة إرادتكما فيها». هبط الملاكان المتباهيان إلى الأرض وراحا يسعيان فى مناكبها وهما فى صورة بشرية بين أبناء البشر. فى أول ليلة لهما على الأرض مرًا بامرأة ذات جمال يخلب الألباب حتى إن الناس كانوا يسمونها «المتألقة». حين تطلع إليها الملاكان بعيون البشر ورغبات البشر، أصابتهم حيرة وبلبلة، مثل أبناء البشر التهبت رغبتهما فى إتيانها. قال كل منهما لها: «أشتهيك فاستجيبى»، إلا أن المرأة المتألقة قالت لهما: «هناك رجل أنتمى إليه، إن أردتمانى حررانى منه أولاً» فذبحا الرجل، وحين كان دم الرجل مازال يقطر من أيديهما، أتياها وأشبعا رغبتهما وجوعهما الذى كان مشتعلاً، ولكن بمجرد أن انطفأ وهج رغبتهما، بدأ الملاكان الأرضيان يعيان أن فى أول ليلة لهما على الأرض اقترفا كبيرتين - هما القتل والزنا - وأن افتخارهما بنقائهما لم يكن له أى معنى ماداما خاليين من الرغبات.. قال الله لهما: «اختارا ما بين العقاب فى الحياة الدنيا أو العقاب فى الآخرة»، فى مرارة ندمهما اختار الملاكان الساقطان عقوبة الحياة الدنيا: فحكم الله عليهما أن يعلقا فى سلاسل ما بين السماء والأرض، وأن يظلا معلقين حتى يوم الدين كتحذير للملائكة والبشر من أن كل فضيلة تدمر ذاتها إذا خلت من التواضع، ولكن لأن عيون البشر لا ترى الملائكة، حوَّل الله «المتألقة» إلى نجم فى السماء ليراها البشر ويتذكرون القصة، ويتذكرون مصير هاروت وماروت.

ويعود الإطار العام للأسطورة إلى زمن أقدم من زمن ظهور الإسلام، ويبدو أنها مستمدة من أساطير أقدم نسجها الساميون حول ربتهم «عشتار»، ثم نسجها الإغريق حول ربتهم «أفروديت»، ونسبت الاثنتان، عشتار وأفروديت إلى الكوكب الذى نعرفه اليوم باسم الزهرة. أما القصة بالشكل الذى سمعتها به، قصة هاروت وماروت، فهى ليست إلا من نتاج الفكر الإسلامى، وهى تصوير لفكرة أن النقاء الخالص، أو الخلو من الذنوب والمعاصى، لا يحمل أى قيمة أخلاقية مادام ذلك النقاء موجوداً فى غياب الدوافع والرغبات والشهوات: فالاختيار بين الصواب والخطأ يتطلب وجود منطق أخلاقى.

لم يدرك هاروت وماروت ذلك، فهما كملاكين، لم يتعرضا أبداً للإغراء والإغواء، واعتبرا نفسيهما تقيان نقيان أكثر من البشر - ولم يتحققا أو يدركا أن إنكار «مشروعية» الاحتياجات وإشباع رغبات البدن يتبعه بشكل مباشر ويترتب عليه إنكار كل القيم الأخلاقية فى المقاصد البشرية: فى الإحساس بالاحتياج وفى وجود الإغراء والإغواء لإشباع ذلك الاحتياج ينشأ الصراع الذى يضع البشر فى موضع الاختبار والاختيار الأخلاقى؛ أى أن البشر وجود وكينونة أخلاقية، إلا أنهم وهبوا روحًا.

على أساس من ذلك المفهوم، كان الإسلام وحده من بين كل الديانات السماوية. الذى اعتبر روح البشر أحد جوانب وجودهم وأنها ليست مكونًا مستقلاً بذاته، وبالتالى، لا ينفصل النمو ولا السمو الروحى للمسلم عن أوجه وجوده الأخرى أى وجوده الدنيوى.

لذلك اعتبر الإسلام الرغبات الجسدية جزءًا متكاملاً من طبيعة خلق الإنسان، وأن تلك الرغبات ليست وليدة «الخطيئة الأولى» - وهو مفهوم يتناقض مع مفاهيم المسيحية - بل إن رغبات البدن مكون إيجابى، خلقها الله فى البشر ليقبلوها ويمارسوها فى أوجهها الصحيحة: ومن ثم، فمشكلة البشر ليست فى كبت احتياجات الجسد، بل على الأصح، فى كيفية توظيفها فى شكل يتكامل مع متطلباته والتزاماته الروحية، وبطريقة تجعل من الحياة حياة كاملة وصحيحة.

ويعلن الإسلام أن جذور المبدأ التوحيدى للوجود لدى البشر موجودة بالفطرة البشرية بعكس المفهوم المسيحى الذى يرى أن الإنسان يولد وهو يحمل ذنب «الخطيئة الأولى، وبعكس التعاليم الهندوسية أيضًا التى ترى أن البشر بطبيعة خلقهم أدنياء ومذنبين، ولابد لهم أن يجاهدوا بكل عنت ومعاناة عبر سلسلة طويلة من التجسد وحلول الروح فى كائنات مختلفة حتى تحقق هدفها النهائى للوصول إلى الكمال، أما فى القرآن، فيقول الله جل شأنه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ والتقويم ليس إلا حالة من النقاء لايلوثها ولا يدنسها إلا السلوك السيء للإنسان - ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

[٣]

لاحت أمامنا بساتين نخيل «حـائـل»، وتجمعـات بيـوتهـا من بعيـد، توقفنـا عند مـشـارفـهـا بجـوار أنقاض برج مراقبة قديم حتى نهيىء أنفسنا لدخـول المدينة؛ فالعادات العربية لا تهمل أبدًا جوانب المظهر الجمالى للفرد، ويستدعى ذلك من المسافر والمرتحل أن يدخل أى مدينة يقصدها وهو فى أبهى حلة، منتعش ونظيف وكأنه بالكاد ركب ناقته غير مترب ولا أشعث. استعملنا كل ما تبقى معنا من ماء فى غسل أيدينا ووجوهنا، وتشذيب ما تشعث من لحانا، وأخرجنا من الخروج أنصع ملابسنا بياضًا. أزلنا بفرشاة ما تراكم على العباءات من رمال خلال أسابيع السفر وما علق من رمال بشرابات الخروج ذات الألوان البهية ووضعنا على الجمال أجمل السروج؛ وهكذا، هيأنا أنفسنا للدخول إلى مدينة «حائل».

«حائل» مدينة عربية خالصة، دعنا نقول أكثر من بغداد بل حتى من «المدينة»؛ فهى لا تحتوى على أى عنصر من شعوب غير عربية، نقية فى عذرية ونقاء اللبن المحلوب لتوه. لا تلمح زيًا أجنبيًا فى أسواقها، لا تجد بالمتاجر إلا الأزياء والعباءات العربية، والكوفية والعقال. شوارعها أكثر نظافة من أى شوارع مدينة عربية - بل حتى أنظف من نجد المشهود بنظافتها الفائقة عن مدن الشرق. البيوت مشيدة من قوالب الطين المجفف، لا تجد منها حائطًا متهدمًا باستثناء ركام أسوار المدينة التى تشهد بآثار الحرب الأخيرة بين ابن سعود وبين ابن راشد، وانتصر فيها ابن سعود وغزا مدينة حائل عام ١٩٢١.

كانت دقات مطارق صائغى النحاس المنهمكين فى تشكيل أنواع الآنية تتصاعد، ومناشير النجارين تأكل الخشب فى شراهة، والإسكافيون يدقون النعال والأخفاف، جمال محملة بحطب وقرب السمن تشق طريقها فى الزحام، وجمال كثيرة أحضرها بدو الصحراء لبيعها وراحت تملأ المكان بهديرها. أكوام من خروج الجمال المزينة والمزركشة بألوان زاهية آتية من «الحسا» والأيدى الخبيرة تتفحص جودتها. والباعة الجائلون الذين يكونون مشهدًا متكررًا فى كل المدن العربية، يتحركون فى السوق جيئة

وذهاباً، يعرضون ما يبيعون بأصوات عالية. هنا وهناك ترى صقور الصيد تتقافز فوق مجاثمها الخشبية ومقيدة إليها بحبال رفيعة من الجلد.. وإلى جوارها كلاب صيد من فصيلة السلوقى تتمطى فى الشمس بأطرافها الطويلة. بدو نحاف الأبدان فى عباءات فضفاضة، خدم فى أزياء نظيفة وحراس الأمير ـ كلهم تقريباً من جنوب الجزيرة ـ يختلطون بتجار من بغداد والبصرة والكويت وأبناء حائل - أبناء حائل أولئك ـ من الرجال فقط، فنادراً ما تظهر النساء بعباءاتهن السوداء التى تخفى الرأس والبدن ـ ينتمون إلى أجمل أجناس الأرض، فكل سمو الحركة وجمال المنظر لدى العرب يتجلى فى أنقى صورة فى أبناء قبائل شمار، الذين قال عنهم شاعر جاهلى ما معناه: «فى الشدائد رجال من صلب، وفى الخدور نساء من عفة».

وصلنا إلى حصن الأمير حيث انتوينا أن نبقى يومين، وجدنا مضيفنا يعقد مجلسه فى العراء أمام باب الحصن، كان الأمير ابن مسعد ينتمى إلى فرع الجلويين من قبيلة ابن سعود وكان شقيق زوجة الملك وواحد من أقوى الحكام الذين عينهم الملك على الولايات كما كان يسمى «أمير الشمال»، لأنه لم يكن حاكماً على مناطق جبال شمار وحدها، بل كل شمال منطقة نجد حتى مشارف سوريا والعراق، وهى منطقة تبلغ مساحتها مساحة فرنسا على وجه التقريب.

كان الأمير (وكان صديقاً لى من زمن طويل) يجلس مع عدد من الشيوخ قبائل الصحراء على مصاطب من الحجر أسفل جدار الحصن، وأمامه على الأرض جلس صف طويل من «الرجاجيل» مسلحين بالبنادق والسيوف المحدبة فى أغمدة فضية، لا يتركونه طول اليوم، لا لحمايته بالطبع، ولكن دلالة على النفوذ والهيبة، ويلى الرجاجيل حملة الصقور حيث تقف على أيديهم المغطاة بقفازات جلدية سميكة،يليهم خدم أقل شأناً، ثم البدو وجماعات من ساسة الجمال، حتى غلمان مرابط الجمال ـ كلهم متساوون كرجال بالرغم من اختلاف وظائفهم ومراكزهم. وكيف يكون الأمر غير ذلك فى بلاد لا يوجه فيها الحديث لأى رجل مهم مهما يكن وضعه بلقب «سيدى» حيث لا سيادة إلا لله؟

كان الأمير يجلس مواجهًا البدو الذين جلسوا القرفصاء على الرمال فى نصف دائرة واسعة وقد جاءوا ليحكم الأمير بينهم فى خصومات ونزاعات من كل لون.

أنخنا الجمال خارج الدائرة، وتركناها فى رعاية ساسة الجمال الذين أسرعوا إلينا، ترجلنا وتقدمنا باتجاه الأمير. نهض الأمير ونهض معه كل من كانوا يجلسون جواره وكذلك من كانوا أمامه على الأرض. ومد يده إلىَّ مصافحًا وهو يرحب بنا: «أهلاً وسهلاً، طال عمرك»، قبلت الأمير على قمة أنفه وجبهته، وقبلنى هو على الخدين، وجذبنى لأجلس بجواره. ووجد زيد لنفسه مكانًا بين الرچاچيل.

قدمنى ابن مسعد إلى باقى ضيوفه، بعض الوجوه كنت أراها لأول مرة، وبعضها كان لى به سابق معرفة من أعوام سابقة، كان من المعروفين لى منهم الشيخ غضبان بن رمال كبير مشايخ سنچارا شمار - أحد قدامى المحاربين الشجان المرحين وكنت أناديه «ياعمى» ولا يخمن من يراه من مظهر ملبسه العادى أنه واحد من أقوى المشايخ فى الشمال، وأنه وهب زوجته الشابة من الذهب والجواهر ما يتطلب طبقًا للمتناقل من الأقوال خادمتين لسيندانها حين تخرج من الخيمة الضخمة القائمة على ستة عشر من أعمدة الخيام. غمز بعينه وهو يهم باحتضانى ثم همس فى أذنى: «ألم تتخذ زوجة جديدة بعد؟» وأجبته بابتسامة وهزة من كتفى.

ويبدو أن سؤاله قد وصل إلى سمع الأمير ابن مسعد، فقد ضحك عاليًا وقال: «المسافر المتعب يحتاج إلى قهوة، لا لزوجة» ثم صاح بصوت أعلى: قهوة.

كرر الخدم الأقرب للأمير صائحين «قهوة؛ حتى وصل الأمر بالتتابع إلى آخر واحد بالصف على حافة المجلس، ثم بالتتابع إلى باب الحصن وتردد صدى الأمر بداخله. فى الحال ظهر خادم يحمل إبريق القهوة العربى التقليدى بيده اليسرى وعدد من الأقداح الصغيرة بيده اليمنى، ملأ القدح الأول للأمير، والثانى، لى، ثم قدم لباقى الضيوف طبقًا لمكانتهم. ويملأ الفنجان مرة أو مرتين، وحين يظهر الضيف أنه اكتفى، فإنه عند إعادة ملأه يناوله لمن يليه.

كان الأمير شغوفًا لمعرفة أخبار مهمتى إلى حدود العراق، إلا أنه دارى رغبته عبر بعض أسئلة سريعة عما صادفنى من مشاق فى الطريق، واحتفظ برغبته فى معرفة التفاصيل حتى نصبح على انفراد. ثم أكمل ما كان يفعله قبل وصولى من استماع إلى شكايات أصحاب الشكاوى والآتين للتحكم فى خلافاتهم ونزاعاتهم.

قد يكون ذلك الشكل من أشكال للتحكيم غير مقبول فى الغرب. الأمير كحاكم وقاض يحظى باحترام مطلق - إلا أنه لا يوجد أى قدر من خنوع أو ذل فى ذلك النوع من الاحترام وكل من الشاكى والمشكو فى حقه أو المدعى والمدعى عليه يثقون ثقة مطلقة فى إنسانيته الحرة؛ ولا يبدو عليهم ما يشى بتردد أو خوف أو خشية، فأصواتهم قوية مرتفعة وواثقة وجميعهم يوجهون الحديث إلى الأمير كما لو كان شقيقهم الأكبر، يوجهون إليه الحديث - كعادة البدو عند توجههم بالحديث حتى للملك - باسمه الأول لا بألقابه الرسمية الملكية، ولا تجد أى قدر من التعالى أو العجرفة فى سلوك ابن مسعد. وجهه جميل بلحية قصيرة، متوسط القامة وبدنه يميل إلى الامتلاء، ويشى كل ما يبدو منه بانضباط النفس وبساطة التعامل. كل صفات العظمة والبساطة والتواضع تمضى مع قوة المكانة وقدر السلطة، يحكم فى المشاكل التى يمكن حلها، أما المشاكل الأكثر تعقيداً التى تحتاج إلى دراية قانونية عميقة فيحيلها إلى قاضى المدينة.

ليس سهلاً أن تكون سلطة عليا فى منطقة عظمى من مناطق البدو. لابد أن تتوفر لك دراية كاملة بكل قبائل المنطقة، وعلاقات القرابة والنسب والمصاهرة، ومعرفة بالشخصيات القيادية الفعالة فى المنطقة، وفى مناطق الرعى المختلفة، كما لابد أن تكون ملمًا بأحداث الماضى وأحداث الحاضر حتى تكون الأحكام دقيقة وعادلة عند فض اشتباكات مشاكل البدو وشكاياتهم التى قد تكون شديدة التعقيد فى بعض الأحيان وتحتاج إلى حكمة ودراية ومعارف كافية. واللباقة لا تقل فى أهميتها فى تلك المجالس عن حدة الذكاء، ولابد للصفتين أن تعملا معًا بكل دقة وحساسية حتى لا تصدر أحكامًا ظالمة، لأنه بنفس القدر الذى لا ينسى به العرب معروفًا أسديته إليهم، لا يمكن أن

ينسوا حكمًا ظالمًا صدر ضدهم أو يشعرون أنه لا يتسم بالعدل. والأحكام فى الغالب، بل دائمًا ما تقبل بروح طيبة حتى من أولئك الذين صدرت الأحكام ضدهم. ويتميز ابن مسعد بتوفر كل تلك الصفات أكثر من أى نائب آخر للملك على مناطق المملكة المختلفة، فهو صريح، هادئ، يخلو من النزعات والأهواء المتناقضة، إحساسه الغريزى بالصواب والخطأ يهديه حين تتعطل لديه أسباب الاستدلال العقلى. صقلته الحياة بخبرات كثيرة وتجارب لا تحصى، ثم تمكن من تلابيب الحياة بعد أن خبر دروبها ومسالكها.

كان اثنان من البدو رثا الثياب يعرضان عليه فى تلك اللحظة خصومتهما وعرض كل واحد ما عنده فى حماسة وبكلمات منفعلة. والبدو بوجه عام يصعب التعامل معهم؛ فهناك دائمًا جوانب من تكوينهم لا يمكن التنبؤ بها - حساسية مستثارة لا تعرف الحلول الوسط - دائمًا هناك خيط رفيع يفصل بين النعيم والجحيم. رأيت كيف ينزع عنهم ابن مسعد غليانهم وفورانهم الانفعالى وكيف يهدئهم بكلماته الرزينة الهادئة. قد تظن أنه قد يأمر أحدهم بالصمت ويطلب الآخر بعرض ما يرى أنه حقه: كلا، لايفعل أى من هذا، بل يترك الطرفين يتحدثان فى الآن نفسه، ويتهمان بعضهما البعض، لا يتدخل إلا من آن لآخر بكلمة صغيرة هنا وسؤال هناك - وينغمسان من جديد فى محاجاتهم الانفعالية؛ ويصمت هو ويتركهم يتجادلون ثم يقاطعهم من جديد بإبداء ملاحظة سديدة فى الوقت الملائم. مشهد يسلب اللب، توظيف عقل المحكم فى صراع طرفين هما رجلان غاضبان: لا يعد بحثًا عن الحقيقة بالمعنى العدلى القانونى بقدر ما هو رفع الستار تدريجيًا عما هو خافى، وعن واقع موضوعى. ويقترب الأمير من تحقيق ذلك بكر وفر، يستل الحقيقة كما لو كان يستلها بخيط رفيع غير مرئى، ببطء وصبر، دون أن يدرك ذلك أى من المدعى والمدعى عليه. حتى يتوقف المتخاصمان فجأة، وينظر كل منهما للآخر فى دهشة ويتحققان كلاهما أنهما قد توصلا إلى الحكم - وهو حكم عادل وواضح حتى إنه لا يحتاج إلى شرح أو تفسير، وعلى ذلك يقف أحدهما فى تردد، ويفرد عباءته ويشدها ويشد خصمه من كمه بطريقة ودودة: «تعال» - وينسحب الخصمان بعد أن تصالحا، تعتريهما بعض الحيرة، إلا أنهما سعيدان ويتمتمان بالدعاء للأمير.

مشهد رائع وقطعة فنية فريدة: لا مثيل لها، تبدو لى أنها من ذلك الجمع المثمر بين الإدعاء والقضاء الذى لا تعرف عنه محاكم الغرب شيئًا. إلا أنه يمارس هنا على أكمل وجه فى ميدان السوق المترب أمام حصن أمير عربى....

يتراخى ابن مسعد مستندًا إلى الحائط الطينى للحصن، ليبدأ نظر المشكلة التى تليها. قوى الملامح عابس الوجه فى غير تجهم، ينظر من عينين عميقتى المحجرين نظرات دافئة نافذة، وجه قادة حقيقيين من الرجال، ممثل للسيادة فى أعلى مستوياتها بين بنى جنسه من رجال المنطقة بعلو حس داخلى دفين.

بعض الحضور الآخرين يشعرون بالإعجاب به. قال رجل يجلس أمامى على الأرض بعد أن رفع رأسه باتجاهى وابتسامة على وجهه - وهو بدوى من رجال قبيلة حرب، وأحد جنود الأمير -: «ألا يشبه الأمير ذلك السلطان الذى قال عنه المتنبى، ما معناه:

قابلته وسيفه فى غمده، ورأيته وسيفه يقطر بالدم

فى الحالين أفضل الورى، وأفضل ما فيه حسن ذكاء وفطنة.

لم يبد فى نظرى أن هناك أى تعارض أو تناقض حين سمعت بدوى أمى ينشد أبياتًا من الشعر لأحد كبار شعراء العرب الذى عاش بالقرن العاشر - بالتأكيد لم يبد لى أن هناك أى تناقض مثلما أجد تناقضًا على سبيل المثال إذا سمعت فلاحًا من باڤاريا فى شمال أوروبا ينشد أبياتًا لـ «جوته» أو لأحد كبار الشعراء الإنجليز مثل وليام بلاك أو شيللى. فعلى الرغم من انتشار التعليم بالغرب، فإن الثقافة الغربية الرفيعة غير متاحة للأوروبى العادى أو الأمريكى ، بينما نجد أن شريحة عظمى من غير المتعلمين تعليمًا عاليًا، بل من الأميين المسلمين يشاركون بوعى فى النهل من الإنجاز الثقافى الرفيع لما ضيهم، مثلما استطاع ذلك البدوى الأمى أن يستدعى إلى ذاكرته أبياتًا ملائمة من شعر المتنبى ليصور بها موقفًا شهده وتنطبق عليه الأبيات التى استلها من ذاكرته، كذلك تجد كثيرين من أهل إيران فى أثمال بالية وغير متعلمين من سقائين

وحمالين فى أسواق، أو جنود فى منطقة حدودية، ويحفظون بالذاكرة نصوصًا طويلة وأشعارًا لحافظ وجامى والفردوسى وينسجون ما يحفظونه فى استمتاع شديد مع جملهم التى يتحدثون بها فى حواراتهم اليومية. وبالرغم من أن المسلمين المعاصرين فقدوا تلك القدرة الإبداعية الخلاقة التى جعلت من إرثهم الثقافى ذلك الإرث العظيم، إلا أنهم مازالوا على اتصال مباشر ووثيق بتلك المنابع والذرى السامية الرفيعة لأسلافهم.

* * *

مازلت أتذكر ذلك اليوم حين توصلت إلى ذلك الاكتشاف فى سوق دمشق بالحى القديم. كنت أتفحص وعاءً فخاريًا من الطين المحروق، كان جميلاً ومتميزًا وفريدًا ومستديًا مثل كرة مسطحة قليلاً ذات أبعاد متناسبة ومتناغمة، تبرز من جداره الخارجى الذى يشبه استدارة خدود امرأة يدان فى انحناء خارجى بميل متقن يماثل تلك القوارير الإغريقية المشهورة. الوعاء واليدان مصنوعان صنعة يدوية، تستطيع أن تميز ذلك بسهولة، حتى إنك تكاد تميز بصمة العامل الذى صنعها وهو بالتأكيد عامل بسيط يعمل بتشكيل الطين، حول حافته الداخلية نقش أشكالاً نباتية دقيقة. كان بالتأكيد يعمل فى سرعة وبراعة وحذق، وبلا تركيز كافٍ فى اعتياد يومى متواتر، إلا أنه يخلق عملاً فنيًا يحمل تلك الروعة فى بساطتها تستدعى إلى الذاكرة عظمة الفن السلجقى فى سوريا وأعمال السيراميك الفارسية التى تحظى بالإعجاب والتقدير فى متاحف أوروبا مع أن أولئك العمال البسطاء لا يضعون فى أذهانهم وهم يصنعونها أنهم يقومون بأعمال تشكيلية فنية إبداعية، كل ما يدور فى ذهنه أنه يصنع إناء للطهى أو للزينة ـ لا شىء غير إناء للطهى، عن تلك الآنية التى يمكن لأى فلاح أو بدوى أن يشتريها فى أى يوم من أى سوق مقابل بضعة قطع معدنية صغيرة....

أعرف أن الإغريق قد أبدعوا مثل تلك الإبداعات أو أفضل منها وأكثر إتقانًا، وربما كانت أيضًا فى أوانى الطهى: هم أيضًا من سقائين وحمالى أسواق، وجنود وعاملى تشكيل أوانى ـ ساهموا جميعًا فى حضارة لم تكن تعمل فقط أعمالاً إبداعية

لإرضاء الصفوة والنخبة بل حضارة تشمل كل الأفراد. وافتخارهم بجمال المصنوعات افتخار بحضارة راقية ذات نتاج راق إلا أنه جزء من الممارسات اليومية.

حين كنت أتفحص ذلك الإناء في سوق دمشق القديم طاف بذهني هاتف يبارك من سيأكلون في ذلك الإناء وجباتهم، أولئك الذين ينتسبون لإرث حضاري فاق في مضمونه الافتخار الخاوي...

[٤]

أفقت من استغراقي في أفكاري على صوت الأمير مسعد: «ألن تسعدنا بتناول الغداء معي الآن يامحمد؟». رفعت رأسي متطلعًا وتقهقرت ذكريات دمشق في سرعة لتستقر في موضعها من الماضي إلى حيث تنتمي، وعدت إلى حاضري الذي كنت أجلس فيه بجوار «أمير الشمال». كانت جلسة التحكيم قد انتهت؛ وانفض جميع المتشاكين واحداً بعد آخر. نهض ابن مسعد، ونهض معه ضيوفه وحرسه. وتفرق جمع الرجاجيل ليفسح طريقًا لنا للمرور. وحين كنا نمر عبر البوابة أحكموا انتظامهم خلفنا من جديد وتبعونا إلى داخل فناء الحصن.

بعد فترة، كنت أنا، والأمير مسعد، والشيخ غضبان بن رمال مجتمعين حول وجبة غداء مكونة من قصعة ضخمة من الأرز وعليها خروف كامل مشوي. بالقرب منا وقف اثنان من خدم الأمير وزوج من الكلاب السلوقي.

وضع الشيخ غضبان يده على كتفي وقال: «لم تجب على سؤالي بعد ـ ألا توجد زوجة جديدة؟».

ضحكت من إصراره على هذا الأمر، وقلت: «عندي زوجة في المدينة كما تعلم، لماذا يتحتم عليَّ أن أتزوج بأخرى؟».

رد بسرعة: «لماذا؟ فليحمني الله ـ زوجة واحدة ـ وأنت مازلت في شبابك؟ لماذا؟ حين كنت في عمرك..» .

قاطعه الأمير مسعد: «قيل لى، إن أداءك لم يقل إلى الآن ياشيخ غضبان».

قال الشيخ غضبان: «لقد أصبحت حطامًا بالية، أطال الله عمرك يا أمير، ولكنى أحتاج أحيانًا إلى جسد غض ليدفئ عظامى العجوز المسنة.. ولكن أخبرنى...» استدار إلىَّ من جديد: «ماذا حدث لتلك الفتاة المطيرية التى تزوجتها من عامين؟ ماذا فعلت معها؟»

أجبت: «لماذا تسأل ؟ لم أفعل شيئًا، أظن أن ذلك ما تريد معرفته».

ردد الشيخ العجوز: «لم تفعل شيئًا؟ هل كانت قبيحة إلى هذا الحد؟» أجبته: «كلا، بالعكس، كانت فائقة الجمال...» .

سأل الأمير مسعد: «ما الحكاية؟ أى بنت مطيرية تتحدثان عنها؟ نورنى يا محمد».

هكذا رحت «أنوِّر» الأمير بما حدث فى ذلك الزواج الذى لم يؤد إلى شىء. كنت أعيش بالمدينة وحيداً بلا زوجة، واعتاد بدوى من قبيلة مطير اسمه فهد على قضاء عدة ساعات معى يومياً لإعداد القهوة ويسلينى بحكايات طريفة عن رحلاته الاستكشافية مع «لورانس» أثناء الحرب العظمى. وذات يوم قال لى: «لا يصلح للرجل أن يعيش بمفرده، دماؤك ستتجمد فى عروقك، لابد أن تتزوج»، وحين سألته مازحًا عن العروس التى يرشحها للزواج منى، أجاب: «هذا أمر سهل. ابنة زوج أختى مطرق، وهى الآن فى سن الزواج، وأنا، بصفتى خالها، أستطيع أن اطمئنك أنها فائقة الجمال»، كنت مازلت أمزح حين قلت له أن عليه أن يعرف أولاً إن كان أبوها موافق أم لا. وهكذا، فى اليوم التالى أتى مطرق نفسه لمقابلتى، وكان الحرج بادياً عليه بعد عدة أقداح من القهوة، وبعض الأحاديث المتفرقة، أخبرنى فى النهاية أن فهد قد حدثه عن رغبتى فى الزواج من ابنته، وقال: «يشرفنى أن تكون زوج ابنتى، ولكن رقية مازالت طفلة ـ إنها فى الحادية عشرة من عمرها ...».

إستشاط فهد غضباً حين أخبرته بزيارة مطرق، وما قاله لى. صاح فى غضب: «إنه نذل ووغد. الوغد الكاذب. الفتاة فى الخامسة عشرة، إنه لا يحبذ تزويجها من غير عربى، ولكنه يعلم صلتك الوثيقة بابن سعود ولا يريد أن يضايقك برفضه المباشر؛ لذلك

ادعى أنها طفلة، ولكنى أؤكد لك أن ثدييها هكذا..» ووصف بحركة من كفيه نصف المكورتين نهدين ذات حجم مغرٍ، وأردف: «مثل ثمر الرمان الذى يطلب من يقطفه».

التمعت عينا الشيخ غضبان حين أتى ذكر وصف نهديها وعلق قائلاً: «خمسة عشر عامًا، جميل، وعذراء... وبعد ذلك تقول لى لا شىء، ماذا تريد أكثر من هذا؟».

أكملت قائلاً: «صبرًا حتى أكمل لك باقى الحكاية.. أعترف لكم أن اهتمامى راح يتزايد، وربما ازداد بعد معارضة مطرق أبى الفتاة وهبت فهد عشر هدايا ذهبية وبذل كل جهده لإغراء أبويها أن يزوجانى إياها، وأرسلت بهدية مماثلة لأمها، شقيقة فهد. لم أعرف بالضبط ما حدث فى منزلهم؛ كل ما عرفته أن فهد وشقيقته بذلا كل ما يمكنهما من ضغوط على مطرق حتى يرضى بتزويجى ابنته...» .

قال الأمير ابن مسعد: «يبدو أن هذا الفهد كان صديقًا ماكرًا.. توقع هو وأخته عطاءً سخيًا منك يا محمد. ماذا حدث بعد ذلك؟»

حكيت لهم كيف حل يوم الزفاف بعد ذلك بعدة أيام فى غياب العروس، التى طبقًا للعادات، يمثلها والدها كوكيل شرعى عنها، ويتم تأكيد موافقة العروس على توكيل أبيها بشهادة اثنين من الشهود. وتبع عقد القران حفل زفاف سخى مترف وفخم، مع الهدايا المعتادة والهبات للعروس (التى لم أكن قد رأيتها حتى تلك اللحظة)، ولأبويها، ولبعض الأقارب المقربين ـ من ضمنهم بالطبع فهد الذى حظى بأكثر الهدايا قيمة، وفى المساء نفسه أحضرت العروس إلى بيتى بصحبة أمها وبعض النسوة المختمرات، بينما كانت النساء تغنى أغانى الأعراس من فوق أسطح المنازل المجاورة على إيقاع الدفوف والطبول.

فى الساعة المعنية دخلت الغرفة التى كانت بها العروس تنتظر هى وأمها. لم أميز الأم من الابنة، كلتاهما كانت مغطاة تمامًا بملابس سوداء من الرأس حتى الأرض، وحتى أعرف من الأم ومن الابنة قلت: «يمكنك أن تنصرفى الآن»، فنهضت واحدة منهما وخرجت فى صمت؛ هكذا عرفت أن التى بقيت هى زوجتى.

حثني ابن رمال عندما توقفت عن الحكى عند هذا الموضع، بينما تطلع إليَّ الأمير ابن مسعد: «وبعد يابنى، ماذا حدث؟ وماذا فعلت؟»

أكملت: «ثم.. ظلت البنت فى موضعها، تلك الفتاة المسكينة، من الواضح أنها كانت فى شدة الخوف من تسليمها إلى رجل لا تعرفه. حين طلبت منها بأرق صوت استطعته أن تميط لثامها، لم تفعل إلا أن تحكم وضع عباءتها حول جسدها فى خوف».

هتف الشيخ ابن رمال فى حماس: «يفعلن ذلك دائمًا، يظهرن الخوف فى البداية فى ليلة الزفاف، إلا أنهن بعد ذلك يصبحن مسرورات، أليس كذلك؟».

أكملت: «حسنًا، ليس تمامًا، كان عليَّ أن أزيل عن وجهها اللثام بنفسى، وحين فعلت، أذهلنى أن أرى وجهها فى غاية الجمال، وجه بيضاوى قمحى اللون، وعيون واسعة وضفائر شعر طويلة تدلت حتى الوسائد التى كانت تجلس عليها، إلا أن وجهها كان بالفعل وجه طفلة، لم يكن عمرها يزيد على أحد عشر عامًا، تمامًا كما ذكر والدها.. دفع الجشع فهد وأخته إلى تصوير الأمر لى على أنها فى سن الزواج، بينما كان المسكين مطرق بريئًا من أى كذب أو ادعاء».

سأل الشيخ ابن رمال وعلى وجهه أمارات عدم فهم ما كنت أرمى إليه: «وبعد؟ ما مشكلة أحد عشر ربيعًا؟ البنات يكبرن، أليس كذلك، بل إنهن يكبرن أسرع فى فراش أزواجهن...» .

إلا أن الأمير ابن مسعد قال: «كلا ياشيخ غضبان، إنه ليس نجديًا مثلك. له عقل أكبر فى رأسه» وابتسم إلىَّ وواصل: «لا تسمع إلى غضبان يا محمد، إنه نجدى، وأغلبنا نحن النجديين ليس لنا عقل هنا - وأشار إلى رأسه - بل هنا»، وأشار إلى موضع ذكورته.

ضحكنا جميعًا، وتمتم غضبان من بين لحيته وشاربه: «على ذلك فلدى عقل أكبر من عقولكم جميعًا، أليس كذلك يا أمير؟»

تحت إلحاحهم رحت أكمل الحكاية، أخبرتهم أنه مهما تكن وجهات نظر الشيخ غضبان، فإن صغر سن العروس لم يكن ميزة كبيرة لى، فلم أشعر نحوها إلا بالشفقة

فقد كانت ضحية خداع خالها الوضيع. عاملتها كما يعامل الأطفال، طمأنتها أنه لا يوجد ما تخشاه منى، إلا أنها لم تنطق بكلمة وفضح ارتعاشها خوفها وجزعها. وجدت على أحد الأرفف قطعة من الحلوى - شيكولاتة - قدمتها إليها إلا أنها لم تكن رأت الشيكولاتة فى حياتها، فرفضتها بهزة عنيفة من رأسها، حاولت أن أطمئنها بأن أقص عليها قصة مسلية من ألف ليلة وليلة، ولم يبد عليها أنها فهمت أى شىء مما كنت أقصه عليها. أخيراً تمتمت بأول كلمات لها: «رأسى يوجعنى...» أحضرت بعض أقراص الإسبرين ووضعتها فى كفها ومعها كوب ماء، إلا أن ذلك تسبب فى مزيد من خوفها (علمت بعد ذلك أن بعض السيدات من معارفها أخبروها أن الرجال الغرباء القادمين من بلاد أجنبية يخدرون زوجاتهم فى ليلة الزفاف حتى يغتصبوهن فى سهولة)، بعد ساعتين أو نحو ذلك نجحت فى إقناعها أننى لن أؤذيها. فى النهاية سقطت فى نوم عميق مثل أى طفلة فى سنها، وأعددت فراشاً لى على البساط فى ركن الغرفة.

فى الصباح أرسلت من يستدعى أمها، وطلبت منها أن تصطحب ابنتها معها. بدت على المرأة الغباء وعدم الفهم؛ فهى لم تسمع فى حياتها عن رجل يرفض لقمة شهية - عذراء فى الحادية عشرة - وظنت أن هناك خللاً فى عقلى.

وسأل الشيخ غضبان: «وماذا بعد ذلك؟»

أجبته: «لا شىء، طلقت الطفلة، وتركتها على حالها الذى أتتنى به. لم تكن الصفقة سيئة لأسرتها، فقد احتفظوا بالفتاة والمهر الذى دفعته وكذلك بالهدايا التى أهديتها إليهم هم وأقاربهم. أما أنا، فلم أنل إلا شائعة انتشرت وذاعت أننى لا أملك من الرجولة ما يكفى لفض عذرية عروس، وحاول بعض ذوى النيات الطيبة أن يقنعونى أن هناك من عمل لى عملاً من أعمال السحر يعوقنى عن ممارسة رجولتى، وأننى لن أستعيد رجولتى إلا إذا قمت بعمل سحرى مضاد يبطل السحر الأول الذى أصابنى بالعنة».

قال الأمير وهو يضحك: «حين أتذكر زواجك بعد ذلك بالمدينة، وإنجابك لطفل، أتأكد أنك قمت بعمل سحرى مضاد أقوى من الذى كان يؤثر فيك...» .

[٥]

في وقت متأخر من الليل، حين كنت أهم بالذهاب إلى فراشى، وجدت زيداً صامتاً أكثر من المعتاد. كان يقف بالباب، وكان من الواضح أن ذهنه شارد فى أفكار أخذته بعيداً عن الحاضر واللحظة، كانت ذقنه مرتكزة على صدره وعيناه ثابتتان على النقوش الزرقاء والخضراء الطحلبية التى تزين بساطًا من خراسان مفروش على الأرض.

سألته: «كيف تشعر الآن يازيد بعد أن عدت إلى موطن شبابك بعد كل تلك الأعوام؟» - كان قبل ذلك يرفض دخول مدينة حائل كلما كان هناك سبباً لمجيئى إليها.

أجاب بتؤدة: «لا أدرى يا عمى، أحد عشر عامًا.. مرت منذ كنت هنا آخر مرة، أنت تعرف أن قلبى لم يكن يطاوعنى للمجىء قبل ذلك وأرى أهل الجنوب يحكمون من بيت ابن رشيد. ولكن فى الفترة الأخيرة قلت فى نفسى، ما ذكره الله فى القرآن: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

لقد وهب الله الملك لابن رشيد إلا أنه لم يدرك كيف يستخدمه على الوجه الصحيح. كانوا كرماء مع الناس قساة على أهلهم وعشيرتهم، كانوا تياهين بلا سبب؛ وتسببوا فى إراقة الدماء ودفعوا الأخ لقتل أخيه، لذلك نزع الله عنهم الملك وأعاده إلى ابن سعود. أظن أنه لا يجب أن أحزن عليهم أكثر من ذلك - فالقرآن يقول: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ - صدق الله العظيم.

كان هناك انطباع بالتسليم الجميل فى صوت زيد، تسليم لا يتضمن أكثر من قبول حدث وقع ولا يمكن تغييره. ذلك التسليم الذى يتصف به المسلمون إزاء حتمية أحداث الماضى، وهو التسليم بأن ما حدث كان لابد أن يحدث وبالكيفية التى حدث بها، لا بغيرها - وهو ما يخطئ الغربيون فى فهمه بأنه نوع من الجبرية القدرية الموروثة فى الإسلام. والحقيقة أن تسليم المسلم خاص بالماضى الذى انتهى لا بالمستقبل:

أى أنه ليس رفضًا للفعل أو تجنب العمل والسعى، وهو لا يخرج عن كونه اعتبار ما حدث ليس إلا مشيئة الله.

أردف زيد: «عدا كل ذلك، لم يقس ابن سعود على شمّار، وهم يدركون ذلك، ألم يساندوه بعد ذلك بسيوفهم من ثلاثة أعوام حين تمرد ذلك الكلب الداويش وحاول إثارة فتنة؟».

كانوا بالفعل قد نضوا سيوفهم تحت راية ابن سعود. بكل شهامة المهزوم لم يحملوا ضغينة ضد ابن سعود ووقفوا معه ضد الداويش.فى العام المصيرى ١٩٢٩، حين اهتزت دعائم مملكة ابن سعود تحت وقع الهجمات التى شنها تمرد البدو الكبير الذى قاده فيصل الداويش، نهضت كل قبائل شمّار التى تحيا فى منطقة نجد بعد أن نحوا جانبًا العداوة التى كانت بينهم وبين الملك ذات يوم، والتفوا حوله حتى حققوا النصر على المتمردين. كان ذلك التصالح مشهوداً، بعد أن كان ابن سعود قد غزا مدينة حائل بقوة السلاح وبذلك استعاد سيطرة الجنوب على الشمال. كان التصالح مشهوداً وعظيماً بشكل أخص على ضوء تنافس تاريخى أعمق من أى خلافات قبلية وأعمق من أى تنافس على السلطة والقوة - بين قبائل شمار وشعوب جنوب نجد الذين ينتمى إليهم ابن سعود. وإلى حد كبير، كانت تلك الكراهية والنفور الفطريان بعيداً عن تنافس الجنوب والشمال والذى امتد بطول التاريخ العربى، والتى لها ما يقابلها فى دول كثيرة أخرى: وفى الغالب نجد أن اختلاف طفيف فى نمط وأسلوب الحياة يترتب عليه عداوات بين قبائل من المفترض أنها مرتبطة بعلاقات حميمة، عداوة قد تزيد من العداوة المترتبة على اختلافات عرقية بين أمم متجاورة.

باستثناء التنافس السياسى: كان هناك عنصر آخر لعب دوره فى إذكاء التنافس بين الشمال والجنوب. حدث ذلك فى جنوب نجد، فيما جاور الرياض، من مائتى عام مضت حين ظهر المصلح التصحيحى محمد بن عبد الوهاب، وأثار ذلك قبائل كثيرة قاومت إصلاحاته - كانت قبائل مسلمة اسمًا فقط - فقد دعا إلى ممارسة الدين فى شكله النقى، كانت الحركة ا لتصحيحية قد بزغت من بيت آل سعود الذى لم يكن

مشهوراً فى ذلك الوقت، ودعم زعماء مدينة صغيرة، هى مدينة دارية، المصلح محمد بن عبد الوهاب بالأسلحة النارية مما دفع الحركة الإصلاحية إلى موقف قوى، وخلال بضعة عقود جمع حوله أغلب مناطق شبه الجزيرة وعرفت الحركة باسم «الوهابية». وفى كل الحروب الوهابية والغزوات الإصلاحية التى قامت بها خلال المائة وخمسين عاماً الأخيرة، كان أهل الجنوب من رفعوا ألوية تنقية الدين، بينما سايرهم الشمال بنصف قلب وبلا اقتناع كامل، وبالرغم من أن قبائل شمار كانوا نظرياً تحت راية الوهابيين، إلا أن قلوبهم ظلت نائية عن الإصرار الإصلاحى لأهل الجنوب، ولأنهم كانوا يعيشون على الحدود القريبة من سوريا والعراق، فقد كانوا مرتبطين بهما بعلاقات تجارية مستديمة، واكتسب أهل شمار على مر الزمن حساً تجارياً عالياً واكتسبوا صفات المصالحة وإبرام الصفقات وترجيح كفة المصالح وهو ما لا يعرفه ولا يتصف به أهل الجنوب، فأهل الجنوب لا يعرفون إلا الوضوح الكامل وعلى مدى قرن ونصف القرن لم يشغلهم إلا رفع راية الجهاد فى حماس، وفى غطرسة رجال اعتبروا أنفسهم الممثلون الوحيدون للإسلام وأن كل مسلمين آخرين خارجون على العقيدة ومنشقون عنها.

على الرغم من ذلك، لم يكن الوهابيون بالتأكيد طائفة مستقلة. فالطائفة الدينية تقتضى وجود تعاليم مستقلة قاصرة على أتباعها. أما فى الوهابية لم تكن هناك تعاليم خاصة - على العكس: سعت تلك الحركة إلى نبذ كل المدخلات الغريبة والإضافات التى تسللت إلى الفكر الإسلامى عبر قرون طويلة، ودعت إلى العودة إلى جوهر تعاليم الإسلام كما جاء بها الرسول كان سعى الحركة إلى إجلاء وجه الدين وجوهره من كل ما شابه عبر القرون دون حلول وسطية ولا مساومة، سعياً عظيماً ومحاولة جليلة، وكان من الممكن أن تؤدى تلك الدعوة مع مرور الزمن إلى تحرير الإسلام تحريراً كلياً من كل ما شابه من مدخلات وخرافات أخفت الوجه الحقيقى للإسلام.

وفى الحقيقة، كانت كل الحركات الإسلامية التصحيحية فى العصور الحديثة، بدءاً من حركة «أهل الحديث» فى الهند، والحركة السنوسية فى شمال أفريقيا، وأفكار ودعوة جمال الدين الأفغانى، وأفكار محمد عبده المصرى، كانت كلها حركات تصحيحية

تستمد قوتها من قوة الدفع الروحية التى انطلقت فى القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب.

إلا أن تبنى أفكاره الإصلاحية على يد أهل نجد عانى من قصورين أعاقا نموها الطبعيى حتى تصبح قوة روحية متنامية.

جاء القصور من ضيق النظر الذى اتسم به اتباع الحركة وسعيهم إلى إجبار الناس على أداء الشعائر الدينية حرفيًا وبالأمر، متجاهلين أهمية النفاذ إلى الجوهر الروحى ومحتواه. القصور الثانى يعود كليًا إلى الشخصية العربية ذاتها، وهو تعصب الشخصية العربية وإحساسها بصواب الذات؛ والتى لا تسمع ولا تقبل وجود اختلاف مع الآخر: وهو مركب واضح فى الساميين كنقيض عكسى يؤدى إلى التراخى والتحلل من جوانب العقيدة وهو مركب مأساوى لدى العرب يجعلهم دائمًا ما يتأرجحون ما بين قطبين ولا يتخذون أبدًا طريقًا وسطًا. ففى وقت ما - من قرنين على وجه التقريب - كان عرب نجد أبعد عن الإسلام من أى شعوب إسلامية أخرى؛ وبعد ظهور محمد بن عبد الوهاب، اعتبروا أنفسهم لا مجرد أبطال وقادة للحركة الإصلاحية، بل أصحاب العقيدة الوحيدين والقيمين عليها.

تسرب الفساد إلى المعنى الروحى للحركة الوهابية - وهو الشوق والرغبة فى تجديد المجتمع الإسلامى، فى اللحظة التى سعت فيها إلى تحقيق أهدافها بالحصول على القوة الاجتماعية والسياسية وكان ذلك عند تأسيس المملكة فى نهاية القرن الثامن عشر وامتداد الحركة إلى أغلب أرجاء الجزيرة مع بدايات القرن التاسع عشر. وبمجرد أن أحرز أتباع محمد بن عبد الوهاب القوة الكافية، تحولت أفكاره إلى مومياوات محنطة: فالروحانيات لا يمكن أن تتحول إلى خادمة للقوة، كما أن القوة لا يمكن أن تصبح خادمة للروح.

إن تاريخ وهابيى نجد هو تاريخ أفكار إصلاحية دينية بزغت فى بدايتها على أجنحة الحماس والرغبة القوية والتطلع ثم سرعان ما ابتلعت فى جوف المتظاهرين بالقوة من المتعصبين. فكل القيم تدمر ذاتها بمجرد أن يزول عنها التوق والتشوق والحماس وتكف أن تكون متواضعة: هاروت! وماروت!

الفصل السادس

أحلام

[١]

أن تكن ضيفًا على أمير عربي كبير فذلك يعني أنك تعامل كصديق وضيف من كل من يتبعونه، من «رچاچيل»، وأصحاب المتاجر في عاصمته، بل حتى من قِبل بدو الصحراء في منطقة سلطته. ولا يبوح الضيف برغبة إلا وتتحقق له في الحال، طالما يمكن تحقيقها؛ من ساعة إلى أخرى يجد نفسه مشمولاً بدفء الكرم والترحاب والحب الذي يحيطه حتى لو كان في سوق المدينة، والذي لا يقل في دفئه عن المشاعر التي يلقاها في أروقة الحصن وردهاته وقاعاته.

لقيت المعاملة الكريمة ذاتها في كل زياراتي السابقة لمدينة «حائل»، كما لقيتها في اليومين اللذين قضيتهما هذه المرة ضيفًا على الأمير بن مسعد أمير مدينة «حائل» والمنطقة الشمالية. إذا رغبت في تناول قهوة سمعت على الفور صوت رنين الهاون الذي تطحن فيه حبوب البن المحمصة لإعداد قهوة طازجة. في الصباح، أحكي لزيد وأنا أحادثه على مسمع من أحد خدم الأمير عن سرج جميل رأيته بالسوق، في المساء أجد السرج تحت قدمي. يتحفنا الأمير بهداياه كل يوم: قفطان طويل من صوف كشمير، كوفية مزركشة، جلد غنم بغدادي أبيض يوضع على سرج الناقة، خنجر نجدي معقوف

بمقبض من الفضة.. وأنا.. المرتحل الذى لا يثقل نفسه بأحمال زائدة، لم أجد لدى ما أهديه للأمير ابن مسعد إلا خريطة مكبرة للجزيرة العربية بالإنجليزية، ترجمت عليها بمشقة أسماء المناطق بالعربية، وأسعدت الهدية الأمير بن مسعد.

كان كرم الأمير بن مسعد قريبًا من كرم الملك بن سعود: وهو ما لا أستغربه بأى حال حين أتذكر قرابتهما. لم يكونا فقط أبناء عمومة، بل إنهما اشتركا - منذ أن كان ابن سعود شابًا فى مقتبل عمره وابن مسعد فى صباه - فى مجابهة المصاعب التى قابلتهما معًا، وواجها معًا تقلبات الأحوال والأحلام المبكرة عند بداية تكوين المملكة. وعدا كل ذلك فقد ترسخت عرى علاقتهما بزواج الملك ابن سعود من جوهرة، شقيقة ابن مسعد، وهى السيدة التى كان لها شأن عظيم فى حياة الملك ابن سعود أكثر من أى امرأة أخرى ممن تزوجهن قبلها أو بعدها.

وعلى الرغم من أن كثيرًا من الناس حازوا صداقة الملك عبد العزيز بن سعود، فإن قليلاً منهم من حظى بمعرفة تفاصيل حياته الشخصية، وربما كان من بين أشد أموره خصوصية وتميزًا، ذلك الجانب الخاص برجولته وقدراته الفائقة فى أمور الحب والنساء، ولو أتيح لذلك الجانب أن يمضى على سجيته فربما كان قد أدى به إلى أبعد كثيرًا مما أنجزه فى ذلك الجانب. لقد وضعت قيود شديدة حول معرفة العدد غير المحدود من النساء اللاتى تزوجهن وطلقهن حتى إن المتابعين لشئون الجزيرة العربية من الأجانب اعتبروا أنه منغمس فى اللذات والمتع الحسية، إلا أن قليلين ممن عرفوه عن قرب كانوا يعلمون أن كل زيجة من زيجات ابن سعود - باستثناء زواجه من بنات قبائل حليفة لاعتبارات سياسية - لم يكن إلا رغبة غامضة لم تتحقق فى العثور على بديل لذلك الحب الكبير فى حياته والذى فقده وضاع منه بموت جوهرة.

كانت السيدة جوهرة، أم ولديه محمد وخالد هى حبه الكبير؛ وإلى الآن، بعد أن ماتت منذ ثلاثة عشر عامًا، لم يتحدث عنها الملك قط إلا واعترته غصة تبدو فى صوته.

لابد أنها كانت امرأة غير عادية - لا مجرد سيدة جميلة (فقد تزوج ابن سعود من جميلات كثيرات فى إقباله الدائم على الزواج)، إلا أنها قد وهبت تلك الحكمة

النسائية الغريزية النادرة التى تمازج بين متع الروح ومتع البدن. فى الغالب لم يكن ابن سعود يترك نفسه للانغماس العميق فى المشاعر العاطفية تجاه النساء، ويفسر ذلك سهولة زواجه وسهولة طلاقه لهن. أما مع جوهرة فقد كان يبدو كأنه عثر أخيراً على الإشباع الكامل للروح والبدن ولم يتكرر ذلك الإشباع من بعدها مع أية امرأة أخرى. وبالرغم من أنه كانت له زوجات أخريات أثناء حياتها، فإن مشاعره وكل حبه كان يحتفظ بها لها وحدها مكتملاً كما لو كانت الزوجة الوحيدة له. اعتاد أن يكتب فيها وعنها قصائد حب، وذات مرة، فى إحدى اللحظات التى انطلق معى فيها على سجيته، قال لى: «كلما كان العالم مظلمًا من حولى لا أتبين منه طريقاً للخروج من المخاطر التى تحيط بى والمصاعب التى تواجهنى، كنت أجلس وأكتب إليها قصيدة حب، وحين أنتهى منها، أجد العالم قد أضاء أمامى فجأة، وينكشف أمامى ما يجب على أن أفعله».

إلا أن جوهرة ماتت أثناء وباء الأنفلونزا الكبير عام ١٩١٩، وأودى الوباء أيضًا بحياة ابن الملك عبد العزيز البكر، وأكثر من أحبهم من أبنائه وهو الأمير تركى، وتركت تلك الخسارة المضاعفة جرحًا لم يندمل أبدًا فى أعماقه.

لم يكن حبه موجهاً إلى زوجة وابن فقط: فقد أحب أباه حبًا نادراً لا تراه إلا فى أقل البشر. كان أبوه - عبد الرحمن - والذى عرفته فى أعوامى المبكرة فى الرياض، عطوفًا وتقيًا، إلا أنه لم يكن بارز الصفات كابنه، كما لم يلعب دوراً متميزاً أثناء حياته. إلا أن ابن سعود بعد أن كوّن المملكة بمجهوده الشخصى وأصبح ملك البلاد بلا منازع، كان يسلك مع أبيه مسلكًا شديد التواضع حتى إنه لم يكن يسمح لنفسه ولا لغيره أبداً أن يضع قدمه فى غرفة من القلعة إذا كان أبوه عبد الرحمن فى غرفة تحتها ، لأنه كما كان يقول: «كيف أسمح لنفسى أو لغيرى أن يسير فوق رأس أبى؟».

لم يجلس أبدًا فى حضرة أبيه إلا إذا سمح له أبوه أن يجلس. مازلت أذكر المأزق الذى أوقعنى فيه تواضع الملك تجاه أبيه فى الرياض (أظن أن ذلك كان فى ديسمبر

١٩٢٧). كنت فى ذلك الوقت فى إحدى زياراتى المعتادة لوالد الملك فى جناحه بالقلعة الملكية؛ كنا جالسين على حشايا على الأرض، وكان والد الملك يحدثنى فى موضوع دينى محبب إلى قلبه. فجأة، دخل أحد أفراد الحاشية إلى الغرفة وأعلن: «الشيوخ قادمون»، فى اللحظة التالية كان ابن سعود يقف بالباب. بالطبع، أردت النهوض وهممت به، إلا أن الرجل الكبير أمسك معصمى ومنعنى من النهوض، كما لو كان يفهمنى أننى ضيفه. وأصابنى حرج شديد لا تعبر عنه الكلمات لبقائى جالساً، بينما كان الملك، بعد أن حيا أباه، واقفًا بالباب، كان من الواضح أنه ينتظر إذنًا من أبيه لدخول الغرفة؛ ويبدو أنه قد اعتاد ذلك من أبيه، لأنه قد غمز لى بعينه وشبه ابتسامة على وجهه حتى يزيل عنى الحرج. فى الوقت ذاته، استمر العجوز فى تفسيره وشرحه، كما لو لم تكن هناك أى مقاطعة لحديثه. وبعد بضع دقائق رفع بصره، وأومأ لابنه قائلاً: «ادخل يا بنى واجلس». كان الملك فى ذلك الوقت فى السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره.

بعد ذلك بعدة أشهر - وكنا بمكة فى ذلك الوقت - جاءت الأخبار للملك بأن أباه قد توفاه الله فى الرياض. لن أنسى ما حييت تلك النظرة المحدقة دون استيعاب أو فهم، ظل على ذلك بضع ثوان متطلعًا إلى من أبلغه، ثم راحت إمارات اليأس تغزو ملامحه ببطء، ذلك الوجه الذى اعتدنا أن نراه هادئًا جليلاً، ثم قفز من مجلسه وهو يصيح بصوت عال: «مات أبى»، وبخطوات واسعة جرى خارج الغرفة جارًا عباءته على الأرض من خلفه، ثم ركض على السلالم والحرس يجرون من خلفه وهو لا يدرى إلى أين يمضى، أو لماذا يمضى، ظل يصيح: «مات أبى، مات أبى»، وعلى مدى يومين بعد ذلك رفض أن يقابل أى إنسان، لم يتناول فيهما طعامًا ولا شرابًا وقضى النهار والليل فى صلاة متصلة.

كم من الأبناء فى منتصف أعمارهم، وكم من الملوك الذين كونوا ممالكهم بمجهودهم وقدراتهم قد حزنوا ذلك الحزن لوفاة الأب، مع أنه مات ميتة الشيخوخة الهادئة؟

[٢]

كوّن عبد العزيز بن سعود مملكته الواسعة الأرجاء بمجهوداته الشخصية تماماً. حين كان طفلاً، كانت أسرته قد فقدت آخر مظاهر قوتها فى مركز الجزيرة العربية على يدى من كانوا حلفاء وتابعين لهم فى يوم من الأيام وهم عائلة ابن رشيد الذين حكموا منطقة حائل. كانت تلك الأيام مريرة على عبد العزيز؛ فقد شهد الفتى الفخور والمتحفظ أميراً من خارج أسرته يحكم مدينة الرياض، مدينة آبائه وأجداده وهو الأمير ابن رشيد وأصبحت عائلة ابن سعود التى كانت تحكم ذات يوم كل الجزيرة العربية على وجه التقريب معزولة عن الحكم على أيدى ابن رشيد الذى لم يعد يخشاهم. وفى نهاية المطاف أصبح ذلك عبئًا لا يطاق على أبيه عبد الرحمن المحب للسلام؛ فغادر الرياض هو وكل عائلته، آملاً أن يقضى ما تبقى من عمره فى بيت صديقه القديم حاكم الكويت، إلا أنه لم يكن يعلم ما تخبئه الأقدار؛ لأنه لم يكن يعلم ما بقلب ابنه عبد العزيز.

من بين جميع أفراد العائلة لم تكن هناك إلا واحدة تشعر بما يحتويه ذلك القلب الجياش: كانت عمته، الأخت الصغرى لأبيه، لم أعرف عنهاالكثير، كل ما عرفته أن الملك كان يتحدث إليها بتأثر شديد كلما تحدث عن أيام شبابه المبكر، كان يقول: «أحبتنى ربما أكثر مما أحبت أبناءها، وحين كنا نجلس بمفردنا، كانت تجلسنى فى حجرها وتحكى لى عن الأشياء العظيمة التى لابد لى أن أفعلها حين أكبر، كانت تقول لى: لابد أن تستعيد عظمة بيت آل سعود، تخبرنى بذلك مرة بعد مرة، وتبدو أقوالها لى كأنها مداعبة: ولكن أحب أن أؤكد لك يا عُزيِّز(*) أن استعادة مجد آل سعود ليس نهاية المطاف؛ إذ لابد أيضًا أن تستعيد مجد الإسلام، الناس تحتاج من يقودهم على طريق الرسول الكريم، وستكون أنت ذلك القائد، وظلت أقوالها حية فى قلبى».

هل ظلت أقوالها بالفعل حية فى قلبه؟

(*) اسم تدليل لعبد العزيز. (المترجم).

كان ابن سعود طول حياته بأجمعها يحب الحديث عن الإسلام وكأنها رسالة أوكلت إليه، وحتى فى الأيام الأخيرة، حين بدا أن القوة الملكية أصبحت تفوق فى الأهمية البطولات السابقة فى سبيل المثاليات، نجحت فصاحته ودقة بيانه فى إقناع كثير من الناس - وربما هو ذاته - أن تلك المثاليات الإسلامية هى أهدافه التى يسعى إلى تحقيقها.

كانت الأوقات التى يستعيد فيها ذكريات الطفولة والصبا غالبًا ما تحدث خلال جلوسه مع المقربين من الأصدقاء فى الرياض، وكان ذلك يحدث عادة بعد صلاة العشاء. فبمجرد أن ينتهى المصلون من أداء صلاة العشاء فى مسجد القلعة. نجتمع حول الملك فى إحدى الغرف لنستمع على مدى ساعة إلى أحداث من سيرة الرسول أو تفسير لآيات القرآن. بعد ذلك يصطفى الملك اثنين أو ثلاثة من خلصائه ليجالسوه فى جناحه الخاص.

أتذكر ذات ليلة، حين كنا نغادر الغرفة التى كنا نجلس بها بعد صلاة العشاء، أدهشنى من جديد الطول الفارع للملك الذى فاق كثيرًا كل من حوله. واعتقد أنه قد لمح اهتمامى ودهشتى ونظرة الإعجاب التى لم أتمكن من إخفائها، فقد رأيته يبتسم ابتسامة هينة ساحرة لا يمكن وصفها وأمسك بيدى وسألنى: «لماذا تنظر إلىّ هكذا يا محمد؟».

قلت له: «كنت أفكر، أطال الله عمرك، أنه لا يمكن أن يخطئ أحد فى تمييز الملك وهو بين حشد من الناس فرأس الملك يكون فوق كل الرؤوس فى أى زحام».

ضحك ابن سعود، وهو مازال ممسكًا بيدى متقدمًا ببطء عبر الردهة، وقال: «نعم، من المبهج أن أكون بهذا الطول، إلا أنه جاء على وقت لم يكن فيه ذلك الطول إلا سببًا من أسباب شقائى. كان ذلك من أعوام طويلة مضت حين كنت صبيًا وكنت أعيش وقتها فى قلعة الشيخ مبارك حاكم الكويت. كنت نحيفًا جدًا وطويلاً جدًا، أكثر طولاً من أى صبى فى مثل سنى، وكان باقى الصبية فى القلعة - أولئك المنتمين لعائلة الشيخ مبارك، بل حتى المنتمين إلى عائلتنا.. يتخذونى هدفًا لسخريتهم وفكاهتهم، كأننى فلتة أو أعجوبة، وقد سبب لى ذلك ضيقًا شديدًا، حتى ظننت أحيانًا أننى غير طبيعى. كنت خجولاً

من طول قامتى المفرط حتى إننى كنت أحاول أن أخفض رأسى وعنقى بين كتفى لأقصر من قامتى حين كنت أسير عبر أرجاء القصر أو فى شوارع الكويت».

كنا قد وصلنا إلى جناح الملك. وكان ابنه الأكبر الأمير سعود - ولى العهد - بانتظار أبيه هناك. كان فى مثل عمرى، وبالرغم من أنه لم يكن فى طول أبيه إلا أنه كان أكثر تجهمًا، كما لم يكن له صفات أبيه من حيوية فائقة ودفء المعاملة وحميمية المودة. إلا أنه كان عطوفًا محبوبًا من شعبه.

جلس الملك على حشية من الحشايا المتناثرة على امتداد الغرفة وأشار لنا بالجلوس، ثم أمر: «قهوة» فراح النداء يتردد عبر الممرات فى تتابع سريع، نداء بعد آخر: «قهوة»، «قهوة»، حتى يصل إلى مطبخ إعداد قهوة الملك على بعد بضع غرف من مكاننا: فى لحظات يظهر أحد أفراد الحاشية وخنجره الذهبى فى منطقته وإبريق القهوة النحاس فى يد وأقداح القهوة الصغيرة باليد الأخرى. يقدم القدح الأول إلى الملك ثم يوزع باقى الأقداح على الحاضرين بترتيب جلوسهم بعد الملك. فى مثل تلك الجلسات غير الرسمية، يتحدث ابن سعود على سجيته عن كل ما وقع له أو صادفه - أو عن وقائع وأحداث وقعت فى دول أخرى من العالم، عن اختراع جديد وصلت أخباره إلى مسامعه، عن شعوب وعادات وهيئات، وفوق كل ذلك، كان يتحدث عن خبراته وتجاربه الشخصية، ويشجع الحضور للمساهمة فى الحديث أو الحوار الدائر. فى ذلك المساء، بدأ الأمير سعود فى إدارة دفة الحديث حين استدار إلى ضاحكًا وهو يقول: «أحد من الناس، قال لى اليوم إنه يشك فى أمرك يا محمد. قال إنه ليس متيقنًا على الإطلاق إن كنت جاسوسًا إنجليزيًا يدعى الإسلام.. ولكن لا تنزعج؛ فقد أكدت له أنك مسلم قولاً وفعلاً».

لم أتمكن من إخفاء عبوسى، وأجبته: «هذا كرم كبير منك يا أمير، أطال الله عمرك، ولكن من أين لك بذلك اليقين؟ ألا يعلم الله وحده ما تخفى الصدور؟».

رد الأمير: «هذا حقيقى، إلا أننى لدى بصيرة خاصة؛ فقد رأيت حلمًا فى الأسبوع الماضى وهبنى تلك البصيرة فيما يخصك... كنت أقف فى ذلك الحلم أمام

مسجد وأنا أنظر إلى المئذنة، وفجأة ظهر رجل فى شرفة المئذنة، كور كفيه حول فمه وراح يرفع الأذان: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - وحين دققت النظر، وجدت أن المؤذن هو أنت. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين - على الرغم من أننى لم أشك فى ذلك قط - أنك مسلم حقيقى. فحلم يعلو فيه اسم الله لا يمكن أن يكون هراءً».

تأثرت بشدة بذلك التأكيد من ابن الملك، وبإيماءة الملك الراضية تصديقًا على كلام ابنه الأمير، ثم التقط الملك طرف الحديث وعلق قائلاً: «كثيرًا ما ينير الله بالفعل قلوبنا خلال الأحلام لينبئنا أحيانًا بما يمكن أن يواجهنا فى الأيام القادمة وأحيانًا ينير لنا ما غمض أمامنا من حاضر. ألم يمر بك شىء مشابه يامحمد؟».

قلت: «بالفعل حدث لى ذلك يا إمام، من زمن طويل مضى، زمن يسبق كثيرًا أى فكرة لى عن اعتناق الإسلام - وحتى قبل أن أضع قدمى فى أى دولة إسلامية. كنت فى ذلك الوقت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرى أو نحو ذلك، وكنت مازلت أعيش بمنزل أسرتى بمدينة «ڤيينا». وكنت شديد الولع بعلم حياة الإنسان الداخلية (كان ذلك أقرب تعريف للتحليل النفسى يمكننى أن أذكره للملك) لذلك حرصت على الاحتفاظ بأوراق وقلم بجوار فراشى حتى أتمكن من تدوين ما أتذكره من أحلام بمجرد تيقظى من النوم. وبتلك الوسيلة كنت أدون الأحلام ليس بدقة كاملة بالطبع ولكن بطريقة تحفظها من النسيان بعد ذلك. فى ذلك الحلم الذى رأيته، وجدت نفسى فى «برلين» متنقلاً فى قطار الأنفاق الذى يستعملونه هناك - كان القطار يمضى أحيانًا فى أنفاق تحت الأرض، وأحيانًا فوق قناطر عالية فوق سطح الأرض.

وازدحمت العربة التى كنت بها بحشد كبير من ا لبشر - كانوا كثيرين حتى إنه تعذر على أن أجد مقعدًا أجلس عليه، وكلهم وقوف متلاصقون، دون أن أجد حتى مسافة أو فُرجة صغيرة للحركة؛ ولم يكن هناك ضوء إلا ضوءًا شاحبًا خافتًا ينبعث من مصباح كهربى ضعيف بالعربة. بعد فترة خرج القطار من النفق الذى كان به، إلا أنه لم يسر على واحدة من تلك القناطر العالية، فقد رأيته يسير فى واد مهجور منعزل هائل

الاتسـاع، إلا أنه واد من الطين غير ذى زرع، فانغرست عجلات القطار فى ذلك الطين حتى أنه عجز عن السير، لا للأمام ولا للخلف.

«نزل كل المسافرين، وأنا منهم، من العربة وبدأنا فى التطلع حولنا. بدا الوادى من حولنا بلا نهاية، خاويًا وقاحلاً بلا نبتة عشب، ولا بيت ولا حتى حجر - أصابت الناس حيرة وارتباك: فقد أصبحنا جميعًا معزولين فى ذلك المكان، فكيف نجد سبيلاً إلى العودة حيث يحيا الناس؟ ظهر ضوء شفق فوق الوادى الهائل الاتسـاع، كما لو كان تباشير ضوء فجر.

«إلا أننى لم أجد بنفسى حيرة ولا ارتباكًا، فقد شققت طريقى مبتعدًا عن ذلك التجمع البشرى، ولدهشتى، وعلى مسافة عشر خطوات تقريبًا، كانت هناك ناقة جاثمة على الأرض، بسرجها ولجامها - بالطريقة ذاتها التى رأيت الجمال تسرج بها هنا يا إمام - وعلى السرج كان يجلس رجل يضع عباءة مخططة باللونين، الأبيض والبنى وأكمامها قصيرة. وكانت كوفيته تخفى وجهه حتى إننى لم أميز ملامحه. ملأنى يقين أن تلك الناقة المباركة كانت بانتظارى، وأن راكبها الذى لم تصدر عنه حركة هو دليلى ومرشدى؛ وهكذا، دون كلمة واحدة اعتليت ظهر الناقة خلفه مثلما يركب الرديف هنا فى الجزيرة. فى لحظة، نهضت الناقة وانطلقت فى خطوات خفيفة واسعة سريعة، أحسست بسعادة لا يمكن أن أصفها بالكلمات تشيع داخلى. رحلنا بتلك الخطوات السريعة الخفيفة للناقة لزمن بدا لى كأنه ساعات، ثم أيام، ثم أشهر، حتى فقدت أى إحساس بالزمن، مع كل خطوة من خطوات الناقدة كانت سعادتى تزداد وتتوهج، واستمر ذلك حتى شعرت كأننى أهيم فى الهواء. فى النهاية، بدأ الأفق على يميننا فى التوهج كما يتوهج الأفق قبل شروق الشمس. إلا أننى رأيت فى الأفق البعيد ضوءًا آخر: كان ذلك الضوء يأتى من خلف بوابة ضخمة قائمة على عمودين - كان نور أبيض مبهر لا يشبه ضوء الشمس المشرقة التى كانت على يميننا - كان نورًا بلا حرارة يزداد تألقًا كلما اقتربنا منه ومن البوابة وأشـاع بين جوانحى سعادة تفوق أى سعادة يمكن للكلمات أن تصفها. وكلما اقتربنا من البوابة ونورها، أسمع صوتًا من مكان ما يعلن: «هذه آخر مدينة بالغرب» - ثم استيقظت».

تعجب الملك ابن سعود قائلاً: «ياسبحان الله، ألم يعن ذلك الحلم أن الله سيهديك إلى نور الإسلام؟».

هززت رأسي بالنفي: «كلا، أطال الله عمرك، فكيف لى أن أعرف ذلك؟ لم يرد الإسلام على ذهنى قبل ذلك، ولم ألتق حتى ذلك اليوم بأى مسلم.. بعد ذلك بسبعة أعوام، وكنت قد نسيت ذلك الحلم من زمن طويل، اعتنقت الإسلام. لم أتذكر ذلك الحلم إلا مؤخراً حين وجدت الأوراق التى سجلت عليها الحلم فى حينه، كنت قد سجلته وقتها كما رأيته بتفاصيله فى منامى بمجرد أن استيقظت».

قال الملك: «هى نعمة أظهرها الله لك فى الحلم يا بنى! ألم تتبين ذلك بوضوح؟ ذلك الحشد من البشر وأنت بينهم، متجهين إلى وجهة ليس فيها إلا الضياع بلا مخرج، وتنتابهم حيرة: ألا يرمز أولئك الناس فى حيرتهم إلى ما ذكرته سورة الفاتحة من القرآن فى كلمة «الضالين»؟ وتلك الناقة وراكبها اللذان كانا ينتظرانك: ألا يقابل ذلك ما ذكرته السورة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ والذى ذكرت بمواضع كثيرة من القرآن؟ وراكب الناقة الذى لم يتحدث إليك ولم تتمكن من رؤية ملامح وجهه: من يمكن أن يكون ذلك الراكب غير الرسول ﷺ؟ لقد كان يحب أن يلبس جلباباً قصير الأكمام... ألم تذكر كتب السنة أن ظهوره فى الحلم لغير مسلم، أو لأولئك الذين لم يسلموا بعد، يكون وجهه دائماً غير ظاهر؟ وذلك النور الباهر بلا حرارة الذى ظهر فى الأفق: ماذا يمكن أن يكون غير وعد بنور الإيمان الذى يضىء دون أن يحرق؟ ولم تصل إلى ذلك النور فى الحلم لأنك كما قلت لم تهتد إلى الإسلام إلا بعد ذلك بأعوام...».

قلت: «قد يكون الأمر كذلك يا طويل العمر... ولكن، ما المقصود بأقصى مدينة فى الغرب والتى كانت البوابة عند الأفق تؤدى إليها؟ فالبرغم من أى شىء لم يقودنى اهتدائى إلى الإسلام إلى الغرب: بل على العكس قادنى بعيداً عن الغرب».

أطرق ابن سعود فى صمت وراح يفكر، ثم رفع رأسه ووجهه تعلوه تلك الابتسامة الحلوة التى أحبها، وقال: «ألا يعنى ذلك يا محمد أن اهتداءك للإسلام قد يكون أقصى نقطة فى الغرب من حياتك، وأنها ستكف أن تكون حياتك بعد ذلك؟».

بعد برهة تحدث الملك من جديد: «لا يعلم الغيب إلا الله. إلا أن الله يشاء فى بعض الأحوال أن يهبنا رؤية، لمحة مما يمكن أن يحدث فى المستقبل أنا نفسى قد رأيت مثل تلك الرؤى مرتين أو ثلاث، وقد تحقق ما رأيته بالفعل. واحدة من تلك الرؤى جلعتنى ما أنا عليه الآن.. كنت فى السابعة عشرة من عمرى فى ذلك الحين، كنا نحيا كمنفيين بالكويت، إلا أننى لم أكن أحتمل أن يحكم ابن رشيد أرض موطنى. كنت ألح على أبى - رحمه الله - وأترجاه «فلنحارب يا أبى، لنطرد ابن رشيد من أرضنا، لا يوجد من هو أحق بعرش الرياض منك، إلا أن أبى كان يتغاضى عن طلباتى العاصفة وكأنها حماسات خيالية، ويذكرنى أن ابن رشيد الآن أقوى حاكم فى الجزيرة، وأنه يفرض سيطرته على مملكة تمتد من صحراء سوريا فى الشمال، حتى صحراء الربع الخالى فى الجنوب، وأن كل البدو يخشونه ويخشون بطشه.

وفى ليلة رأيت رؤيا غريبة. رأيت نفسى على صهوة جواد فى أرض جرداء فى ظلام دامس، ورأيت محمد بن رشيد على صهوة جواد آخر، لم يكن أى منا مسلحًا، إلا أن ابن رشيد كان يحمل بيده مصباحًا منيرًا ويرفعه عاليًا. حين رآنى اقترب منه، رأيت العداوة فى نظراته واستدار بجواده ولكزه وانطلق به؛ إلا أننى طاردته، حتى قبضت على عباءته من كتفه، ثم أطبقت على ذراعه وانتزعت المصباح من يده - ونفخت فيه وأطفأته. حين استيقظت، تأكدت على وجه اليقين أن الله قد قدر لى أن أستعيد الحكم من بيت ابن رشيد...

* * *

فى السنة التى رأى فيها عبد العزيز ذلك الحلم، وكان ذلك عام ١٨٩٧، مات محمد بن رشيد. وبدا ذلك فى نظر ابن سعود لحظة مواتية للهجوم، إلا أن أباه عبد الرحمن، لم يكن يميل إلى المخاطرة بالحياة الآمنة التى يحياها بالكويت، ويخرج للقيام بمهمة مشكوك فى نتائجها، إلا أن إصرار الابن وحماسه غلبا تحفظ الأب، وفى النهاية استسلم الأب. وبمساعدة صديقه الشيخ مبارك حاكم الكويت، جمع بعض قبائل البدو

التى كانت مازالت على إخلاصها وولائها لعائلة ابن سعود، وهاجموا قوات ابن رشيد بالطريقة التقليدية العربية، معركة بالخيالة وراكبى الجمال وحاملى الرايات والبيارق، وحسمت بسهولة نظراً لقوة جيش ابن رشيد مقارنة بقوات ابن سعود المحدودة وعاد بعدها أبوه إلى الكويت وقد أراحه ذلك أكثر مما سبب له من ضيق، وقد قرر ألا يعكر صفو شيخوخته بمغامرات حربية جديدة إلا أن الابن لم يستسلم بالسهولة نفسها. كان دائمًا ما يتذكر الرؤية التى رآها فى المنام والتى انتصر فيها على ابن رشيد؛ وحين جدد الأب دعواه بحقة فى عرش نجد، كانت تلك الرؤية ما حثت الشاب عبد العزيز على أن يأخذ على عاتقه تلك المهمة الخطيرة. ارتبط بعلاقة قوية مع مجموعة من الأصدقاء الشباب - كان من بينهم أبناء عمومته عبد الله بن جلوى وابن مسعد وجمعوا معهم بعض المغامرين من البدو، حتى بلغ عدد فصيلهم أربعين رجلاً.

انطلقوا خارجين من الكويت خلسة، دون بيارق ولا طبول أو أغانى حرب حماسية؛ وتجنبوا السير على طرق القوافل، يختبئون نهاراً ويسيرون ليلاً، حتى وصلوا مشارف الرياض ونزلوا بوادٍ مهجور. فى اليوم نفسه، انتقى عبد العزيز خمسة رفاق من الأربعين رجلاً، وخاطب الباقين قائلاً: «نحن الستة سنضع أرواحنا اليوم بين يدى الله. سنتوجه إلى الرياض - لنغزوها أو لنفقدها إلى الأبد. إن سمعتم أصوات قتال تأتيكم من المدينة، انهضوا مسرعين لمعاونتنا؛ أما إذا لم يصلكم أى شىء حتى غروب شمس الغد، فاعلموا أنَّا قد متنا، وليرحمنا الله. إن حدث ذلك، عليكم بالعودة من حيث جئنا سراً وبأقصى سرعة إلى الكويت».

وانطلق الرجال الستة سيراً على الأقدام. عند حلول الظلام وصلوا مدينة الرياض ودخلوها من جانب مهدم من أسوارها كان قد هدمه محمد بن رشيد قبل ذلك بأعوام ليذل به أهلها كلما رأوا أسوار مدينتهم منهارة. ذهبوا وهم يخفون أسلحتهم تحت عباءاتهم رأسًا إلى بيت الأمير. كان البيت مغلقًا فقد كان الأمير يخشى على حياته من أهل الرياض، وكان اعتاد أن يقضى لياليه فى القلعة المقابلة للمنزل. دق عبد العزيز ورفاقه الباب؛ فتح لهم عبد، تغلبوا عليه فى لمح البصر وأوثقوه وكمموا فمه؛ وقاموا

بنفس الأمر مع من كانوا بالمنزل - وكانوا في تلك الساعة بضعة خدم وامرأة. وتناول المغامرون الستة بعض التمر من خزين الأمير وقضوا ليلتهم يقرأون القرآن بالتناوب.

في الصباح، فتحت أبواب القلعة، وخرج الأمير من بابها، يحيط به الحراس والعبيد. صاح عبد العزيز: «يا الله، بيدك روح ابن سعود» وهجم هو ورفاقه الخمسة بسيوفهم المجردة من أغمادها على عدوهم المأخوذ. قذف عبد الله بن جلوى رمحه بقوة على الأمير، إلا أنه تنحى في الثانية الأخيرة فأخطأه الرمح ورشق في الجدار الطيني للقلعة وعوده يتذبذب ويئز - مازال الرمح مرشوقًا بموضعه حتى اليوم - وتقهقر الأمير في خوف وفزع إلى داخل القلعة بينما طارده عبد الله بمفرده. وهاجم عبد العزيز والأربعة رجال الذين معه حرس الأمير، الذين كانوا مأخوذين رغم تفوقهم في العدد من هول المفاجأة التي أربكتهم. بعد لحظات ظهر الأمير على سطح القلعة وكان عبد الله بن جلوى يحاصره ويسد عليه مسالك الهرب، وراح يطلب الرحمة التي لم تكن مضمونة ولا مطلوبة في تلك اللحظات العصيبة؛ وحين تقهقر حتى سور السطح وسقط عليه تلقى طعنة سيف قاتلة، وصاح عبد العزيز بأعلى صوته من أسفل، «هلموا يارجال الرياض، ها أنذا، عبد العزيز، ابن عبد الرحمن آل سعود، حاكمكم الشرعي» فهرع أهل الرياض يحملون سلاحهم لنصرة رجلهم ، وأقبل رفاقه من خارج المدينة في هجوم صاعق وهم على جمالهم من أبواب المدينة وتغلبوا على كل ما واجههم من مقاومة كالريح العاصف. خلال ساعة، كان عبد العزيز قد أصبح حاكم مدينة الرياض بلا منازع.

كان ذلك عام ١٩٠١، كان عمره آنذاك واحد وعشرين عامًا. أنهى مرحلة شبابه ودخل المرحلة الثانية من حياته، مرحلة الرجل الناضج، والحاكم.

خطوة بعد أخرى، ومنطقة بعد منطقة استعاد ابن سعود كل نجد من آل رشيد، ودفعهم إلى التقهقر والعودة إلى ديارهم في جبل شمار وإلى عاصمتهم في حائل. كان ذلك التمدد واسترداد الأرض يتم كما لو كان تحت تخطيط وإشراف مجموعة من قادة وهيئة حربية متمرسة بالخرائط وتخطيط المعارك والاتصالات وتوفير المؤن وتأمين الطرق ووعي بمفاهيم الجغرافيا السياسية - بالرغم من أن ابن سعود لم تكن لديه القيادات

المؤهلة ولم تقع عيناه على خريطة من قبل - كانت غزواته تتم فى نطاقات حلزونية مركزها الثابت مدينة الرياض، لم يتخذ أبداً قراراً بالهجوم على مدينة أو منطقة إلا إذا كانت المناطق التى سبق غزوها مؤمنة تماماً وتحت سيطرة كاملة من قواته. فى البداية اتجه إلى ما يلى الرياض من الشرق والشمال، ثم مد نفوذه إلى المناطق الغربية من الرياض. كان زحفه إلى الشمال بطيئاً، فقد كان ابن رشيد مازال يمتلك قوات لا يستهان بها كما كان مدعوماً من الأتراك الذين تحالفوا معه من عقود سابقة. كما أعاق ابن سعود فقره: فلم تكن المنطقة الجنوبية من نجد تدر عليه ما يكفى من عوائد لتمويل قوات كبيرة من المقاتلين لمدى زمنى طويل.

أخبرنى ابن سعود ذات مرة: «فى يوم من الأيام كنت فقيراً إلى درجة دفعتنى إلى رهن سيوف مرصعة بأحجار كريمة كان قد أهداها إلىَّ الشيخ مبارك حاكم الكويت - رهنتها لدى مراب يهودى بالكويت. لم يكن بإمكانى أن أوفر غطاءً على سرج جملى - فوضعت بدلاً عنه أجولة فارغة من التى توضع تحت قرب الماء على الجمال».

كانت هناك مشكلة أخرى جعلت الأمر فى غاية المشقة والعسر على ابن سعود: وهى مشكلة قبائل البدو.

فعلى الرغم من المدن والقرى الموجودة بالمنطقة المركزية فإن أغلب سكانها كانوا قبائل بدوية. وكان موقفهم الذى يتخذونه مع عبد العزيز أو ضده يحدد بشكل كبير نتائج المعارك بينه وبين ابن رشيد.

كان البدو متقلبين ويبدلون مواقفهم بسهولة طبقاً لما يرونه من رجحان كفة طرف على آخر فى أى لحظة، أو يوالون من يتوسمون أنه سيهبهم غنائم أكثر. وكان منهم فيصل الداويش، زعيم قبائل مطير، الذى كان انحيازه إلى أحد الجانبين يرجح كفته على الآخر. كان يذهب إلى حائل ويمضى من عندهم محملاً بالهدايا والهبات، وفى أوقات أخرى يدير ظهره لابن رشيد ويفد على الرياض ويقسم يمين الولاء لابن سعود - ليخونه بعد شهر، لم يكن مخلصاً لأحد، كان شجاعاً وجشعاً ويتملكه طمع وتطلع هائل للقوة والسلطة، وكثير ما كانت مواقفه سبباً فى ليالٍ كثيرة قضاها ابن سعود بعيون مسهدة جفاها النوم.

بينما كان ابن سعود محاصراً بكل تلك المشاكل، واتته فكرة بدا الغرض منها فى البداية وكأنه غرض سياسى، إلا أنها تطورت ونمت وتحولت إلى فكرة عظيمة تبين أنها من الممكن أن تغير وجه كل الجزيرة العربية: كانت الخطة تهدف إلى تسكين القبائل المرتحلة المتنقلة. كان من الواضح أن مجرد تسكين تلك القبائل فى أماكن ثابتة لن يكون متاحاً لها اللعب على الجانبين المتحاربين. أما حياتهم كقبائل مرتحلة فقد كانت تجعل من السهل عليهم فى أى لحظة حل خيامهم فى وقت قصير ويرحلون بقطعان أغنامهم وإبلهم جيئة وذهاباً، من جانب إلى جانب مضاد، والعودة متى غيروا رأيهم، أما إذا استقروا فإن لجوءهم إلى نقل ولائهم إلى جانب آخر سيهددهم بفقد ممتلكاتهم المستقرة من منازل وقطعان إبل وأغنام: ولا يوجد ما هو أعز وأغلى على البدوى من ممتلكاته.

جعل ابن سعود من مسألة استقرار البدو من أهم نقاط برنامجه. وقد دعم هذا الاتجاه ما تنص عليه تعاليم الإسلام، التى كانت تعلى من شأن المستقر على المرتحل. وأرسل الملك معلمين من ا لمشايخ ليغرسوا تلك القيمة فى نفوس البدو ويلقنونهم تعاليم الإسلام الصحيحة ولم يكن يتوقع نجاحاً كبيراً. كان تنظيم الإخوان - وهو الاسم الذى أطلقه البدو الذين أخذوا فى الاستقرار على أنفسهم - قد بدأ يتخذ شكلاً وكان أول شكل مستقر للإخوان مكون من علوا - مطير، وهى القبائل التى ينتمى إليها الداويش؛ أما المنطقة التى استقروا بها وهى منطقة الأرطاوية، فقد نمت خلال بضع سنوات وتحولت إلى مدينة بلغ عددسكانها من البدو ثلاثين ألفاً، ثم تبعتهم قبائل أخرى من البدو فى الاستقرار.

تحول الحماس الدينى للإخوان وميلهم لخوض الحروب إلى قوة جديدة فى يد ابن سعود، وبدأت حروبه من ذلك الوقت تكتسب شكلاً جديداً: اكتسبت وجه الحماس الدينى الذى يخوض المعارك لا من أجل مكاسب دنيوية بل من أجل إعلاء شأن العقيدة. أما بالنسبة للإخوان، فقد كانت الولادة الجديدة للإيمان تحتوى على الأقل على مضمون أشمل من المضامين الشخصية الذاتية. كانوا يلتزمون بالعقيدة وتعاليمها بلا تهاون أو تحريف ملتزمين بالتعاليم الإصلاحية للمصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب التى أعلنها

فى القرن الثامن عشر (كان يستهدف منها استعادة الوجه الحقيقى للإسلام فى نقائه الأول «ونبذ» كل البدع التى أدخلت إليه على مدى العصور)، كان الإخوان بلا أدنى شك يمتلئون حماساً يغذيه إحساس مبالغ فيه بأنهم يمثلون الوجه الصحيح والوحيد للإسلام؛ وما تاقوا إليه أكثر من أى شىء آخر لم يكن الحق المطلق بقدر ما كان تأسيس مجتمع جديد يتسم بالعدل، ويمكن أن يسمى بحق مجتمعاً إسلامياً.

حقيقة، كانت مفاهيم أغلبهم مفاهيماً بدائية، وكان حماسهم يتسم بالتعصب الزائد؛ ولو تم تعليمهم وإرشادهم بشكل أفضل مع إيمانهم الدينى العميق لكان ذلك قد خلق منهم نواة أصضيلة وحقيقية واجتماعية وروحية لبعث جديد لكل الجزيرة العربية.

ولسوء الحظ، لم يتمكن ابن سعود من التقاط تلك الرؤية وما يمكن أن يترتب عليها من فوائد وظل قانعاً وراضياً بما هم عليه من مظاهر بدائية وفهم سطحى للدين وابتعادهم عن المعارف الدنيوية - فى الحقيقة، لم يفعل لهم إلا ما وجده بالكاد ضرورياً للحفاظ على حماسهم الدينى. وبعبارة أخرى، لم ير ابن سعود فى حركة الإخوان إلا قوة فى يد السلطة. وفى الأعوام الأخيرة قدر لهذا القصور أن ينقلب ويصبح قوة مضادة تهدد المملكة التى شيدها بجهده، وخلق ذلك أول انطباع مبكر بنقص العبقرية الداخلية التى توقع شعبه أن يتصف بها، إلا أن خيبة أمل الإخوان فى ملكهم وخيبة أمل الملك فى الإخوان فقد نتجت عن عدم فهم متبادل من زمن طويل....

فى عام ١٩١٣، وبتلك القوة الضاربة للإخوان تحت إمرة الملك، وجد ابن سعود أنه قد أصبح قوياً بما يمكنه من استعادة منطقة «الحسا» على الخليج الفارسى، والتى كانت تابعة لنجد، إلا أن الأتراك كانوا قد احتلوها قبل ذلك بخمسين عاماً.

لم تكن محاربة الأتراك بالأمر الجديد على ابن سعود؛ فقد واجه قبل ذلك فصائل المدفعية التركية التى كانت تدعم ابن رشيد، إلا أن الهجوم على «الحسا»، التى كانت تحت السيطرة التركية المباشرة، كان يحمل وجهاً مختلفاً: سيضعه مثل ذلك الهجوم فى صدام مباشر مع قوة عظمى. لم يكن أمام ابن سعود اختيارات أخرى. فإن لم يسترد

منطقة الحسا بموانيها، ستظل صلاته بالعالم الخارجى مقطوعة، ولن يتمكن من الحصول على احتياجاته الأساسية من السلاح والذخيرة وضرورات الحياة اللازمة لأى جيش. برر الاحتياج مواجهة ذلك الخطر الكبير؛ ولكن المخاطرة كانت جسيمة، خاصة، إذا ترتب عليها الانغماس فى حروب مباشرة ضد الأتراك، وتردد ابن سعود كثيراً قبل أن يتخذ قرار مهاجمة «الحسا» وعاصمتها، مدينة «الهفوف». حتى اليوم مازال الملك مغرماً بإعادة سرد الظروف التى اتخذ فى ظلها قرار مهاجمة الأتراك فى «الحسا» لانتزاعها منهم: يروى الملك:

«كنا قد أصبحنا على مشارف الهفوف. من فوق التل الذى كنا عليه كنت أرى أسوار القلعة الحصينة التى تشرف على مدينة الهفوف. كانت الحيرة تملأ قلبى فى الموازنة بين المكاسب والمخاطر التى قد تنجم عن مهاجمة الهفوف. أحسست بالتعب، واشتقت للهدوء والأمان وإلى بيتى، وحين ورد البيت على ذهنى، طاف بخيالى وجه زوجتى جوهرة، وراحت تتوارد إلى ذهنى القصائد الشعرية التى يمكن أن أقولها لها لو كانت بجانبى فى تلك اللحظة.. وقبل أن أنتبه من ذلك، وجدت نفسى مستغرقاً فى تأليف قصيدة شعرية لها، نسيت تماماً أين أنا كما نسيت القرار الخطير الذى أتردد فى اتخاذه، وبمجرد أن اكتملت القصيدة فى ذهنى كتبتها، وضعتها فى مغلف، وأمرت أحد حملة الرسائل: «خذ أسرع ناقتين لديكم، واذهب إلى الرياض دون توقف وسلم هذه لأم محمد»، وفى الوقت الذى كاد فيه الرسول أن يختفى فى زوبعة الرمال المثارة من انطلاق الناقتين، وجدت نفسى فجأة أتخذ قرار الحرب الذى كنت متردداً فى اختياره: سأهاجم الهفوف، وسيكتب الله النصر لى».

ثبت أن ثقته كانت فى موضعها؛ فقد كان الهجوم جريئاً، اجتاح مقاتلوه القلعة، واستسلمت القوات التركية، وسمح لهم الملك بالانسحاب بأسلحتهم ومعداتهم إلى الساحل؛ حيث رحلوا بالبحر إلى البصرة، إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن لتسلم بانتزاع الهفوف منهم بهذه السهولة. اتخذت حكومة إستانبول العثمانية قراراً بتجهيز حملة عسكرية لمعاقبة ابن سعود واسترداد الهفوف. ولكن قبل تنفيذ القرار، انفجرت

معارك الحرب العالمية، مما أجبر الأتراك على توظيف كل قواتهم العسكرية وتوجيهها إلى معارك أهم؛ وعندما انتهت الحرب،كانت الإمبراطورية العثمانية قد انهارت.

ومع حرمان قوات ابن رشيد من الدعم التركي، انحصر وجودهم فى المناطق الشمالية المتاخمة لمناطق النفوذ البريطاني والفرنسي، ولم تظهر لهم بعد ذلك أى مقاومة فعالة. وبقيادة فيصل الداويش - الذى أصبح من أشجع أنصار ابن سعود - استولت قوات الملك على مدينة «حائل» عام ١٩٢١ - وفقد بيت آل رشيد آخر مدينة كانت تحت سيطرتهم.

أما قمة توسعات ابن سعود فقد حدثت فى ١٩٢٤ - ١٩٢٥، حين غزا الحجاز، بما فيها من مدن، مكة والمدينة وجدة، وطرد أسرة الشريف حسين التى كانت قد استولت على السلطة فى الحجاز بعد ثورة الشريف حسين بدعم بريطانى ضد السلطة التركية عام ١٩١٦، وبغزوه للأراضى المقدسة علا نجمه فى العالم الخارجي، وكان قد بلغ فى ذلك الوقت الخامسة والأربعين من عمره.

أشاع صعوده غير المسبوق إلى حيازة السلطة والقوة فى بلد عربى إسلامى مستقل، فى الوقت الذى كانت فيه أغلب الدول العربية والإسلامية ترزح تحت سيطرة الاستعمار الأوروبى، أملاً لدى الشعوب العربية والإسلامية بأنه أخيراً ظهر القائد العربى الذى سيخلص كل الأمة العربية من نير العبودية والاحتلال الأجنبى، كما نظرت إليه شعوب الدول الإسلامية غير العربية نظرتها إلى من يعيد إحياء قوة الإسلام إلى كامل مجدها بتأسيسه دولة تعتمد فى حكمها روح نصوص القرآن، إلا أن تلك الآمال لم تتحقق. فكلما زادت قوته وتمكنت، كان يتضح أكثر أن ابن سعود لم يكن أكثر من ملك ، لا يهدف إلى ماهو أكثر مما استهدفه كثير من حكام الشرق الذين حكموا بلادهم حكماً أوتوقراطياً من قبله.

كان ابن سعود كريماً وعادلاً فى حياته الشخصية، وفيًا لأصدقائه ومؤيديه كما كان كريماً إزاء أعدائه فى نبل وشهامة، وهبه الله ذكاء فطرى فاق كثيراً ذكاء أقرانه وأتباعه، إلا أنه لم يظهر ما يدل على شمول الرؤية وإلهام القيادة الذى توقعه منه

كثيرون. لقد حقق بالفعل الأمن لكل شعبه فى الأرجاء الشاسعة لبلاده لم يتحقق مثله فى أى بلد عربى من عصر الخلفاء الراشدين المبكرين من ألف عام مضت، إلا أنه بعكس الخلفاء الراشدين، حقق ذلك الأمن بقوانين صارمة وعقوبات شديدة، لا بخلق الإحساس بالمسئولية لدى أبناء شعبه.

وأرسل عدداً من الشباب إلى خارج البلاد لدراسة الطب والاتصالات اللاسلكية، إلا أنه لم يشرب شعبه كل الرغبة فى التعليم حتى ينتشلهم من وهدة الجهل التى انزلقوا إليها عبر قرون طويلة. واعتاد أن يتحدث - بكل ما يدل على إيمانه بذلك - عن عظمة الحياة الإسلامية، إلا أنه لم يفعل شيئاً لبناء مجتمع متطور عادل بالطريقة التى تتحقق بها عظمة الحياة الإسلامية.

كان بسيطاً، متواضعاً ويعمل بدأب دون كلل، إلا أنه فى الوقت نفسه انغمس هو ومن حوله فى ترف مسرف بلا حدود. كان متديناً بعمق ويلتزم حرفياً بكل ما نصت عليه الشريعة الإسلامية، إلا أنه نادراً ما اهتم بالجوهر الروحى والغرض من تلك الوصايا التشريعية.

كان يؤدى الصلوات الخمس بمنتهى الالتزام ويقضى الساعات الطويلة من الليل فى تعبد وتهجد؛ إلا أنه لم يرد إلى ذهنه أن الصلاة وسيلة لا غاية فى ذاتها. كان يحب الحديث عن مسئولية الحاكم تجاه رعاياه، وكان غالباً مايذكر حديث الرسول - ﷺ -: «كلكم راعٍ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته»، غير أنه أهمل إعداد أبنائه الإعداد الملائم لمواجهة المهام التى كان عليهم القيام بها. وحين سئل ذات مرة، لماذا لا ينظم المملكة على أسس أقل فردية حتى يرث أبناؤه دولة منظمة ذات مؤسسات، أجاب: «لقد غزوت أرجاء مملكتى بسيفى وبمجهودى الشخصى، فليبذل أبنائى أيضاً مجهودهم من بعدى».

أتذكر حواراً دار مع الملك عن الإسراف الزائد وغياب الرؤية الإدارية الصحيحة. كان ذلك بمكة، فى أواخر عام ١٩٢٨، حين كان قائد حركة الاستقلال السورى الشهير، شكيب أرسلان يقوم بزيارة الملك. وقدمنى ابن سعود إليه بهذه الكلمات: «هذا محمد أسد، ابننا، عاد لتوه من المنطقة الجنوبية. إنه يهوى الرحيل بين مناطق البدو».

أثار ذلك على الفور فضول الأمير شكيب أرسلان الذى لم يكن مجرد قائد سياسى، بل كان متعدد الاهتمامات ودارسًا رفيعًا المستوى واسع الاطلاع والمعرفة، وأراد أن يعرف انطباعاتى حين علم أننى أوروبى واعتنقت الإسلام. وصفت له بعض جوانب تلك الرحلة إلى الجنوب، خاصة ما لاحظته فى وادى بيشا الذى لم يطأه أى أوروبى من قبل، وحكيت له عن الإمكانيات الهائلة المتوفرة بذلك الوادى، وثروته المائية وأرضه الخصبة التى تعد أساسًا لمشروع واعد، واستدرت باتجاه الملك وقلت له: «أنا متأكد يا إمام، أن وادى بيشا من الممكن تحويله إلى مصدر للغلال يكفى كل منطقة الحجاز، إذا تم إعداده بطريقة علمية لزراعته».

استمع الملك باهتمام، فقد كان ما يستورد من قمح لمنطقة الحجاز يستنفذ كثيرًا من دخل المملكة - وكان عجز الموارد يشغل فكر ابن سعود.

سألنى: «كم يستغرق تطوير وادى بيشا بهذه الطريقة؟»

ولأننى لست خبيرًا، لم أتمكن من إعطاء إجابة دقيقة محددة؛ واقترحت عليه أن تقوم هيئة من خبراء أجانب بمسح المنطقة، وتقدم خططًا علمية مدروسة لتطويرها، وقلت له إن ذلك قد يستغرق فى الغالب من خمسة إلى عشرة أعوام حتى يحقق الوادى أقصى إنتاج من الغلال.

تساءل ابن سعود: «عشرة أعوام؟ هذا زمن طويل جدًا. إننا معشر البدو لا نعرف إلا شيئًا واحدًا: مهما يكن بيدنا فإننا نضعه فى أفواهنا ونأكله. التخطيط لعشرة أعوام يشكل زمنًا طويلاً جدًا بالنسبة لنا».

حين سمعنا ذلك التعليق المدهش، تطلع الأمير شكيب إلىّ، مفتوح الفم دهشة، كما لو كان لا يصدق ما يسمعه، ولم أجد إلا أن أبادله النظرات المشدوهة.

بدأت بعد ذلك أتساءل: هل ابن سعود رجل عظيم جرفه المُلك والرفاهية بعيدًا عن العظمة - أم مجرد رجل ذى شجاعة عظيمة وذكاء خارق ولا يتطلع إلى ما هو أكثر من السلطة والقوة؟

حتى اليوم لم أتوصل إلى إجابة شافية، فبالرغم من أننى عرفته لسنوات طويلة معرفة جيدة وعميقة، غير أن جانبًا من شخصيته ظل مستعصيًا على فهمى لا أستطيع تفسيره. ولا يعنى ذلك أنه كان غامضًا بأى حال؛ كان يتحدث عن نفسه بتلقائية، وغالبًا ما كان ينسب خبراته إلى مصادرها التى استقاها منها: إلا أن شخصيته كانت متعددة الأوجه حتى إنه كان من الصعب الإحاطة بكل جوانبها، كما كان مظهره الخارجى البسيط يخفى خلفه قلبًا مثل أعماق البحر، متعدد الانفعالات والتناقضات الداخلية.

كانت سلطته هائلة، إلا أنها لم تعتمد على القوة، بقدر ما اعتمدت على ما توحى به قوة شخصيته. مكنته روحه الديموقراطية الحقة من تبادل الحوار والتواصل مع البدو الذين كانوا يفدون عليه فى ملابس قذرة بالية كما لو كان واحدًا منهم.كان يدعهم ينادونه باسمه الأول مجردًا من أى ألقاب، عبد العزيز. من جهة أخرى كان متعاليًا وغير متسامح مع كبار موظفى ومسئولى الدولة حين كان يشعر بخنوعهم ونفاقهم؛ فقد كان يكره النفاق ويزدريه. أتذكر واقعة حدثت بمكة أثناء العشاء بالقصر الملكى. فقد أبدى واحد من أشراف مكة اشمئزازه من «فجاجة البدو» التى رآها من بعض أهل نجد الذين كانوا يأكلون الأرز فى قبضات كبيرة؛ وحتى يظهر رقيه راح يأكل الأرز بأطراف أصابعه - وفجأة انفجر صوت الملك قائلاً: «أنتم أيها المتأنقون تأكلون طعامكم بتأنق وحذر وبأطراف أصابعكم: هل السبب فى ذلك تعودكم النبش بأصابعكم فى القاذورات؟ نحن أهل نجد لا نخشى شيئًا من قبضاتنا: فهى نظيفة، ولذلك نأكل بعزيمة بملء القبضة».

أحيانًا، حين يكون مسترخيًا تمامًا، تبدو على فمه ابتسامة لا تقل فى جاذبيتها عن جمال وجهه. وكنت على يقين أن الموسيقى لو لم تكن محرمة فى المذهب الوهابى الذى كان الملك يتبعه، لكان قد وجد نفسه فى الموسيقى وعبر عنها بالموسيقى؛ ولكن لأن الأمر كذلك، كان يظهر ميوله الموسيقية فى قصائده التى يكتبها، وفى وصفه الحى لتجاربه وخبراته، وأغانيه عن الحب والحرب التى ذاع صيتها فى نجد وغناها الرجال على ظهور جمالهم عبر ارتحالهم بالصحراء، وغنتها النساء فى خدورهن. وأفصحت طبيعته تلك عن نفسها فى نمط حياته اليومية المنتظم والمرن الذى كان يتلاءم مع إدارة الشئون اليومية للمملكة.

كان مثل يوليوس قيصر، يمتلك قدرة عالية على متابعة أكثر من موضوع ومشكلة فى آن واحد دون أن يخلط بينها أو يشوب القصور متابعته لأى منها، وهى موهبة مكنته من إدارة جميع شئون المملكة بنفسه على الرغم من اتساع أرجائها دون أن يصيبه ذلك بأى تشوش أو إحساس بالإرهاق والإجهاد، ويجد بعد كل تلك الأعباء من الوقت ما يشبع فيه ميله وإقباله على نسائه. كانت حواسه علي درجة عالية من الحدة، فقد كان يتمتع برؤية باطنية غريزية لم تخزله أبدًا فى إدراك دوافع كل من يتحدثون إليه. وحدث مرارًا - وقد شهدت ذلك بنفسى - أنه كان يقرأ أفكار كثير من الناس قبل أن يتفوهوا بكلمة، كما كان يستشعر مشاعر الداخلين إليه تجاهه بمجرد تخطيهم عتبة بابه، وقد مكنه ذلك من إجهاض وإفشال محاولات عديدة تم الإعداد لها بعناية للاعتداء على حياته، كما مكنته القدرة نفسها من اتخاذ قرارات فورية عاجلة وموفقة فى التطورات السياسية الطارئة.

باختصار، كان ابن سعود يتميز بصفات كثيرة من الصفات التى تخلق العظماء، إلا أنه لم يبذل جهدًا إراديًا لإحراز العظمة، لم يكن بفطرته تلك انطوائيًا، وكان يمتلك موهبة هائلة فى فهم منطق الأمور بعقلانية، وأدى به ذلك إلى الإحساس بصحة مواقفه وأنه دائمًا على صواب فى كل ما يتخذه من قرارات، وبذلك كان يتجنب محاسبة الذات. أما من أحاطوا به - رجال الحاشية والأعداد الكبيرة المحيطة به وتعيش على كرمه وسخائه - فلم يفعلوا أى شىء لتصحيح ذلك الميل المتنامى لإحساسه بصواب كل ما يتخذه من قرارات

لقد خذل الوعد العظيم الذى ملأه فى شرخ شبابه، حين كان حالمًا بطموحات تطاول السماء، وخذل أحلام أمة ناشئة - ربما دون أن يدرك ذلك - كانت ترى فيه رسول العناية الإلهية لانتشال الأمة الإسلامية بأجمعها مما تعانيه. لقد توقعوا وانتظروا منه أن يحقق لهم ما ينتشلهم من خيبة الآمال كزعيم ملهم طال انتظاره، ويتحدث بعض أفاضل أهل نجد بمرارة عما اعتبره خيانة للطموحات والآمال التى راودتهم إلا أنها لم تتحقق.

لن أنسى نظرة الإحباط والبؤس التى بدت على وجه صديق من أهل نجد ـ وكان فى يوم من أشد المتحمسين لقيادة ابن سعود ووقف معه فى أوقات الرخاء والشدة وفى أصعب أيام تكوين المملكة ـ وعندما كنا نتحدث عن الملك، قال:

«حين انضممنا إلى ابن سعود ضد ابن رشيد فى تلك الأيام المبكرة؛ وحين ركبنا معه، تحت رايات كتب عليها لا إله إلا الله، ضد خائن الإسلام الشريف حسين، كنا نؤمن أن ابن سعود «موسى» جديد أرسلته العناية الإلهية ليقود شعبه ويخرجه من وهدة الجهل والتخلف إلى أرض الإسلام الموعودة، إلا أنه تقاعس واستراح إلى ما وصل إليه من حياة الرغد والرخاء، ناسيًا شعبه ومستقبل شعبه، واكتشفنا ونحن مرعوبين أنه فرعون ...».

كان صديقى بالطبع قاسيًا جدًا وبعيدًا عن العدل فى إدانته تلك لابن سعود؛ لأنه لم يكن فرعونًا، ولا طاغية، كان شفيقًا وودودًا وعطوفًا ورقيق القلب والحاشية، ولم أشك لحظة واحدة فى حبه العميق لأبناء شعبه. إلا أنه أيضًا لم يكن «بموسى». الأصح أن إخفاقه من وجهة نظر بعض الناس يرجع إلى الطموحات التى راودتهم والصورة التى تخيلوا ابن سعود عليها ـ الأرجح أنه استجاب لنداء حيوية الشباب وحماس الرجولة المبكرة. لقد كان صقرًا لم يحوم بأجنحته كما ينبغى.

ببساطة، أرى أنه ظل على طبيعته كزعيم قبيلة مطبوع على المروءة والشهامة وحب الخير، زعيم قبيلة إلا أنها تنتشرعلى نطاق واسع متباعد الأرجاء(*).

(*) بعد فترة قصيرة من كتابة هذا الكتاب (١٩٥٣)، توفى الملك ابن سعود عن عمر يناهز ثلاثة وسبعين عامًا؛ وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الجزيرة العربية. حين رأيته آخر مرة عام ١٩٥١ (كنت أقوم بزيارة رسمية للمملكة العربية السعودية كممثل رسمى لدولة باكستان)، بدا لى أنه كان على وعى بأنه أضاع عمره فيما كان أقل مما يجب عليه عمله. بدا وجهه، الذى كان يطفح بالقوة والحيوية، مليئًا بالمرارة، بدا وكأنه يتحدث عن إنسان آخر قد مات فعلاً ودفن ومن الصعب تذكره.

[٣]

فى الصباح المبكر لليوم الذى كنت سأغادر فيه مدينة «حائل»، استيقظت على صوت موسيقى عالية وصلت إلى مسامعى من نافذة غرفتى المفتوحة بحصن الأمير ابن مسعد: غناء، شقشقة مثل شقشقة الطيور والحشرات، وجذب أوتار مختلفة، مثل مائة كمان وآلات نفخ متباينة يجربها العازفون قبل بدأ عزف مقطوعة موسيقية، ثم كأصوات آلات مفككة متراخية الأوتار، ولأنها نغمات كثيرة غير منتظمة، بدت كلحن غامض، كأنه لحن وهمى وشبحى فى توحد أصواته ثم تفرقها.. لابد أنها فرقة موسيقية هائلة العدد؛ فالأصوات الصادرة كانت عديدة وهائلة...

خطوت إلى النافذة ورحت أحدق فى ضوء الفجر الوليد، إلى ما وراء ساحة السوق الخالية، وإلى ما وراء منازل المدينة الرمادية المبنية من الطين الجاف، وباتجاه سفوح التلال التى تنمو عليها أشجار الطرفاء وتجمعات النخيل - وأدركت مصدر الصوت: كانت موسيقى صادرة من آبار المياه وسط بساتين النخيل والتى كانت تبدأ عمل يوم جديد، مئات الآبار، كانت المياه ترفع فى دلاء من الجلد باستخدام الجمال. كانت الدلاء مربوطة إلى حبال، والحبال تمر على بكرة عند فوهة البئر وتنتهى بربطها إلى أحد الجمال، وكل بكرة تدور حول محور خشبى وتنبعث منها تلك الأصوات عند دورانها، تلك الأصوات التى تتفاوت من أصوات تشبه الغناء إلى أصوات صرير وصفير ، أصوات ترتفع وتنخفض حتى يتدلى الحبل إلى آخره فى باطن البئر وتتوقف البكرات عن الدوران، وتصدر صوتًا عاليًا مثل الصياح قبل توقفها، ويتخافت صوت الصياح تدريجيًا مع ارتخاء الحبال، لتحل محلها أصوات اندفاع المياه فى الأحواض الخشبية بجوار آبار أخرى؛ ثم تستدير الجمال وتذهب ببطء مبتعدة عن البئر لجذب الدلاء من أعماق الآبار، فتصدر البكرات أصواتًا جديدة والحبال تجرى فوقها حتى تصل الدلاء إلى حافة البئر. ولكثرة عدد الآبار، لم تتوقف الأصوات للحظة واحدة، تتوافق نغماتها أحيانًا، وتختلف وتتباين فى أحيان أخرى، بعضها يبدأ فى ميلاد جديد، وأخرى تخفت

حتى تمـوت. شـلالات من الأنغـام والأصـوات تندفـع معـًا ثم تتفـرق وتنفصـل عن بعضهـا - أزيز، تحطم، رنين، غنـاء - ما أعظمهـا من فرقـة موسيقية لم تؤلفها ولم تضع ألحانها مخيلة بشرية: لذلك تصل تقريبًا إلى مستوى إبداع وعظمة الطبيعة، التي يصعب فهم مكنونها.

الفصل السابع

منتصف طريق

[١]

تركنا «حائل»، وتوجهنا على الجمال قاصدين المدينة : كنا ثلاثة ؛ فقد رافقنا أحد رجال ابن مسعد، وهو منصور العساف ليصحبنا في الطريق ولإنجاز مهمة كلفه بها الأمير .

كان منصور في غاية الوسامة ، لو سار في شوارع أوروبا لأداء رؤوس النساء . كان فارع الطول ، بوجهٍ قوى الملامح متناسق القسمات ، شديد الرجولة . كانت بشرته بيضاء داكنة قليلاً – وهى علامة على حُسن المنشأ فى عرف العرب – أدعج العينين حلو النظرة ، يعلو عينيه حاجبان حسنا الصورة . لم يكن به شيء من رقة زيد وتحفظه ، فقد كانت ملامح وجهه تنم عن عواطف جياشة وأضفت عليه هالة من الجديد لا تشبه ذلك الحزن الهادئ الذى يبدو على صديقى الشمّارى، إلا أن منصور ، كان مثل زيد ، فى سعة خبراته التى اكتسبها من تنقله بين أماكن كثيرة ، ولذلك كانت صحبته ممتعة .

كانت طبيعة المنطقة مختلفة ، تحولت إلى تربة يختلط فيها الرمادى بالأصفر بعكس صحراء النفود التى اجتزناها قبل الوصول إلى حائل . وضح لنا اختلاف الحياة البرية فى تلك المنطقة وكانت غنية بها : سحالى رمادية تندفع مارقة بين أرجل الجمال فى سرعة البرق ، لتختبئ بين أعشاب شوكية ثم تراقب عبورنا بعيون لاسعة ، فأر صغير

رمادى اللون له ذيل مثل العشب ويشبه السنجاب ، وأبناء عمومتهم من حيوان الجربوع الذى يستطيب أهل نجد لحمه ، وقد تذوقته وكان لحمه بالفعل من أطيب ما تذوقت من لحوم . كانت هناك أيضًا زواحف كثيرة ذات سيقان طويلة تشبه السحلاة، ولكن أكبر منها حجمًا وتسمى الضب وتحيا على أكل سيقان النباتات وطعم لحمها يجمع ما بين طعمى الدجاج والسمك ، وهناك أيضًا الخنافس السوداء ذات الأربع، والتى تصل حجمها إلى حجم بيضة الدجاجة الصغيرة ، تشاهد فى الأغلب وهى تدحرج فى صبر بعرة جمل، تدفعها بسيقانها الخلفية القوية وتميل ببدنها على أرجلها الأمامية ، تدحرج كنزها الثمين باتجاه جحرها ، وأحيانًا تكون خلفها حفرة فتنقبل على ظهرها ، ثم تكافح حتى تعتدل بصعوبة بالغة ، وتبدأ من جديد فى دفع لقيتها الثمينة بضعة بوصات أخرى لتقع وتنقلب من جديد وتعاود العمل بلا كلل ...

فجأة يقفز أرنب برى رمادى فى قفزات طويلة سريعة خارجًا من بين أكمة أعشاب رمادية . ورأينا غزلانًا إلا أنها كانت أبعد من مرمى نيران بنادقنا واختفت فى الظلال الرمادية الزرقاء بين التلال .

سألنى منصور : «أخبرنى يا محمد ، كيف وقع لك أن تأتى وتحيا مع العرب ؟ وكيف اعتنقت الإسلام ؟ »

رد زيد : «سأخبرك كيف وقع له ذلك »، صَمَت برهة ثم أجابه : «وقع فى هوى العرب أولاً ، ثم بعد ذلك فى دينهم، أليس ذلك صحيحًا يا عمى ؟»

قلت : «ما قاله زيد صحيح يا منصور . من أعوام طويلة ، حين وصلت بلاد العرب ، جذبنى أسلوب العرب فى الحياة . وحين بدأت أراجع فكرى بينى وبين نفسى ، وأسأل نفسى عما أومن به ، أوصلنى ذلك إلى اعتناق الإسلام ».

سألنى منصور : «وهل توصلت فجأة يا محمد وفى مرة واحدة إلى أن الإسلام هو كلمة اللّـه الحقة ؟ ».

أجبته : «لم يكن مرة واحدة ، لم يحدث ذلك بتلك السرعة لسبب واحد؛ ففى ذلك الوقت لم أكن أومن أن اللّـه قد تحدث مباشرة إلى بشر ، كما كنت أعتقد أن الكتب التى يدعى البشر أنها من عند اللّـه لم تكن إلا من وضع رجال حكماء ... ».

حدق فىّ منصور بعدم تصديق ، وسأل متعجباً : «كيف يمكن أن يحدث ذلك يا محمد ؟ ألم تؤمن حتى بالكتاب المقدس الذى جاء به موسى ، أو إنجيل عيسى ؟ لقد كنت أعتقد على الدوام أن شعوب الغرب تؤمن بتلك الكتب على الأقل ».

أجبته : «بعضهم يؤمن يا منصور ، وآخرون لا يؤمنون أنها من عند اللّـه . ولقد كنت واحداً من أولئك الآخرين ».

شرحت له كيف أن أعداداً كبيرة من أبناء الغرب كفوا عن الإيمان بأن الكتب المقدسة - كتبهم أو كتب غيرهم من شعوب - هى كلمة اللّـه الحقة ، ولا يرون فيها إلا تاريخاً بشرياً لتطلع البشر الدينى وتطوره عبر العصور .

وواصلت : «إلا أن وجهة نظرى تلك سرعان ما اهتزت أول ما عرفت مضمون الإسلام »، أضفت : «علمت ما علمته عن الإسلام حين وجدت المسلمين يعيشون بطريقة مختلفة عما يعتبره الأوروبيون الطريقة المثلى للحياة ؛ وكنت كلما عرفت شيئاً جديداً من تعاليم الأسلام ، أشعر أنى أكتشف شيئاً طالما كنت أعرفه داخلى دون أن أدرك ذلك ... ».

هكذا ، رحت أحكى لمنصور عن أول رحلة إلى الشرق الأوسط - وعن كيفية تكون أول انطباع لى عن العرب فى صحراء سيناء ، وما رأيته شعرت به فى فلسطين وفى مصر ، وفى عبر الأردن وسوريا، وكيف واتانى أول إحساس داخلى عميق فى دمشق بأننى على وشك ولوج طريق لم أتوقعه للتوصل إلى الحق والحقيقة ، وأن ذلك الطريق اتضح أمامى رويداً رويداً ؛ وكيف رجعت ، بعد زيارتى لتركيا إلى أوروبا ، وكيف اكتشفت أنه من الصعب جداً أن أحيا فى عالم الغرب : لأننى ، من جهة ، كنت شغوفاً بالتوصل إلى فهم أعمق لذلك الإحساس الغريب الذى انتابنى عند أول معرفة لى

بالعرب وثقافتهم ، وكنت أسعى إلى فهم أفضل لما أريده أنا من الحياة وما أتوقعه منها ؛ ومن جهة أخرى ، كنت قد وصلت إلى نقطة اتضح لى معها وعندها أننى لن يمكن لى أبداً بعد ذلك أن أتعرف على نفسى وذاتى فى إطار من الأهداف التى تكون الفكر والمجتمع الغربى .

* * *

فى ربيع عام ١٩٢٤ ، أرسلتنى جريدة «فرانكفوتر ذيتونج » إلى ثانى مهمة لى بالشرق الأوسط . كنت قد انتهيت من الكتاب الذى أكتبه عن رحلتى السابقة إلى الشرق الأوسط (تم نشره بعد رحيلى من ألمانيا بعدة أشهر تحت عنوان «رحلة غير حالمة إلى أرض الأحلام »، ورغم معاداتى للصهيونية وميلى لشرح وجهة نظر العرب بالكتاب قد أحدث بعض الاهتياج فى الصحف الألمانية ، إلا أن الكتاب لم يحقق مبيعات جيدة) .

مرة أخرى عبرت البحر المتوسط وشاهدت من البحر سواحل مصر ونحن نقترب منها . وكانت رحلتى من بورسعيد إلى القاهرة بالقطار تشبه من يقلب صفحات كتاب سبقت له قراءته . بين قناة السويس وبحيرة المنزلة كان بعد الظهر المصرى يفصح عن مكنونه ، كان البط البرى يسبح فى مجموعات كبيرة بالبحيرة وأشجار الطرفاء بفروعها المروحية تتماوج مع الرياح . كانت بعض القرى تظهر من آن إلى آخر فى السهل الممتد الذى كان رملياً عند بدايته لا تغطيه أية نباتات ، ثم بدأ يظهر فى الخلاء الجاموس المصرى الأسود وهو متراخ فى تربة الربيع . وحين تحول بنا القطار إلى الغرب مبتعداً عن قناة السويس ، غطتنا الخضرة المصرية . شاهدت من جديد النساء المصريات الرشيقات طويلات القامة وهن يعملن فى الحقول ويحملن أوانى المياه الفخارية على رؤوسهن دون أن يسندنها بأيديهن ، فكرت فى تلك المشاهد : « لا يوجد فى العالم بأجمعه - لا أفضل السيارات ، ولا أجمل المنشآت المعمارية ولا أمتع الكتب - ما يمكن أن يبعث فى نفسى تلك الراحة التى شعرت بها والتى أصبحت

غير موجـودة بالغـرب ، ومهددة الآن بالضـيـاع والاختـفـاء من الشـرق – تـلك الراحـة وذلك الرضـا اللذين يعـبران عـن التوافق السـاحر بين الذات الإنسـانيـة والعـالم الذى يحيط بها ...

كنت أسـافـر هذه المرة بالدرجـة الأولى من القطـار . لم يكن هنـاك إلا مسـافـران أخـران فى مـقـصـورتى . رجل أعـمـال يونانى من الإسكندرية ، كنت قد اعـتـدت عـادة الشرق من تبادل الأحـاديث مع الأغراب فى سـهولة وأشركنى فى مناقشـة حامية راح يوجه فيها سخريته وانتقاده لكل ما يراه ، وكان المسافر الثانى عمـدة مصرى ، والعمدة فى مصـر حـاكم قرية ، والذى – إذا حكمنا بالقفطان الحريرى الغـالى الذى يرتديه ، وسلسلة ساعة ذهبية سميكة تتدلى من فتحـة قفطانه – كان غنيًا ، إلا أنه بدا راضيًا عن عدم تعلمه : فى الحقيقة ؛ وبمجرد أن اشترك فى الحوار معنا ، اعترف أنه لا يكتب ولا يقرأ ، إلا أنه أظهر فطنة وشت بذكائه ودقة ملاحظاته ، وكثيرًا ما تصـادم بحجة قوية مع اليونانى .

كنا نتحدث ، كما أتذكر ، عن بعض المبادئ الاجتماعية فى الإسلام ، والتى كانت تثير اهتمامى بشدة فى ذلك الوقت ، ولم يرض المسافر اليونانى بإعجابى الشـديد بمبادئ العدل فى الإسلام . ورد علىَّ قائلاً بالفرنسية :

«إنه ليس عـادلاً كما تظن يا صـديقى العزيز »، ثم استدار إلى العمـدة قائلاً : «وأنتم أيهـا المسلمـون تدعـون أن دينكم دين عـدالة؛ فـهل يمكنك أن تشرح لنا كيف يسمح الإسلام للرجال بالزواج من فتاة مسيحية أو يهودية فى حين لا يسمح لبناتكم وأخواتكم بالزواج من مسيحى أو يهودى ؟ هل تسمى هـذا عدلاً ؟ هه ؟ ».

رد العمدة المهيب دون أن يبدو عليه التردد لحظة واحدة : «سأشرح لك لماذا شرّع الإسلام ذلك . نحن المسلمين لا نؤمن أن المسيح – عليه السـلام – ابن اللّـه ، ونحن نؤمن أنه هو وموسى وإبراهيم وكل الرسل المذكورين فى الكتاب المقدس ، هم رسل من عند اللّـه ، وقد أُرسلَ كل منهم إلى البشر بالطريقة نفسها التى أُرسل بها خـاتم الرسـل ، محـمـد – صـلى اللّـه عليه وسلم – ولذلك إذا تزوجت فـتـاة مسـيحـيـة أو

يهودية من رجل مسلم ، فهى على يقين من أنه لن يوجد بأسرتها الجديدة من يتحدث بسوء عما تؤمن به ، بينما من جهة أخرى ، إذا تزوجت فتاة مسلمة من غير مسلم ، فمن المؤكد أنها ستواجه ما يسىء إلى إيمانها وعقيدتها .. وربما من أبنائها أنفسهم : ألا يؤمن الأبناء عادة بما يؤمن به آباؤهم ؟ هل تعتقد أنه من العدل أن نعرضها إلى ذلك الألم وتلك المهانة ؟ ».

لم يجد اليونانى ما يرد به على هذا التساؤل إلا بهزة ضيق من كتفيه ، أما أنا ، فقد رأيت أن ذلك العمدة الأمى بتلك العقلانية التى اشتهر بها شعبه ، قد مس جوهر وقلب تلك المشكلة المهمة ، ومرة ثانية ، شعرت أن أبوابًا جديدة للإسلام تفتح أمامى ، كما شعرت تمامًا وأنا أتحدث إلى ذلك الحاج العجوز بمدينة القدس .

* * *

ترتب على تغير أحوالى المالية ، أن أصبح بإمكانى أن أعيش بالقاهرة فى مستوى لم يخطر لى على بال من شهور قليلة مضت . لم أعد مضطرًا لحساب القروش القليلة والتقتير فى إنفاقها . ونسيت تلك الأيام التى قضيتها فى أول مرة جئت إلى القاهرة ، والتى كان علىَّ أثناءها أن أعيش على الخبز وحده ، والزيتون واللبن، إلا أننى ظلت مخلصًا لتقاليد الماضى؛ فبدلاً من الإقامة فى أحد الأحياء الراقية بالقاهرة ، استأجرت غرفة فى منزل صديقتى القديمة ، المرأة البدينة التى قطنت عندها فى أول زيارة للقاهرة ، والتى استقبلتنى بأحضان مفتوحة وقبلة على كل خد .

فى اليوم الثالث بعد وصولى ، وعند غروب الشمس ، سمعت صوتًا قويًا لمدفع ينطلق من القلعة . وأضاءت حلقات من المصابيح فى الشرفات العليا لمئذنتى مسجد القلعة ، وتبعته مآذن القاهرة التى أضيئت شرفاتها العليا فى استجابة لمئذنتى القلعة : فى كل مئذنة حلقة من الضوء ، سرت حركة غير عادية فى شوارع القاهرة القديمة : إيقاع أسرع يشى باحتفالية ، وصارت الضوضاء الصادرة عن الشوارع أعلى صوتًا ، أرى رأسمع وأشعر بإيقاع حماسى مختلف فى جميع الأنحاء .

كان سبب ذلك ظهور القمر الوليد ، أى بداية شهر عربى جديد (يعتمد التقويم الإسلامى على الأشهر القمرية والأعوام القمرية) ، وكان الشهر الجديد هو شهر رمضان ، وهو الشهر الذى له قدسية خاصة فى التقويم الإسلامى . ففى هذا الشهر احتفاء بذكرى مرت عليها ثلاثة عشر قرنًا ، حين نزل أول وحى على محمد – صلى اللّـه عليه وسلم – بالقرآن . وفى هذا الشهر يصوم المسلمون صيامًا كليًا عن الطعام والشراب ، رجالاً ونساء باستثناء المرضى ، لا يأكلون ولا يشربون (ولا حتى يدخنون) من لحظة انبلاج ضوء الفجر حتى غروب الشمس لمدة ثلاثين يومًا تقريبًا . خلال تلك الأيام الثلاثين يمضى الناس فى شوارع القاهرة بوميض خاص فى عيونهم ، كما لو كانوا قد رفعوا إلى مرتبة عالية سامية . فى الثلاثين ليلة تسمع صوت المدافع التى تعلن موعد تناول الطعام أو الامتناع عنه عند الفجر ، وتسمع غناءً وصيحات فرح ، بينما تشع المساجد والجوامع بالأضواء حتى الصباح . علمت أن هناك هدفين من شهر رمضان : الأول هو الامتناع عن الطعام والشراب يشعر كل امرئ بما يشعره الفقير والجائع ، ويغرس هذا المسئولية الاجتماعية فى الوعى البشرى كفرض دينى .

والهدف الثانى هو التعود على ضبط الذات والسيطرة على النفس ، وهو أحد أوجه الأخلاق الفردية وتؤكد عليها كل تعاليم الإسلام (على سبيل المثال يمنع منعًا كليًا تناول كل ما هو ضار للبدن وكل ما يُذهب الوعى ، ويعدها الإسلام وسائل لإخماد الوعى لتغييب الإحساس بالمسئولية) . من هذين الهدفين – أخوة البشر ، وضبط النفس ، والسيطرة على الشهوات – بدأت أميز الخطوط الأساسية فى منهج الإسلام .

فى سعيى إلى تكوين صورة متكاملة لما يعنيه الإسلام وما يهدف إليه ، استفدت إفادة عظيمة من الشرح الذى قام به بعض أصدقائى القاهريين . كان من أبرز أولئك الأصدقاء الشيخ مصطفى المراغى ، وكان واحدًا من أبرز العلماء المسلمين فى عصره وأحد أبرز علماء جامعة الأزهر (وقد أصبح شيخًا للأزهر بعد ذلك بأعوام) .

كان فى منتصف الأربعينيات من عمره فى ذلك الوقت ، إلا أن قوته البدنية وتكوينه العضلى البارز كانا يضفيان عليه حيوية وتركيز ابن العشرين . وبالرغم من سعة

اطلاعه وحديثه ، إلا أن حس الدعابة كان من أبرز صفاته . كان تلميذاً للمصلح المصرى الكبير الشيخ محمد عبده ، كما كان من حضور جلسات الثورى الإسلامى جمال الدين الأفغانى ، وكان الشيخ المراغى ذاته من المفكرين الإسلاميين الراصدين والناقدين لأوجه الخلل . كان يؤكد لى على الدوام أن المسلمين المعاصرين قد تداعوا وسقطوا دون أن يحققوا الهدف من كونهم مسلمين، وأنه من الخطأ الفادح أن يقيسوا أهداف رسالة محمد(ﷺ) على ما هم عليه الآن من نمط حياة وأسلوب تفكير . قال : « بالضبط ، كما نحكم قياسًا لما نراه من جفاء بين اثنين من المسيحيين على رسالة المسيح بأنها لا تدعو إلى المحبة ».

بهذا التحذير ، أدخلنى الشيخ المراغى إلى الجامع الأزهر .

من شارع الموسكى ، وهو من أكثر الشوارع ازدحامًا ، وأقدم الأسواق بالقاهرة ، وصلنا إلى ميدان جانبى صغير يبعد عن الشارع ، ويشغل أحد جوانب ذلك الميدان واجهة عريضة من واجهات الجامع الأزهر . دخلنا من بوابة مزدحمة تُفضى إلى صحن مغطى يؤدى إلى فناء واسع مكشوف للجامع ، وهو مساحة مربعة هائلة الاتساع محاطة بعقود قديمة ترتكز على أعمدة . كان الدارسون يرتدون الجبة الطويلة الداكنة ومن تحتها قفطان أبيض ، يجلسون على حصر من القش ويقرأون بأصوات خافتة كتبًا ومخطوطات يدوية .

كانت الدروس والمحاضرات تعقد فى الجوانب المسقوفة . كل مدرس يجلس على فرش من الحصير تحت الأعمدة التى تمتد فى صفوف طويلة ، وأمام كل مدرس يجلس الطلاب فى شبه نصف دائرة أمامه . ولا يرفع أى مدرس صوته أبدًا ، ولذلك كان على المتلقين أن ينتبهوا ويركزوا كل حواسهم حتى لا تفوتهم كلمة . وقد يعتقد مَنْ يراهم أن مثل ذلك الاستغراق لابد أن ينتج عنه علماء حقيقيون ، إلا أن الشيخ المراغى سرعان ما أطاح بتصوراتى ، فقد سألنى :

« هل ترى أولئك المدرسين هناك ؟ إنهم مثل أبقار الهند المقدسة ، إنهم كمَنْ يأكلون كل ورقة مطبوعة يجدونها فى أى مكان وأى شارع ... ويلتهمون كل الكتب التى

كتبت من قرون مضت، إلا أنهم لا يهضمونها . لم يعودوا يفكرون ؛ إنهم يقرأون ويحفظون عن ظهر قلب ويعيدون ما قرأوه ويرددونه كما هو ، أجيال بعد أجيال ».

قاطعته : «ولكن يا شيخ مصطفى ، بالرغم من أى شيء ، فالأزهر هو مركز الدراسات الإسلامية الرئيسى ، وأقدم جامعة فى العالم ، واسمه موجود فى كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى . ماذا عن المفكرين العظام ، والمفكرين ، والمؤرخين ، والفلاسفة ، وعلماء الحساب الذين تعلَّموا وتخرَّجوا فيه خلال القرون العشر الأخيرة ؟ ».

أجاب بأسى : «لقد كفَّ عن تخريج أمثالهم من بضعة قرون مضت »، ثم أردف : «حسن ، ربما كان ذلك غير دقيق تمامًا ؛ فمن حين لآخر كان يتخرج فى الأزهر بعض المفكرين المستقلين حتى عصرنا الحالى : ولكن بوجه عام ، أصابت الأزهر حالة من العقم مثل تلك التى يعانى منها كل العالم الإسلامى ، وخمدت قوة الأزهر المحركة . أما أولئك المفكرين الإسلاميين الذين ذكرتهم ، فلم يحملوا أبدًا أثناء حياتهم أن أفكارهم ستظل تعاد وتكرر وتجترها أجيال بعد أجيال بدلاً من تطويرها والإضافة عليها ، كما لو كانت أفكار وحقائق لا يأتيها الباطل . التغيير إلى الأفضل يستوجب تشجيع التفكير الحر بدلاً من ترديد الأفكار السابقة ».

أعاننى تشخيص الشيخ المراغى الحاد واللاذع لحالة الأزهر أن أفهم أحد أهم أسباب الركود الفكرى والثقافى الذى يخيم على كل أرجاء العالم الإسلامى . ألا يعكس ذلك الركود الفكرى والثقافى الذى يرين على أقدم جامعة إسلامية عقم المجتمع الإسلامى فى الوقت الراهن ؟ ألم يؤد ذلك الركود إلى التقاعس والتقبل السلبى لذلك الفقر الذى يعيش فيه المسلمون ، وقبولهم الصامت لأخطاء اجتماعية كثيرة يتعرضون لها دون اعتراض ؟

تساءلت : هل لى أن أتعجب ، بعد أن فهمت تلك الأدلة الدامغة على انحطاط حال المسلمين ، إن وجدت تلك الآراء السائدة عن الإسلام فى الغرب ؟

الآراء الشائعة فى الغرب عن الإسلام يمكن إجمالها فيما يلى : « انحطاط حال المسلمين ناتج عن الدين الإسلامى ذاته ، ولا يمكن اعتباره عقيدة دينية مثل المسيحية واليهودية ، وأنه أقرب إلى خليط غير مقدس من خيالات الصحراء ، والحسية الشهوانية ، والخرافات ، والاتكالية والإيمان بالقدر ، وهى قيم تحول بين المسلمين وبين إحراز أى تقدم اجتماعى للأرقى والأفضل ؛ وبدلاً من تحرير البشر من عراقيل الغموض والظلام ؛ كبلهم الإسلام أكثر ؛ وبمجرد تحررهم من العقيدة الإسلامية ، وتبنيهم مفاهيم الغرب فى أسلوب حياتهم وفكرهم ويكون ذلك أفضل لهم وللعالم كله ...

إلا أن ما وجدته من مفاهيم وما توصلت إلى فهمه من مبادئ الإسلام وقيمه ، أقنعنى أن ما يردده الغرب ليس إلا مفهوماً شائهًا للإسلام . فما وجدته فى القرآن لم يكن «نظرة مادية » فقط للحياة ، بل على العكس ، وجدته يظهر وعيًا شديداً بالخالق ، عبر عن نفسه بقبول كل ما خلقه اللّـه : فهو متوازن ومنسجم يمازج بين العقل والاحتياجات البدنية ، كما يوازن بين الاحتياجات الروحية للفرد ومتطلباته الاجتماعية . اتضح لى أن تخلف المسلمين لم يكن ناتجًا عن الإسلام ، ولكن لفشلهم أن يحيوا كما أمرهم الإسلام ، وفشلهم فى التمسك بتعاليمه .

لقد كان الإسلام هو ما حمل المسلمين الأوائل إلى ذُرى فكرية وثقافية سامية حين وجه كل طاقاتهم إلى تدبر أمور العقل والوعى المستنير كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة الخلق وقدرة الخالق وبالتالى الوعى بمشيئته من خلقهم . لم يطلب منهم اعتناق عقيدة جامدة أو صعبة الإدراك والفهم ؛ ففى الحقيقة ، لم تكن توجد برسالة النبى – صلى اللّـه عليه وسلم – أى عقيدة جامدة غير مفهومة .

وهكذا ، كان التعطش للمعرفة الذى ميَّز المسلمين الأوائل يخلو من عسف وتعسف العقيدة الذى كان سائداً فى أرجاء العالم ، كانت المعرفة فى أرجاء العالم تناضل نضالاً مريراً للوقوف على أقدامها ضد ما تمليه وتفرضه العقائد السائدة لديهم . على عكس ذلك ، كانت المعرفة فى الإسلام تنبثق مباشرة من مبادئ العقيدة ذاتها . لقد أعلن النبى العربى : «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »، وبذلك رسخ لدى

المسلمين مفهوم أن اكتساب العلم هو السبيل للإيمان الكامل ومعرفة الخالق معرفة حقة . ولما تدبروا ما ذكره الرسول - صلى اللّـه عليه وسلم - : خلق اللّـه الداء كما خلق الدواء ، تحققوا أن بحثهم عن الدواء ليس إلا تحقيقًا لإرادة اللّـه : وبذلك كانت الأبحاث الطبية تستمد دافعها من إحساس المسلم أنها واجب دينى وفريضة واجبة . وقرأوا ما ذكره القرآن : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (صدق اللّـه العظيم) ، وفى سعيهم إلى النفاذ للمعنى الذى تضمنته هذه الآية ، ودرسوا الكائنات الحية والقوانين التى تحكم نموها وتطورها : وهكذا أسسوا مبادئ علم الأحياء . وأشار القرآن إلى تناسق دورات ومواقع النجوم وأفلاك السماء كدليل على عظمة إبداع الخالق : فدرسوا علوم الفلك والحساب بحماس فى الوقت الذى كانت فيه علوم الفلك مقصورة فى الديانات الأخرى فى تحديد أوقات العبادة فقط ، كما نجد أن نظريات « كوبرنيكوس » التى توصلت إلى أن الأرض تدور حول نفسها وأنها هى والكواكب تدور حول الشمس ، وأعلنها فى أوروبا فى القرن السادس عشر (وقوبلت بمعارضة شديدة من متعصبى الكنيسة وكبار رجالها الذين وجدوا أن تلك النظريات تتصادم مع التعاليم الحرفية للإنجيل) : إلا أن التأسيس الفعلى لتلك النظريات كان قد تم وضعه قبل ذلك بستمائة عام فى البلاد الإسلامية لما توصل الفلكيون الإسلاميون إلى النتيجة ذاتها وهى أن الأرض كروية وتدور حول محورها ، وتوصلوا إلى حسابات دقيقة لخطوط الطول والعرض ؛ وأدرك كثير منهم دون أن يتهموا بالكفر والهرطقة ، أن الأرض تدور حول الشمس . بالحماس نفسه درسوا الكيمياء والفيزياء ووظائف الأعضاء ، كما اقتحموا علومًا أخرى كثيرة ، وجد عباقرة المسلمين أنها مهمة لبناء صرح حضارى دائم ومتجدد . وفى بناء ذلك الصرح ، كانوا أكثر من مقتدين بتعليمات الرسول - صلى اللّـه عليه وسلم - فى قوله : « مَنْ فَتَحَ بَابًا من أبْواب العلْم فَتَحَ اللّـهُ لَهُ بَابًا من أبْوَابِ الجَنَّة »، وقوله : «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِس فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللّـهُ لَهُ طَرِيقًا فى الجَنَّة ».

فى ذلك العهد الخلاق من تاريخ الإسلام - أى القرون الخمسة الأولى بعد وفاة الرسول - لم ير العلم عصرًا أزهى من عصر الحضارة الإسلامية . ولم تنعم بيوت بالأمان مثلما نعمت كل بيوت المدن الإسلامية فى ذلك العصر .

وتأثرت الحياة الاجتماعية بدورها بتعاليم الإسلام كما جاء بها القرآن . ففى الوقت الذى كانت فيه أوروبا المسيحية تعتبر أن الأوبئة ليست إلا لعنة من اللّـه ونقمـة وعقاباً لابد أن يتقبلوه ولا يحاولوا منعه أو الحد من آثاره ، كان المسلمون يتبعـون تعليمات الرسول الذى علمهم مواجهة الأوبئـة بعـزل المناطق الموبوءة والمدن المصابة . وفى الوقت الذى كان فيه حتى ملوك وأمراء أوروبا المسيحية يعتبرون الاستحمام نوعاً من العرف غير المستحب دينياً ، كان أفقر منزل إسلامى فى العصر ذاته يحتوى على الأقل على حمّام واحد ، بينما كانت الحمامات العامة الرائعة منتشرة فى كل المدن الإسلامية (فى القرن التاسع الميلادى ، كان بمدينة قرطبة فى الأندلس ثلاثمـائة حمّـام عـام) ، وكان ذلك أيضاً استجابة لتعليمات الرسـول مـن أن : «النظافة من الإيمـان ».

لم يعرض الإسلام المسلمين لذلك الصراع النفسى الداخلى من أن الحياة الروحية تتعارض مع مُتع الحياة الدنيوية ، فقد قال الرسول : « اعْمَل لدُنيَاكَ كأنَّكَ تَعيشُ أبَداً ، واعَمَل لآخِرَتَكَ كأنَّكَ تَمُوت غَداً ».

باختصار ، وفّر الإسلام حافزاً قوياً للتقدم المعرفى والثقافى والحضارى الذى شكل واحدة من أروع صفحات التاريخ الإنسانى، وقد زود ذلك الحافز بمواقف إيجـابيـة حـين حـدد فى وضـوح : نعم للعقـل ولا لظـلام الجـهل ، نعم للعمـل والسـعى ولا للتقاعس والنكوس ، نعم للحياة ولا للزهد والرهبنة . ولذلك لم يكن عجيباً أن يكتسب الإسلام أتباعاً فى طفرات هائلة بمجرد أن تجاوز حدود بلاد العرب ، وجدت الشعوب التى نشأت فى أحضان مسيحية القديس « بولس » والقديس « أوغستين » مثل شعوب سوريا وشمال إفريقيا وإسبانيا القوطية من بعدهم ، ديناً لا يُقر عقيدة ومفهوم الخطيئة الأول لآدم وتؤكد على كرامة الحياة البشرية الأرضية : ولذلك دخلوا فى دين اللّـه أفواجاً ، ذلك الدين الذى حدد لهم أن الإنسان خليفة اللّـه فى الأرض .

كل ذلك يفسر كيفية انتصار الإسلام وانتشاره الواسع والسريع فى بداياته التاريخية ، ويفند مزاعم مَـنْ روجوا أنه انتشر «بحد السيف »، لم يكن المسلمون إذن هم مَـنْ خلقوا عظمة الإسلام ، بل كان الإسلام من خلق عظمة الإسلام . وبمجرد أن

تحول إيمانهم إلى عادة وكف عن أن يكون منهجًا وأسلوبًا للحياة ، وعن تطبق تعاليمه بوعى ودراية ، وأن يعوا ما يأمرهم به ، خبأ وهج النبض الخلاق فى تلك الحضارة وحلّ محلها التقاعس والعقم وتحلل الثقافة تدريجيًا .

* * *

كانت الرؤية التى توصلت إليها ، والتقدم الذى كنت أحرزه فى تعلم اللغة العربية (كان أحد طلاب الأزهر يعلمنى اللغة العربية فى دروس يومية) ، تجعلنى أشعر أننى تمكنت أخيرًا مما يماثل المفتاح لعقلية المسلمين ، ولم أعد على يقينى السابق «باستحالة أن يتفهم الأوروبى بوعى العقلية الإسلامية » كما ذكرت قبل ذلك فى كتابى الذى صدر فى «برلين »من شهور سابقة . أيقنت أنه لو تحرر المرء تمامًا من عاداته التى نشأ عليها ومناهجها الفكرية وتقبل مفهوم أنها ليست بالضرورة الأساليب الصحيحة فى الحياة ، لأمكن له أن يفهم ما يبدو غريبًا فى نظره عن عالم الإسلام .

وبالرغم من أننى وجدت فى الإسلام ما يُرضى الفكر والروح كما يرضى البدن ويُشبع الغرائز ، إلا أننى كنت مازلت أرى أنه من الذكاء لأى امرئ ذى بصيرة أن لا يحصر فكره فى إطار منهج عقائدى لم يصل إليه بذاته باقتناع مطلق .

سألت صديقى واسع المعارف الشيخ مصطفى المراغى فى ذلك : «قل لى يا شيخ مصطفى : لماذا يتوجب على المرء حصر فكره فى إطار تعاليم معينة وأوامر وتوصيات محددة ؟ أليس من الأفضل للمرء أن يترك ذلك لبصيرته الداخلية ويستلهم منها الأخلاق والمناهج السامية ؟ ».

أجاب : «سؤالك بالتحديد ، يا أخى الشاب ، هو لماذا يتوجب وجود عقيدة مؤسسة . والإجابة بسيطة : فقلة قليلة من البشر – الأنبياء فقط – لديهم القدرة على فهم صوت الفطرة الداخلى . أغلبنا يقع فى شراك المتطلبات والاهتمامات الشخصية والرغبات الذاتية ، فلو اتبع كل فرد هواه ، سيتحول أى مجتمع إلى حالة من الفوضى الأخلاقية

ولا يُتفق على نمط أخلاقى موحد . وقد تسـألنى : ألا يوجد استـثناء لذلك التعميم ، مثـل المستنيرين الذين يشعرون بعدم حاجتهم إلى « التوجيـه »! ولكنى أسـألك ، ألا يدعى أغلب الناس أنهم باستثـنـاء الآخرين على صواب فيما يرونـه ؟ وما الذى يمكن أن ينتج عن ذلك ؟ ».

* * *

كان قد مضى على وجودى بالقاهرة ستة أسابيع حين أصابتنى حمى الملاريا ، هل المقصود أنه أصيب بانتكاسة حمى الملاريا ؟ الراجعة ، كانت قد أصابتنى أول مرة فى فلسطين فى العام السابق . بدأت الحمى بصداع فى الرأس ودوار وآلام فى كل أعضاء الجسم ؛ وعند حلول الليل كنت طريح الفراش لا أقدر على تحريك أصبع . راحت السيدة « ڤيتيللى » صاحبة المنزل الذى كنت أقطن به تشرف على رعايتى بحماس وكأنها تستمتع بعدم قدرتى على الحركة ؛ إلا أن اهتمامها كان اهتمامًا حقيقيًا . كانت تعطينى لبنًا لأشربه ، وتضع الكمادات الباردة على رأسى لخفض درجة حرارة بدنى المحموم - وحين اقترحت عليها أنه ربما كان من الأفضل استدعاء طبيب ، ردت فى غضب وسخط :

« طبيب ؟ بووه ، ما الذى يعرفه أولئك الجزارون عن الملاريا ؟ أنا أعرف عنها أكثر مما يعرفه أى طبيب . لقد مات زوجى الثانى بها فى ألبانيا . كنا وقتها نسكن فى مدينة « دوراتسو » فى ألبانيا وعشنا بها لأعوام ، وكان المسكين يعانى من نوبات ألم أشد مما تعانى أنت الآن ، إلا أنه ظل على ثقته بى حتى النهاية ... ».

كنت فى حالة من الضعف والإعياء لا أتمكن معها من مناقشتها ، وتركتها تسكب فى جوفى كميات من النبيذ المعتق اليونانى الساخن ودواء الكينين - ولم يكن ينتج بعد على شكل حبوب مغلفة بمادة سكرية ، بل المسحوق ذاته الذى كان يسبب لى صدمة بمزاقة المر مثل العلقم وكان ألم تجرعه أشد من آلام الملاريا - ولكن الغريب

أننى وثقت بالسيدة «ڤيتيللى » بالرغم من إشـارتها المشؤمة إلى » المرحوم زوجها الثانى ».

فى تلك الليلة ، حين كان بدنى يلتهب بالحمى ، سمعت فجأة موسيقى عذبة مجسمة آتية من الشارع : كان صوت آلة «البيانوللا » . لم يكن صوت واحدة من تلك الآلات التى تصدر ألحانها بالطَّرْق على أنابيب مفلجة ، لقد رأيت آلات «البيانوللا » قبل ذلك فى شوارع القاهرة : رجل يحمل صندوق الموسيقى على ظهره ، وصبى يعاونه ويسير خلفه ، يدير يد الصندوق ؛ فتصدر الألحان فرادى ، قصيرة وقوية ، مثل سهام تصيب أهدافها ، مثل صوت تحطم زجاج ، ومسافة زمنية تفصل بعضها عن بعض ، لا تشعر المستمع إلى يستمع إلى لحن متكامل ، ولكنها تجره إلى اهتزازات عصبية استجابية لأعضائه ، كانت تشبه اللغز الذى يتوجب عليك حله ، إلا أنك لا تستطيع أن تنفذ إلى ما لا وجود له ؛ فتتحول تلك النغمات إلى نوع من العذاب المضنى والمرهق للأعصاب وتكرار ألحانها فى صمت الليل ، مثل دوامات عاصفة لا مهرب منها ولا فكاك ، مثل الإيقاعات الحركية لحلقة الذكر التى أقامها الدراويش وشاهدتها فى مدينة «سكوتارى » -هل كان ذلك من شهور ، أم كان من أعوام طويلة مضت ؟ – لقد رأيت ذلك بعد أن مررت بمنطقة ينبت فيها الصبَّار بكثافة .

كانت من أغرب الغابات ، تلك المدافن التركية فى منطقة «سكوتارى »، والتى تقع مباشرة عبر البوسفور أمام مدينة أسطنبول : مسالك وممرات بين نبات صبار شديد الكثافة ، وتحت نبات الصبار ، أعداد لا نهائية من قبور ، بعضها سقط شاهده وبعضها مازال قائمًا بموضعه وتعلوها حروف عربية تآكل بعضها بفعل الزمن . كانت مدافن قديمة مهجورة من أزمان ، ومن أجساد موتاها التى تحللت نبتت فى المقابر أشجار هائلة ذات جذوع ضخمة يصل ارتفاعها إلى ستين أو ثمانين قدمًا ، تنمو بالرغم من تفاوت الفصول فى أحضان الموت والسكون الذى تجلى فى أجل صورة فى تلك الأيكة التى لا تتيح لك فرصة للانقباض . لم أشعر بمثل المشاعر التى أحسستها فى ذلك المكان ، سيطر على إحساس أن الموتى غير موتى إلا أنهم نائمون .

أو أنهم موتى عالم سمح لأحيائه أن يحيوا فى سلام ، موتى من بشر ماتوا دون عجلة ...

بعد جولة قصيرة فى أرجاء تلك المدافن ، سرت فى الشوارع الضيقة لمدينة «سكوتارى» المبنية فوق التلال ، شوارع تصعد وتنحدر فى اتجاهات متباينة ، وصلت إلى مسجد صغير لا تميزه إلا بعض النقوش العربية فوق بابه . كان الباب نصف مفتوح فدخلته – وقفت فى قاعة معتمة قليلاً فى منتصفها بدت لى هيئة أناس يجلسون فى حلقة دائرية على بساط حول رجل عجوز طاعن السن . كانوا جميعًا يرتدون قفاطين طويلة ويضعون على رؤوسهم طواقى بنية بلا حواف . كان الإمام العجوز يتلو سورة من سور القرآن فى صوت رتيب وإلى جوار الجدار جلس مجموعة من الموسيقيين : رقوق ودفوف وناى وقيثار .

بدر إلى ذهنى أنه تجمع الدراويش الذين سمعت عنهم قبل ذلك كثيرًا : وهو نظام صوفى يسعى إلى الوصول بالوعى إلى حالة من الارتقاء عن الوجود المادى إلى حالة من النقاء الروحى الخالص وذلك بأداء حركات إيقاعية رتيبة تزداد سرعة إيقاعها وتتصاعد حتى تصل بهم إلى حالة من الانفصال عن الواقع المادى للحياة وتمكن صاحبها من تحقيق حالة من التواصل الروحى السامى والذوبان فى عصمة الرب .

دام الصمت برهة بعد انتهاء الإمام من تلاوة القرآن ، ثم قطع الصمت صوت مفاجئ للناى ، وبعدها صاحبته باقى الأدوات فى إيقاع رتيب متكرر ، كالانتحاب ، كالعويل . ثم نهض الدراويش كما لو كانوا وحدة واحدة فنزعوا عنهم قفاطينهم ووقفوا بجلاليب بيضاء تصل إلى كواحلهم وعليها أحزمة عند الخصور . استدار كل منهم نصف دورة فى اتجاه واحد ، حتى إنهم وهم يقفون فى دائرة ، يواجهون بعضهم : كانوا يعقدون أذرعهم فى صدورهم وينحنون انحناءة شديدة وهم يستديرون بجذوعهم فى نصف دائرة (ذكرنى ذلك بفرسان العصور الوسطى فى أوروبا وهم ينحنون بالطريقة ذاتها أمام السيدات) ، فى اللحظة التالية ، كان الدراويش يقذفون أذرعهم فى الاتجاه المعاكس ، الكف اليمنى ترتفع واليسرى تنزل إلى الجانب . وتخرج من

حلوقهم مع كل نصف انحناءة واستدارة أصوات مثل غناء هامس : « هُـو »يقصدون »ومع الصوت الهامس الخارج من الشفاه يبدأ الدراويش فى الاستدارة البطيئة حول جذعه ، على نغمات من إيقاع الدفوق والناى التى كانت كأنها تأتى من مكان متنائى البعد . ثم يطوحون رؤوسهم للخلف ، مغمضين أعينهم ، ويجتاح ملامحهم تقلص ناعم . ثم تتصاعد وتتسارع إيقاعات الحركة ؛ وترتفع الجلابيب لتكون دائرة متسعة حول كل درويش مثل دوامات البحار ؛ يبدو على وجوههم الانهماك والذوبان فى عالم مختلف ... تحولت الدائرة إلى دوامات ، اجتاحهم الانهماك ، وشفاههم تكرر بلا نهاية كلمة واحدة : هُو ... هو ... هو ؛ أبدانهم تدور وتدور ، سحبتهم إيقاعات الموسيقى إلى عالم من الرتابة التكرارية الخالصة من صوت وحركة ، رتابة متصاعدة ، متسارعة ، تشعر وأنت المراقب كأنها تسحبك معهم إلى داخل الدوامة المتصاعدة ، على درج يعلو فى التفاف حلزونى ، أعلى فأعلى ، دائمًا إلى أعلى ، على درج صاعد متصاعد ، دائمًا إلى أعلى ، صعود حلزونى دائم لا تسبر علوه ، ولا تصل إلى نهايته ...

إلا أن أفكارى وصلت إلى نهاية حين أحسست باليد الحانية للسيدة «ڤيتيللى » والتى وضعت حدًا لتلك الدوامات التى كانت تتصاعد فى ذهنى ، وعادت بى من مدينة «سكوتارى »إلى برودة الغرفة الحجرية التى كنت أقطنها بالقاهرة .

كانت السيدة «ڤيتيللى »على صوابٍ على أى حال . وأعانتنى على قهر ونخطى نوبة حمى الملاريا الراجعة . إن لم يكن بسرعة ، فعلى الأقل فى نفس المدى الزمنى الذى كان سيتطلبه من أى طبيب محترف . خلال يومين شفيت من الحمى ، وفى الثالث انتقلت من الفراش إلى مقعد مريح ، كنت مازلت فى حالة من الضعف والوهن لا تمكننى من الخروج من المنزل ، وراح الوقت يمر ثقيلاً متباطئًا . وزارنى مرة أو مرتين طالب الأزهر الذى يُدرِّس لى اللغة العربية وأحضر لى بعض الكتب لقراءتها .

شغلت فكرى ذكرى حلقة الذكر التى قام بها الدراويش فى مدينة «سكوتارى»، واتضحت فى ذهنى معانى لم تبد لى عندما شاهدت حلقة الذِّكر . كان ذلك الطقس الدينى لتلك الجماعة – وهى واحدة من جماعات كثيرة شاهدتها فى مختلف البلاد

الإسلامية – لا يتفق مع صورة الإسلام التى كانت تتبلور فى ذهنى ببطء . طلبت من صديقى الأزهرى أن يحضر لى بعض كتب المستشرقين التى تتناول موضوع الذِّكر ؛ وتبين لى أن شكى كان فى موضعه ، وأن تلك الممارسات والطقوس دخيلة على الإسلام من جهات ومصادر غير إسلامية .

لقد شابت تأملات وأفكار المتصوفة الإسلاميين أفكار روحية هندية ، وفى أحيانٍ أخرى تأثيرات رهبنة مسيحية – مما أضفى على بعض ذلك التصوف مفاهيم وممارسات غريبة تماماً على الرسالة التى جاء بها النبى .

لقد أكدت رسالة النبى على أن السببية العقلية هى السبيل الوحيد للإيمان الصحيح ، بينما تبعد التأملات الصوفية وما يترتب عليها عن ذلك المضمون . والإسلام قبل أى شىء مفهوم عقلانى لا عاطفى ولا انفعالى ، والانفعالات مهما تكن جياشة ، معرضة للاختلاف والتباين باختلاف رغبات الأفراد وتباين مخاوفهم بعكس السببية العقلية ، كما أن الانفعالية غير معصومة بأى حال .

* * *

من تلك الجزئيات يا منصور راح جوهر الإسلام يتضح أمامى : لمحة من هنا وومضة من هناك ، ومن حوارات ، من كتب من ملاحظات مباشرة – راحت الصورة تتكاسل ببطء فى ذهنى ودون أن أعى أنها تتكون وتتكامل داخلى ... ».

[٢]

حين حططنا رحالنا فى الليل ؛ انشغل زيد فى إعداد الخبز . عجن طحين القمح الخشن بالماء وبعض الملح وشكله على هيئة أرغفة مستديرة بسُمك بوصة ، ثم حفر حفرة فى الرمال ، ملأها بأغصان جافة ثم أشعل فيها النار ؛ وحين خمدت ألسنة

اللّهب ولم تتبق إلا الجمرات الملتهبة ، وضع الأرغفة عليها ، وغطاها بأغصان جافة أشعل فيها النيران . بعد فترة أزاح الأغصان العلوية وقلب الأرغفة على الوجه الآخر ، ثم أخرجها بعد ذلك ودق عليها برقة لإزالة أى رمال عالقة بالخبز . أكلنا الخبز الطازج مع بعض الزبد والتمر . لم أذق قط خبزًا أشهى من ذلك الخبز .

أشبعنا جوعنا ، إلا أن فضول منصور لم يشبع . وحين تمددنا بجوار النار ، واصل إمطارى بأسئلته عن كيفية اعتناقى الإسلام - وبينما كنت أشرح له كيف حدث ذلك ، أدهشنى صعوبة سرد أحداث ذلك الطريق الطويل وما صاحبه من أحداث وأفكار حتى وصلت إلى الإسلام ، قلت :

« الإسلام يا منصور ، دخلنى كما يدخل المتسلل إلى منزل ليلاً ، دون صخب ولا جلبة : الفارق الوحيد بالاختلاف مع المتسلل ، أنه دخل إلى عقلى ليبقى به إلى الأبد . غير أن الأمر استغرق أعوامًا قبل أن أكتشف أننى قد آمنت من أعماقى بالإسلام ... ».

عاد فكرى من جديد إلى أيام رحلتى الثانية إلى الشرق الأوسط - حين كان التفكير فى الإسلام يشغل ذهنى - إلا أن الأمر بدا لى فى ذلك الوقت على أنه رحلة استكشاف ما لا أعرفه من تلك المناطق . كل يوم كان يمر كان يضيف لى معارف جديدة ؛ كما يطرح أسئلة جديدة تنبع داخلى من لأجد إجاباتها تأتينى من خارجى . كلها أيقظت شىء ما كان كامنًا بأعماقى ؛ وكلما نَمَت معارفى عن الإسلام كنت أشعر مرة بعد أخرى ، أن الحقائق الجوهرية التى كانت كامنة فى أعماقى دون أن أعى وجودها . بدأت تنكشف تدريجيًا ، ويتأكد تطابقها مع الإسلام .

فى بدايات صيف ١٩٢٤ انطلقت من القاهرة فى جولة طويلة خططت لها أن تدوم عامين . عدت مرة أخرى إلى عبر الأردن وقضيت بعض الأيام مع الأمير عبد اللّـه ، مستمتعًا بأصالة الطبيعة البدوية التى لم تكن قد تأثرت بعد بأنماط الحياة الغربية . وحصلت على موافقة فرنسية دبرتها لى جريدة « فرانكفوتر ذيتونج » ، ودخلت سوريا مرة أخرى . جاءت دمشق ومضت ، واحتضنتنى الحياة الشرقية فى

بيروت لبعض الوقت ، ومنها توجهت إلى مدينة طرابلس التى كانت تتبع سوريا فى ذلك الوقت ، كانت مدينة خارج نطاق وإطار أية أحداث وتحيا حياة سعيدة هادئة أقرب إلى النعاس . كانت القوارب الشراعية البسيطة ترسى فى مراسيها بالميناء المفتوح ، كانت أشرعتها اللاتينية الطراز تتماوج وتئن فى وهن ، وأبناء المدينة يقضون أوقاتهم بالجلوس على مقاعد واطئة أمام المقاهى فى مواجهة الميناء ، يتناولون فى استرخاء أقداح القهوة ذات الرائحة النفاذة ويدخنون الأراجيل فى الأمسيات تحت أشعة الشمس الموشكة على المغيب ، لا تجد فى أنحائها إلا الهدوء والسلام والرضا مع توفر الرزق ؛ حتى المتسولون بدوا وكأنهم يستمتعون بأشعة الشمس المائلة للمغيب ، كأنهم يقولون فى سريرتهم : « ما أجمل أن تكون شحاذًا فى طرابلس ».

ثم وصلت إلى مدينة حلب . ذكرتنى شوارعها ومبانيها بمدينة القدس ، مبانٍ حجرية قديمة كأنها نبتت من الأرض ، ذات ممرات مظلمة مسقوفة ، وميادين هادئة صامتة ، ونوافذ منحوتة . أما قلب حلب فقد كان يختلف تمامًا عن القدس . فالجو السائد فى القدس يسوده صراع التيارات الدولية ، وكانت تلك الصراعات مثل التقلص العضلى المؤلم شديد التعقيد ؛ يعكس هو الآخر تعقيدات المواقف الدولية ، وأفرخت المعتقدات الدينية المتباينة سحابة من سم الكراهية على ساكنيها . أما حلب .. على الرغم من أنها كانت خليطًا من البدو العرب والشرقيين مع مسحة تركية لقربها منها – فقد كانت متآلفة وهادئة وصافية . المنازل الحجرية بشرفاتها الخشبية تبدو حية حتى فى صمتها . كانت سوقها القديمة تتميز بالصناعات اليدوية الشرقية الدقيقة ، وأحواشها ذات العقود الحجرية المليئة بصنوف البضائع ، وتنافس مرح بين تجارها الخالين من أى أنواع الحسد والضغينة ؛ الكل متمهل ، ارتخاء وراحة تحتضن حتى الغريب وتجعله يتمنى أن تكون كل حياته بتلك الراحة والاسترخاء : عناصر كثيرة تجتمع فى حلب تتدفق معًا لتكون لحنًا قويًا رائعًا .

من حلب توجهت بالسيارة إلى مدينة دير الزور ، وهى مدينة صغيرة بأقصى شمال سوريا ، ونويت أن أتوجه منها إلى بغداد عبر طريق التجارة القديم المجاور لنهر الفرات ؛ وفى تلك الرحلة قابلت زيد لأول مرة .

بعكس طريق دمشق – بغداد الذى كانت السيارات قد اعتادت سلوكه ، كان الطريق المجاور لنهر الفرات من دير الزور حتى بغداد غير مطروق للسيارات ؛ وفى الحقيقة كانت سيارة واحدة قد سلكت ذلك الطريق من قبل وصولى بعدة أشهر . وكان قائد السيارة الأرمنى الذى اتفقت معه لم يخرج خارج دير الزور بالسيارة قبل ذلك ، إلا أن الثقة كانت تملؤه بإنه يستطيع القيادة عبر الطريق القديم حتى بغداد ، خاصة إذا استفسر ممنْ يعرفون الطريق عن بعض المعلومات التى تنقصه ، فذهبنا إلى الشارع التجارى لتقصى تلك المعلومات .

كان الشارع التجارى يمتد من بداية مدينة دير الزور حتى نهايتها ، وكان يُعَدّ شكلاً غير رسمى من أشكال التقسيم يفصل ما بين الجزء الحضرى السورى وبين القسم البدوى ، ومع أن المدينة بأجمعها كانت أقرب إلى الطابع البدوى . فى أحد المحالات الحديثة ، كانت توجد البطاقات التذكارية سيئة الطباعة ، وفيما يليه تجد بعض البدو واقفين يتناقشون فى أحوال سقوط الأمطار على الصحراء ، وعن النزاع الذى نشب بين قبيلة بشر – عنازا السورية وقبائل شمار العراقية ؛ وراح واحد منهم يحكى عن الغارة التى شنها زعيم بدو نجد ، فيصل الداويش ، على جنوب العراق ، كما ورد على لسانهم اسم رجل الجزيرة العربية العظيم ، ابن سعود .

كانت المتاجر تعرض بنادق قديمة ذات مواسير طويلة ومقابض مزينة بالفضة – طرز قديمة لم يعد أحد يشتريها الآن ، لأن البنادق الحديثة الآلية أصبحت أكثر فعالية – ومحلات أخرى تعرض أزياء رسمية مستعملة من أرجاء القارات الثلاث ، وسروج جمال من نجد ، وإطارات سيارات ماركة جوديير ، ومصابيح عواصف من « لايبزج » ، وعباءات بدوية يمنية من الجوخ . لم تبد البضائع الغربية دخيلة بين الأنواع والأصناف الأخرى ؛ كانت فوائدها العملية تعطيها شرعية وجودها . كان البدو بوعيهم العملى يعتادون بسرعة تلك السلع الجديدة كأنها من إبداعهم ، لم أكن أدرك تماماً حتى ذلك الوقت ما يمكن أن تسببه « الحداثة » الغربية لأولئك الناس البسطاء الأميين ...

فى الوقت الذى انشغل فيه قائد السيارة الأرمنى بالتقصى عن حال الطريق إلى بغداد من بعض البدو ، أحسست بمن يجذب كم قميصى : استدرت . وجدت أمامى

رجلاً عربيًا حسن الوجه تبدو عليه إمارات الجد والحزم ، فى بداية الثلاثينيات من عمره . قال فى صوت خشن بطىء :

« بإذنك يا أفندى ، سمعت أنك مسافر إلى بغداد بالسيارة وأنك تجهل الطريق ، ومسالكه . دعنى أذهب معك ؛ قد أكون ذا فائدة لك ».

« أنا زيد بن غانم ، من قوات (العجايل) العاملة فى العراق ».

لم ألحظ إلا فى تلك اللحظة لون القفطان الكاكى الذى يرتديه والنجمة سباعية الأضلاع التى يثبتها على عقاله الأسود وهى رمز قوات الصحراء العراقية ، كانت تلك القوات ، التى يطلق عليها العرب اسم « العجايل » ، قد أسسها الاستعمار التركى : وهى قوات من المتطوعين يُنتقون من بين أهل وسط الجزيرة العربية المتمرسين بالصحارى وركوب الجمال .

أخبرنى زيد أنه قدم إلى دير الزور بصحبة أحد ضباط تلك القوات فى مهمة إدارية تتعلق بالحدود السورية العراقية . وبينما كان الضابط قد عاد إلى العراق ، بقى زيد لبعض الأمور الشخصية . وهو الآن يفضل السفر معى إلى العراق بدلاً من سلوك الطريق التقليدى الذى يستلزم العودة إلى دمشق أولاً ، ومنها إلى العراق ، واعترف لى أنه لم يسلك الطريق الذى ننوى السير فيه قبل ذلك بمحاذاة نهر الفرات ، وقال إنه يعرف كما أعرف أنا أن سبب انحناءات الطريق أن النهر لن يكون ملاصقًا للطريق عبر كل المسافة - و « لكن » ، أضاف زيد ، « الصحراء هى الصحراء ، والشمس والنجوم هى الشمس والنجوم فى أى مكان ، وإن شاء اللّـه نستطيع أن نجد طريقنا إلى بغداد ». أسعدتنى ثقته الجادة بنفسه ، ووافقت بكل سرور أن يصحبنا فى ذلك السفر .

فى الصباح التالى غادرنا دير الزور . وفتحت صحراء « حمَّادا » الكبرى أحضانها لعجلات سيارتنا التى كانت من طراز « تى - فورد » : سهول لا تنتهى من الحصى الصغير ، يستوى أحيانًا كالأسفلت ويمتد أحيانًا فى تموجات صاعدة أو هابطة من الأفق حتى الأفق المقابل .

أحيانًا يبدو نهر الفرات قريبًا إلى اليسار ، وتبدو مياهه بلون الطمى و هادئ ، بضفاف منخفضة ، كبحيرة هادئة ، حتى تلمح قطعة طافية من الأخشاب أو قارب فوق سطح مياهه يكشف سرعة تدفقه وجريانه . نهر عريض له عظمة الملوك ، تجرى مياهه فى صمت ؛ لم يكن صاخبًا ؛ ولا أهوج ، وبلا أمواج تهدر . يمضى منسابًا فى شريط عريض ، متحرر من أى قيد ، يختاره مساره ومجراه عبر منحنيات لا نهائية فى صحراء مترامية ، ند لند ، تيه وفخار يشق طريقه داخل تيه وفخار : فالصحراء التى يمضى فيها لم تكن تقل عنه قوة .

جلس زيد ، مرافقنا الجديد بجوار السائق ضامًا ركبتيه إلى صدره ، التمع فى قدميه حذاء جديد من الجلد الطبيعى المغربى كان اشتراه فى اليوم السابق من سوق دير الزور .

كنا نلتقى أحيانًا براكبى جمال يظهرون من لا مكان فى قلب الصحراء ، يتوقفون بجمالهم للحظات ويتأملون السيارة فى دهشة ، ثم يحثون إبلهم على مواصلة السير ، كانوا من رعاة الإبل ، أحالت الشمس بشرتهم إلى لون برونزى داكن . كنا نتوقف فترات قصيرة بمفردنا فى استراحات الطريق المهدمة ولا يوجد غيرها فى صحراء لا نعرف مداها ، اختفى نهر الفرات خلف الأفق . الرياح تهب بقوة على رمال الصحراء ، مساحات شاسعة من الحصى تتناثر بينها تجمعات عشبية ونباتات شوكية ، إلى اليمين سلاسل من التلال الواطئة و عارية من أية نباتات وذات فروع ، تظهر فجأة لتخفى وراءها لا نهائية الصحراء ، يتسائل المرء عما يمكن أن يوجد وراء تلك التلال ؟ وبالرغم من إدراكك أن ما خلفها ليس إلا تلالاً أخرى ومساحات من الحصى تعرض نفسها لوابل حرارة الشمس ، فإن التساؤل يظل معلقًا بلا إجابة ؟ وهدوء ما بعد الظهر لا يقطه إلا صوت المحرك وصوت احتكاك إطارات السيارة بحصى الأرض . هل سقطت حافة العالم فى هذا المكان وشكلت تلك الهاوية البدائية ؟

بعد الظهر أدرك السائق زنه نسى تزويد مبرد المحرك بالماء عند آخر استراحة توقفنا بها . كان النهر غير ظاهر وبعيد ولا نعلم موضعه من مكاننا ؛ كل ما كان حولنا

حتى الأفق المتموج البعيد لا يظهر إلا فراغًا ، سهل جيرى أبيض شديد الحرارة ؛ تجرى فوقه رياح شديدة السخونة ، تأتى من المجهول وتمضى إلى المجهول ، بلا بداية ولا نهاية ، بصوت مكتوم يأتى من الأبدية ذاتها .

قال السائق فى لا مبالاة شرقية (وهى صفة سائدة كنت أعجب بها أحيانًا – إلا فى ذلك الوقت) : « على أى حال سنصل إلى استراحة تالية » ، ولكن بدا لى « على أية حال » هذه التى قالها السائق لن تتحقق قط كانت الشمس لافحة ، وقرقر الماء فى المبرد كما يقرقر الماء الفائر فى غلاية الشاى على النار . التقينا ببعض البدو من الرعاة . ماء ؟ لا ، لا يوجد إلا على مسيرة خمسة عشر ساعة بالجمال . سألهم السائق الأرمنى فى تعجب : « وماذا تشربون ؟ » ، ضحكوا قائلين : « نشرب حليب النوق ». لابد أنهم ضحكوا فى أعماقهم من أولئك المجانين الذين يركبون تلك الآلة الشيطانية السريعة ، يسألون عن ماء – بينما يعرف أى طفل بدوى أنه لا يوجد أى ماء فى تلك الأنحاء .

تطور غير سار : أن نبقى محاصوين فى تلك الصحراء بمحرك معطل ، دون ماء ، ولا طعام ، وننتظر حتى تمر سيارة أخرى – ربما غدًا أو بعد غد – أو ربما بعد شهر ...

بمرور الوقت بدأ السائق يفقد ابتسامة اللامبالاة . أوقف السيارة وحل غطاء المبرد ؛ اندفع بخار ماء كثيف صدر عنه هسيس وصفير من شدة اندفاعه ، كان معى بعض ماء الشرب فى قنينتى ضحيت بها من أجل محرك السيارة . أضاف الأرمنى قليلاً من الزيت على الماء ، وحملتنا السيارة الشجاعة لمسافة أخرى .

قال الأرمنى المتفائل : « أعتقد أننا يمكن أن نجد ماءً فى تلك الجهة إلى اليمين ، تلك التلال تبدو خضراء – وحيث ينمو العشب فى هذا الوقت من العام ، لابد أن هناك ماء . وما دام هناك ماء ، لماذا لا نسوق باتجاهه ؟

المنطق دائمًا ما يحوطه شىء ما لا يمكن مقاومته ؛ وبالرغم من أن منطق الأرمنى كان منطقًا أعرج ، إلا أنه انحرف بالسيارة عن مسارنا وقاد عدة أميال باتجاه التلال

البعيدة التى أشار إليها : لم نجد ماءً ... كانت التلال مغطاة بحجارة متناثرة خضراء اللون .

بدأ صوت الفحيح والهسيس الصادر من المحرك يزداد من جديد ، وبدأت مكابس المحرك تصدر أصواتًا خشنة منذرة بتحطمه من الطاخل ، كان الدخان الرمادى قد بدأ يتصاعد من فتحة بغطاء السيارة الأمامي ، بعد دقائق أخرى لابد أن يتحطم شيء ما : تحطم عامود الحركة أو شيء غيره ، كنا فى ذلك الوقت قد انحرفنا بعيدًا تمامًا عن طريق القوافل الذى كنا عليه ؛ وإن حدث أى انهيار للمحرك الآن ، سنبقى هنا بلا أمل . أفرغنا كل ما معنا من زيت فى مبرد الموتور ، أصبح السائق فى حالة هستيرية وهو يبحث عن الماء ، يقود تارة إلى اليمين ، وتارة إلى اليسار ، وأحيانًا فى دوائر ومنحنيات ؛ إلا أن الماء رفض أن يظهر ، حتى قنينة « الكونياك » التى أفرغتها فى حسرة فى المبرد لم تؤثر بأى حال باستثناء أنه غلفنا فى سحابة من بخار الكحول جعلت زيد (الذى لم يعرف الكحول فى حياته) على وشك القئ من شدة الغشيان الذى أحس به . كانت المحاولة الأخيرة هى ما جعل زيد يتخلى عن جموده وتعطل فكره . بحركة غاضبة جذب الكوفية إلى أسفل فوق عينيه ، ومال بجذعه فوق حافة السيارة الساخنة وبدأ يحدث فى أرجاء السهل الصحراوى الذى كنا به ، يحدث بتركيز وانتباه أولئك الذين نشأوا وتربوا فى الخلاء واعتادوا الاعتماد على حواسهم الحادة . انتظرنا فى ترقب وتحفز ، دون أمل كبير ، فقد أخبرنا من قبل ، أنه لم يمر بتلك المنطقة فى حياته . إلا أنه أشار بيده تجاه الشمال وقال : « هناك » . كانت الكلمة التى نطقها بمثابة أمر لا راد له ؛ أطاع السائق الأمر فى الحال ، كما لو كان قد أراحه أن يتولى أحد مسئولية البحث . بأنين شديد صادر من المحرك اتجهنا إلى الشمال . فجأة رفع زيد بدنه كمَنْ يهم بالنهوض ، ووضع كفه على ذراع السائق ، وأمره بالتوقف . جلس للحظات ورأسه منحنٍ للأمام مثلما يتشمم كلب الصيد ؛ وبدت حول شفتيه المزمومتين ارتعاشة طفيفة لا تدركها إلا العين الفاحصة .

ثم قال فجأة : « كلا ، قُدْ فى هذا الاتجاه » ، وأشار إلى الشمال الشرقى ، ثم أردف بحزم : « بسرعة » ، ومرة أخرى أطاع السائق الأمر دون كلمة . وبعد دقيقتين

صاح من جديد : « قف » ، وقفز بخفة من السيارة ، جامعًا عباءته الطويلة بين يديه وجرى للأمام فى خط مستقيم ، ثم توقف ، واستدار وكرر ذلك عدة مرات كأنه يبحث عن شىء أو يستمع إلى صوت داخلى – نسيت المحرك والورطة التى نعانيها وأصبحت أسير مشهد رجل يستجمع كل حواسه ، ما ظهر منها وما بطن ويندمج مع عناصر الطبيعة ، وفجأة تحرك فى خطوات واسعة فى البداية ثم هرول واختفى بين تلين ، وبعد فترة ظهرت رأسه ولوح بيديه قائلاً : « ماء ».

جرينا باتجاهه – وكان الماء هناك : فى حفرة محمية من الشمس بصخور معلقة فوقها التمع سطح بركة صغيرة من الماء ، بقايا أمطار الشتاء الماضى ، كانت صفراء بنية بها عوالق طينية ، إلا أنه ماء ، ما حقيقى . بعض غرائز أهل الصحراء غير المفهومة لدى رجل صحراء نجد كشفت عن موضعه ... وبينما انهمكت أنا والسائق الأرمنى فى الاغتراف من سطح المياه وإفراغها فى صفائح الوقود الفارغة ، وننقله إلى المحرك الذى أضناه نقص الماء ، تمشى زيد مبتسمًا ابتسامة البطل الصامت بجوار السيارة جيئة وذهابًا.

* * *

فى ظهر اليوم الثالث وصلنا إلى أول قرية عراقية – قرية أنا على نهر الفرات – وقدنا السيارة لساعات بين بساتين النخيل التى تحوطها أسوار طينية . على طول المسافة التى قطعناها كانت تنتشر قوات « العجايل » ، وكان أغلبهم كما أخبرنا زيد من أبناء قبيلته ، ينتشرون بخيولهم بين ظلال أشجار النخيل تنعكس عليهم بقع الشمس والضوء الأخضر الساقط من قمم الأشجار فبدوا فى عظمة وكبرياء الملوك . حيا زيد بعضهم ونحن نمر بهم ، وكانت جوانب كوفيته السوداء تخفق فى الهواء وتضرب على جانبى وجهه . وبالرغم من اعتياده قسوة الصحراء وحرارتها ، إلا أنه كان فائق الحساسية ، فعندما كنا نمر على طريق القرى الترابية كان يلف كوفيته

ويغطى بها فمه لتجنب تنفس الغبار المشار - وهو الغبار الذى لم نأبه له ونحن أبناء المدن المنعمين - وحين أصبحت السيارة فى منطقة حصى لا يثير غباراً ، أزاح كوفيته إلى الخلف فى حركة ناعمة تشبه حركات الفتيات المدللات ، وبدأ فى الغناء : فجأة وبلا أى تمهيد بدأ فى الغناء ، كما لو كان جبل ينزل فجأة على واد . كان ينشد قصيدة نجدية من قصائد الشعر الغنائى - نغمات طويلة صعوداً وهبوطاً والإيقاع لا يتغير ، يتدفق مثلما تتدفق رياح الصحراء ، قادمة من مجهول وماضية إلى مجهول .

فى القرية التالية طلب من السائق أن يتوقف ، قفز من السيارة وشكرنى على السماح له بمرافقتنا ، علق بندقيته على ظهره ، واختفى بين النخيل ، وظلت بالسيارة رائحة لا اسم لها - رائحة إنسانية مكتملة بذاتها ، ذكرى نابضة ببراءة الروح التى طال نسيانها والمستعصية على النسيان فى الآن نفسه . فى ذلك اليوم فى قرية آنا ظننت أننى لن أرى زيد بعد ذلك أبداً ؛ إلا أن ظنى لم يكن صحيحاً ...

* * *

فى اليوم التالى وصلت إلى « حت » ، وهى مدينة صغيرة تقع على نهر الفرات ، فى نقطة التقاء الطريق الصحراوى القادم من دمشق إلى بغداد بالطريق الذى سلكناه . كانت « حت » تتوج قمج تل بأسوارها وأبراجها ، فقد كانت المدينة تشبه حصناً قديماً . لم تبد بها أية حياة ولا من حولها . كانت منازلها الخارجية كأنها حوائط نبتت من الأرض ؛ بلا نوافذ ، باستثناء فتحات ضيقة مثل فتحات الرماية بالبنادق فى الحصون . ومن منتصف المدينة ارتفعت مئذنة مسجد أعلى من بيوتها .

توقفت لقضاء الليل فى استراحة قريبة من النهر . وبينما كان العشاء يعد لى أنا وسائق السيارة ، ذهبت للاغتسال فى البئر الموجودة بالفناء ، حيث جلست القرفصاء لأغتسل ، مدَّ شخص يده وتناول الإبريق الفوهة الطويلة ، وراح يسكب لى الماء لأغتسل . تطلعت إليه فرأيت رجلاً متين البنيان ذا بَشرة داكنة ويضع على رأسه

غطاء رأس من الفراء ؛ ساعدنى على الاغتسال دون أن أطلب منه . كان من الواضح أنه ليس عربيًا . حين سألته من هو ؟ أجاب بلغة عربية تشوبها لكنه : « أنا من التتار ، من أذربيجان ».

كانت له عينان رقيقتان فى رقة عيون الكلاب ، وكان زيه الذى كان عسكريًا فى يوم ما زيًا رثًا باليًا ، تبادلنا الحديث ، بالعربية أحيانًا ، وببعض الكلمات الفارسية حينًا آخر وكنت قد تعلمتها من طالب إيرانى كان يدرس بالأهر فى القاهرة . علمت أن اسمه إبراهيم . قضى أغلب عمره – وكان يناهز الأربعين – على الطرق الإيرانية ؛ اشتغل لأعوام بقيادة عربات نقل البضائع من « تبريز » إلى « طهران » ، ومن «مشهد» إلى « بيرچند » ، ومن « طهران » إلى « أصفهان » ، و « شيراز » . وذات يوم امتلك مجموعة من الخيول ، وخدم كجندى فى قوات الحرس الراكبة ، وكحارس شخصى لزعيم محلى تركمانى ، وسائس خيول فى استراحة بأصفهان ، وفى الوقت الذى التقيته كان قد جاء إلى العراق كسائق بغل فى قافلة حجاج إيرانيين إلى مدينة كربلاء ، واشتجر وقائد القافلة ففقد عمله فى بلد أجنبى وأصبح عاطلاً .

فى تلك الليلة تمددت لأنام على أريكة خشبية فى الفناء المليء بالنخيل . كان الجو شديد الحرارة مشبع برطوبة خانقة ، وجحافل أسراب البعوض تتطاير من حولى وقد انتفخت بالدماء التى امتصتها . ألقت بعض المصابيح ضوءًا هزيلاً لم يبدد ظلمة الليل . كانت بعض الخيول مربوطة إلى أحد الجدران وربما كانت لصاحب الخان . كان إبراهيم التتارى يمسد واحد من تلك الخيول ، بطريقة تظهر ولعه وحبه للخيل ، كانت أصابعه تمسد معرفة الحصان كما يمسد المحب شعر محبوبته .

طرأت على ذهنى فكرة جديدة . لقد كنت فى طريقى إلى إيران ، وربما أقضى بها شهورًا طويلة متنقلاً على ظهور الخيل ، فلماذا لا أستعين بهذا الرجل ؟ بالتأكيد سأكون فى حاجة إلى رجل يعرف مسالك إيران وطرقها ويعرف خاناتها كما يعرف المرء منزله .

حين أخبرته فى الصباح أننى أفكر فى ضمه إلىّ كخادم ، أوشك على البكاء من شدة امتنانه وقال لى بالفارسية : « يا حضرة ، لن تندم على ذلك أبدًا ... ».

كان الوقت ظهراً فى خامس يوم بعد مغادرتى حلب حين ظهر أول مشهد لمزارع النخيل الشاسعة التى تحيط ببغداد . وبين تجمعات قمم النخيل لمعت قبة مسجد ومئذنته العالية . على جانبى الطريق كانت هناك مدافن قديمة بشواهد قبور محطمة ومتداعية ويعشش فوقها التراب الذى ظهر كحجاب من قماش فضى فى ضوء شمس الظهيرة – كحاجز فضى غامض بين عالم الأموات المنقضى والحاضر الحالى الحى . مضينا إلى قلب أشجار النخيل – ميلاً بعد ميل لا تجد إلا أعداداً هائلة من جذوع النخيل الصاعدة إلى السماء ومحملة فى نهايتها بأسباط البلح – حتى انتهت فجأة على حافة نهر دجلة . لم يكن نهر دجلةيشبه الفرات بأية حال : كانت مياهه طينية خضراء ثقيلة متماوجة مقارنة بالتدفق المهيب الجليل لنهر الفرات .

عبرنا نهر دجلة على معبر متأرجح متهالك ، وهبطت علينا حرارة الخليج الفارسى الخانقة .

لم يتبق فى بغداد شىء من عظمتها وروعتها التاريخية القديمة . دمر هجوم المغول فى القرون الوسطى المدينة بأجمعها فلم يبق منها شىء يذكر بعظمة هارون الرشيد . لم يبق إلا مدينة موحشة كئيبة عشوائية – ربما كانت مبانى مؤقتة . كانت المدينة قد بدأت فى التغير والحراك ، كانت هناك مبانى حديثة عالية ؛ فمن سبات الإدارة التركية الخاملة كانت عاصمة عربية تبرز إلى الوجود ببطء .

تركت الحرارة الشدية بصماتها حتى على حركة البشر المتثاقلة . كان الناس يسيرون ببطء متناه فى الشوارع وكأن دماءهم ثقيلة ، بلا مرح ودون مهابة وجلال . وجوههم عابسة لا تحمل وداً ، وتعلوها كوفيات مخططة بالأبيض والأسود ؛ وإن رأيت مصادفة وجهًا حسن المحيا وتحمل ملامحه اعتداداً واعتزازاً بالذات لابد أن تجد أن كوفيته مخططة بالأحمر والأبيض مما يعنى زنه لا ينتمى إلى بغداد ، ربما كان من الشمال من سوريا أو من الجزيرة العربية .

كان يبدو على وجوه أهل بغداد كراهية عميقة للقوى الأجنبية التى حرمتهم من حريتهم ، كان تطلعهم إلى الحرية يسيطر على تفكيرهم . قد يتغير ذلك العبوس الذى

يعلو وجوههم عندما يلتقون بأهلهم فى الحوارى الضيقة وفى المنازل المحاطة بالأسوار . لو تفحصت تلك الوجوه ، ستجد أنها لا تخلو من سحر وجاذبية . وربما يضحكون أحيانًا مثلما يفعل العرب الآخرون . نساؤهم تسير بالطرقات فى ملاءات زاهية الألوان : أثواب غالية ترتديها نساء منقبات بألوان من الأسود والأحمر ، أو الأزرق الفضى وأحمر « بوردو » القانى ، مجموعات من الملاءات الزاهية تتهادى فى الطرقات دون أن يصدر عنهن صوت لوقع أقدامهن .

* * *

بعد عدة أسابيع من وصولى إلى بغداد ، وبينما كنت أمشى فى السوق الكبير للمدينة ، سمعت صيحة من أحد طرقات السوق المسقوفة ، وتردد صداها فى شوارع السوق . من إحدى زوايا الشارع اندفع رجل هاربًا ، ثم تلاه آخر ، ثم ثالث ، وبدأ الناس يركضون كأنما يطاردهم خوف يعلمون سببه ولا أعلمه . ثم سمعت وقع حوافر خيول : وظهر راكب حصان يركض به فى خوف والناس يفسحون له الطريق وهم هاربون ، ثم مزيد من الراكضين آتين كلهم من جهة واحدة يحملون ما اشتروه فى فوضى عارمة وراحوا جميعًا يندفعون هاربين فى اتجاه واحد . راح أصحاب المحلات يغلقون أبوابها فى عجلة ويضعون العوارض الخشبية على الأبواب ، لا أحد يتحدث إلى أحد ، الكل يهرب فى صمت ، لا تسمع من آن إلى آخر إلا صرخات مَنْ يسقطون أرضًا أثناء فرارهم ؛ أو صراخ طفل مفزوع .

ماذا حدث ؟ لا إجابة ، الوجوه شاحبة فى كل مكان ، اندفعت عربة بنصف ما كانت تحمله من بضائع بخيولها دون سائق في حوارى السوق الضيقة . من مكان لا أراه سمعت صوت تساقط وتحطم أكوام من الأوانى الفخارية وميزت صوت تدحرج بعضها على الأرض .

باستثناء تلك الأصوات المتناثرة وعدو الناس ولهاثهم ، ساد صمت ثقيل الوطأة ، مثل ذلك الذى يحدث أحيانًا فى بدايات الزلازل . لم يكن يقطع الصمت إلا صوت احتكاك الأقدام العادية بالأرض ؛ أو صرخة امرأة أو بكاء طفل . ثم بعض راكبى الخيل الفاغرين . فزع ، فرار ، وصمت . فوضى مجنونة فى تقاطعات شوارع السوق المسقوفة .

انحشرت وسط أحد تلك الحشود عند أحد التقاطعات ، لا أستطيع أن أتقدم ولا أن أتقهقر ، وفي الحقيقة ، لا أعرف إلى أين يجب أن أمضى . فى تلك اللحظة أحسست بيد تقبض على ذراعى : التفت فوجدته زيد ، كان يجذبنى تجاهه خلف حاجز من البراميل بين بابى محلين . همس قائلاً : «لا تتحرك ».

أز صوت حاد - طلقة بندقية ؟ مستحيل ...

من بعيد ، من أعماق السوق الداخلية ، جاء خليط من أصوات بشرية . مرة أخرى أز صوت طلقة نارية لا يمكن أن تخطئه أذن ، هذه المرة : كانت طلقة بندقية ...

من بعيد أتى صوت واهن لطرقعات علي الأرض ، كصوت حبات البازلاء الجافة حين تتساقط على الأرض . اقترب الصوت ببطء وازداد علواً ، ذلك الصوت المريب ، المنطلق فى دفقات : تعرفت عليه أخيراً : كان صوت مدفع رشاش .

كانت بغداد تعلن التمرد مرة أخرى . فى اليوم السابق ، التاسع والعشرين من مايو ١٩٢٤ ، كان البرلمان العراقى قد أقر معاهدة تتعارض مع رغبة الشعب العراقى ، معاهدة صداقة وتحالف مع بريطانيا العظمى ، والآن يحاول الشعب اليائس أن يدافع عن نفسه ضد صداقة القوة الأوروبية العظمى ...

علمت بعد ذلك أن القوات البريطانية أغلقت كل منافذ السوق من الخارج لإجهاض خروج مظاهر معادية ، وأن كثيرين لقوا مصرعهم فى ذلك اليوم نتيجة لإطلاق القوات البريطانية النار بطريقة عشوائية بالسوق . ولو لم يظهر زيد فى اللحظة المناسبة ، ربما كنت قد عدوت عن جهل فى اتجاه المدافع الرشاشة .

كان ذلك اليوم هو بداية صداقتنا الحقة . كانت حكمة زيد ورجولته تجذبني بقوة إليه ، وكان من الواضح أنه أيضًا قد مال إلى أوروبى شاب لم يجد لديه ما يسىء للعرب . أخبرنى زيد بقصة حياته البسيطة ، فقد نشأ فى خدمة الأسرة الحاكمة فى مدينة حائل مثل أباه من قبله ، وكانت تلك الأسرة الحاكمة من قبائل شمَار وهى أسرة ابن راشد ؛ وحكى لى كيف غادر موطنه هو وكثيرون من أبناء قبائل شمار بعد أن غزا ابن سعود مدينة حائل عام ١٩٢١ واعتقل آخر حاكم من أسرة ابن راشد ، غادر زيد بلاده مفضلاً مواجهة مستقبل غامض على الخضوع لحاكم آخر ليس من أبناء قلبيلته . وها هو ، يضع على عقاله النجمة السباعية العراقية ، ويتوق شوقًا إلى موطنه .

خلال الأسابيع التى قضيتها بالعراق كنا نلتقى كثيرًا ، وظللنا على اتصال في الأعوام التى تلت ذلك . كنت أكتب إليه أحيانًا ، ومرة أو مرتين أرسلت إليه هدية بسيطة كنت أشتريها من أحد المتاجر الإيرانية أو الأفغانية ؛ وفى كل مرة يرد برسالة ركيكة الخط يذكرنى فيها بأيام العراق وأيام السفر بالسيارة بموازاة نهر الفرات أو زيادة الأسود المجنحة بين أنقاض مدينة بابل .

وأخيرًا ، حين جئت إلى الجزيرة العربية عام ١٩٢٧ ، أرسلت إليه فى العراق طالبًا منه أن يلحق بى ، وقد فعل ذلك فى العام التالى . ومنذ ذلك الوقت أصبح مرافقًا لى ، كان مرافقًا أكثر من خادمًا .

* * *

فى بدايات العشرينيات من القرن العشرين ، كانت السيارات نادرة فى إيران ، وكان عدد محدود منها معروضًا للإيجار بين المدن الرئيسية . ولو أراد مسافر أن يخرج عن نطاق ثلاثة أو أربعة طرق رئيسية ، كان لابد له أن يعتمد على العربات التى تجرها الخيول ، وحتى عربات الخيول لم يكن بمقدورها أن تمضى إلى كل مكان ، فقد كانت هناك مناطق كثيرة بإيران لا توجد بها طرق من أى نوع . ولامرئ مثلى ، يتوق إلى

الاختلاط بالناس ومعرفتهم فى أماكن معيشتهم ، لم يكن أمامى بديلاً عن التنقل على ظهور الخيل ؛ ولذلك وخلال آخر أسبوع لى ببغداد ، وبمعاونة إبراهيم التتارى ، كنت أتوجه كل صباح إلى سوق الخيل خارج المدينة . وبعد مفاوضات دامت أياماً ، اشتريت جواداً لى وبغلاً لإبراهيم . كان جوادى فى لون البندق من سلالة من جنوب إيران ، بينما كان البغل - وهو حيوان عنيد له عضلات من فولاذ - رمادى اللون من تركيا ؛ كان بإمكانه أن يحمل بسهولة بالإضافة إلى راكبه ، الحقائب وأجولة الأمتعة التى تحتوى على كل ضرورات الحياة .

امتطى إبراهيم جوادى وجر البغل من مقوده وانطلق ذات صباح قاصداً مدينة خانقين ، وهى آخر مدينة عراقية على الحدود الإيرانية ، ونهاية خط السكة الحديدية الواصل من بغداد إلى خانقين ؛ وتبعته بعد يومين بالقطار لألحق به هناك .

غادرنا خانقين تاركين العالم العربى خلفنا . أمامنا نهضت تلال صفراء اللون ، تقف كالخفراء أمام جبال شاهقة العلو : جبال الهضبة الإيرانية ، عالك جديد بانتظارى .

كانت نقطة العبور على الحدود مبنى صغير وحيد يعلوه علم باهت بألوان خضراء وبيضاء وحمراء ورسم رمزى لأسد يحمل بيده سيفًا تحت شمس ساطعة كان موظفى نقطة العبور يرتدون زيًا رسميًا موحداً بادى الاتساخ والإهمال ويضعون فى أقدامهم خفوفًا بيضاء سود الشعر بيض البشرة ، فحصوا أمتعتى القليلة بطريقة ودودة ولكن متحفظة ، ثم وجه أحدهم حديثه إلىّ قائلاً : « كل شىء مضبوط جناب العالى . كرمك على صحارينا ، هل تتفضل بتناول كوب من الشاى معنا ؟ ».

بينما كنت مازلت مندهشًا من عبارات الترحيب الغريبة ، ورد إلى ذهنى مدى الاختلاف بين العربية والفارسية بالرغم من احتواء الفارسية على كثير من المفردات العربية . تبدو الفارسية ذات نغم جميل ، وتبدو مفرداتها الناعمة الجميلة الرقيقة بمقاطعها الصوتية وكأنها لغة « غربية » بعكس الأصوات الحادة للغة العربية .

لم نكن المسافرين الوحيدين ، كانت هنـاك عربات مثقلة بالأحمـال من المنسوجات ، يجر كل منها أربعة من الخيول ، وكانت هناك قافلة من البغـال على مقربة . كان رجال القافلة يطهون طعامًا على نار أشعلوها . بدا أنهم تخلوا عن فكرة استكمال السفر فى الحال ، بالرغم زن الوقت كان فى الساعات الأولى بعد انتصاف النهار . قررت أن نفعل الشىء نفسه ولا أتذكر السبب . قضينا الليل فى العراء فوق أغطيتنا التى فرشناها على الأرض .

فى باكورة الفجر بدأت العربات والقافلة فى التحرك باتجاه الجبال العارية ، ركبنا وسرنا معهم ، كان الطريق صاعداً باضطراد ، سبقنا القافلة والعربات البطيئة ، توغلنا أعمق فى مناطق الأكراد الجبلية ، أرض الرعاة الشقر طوال القامة .

رأيت أول راع منهم عند أحد منحنيات الطريق ، كان يخرج من كوخ واطئ مصنوع من أغصان الأشجار الجافة وقدم لنا دون كلمة وعاءً خشبيًا مليئًا بلبن دسم . كان يافعًا فى السابعة عشرة من عمره تقريبًا ، حافى القدمين ، فى ملابس رثة ، قذر الوجه واليدين وآثار غطاء رأس بادية على شعره الحاسر . حين كنت أشرب اللبن البارد المضاف إليه قليل من الملح ، رأيت من فوق حافلة الوعاء العيون الزرقاء التى كانت مصوبة إلى وجهى في تأمل ، كان بعينيه بريق لامع مثل ذلك الذى نجده فى عيون الحيوانات المولودة لتوها – نعاس بدائى ، لم تكسر أصالته شىء بعد ...

فيما بعد الظهيرة وصلنا إلى قرية كردية من الخيام تقع بين سفوح التلال . كانت تشبه خيام بدو العراق وسوريا : غطاء خشن مصنوع من شعر الماعز مفرود على بعض الدعامات الخشبية والأجناب من القش المجدول . كان جدول ماء يتدفق على مقربة من الخيام ؛ وتجمعت على حواف الماء طيور بيضاء ؛ وحطت على صخرة فى الماء مجموعة من طيور اللقلق تنقر أجنحتها فى متعة . كان رجل يرتدى سترة زرقاء يتجه فى خطوات حثيثة إلى الخيام . وكانت امرأة تحمل إناءً فخاريًا على كتفها تدنو من الماء ، ترتدى ثوبًا أحمر فضفاضًا طويلاً ، كانت سيقانها الطويلة بادية من تحت ملابسها : سيقان طويلة ومشدودة مثل أوتار الكمان . ركعت بجوار حافة الماء على ركبتيها ومالت

على الماء تملأ جرتها ؛ ومال غطاء رأسها الأحمر ومس طرفه سطح الماء وكأنه تيار من الدماء ينسكب فى الماء . بعد ذلك بفترة جلست على حافة الماء بصحبة رجل عجوز أربع فتيات فى شرخ الشباب كلهن ذوات سحر خاص طبيعيات بلا افتعال نتيجة حياتهن الحرة بين أحضان الطبيعة : كان جمالهن من ذلك النوع الذى يعتد بذاته إلا أنه عفيف وطاهر ، فخار واعتداد لا يدارينه ولكنك تدركه من الخجل والتواضع الذى يغلب عليه . كانت أجملهن ذات اسم موسيقى هو : « توتو ») وتنطق مقاطعه كما تنطق بالفرنسية) ، كانت جبهتها مغطاة حتى حاجبها الرقيق بوشاح أحمر ، وجفناها مصبوغين ، من تحت الوشاح ، تدلت من أذنيها سلاسل فضية رقيقة ؛ فى كل لفتة من رأسها كانت السلاسل تصدر صوتًا معدنيًا رقيقًا .

استمتعنا جميعًا بالحوار الذى تبادلناه بالرغم من لغتى الفارسية الضعيفة (للأكراد لغة خاصة بهم ، ويفهم أغلبهم الفارسية ولغتهم مشتقة منها) ، كن نساء بدائيات لم يذهبن أبدًا إلى خارج نطاق قبيلتهن ؛ وكن يفهمن بسهولة ما أريد قوله وغالبًا ما كن يجدن الكلمة التي أتعثر فى نطقها . سألتهن عن حياتهن وما يقمن به من أعمال ، أجبن عن سؤالى بأنهن يطحن الغلال بالرحى ؛ ويخبزن الخبز على جمرات الحطب ؛ ويحلبن الماعز ، ريخضضن اللبن فى قرب جلدية حتى يتحول إلى زبد ؛ ويغزلن بمغازل يدوية خيوطًا من صوف الأغنام ، وينسجن الأبسطة والسجاجيد فى أنماط قديمة قدم جنسهن ذاته ، ويحملن ويلدن الأطفال ؛ ويهبن أزواجهن الراحة والحب ...

حياة لا تتغير : اليوم مثل الأمس والغد ... عند أولئك الرعاة لا وجود للزمن ، باستثناء كر الأيام والليالى والفصول . فالليل جُعِلَ مظلمًا للنوم، والنهار مضيئًا لقضاء حاجات الحياة وضروراتها، والشتاء يُعرف باشتداد برودة الجو وندرة الكلأ والعُشب على سفوح الجبال ، فينتقلون بقطعانهم وخيامهم إلى السهول الأكثر دفئًا ، إلى ما بين النهرين بالقرب من نهر دجلة ، وحين يعود الدفء تدريجيًا معلنًا قدوم الصيف برطوبته وهوائه اللافح ، يعودون إلى الجبال ، إما إلى الموضع ذاته ، وإما إلى موضع غيره فى نطاق منطقة القبيلة .

سألت الرجل العجوز : « ألم ترغب قط فى الحياة فى منزل من الحجر ؟ » لم ينطق الرجل بكلمة طول فترة حديثنا مع النساء ، وكان يستمع مبتسمًا إلى الحوار ، وطرحت عليه سؤالاً آخر : « ألم ترغب قط أن يكون لك حقل ملكًا لك ؟ ».

هزّ الرجل العجوز رأسه ببطء وقال : « كلا ... إذا توقفت المياه بلا حركة فى بركة ، فإنها تفسد وتتعكر وتتعفن ؛ أما حين تكون متحركة ومتدفقة فإنها تظل نظيفة ونقية ... ».

* * *

بمرور الزمن انسحبت ذكريات كردستان إلى الماضى . على مدى ثمانية عشر شهرًا تجولت فى إيران ، طولاً وعرضًا . وتعرفت خلال تلك المدة على أمة جمعت داخلها حكمة ثلاثين قرنًا من الزمن . وفوران وغضب أمة يماثل غضب الأطفال لا يمكن التنبؤ بموعد وقوعه ؛ أمة قد تنظر بتكاسل وبرود إلى ما يحدث لها وما يقع حولها – وفى لحظة أخرى تجدها تنتفض فى هبة عنيفة غاضبة . استمتعت بالجو الحضارى فى المدن الكبرى ؛ وخضت بين الرياح العاصفة فى السهوب الواسعة ؛ قضيت ليالى فى قلاع حكام المقاطعات وتحت أمرى أعداد كبيرة من الخدم ، كما قضيت ليالى فى خانات واستراحات كهدمة خربة تظل متيقظًا بها طوال الليل لقتل العقارب قبل أن تلدغك . ساهمت وشاركت فى كل أشكال الحياة فى إيران ، من موائد عليها خراف مشوية حين كنت ضيفًا على قبائل بختيارى وكاشجاى ، وموائد أخرى عليها ديوك تركية محشوة بالمشمش لكبار التجار ؛ حضرت احتفالات محرم والمسيرات الدموية ، واستمعت إلى القصائد الرقيقة للشاعر الإيرانى العظيم حافظ المغناة على العود .

تمشيت بين أشجار الحور فى أصفهان ، وأعجبتنى مداخل القصور العظيمة ، وواجهاتها الرائعة ، كما أعجبنى روعة صقل قباب مسجدها الكبير . أصبحت اللغة

الفارسية سلسلة على لسانى كاللغة العربية . خضت حوارات كثيرة مع المتعلمين فى المدن ، ومع الجنود ورجال القبائل ، ومع التجار فى الأسواق ، ومع أعضاء فى الوزارة وكبار رجال الدين ، مع الدراويش الجائلين وكبار الحشاشين فى الاستراحات المنتشرة على الطرق . عشت بالمدن والقرى وعبرت الصحارى وخضت المستنقعات المالحة ، ونسيت نفسى كلياً وفقدت الإحساس بالزمن فى تلك البلاد العجيبة صاحبة الحضارة القديمة والتى تخلفت عن مواكبة الحضارات الحديثة . تعرفت على الشعب الإيرانى وأنماط حياته وأفكاره كما لو كنت قد ولدت بينهم : كانت تلك البلاد وتلك الحياة مليئة بالتعقيدات ، مثل جوهرة ثمينة قديمة خبا توهجها ، ولم تنل مكتانة قريبة من القلب تماثل شفافية الزجاج الذى أحسسته نحو العرب .

على مدى ما يزيد على ستة أشهر رحت أجوب جبال أفغانستان وسهوبها الواسعة ، ستة أشهر فى عالم لا يحمل فيه الرجال بنادقهم لمجرد الزينة ، وحيث يجب أن تحرص على كل كلمة وكل خطوة وإلا وجدت طلقة رصاص تأتى مفردة تجاهك . أحياناً كنا نضطر أنا وإبراهيم التتارى ومن يرافقنا للدفاع عن أنفسنا عند هجوم عصابات قُطّاع الطُرُق ، التى كانت أفغانستان تغص بهمن فى ذلك الوقت ؛ ولكن إن حدث وكان اليوم يوم جمعة ، توقفت العصابات عن أى نشاط لها ، فالسرقة والقتل حرام فى اليوم المخصص لصلاة الجمعة .

ذات مرة ، بالقرب من مدينة « قندهار » ، نجوت من الموت بأعجوبة لأننى نظرت مباشرة إلى وجه امرأة ريفية جميلة تعمل بأحد الحقول ؛ ووجدت بين المغول فى قرى مرتفعات « هندكوش » أناساً ينحدرون من سلالة القائد المحارب جنكيزخان ، كما لم يكن من العيب أن أنام على الأرض فى كوخ إلى جوار الزوجة الشابة لمضيفى وشقيقته . على مدى أسابيع كنت ضيفاً على « أمان اللّـه خان » ، ملك أفغانستان فى « كابول » ؛ وتناقشت على مدى ليال طويلة مع علمائه حول تعاليم القرآن ؛ وفى ليال أخرى تناقشت مع « الباتان خان » فى خيامهم السوداء وقلت لهم : إن الأفضل لهم أن يطوفوا فى المناطق القبلية المتحاربة ليحثوهم على الإقلاع عن تلك الحروب .

فى كل يوم من أيام العامين الذين قضيتهما فى إيران وأفغانستان كان اليقين ينمو داخلى بأننى أقترب من إجابات نهائية عن تساؤلاتى .

* * *

قلت : «هكذا كنت أقترب من الإسلام يا منصور ، بفهمى لحياة المسلمين كنت أقترب يوميًا من فهم أفضل للإسلام . كان الإسلام دائمًا الأعلى فى ذهنى ... ».

قال زيد وهو يدقق النظر إلى ظلمة السماء : «حان وقت صلاة العشاء ».

انتظمنا لأداء الصلاة الأخيرة لذلك اليوم ، اتجهنا ثلاثتنا نحو مكة : وقف زيد ومنصور جنبًا إلى جنب وتقدمت أمامهم لأؤمهم (فقد ذكر الرسول أن صلاة اثنين وأكثر هى صلاة جماعة) .

رفعت كفىّ وبدأت : اللّـه أكبر ، ثم تلوت سورة الفاتحة من القرآن ثم تبعتها بسورة الإخلاص حتى أتممنا الصلاة .

هناك بعض الأشياء تجعل الرجال يتقاربون من بعضهم مثل صلاة الجماعة . ويصدق ذلك على كل الديانات ، إلا أنه أكثر صحة فيما يخص الإسلام ، فالإسلام يرتكز على إيمان حقيقى أنه لا وساطة بين المخلوق وخالقه ، وغياب كل أشكال الكهانة والإكليروس المؤسسى الدينى ، يجعل كل مسلم يوقن أنه يشارك بإيجابية فى عمل جماعى من أجل العبادة ، وأنه لا يحضر فقط لمشاهدة وسطاء يقومون بالنيابة عنه بأداء طقوس العبادة ، لذلك يؤدى كل المسلمين صلاة الجماعة ، ولأنه لا توجد أسرار ولا طقوس مقدسة فى الإسلام ، فإن كل مسلم بالغ ورشيد بإمكانه القيام بأى وظيفة دينية ، كأن يؤم المصلين فى صلاة الجماعة ويقوم بإجراءات عقود الزواج أو بالصلاة على الميت قبل دفنه لا توجد حاجة فى الإسلام إلى ترسيم وظائف وتخصصات دينية لعبادة اللّـه : أما المعلمون الدينيون ومرشدو المسلمين . فهم أناس بسطاء يستمتعون بالسمعة الطيبة التى تدل على أنهم على دراية واسعة بأمور الدين وأحكام التشريع (أحيانًا يستحقون السمعة الطيبة ، وبعضهم لا يستحقونها) .

[٣]

استيقظت عند الفجر : كانت جفونى مثقلة بالنعاس ، هب على وجهى نسيم ناعم رقيق ، له همهمة رقيقة تفصل ما بين خفوت الليل والنهار الوليد .

نهضت لأغسل آثار النعاس المتبقى فى جفونى . كانت المياه الباردة كلمسة من برارى بعيدة متنائية - جبال تكسوها أشجار داكنة الخضرة ، وتيارات مائية تتحرك وتتدفق وتظل نقية ... جلست وأملت رأسى للخلف حتى يظل وجهى مبللاً بالماء لأطول وقت ، هبت نسمات على بلل وجهى ، حنت عليه بذكريات طيبة لأيام باردة ، لأيام الشتاء الطويلة الماضية ... جبال ومياه مندفعة ... والتزلق على الجليد وبياضه الناصع . والبياض الناصع لذلك اليوم من أعوام مضت حين ركبت جوادى وقدته علي جليد الجبال الإيرانية الناصع البياض دون أن أميز طريقًا أسير على هُداه ، أتقدم ببطء للأمام ، كل خطرة من خطوات الجواد تغوص فى باطن الجليد والخطوة التالية أشد جهداً من سابقتها فى تسلق الجليد الزلج ...

فى ظهر ذلك اليوم كما أتذكره ، استرحنا فى قرية تقطنها مجموعة غريبة تشبه الغجر ، كانت القرية عبارة عن عشر أو اثنتى عشرة حفرة فى الأرض تغطى كل منها قبة منخفضة من الأعشاب والطين ، مما أضفى على تلك المستوطنة الفريدة المنعزلة - كانت فى جنوب إيران ، فى مقاطعة كيرمان - مظهر مدينة الظلام المقامة تحت الأرض . بدوا مثل مخلوقات سفلية كما فى القصص الخيالية ، أناس يزحفون صاعدين من تحت الأرض من فتحات مظلمة ليتأملوا غرباء يندر وجودهم فى تلك المنطقة . على قمة واحدة من تلك القباب جسلت امرأة شابة تمشط شعرها الأسود المجعد الأشعث ؛ استدار وجهها البنى الزيتونى وعيناها شبه مغمضتين باتجاه شمس منتصف النهار الشاحبة ، وانطلقت من حنجرتها أغنية بصوت خافت بإحدى اللغات المحلية ، أحاطت معصميها بأساور معدنية راحت توسوس مع حركات يديها ، وهى تمشط شعرها ، كان معصميها دقيقين وقويين مثل أقدام الحيوانات البرية فى الغابات البدائية .

لأبعث الدفء فى أطرافى المخدرة من البرد ، شربت شايًا وعرقًا - كثير من العرق - أنا والحارس الذى يصحبنا ، وحين اعتليت صهوة جوادى ، كنت مخموراً تماماً ، انطلقت به فى عدو سريع ، بدا العالم كله مبسوطًا أمامى فى رحابة لا نهائية وبدا شفافًا فى عينى كما لم يبدو من قبل ؛ رأيت نمطه الداخلى الخافى وأحسست بنبضه الدفين فى تلك الأصقاع البيضاء الخالية واندهشت من خفاء كل ذلك عنى من دقيقة مضت ؛ وأيقنت أن كل الأجوبة على ما يبدو بلا إجابة ماثلة أمامنا فى انتظار أن ندركها ، بينما نحن - الحمقى المساكين - نطرح الأسئلة وننتظر أن نفتح الأسرار الإلهية نفسها لنا : بينما تنتظر تلك الأسرار أن نفتح نحن أنفسنا لها ...

فتحت الأرض المستوية نفسها أمامنا ، همزت جوادى وطرت مثل شبح فى ضوء بالورى ناصع الشفافية ، والجليد والبرد يتناثران من حوافر الجواد ويتدفقان حولى كسيل من الشرارات المتطايرة ، وأرعدت حوافر جوادى بصوت مدوى فوق جليد الأنهار المتجمدة ...

أعتقد أنه كان ذلك الوقت الذى أدركت فيه ، بالرغم من أننى لم أكن أعى ذلك تماماً ، انفتاح باب النعمة الإلهية أمامى - تلك النعمة التى حدثنى عنها الأب «فيلكس» من زمن طويل مضى حين كنت منطلقًا إلى رحلة كان مقدراً لها أن تغير كل حياتى : انكشاف النعمة الإلهية التى تحدد لك بوضوح أنك الشخص المنتظر ...

مرّ أكثر من عام ما بين انطلاقى المجنون على جوادى فوق الجليد والبرد قبل أن أعتنق الإسلام ، ولكن حتى فى ذلك الوقت قبل إسلامى ، كنت أنطلق دون أن أعى ذلك ، فى خط مستقيم كمسار السهم المنطلق ، باتجاه مكة .

جف وجهى المبتل ، وتراجعت فى مخيلتى ذكرى ذلك اليوم من أيام شتاء إيران الذى انقضى منذ ما يربو على سبعة أعوام . تراجع ذلك اليوم وتقهقر إلا أنه لم يختف : فذلك الماضى قطعة من هذا الحاضر .

تيار هواء بارد ، تنفس صباح يولد يجعل الأعشاب الشوكية ترتجف ، والنجوم تبدأ فى الخفوت والذبول . انهض يا زيد ، انهض يا منصور ، انهضا .. فنلذود النار بالحطب ونعد قهوتنا ثم نضع السروج على الجمال ونركب إلى يوم آخر ، عبر الصحراء التى تستقبلنا بأذرع مفتوحة .

الفصل الثامن

جـــــن

[١]

كانت الشمس توشك على المغيب حين ظهرت أمامنا فجأة أفعى سوداء تتلوى معترضة طريقنا : كانت سميكة مثل ذراع طفل وطولها نحو ياردة . توقفت وأدارت رأسها نحونا . في رد فعل آلى انزلقت من على سرج ناقتى وحللت قربينتى من علاقتها . ركعت على ركبتى وصوبت - فى اللحظة نفسها - سمعت صوت منصور من خلفى يصيح : «لا تطلق النار - لا تطلق .. » - إلا أننى كنت قد ضغطت على الزناد وانطلق المقذوف ؛ تلوت الحية لثوان ، والتف بدنها ، وماتت .

ظهر إلى جوارى وأنا مازلت على ركبتى وجه منصور يحمل علامات الضيق والاعتراض على ما فعلت . قال : «لم يكن عليك أن تقتلها ... على كل حال ليس أثناء غروب الشمس : هذا هو الوقت الذى يخرج فيه الجن من تحت الأرض ، وغالبًا ما يتخذ شكل حية ... ».

ضحكت وقلت له : «لا أظن يا منصور أنك تصدق حكايات العجائز عن الجن الذى يتخذ شكل الحيات والأفاعى ».

رد منصور : «طبعًا أومن بوجود الجن . أليسوا مذكورين فى كتاب اللّـه ؟ أما الشكل الذى يتخذونه فأنا لا أدرى ... سمعت أنهم يتخذون أشكالاً غريبة لا يتوقعها أحد ... ».

فكرت : ربما تكون محقًا يا منصور ، ألا يمكن أن نفترض أنه باستثناء الوجود الذى تدركه الحواس ، توجد مخلوقات لا تدركها حواسنا ؟ ألا يعد إنكار ذلك نوعًا من التكبر الفكرى يدفع الإنسان المعاصر إلى رفض احتمال وجود أشكال أخرى للحياة باستثناء ما ندركه وما يمكن قياسه ؟ إن وجود الجن ، مهما تكن طبيعتهم ، لا يمكن إثباته بوسائل وأدوات علمية . كذلك لا يمكن للعلم أن يثبت عدم وجود حيوانات أخرى تختلف قوانينها البيولوجية اختلافًا كليًا عن قوانيننا . وأنها حيوات فوق قدرة حواسنا على إدراك وجودها إلا فى ظروف استثنائية وخاصة .

ألا يمكن أن تكون هذه الاستثناءات حالات تتقاطع فيها الحيوات تحت ظروف استثنائية وخاصة مع حياتنا ، ويطلق على ذلك ظواهر غير طبيعية ، وأطلق عليها القدماء أسماءً مثل أشباح ، أو عفاريت ، أو غيرها من ظواهر «ما فوق الطبيعة» الخارجة والخارقة لما نعرفه من قوانين طبيعية ؟

ركبت ناقتى من جديد ورأسى مشغول بتلك التساؤلات ، وابتسامة تشكك تعلو وجهى من امرئ مثلى جعله نمط تنشئته أكثر جموداً من أناس عاشوا على الدوام ملتصقين بالطبيعة ، استدار زيد على سرجه ووجه حديثه إلىّ برزانته التى أعهدها :

«منصور على حق يا عمى . كان عليك ألا تقتل الأفعى . ذات مرة ، من سنين طويلة مضت – حين هجرت حائل بعد أن استولى عليها ابن سعود – أطلقت النار على أفعى مثل تلك الأفعى وأنا فى طريقى إلى العراق ، وكان ذلك أيضًا فى وقت الغروب ، بعد ذلك حين توقفنا لصلاة المغرب ، شعرت فجأة بثقل فى ساقى وكأنهما مربوطتان إلى أثقال من رصاص وإحساس حارق فى رأسى ، ثم دوى فى رأسى هدير مثل هدير شلالات المياه المنحدرة ، واشتعل إحساس حارق فى أطرافى كأنما أمسكت بها ألسنة لهب ، لم أستطع أن أتماسك لأظل واقفًا ، فسقطت على الأرض مثلما يسقط الجوال الفارغ ، وأصبحت فى ظلام دامس لا أرى شيئًا من حولى . لا أدرى كم لبث فى ذلك الظلام ، ولكنى أتذكر أننى استطعت فى النهاية أن أقف على قدمى فوجدت رجلاً غريبًا يقف إلى يمينى وآخر إلى يسارى ، قادانى إلى قاعة واسعة شحيحة الضوء

ملينة بهيئة رجال يروحون جيئة وذهابًا فى حماس ويتحدثون إلى بعضهم . بعد فترة تبينت أنهما فريقان ، كما لو كانوا أمام هيئة محكمة ، وجلس عجوز ضئيل الحجم إلى منصة عالية فى أقصى القاعة ؛ بدا كأنه قاض أو رئيس ، أو ما شابه ذلك . وفى الحال تبينت أننى المتهم .

قال صوت : لقد قتله قبل مغيب الشمس تمامًا ببندقيته . فهو مذنب . وقال صوت آخر من الفريق المضاد : «ولكنه لم يكن يعلم مَنْ يقتل ، ونطق اسم اللّـه حين جذب زناد بندقيته ، ولكن فريق الاتهام صاح : لم ينطق باسم اللّـه ، ورد الفريق المدافع فى صوت واحد كأنهم جوقة إنشاء : سمى ، سمى ، سمى باسم اللّـه – واستمر ذلك لفترة ، اتهام ودفاع ، حتى كسب فريق الدفاع فى النهاية ، واتخذ القاضى فى صدر القاعة قراره ونطق بحكمه : « لم يكن يعلم هوية القتيل . كما أنه نطق باسم اللّـه فعلاً . أعيدوه إلى هناك ».

«وسحبنى الرجلان اللذان أحضرانى إلى تلك القاعة وهما مسلحان ، وأعادانى إلى الظلام الدامس الذى كنت فيه ، وأرقدانى على الأرض كما كنت . فتحت عينى فوجدت نفسى ممددًا بين جوالين من أجولة الحبوب التى كانت مكومة على الجانبين ومفرود عليهما قماش خيمة ليحمينى من حرارة الشمس . بدا من درجة الضوء أننا أقربنا من منتصف النهار ، وأن رفاقى قد حطوا رحالهم ، ورأيت نوقنا على مبعدة ترعى على منحدر تل . إردت أن أرفع يدى ، إلا أن أطرافى وكل بدنى كان فى غاية الوهن . حين مال أحد رفاقى بوجهه نحوى مستطلعًا حالى ، قلت بصوت واهن : «قهوة » فقد كنت أسمع بالقرب منى صوت هاون طحن حبوب القهوة . قفز رفيقى الذى كان يستطلع حالى صائحًا : «لقد نطق ، لقد نطق ، استعاد وعيه » - وأحضروا لى قهوة طازجة ساخنة . سألتهم : «هل فقدت الوعى طوال الليل ؟ » ردوا متعجبين : «طوال الليل ؟ أربعة أيام بلياليها وأنت لا تتحرك ، كنا نحملك كما يحمل جوال الحبوب على أحد الجمال ، وننزلك من جديد عند حلول الظلام ؛ وكنا نفكر فى دفنك هنا فى هذا الموضع . ولكن الحمد والشكر للّـه الذى يهب الحياة ويأخذها ، الحى الذى لا يموت ... ».

«وهكذا كما ترى يا عمى ، لا تقتل أفعى عند غروب الشمس ».

على الرغم من أن نصف وعيى ظل مبتسمًا من قصة زيد ، ظل نصف وعيى الآخر يشعر بأطياف القوى غير المرئية فى عتمة المساء المقترب ، إحساس بأصوات تتزاحم ، إلا أنها كانت من الرقة حتى إنه يصعب على الأذن التقاطها ، وإحساس بالعداوة فى الفراغ : جعل إحساسًا واهيًا بالندم يغلب علىّ لقتلى الأفعى عند غروب الشمس .

[٢]

بعد ظهر اليوم الثالث لمغادرتنا مدينة «حائل » توقفنا لسقى جمالينا من آبار «أرجا» فى وادٍ دائرى محصور بين تلال واطئة . كان البئران كبيرين ومليئين بالماء العذب فى منتصف الوادى ؛ كل بئر منهما ملك مشاع للقبيلة - الغربى ملك لقبيلة حرب ، والشرقى ملك لقبيلة مطير ، وكانت الأرض من حولهما جرداء خالية من أى نبات مثل راحة الكف ، فكل يوم وعند منتصف النهار ترد إلى البئرين مئات الجمال قادمة من مراع بعيدة لترتوى ، وتدهس كل نبتة تهم بالبزوغ وتنزعها أقدام الجمال التى تعد بالمئات .

حين وصلنا كان الوادى مليئًا بالحيوانات ، وقطعان جديدة تظهر من بين التلال التى تصهرها الشمس ، حول البئرين كان هناك تزاحم وتدافع ، فليس من السهل سقاية كل تلك الحيوانات . كان الرعاة يسحبون الماء من البئرين فى دلاء من الجلد مربوطة إلى حبال طويلة ، ويصاحبون عملهم بالغناء الرتيب لضبط إيقاع العمل من رفع الدلاء وإفراغها وإدلائها من جديد إلى قاع البئرين : كانت الدلاء كبيرة جداً ، وحين تمتلىء بالماء تصبح ثقيلة حتى أنها تتطلب أيدى كثيرة لرفعها من أعماق البئر .

من البئر الأقرب لنا - بئر مطير - سمعت الرجال ينشدون للإبل :

ارتووا لا تتركوا ماء

البئر مليئة بالنعم ولا قاع لها

كان نصف الرجال ينشدون المقطع الأول ، بينما يرد عليهم النصف الثانى بالمقطع الأخير ، ويكررون كل مقطع عدة مرات فى إيقاع سريع حتى يظهر الدلو على حافة البئر ؛ ثم تتولى النساء إفراغ الدلاء فى أحواض السقى . أعداد من الجمال تتزاحم مندفعة للأمام ، تهدر وتعلو أصواتها ، تجتر فى نشوة ، وتتزاحم حول أحواض الماء ، بينما كان الرجال يهدئون من إثارتها صائحين ، «هوو ... وى ... هوو ... » كلها تدفع أعناقها الطويلة المرنة فوق أعناق رفاقها لتروى عطشها ، تدافع وتزاحم لجمال نبية فاتحة اللون وداكنته ، وجمال صفراء وأخرى فى لون العسل وأسود أقرب للبنى ، وتملأ المكان الرائحة النفاذة لعرقها وبولها .

فى الوقت الذى تملأ فيه الدلاء من جديد ، يسحبها الرجال إلى أعلى ، منشدين نشيداً آخر :

لا شىء يروى عطش الجمال

إلا نعمة اللّه وكد الرجال

ويتكرر مشهد اندفاع الماء فى الأحواض ، واحتساء الجمال للماء ونداء الرعاة والإنشاد المتكرر .

رفع أحد الرجال المسنين كان يقف بجوار حافة البئر يده ملوحًا باتجاهنا وصاح : «حياكم اللّه يا مسافرين ، تفضلوا » ، بينما نزع بعض الرجال أنفسهم من زحام البئر واندفعوا باتجاهنا . أخذ أحدهم زمام ناقتى وأناخها حتى أترجل فى راحة ، وبسرعة أفسحوا طريقًا لنوقنا إلى حوض الماء ، وسكبت النساء الماء فى الحوض ، ولأننا مسافرون ، فقد كان ذلك يعطينا الأولوية فى السقاية .

قال زيد : «أليس عجيبًا أن نشهد الآن سلامًا بين حرب ومطير بعدما كانا متحاربان ؟ » (كانت قد مرت ثلاثة أعوام فقط على إخماد تمرد قبائل مطير ضد الملك ، فى حين كانت قبائل حرب من أشد مؤيدى الملك ومؤازريه) . أكمل زيد قائلاً : «هل تذكر يا عمى آخر مرة كنا فيها هنا ؟ وكيف تجنبنا المرور بآبار (آرچا) وسرنا فى دائرة واسعة حولها ليلاً لأننا لم نكن ندرى هل نجد عندها عدواً أم صديقًا ؟ ».

كان زيد يشير إلى تمرد البدو الكبير فى عام ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ، وكانت أزمة هزت أركان مملكة ابن سعود حتى جذورها ، ولفترة من الزمن كنت مشاركًا فى تلك الأحداث .

ففى بداية عام ١٩٢٧ ، كان السلام يسود كل أرجاء المملكة العربية السعودية كان نضال ابن سعود للسيطرة على زمام المملكة قد حقق أهدافه . وكان حكمه لمنطقة نجد مستتبًا . خضعت «حائل » ، ومنطقة قبائل شمّار ، ثم خضعت له منطقة الحجاز بعد أن طرد منها أسرة الشريف حسين عام ١٩٢٥ ؛ ومن بين قادة الملك العسكريين البارزين كان هناك فيصل الداويش المشكوك فى مراميه والذى كان يسبب قلقًا للملك فى الأعوام المبكرة لتكوين المملكة . كان الداويش متميزًا وظاهرًا فى خدمة الملك وفى إظهار ولائه مرة بعد أخرى ، فى عام ١٩٢١ قام بغزو حائل بأمر من الملك ؛ فى عام ١٩٢٤ قام بغارة جريئة على العراق لقطع الإمداد البريطانى لأسرة الشريف حسين بالحجاز ، فى عام ١٩٢٥ استولى على المدينة ولعب دورًا حاسمًا فى غزوة جدة . وفى صيف ١٩٢٧ ، كان يتيعه بأكاليل الغار بين أتباعه من الإخوان فى الأرطاوية ، التى لا تبعد كثيرًا عن حدود العراق .

شهدت تلك المنطقة على مدى أعوام طويلة هجمات بدوية كثيرة بسبب هجرات البدو المستمرة بحثًا عن الكلأ والماء ؛ ولكن طبقًا لاتفاقات متعاقبة بين ابن سعود وبريطانيا - التى كانت مسؤلة عن العراق - نصت تلك الاتفاقيات على ألا توضع أى عوائق أمام هجرة القبائل التى لا مفر منها ، وعلى عدم إقامة أية تحصينات من أى نوع على جانبى الحخدود بين نجد والعراق . فى صيف عام ١٩٢٧ شيدت العراق حصنًا دفاعيًا عند الآبار الحدودية فى منطقة «بيسايا » ، وأعلنت رسميًا عزمها على بناء حصون أخرى على طول الحدود . وسَبَّب ذلك حالة من القلق والتوتر بين قبائل شمال نجد ؛ إذ كان ذلك يشكل تهديدًا لوجودهم ، لأنه يحرمهم من آبار الماء التى لا غنى عنها والتى يعتمدون عليها اعتمادًا كليًا . واحتج الملك ابن سعود على ذلك الخرق الصريح للاتفاقات المبرمة ، ولم يتلق - بعد شهور - إلا إجابة نراوغة من المندوب البريطانى على العراق .

قال فيصل الداويش لنفسه – وهو رجل كان طبعه عمليًا : «ربما يجد الملك أنه من غير الملائم محاربة البريطانيين – ولكن لدى أنا الشجاعة للقيام بذلك » ، وفى اخر أكتوبر ١٩٢٧ ، انطلق على رأس قواته المسماة بالإخوان ، وهاجم حصن بيسايا ودمره ، ولم يترك فيه عراقيًا واحداً .

وظهرت الطائرات البريطانية فوق الموقع ، وقامت بالاستطلاع فقط وعادت دون أن تسقط قنبلة واحدة . كان من السهل عليهم أن يقضوا على قوات الداويش (وهو ما كنت تتيحه لهم نصوص الاتفاقات الموقعة مع ابن سعود) ، ثم يسووا المشاكل بعد ذلك بالطرق الدبلوماسية . ولكن ، هل كانت الحكومة البريطانية بالعراق تريد فعلاً التوصل إلى حلول سريعة سلمية للنزاع ؟

توافد المرسلون من قبائل شمال نجد على ابن سعود ليدفعوه إلى القيام بحملة عسكرية ضد العراق . ورفض ابن سعود بحزم كل تلك المطالب ، وأعلن أن الداويش مارق ، وأصدر أوامره لأمير «حائل » أن يشدد المراقبة على منطقة الحدود ، وقطع المخصصات المالية التى كان يعطيها لقوات الإخوان كما قطعها عن القبائل التى كانت تحت سيطرة الداويش ؛ أما الداويش فقد اختفى بالأرطاوية بانتظار حكم الملك عليه . وتم إبلاغ الحكومة العراقية رسميًا بالإجراءات التى اتخذها ابن سعود وأبلغوهم أن الداويش سيلقى جزاءه ، وفى الوقت نفسه طلب ابن سعود من العراق أن تلتزم تمامًا بنصوص الاتفاقات الموقعة .

كان من الممكن أن ينتهى ذلك النزاع الجديد بسهولة ، ولكن حين وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه ، أرسل المندوب السامى البريطانى على العراق رسالة إلى ابن سعود يعلمه فيها أنه سيرسل سربًا جويًا لمهاجمة قوات الإخوان التابعة للداويش (الذى كان قد عاد إلى موطن قبيلته) حتى يجبرها على طاعة ملكها ؛ ولأنه لم يكن يوجد برق بالرياض ، أرسل ابن سعود رسولاً عاجلاً إلى البحرين ، وأرسل برقية من البحرين إلى بغداد ، يحتج فيها على تلك الإجراءات العسكرية التى تنويها قوات بريطانيا ، ويذكرهم بالاتفاقات التى تمنع كل طرف من اختراق الحدود لمعاقبة

الخارجين على القانون لدى الطرف الآخر . وأكد أنه لا يحتاج «المساعدة » البريطانية لتقوية سلطته ونفوذه ضد قوات الداويش ، وفى آخر البرقية حذر البريطانيين من أن أى غارات جوية على نجد سيترتب عليها آثار خطيرة من استثارة غضب الإخوان ، الذين كانوا غاضبين أصلاً نتيجة إقامة تحصينات على الحدود من جانب العراق .».

لم يلق إنذار الملك آذانًا صاغية . فقرب نهاية شهر يناير ١٩٢٨ - بعد ثلاثة أشهر من حادثة «بيساسا » - قام سرب طيران إنجليزى بقصف منطقة نجد ، وأثار حالة من الفزع بين بدو قبائل مطير ولقى رجال ونساء وأطفال وحيوانات مصرعهم دون تمييز . وقامت كل جماعات الإخوان فى الشمال بإعداد حملة للانتقام من العراق ؛ وكان لابن سعود فضل كبير فى إثنائهم عن القيام بأى أعمال انتقامية فلم تقع إلا مناوشات بسيطة على الحدود .

* * *

استدعى فيصل الداويش للقدوم إلى الرياض ، إلا أنه رفض الحضور ، وبرر ما فعله بأنه كان لصالح الملك . وضاعفت أسباب شخصية أخرى من إحساسه بالاستياء . فقد رأى أنه خدم الملك بتفانٍ وإخلاص ، ورغم ذلك لم يعين إلا أميراً على الأرطاوية - التى كانت رغم عدد سكانها الكبير ، لا تعدو كونها قرية كبيرة - وأن قيادته للقوات لعبت دوراً حاسماً فى الاستيلاء على مدينة «حائل » - وعين الملك الأمير ابن سعود وهو ابن عم الملك أميراً عليها . وفى حملة الحجاز قام بفرض حصار على المدينة لشهور طويلة حتى استسلم من بها ، ولم يعينه الملك أميراً عليها ، كان تطلعه إلى السلطة لا يدعه يهدأ ولا يستقر . قال لنفسه :

«ابن سعود ينتمى إلى قبيلة عنزة وأنتمى أنا إلى قبيلة مطير . ونحن متساويان فى نبل المحتد . فلماذا أعترف أنا بعلو ابن سعود وزعامته ؟ » مثل ذلك التفكير كان لعنة فى تاريخ العرب : فلم يكن أى منهم يعترف أن غيره من الممكن أن يكون أفضل منه .

نسى زعماء الإخوان واحداً بعد آخر فضل ابن سعود عليهم ، من بين أولئك الزعماء سلطان بن بوجاد شيخ قبيلة عتيبة القوية ، وأمير «غطغط » التى كانت من أقوى مراكز الإخوان فى نجد : كان سلطان قد انتصر على قوات الشريف حسين فى موقعة «طربة » عام ١٩١٨ ، وغزا الطائف ومكة عام ١٩٢٤ ، فلماذا يرضى أن يكون أميراً فقط على «غطغط » ؟ لماذا لم يعينه الملك أميراً على مكة ؟ أو لماذا لم يعينه على الأقل ، أميراً على الطائف ؟

كان مثل فيصل الداويش ، يرى أنه خُدع فى حق من حقوقه ، وكان صهراً للداويش ، فتبنيا موقفاً موحداً ضد ابن سعود .

فى خريف عام ١٩٢٨ دعا ابن سعود لعقد اجتماع لزعماء القبائل وعلماء الدين فى الرياض لفض تلك النزاعات . حضره كل زعماء القبائل تقريبًا باستثناء ابن بوجاد والداويش . وإمعانًا فى تمردهما أعلنا أن ابن سعود كافر ومرتد ، لأنه عقد اتفاقات مع الكفار – الإنجليز – وأدخل إلى أرض العرب آلات شيطانية مثل السيارات والهاتف ، وأجهزة البرق والطائرات ؟ بينما أعلن العلماء المجتمعون بالرياض بالإجماع أن مثل تلك المخترعات لا يسمح الدين بها فقط ، بل يحث فى طلبها لأنها تزيد قوة ومعارف المسلمين ، وأن النبى (ﷺ) فى صدر الإسلام كان لديه صلاحية عقد المعاهدات مع غير المسلمين؛ إذ كانت تلك الاتفاقات والمعاهدات توفر الأمن والسلام والحرية للمسلمين .

إلا أن المتمردين استمروا فى ادعاءاتهم ووجدوا آذانًا صاغية لدى بعض البسطاء من الإخوان ، كانوا محدودى الوعى والإدراك بدرجة لا تمكنهم من الحكم على سياسات ابن سعود ؛ لذلك كان من السهل إقناعهم أنها تتم بتأثير من الشيطان . كان تقاعس ابن سعود عن تعليم الإخوان وتحويل حماسهم الدينى المجرد إلى قوة مستنيرة قد بدأ يُسفر عن وجهه السيئ .

أصبحت برارى نجد مثل خلية نحل ، مبعوثون غامضون ينتقلون على جمال سريعة من مكان لآخر ومن قبيلة لأخرى ، واجتماعات سرية لزعماء قبائل تعقد عند آبار بعيدة غير مأهولة . وأخيراً ، انفجر تمرد قبائل مطير وعتيبة وبعض القبائل الأخرى التى انضمت إليهم .

كان الملك صبوراً ، وحاول أن يكون متفهماً . أرسل الرسل لزعماء قبائل المتمردين ودعاهم للتفاهم الودى العاقل ؛ ولكن بلا طائل ، وأصبح شمال ووسط الجزيرة العربية مسرحًا لأعمال السلب والنهب ، وانعدم الأمن الذى كان يسود نجد وحلت محله فوضى، واجتاحت عصابات الإخوان جميع أنحاء نجد من كل الاتجاهات ، يهاجمون القرى والقوافل والقبائل التى ظلت على ولائها للملك .

وبعد صدامات محلية كثيرة بين المتمردين والقبائل الموالية للملك ، قامت قوات الملك بخوض معركة حاسمة فى سهول سبيلا ، فى قلب نجد ، فى ربيع ١٩٢٩ ، فى جانب كان الملك على رأس قوة كبيرة ؛ على الجانب الآخر ، كانت قبائل مطير وعتيبة وبعض القبائل المتحالفة معها . وانتصر الملك فى تلك المعركة استسلم ابن بوجاد بلا شروط وعادوا به إلى الرياض مكبلاً بالأغلال . أما الداويش فقد أصيب بجروح خطيرة ، وقيل : إنه على شفا الموت . وأرسل ابن سعود ، الأرق قلبًا من بين كل الزعماء العرب ، طبيبه الخاص ليشرف على علاج الداويش - وشَخَّص ذلك الطبيب ، وهو طبيب سورى شاب ، أن إصابة الداويش إصابة خطيرة بالكبد ، لن تمهل الداويش أكثر من أسبوع ؛ وعلى ذلك قرر الملك «سندعه يموت فى هدوء ، لقد نال جزاءه من اللّـه » ، وأمر أن يرسل عدوه المصاب إلى أهله بالأرطاوية .

إلا أن الداويش كان أبعد ما يكون عن الموت ، لم تكن إصابته بتلك الخطورة التى ظنها الطبيب الشاب، وشفى تمامًا خلال أسابيع وهرب من الأرطاوية ، وهو مصمم أكثر من أى وقت مضى على الانتقام .

* * *

كان هروب الداويش سببًا فى إحياء دوافع المتمردين . وأشيع أن الداويش موجودٌ بنفسه بمكان قريب من حدود الكويت لجمع قبائل جديدة من حوله ، بالإضافة إلى قوة قبائل مطير التى لم تتأثر بشدة بعد الهزيمة السابقة .

وكان أول من انضم إليه قبيلة عجمان ، وهى قبيلة صغيرة إلا أنها اشتهرت ببأس رجالها فى الحروب وتعيش فى منطقة الحسا على الخليج الفارسى ، كان شيخهم ابن حدحلاين خالاً لفيصل الداويش ، وعدا ذلك ، لم يكن الود موصولاً بين ابن سعود وشيخ عجمان . فمن أعوام سابقة قاموا بذبح شقيق الملك الصغير ، سعد ، وخوفًا من انتقام الملك ، هاجروا إلى الكويت . ثم عفا عنهم ابن سعود بعد ذلك وسمح لهم بالعودة إلى أرض آبائهم ، إلا أن البغضاء ظلت حية بالقلوب ، ثم اشتعلت على هيئة عداوة بعد أن اغتيل زعيم عجمان وبعض أتباعه فى معسكر أحد أقارب ابن سعود ، وهو الابن الأكبر لأمير الحسا ، أثناء التفاوض للتوصل إلى تسوية .

وكان تحالف قبائل مطير وقبيلة عجمان بمثابة الشرارة التى اندلعت بين قبائل عتيبة فى قلب نجد فأحيت تمردها من جديد ، وتجمعوا من جديد تحت زعامة زعيم آخر بعد القبض على بوجاد فى المعركة السابقة ، وأعلنوا تمردهم وعصيانهم من جديد ، وأجبروا الملك على تحويل كل قواته من شمال نجد إلى وسطها . كان القتال مريراً ، ولكن مع الوقت كانت كفة ابن سعود ترجح ، فقد راح يحقق الانتصارات على قبائل عتيبة ، قبيلة بعد أخرى ، حتى عرضوا الاستسلام . وفى قرية تقع بين الرياض ومكة ، أعلن زعيمهم الاستسلام وأعلن ولاءه للملك - ومرة أخرى عفا عنهم الملك ، آملاً فى التفرغ للداويش وباقى المتمردين فى الشمال . وبمجرد عودة الملك إلى الرياض تراجعت قبائل عتيبة عن ولائها للمرة الثانية وجددوا أعمالهم العدوانية ، وأصبح الملك يخوض حربًا ضد عتيبة للمرة الثالثة لإنهاء تمردهم إلى الأبد . وللمرة الثالثة هزمت عتيبة وتشتت شملهم ، ودُمرت منشآت وقواعد الإخوان فى غطغط تدميراً كاملاً ، وكانت غطغط أكبر من الرياض ، واستقرت سلطة الملك من جديد على وسط نجد .

استمرت الحروب فى الشمال . كان فيصل الداويش وحلفاؤه قد عززوا مواقعم بالقرب من الحدود ، وقام ابن مسعد أمير حائل بمهاجمتهم مرج بعد أخرى بالنيابة عن الملك . ولمرتين يعلن على الملأ أن الداويش قد قتل، وكان يثبت بعدها أنها شائعة كاذبة . هكذا عاش عنيداً لا يتصالح سقط ابنه الأكبر وسبعمائة من مقاتليه صرعى

الحرب، إلا أنه لم يتخل عن القتال ، وطرح السؤال نفسه : من أين يتلقى الداويش الدعم المالى الذى لا غنى عنه للاستمرار فى الحرب كل ذلك الوقت ؟ ومن أين يحصل على أسلحته وذخيرته ؟

كانت هناك تقارير غامضة وغير محددة ، أن المتمردين الذين انتقدوا ابن سعود «بمرارة» لعقده معاهدة مع «الكفار » ، يتعاملون مع البريطانيين ويتحالفون معهم ضد ابن سعود . كانت هناك شائعات أن الداويش يذهب كثيرًا إلى الكويت : فهل يقوم بذلك فعلاً ؟ ودون معرفة السلطات البريطانية ؟ ألا يمكن أن تكون الاضطرابات المثارة فى مملكة ابن سعود تخدم مصالحهم وأغراضهم أجل خدمة ؟

* * *

ذلك مساء صيف عام ١٩٢٩ ، كنت بالرياض ، أويت إلى فراشى مبكرًا ، وقبل أن أستغرق فى النوم ، رحت أتصفح كتابًا قديمًا عن القبائل العمانية وأصولها ، ووجدت زيد يحضر إلى غرفتى فجأة قائلاً :

«هناك رسول من لدى لشيوخ ، ويريدك أن تذهب إلى القلعة ».

ارتديت ملابسي على عجل وتوتجهت إلى القلعة . كان ابن سعود ينتظرنى فى جناحه الخاص ، متربعًا على ديوان وأكوام من الصحف العربية من حوله وإحدى صحف القاهرة بين يديه . رد على تحيتى بإيجاز دون أن يقطع قراءته وأشار إلىَّ أن أجلس جواره . بعد فترة رفع بصره . ونظر إلى الخادم الذى كان يقف بباب الغرفة وأشار بيده ليتركنا بمفردنا . وبمجرد أن أغلق الخادم الباب ، وضع الملك الصحيفة جانبًا وراح ينظر إلى برهة من خلف زجاج نظارته اللامع ، كما لو كان لم يرنى من فترة طويلة (مع أننى قضيت معه بضع ساعات فى الصباح) . سألنى : «مشغول بالكتابة ؟ » . قلت : «كلا يا طويل العمر . لم أكتب حرفًا من بضعة أسابيع ».

قال : «كانت مقالات مثيرة تلك التى كتبتها عن مشاكلنا الحدودية مع العراق ». كان يشير إلى بعض المقالات التى أرسلتها إلى جريدتى فى أوروبا من شهرين، ونشرت مقالات منها فى صحيفة بالقاهرة ، وأعانت تلك المقالات فى توضيح حقائق مهمة . ولأننى على دراية كبيرة بالملك ، كنت أدرك أنه لا يتحدث عشوائيًا وأن لديه شيئًا محددًا يهدف إليه ، ولذلك ظللت صامتًا ، منتظرًا أن يكمل حديث . وبالفعل أكمل حديثه :

«ربما تود أن تكتب المزيد عما يحدث فى نجد – عن ذلك التمرد وما وراءه » . كان هناك بعض الانفعال الطفيف فى صوته وهو يكمل : عائلة الشريف حسين تكرهنى . وأبناء الحسين الذين يحكمون بغداد وعبر الأردن سيظلون على كراهيتهم لى ، فهم لن ينسوا أبدًا أننى انتزعت الحجاز منهم . يودون أن تنهار مملكتى حتى يتمكنوا من العودة إلى الحجاز .. أما أصدقاؤهم ، الذين يتظاهرون أنهم أصدقائى أيضًا ، فقد لا يحبون أيضًا أن تبقى مملكتى مستقرة .. إنهم لم يبنوا تلك الحصون بلا سبب يريدون إشعال حرب ويدفعوننى بعيدًا عن الحدود الشمالية ... ».

من خلف كلمات ابن سعود كنت أتخيل صورًا شبحية – مد خطوط سكك حديدية ، على الرغن من أنها ما زالت مخططات ، إلا أنها قد تصبح واقعًا بالغد : وهو مشروع بريطانيا لمد خط سكة حديد بين حيفا والبصرة . كانت الشائعات عن تلك الخطة معروفة من سنين . كان البريطانيون يخططون لتأمين «الطريق البرى إلى الهند »: وكان ذلك سببًا فى فرض وصايتهم على فلسطين وعبر الأردن والعراق . لم يكن مد خط سكة حديد من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى مجرد إضافة جديدة لخطوط الإمبراطورية ، بل كان يوفر حماية كبيرة لخط أنابيب النفط الذى سيمتد من العراق عبر الصحراء السورية حتى مدينة حيفا . من جهة أخرى ، كان خط سكة حديد حيفا – البصرة لابد أن يمر بولايات ابن سعود الشمالية ، ولم يكن الملك يقبل أبدًا ذلك الاقتراح البريطانى . ألا يمكن أن يكون بناء تلك الحصون على خط الحدود الفاصل بين العراق ونجد والذى يخرق كل الاتفاقيات المبرمة ، المرحلة الأولى من مخطط دقيق لإحداث

اضطرابات فى تلك المنطقة المهمة «لتبرير » إقامة منطقة عازلة شبه مستقلة ، وتكون أكثر ميلاً للبريطانيين ؟ من الممكن أن يحقق لهم فيصل الداويش مثل ذلك الهدف مثله مثل عائلة الشريف ، هذا إن لم يكن أفضل منهم فى تحقيق مآرب بريطانيا . لقد كان من أهل نجد المراد فصل شمالها ، وله أتباع أقوياء بين الإخوان ، وكان ادعاؤه الدينى مجرد ستار يدركه بسهولة من يعرفون ماضيه ؛ كل ما يريده الداويش السلطة وحدها . لم يكن هناك شك ، أنه لو حارب دون معاونة من جهات مجهولة ، لم يكن ليصمد أمام ابن سعود . ولكن هل كان بمفرده فعلاً ؟

بعد برهة صمت ، أكمل الملك حديثه : «لقد كنت أفكر ، كما يفكر الجميع ، فى موضوع إمدادات السلاح والذخيرة المتوفرة باستمرار للداويش لديه الكثير منها ، ولديه أموال طائلة أيضًا ، جاءتنى تقارير بذلك . وقد كنت أتساءل ، إن كنت تود زن تكتب عن هذه الأمور - أقصد تلك المصادر الغامضة التى تمد الداويش بالسلاح والمال . لدى شكوكى الشخصية حول تلك المصادر، وربما ما هو أكثر من شكوك - إلا أننى أفضل أن تكتشف بنفسك ما تود اكتشافه ، فقد أكون على خطأ ».

هذا هو الأمر إذن . مع أن الملك كان يتكلم بطريقة عرضية ، وبنغمة الحوار المعتاد ، إلا أنه من الواضح أنه كان يزن كل كلمة قبل أن يقولها . نظرت إليه بتركيز . بشا وجهه مبتسمًا بعدما كان فى منتهى الجدية من لحظة مضت . وضع كفه على ركبتى وهزها قائلاً : «أريدك يا بنى أن تعرف لنفسك - من أين حصل الداويش على السلاح والذخيرة والمال الذى يبذره ويبذله فى سخاء وبلا حساب . لا يوجد لدى شك عن الجهة التى تموله ، ولكنى أحب أن يخبر واحد مثلك غير متورط فى النزاع ، كل العالم بالحقيقة الخافية وراء تمرد الداويش .. أظن أنك تقدر على التوصل إلى تلك الحقيقة » .

كان ابن سعود يعى تمام الوعى ما يفعله . لقد كتان يعلم على الدوام أننى أحبه . وعلى الرغم من أننى لم أتفق مع سياساته ، كما لم أخف أبدًا عدم موافقتى تلك ، إلا أنه لم يحجب أبدًا ثقته بى وغالبًا ما كان يسألنى الرأى ، وأعتقد أن ذلك يرجع إلى يقينه من أننى لا أنتظر أى مسكب شخصى ، وأننى لن أقبل وظيفة بحكومته إذا ما

عرضها عليَّ ، فقد كنت أفضل أن أبقى حرًا . وهكذا ، فى تلك الليلة التاريخية من صيف عام ١٩٢٩ ، اقترح على بهدوء أن أنطلق لاكتشاف سر الخديعة السياسية الكامنة خلف تمرد الإخوان - وهى مهمة تنطوى على مخاطرة شخصية وتتطلب بذل جهود كبيرة .

كان «الشيوخ » يعلم أننى لن أخذله . فباستثناء حبى لشخصه ولبلده ، فإن المهمة التى أوكلها إلىّ تبدو واعدة وحافلة بكثير من المغامرات المثيرة . فضلاً عما يمكن أن أحققه من «سبق صحفى ».

قلت له : «على عينى ورأسى أمرك يا طويل العمر ، سأفعل بالتأكيد كل ما يمكننى عمله ».

قال : «لا يوجد لدى شك فى ذلك يا محمد، وأتوقع أن تحتفظ بأمر هذه المهمة سرًا . قد تنطوى على مخاطر - وماذا عن زوجتك ؟ »

كانت الزوجة فتاة من الرياض تزوجتها فى العام السابق . ولكنى طمأنت الملك فيما يخصها قائلاً : «إنها لن تبكى يا إمام ، اليوم فقط كنت أفكر فى طلاقها ، يبدو أننا لا نتناسب بعضًا ».

ابتسم ابن سعود ابتسامة العارف؛ فطلاق زوجة لم يكن شيئًا غريبًا عليه .

سألنى : «وماذا عن باقى ناسك - أقربائك وأهلك ؟ ».

قلت : «لا يوجد مَنْ سيعلن الحداد على ما أظن إن حدث لى مكروه ، باستثناء زيد بالطبع ، ولكنه سيصحبنى على أى حال ، وما يقع لى سيقع له بكل تأكيد ».

قال : «خير إن شاء اللّـه ، قبل أن أنسى : ستحتاج إلى بعض المال لتلك المهمة » - ودفع يده تحت حشية خلفه ، وأخرج كيسًا وضعه فى كفى، من وزن الكيس خمنت على الفور أنها عملات ذهبية . فكرت بينى وبين نفسى : «كم كان على يقين ، حتى قبل أن يحدثنى ، أننى سأوافق »...

* * *

حين عدت إلى بيتى ، نادت زيد الذى كان مستيقظًا بانتظار عودتى ، سألته : «لو طلبت منك يا زيد أن تصحبنى فى مهمة تنطوى على مخاطر هل تفعل ؟».

أجاب زيد : «هل تظن يا عمى أننى أدعك تذهب وحدك ، مهما كانت المخاطر ؟ إلى أين سنذهب ؟ » .

قلت له : «سنذهب لاكتشاف من أين يحصل الداويش على أسلحته ، وأمواله والملك يصر أن لا يعلم أحد أى شىء عن هذه المهمة حتى نتمها ، لذلك يجب أن تحترز » .

لم يهتم زيد بتأكيد احتفاظه بالسر ، ودخل مباشرة إلى الجوانب العملية وسألنى : «لا يمكن بالطبع أن نسأل الداويش أو رجاله ؛ فكيف سنعرف ذلك ؟ ».

فى طريق عودتى من القلعة، كان ذهنى يقلب الأمر ، بدا لى أن أفضل بداية لابد أن تكون من إحدى مدن وسط نجد، حيث يوجد كثير من التجار الذين لهم علاقات تجارية بكل من العراق والكويت . وأخيراً، استقر رأيىٍ على مدينة «شقرا »، عاصمة ولاية وشم، وهى على مسيرة ثلاثة أيام من الرياض، وهناك أيضًا يمكن أن يساعدنى صديقى عبد الرحمن السباعى .

شهد اليوم التالى إعدادنا لبدء تلك المهمة . ولتجنب لفت الأنظار، حذرت زيد من أخذ أى شىء من مخازن الملك كما كنا نفعل قبل أى ارتحال، وأن يشترى كل ما نحتاجه من السوق . عند حلول المساء، كان زيد قد اشترى كل ما نحتاج من مواد غذائية : عشرين رطلاً من الأرز ، وعشرين رطلاً من الدقيق ، وقربة سمن، وتمر، وبن، وملح . كما اشترى أيضًا قربتين جديدتين للماء، ودلواً من الجلد، وحبلاً طويلاً مجدولاً من شعر الماعز يكفى لإدلائه فى أعمق الآبار . وأعددنا أنفسنا بالأسلحة الملائمة وذخيرة كافية . ووضعنا فى الخروج غيارين من الملابس لكل منا، وارتدى كل منا عباءة ثقيلة لنستعين بها مع الأغطية لاتقاء برد الليل فى الصحراء . كانت نوقنا فى أحسن حال بعد أن قضت أسابيع فى الرعى والراحة ؛ وكانت الناقة التى وهبتها لزيد من أجود نوق السباق العمانى، بينما كانت ناقتى «شمالية » النسب كانت ملكًا لأمير راشدى على مدينة حائل، وأهداها لى ابن سعود .

بعد حلول الليل ، خرجنا من الرياض ، عند الفجر كنا وصلنا وادى حنيفة ، وهو مجرى مائى قديم وجاف يقع بين سفوح التلال - وكان موقعًا لمعركة حاسمة جرت أحداثها من ثلاثة عشر قرنًا بين قوات المسلمين فى عهد أبى بكر رضى اللّـه عنه ، خليفة الرسول ، وأول خليفة إسلامى ، وقوات مسيلمة الكذاب الذى عادى المسلمين لسنوات طويلة . كانت تلك المعركة عى الانتصار النهائى للمسلمين فى قلب الجزيرة العربية ، وسقط فيها كثير من صحابة الرسول (ﷺ) شهداء ، وما زالت قبورهم واضحة إلى اليوم فى المنحدرات الصخرية للوادى .

قبل منتصف النهار مررنا على أطلال مدينة «عيابنا »وكانت ذات يوم مدينة تزدهر بعدد كبير من سكانها ، وتمتد بطول وادى حنيفة . بين صفوف أشجار الطفراء كانت هناك بقايا ذلك الماضى : جدران منازل متداعية ، وأعمدة مسجد ذات صدوع ، بقايا منازل كانت تشى بالفخامة هنا وهناك ، كلها تنم عن مستوى رفيع من الفن المعمارى مقارنة بالمنازل الطينية البسيطة التى نراها اليوم فى نجد . ويقال : إنه حتى مائتى عام مضت ، كان كل وادى حنيفة من «درية » (وهى العاصمة الأصلية لعائلة ابن سعود) حتى عيابنا - وهى مسافة تربو على خمسة عشر ميلاً - كانت كلها مدينة واحدة ؛ حتى إنه حين ولد ابن الأمير «درية » ، نقلت النساء نبأ ولادته عبر أسطح المنازل ، فى دقائق قليلة حتى نهاية «عيابنا » . أما قصة هجر سكان مدينة «عيابنا»لها ، فهى قصة غامضة مليئة بالأساطير التى يصعب تمييز الصحيح منها . المحتمل أنها هجرت أثناء حكم أول أمير سعودى حين رفض أن ينضم تحت لواء المصلح محمد بن عبد الوهاب ؛ أما القصة التى يحكيها الوهابيون فتذهب إلى أن ما حدث للمدينة كان غضبًا من اللّـه ، أنضب كل آبار عيابنا فى ليلة واحدة ، مما أجبر سكانها على هجرها .

فى ظهر اليوم الثالث طالعتنا من بعيد حونط وأبراج حصن مدينة «شقوا » التى كنا نقصدها ، وظهرت قمم النخيل عالية فوق المنازل . مضينا بين بساتين النخيل فى شوارع خالية ، تذكرنا أن اليوم جمعة وأن أهل المدينة الآن بالمسجد الجامع لصلاة

الجمعة . من آن لآخر كنا نرى إحدى النساء بعباءة سوداء تغطيها من رأسها حتى قدميها ، تندهش لوهلة لوجود غرباء ، ثم تسحب نقابها فوق وجهها في سرعة وخجل وارتباك .

أطفال يلعبون ويلهون في أماكن متفرقة في ظلال المنازل ؛ وحرارة شديدة تجثم بوطأتها حتى هامات النخيل .

توجهنا مباشرة إلى منزل صديقي عبد الرحمن السباعي ، وكان في ذلك الوقت مسئول بيت المال للولاية . ترجلنا أمام الباب المفتوح لمنزله ، ونادى زيد من الفناء : «باويد» - حين ظهر الخادم من داخل البيت مسرعًا ، قال زيد : «لديكم ضيوف ».

بينما كان زيد مشغولاً بحط الأحمال عن الجمال بمساعدة الخادم في فناء البيت ، تصرفت كأنني في بيتي ، وأشعل خادم آخر النيران تحت إبريق القهوة . وبمجرد أن ارتشفت أول رشفة ارتفعت أصوات من الفناء – أصوات أسئلة وإجابات : لقد عاد صاحب المنزل . من على درج السلم وقبل أن أراه كان صوته يرتفع مرحبًا ، ثم ظهر بفراغ الباب وذراعاه مفتوحان في ترحيب : «كان رجلاً رقيقًا قصير القامة واللحية ، وعينين عميقتين ودودتين في وجه بشوش . بالرغم من حرارة الجو كان يرتدي معطفًا طويلاً من الفرو تحت العباءة . كان ذلك المعطف أحد أهم مقتنياته ، لا يكل أبدًا من إعلام من لم يعلم بتاريخ ذلك المعطف الذي كان ذات يوم من ممتلكات ملك الحجاز السابق ، الشريف حسين ، وقد كان من نصيب عبد الرحمن حين شارك في غزو مكة عام ١٩٢٤ ، لا أذكر أنني رأيته بدون ذلك المعطف قط .

احتضنني في حرارة ، وشب على أطراف أصابعه ليتمكن من تقبيلي على الخدين ، وترحيبه بنا لا ينقطع : «أهلاً وسهلاً ومرحبًا ، أهلاً بك في بيتي المتواضع يا أخي . مباركة الساعة التي ساقتك إلى هنا ».

ثم تلى الترحيب الأسئلة التقليدية : من أين ، وإلى أين ، وحال الملك ، والأمطار ، وإن كنت سمعت أي أخبار عن سقوط أمطار – كان من المعتاد تبادل كل الأخبار

العربية شفاهة . قلت له : إن «عنيزة » في قلب نجد هي مقصدي - لم يكن ذلك دقيقًا تمامًا، إلا أنه لا يبعد كثيرًاعن الحقيقة .

في أعوام سابقة ، كان عبد الرحمن يعمل بالتجارة فيما بين نجد والعراق ، وكان معروفًا لتجار البصرة والكويت . ولم يكن من الصعب دفعه إلى الحديث عن تلك الأماكن وعن الذين قدموا مؤخرًا منها (خمنت أن وجود فيصل الداويش بالقرب من الكويت ، يعني أن الكويت أو البصرة مصدر إمداداته) عرفت من عبد الرحمن أن أحد أبناء عائلة البسام المشهورة في عنيزة - وهو أحد معارفي القدامى - قد مر بالكويت وهو عائد من البصرة ، وأنه تجنب المرور بالمناطق التي يوجد بها المتمردون تجنبًا للمخاطر ، لذلك عاد عن طريق البحرين إلى نجد ، وهو في «شقرا » في الوقت الحالي ، وأنه سيرسل في طلبه لو أردت لقاءه : وطبقًا لعادة عربية متأصلة كان الواصل حديثًا إلى مكان ، يزار ولا يزور ، بعد فترة قصيرة ، كان عبد اللّـه البسام قد انضم إلينا في مجلس القهوة في بيت عبد الرحمن :

كان عبد اللّـه على الرغم من انتمائه إلى أكبر عائلة تعمل بالتجارة في نجد ، غير ميسور الحال . كانت حياته مليئة بأيام رخاء وأيام عسر - والعسر أغلب - لم تقتصر خبرته في الحياة على منطقة نجد ، بل شملت القاهرة ، وبغداد ، والبصرة ، والكويت ، والبحرين ، وبومباي . يعرف كل من يستحق أن يعرف في تلك البلاد ولديه معلومات عن كل ما يجري في البلاد العربية ، أخبرته أن شركة ألمانية كلفتني بالبحث عن وكيل مناسب لتصدر إليه معدات زراعية في البصرة أو الكويت ، ولأن الشركة تعرض عليّ عمولة كبيرة ، فأنا مهتم بالتوصل إلى أنسب التجار في المدينتين لتنفيذ ذلك العرض .

ذكر البسام أسماء عديدة ، ثم أضاف :

« أنا متأكد أن تجار الكويت سيهتمون بالمشروع ؛ إنهم دائمًا يستوردون سلعًا من الخارج ، والظاهر أن التجارة منتعشة جدًا هذه الأيام - حتى إن رسائل كثيرة من الريالات الفضية الجديدة تصل كل يوم مباشرة من دار سك العملة في « تريست ».

أصابنى ذكره للريالات الفضية الجديدة بهزة داخلية . فهذا النوع من الريالات الجديدة ، مع ريالات « ماريا تريزا »الذهبية ، يشكلان معًا ، بالإضافة إلى العملات العربية الأخرى ، العملات الرئيسية فى كل الجزيرة العربية . لقد سكت تلك الريالات فى مدينة « تريست » وبيعت بقيمة ما تحتويه من فضة ، عدا عمولة بسيطة ، تسك لمختلف الحكومات وللتجار الكبار الذين لهم تجارة كبيرة مع البلاد ولا يقبلون إلا عملات فضية وذهبية ، فلم يكن البدو يقبلون التعامل بالعملات الورقية ، كانت العملة المفضلة ريالات « ماريا تريزا »الذهبية ، والواضح أن استيراد كميات كبيرة من تلك العملات من قبل تجار كويتيين ، يدل على أن تعاملات كبيرة تتم الآن بينهم وبين البدو .

سألت البسام : « لماذا يستورد التجار الكويتيون ريالات جديدة الآن بالذات ؟ »رد فى لهجته شىء من الحيرة : « لا أدرى ، إنهم يتحدثون عن شراء لحوم الإبل من البدو بالقرب من الكويت لبيعها فى العراق وأسعارها مرتفعة هذه الأيام على الرغم من أننى لا أدرى كيف يتوقعون أن يجدوا جمالاً الآن فى الصحراء قرب الكويت مع تلك الاضطرابات الواقعة .. هذا ما يحيرنى » ثم أضاف ضاحكًا : « أعتقد أنه أربح لهم شراء جمال للركوب من العراق ويبيعونها للداويش ورجاله ، ولكن الداويش بالطبع ليس لديه المال لدفع ثمنها ».

هل لا يملك مالا حقًا ؟

فى تلك الليلة قبل أن آوى إلى فراشى فى الغرفة التى خصصها مضيفنا لنا ، سحبت زيد إلى جانب من الغرفة ، وقلت له : « سنذهب إلى الكويت ».

قال : « لن يكون الأمر سهلاً يا عمى »، إلا أن بريق عينيه كان أكثر صراحة من قوله ، فقد وشت عيناه لا بحبه فقط للمواقف الصعبة ، بل بإقباله على شديد الخطورة منها . كان من العبث أن نسافر إلى الكويت عبر الأراضى التى يسيطر عليها رجال الملك ، لأنه سيتبقى بعدها مائة ميل تفصلنا عن حدود الكويت وتسيطر عليها قبائل مطير وقبيلة عجمان . كان يمكن السفر إلى الكويت بالبحر عن طريق البحرين ، إلا أن

ذلك كان يتطلب تصريحاً من السلطات البريطانية وبذلك نعرض كل تحركاتنا للرصد والمتابعة . وكان من الصعب سفرنا عن طريق الجوف ، ثم عبر الصحراء السورية ، ثم العراقية حتى الكويت لأننا سنمر على مئات من نقاط التفتيش والتحرى بسوريا والعراق . لم يتبق إلا الطريق البرى المباشر إلى الكويت والمار بالمناطق المعادية . فكيف نخترق تلك المائة ميل وندخل إلى الكويت دون أن يكتشف أمرنا ؟ كان من الصعب التوصل إلى إجابة ، ولذلك تركت إجابة السؤال للمستقبل ، واضعًا ثقتى فى حظى الحسن والفرص الملائمة التى لا أعرفها الآن .

أراد عبدالرحمن السباعى أنت يستبقينى فى ضيافته بضعة أيام ، ادعيت له أن أمامى أعمالاً تجارية مهمة ، تركنا نغادر فى الصباح ، بعد أن أضاف إلى مخزوننا من المؤن كمية من لحم الجمال المجفف – وكانت إضافة شهية إلى طعامنا المحصور فى أصناف بسيطة . وأصر أن أزوره فى طريق العودة ، ولم أجد ما أجيب به إلا : « إن شاء اللّـه » .

* * *

من « شقرا »، ارتحلنا على مدى أربعة أيام باتجاه الشمال الشرقى دون أن يقابلنا أحد . مرة واحدة استوقفتنا قوات موالية للملك من بدو العوازم التى تكون جانبًا من قوات الأمير ابن مسعد ؛ ولكن الخطاب المفتوح من الملك جعلهم يعاملونا أفضل معاملة ، وبعد إجراءات الضيافة المعتادة ، واصلنا طريقنا .

قبل فجر اليوم الخامس وصلنا إلى منطقة لا تمتد إليها سلطات ابن سعود . من الآن أصبح من المحال الارتحال نهاراً ، وأماننا أصبح فى السير ليلاً وخلسة .

حططنا رحالنا فى ممر مناسب لا يبعد كثيراً عن طريق وادى الرمة ، وهو مجرى مائى جاف قديم كان يجرى من شمال الجزيرة حتى الخليج الفارسى وملىء بأشجار الطرفاء والأعشاب مما كان يوفر لنا غطاءً ملائمًا للاختفاء بينها أثناء النهار . عقلنا

نوقنا جيداً ، وأطعمناها مجروش الشعير ونوى التمر - حتى لا نطلقهما للرعى - واسترخينا فى انتظار حلول الظلام . لم نجرؤ على إشعال نار حتى لا يكشف دخانها عن موضعنا ، واكتفينا بوجبة من التمر والماء . تبين لنا أن حرصنا كان ذا فائدة عظيمة فى ذلك اليوم ، حين وصل إلى سمعنا صوت إنشاد بدو . إمسكنا بأفواه الجمال حتى لا ترغو أو تقرقر ، وضغطنا أنفسنا إلى جدار الممر الصخرى وبنادقنا جاهزة فى أيدينا . علا صوت الغناء مقترباً ؛ ميزنا منه كلمات : (لا إله إلا اللّه ، لا إله إلا اللّه) ، وهو الإنشاد الذى أحله الإخوان محل أناشيد وأغانى الارتحال . لم يكن هناك أدنى شك أنهم من قوات الإخوان ، وفى هذه المنطقة لا يمكن إلا أن يكونوا من الإخوان العدوانيين . بعد فترة ظهروا على حافة رابية ، تعلو بالكاد حافة الممر - كانوا جماعة مكونة من ثمانية أو عشرة راكبين يتقدمون ببطء فى صف واحد ، أشكالهم محددة بوضوح على خلفية من صفحة السماء . كان كل منهم يضع غطاء رأس أبيض فوق كوفية مخططة باللونين الأبيض والأحمر ، على صدورهم حزامان عريضان يتقاطعان فوق الصدر ومع كل منهم بندقية معلقة إلى سرج الجمل من خلفهم موكب كئيب يتأرجح للأمام والخلف ، ثم للأمام والخلف ، على إيقاع خطو الجمال وعلى وقع إنشاد اسم الجلالة العظيم الذى يساء استعماله : (لا إله إلا اللّه) ... كان مشهداً يوحى بالقوة إلا أنه كان فى الوقت نفسه محبطًا ومحزنًا . كانوا رجالاً يعنى الإيمان لديهم أشياء أكبر من الحياة ، اعتقدوا أنهم يحاربون من أجل الدين الخالص لإعلاء كلمة اللّه ، لا يعلمون أن حماسهم وتحرقهم قد وظف وأسىء استخدامه لتحقيق تطلعات قائد لهم لا ضمير له ولا خلاق سيعى إلى تحقيق السلطة والنفوذ ...

كانوا من الناحية الملائمة من الممر التى لا تكشفنا ، لو كانوا بالجهة الأخرى لرأونا بمنتهى الوضوح كما نراهم نحن الآن من بين الأعشاب . وحين اختفوا عن أنظارنا والإنشاد الدينى مازال على شفاهم ، تنفسنا الصعداء فى ارتياح . همس زيد : « إنهم مثل الجن » .أجبته : « نعم ، هم مثل الجن الذى لا يعرف المرح بالحياة ، ولا خوت الموت ... شجعان وأقوياء الالتزام ، لا ينكر أحد ذلك - ولكن كل ما تدور حوله أحلامهم لا يتجاوز الدم والموت والجنة ... ».

كرد فعل للنقاء الدينى الإخوانى المتجهم ، بدأ زيد يغنى أغنية حب سورية : «أيتها العذراء ذات البشرة الخمرية ... »وبمجرد أن ساد الظلام ، بدأنا السير خفية باتجاه الكويت البعيدة النائمة .

* * *

فجأة ، تعجب زيد مندهشاً : « انظر هناك يا عمى ، هناك نار » كانت ناراً صغيرة لبدوى حط رحاله ؛ قد يكون راعياً بمفرده ؟ ولكن أى را ع هذا الذى يجرؤ على إشعال النار هنا إلا إذا كان من المتمردين ؟ من الأفضل اكتشاف الأمر ، لو كان رجلاً بمفرده لأمكن التغلب عليه بسهولة ، ونستقى منه معلومات قيمة عن تحركات الإخوان وأماكن تواجدهم بتلك المنطقة .

كانت منطقة رملية ، ولم يصدر عن خطوات الجمنال أى صوت حين كنا نقترب فى حذر من النار . على ضوء النار ميزنا شكل بدوى بمفرده يجلس القرفصاء . كان يبدو وكأنه يحملق فى اتجاهنا فى الظلام ، ثم حين تأكد له أن هناك قادمين ، نهض بلا تعجل ، مربعًا ذراعاه على صدره ليظهر لنا أنه غير مسلح ، وانتظر بهدوء دون أى حركة تشى بخوف .

صاح زيد بحدة : « من أنت ؟ »، وصوب بندقيته باتجاه البدوى ذى الملابس البالية .

ابتسم البدوى ببطء ورد بصوت عميق رنان : « أنا صلوبى ... ».

اتضح الآن سبب هدوئه . فهو ينتمى إلى قبيلة غريبة تشبه الغجر (على الأصح مجموعة قبائل) لم تكن أبداً طرفًا فى أى حرب من الحروب التى لا تنقطع بين بدو الجزيرة العربية ؛ لم يعادوا أحداً ، فلم يهاجمهم أحد أبداً .

كان بدو الصلوبة (المفرد صلوبى) لغزاً أمام كل الباحثين . لا يعرف أحد أصلهم على وجه اليقين . من الثابت أنهم ليسوا عرباً : فعيونهم زرقاء وشعرهم بنى فاتح بغض

النظر عن بشرتهم الداكنة من حرارة الشمس ، مما يفضح انتماءهم للمناطق الشمالية فى أوروبا . ويذكر المؤرخون العرب القدامى أنهم من نسل الصليبيين الذين أسرهم صلاح الدين وأرسلهم إلى الجزيرة العربية ، وأسلموا بعد ذلك ؛ وبالفعل تجد أن اسم صلوبة له نفس جذر اللغة : صليب وصليبى - لا يعلم أحد مدى صحة هذا التفسير . على أى حال يعتبر البدو أن الصلوبة ليسوا عرباً ويعاملونهم بازدراء وتعال . وهم يفسرون سر ذلك الازدراد ، الذى يتناقض بحدة مع إحساسهم العالى بالمساواة بين البشر ، فهم يؤكدون أن أولئك الصلوبة ليسوا مسلمين حقيقيين ولا يحيون كالمسلمين ويؤكدون أنهم لا يتزوجون ، بل يتناسلون كما تتناسل الكلاب بلا زواج ، ودون أن يراعوا حتى علاقات المحارم ، ويدعون أنهم يأكلون الميتة المحرَّم أكلها . وقد يكون كل ذلك من قبيل المبالغات . وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن وعى الصلوبيين بانتمائهم إلى جنس مغاير هو ما جعل البدو - الذين يهتمون بالأنساب والسلالات - إلى وضعهم فى دائرة خاصة لا يتجاوزونها حتى لا تختلط الأنساب ، وهو دفاع غريزى عن نقاء السلالات ، إذا كان الصلوبيين يشكلون إغراءً جماليًا ، فذلك لأنهم جميعًا يتمتعون بجمال فائق ، ورجالهنم أطول من رجال العرب ، وملامحهم وأجسامهم متناسبة ومتناسقة ؛ أما نسائهن ففائقات الجمال ، عدا أجسامهن الجميلة وحركتهن الرشيقة .

والصلوبة يلقون تقديراً من بدو الصحراء كبيطريين مهرة فى مداواة الحيوانات المريضة ، وفى صناعة السروج ، وأعمال الحدادة والمعادن ، وبالرغم من أن البدو يحتقرون الصناعات اليدوية حتى إنهم لا يمارسونها ، فإنهم لا يستغنون عنها ، ولذلك يملأ الصلوبة ذلك الفراغ ، وهم عدا ذلك رعاة ممتازون ، وفوق كل شىء ، صيادون مهرة لا يضارعون . وقدرتهم علي اقتفاء الأثر قدرة أسطورية ، ولا يضاهيهم فى ذلك إلا بدو « المرة »على حافة الربع الخالى الشمالية .

أحسست بالارتياح حين وجدت الرجل صلوبى ، قلت له صراحة : إننا من رجال ابن سعود - لم يشكل ذلك خطراً على ضوء معرفتى أن الصلوبة يكنون احتراماً شديداً للسلطة - وأمرته أن يطفئ ناره ، ففعل ، ثم جلسنا على الأرض فى حوار طويل .

لم يخبرنا بالكثير عن أماكن تواجد قوات الداويش ، لأنهم كما قال : « فى حركة دائبة ، مثل الجن ، ولا يمكثون بمكان واحد لفترة طويلة »، طمأننى على الأقل بأنه لا توجد فى الوقت الحالى تجمعات كبيرة للإخوان على مقربة منا ، وبالرغم من وجود جماعات صغيرة تعبر الصحراء باستمرار عبر كل الاتجاهات . فجأة ، واتتنى فكرة ألا يمكننا الاستفادة من خبرات الصلوبى ليقودنا إلى الكويت ؟

سألته : « هل ذهبت قبل ذلك إلى الكويت ؟ »

ضحك الصلوبى قائلاً : « مرات كثيرة ، لقد بعت هناك جلود غزلان ، وسمنًا ، وصوف جمال . عدا ذلك ، عدت منها من عشرة أيام فقط ».

قلت : « إذن يمكنك أن تقودنا إلى الكويت ؟ - أقصد أن تسير بنا فى طرق لا يسلكها الإخوان ؟ »

للحظات راح الصلوبى يفكر ، ثم أجاب بعد فترة بتردد : « ذلك ممكن ، ولكنه خطر كبير علىّ ، إذا قبضوا علىّ بصحبتكم ، لكن ... قد يكلفك ذلك كثيراً ».

قال : « حسنًا ... »، تبينت ارتجافة الطمع فى صوته - « حسنًا يا سيدى ، إذا أعطيتنى مائة ريال قد أستطيع أن أقودك آمنًا إلى الكويت بطريقة لا يراك بها أحد إلا طيور السماء ».

كانت المائة ريال تساوى عشر جنيهات ذهبية (*)، وهو مبلغ بسيط فى مهمة كمهمتنا، وربما لم يمسك الصلوبى فى حياته مبلغًا بمثل تلك القيمة .

قلت له : « موافق ، سأعطيك مائة ريال - عشرين الآن والباقى بعد وصولنا إلى الكويت ».

لم يتوقع دليلنا المنتظر أن يُجاب طلبه على الفور ، وربما أحس بالندم ؛ لأنه لم يطلب ثمنًا أعلى ، لأنه بعد أن فكر قليلاً ، أضاف : « ولكن ، ماذا عن الناقة ؟ إذا قدتكم إلى الكويت ثم عدت ، ستكون ناقتى المسكينة قد هلكت تمامًا ، وليس لدى غيرها .

(*) كانت المائة ريال تساوى أيضًا خمسين جنيهًا إسترلينيًا بأسعار ذلك الوقت .

لم أرغب فى إطالة المفاوضات ، أجبته على الفور : « سأشترى ناقتك ، وستركبها أنت حتى الكويت ، وهناك سأهبها لك كهدية - ولكنك ستقودنا فى العودة أيضًا ».

كان ذلك أكثر مما يتمنى ويشتهى - نهض فى خفة وابتهاج ، واختفى فى الظلام ، ثم ظهر بعد دقائق ، يسحب ناقة عجوز إلا أنها بدت قوية بعد بعض المحاجاة والمساومات استقر السعر عند مائة وخمسين ريالاً للناقة ، يتقاضى منها خمسين الآن توًا ، ويتقاضى باقى ثمنها مع باقى المكافأة فى الكويت .

أخرج زيد كيس النقود من أحد خروج ناقته وبدأ فى عد قطع العملات فى حجر الصلوبى . من طيات ملابسه أخرج قطعة قماش كان يصر فيها نقوده ، وبينما كان يضيف ريالاتى إلى ما معه ، لفت نظرى بريق قطع العملة الجديدة التى كانت معه .

أمرت قائلاً وأنا أضع كفى على يده : « توقف ، دعنى أر تلك العملات الجديدة التى معك ».

فى حركة مترددة ، كما لو كان يخشى أن نسرق ماله ، وضع الصلوبى قطع العملة فى كفى ، كانت حوافها حادة مثل العملات المسكوكة حديثًا ولم تنعم حوافها بعد من كثرة التداول ، أشعلت عود ثقاب وفحصتها بعناية ، كانت بالفعل ريالات «ماريا تيريزا»، جديدة كما لو كانت قد خرجت الآن من دار سك العملة ، ووجدت خمس أو ست قطع أخرى بنفس الجدة .

سألته : « من أين حصلت على هذه الريالات ؟ ».

أجاب فى حماس : « لقد كسبتها بشرف ، أقسم لك يا سيدى .. لم أسرق هذه النقود . أعطاهم لي مطيرى من أسابيع بالقرب من الكويت ، لقد اشترى منى سرج جمل لأن سرجه كان باليًا ... ».

سألته : « مطيرى ؟ هل أنت متأكد ؟ ».

أجاب : « متأكد يا سيدى ، ليقتلنى اللّـه إن كنت كاذبًا .. كان من رجال الداويش، واحد من المتمردين الذين كانوا يقاتلون مؤخرًا أمير حائل ، هل ارتكبت جرمًا إذا

أخذت منه مالاً مقابل السرج ؟ لم أكن أقدر أن أرفض البيع ، وأنا متأكد أن «الشيوخ» ، إطال اللّـه عمره ، سيتفهم ذلك ... »، طمأنته أن الملك لن يغضب منه ، فتطامن قلقه . واستجوبته من جديد ، وعلمت أن أفراداً آخرين من الصلوبة تلقوا ريالات جديدة من أتباع الداويش مقابل سلع وخدمات ...

أثبت الصلوبى أنه دليل لا يضارع . على مدى ثلاث ليال قادنا فى مسارات التفافية حول المناطق التى يسيطر عليها المتمردون ، قادنا عبر مناطق مقفرة حتى إن زيد الذى يعرف تلك المنطقة جيداً ، لم يرها فى حياته من قبل . قضينا أوقات النهار متخفين بلا حركة . ذات مرة قادنا إلى حفرة بها ماء ، لا يعرفها حتى بدو المنطقة كما أخبرنا ؛ روت مياهها البنية الراكدة ظمأ نوقنا كما أعدنا ملئ قربنا . رأينا مرتين فقط بعض جماعات الإخوان عن بُعد ، إلا أنهم لم يرونا .

فيما بعد ظهر الصباح الرابع من مقابلتنا للصلوبى ، بدت فى الأفق مدينة الكويت . لم نحاول دخولها من اتجاه الجنوب الغربى الذى قدمنا منه كما يفعل القادمون من نجد ، ودخلناها من الغرب على طريق القادم من البصرة ، حتى يعتقد من يراننا أننا تجار قادمون من العراق .

بمجرد دخولنا مدينة الكويت ذهبنا إلى مجمع سكنى ملك لتجار من معارف زيد منذ أن كان فى قوات « العجايل »العراقية ، واسترحنا من عناء السفر كما لو كما لو كنا فى بيوتنا .

كانت الحرارة المشبعة بالرطوبة تجثم على شوارع الكويت الرملية وعلى البيوت المشيدة من قوالب الطين الجاف ؛ ولاعتيادى على السهوب المفتوحة فى نجد وجدت نفسى غارقًا فى العرق . إلا أنه لم يكن هناك وقت نضيعه فى الراحة . تركنا الصلوبى يحرس الجمال مع تعليمات مشددة ألا يخبر أى أحد بالجهة التى أتينا منها – وتوجهت أنا وزيد إلى السوق لنقوم بتحرياتنا الأولية .

لم أكن على دراية بالكويت ولم أرد أن أشغل زيداً بوجودى معه ، جلست على مقهى لمدة ساعة ، أحتسى القهوة وأدخن الأرجيلة ، حتى عاد زيد ، كان من الواضح من

علامات الانتصار البادية على وجهه أنه توصل إلى معلومات مهمة . بادرنى قائلاً : «هيا نتحدث فى الخارج يا عمى ، من السهل أن نتحدث فى السوق حتى لا يسمعنا أحد ، لقد عدت إليك بشىء مهم – ولى أيضًا » ومن تحت عباءته أخرج عقالين وكوفيتين عراقيتين من الصوف البنى السميك . أردف زيد : « هذه تجعلنا عراقيين »، تأكد زيد باستفسارته الخفية أن أحد زملائه القدامى – وهو أحد رفاقه وقت أن كان يعمل بالتهريب عبر الخليج الفارسى – يعيش الآن بالكويت ، ومازال يعمل بالتهريب . قال : « لو بحثنا عمَّنْ يخبرنا بأدق أسرار تجار السلاح فى الكويت فلن نجد أفضل من بندر . إنه شمَّارى مثلى – واحد من أولئك الحمقى العنيدين الذى لا يمكن أن يرضى بالرضوخ لحكم ابن سعود . ويجب ألا نخبره أننا نعمل مع الشيوخ – ومن الأفضل أن نخبره من أين أتينا ؛ لأن بندر ليس غبيًا – إنه فى غاية الذكاء ، لقد خدعنى كثيرًا فيما مضى ولا يجب أن أثق به الآن ».

سألنا عنه حتى وصلنا إلى منزله فى حارة ضيقة مجاورة للسوق . كان طويلاً نحيلاً فى نحو الأربعين من عمره ، عيناه نصف مغلقتين ، تعلو وجهه ملامح من يعانى عسر هضم ؛ إلا أن ملامحه اكتست بسعادة حقيقية حين رأى زيد . وبسبب لون بشرتى الأبيض قدمنى زيد إليه بصفتى تاجر تركى مستقر فى بغداد وأعمل فى تصدير الخيول من البصرة إلى بومباى .

أضاف زيد : « لم تعد تجارة الخيول مربحة هذه الأيام ، خاصة بعد أن حصر تجار عنيزة وبريدة هذه التجارة بينهم ».

أجاب بندر : « هذا صحيح ، لم يكتف أولئك الجنوبيون الأقذار التابعون لابن سعود بالاستيلاء على بلدنا ؛ ويسعون الآن للاستيلاء على أرزاقنا أيضًا ... ».

سأله زيد : « وماذا عن تجارة البنادق يا بندر ، لابد أنها تجارة رابحة هنا ، مع وجود كل أولئك المطيريين والعجمانيين الراغبين فى لى رقبة ابن سعود – هه ؟ ».

أجاب بندر : « كان هناك عمل كثير » وهز كتفيه مردفًا : حتى بضعة شهور مضت كنت أكسب الكثير من المال بشراء البنادق من عبر الأردن ثم أبيعها لرجال الداويش . ولكن ، كل ذلك انتهى الآن ، انتهى تمامًا . لا تستطيع أن تبيع بندقية واحدة الآن ».

سأله زيد : « كيف ذلك ؟ الداويش يحتاج بنادق الآن أكثر من أى وقت مضى ».

أجاب بندر : « هذا صحيح ، بالفعل يحتاج ، إلا أنه يحصل عليها بثمن لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نوفرها بسعر مثله .. إنه يحصل عليها فى صناديق قادمة من عبر البحار – بنادق إنجليزية – جديدة تقريبًا – مقابل عشر ريالات للبندقية مع مائتى طلقة رصاص ».

تساءل زيد فى اندهاش حقيقى : « تبارك الله، عشرة ريالات للبندقية ومعها مائتى طلقة ، ولكن هذا مستحيل ...! ».

بدا الأمر مستحيلاً بالفعل ، فقد كانت البندقية فى ذلك الوقت من طارز « لى – أنفيلد » بثلاثين إلى خمسة وثلاثين ريالاً ، دون طلقات ؛ ولو وضعنا فى الاعتبار أن الثمن بالكويت قد يكون أقل قليلاً من نجد ، فإن فارق السعر الكبير يستعصى علي الفهم .

ابتسم بندر فى استياء وقال : « يبدو أن الداويش لديه أصدقاء أقوياء .. أقوياء جداً .. بعض الناس يقولون : إنه سيصبح ذات يوم أميرًا مستقلاً بشمال نجد ».

قلت : « ما تذكره يا بندر جيد وجميل ، والداويش سيستقل فعلاً عن ابن سعود ، إلا أنه لا يملك مالاً ، وبدون المال لم يكن الإسكندر ذاته يستطيع أن يبنى مملكة ».

انفجر بندر فى ضحكة عالية : « المال ؟ الداويش لديه الكثير من المال – ريالات جديدة ، تأتيه فى صناديق ، مثلما تأتى البنادق فى صناديق من عبر البحار ».

سألت : « صناديق ريالات ؟ هذا غريب جداً . من أين يحصل بدوى على صناديق ريالات جديدة ؟ ».

أجاب بندر : « لا أعلم من أين ، إلا أننى متأكد أن بعض رجاله يتسلمون يوميًا كميات من الريالات الجديدة تصلهم من مختلف تجار المدينة . لماذا ؟ بالأمس فقط رأيت فرحان بن مشهور فى الميناء يشرف على إنزال تلك الصناديق من أحد المراكب ».

كانت هذه الأنباء.- وأنا أعرف فرحان جيداً ، كان الابن الأكبر لأخى ذلك الأمير السورى البدوى نورى الشعلان ، الذى حارب ذات مرة إلى جوار لورانس ضد القوات التركية . قابلت فرحان أول مرة فى دمشق عام ١٩٢٤ ، وكان سيئ السمعة لتواجده الدائم فى أماكن الترفيه المشبوهة . بعد فترة طرد هو وعمه من دمشق مع بعض أبناء قبيلته ، وهى قبيلة « الروالا »، وذهبوا إلى نجد حيث تحول فرحان فجأة إلى « تقى » و« ورع »، وانضم إلى حركة الإخوان . قابلته بعد ذلك للمرة الثانية فى مدينة حائل ، وكان فى ذلك الوقت يضع على رأسه عمامة بيضاء كبيرة دلالة على إيمانه وتقواه وهى العمامة التى يضعها الإخوان ، وكان ينعم بكرم الملك قبل تمرد الإخوان، وحين ذكرته ونحن فى حائل بلقائنا السابق فى دمشق ، غير الموضوع بسرعة ، وتجاهل سؤالى . كان أحمق ومتطلعًا كما كان من قبل ، ورأى فى تمرد الداويش فرصة مواتية لكى يستقل بإمارة الجوف ، وهى واحات تقع إلى شمال صحراء النفود الكبرى - فى الجزيرة العربية كما فى أى مكان آخر ، كان المتمردون يتبعون نفس العادة السيئة فى تقسيم جلد الأسد قبل اصطياده .

سألت بندر : « أى أن فرحان هنا بالكويت الآن ؟ ».

أجاب : « نعم ، إنه يحضر إلى الكويت كثيراً ، مثله مثل الداويش ، ويدخل ويخرج كما يشاء من قصر شيخ الكويت ، يقولون : إن هناك وداً كبيراً بينه وبين الشيخ ».

سألته : « ولكن ألا يعترض البريطانيون على دخول الداويش وفرحان إلى الكويت ؟ لقد أعلنوا من بضعة شهور أنهم لن يسمحوا للداويش وأعوانه بدخول الكويت ».

ضحك بندر من جديد : « فعلاً قالوا ذلك . ولكنى أخبرتك : للداويش أصدقاء أقوياء .. لا أعرف إن كان هنا بالكويت الآن أم لا، ولكن فرحان موجود هنا الآن . إنه يذهب كل مساء إلى الجامع الكبير لصلاة المغرب - تستطيع أن تراه بعينيك إن كنت لا تصدقنى ».

وبالفعل رأيناه .

عملنا بما أشار به بندر ، توجهنا أنا وزيد فى باكورة المساء إلى قرب الجامع الكبير ، انحشرنا وسط جماعة من البدو ، كان من الواضح أنهم من بدو نجد متوجهين إلى الجامع ، كان فى مقدمتهم رجل فى الثلاثينيات من عمره ، وكان أقصر قليلاً من البدو المحيطين به ومن يتبعونه ، كان بهى الطلعة وتزين وجهه لحية قصيرة . تعرفت عليه فى الحال . ولا أدرى إلى اليوم إن كان قد تعرف علىَّ أم لا ؛ فقد التقت عينانا للحظة ، ومسحتنى نظرته فى سرعة وأثر المفاجأة باد على وجهه ، كما لو كان يحاول أن يستدعى من ذاكرته صورة باهتة لأحداث قديمة ، ثم استدار مبتعداً ؛ وبعد لحظة اختفى هو وأتباعه بين الجموع المتجهة إلى المسجد « الجامع ».

قررنا ألا تطول إقامتنا السرية فى الكويت بلا سبب غير انتظار أن نرى الداويش أيضاً .

وأكد صحة المعلومات التى حصلنا عليها من بندر ، معلومات أخرى جمعها زيد ، من معارفه بمدينة الكويت .. اتضح أن الإمدادات الغامضة للداويش من بنادق « لى – انفليد » والتى يموه أمرها على أنها « مشتراة »– تشير بوضوح إلى الوسطاء من تجار الكويت المشهورين بتجارة السلاح ؛ وكذلك الأموال الكثيرة من ريالات « ماريا تيريزا » والتى يتم تداولها مؤخراً فى أسواق الكويت من الممكن أن نقتفى أثرها وصولاً إلى فيصل الداويش ورجاله ؛ ولأنه لن يتاح لنا التوصل إلى أرصدته المالية ولا التوصل إلى أى مستندات ، إلا أنه أصبح لدينا براهين على صحة شكوك الملك التى أخبرنى بها .

أتممت مهمتى، وفى الليلة التالية اتخذنا طريقنا خلسة إلى خارج الكويت كما أتينا . وأثناء تحرياتنا بالسوق ، علم الصلوبى أنه لا توجد الآن قوات للمتمردين فى ذلك الوقت جنوب الكويت ، واتجهنا جنوبًا إلى إمارة الحسا ، التى كانت تحت سيطرة الملك الكاملة . بعد ليلتين من السير السريع ، قابلنا بالقرب من الساحل فصيلة من بدو بنى حجر الذين أرسلهم أمير الحسا لاستطلاع آخر مواقع للمتمردين، ودخلنا بصحبتهم إلى نطاق الأراضى الخاضعة لسلطة الملك . وبمجرد أن أصبحنا آمنين فى

مملكة ابن سعود ، افترقنا عن دليلنا الصلوبى ، الذى تلقى مكافأته برضا وسعادة ، واتجه بعيداً باتجاه الغرب على ناقة « أهديتها »إليه ، بينما واصلنا طريقنا إلى الرياض .

* * *

أثبتت سلسلة المقالات التى كتبتها أن المتمردين مدعومون من قوة أوروبية عظمى . وأشرت فى تلك المقالات أن الهدف الأساسى لتلك المؤامرة هو دفع حدود مملكة ابن سعود إلى الجنوب لفصل المنطقة الشمالية وتحويلها إلى إمارة « مستقلة » تفصل بين السعودية والعراق ، مما يُمكِّن البريطانيين من مد خط سكك حديدية عبر تلك الولاية المستقلة يصل ما بين البصرة وحيفا . وعدا ذلك ، كان تمرد الداويش يوفر أسباب وجود اضطرابات مستمرة تنهك مملكة ابن سعود وتجعله فى وضع لا يسمح له برفض الطلبات البريطانية كما فعل قبل ذلك ، حين رفض منح البريطانيين ميزات خاصة ، أولها : استئجار ميناء ربيغ الواقع شمال جدة لإقامة قاعدة بحرية ، والثانى : السيطرة على خط سكة حديد دمشق – المدينة ؛ الذى يمتد على الأراضى السعودية . وكانت هزيمة ابن سعود تحقق للبريطانيين الهدفين معًا .

أثارت المقالات ردود أفعلا واسعة فى أوروبا وفى العالم العربى (خاصة من خلال الصحف المصرية)، وربما كان الكشف المبكر لأبعاد ذلك المخطط سببًا فى إجهاضه ، على أى حال طوى النسيان خط سكة حديد حيفا – البصرة على الرغم من المبالغ الطائلة التى صرفت على الدراسات الأولية ، ولم يسمع شىء عن ذلك المخطط بعد ذلك أبدًا .

ما حدث بعد ذلك أصبح وقائع تاريخية : فى صيف عام ١٩٢٩ احتج ابن سعود على سماح البريطانيين للداويش بحرية شراء الأسلحة والذخيرة من الكويت ، ولأنه لم يكن يملك دليلاً موثقًا على أن قوة أجنبية هى التى تبيع السلاح للداويش فقد كان احتجاجه منصبًا على السماح له بشراء أسلحة . وردت السلطات البريطانية بأن تجار

الكويت هم من يبيعون السلاح للمتمردين وأنها ليست لها سلطة على التجار ولا تستطيع أن توقف ذلك بعد أن وقَّعوا اتفاقية جدة عام ١٩٢٧ ، والتى تقضى برفع الحظر عن مبيعات السلاح إلى الجزيرة العربية . وإذا أراد ابن سعود - كما جاء بردهم - أن يشترى سلاحًا من تجار الكويت فليفعل ... وحين اعترض ابن سعود محتجًا بأن الاتفاقية ذاتها تقضى أن يمنع الطرفان أى أنشطة فى أرض كل منهما تهدد سلامة وأمن الطرف الآخر ، تلقى ردًا بأن الكويت لا تعد « أرضًا بريطانية » ولا تحت الحماية البريطانية ، حيث إن الكويت « مشيخة »مستقلة ولا تربط بريطانيا بها إلا علاقات تعاهدية .. وهكذا استمر التمرد . فى آخر خريف ١٩٢٩ ، تولى ابن سعود بنفسه قيادة المعارك ، وصمم هذه المرة على مطاردة الداويش حتى الكويت لو اضطر إلى ذلك ، وإذا ظلت تلك الحدود مفتوحة للداويش - كما كانت مفتوحة له على الدوام - كقاعدة ينطلق منها ، ومفتوحة للمتمردين كمهاجرين . وأمام ذلك الموقف الصلب من ابن سعود الذى أصر فى الوقت نفسه على استمرار الاتصال بالسلطات البريطانية ، تأكدت السلطات البريطانية أن من الخطر الاستمرار فى تلك المؤامرة أكثر من ذلك ، وأرسلت السلطات البريطانية طائرات وعربات مصفحة لمنع الداويش من التقهقر إلى الكويت . ووجد الداويش أنه خسر قضيته ؛ لأنه لن يتمكن من الصمود أمام الملك فى معركة مفتوحة ؛ فبدأ فى التفاوض . كانت شروط الملك محدودة وواضحة : أن تستسلم القبائل المتمردة ؛ وأن يسلموا سلاحهم وخيلهم وجمالهم ؛ وأنه سيبقى على حياة الداويش ، على أن يقيم فى الرياض ولا يغادرها .

كان الداويش يتسم بالنشاط والحيوية والحركة الدائبة ، ووجد أنه لا يستطيع ولن يحتمل أن يظل حبيس الرياض وتقيد حريته : فرفض الشروط وقاتل حتى آخر خندق ضد قوات الملك الأقوى كثيراً من قوته ، وتم سحق كل المتمردين ، وهرب الداويش وبعض قادة المتمردين إلى العراق ، وكان منهم فرحان بن مشهور ، ونايف أبو كلاب ، زعيم عجمان .

وطلب ابن سعود من السلطات العراقية طرد الداويش من بلادهم . ولبعض الوقت بدا أن الملك فيصل ، ملك العراق ، سيرفض طلب ابن سعود محتجًا بالتقاليد العربية

العريقة التى تقضى بإيواء اللاجئ واستضافته ؛ إلا أنه رضخ . فى آخر عام ١٩٣٠ تم تسليم الداويش الذى كان فى غاية المرض إلى قوات الملك وأرسل إلى الرياض .. وبعد بضعة أسابيع اتضح أنه مريض فعلاً فى هذه المرة مرض الموت ، فأمر ابن سعود بكرمه المعهود بإعادته إلى أهله بالأرطاوية ، وفى الأرطاوية ، وصلت حياته العاصفة إلى نهايتها .

ومن جديد ، ساد السلام أرجاء مملكة ابن سعود .

* * *

من جديد عاد السلام ليحل حول آبار أرجا ، صاح البدوى المطيرى العجوز ، بينما كان رجاله يعاونوننا فى سقى جمالنا : «أطال اللـه أعماركم ، شاركونا النعمة» .كان من الواضح أن الأحقاد والضغائن والعداوات التى كانت سائدة بالماضى القريب قد نسيت ومحيت تماماً ، كما لو كانت لم تقع أبداً .

والبدو لهم طبائع غريبة : فهم سريعو الاشتعال والغضب فى نوبات لا سيطرة عليها حتى ولو بالتخيل ، كما أنه سريع الهدوء ويعود بسهولة إلى إيقاع الحياة الهادئ العادى فيغلب عليهم التواضع والطيبة : دائماً الجنة والجحيم متلازمان .

سحبوا الماء لنوقنا بالدلاء الكبيرة ، وأنشد الرعاة المطيريون معاً :

ارتووا لا تتركوا ماءً

البئر مليئة بالنعم ولا قاع لها

[٣]

فى الليلة الخامسة من مغادرتنا لحائل أنا ، وزيد ، ومنصور ، وصلنا إلى سهل المدينة ، ورأينا هيئة جبل أحد المعتمة . كانت الجمال تتحرك بخطى متهالكة منهكة ؛

فقد قطعنا مسافة كبيرة من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من تلك الليلة . كان زيد ومنصور صامتين ، وكنت أنا أيضًا صامتًا . على ضوء القمر ظهرت مشارف المدينة ، بحوائط ذات الشرفات ، ومئذنة مسجد الرسول .

وصلنا إلى البوابة الشمالية ، التى يطلق عليها البدو اسم البوابة السورية . أجفلت الجمال لما رأت هيئة الأبراج الدفاعية فوق البوابة ، واستعملنا عصينا لإجبارها على المرور من البوابة .

أصبحنا الآن من جديد فى مدينة الرسول وعدت إلى بيتى بعد تجوال طويل فى الصحارى : المدينة أصبحت بيتى من أعوام طويلة ، يسود شوارعها هدوء عميق شهير بها ويخيم على شوارعها الهادئة الخالية من آن لآخر ينهض كلب فى تكاسل حتى لا تطأه أقدام الجمال . رجل يسير بحزائنا يغنى ؛ تأرجح صوته فى نغمة رقيقة حتى تلاشى فى حارة جانبية دخلها . فوق رؤوسنا تتعلق شرفات ونوافذ سوداء ناتئة وصامتة .

والجو الذى يغمره ضوء القمر دافئ مثل الحليب الطازج .

وصلت بيتى .

تركنا منصور قاصداً بعض أصدقائه بالمدينة ، أنخنا أنا وزيد راحلتينا أمام باب البيت ، عقلهما زيد وهو صامت وبدأ فى إنزال الخروج من على ظهورها . دققت الباب . بعد لحظات سمعت وقع أقدام وأصواتًا من الداخل . سطع ضوء المصباح من شراعة الباب ، سحبت مزاليج من مواضعها ، وصاحت خادمتى السودانية العجوز مندهشة فى سعادة حين وقع بصرها علىّ :

« عاد سيدى » ...

الفصل التاسع

رسالة فارسية

كان الوقت عصرًا ، كنت جالسًا مع صديق فى بستان نخيله الذى يقع بالكاد خارج البوابة الجنوبية للمدينة ، نسجت أعراش النخيل نسيجًا من مساحات رمادية وخضراء فى خلفية البستان ، مما جعله يبدو بلا نهاية . كانت أشجار النخيل مازالت صغيرة وواطئة، وأشعة الشمس تتراقص على جذوعها وعلى الأقواس المدببة لعروشها . كان يشوب لونها الأخضر أتربة تهب فى هذا الوقت من كل عام ، بينما كان البساط السميك من حشائش الفصة ذا لون أخضر لا تشوبه شائبة .

[١]

على القرب أمامى تنهض أسوار المدينة ، قديمة ، رمادية ، مشيدة من الأحجار والطوب اللبن ، أبراجه تبرز إلى الخارج فى مواضع متباينة منه . من خلف برج السور المواجه له بدت أشجار نخيل بستان آخر ولكنه يقع داخل سور المدينة . نوافذ المنازل بنية اللون وشرفات تبرز هنا وهناك ، بعضها شيد مرتكزًا على السور وأصبح جزء منه . على مبعدة ، تبدو المآذن الخمس لمسجد الرسول ، عالية ورشيقة مثل ألحان الناى ، وتبدو من بينها القبة العظيمة الخضراء التى تخفى وتغطى منزل الرسول الصغير – الذى كان بيته فى حياته ومدفنه فى مماته – إلى أبعد من ذلك ، خلف المدينة تبدو

الصخور الملساء لجبل أحد : يبدو كستارة خلفية لمآذن مسجد الرسول البيضاء ، وتيجان أعراش النخيل وكثير من منازل المدينة .

بدت شمس العصر مبهرة الضياء - مثل زجاج نقى خلف سحب بيضاء متلئلئة المدينة بأجمعها تسبح فى ضوء يتراوح بين الأزرق والذهبى يتقاطع مع خضرة أعراش النخيل . رياح عالية تلهو بالسحب العالية . سحب ، عادة ما تكون خادعة لا يمكنك أن تحدد فى المدينة بيقين : « السماء مليئة بالحسب ، لابد أن تمطر » ، فحتى مع تكاثف السحب وثقلها كما لو كانت حبلى بعاصفة قادمة ، غالبًا ما تأتى ريح مزمجرة معاكسة وتفرق السحب وتشتت جمعها، وتتحول أوجه من كانوا يتوقعون الفىء فى أسف صامت ، يتمتمون : « لا حول ولا قوة إلا باللّـه » - بينما تتألق السماء مجدداً بزرقة صافية لا ترحم .

سلمت على صاحبى وتركته . سرت باتجاه بوابة المدينة . مرّ رجل بجوارى يقود حمارين محملين بحشائش خضراء بينما امتطى ثالث . رفع يده محييًا وقال : « السلام عليكم » ، رددت سلامه بالكلمات ذاتها . امرأة بدوية شابة قادمة فى مواجهتى ، رداؤها فضفاض طويل يمسد الأرض من خلفها ونصف وجهها الأسفل مغطى بنقاب ، عيناها متألقتان شديدتى السواد حتى إن إنسانى عينيها وحدقيتها اندمجتا فى لون واحد ، مترددة لخطوة ، بادية التوتر كحيوان البرارى فى عنفوان حيويته .

دخلت المدينة وعبرت ميدان المناخة الواسع الكبير إلى شوارع المدينة ، تحت القوس الضخم لباب مصر ، جلس صرافوا العملات يرنون بقطع العملات الفضية والذهبية ، دخلت السوق الذى لا يزيد عرضه عن اثنى عشر قدمًا ، إلا أنه يزدجم بمحلات تموج بالحيوية وتنبض بالحياة .

الباعة ينادون معلنين عن بضائعهم بأغانى جميلة الوقع ، أغطية رؤوس ، شيلان من الحرير وأردية من صوف كشمير تجذب عيون المارة ، علاقات مدلاة عليها أشغال فضية تتزين بها نساء البدو - أساور ، خلاخيل ، عقود ، حلقان أذن .

بائعوا العطور يضعون صناديق مليئة بمسحوق الحنة ، وأكياس صغيرة حمراء لتلوين الجفون ، قنانى مختلفة ألوانها من زيوت وعطور ، أكوام من توابل ، تجار من نجد يبيعون ملابس بدوية وسروج جمال ، سروج ملونة بالأحنر والأزرق من شرق الجزيرة . بائع حائل يدور ذهابًا وجيئة ، ينادى بأعلى صوته معلنًا عن أبسطة إيرانية وعباءات من وبر الجمل يحملها على كتفه ، بيده وعاء شاى نحاسى . فيضان من بشر فى الاتجاهين ، أناس من المدينة ومن أنحاء الجزيرة العربية ومن جميع البلاد – كان موسم الحج قد انتهى من زمن قصير – أناس من صحارى السنغال ومن قرجيز ، من جزر الهند الشرقية والمحيط الأطلنطى ، من استراخان ومن زنزبار ، بالرغم من كثرة الناس وضيق الطريق ، لا يوجد تسرع أهوج ، لا تدافع ولا تزاحم ، فى المدينة لا يركب الزمن أجنحة التعجل .

برغم التباين فى أجناس البشر وألوانهم وأزيائهم ، إلا أنه لا يثير العجب فى شوارع المدينة ، لا يظهر التباين إلا للعين التى تحاول تحليل ما تراه . كل من يسكن المدينة ، دائمًا كان أم مؤقتًا ، يتكيف بسرعة فى مجتمع المزاج الواحد والسلوك الواحد ، بل يتعدى ذلك إلى وحدة التعبير على الوجوه ، كلهم واقعون فى حب الرسول ، المدينة مدينته وهم ضيوف عليها .

حضوره الروحى بعد ثلاثة عشر قرنًا مازال حيًا كما كان هو حيًا بها . له وحده يعود فضل تحويل قرى متناثرة كانت تسمى يثرب إلى مدينة يحبها كل المسلمون حتى اليوم كما لم يحب أحدًا مدينة مثلها فى جميع أنحاء العالم .

ليس لها اسم خاص بها ، على مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يطلق عليها المسلمون مدينة النبى . وعلى مدى يزيد عن ألف وثلاثمائة عام يتجمع الحب هنا حتى أن كل ألوان البشر وكل تعبيرات وجوههم وحركتهم تكتسب نوعًا من التماثل الأسرى الواحد ، كل اختلاف فى الشكل والمظهر يدخل فى تحول فرعى حتى يصبح تجانس واحد .

هذه هى السعادة التى يشعر بها المرء دوماً هنا – هذا التوحد المتجانس . وبالرغم من أن حياة المدينة اليوم بعيدة عما كان يهدف إليه الرسول، وبالرغم من ضعف الوعى الروحى فى أيامنا عن أيام الرسول ؛ هنا وفى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، فإن رباطًا معنويًا لا يمكن وصفه يتصل بذلك الماضى الروحى العظيم مازال حيًا حتى الآن . لم تنل مدينة من الحب من أجل إنسان عاش بها ، ولم يحدث أن مات إنسان من ألف وثلاثمائة عام ، ونال مثل هذا الحب لذاته «شخصه ، مثلما نال الرسول الذى يرقد تحت القبة الخضراء الكبرى . لم يدع أبدًا أنه أى شىء آخر عدا كونه من البشر الفانين ، ولم ينسب له المسلمون أبدًا أى قداسة غير بشرية أو ألوهية مثلما فعل أتباع أنبياء آخرون من قبله بعد موت أولئك الأنبياء . وأكد القرآن ذلك وشدد عليه ، وأكد بشرية محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ .

قد أكد القرآن فى أكثر من موضع على بشرية محمد وأنه من خلق اللّـه مثل كل البشر : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

أكد القرآن ، وأكد الرسول أنه بشر مثلهم ، وعاش كأى رجل ، ينعم بالمسرات ، ويعانى المرض الذى يعانى منه البشر ؛ لذلك أحاطه من كانوا حوله ومن عاشوا معه بحبهم .

وتجاوز ذلك الحب حياته وامتد فى قلوب أتباعه من المسلمين .

لقد عاش فى المدينة . وينطق بحبه كل حجر من أحجارها العتيقة . تستطيع أن تلمس ذلك الحب بيديك ، إلا أنك لا تستطيع أن تُعبر عنه بأى كلمات ، مهما كانت بلاغتها .

[٢]

قلت له : « كنت بحائل والنفود » .

سألنى : « هل تبقى هذه المرة لبعض الوقت ؟ ».

أجبته : « كلا يا أخى ، سأسافر إلى مكة إن شاء اللّـه بعد غد ».

نادى الزغبى على صبى المقهى المقابل ، فى الحال كانت أقداح القهوة تصدر رنينها المألوف وهو يضعها أمامنا .

سألنى الزغبى : « ولكن لماذا تذهب يا محمد إلى مكة الآن ؟ لقد انتهى موسم الحج ... ».

قلت : « ليست رغبة فى الحج ، لقد حججت خمس مرات ، لدى شعور أننى لن أبقى طويلاً فى الجزيرة العربية ، وأرغب فى رؤية أنحاء المدينة التى بدأت حياتى بها فى هذه البلاد ... » ، ثم أضفت ضاحكًا : « حسنًا يا أخى .. سأخبرك بالحقيقة ، أنا لا أدرى بدقة لماذا تسيطر علىّ فكرة الذهاب إلى مكة ؛ وأشعر أنه لابد لى أن أذهب ... » .

هز الزغبى رأسه علامة عدم الرضا : « تترك هذه البلاد وتغادر اخوتك ؟ كيف واتتك القدرة على هذا القول ؟ ».

مرت هيئة شخص مألوف لى وهو يمضى مسرعًا فى خطوات حثيثة : كان زيد ، وكان من الواضح أنه يبحث عنت شخص ما . ناديته : « إلى أين يا زيد ؟ ».

التقت وعاد بوجه جاد قائلاً : « أنت مَنْ أبحث عنه يا عمى ، وجدت كوم من الرسائل المرسلة إليك فى مكتب البريد وكانوا على وشك إرجاعها إلى مرسليها . هاهى قد أحضرتها إليك ، السلام عليك يا شيخ الزغبى ».

جلست متربعًا أمام متجر الزغبى ، تصفحت مغلفات الرسائل : رسائل عديدة من أصدقاء فى مكة، ورسالة من رئيس تحرير جريدة « نيو زيورخ ذيتونج » السويسرية ، التى أعمل مراسلاً لها ، وخطاب من الهند ، يطلبون منى الحضور للتعرف على أكبر مجتمع إسلامى فى العالم، وبضع رسائل من دول مختلفة بالشرق الأوسط، ورسالة عليها خاتم بريد طهران .. كانت من صديقى على أغا الإيرانى ، وكان لم يراسلنى من عام ، فتحت رسالته وتطلعت إلى صفحاتها المليئة بأسطره بطريقة « الشيكاستا »(*) ، كتب على أغا :

(*) المعنى الحرفى « لغة ركيكة » ، وهى الشكل الفارسى للخط العربى ، وتستعمل فى الكتابة السريعة .

« إلى أحب أصدقائى ، أخى ، وضوء قلوبنا ، المحترم جداً أسد أغا ، أطال اللّـه عمره وحمى خطاه ، آمين .

عليكم سلام اللّـه ورحمته وبركاته دائمًا وأبداً ، نحن نصلى للّـه أن يفىء عليكم بموفور الصحة والسعادة ، ونعلم أنه يسعدكم أن تعرفوا أننا أيضًا فى كامل الصحة والحمد للّـه .

لم نكتب إليكم منذ فترة طويلة بسبب عثرات الحياة التى صادفتنا فى الأشهر الماضية ، توفى اللّـه والدى - رحمة اللّـه عليه - من عام مضى ، وأنا أكبر الأبناء ، وانشغلت بعض الوقت بشئون الأسرة بعد وفاة الوالد . وقضت مشيئة اللّه لعباده الذى لا يستحق فضله أن ينعم عليه بنعم لم يكن يتوقعها ، فأنعمت علىّ الحكومة بفضل اللّـه برتبة مقدم ، كما نأمل أن يجمعنى الزواج بفتاة جميلة وفاضلة ، هى ابنة عمى الثانية شيرين - وبذلك تصل أيام عدم الاستقرار إلى نهايتها .

كما هو معلوم لقلبكم الصديق . لم نخل من ارتكاب معاصى وذنوب وأخطاء فى ماضينا - ولكن ألم يقل الشاعر حافظ :

يا اللّـه ، يا مَنْ أوجدت ألواح الخشب فى قلب لجة البحر

ألم يكن بمشيئتك أن تجعل البحر يابس .

هكذا سيستقر على أغا فى نهاية الأمر ويصير زوجًا محترَمًا . لم يكن محترمًا حين التقيته أول مرة ، كان ذلك من أكثر من سبعة أعوام مضت فى مدينة «بام» التى كان قد « أقصى » إليها .

على الرغم من أنه كان فى السادسة والعشرين من عمره فى ذلك الوقت ، إلا أن ماضيه كان حافلاً بالإثارة والنشاط ، وشارك فى الأحداث السياسية التى سبقت وصول رضا خان إلى السلطة ، كان بإمكانه أن يقوم بدور مهم فى طهران لو لم ينغمس فى حياة اللهو والعبث ، وكان وجوده فى ذلك الوقت بمدينة «بام» النائية فى جنوب

إيران بوازع من أبيه واسع النفوذ ، على أمل أن ينصلح حال ابنه إذا ابتعد عن متع طهران ومسراتها وملذاتها ، إلا أن على أغا وجد فى « بام » ما يعوضه عما افتقده فى طهران ، وجد النساء ، والعرق ، وخدر الأفيون الذى كان يتعاطاه بكثرة .

فى ذلك الوقت ، عام ١٩٢٥ ، كان على أغا قائد الحامية المحلية في مدينة « بام » برتبة ملازم . كنت حينها أستعد لعبور صحراء « داشيلوت » ، وتوجهت إليه بخطاب توصية من حاكم ولاية « كيرمان » - وكان بدوره قد تلقى خطاب توصية من رضا خان ، رئيس الوزراء الديكتاتور .

كان فى ذلك الوقت فى بستان من أشجار البرتقال ، والدفلى ، والنخيل وتسقط من بين أغصانها العالية بقع من أشعة الشمس . كان يرتدى قميصاً خفيفًا ، ويجلس على بساط مفروش على الحشائش ، وعلى البساط بقايا طعام ، ونصف قنينة من العراق ، اعتذر على أغال من العرق قائلاً : « من الصعب أن تجد نبيذًا فى هذه الحفرة الملعونة » ، وأجبرنى على مشاركته ذلك العرق المحلى – وهو مشروب مرعب يذهب إلى الرأس فوراً مثل لطمة قوية – بأعين لماحة طاف بصره بسرعة على صفحة الخطاب الموجه إليه من كيرمان ، ثم وضعه جانبًا وقال : « حتى لو لم تأت بتوصية . كنت سأصحبك بنفسى لعبور تلك الصحراء . أنت ضيفى ، لن أتركك تسافر وحدك عبر صحراء البالوشى ») كانت صحراء داشتيلوت فى منطقة البالوش) .

نهض شبح كان حتى تلك اللحظة جالسًا فى بقعة مختفية فى ظل شجرة ، كانت امرأة شابة ترتدى رداءً حريريًا أزرق فاتح اللون يصل إلى ركبتيها . ومن تحته سروال أبيض بلوشى واسع . كانت ذات وجه مليح شهوانى يبدو كأن نيرانًا تندلع داخل ملامحه ، وشفتان ممتلئتان حمراواتان ، وعينان جميلتان غامضتا النظرة بشكل محير ؛ وجفونها مخضبة بالحناء .

همس على أغا بالفرنسية : « إنها كفيفة البصر ، ومغنية رائعة ».

أعجبنى عطفه الشديد وحنوه البالغ والاحترام الفائق الذى يعامل به الفتاة ، بالرغم من أنها مغنية تنتمى إلى تصنيف يضعها فى مصاف الغانيات ؛ إلا أنه كان يعاملها بذات المعاملة التى كان يعامل بها سيدات مجتمع طهران الراقى .

جلسنا ثلاثتنا على البساط ، وبينما انشغل على أغا بمجمرة النار وغليونه المحشو بالأفيون ، تحدثت إلى الفتاة البلوشية . على الرغم من فقدها البصر إلا أنها كانت تضحك من أعماقها ضحك من تسكن قلبه السعادة ؛ كانت لها تعليقات جسورة ومضحكة ومخجلة من تلك التى لا تخجل منها المتحررات .

حين انتهى على أغا من تدخين غليونه ، تناول يدها برقة وقال :

« هذا الغريب النمساوى الذى معنا الآن ، يجب بالتأكيد أن يستمع إلى واحدة من أغانيك ؛ لم يسمع فى حياته أغنية بلوشية ».

بدا على الوجه الذى يتطلع إلى لا مكان سعادة حالمة ، تناولتا العود الذى مده على أغا إليها وراحت تجرب الأوتار وتضبط نغماتها . غنت بصوت عميق أبح أغنية رعاة بلوشية ، بدت الأغنية كأنها صدى للحياة ذاتها من شفتيها الدافئتين ...

عدت من أفكارى إلى متابعة قراءة فقرات رسالة على أغا :

« أتساءل إن كنت مازلت تتذكر تلك الأيام يا أخى وصديقى المحترم ، وكيف سافرنا معًا عبر صحراء داشيلوت ، وكيف كان علينا أن نقاتل دفاعًا عن أنفسنا ضد العصابات البلوشية ..؟

هل أتذكر ؟ ضحكت فى سريرتى من تساؤل على أغا الساذج ، رأيت فى أعماق ذاكرتى صحراء داشيلوت الخالية ، أو « الصحراء المقفرة « التى تنتشر خواءها اللانهائى من بلوخستان حتى قلب إيران . كنت أنوى عبور تلك الصحراء للوصول إلى « سييستان » ، أقصى حدود شرق إيران ، ومنها أواصل رحيلى إلى أفغانستان ؛ وحيث كنت قادمًا من « كيرمان » ، لم يكن يوجد مسار آخر .

توقفت أنا وعلي والحراس البلوشيين ، عند واحة خضراء على حافة الصحراء لنكترى جمالاً ونشترى مؤن لطريق طويل أمامنا . كنا ننزل فى محطة البرق «الهند أوروبية ».

كان مدير المحطة رجلاً طويلاً حاد النظرات ، لم يرفع بصره عنى وكأنى صيد ثمين .

همس إلىّ على أغا : « خذ حذرك من هذا الرجل ، إنه من رجال العصابات أنا أعرفه جيداً وهو يعلم ذلك . كان لصًا كبيرًا حتى بضعة أعوام مضت ، أما الآن فإنه يملك مالاً كثيراً وأصبح محترماً فى ظاهره – مازال يكسب أموالاً كثيرة من بيع الأسلحة لزملائه القدامى من رجال العصابات ، وأنتظر اللحظة الملائمة لأقبض عليه متلبساً . إلا أنه ذكى ومن الصعب إثبات أى شىء ضده . منذ أن عرف أنك نمساوى سال لعابه ، فأثناء الحرب العالمية كان النمساويون والألمان يحاولون إثارة القبائل ضد الإنجليز ؛ وكان معهم حقائب مليئة بالعملات الذهبية ، وصاحبنا هذا يعتقد أنك تحمل واحدة من تلك الحقائب ».

وأفادنا ذكاء مدير المحطة إفادة جمة ، تمكن من العثور لنا على جملين من أفضل جمال الركوب . وقضينا ما تبقى من اليوم فى شراء قرب الماء ، وحبال من شعر الجمال ، وأرز ، وسمن ، وأغراض أخرى لازمة لرحلة عبور الصحراء .

فى عصر اليوم التالى تحركنا ، سبقنا على أغال بصحبة أربعة من الحرس لتهيئة مكان نحط فيه رحالنا أثناء الليل ، وسرعان ما تلاشت جمالهم واختفت فى الأفق البعيد . أما أنا وإبراهيم والحارس الخامس فقد تبعناهم على مهل .

تأرجحنا على الجمال (كانت أول مرة أركب فيها جملاً) الرشيقة الأطراف ، سرنا فى البداية عبر كثبان رملية صفراء لا تنمو فيها إلا أعشاب قليلة ، ثم دخلنا إلى صحراء مكشوفة ، وادٍ صامت أجرد لا تبدو له نهاية ، مسطح تمامًا وخالى من أى نتوء أو بروز ، بدا وكأنه هو الذى ينطبق على الأفق ، لا حجر ، لا صخرة ، لا نبتة عشب . لا صوت لحيوان ، ولا صوت لطير أو حتى خنفساء يكسر ذلك الموت القاحل .

حتى الريح ضاع زخمها ، كانت تسعى واطئة دون صوت ، كما يهبط حجر من حافة هاوية .. لم يكن ذلك ما يطلق عليه صمت الموت ، بل كان مالم يولد بعد ، ذلك الذى لم تدب فيه حياة ، الصمت الذى سبق فى الوجود الكلمة الأولى .

ثم انبعث صوت وحطم الصمت . تصاعد صوت بشرى مفاجئ ، مرح ، مبتهج ، صعد فى الهواء الساكن وظل معلقًا فى الفراغ حيث صعد : يبدو كأنك لا تسمعه فقط ، بل تراه ، صوت وحيد ، لا يشوبه ولا يتداخل معه أى صوت فى ذلك السكون البدائى الأول ، ثم تدفق عبر سهوب الصحراء . كان صوت الحارس البلوشى . كان يغنى أغنية من أغانى ارتحالاتهم القبلية القديمة ، جزء من ملحمة شبه مغناة ، تتابع سريع لكلمات ساخنة وناعمة لم أفهم منها كلمة . جرى صوته على نغمات متباينة ، فى مستوى صوتى واحد ، باستمرارية متدفقة ظلت تنمو حتى وصلت إلى قمة عالية كما لو كانت تحتضن فى ثناياها لحنًا مضيئًا فى ترددية صوتية ثنائية متماوجة من أعماق الحلق ، كشف تكرار وتغاير المنغمة المتماوجة عن ثروة صوتية غير متوقعة من ذلك الحارس بنغماته الصوتية الطويلة - ممتدة وغير محدودة مثل الأرض التى ولد عليها ...

كان ذلك الموضع من الصحراء اللذى كنا نمضى فيه فى ذلك الوقت يطلق عليه « صحراء أجراس أحمد » ، فمنذ سنين طويلة ، ضلت قافلة كان يقودها رجل اسمه أحمد طريقها فى ذلك الموضع ، ومات كل من كانوا بالقافلة ، الحيوانات والبشر ؛ وحتى اليوم ، يقال : إن أصوات الأجراس التى كانت معلقة برقاب حيوانات القافلة تدوى أحيانًا فى تلك المنطقة ، وتسمع أصواته القوافل المارة بالمكان - أصوات شبحية حزينة تغوى الغافلين فيضلوا الطريق ويلقوا حتفهم فى الصحراء القاحلة .

بعد غروب الشمس مباشرة وصلنا إلى الموضع الذى اختاره على أغا والحراس لإقامة خيمتنا وسط منطقة تنمو فيها أعشاب الكاهور - وهى آخر أعشاب نراها على مدى الأيام التى سنقطع فيها الصحراء . أشعلنا نارًا من أعشاب جافة ، وصنعوا

الشاى الذى لا مفر منه - بينما كان على يدخن أفيونه فى غليونه . أطعمنا الجمال شعيراً مجروشاً وأنخناها فى دائرة من حولنا . وعيّن على أغا ثلاثة من الحراس على قمم التلال من حولنا للحراسة . كانت المنطقة التى كنا نخيم بها مسرحًا لعمليات شياطين الصحراء الجسورين ، وهم عصابات الإغارة من البلوش الجنوبيين .

كان على أغا قد انتهى بالكاد من تدخين غليونه واحتساء شايه ، وبدأ يشرب العرق بمفرده - فلم أشعر برغبة فى مشاركته الشراب - حين دوت فجأة طلقة رصاص حطمت جدار صمت الليل . دوت طلقة ثانية إلا أنها كانت من إحدى نقاط حراستنا رداً على الأولى أعقبتها صرخة آتية من الظلام . ألقى إبراهيم - الذى كان حاضر البديهة - الرمال على النار بسرعة ليطفئها . ثم توالى إطلاق الرصاص من كل الاتجاهات .

كان حراسنا غير ظاهرين . إلا أن أصوات ندائهم لبعضهم كان مسموعًا . لم نعرف عدد المهاجمين ، فقد كانوا صامتين . ولم يظهر من جهتهم إلا رميض الطلقات من آن لآخر ؛ مرة أو مرتين ميزت على البعد شبح بزى أبيض سرعان ما كان يختفى . أزت طلقات واطئة فوق رءوسنا ، إلا أنها لم تصب أى منا . بالتدريج قل إطلاق النار وتباعد ، ثم طلقات أخيرة ابتلع الظلام صوتها ؛ واختفى المهاجمون - الذين لم يتوقعوا يقظتنا - بنفس السرعة التى أتوا بها .

نادى علىّ على الحراس المحيطين بنا في نقاط الحراسة وعقدنا اجتماعًا قصيراً وقررنا مغادرة المكان فوراً لاحتمال عودة المهاجمين بأعداد كبيرة .

كانت الليلة مظلمة بلون القار ، فقد كانت السحب كثيفة وواطئة وتحجب نور القمر والنجوم . وكقاعدة ، فإن من الأفضل السفر ليلاً فى الصحراء فى موسم الصيف ؛ ولكن فى ظروف عادية لم نكن لنخاطر بالمسير فى تلك العتمة خشية أن نضل الطريق . فى الماضى ، اعتاد ملوك إيران السابقون على وضع أعمدة إرشادية ترشد القوافل . ولكن مثل أشياء كثيرة ، اختفت تلك الأعمدة ، وعلى أى حال لم تعد لها الأهمية نفسها :

فأعمدة أسلاك البرق التى مدها البريطانيون فى بداية القرن من الهند عبر صحراء داشيلوت حتى كيرمان ، كانت تؤدى الغرض نفسه ، بل كانت أفضل كوسيلة إرشاد ، ولكن فى ليلة مثل تلك الليلة . لم تكن أعمدة البرق ظاهرة فى ذلك الظلام الدامس .

اكتشفنا أننا فقدنا أثر أعمدة أسلاك البرق فأصابنا الفزع ، فبعد نصف ساعة ، قال الحارس الذى كان يسير بناقته إلى علىّ أغا :

« حضرت ، لم أعد أرى الأسلاك ... ».

صمتنا من الفزع لحظات .. فآبار الماء موجودة فقط على مسار أعمدة البرق ، وعلى مسافات كبيرة من بعضها ، فإن ضللنا الطريق فمن المحتم أننا سنموت عطشاً مثل قافلة أحمد الأسطورية .

تحدث على أغا بطريقة مغايرة تماماً لما أعرفه عنه ، من المؤكد أن الأفيون والعرق كانا وراء ذلك .. فقد أخرج مسدسه من جرابه وصرخ فى الحارس :

« أين الأسلاك ، لماذا لم تنتبه يا ابن الكلب ؟ آه .. أنا أعرف .. أنت متواطئ مع العصابات وتضللنا حتى نتوه وتموت عطشاً وبذلك نكون ضحية سهلة ».

كان ذلك التوبيخ والتأنيب غير عادل بكل تأكيد ، فالبللوشى لا يمكن أن يخون من أكل معه خبزاً وملحاً . كان من الواضح أن الحراس يؤلمهم ذلك الاتهام لزميلهم ، وأكدوا لنا براءتهم ، إلا زن علىّ أغا انفجر من جديد :

« اخرسوا .. عليكم بالعثور على الأسلاك فوراً وإلا سأقتلكم واحداً بعد آخر ، أحرق اللّـه آبائكم ».

لم أتبين وجوههم فى الظلام ولكنى كنت أعرف كيف يشعر البلوشى تجاه الإهانة ؛ لم يهتموا حتى بالإجابة ولا بالرد . ثم فجأة فصل أحدهم نفسه عن تجمعنا – وكان هو الحارس الذى فقد أثر أسلاك البرق – وضرب جمله بسوطه واختفى فى الظلام .

صاح علىّ أغا : « إلى أين تذهب ؟ » ولم يتلق إلا كلمات غير واضحة . لثوان ، على وقع أقدام جمله مسموعة على حصى الأرض ، ثم غاص الصوت فى ظلام الليل ولم يعد له وجود .

بالرغم من اقتناعى التام من دقيقة مضت ببراءة البلوشى مما نسبه علىّ أغا إليه ، إلا أن الشكوك راودتنى : لقد ذهب الآن إلى رجال العصابات ، كان علىّ أغا على حق بعد فترة .. سمعت علىّ أغا يسحب ذراع أمان مسدسه وفعلت مثله . أما إبراهيم فقد كان مازاليخلع قربينته المعلقة . جلسنا بلا حركة على ظهور الجمال . زمجر أحد الجمال بنعومة لما اصطدم مقبض بندقية الحارس بسرجه . مرت دقائق طويلة ، كنت أسمع فيها صوت تنفس الرجال . ثم فجأة ، جاءت صيحة من مسافة بعيدة ، بالنسبة لى لم تبد إلا « أوو وو وا » ، إلا أن البلوشيين كانوا يفهمون مغزى تلك الصيحة ، إذ كور أحدهم كفيه حول فمه ، وصاح بحماس فى اتجاه الصوت بكلمات باللغة البراهوية . من جديد جاء ذلك الصوت البعيد . استدار أحد الحراس إلى علىّ أغا وقال بالفارسية : « الأسلاك يا حضرت ، لقد وجد الأسلاك » . انداح التوتر . تبعنا مصدر الصوت ونحن نشعر بارتياح ، وراح يوجهنا بصوته من آن لآخر وحين وصلنا إليه ، شبَّ على سرجه وأشار فى الظلام : « هذا هو سلك البرق » .

وبالفعل ، بعد عدة لحظات كدنا نصطدم بعامود أسلاك البرق . ما فعله علىّ أغا فى تلك اللحظة كان من السلوكيات المميزة له . فقد أمسك بالحارس من حزامه ، وجذبه باتجاهه ومال على سرجه ، وقبله على وجنتيه وهو يقول : « إنه أنا لا أنت . أنا ابن الكلب ، سامحنى يا أخى ».

عرفت بعد ذلك أن الحارس ابن البرارى سار فى منحنيات متعرجة حتى سمع من مسافة نصف ميل صوت طنين الريح وهى تصطدم بالسلك فعرف مكانه وهو طنين لم أتمكن من سماعه وأنا تحت السلك مباشرة ، كان من الأصوات التى لا تسمعها أذناى الأوروبيتان . تقدمنا ببطء وحذر ، فى الليلة الظلماء ، من عامود برق لا نراه إلى عامود

برق آخر يطويه الظلام ، أحد الحراس يسبقنا وينادى علينا فى كل مرة يصل فيها إلى عامود تال . لقد وجدنا طريقنا وصممنا على ألا نفقده مرة أخرى .

* * *

أفقت من ذكرياتى وعدت إلى رسالة علىّ أغا أكمل قراءتها :

« بترقيتى إلى رتبة مقدم ، أصبح شخصى المتواضع فى هيئة الجنرالات ؛ وذلك يلائمنى يا صديقى الحبيب وأخى ، أكثر من حياة الحاميات فى مدينة إقليمية » .

وأنا متأكد أنها كذلك يا على ، كان علىّ أغا شغوفًا بحياة العاصمة ، ومكائدها – خاصة – مكائدها ودسائسها السياسية ، وبالفعل راح يصف لى فى رسالته الأحوال السياسية فى طهران ، والمنافسات والمشاحنات التى لا تنتهى تحت السطح الطاهر . ومناورات معقدة تقوم بها قوى أجنبية تهدف منها إلى بقاء إيران في حالة من عدم الاستقرارتجعل من المستحيل على تلك الأمة الموهوبة أن تقف على أقدامها من جديد :

« نتعرض الآن لضغوط شركة نفط بريطانية من أجل تمديد امتياز النفط وبذلك تطيل من أمد عبوديتنا . السوق يموج بالإشاعات ، واللّـه وحده يعلم إلام يؤدى كل ذلك » .

كان البازار – السوق – يلعب دائمًا دورًا كبيرًا فى الحياة السياسية للدول الشرقية ؛ ويصدق ذلك على وجه الخصوص على بازار طهران . فالبازار هو قلب إيران الخفى الذى ينبض بإصرار رافض كل الفساد والانحدار الذى تتعرض له البلاد من بين سطور علىّ أغا بدا لى ذلك البازار وكأنه مدينة بذاته ، بدا لى وكأنه قائم أمام عينى ينبض بالحياة وكأننى كنت أراه بالأمس :

البازار فى طهران شبكة ضخمة من القاعات والصالات والممرات مغطاة ومسقوفة بأقواس مدببة . على الطريق الرئيسى ، وبعد بضعة متاجر صغيرة معتمة مليئة بسلع

رخيصة ، توجد باحات مسقوفة مليئة بأغلى أنواع الحرير الأوروبى والآسيوى ؛ ثم محلات حياكة الملابس ، ثم واجهات العرض الزجاجية المليئة بالحلى الفضية لدقيقة الصنع ، ثم تتناوب محلات الأقمشة الملونة من بخارى والهند مع محلات البسط الفارسية - بسط عليها رسومات حملات الصيد وأشكال الفرسان على صهوات جيادهم ، وأسود وفهود، وببغاوات ، وظباء ووعول برية ؛ عقود من الزجاج واللؤلؤ وقداحات وآلات حياكة ؛ جانب معتم للمظلات يليه جانب آخر للابس من جلود الأغنام المدبوغة والمزخرفة من خراسان : كلها معروضة فى تلك القاعات الهائلة الطول والتى تعتمد على عرض كميات هائلة أكثر من اعتمادها على حسن التنسيق والعرض .

فى الحوارى المتشعبة اللانهائية والمليئة بالبضائع والسلع المتباينة من مصنوعات يدوية وسلع تجارية ، تجد أن المحلات مرتبة طبقًا لنوع التجارة والحرفة .

فى مكان ، تجد صفًا طويلاً من السروجية وصانعى الأشغال الجلدية ، واللون الأحمر هو اللون الغالب فى دباغة الجلود التى تفوح رائحتها النفاذة فى المكان بأجمعه . يليهم الحائكون : ومن كل كوة - أغلب المحلات عبارة عن كرى مرتفعة لا تزيد مساحة كل منها عن ثلاث أو أربع ياردات ويسودها ضجيج آلات الحياكة وهى تعمل ، وخارجها أردية طويلة معلقة ومعروضة للبيع ، كل المحلات تعرض الأردية ذاتها ، حتى تعتقد أنك لم تقطع أى مسافة وتشعر أنك تراوح مكانك لتكرر أشكال الأردية المعلقة ، وينتابك الانطباع نفسه فى أماكن متباينة من البازار ؛ إلا أن غزارة التماثل فى كل موضع لا يمت بصلة للتجانس ؛ فتسكر الغريب وتملأه بإعجاب قلق . حتى لو زرت البازار للمرة المائة ، تجد دائمًا أن الحال ثابت كما هو لا يتبدل ولا يتغير - إلا أن ذلك الثبات الذى يماثل أمواج المحيط التى تغير أشكالها ولكن مادتها التى تتكون منها ثابتة لا تتغير .

بازار أشغال النحاس : معزوفة من أصوات أجراس برونزية يأتى من أصوات طرق النحاس ؛ أشكال متباينة من مشغولات البرونز والنحاس ، يحولون الألواح المعدنية التى لا شكل لها ولا جمال فيها إلى آنية وأحواض وصوانى وكئوس ، أصوات الطرق

يقين صوتى متغير النغمات عبر كل بازار المعادن – كل صانع يستجيب لإيقاع الصناع من حوله – حتى إنه لا يبدو أن هناك نغمًا نشازًا على الأذن : مئات العاملين يطرقون مصنوعات متباينة فى مختلف المحلات – إلا أن اللحن واحد .. فى عمق يربو عن كونه موسيقى ، تبدو الرغبة الاجتماعية فى التجانس والتى تظهر القيمة الخافية للروح الإيرانية .

بازار العطور : ردهات وممرات صامتة من أقماع السكر ، وأجولة الأرز ، وأكوام من اللوز والفستق ، وعين الجمل ، وجوزة الطيب ، براميل مليئة بثمار المشمس المجفف والزنجبيل ، صوانى نحاسية مليئة بالقرفة ، والكارى ، والفلفل الأسود ، والزعفران ، وبذور الخشخاش ، وآنية مليئة بالكراوية والفانيليا ، والكمون ، والقرنفل وأعشاب غريبة لا حصر لها ، وجذور نباتية تعبق المكان بروائح قوية . ومن فوق حافة الوازين النحاسية اللامعة ، يتربع صاحب المتجر ، مثل بوذا ، بساقية المتربعتين ، ينادى بين الفينة والفينة على المارة عارضًا بضاعته .

كل الأحاديث تدور فى همس فى هذا المكان : لا يمكن لامرئ أن يصدر صوتًا فى مكان يتدفق فيه السكر برقة من جوال إلى ميزان ، كما لا يمكن لامرئ أن يكون صاخبًا فى مكان يوزن فيه الزعتر والبنسون ... إنه سلوك يتوافق مع رقة المادة ، وهو السلوك ذاته الذى يُمكِّن الإيرانيين من نسج الأبسطة الفنية النبيلة من ألوان لا نهائية لخيوط الصوف – خيطًا بخيط ، جزء من بوصة بجوار جزء من بوصة – حتى تتم اللوحة وتكتمل فى جمال زاه ، ولذلك ليس مصادفة أن تكون الأبسطة الإيرانية فريدة وثمينة فى جميع أرجاء العالم : لأين يمكن للمرء أن يجد ذلك الاستغراق الصامت والتفكير المبدع والتكريس الكامل لحواس المرء ووجوده فيما يفعله ؟ فى أى مكان آخر تجد مثل تلك العيون الداكنة التى لا يعنى لها مرور الوقت شيئًا أمام صبرها ومثابرتها على ما تفعل .

فى كوى أخرى كهفية ، أكبر قليلاً من الكوى السابقة يجلس ناسخوا الأشكال المنمنمة الدقيقة . يقلدون منمنمات قديمة فى مخطوطات يدوية موغلة فى القدم ،

وتحولت إلى مزق بفعل الزمن ، يقلدون فى رسومات بديعة وخطوط وألوان تأسر الألباب الجوانب الجميلة من الحياة : جماعات صيد ، حب وسعادة وأسى ، يعملون بفرش دقيقة ورقيقة ؛ الألوان لا تخلط فى أوعية ميتة ، بل تخلط فى كف الرسام الحية ، وتوزع فى نقاط على أصابع الكف اليسرى .

على صفحات جديدة بيضاء يمارس الرسامون إعادة الخلق والحياة ، نقطة بعد أخرى ، وخط بعد آخر ، وظل بعد ظل ، تجرى الألوان جنبًا إلى جنب على خلفية ذهبية فتبرز المنسوجات جديدة ومتألقة ، أشجار البرتقال الباهتة فى الحديقة الملكية فى الرسوم القديمة تنتعش من جديد وتينع وتزدهر فى النسج الجديدة فى ربيع جديد ؛ والنساء الناعمات الرقيقات فى أردية الحرير والفراء يظهرن من جديد إيماءات الغرام وإشارات الحب وأماراته على النسخ الجديدة ، وتشرق الشمس من جديد على لعبة البولو التى يمارسها الفرسان بألوان زاهية جديدة .. خطًا بعد خط ، بقعة لونية بعد أخرى - وظل بعد ظل ، يتبع الناسخون الصامتون خطى المغامرات الإبداعية الخلاقة لفنانين ماتوا من زمان بعيد ، كانوا يمتلئون حبًا لما يفعلون ويغمرهم سحره ، يجعلك الحب والتفانى البادى عليهم تنسى عدم كمال النسخ المقلدة ...

يمر الوقت ، والناسخون منحنون منكبون على أعمالهم ، لا يعبأون بالزمن . يمر الوقت ؛ وفى طرقات البازار القريبة تخترق السلع الغربية الحديثة بصبر ودأب محلات البازار ، مصباح كيروسين من شيكاغو ، ملابس قطنية مطبوعة من مانشستر ، غلاية شاى من تشيكوسلوفاكيا ، كلها تتقدم منتصرة ، إلا أن الناسخين يجلسون متربعى الساقين على وسائد قماش مهترئة ، ينقبون بأعين رقيقة وأنامل دقيقة فى إبداعات قديمة ، ويضفون على رحلات الصيد الملكى ومحبوباتهم بعثًا جديدًا يومًا بعد آخر ... الناس فى البازار لا حصر لهم : رجال يرتدون الملابس الأوروبية ، وآخرون يرتدون العباءة العربية الطويلة فوق الملابس الأوروبية ، ورجال محافظون يرتدون القفطان وعمائم حريرية ، مزارعون وفنانون فى سترات زرقاء .

دراويش – وهم متسولو إيران الأرستقراطيين يرتدون جلابيب بيضاء واسعة ، وأحياناً يضعون على ظهورهم جلود فهود ، أقوياء البدن وشعورهم طويلة ، نساء الطبقة المتوسطة يرتدين حسب إمكاناتهم ملابس حريرية أو قطنية ، غير أن اللون في كل الأحوال أسود ، مع النقاب الطهرانى التقليدى القصير المرخى بعيداً عن الوجه ؛ أما الفقيرات فيرتدين أزياء من القطن ذات ألوان صارخة . أما الملالى الكبار (رجال الدين) فيركبون جحوش فارهة أو بغال ويستديرون بنظراتهم العدائية الصامتة كأنها تتساءل : « ما الذى تفعله هنا ؟ هل أنت من الذين يعملون على دمار بلادنا ؟ ».

أدت المؤامرات والدسائس الغربية بشعب إيران إلى أن يتشكك فى كل ما هو غربى . ولا يوجد إيرانى واحد يتوقع أن يأتى أى خير لبلاده من أولئك الفرنجة ، إلا أن علىّ أغا لم يكن متشائماً بلا سبب : « أكملت قراءة الرسالة »:

« إيران بلد عتيقة – إلا أنها ليست على استعداد للموت . كنا على الدوام مقهورين . اجتاحت بلادنا أمم أخرى عديدة ، كلهم مضوا إلى حال سبيلهم ، وظلت إيران حية . فى فقر وقهر . فى جهل وظلام : إلا أننا مازلنا أحياء . ويعود ذلك إلى أننا نمضى فى سبيلنا الخاص بنا . حاول العالم الخارجى أن يرغمنا مراراً على انتهاج وسائل أخرى للحياة – إلا أنهم دائماً كانوا يفشلون . نحن لا نجابه القوى الخارجية بالعنف ، ولذلك نبدو للآخرين كأننا استسلمنا، إلا أننا من قبيلة الموريون – وهى تلك النملة الدقيقة الصغيرة التى تحيا أسفل الجدران . ربما تكون قد رأيت يا نور قلبى كيف تتهاوى المنازل ذات الجدران القوية فجأة بلا سبب واضح يبرر انهيارها المفاجئ . ما السبب ؟ لا شىء إلا ذلك النمل الدقيق والذى يظل على مدى أعوام ينخر بصبر ممرات وحفر فى قواعد البناء يتقدم فى كل مرة مقدار سُمك شعرة ، ببطء ، وصبر ، ودأب ، فى كل الاتجاهات ، حتى تفقد الجدران توازنها فى النهاية وتنهار . نحن الإيرانيون مثل ذلك النمل . لا نواجه القوى الأجنبية والغربية بعنف وضجيج لا طائل من ورائه ، بل نتركهم يظهرون أسوأ ما لديهم ، ونحفر نحن فى صبر ممراتنا وكهوفنا ، حتى يأتى اليوم الذى ينهار فيه ما شيدوه ...

هل رأيت ما يحدث حين تقذف حجراً فى الماء ؟ يغطس الحجر ، وتظهر حلقات متتابعة على سطح الماء ، وتنتشر تدريجيًا ثم تتلاشى ويسكن سطح الماء كما كان نحن الإيرانيون مثل ذلك الماء ، الشاه ، أطال اللّه عمره يحمل أعباءً ثقيلة ينوء بحملها ، فالإنجليز فى جانب والروس فى جانب آخر . ولكن لا يوجد لدينا شك أنه بفضل اللّه ، سيجد طريقة لإنقاذ إيران .

لم تكن ثقة على أغا الضمنية فى رضا شاه فى غير محلها . كان رضا شاه من أهم الشخصيات الحيوية التى قابلتها فى دولة إسلامية ، وكذلك من بين كل من قابلت من ملوك ، ولا يمكن مقارنته إلا بابن سعود .

وقصة صعود رضا شاه حتى وصوله إلى حكم البلاد تشبه القصص الخيالية ، ولا يمكن أن تتحقق إلا فى دول الشرق فقط ، حيث تلعب الشجاعة الشخصية والإرادة القوية دوراً رئيسيًا حتى إنها يمكن أن ترفع امرئ من غياهب المجهول إلى سدة السلطة والقوة والسيادة . حين عرفته فى أول إقامة لى بطهران فى صيف عام ١٩٢٤ ، كان رئيساً للوزراء ودكتاتور إيران بلا منازع .

لم يكن الشعب الإيرانى قد تغلب على صدمته فى ظهور رضا شاه المفاجئ وصعوده السريع إلى السلطة حتى وصل إلى السيطرة على دفة إدارة البلاد . مازلت أذكر تعجب موظف إيرانى يعمل بالسفارة الألمانية فى طهران وهو يقول لى : « هل تعلم أنه من عشر سنوات فقط كان رئيس وزرائنا يقف حارساً كجندى نظامى أمام باب هذه السفارة ؟ وأننى كنت أعطيه أحياناً رسائل من السفارة لتسليمها إلى وزارة الخارجية وأزجره قائلاً : « أسرع يا ابن الكلب ، لا تتلكأ فى البازار وأنت فى الطريق ... ».

بالفعل ، لم تكن قد مضت سنوات طويلة منذ أن كان الجندى رضا يقف حارساً أمام مبانى السفارات والمبانى العامة فى طهران . أتخيله واقفًا فى زيه الرسمى الذى يمثل فرقة القوزاق يميل على بندقيته وهو يحملق فى الأنشطة التى تدور من حوله فى الشوارع . يراقب الإيرانيين وهم يمضون جيئة وذهاباً مثل أشباح فى حلم ، وأراه

جالساً فى برودة الليالى بجوار مجارى الأنهار ، كما كان يفعل زملائه الجنود . كان يسمع صوت الآلات الكاتبة التى تأتيه من خلفه من داخل البنك الإنجليزى الذى يتولى حراسة بابه ، واندفاع الناس المسرعين ، وذلك الحفيف المتسارع للحياة الذى جلبه الأوروبيون فى ذلك المبنى فى طهران بواجهته الزرقاء الخزفية ، ربما مرت فى ذهنه لأول مرة فى حياته تساؤلات متعجبة :

« هل يجب أن تكون الأمور فى طهران هكذا ...؟ هل تعمل الشعوب الأخرى وتجاهد ، بينما تجرى حياتنا إلى الخلف مثل حلم ؟ » لم ينل رضا أى قدر من التعليم ، ولم يذهب إلى أى مدرسة . ربما كانت تلك اللحظات هى التى انتابته فيها رغبة التغيير ، راودته فى تلك الأثناء أهداف عظيمة ، وإحساس بالاكتشاف ورغبة فى الثورة تضيء في ذهنه وتسعى صامتة للتعبير عما يعتمل فى نفسه .

ربما وقف فى أوقات أخرى حارساً خارج باب حديقة سفارة أوروبية لدولة عظمى ، تتحرك أشجارها المعتنى بها مع الرياح ، ويخشخش حصى الممرات تحت وقع أقدام الخدم الإيرانيين العاملين بالسفارة بزيهم الأبيض الموحد . فى ذلك المبنى المقام وسط الحديقة تسكن قوة غامضة ؛ تبعث الرهبة في كل إيرانى يتخطى أعتابها وتجعله يصلح من هيئته ويعتنى بحسن مظهره قبل ولوجها . أحيانًا تصل العربات التى تجرها الخيول وينزل منها كبار المسئولين الإيرانيين من الساسة . كان الجندى رضا يعرفهم شكلاً ، فهذا الرجل كان وزير الخارجية ، وذاك وزير المالية . كان يبدو الخوف دائمًا على وجوههم مخلوطًا بالتوتر والتوقع ، ملامحهم مشدودة عند دخولهم من تلك البوابة ، وكان يتشوق إلى رؤية التعبير الذى يبدو على وجوههم وهم يغادرون مبنى السفارة ، أحيانًا يرى البشاشة والسرور كما لو كانوا قد أنعم عليهم بخير وفضل عميم ؛ وأحيانًا يخرجون شاحبين مهمومين ، كما لو كان حكمًا بالإعدام قد صدر عليهم ، وأن أولئك الناس الغامضين داخل السفارة هم من أصدروا الحكم . ويتعجب الجندى رضا متسائلاً : « هل يجب أن تكون الأمور كذلك ... ؟ ».

ويحدث أحيانًا أن يخرج موظف إيرانى مهرولاً من مبنى السفارة التى يحرسها رضا ، ويدفع برسالة إلى يده قائلاً : « خذ هذه الرسالة واذهب بها إلى فلان أو غيره من الجهات . لابد أن توصلها بسرعة يا ابن ا لكلب ، وإلا غضب السفير » ، اعتاد رضا زن يوجه إليه الخطاب بتلك الطريقة ، فرؤسائه من الضباط لم يبدوا أى قدر من الحساسية تجاه المسميات فيما يوجه إليهم من حديث . من المحتمل – كلا ، بل من المؤكد – أن تكون الصفات مثل ابن الكلب تصيبه بطعنة فى كرامته ، كان يدرك ويوقن أنه ليس ابن كلب ، بل ابن أمة عظيمة أنجبت عظماء مثل رستم ، وداريوس ، وأنوشروان ، وكاى خسرو ، وشاه عباس ، ونادر شاه . ولكن ما الذى يعرفه أولئك «الذين بداخل السفارة» عن ذلك ؟ ما الذى يدركونه عن القوى التى تتحرك مثل تيار صامت مظلم داخل صدر جندى يبلغ من العمر أربعين عامًا وتوشك أحيانًا على تفجير ضلوعه وتجعله يعض أنامله فى يأس من لا يملك قوة لتغيير كل ذلك : « آه لو كان بيدى ... » ، وكثيراً ما كانت رغبة تأكيد الذات التى تشغل صدور الإيرانيين تلهبهم فيهبون فى ثورة عنيفة غير متوقعة ، كما كانت تحدث لرضا الجندى وتجعل إدراكه أصفى ورؤيته أوضح للتناقضات التى تمر بها بلاده ...

كانت الحرب العالمية قد انتهت . وبعد الثورة البلشفية فى روسيا ، انسحبت القوات الروسية التى كانت تحتل شمال إيران ؛ وبعدها بفترة وجيزة فجر الشيوعيون الإيرانيون اضطرابات فى ولاية چيلان الإيرانية الواقعة على بحر قزوين ، وقاد ذلك التمرد الشيوعى « كوشوك خان » وهو من أصحاب النفوذ ودعمته قوات نظامية روسية فى البر والبحر . وأرسلت الحكومة الإيرانية قوات من الجيش لتقضى على ذلك التمرد ، إلا أن القوات الإيرانية السيئة تنظيمًا وتسليحًا كانت تنال هزيمة بعد أخرى ؛ ولم تثبت الفرقة التى كان يخدم بها رضا – وكان قد بلغ الخمسين من عمره فى ذلك الوقت – أنها أفضل من غيرها من قوات الجيش الإيرانى .

بمجرد أن أدارت فرقته ظهرها وبدأت فى الفرار بعد صدام سيئ الحظ مع الأعداء ، لم يستطع رضا أن يمنع نفسه من التعبير عن مشاعره الدفينة ولا أن يكبتها أكثر من

ذلك ، فقد خطا خارج صفوف القوات المنهارة الهاربة ، وصاح بأعلى صوته حتى يسمعه الجميع : « لماذا تفرون أيها الإيرانيون - أنتم إيرانيون » . لابد أنه شعر فى ذلك الوقت بما أحسه « تشارلز » الثانى عشر ملك السويد حين سقط مصاباً فى معركة « بولتافا » ، ورأى قواته تهرب فى فزع ، ونادى عليهم بصوت يائس : « لماذا تفرون أيها السويديون - أنتم سويديون » . ولكن الفارق أن الملك « تشارلز » كان ينزف من جروح كثيرة ، ولم يكن هناك ما يملكه إلا صوته ، بينما كان الجندى رضا غير مصاب وبيده مسدسه « الموزر » محشواً بالطلقات - كان صوته قوياً ومهدداً وهو يحذر رفاقه : « من يهرب سأطلق عليه النار ، سأرديه برصاصى حتى لو كان شقيقى » .

كان ذلك الانفجار جديداً على الجنود الإيرانيين ، وحل محل الفوضى التى تسودهم ، دهشة . وأصبحوا يتوقون إلى معرفة : ماذا بذهن ذلك الرجل ..؟ بعض الضباط احتجوا وبينوا عدم وجود أى أمل أمامهم ، حتى إن واحداً منهم سخر قائلاً : هل تقودنا أنت إلى النصر ؟

ربما كان رضا قد أفرغ الشحنات الانفعالية المتراكمة فى نفسه منذ أعوام طويلة ، وأضاءت فجأة كل آماله الصامتة الخرساء . لقد رأى طرف حبل سحرى يتدلى أمامه فجأة ؛ فأمسك بطرف الحبل ، ولم يفلته بعد ذلك أبداً .

رد على الضابط قائلاً : قبلت أن أقودكم للنصر ، ثم استدار إلى الجنود وسألهم : « هل تقبلونى قائداً لكم ؟ ».

لا توجد أمة يتأصل فيها نموذج البطل بعمق كما هو بين الإيرانيين ، بدا لهم ذلك الرجل بطلاً . نسى الجنود فزعهم وفرارهم ، وهتفوا هادرين « أنت قائدنا » ، ورد رضا : وهو كذلك ، سأقودكم وسأقتل كل من يحاول الهرب . غير أن أحداً بعد ذلك لم يفكر فى الفرار . تخلصوا من كل ما يعوقهم ، وثبتوا سناكيهم فى بنادقهم ، وتحت قيادة رضا التفت الفرقة وأسرت سرية روسية فى مفاجأة عسكرية ، وجذب ذلك قوات إيرانية أخرى لتنضم تحت زعامة رضا ، وقهروا العدو وطاردوه - بعد ساعات كانت المعركة قد حسمت لصالح الإيرانيين .

بعد عدة أيام ، وصلت برقية من طهران بترقية رضا إلى رتبة نقيب ، وبذلك أصبح بإمكانه أن يلحق باسمه لقب « خان ».

كان قد أمسك بطرف الحبل السحرى الذى ظهر أمامه وبدأ فى تسلقه . أصبح اسمه فجأة من الأسماء المعروفة والمشهورة . فى ترقيات سريعة متتالية أصبح مقدَّماً ثم عقيد ثم قائد لواء . فى عام ١٩٢١ ، قام بتدبير انقلاب عسكرى هو وصحفى شاب اسمه ضياء الدين وثلاثة ضباط آخرين ، وقبضوا على مجلس الوزراء الفاسد ، وبوصفه قائد لواء ، أجبر الشاه أحمد ، ضعيف الشخصية ، على تعيين مجلس وزراء جديد ، أصبح فيه ضياء الدين رئيساً للوزراء ، ورضا خان وزيراً للحربية . لم يكن يقرأ ولا يكتب ، إلا أنه كان مثل الجن والشياطين فى سعيه إلى السلطة ، وأصبح «النموذج» للجيش والشعب ، الذين رأوا فيه بطلاً إيرانياً لم يروا مثله من دهور .

على المسرح السياسى الإيرانى تتغير المشاهد بسرعة . فقد اختفى فجأة ضياء الدين من على المسرح ، ليظهر كمنفى فى أوروبا . وأصبح رضا خان رئيساً للوزراء . بعد ذلك انطلقت شائعات فى طهران أن رضا خان ، وضياء الدين ، والشقيق الأصغر للشاه وكان ولياً للعهد ، تآمروا للإطاحة بالشاه عن العرش ؛ ودار الهمس – ولا يعلم أحد حتى اليوم مدى صحة ذلك – أن رضا خان قد خان أصدقائه فى آخر لحظة وخاف أن يغامر بمركزه فى تلك المؤامرة المشكوك فى نتاجها وأخبر الشاه بتفاصيل المؤامرة . وبغض النظر إن كان ذلك صحيحاً أم لا ، نصح رضا خان الذى أصبح رئيساً للوزراء ، الملك شاه أحمد أن يقوم برحلة ترفيهية إلى أوروبا ، وصحبه فى موكب عظيم بالسيارات حتى حدود العراق ، ويقال : إنه قال للشاه على الحدود : « لو عدتم جلالتكم فى أى لحظة إلى إيران ، يمكنك حينها أن تقول : إن رضا خان لم يفهم شيئاً فى هذا العالم » .

لم يعد يقبل أن يشاركه أحد السلطة ؛ كان فى الحقيقة المتصرف الفعلى فى كل شئون إيران . كان مثل ذئب جائع ، وألقى بنفسه مكرساً كل إمكاناته الشخصية فى خضم العمل . كان لابد أن يصلح كل أحوال إيران من القمة إلى القاع . أصبحت

الإدارة التى كانت مفككة إدارة مركزية ، أما النظام الزراعى القديم الذى كان يسند زراعة كل الولايات إلى من يدفع أعلى ثمن ، فقد ألغاه ، وألغى أن يكون المحافظين من المرزبانات ، وأصبح يعينهم من قبله . أما الجيش ، وهو ابن الدكتاتور المدلل فقد أعاد تنظيمه على النمط الغربى . ثم بدأ فى شن حملات على زعماء القبائل العنيدين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملوكًا صغارًا وكانوا غالبًا ما يرفضون الأوامر التى تصدر من طهران ؛ وتعامل بكل قسوة مع تنظيمات العصابات التى كانت تبث الرعب فى الأقاليم . وتم تنظيم الإدارة المالية للدولة بمعاونة مستشار أمريكى ؛ وبدأت الضرائب والجمارك تدر عوائد منتظمة ، واستعاد النظام بعد الفوضى العارمة .

وكما لو كان يقتفى أثر خطى كمال أتاتورك فى تركيا الذى قاد الحركة الكمالية ، بزغت فكرة الجمهورية فى إيران ، كانت كشائعة فى البداية ، ثم مطلب من مطالب الطليعة المثقفة من الشعب – وأخيرًا كهدف مباشر بعد ذلك . ولكن يبدو أن رضا خان قد أخطأ فى ذلك التوجه ولم يحالفه التوفيق . لقد أساء تقدير ذلك الأمر : خرجت مظاهرات قوية غاضبة من الجماهير الإيرانية .

لم تكن تلك المعارضة الشعبية للجمهورية ترجع إلى أى حب للبيت الحاكم ، فلم يكن هناك إيرانى واحد يكن أى عاطفة حب لعائلة « كاچار » والتى تعود إلى أصول تركية وكان الشعب يعدها أسرة « أجنبية » وهى أسرة الشاه أحمد . كانت المعارضة لسبب مختلف تمامًا ، وهو خوف الشعب الإيرانى أن يفقدوا دينهم مثل الأتراك الذين فقدوا دينهم بعد أن أعلن كمال أتاتورك نظام الدولة العلمانى . فى جهلهم ، لم يفهم الإيرانيون أن الشكل الجمهورى يتفق تمامًا مع تعاليم الإسلام أكثر من حكم العاهل العائلى ؛ وتحت تأثير القادة الدينيين – وربما لخوفهم من إعجاب رضا خان الواضح بأتاتورك – أحس الإيرانيون أن الإسلام مهدد ، وكان الإسلام القوة المهيمنة على الشعب الإيرانى بأجمعه .

وقعت أحداث شغب كثيرة واضطرابات بين أبناء الحضر ، خاصة فى مدينة طهران ، خرجت الحشود الغاضبة ، مسلحين بالعصى والحجارة ، وتجمعت أمام قصر الإدارة

الذى يقع به مكتب رضا خان ، وهتفوا لاعنين رضا خان ومهددين الدكتاتور الذى تحول إلى نصف إله . ونصحه معاونوه ألا يغادر المبنى قبل انفضاض الحشود الغاضبة، إلا أنه دفعهم جانباً ، وخرج ويصحبته فرد عادى غير مسلحين ، وغادر المبنى فى عربة مغلقة تجرها الخيول . وبمجرد أن خرجت العربة من البوابة الخارجية ، قبضت الحشود الثائرة على أعنة الجياد وأوقفوا العربة ، وحطم بعض الثائرين بابها - وصاحت الحشود : « جروه إلى الخارج ، أخرجوه إلى الطريق » ، إلا أنه كان قد بدأ الخروج بنفسه ، ووجهه يستعر بالغضب وبدأ بضرب الأقرب إليه على أكتافهم ورءوسهم بعصا قيادة الخيل وهو يصيح فى غضب : « ابعدوا يا أبناء الكلاب ، كيف تجاسرتم على ذلك ، أنا رضا خان ، ارجعوا إلى نسائكم وفراشكم » ، وصمتت الحشود التى كانت تهدد بالويل والثبور وبقتل الطاغية من دقائق قليلة ، وتحت وطأة جسارته وشجاعته ونظراته النارية ؛ تقهقروا قليلاً ، ثم ذابوا واحداً بعد آخر ، واختفوا فى الشوارع الجانبية .

مرة أخرى تحدث قائد عظيم إلى شعبه ؛ حدثهم غاضباً ، وارتاع الشعب وفزع . ربما كانت مشاعر رضا خان باحتقاره للشعب قد بدأت فى تلك اللحظات ، وغطى شعوره ذاك على حبه لشعبه إلى الأبد .

بالرغم من نجاح رضا خان فى إبراز هيمنته وقوة شكيمته ، إلا أن النظام الجمهورى لم يتحقق . كانت الزوابع التى أثيرت حول تلك الخطة تثبت أن القوة وحدها لا يمكن زن تقود « حركة إصلاحية » فى مواجهة مقاومة شعبية . لا يعود ذلك إلى أن الإيرانيين يعارضون الإصلاح ، بل إن الشعب شعر غريزيًا أن تطبيق نظام دستورى غربى مستورد من خارج البلاد ، يعنى القضاء على آمالهم فى التوصل إلى نظام سليم ، نابع من ثقافتهم وعقيدتهم الإسلامية .

لم يفهم رضا خان ذلك ، لا فى ذلك الوقت ، ولا بعد ذلك أبداً ، فانعزل عن شعبه ، تلاشى حب الشعب له وحل محله بالتدريج كراهية وخوف . بدأ الشعب يتساءل : ما الذى فعله ذلك البطل لبلده ؟ راحوا يعددون إنجازات رضا خان : إعادة تنظيم

الجيش ؟ ولكن كان ثمن ذلك باهظًا ، فقد أضاف أعباءً ساحقة من فرض ضرائب باهظة على شعب فقير يعانى من الفاقة وشظف العيش ؛ قضى على تمرد القبائل ؟ إلا أنه قضى أيضًا على أبطال الشعب ؛ أقام المبانى الشاهقة الجديدة فى طهران ؟ إلا أن البؤس والفاقة قد ازدادا بين المزارعين والفلاحين فى الأقاليم . بدأ الناس يتذكرون أن رضا خان كان حتى سنين قليلة مضت جنديًا معدمًا - وأصبح الآن أغنى رجل في إيران ، ومالك لمساحات من الأرض لا حصر لها - فما هى « الإصلاحات » التى يتحدث عنها ؟

هل تعد المبانى الشاهقة الفخمة الجديدة وما تحويه من مكاتب فى مدينة طهران والفنادق الفخمة التى ارتفعت هنا وهناك بتوجيه من الدكتاتور تمثل أى قيمة فى تحسين أحوال جموع الشعب الفقيرة ؟

* * *

عرفت رضا خان فى المرحلة التى كان فيها رئيسًا للوزراء ، ومهما كانت صحة الشاعات التى كانت تتردد عن طموحاته وتطلعاته وأنانيته ، إلا أننى تبينت عظمة ذلك الرجل من اللحظة الأولى التى استقبلنى فيها فى مكتبه فى وزارة الحربية . ربما كان كان ذلك المكتب أبسط مكتب دخلته فى أى مكان ، وفى أى عصر ، يشغله رئيس وزراء : كان هناك مكتب ، وأريكة مغطاة بقماش أسود ، ومقعدين ، ورف للكتب ، وبساط جميل إلا أنه غير ثمين ؛ نهض الرجل عند دخولى ، وجدته طويلاً ، فى منتصف الخمسينيات من عمره ، يرتدى ملابس عسكرية كاكية اللون دون أى رتب أو نياشين أو شارات .

قدمنى إليه سفير ألمانيا ، الكونت «فون ديرشولنبرج » (بصفتى ممثلاً لصحيفة ألمانية) ومع أنه كان أول حوار سياسى رسمى بيننا ، إلا أننى ميزت الحيوية العنيدة التى يتصف بها رضا خان ، تطلع إلىّ بعينين بنيتين حادتى النظرات من تحت

حاجبين كثيفين شاب شعرهما ، عيون فارسية تحتجب خلف جفون ثقيلة ، فتبدو النظرة كأنها خليط من السوداوية والحزن والقسوة والتشدد . كانت هناك خطوط تشى بالمرارة حول أنفه وفمه ، إلا أن الملامح المشدودة على عظام الوجه الثقيلة أفشت قوة إرادة غير عادية جعلت شفتاه مزموتين فبدا توتر الفكين . وحين تستمع إلى صوته الخافت - صوت رجل تعود على قول ما له أهمية وقيمة ويزن كل كلمة قبل أن ينطق بها - يستولى عليك انطباع بأنك تستمع إلى رجل أمضى ثلاثين عاماً بالجيش مع اعتزاز شديد بالذات يكمن خلف صوته : وتجد من الصعب أن تصدق أنه من ستة أعوام فقط كان رضا خان مازال رقيبًا بالجيش ، ومن ثلاثة أعوام فقط تعلم القراءة والكتابة .

لابد أنه شعر باهتمامى الشديد بشخصه - وربما شعر باهتمامى الشديد بشئون الشعب الإيرانى - فقد أصر أن تلك المقابلة يجب ألا تكون الأولى والأخيرة ، ودعانى أنا و « شولينبرج » لتناول الشاى فى الأسبوع التالي فى مقره الصيفى فى منطقة «شيمران» ، وهو منتجع يموج بالأشجار الخضراء على بعد بضعة أميال خارج طهران .

اتفقت مع « شولينبرج » أن أمر عليه أولاً (كان مثل باقى السفراء يقضى الصيف فى منطقة شيمران) ، ثم نتوجه معًا إلى منزل رئيس الوزراء هناك . وحدث أننى لم أستطع المرور عليه فى الوقت المحدد . كنت قد اشتريت عربة صيد خفيفة ذات أربع عجلات يجرها جوادان فرهان نشيطان . أما مدى نشاطهما فقد اتضح لى تمامًا خارج طهران ببضعة أميال ، فقد طافت بهما رغبة شريرة جعلتهما يرفضان فى عناد البغال أن يمضيا للأمام خطوة واحدة ، وأصرا على الاستدارة والعودة إلى طهران . بذلت كل جهدى على مدى عشرين دقيقة لدفعهم إلى السير إلى « شميران » ، ولكن بلا طائل ، فى النهاية جعلت إبراهيم يعود بهما إلى طهران وانطلقت على أقدامى باحثًا عن وسيلة انتقال أخرى . سرت حوالى ميلين ووصلت إلى قرية وجدت بها عربة خفيفة واكتريتها ، وحين وصلت إلى منزل السفير الألمانى كنت قد تأخرت ساعة ونصفًا عن

الموعد المتفق عليه . وجدت « شولينبرج » يروح جيئة وذهابًا فى مكتبه مثل نمر غاضب متحفز ، واختفت تمامًا كل رقته ودماثته ، فبحسه الدبلوماسى المجبول على الطبيعة البروسية صارمة النظام ، كان ذلك الخرق للالتزام يصل بالنسبة إليه إلى مرتبة الكفر والإلحاد . أول ما وقع بصره علىّ انفجر فى ثورة غضب عاتية :

« لا يمكن لك أن تفعل ذلك ، لا يمكن أن تفعله مع رئيس الوزراء ... هل نسيت أن رضا خان دكتاتور ، وأنه مثل أى دكتاتور ، شديد الحساسية والاعتزاز بكرامته ؟ ».

كانت إجابتى الوحيدة : « يبدو أن خيولى نست تلك المنطقة المهمة يا كونت «شولينبرج» ، حتى لو كان إمبراطور الصين ، كان من المستحيل أن أصل فى الموعد». وحكيت له ما حدث .

عند ذلك ، بدأ الكونت يستعيد حس الدعابة وانفجر فى ضحكة عالية :

« بحق اللـه لم يصادفنى مثل ذلك الموقف أبدًا ، هيا بنا – رآمل ألا يصفق الخادم الباب فى وجوهنا ... ».

إلا أن الخادم لم يصفق الباب فى وجوهنا . حين وصلنا قصر رضا خان كانت حفلة الشاى قد انتهت من زمن وانفض كل المدعوين ، إلا أنه لم يبد على الدكتاتور أنه قد تضايق بأى حال من خرقى لقواعد البروتوكول .

وحين سمع منى سبب تأخرى ، تساءل : « حسنًا ، أحب أن أرى خيولك ، إنهم ينتمون على ما أعتقد إلى الحزب المعارض ، لا أدرى إن كان من الملائم أن نضعهم رهن الاعتقال أم لا ».

ويبدو أن تخلفى عن الموعد المحدد كان فى صالحى فقد كان سببًا فى تأسيس علاقة شخصية غير رسمية بين رئيس وزراء إيران القوى وصحفى صغير السن مثلى ، وأتاحت لى تلك العلاقة بعد ذلك أن أتجول بحرية فى جميع أنحاء إيران ، وهى حرية غير متيسرة لأى أجنبى .

لم تشر رسالة على أغا إلى رضا خان الأيام المبكرة ، ذلك الرجل الذى كان يحيا فى بساطة لا يصدقها أحد ويغلب عليه حب إيران : كانت رسالته تشير إلى رضا شاه بهلوى ؛ الذى صعد إلى عرش الطاووس عام ١٩٢٥ ؛ وتشير إلى ملك نحى جانبًا كل مظاهر التواضع ويسعى الآن إلى اقتفاء أثر كمال أتاتورك فى بناء دولة ذات وجه حضارى غربى فى بلاده الشرقية العتيقة ...

وصلت إلى نهاية الرسالة :

«بالرغم من أنك الآن يا صديقى المحبوب فى المدينة المباركة للرسول الكريم (ﷺ) ، فإننى آمل ألا تكون قد نسيت صديقك الذى لا يساوى شيئًا ، وألا تنسى بلده أيضًا» .

لك اللّـه يا على أغا ، يا صديق أيامى فى إيران - أو « نور قلبى » كما تقولها أنت - جعلتنى رسالتك أغرق بين ثنايا الذكريات : أنا الذى أصبحت مخمورًا بحب بلاد فارس بعد أن عرفتها عن قرب ، تلك البلاد العريقة ، الجوهرة التى ضاع بريقها بين ذهب عتيق ورخام مشروخ وركام تراب وظلال باهتة لحضارات أصيلة ، ظلال كل الأيام والليالى لبلدك العابسة المكفهرة ، وعيون أبناء شعبك الحالمة بحياة أفضل ...

مازالت أذكر مدينة « كير منشاه » ، أول مدينة إيرانية أرها بعد أن عبرت جبال كردستان . مدينة يغلفها جو غريب ، شاحب ، معتم ، مكتومة الصوت وخانعة - ولن أقول رثة وبالية . لاشك أن فقر كل مدينة شرقية يكمن قريبًا من سطحها ، مرئى بوضوح أكثر من أى مدينة أوروبية .. إلا أننى كنت قد اعتدت ذلك - إنه ليس فقرًا بالمعنى الاقتصادى بالرغم من أنه باد بكل مظاهره ، مع أن « كيرمنشاه » كانت تعد من المدن ذات الرخاء فى إيران . ما أقصده الفقر النفسى والمعنوى ، ذلك النوع من الاكتئاب والإحباط الذى يرين على الناس ، شىء ما على صلة مباشرة ووثيقة بهم ولا علاقة له بالأحوال الاقتصادية .

الشعب كله يتميز بعيون واسعة سوداء تحت حواجب كثة . تتلامس عند جذر الأنف ، وجفون ثقيلة كالحجاب . أغلب الرجال نحفاء (لم أر رجلاً ممتلئًا أو سمينًا فى

إيران) ، لا يضحكون بصوت مرتفع أبداً ، فى تبسمهم الصامت يكمن شبح سخرية وتجاهل وتبدو كأنها تخفى وتبطن أكثر مما تظهر . لا حيوية فى حركة ملامح الوجه ، لا إيماءات بالرأس تدل على المشاركة والتفهم ، لا تجد إلا حركات محددة ومقننة : كانوا كمن يضعون أقنعة على وجوههم .

وكما فى كل بلاد الشرق ، تتركز الحياة فى الأسواق ، وتظهر الأسواق فى عين الغريب خليطًا من الألوان البنية ، والبنى المذهب ، والأحمر ، وأوانى نحاسية لامعة هنا وهناك ، بعض فن خزف أزرق فوق واجهات بعض المحلات مرسوم عليها أشكال وهيئات لفرسان بعيون سوداء وتنانين مجنحة . لو دققت البصر وأمعنت النظر تجد بالسوق جميع الألوان التى عرفها الشر ، إلا أن أى من تلك الألوان المتباينة لا يمكن أن يستقل لون بذاته فى تلك الظلال الموحدة تحت أسقف تغطى شوارع الأسواق وتجعلها غارقة فى عتمة نعسانة . كانت قمم أسقف شوارع السوق مفتوحة على مسافات متساوية بفتحات صغيرة تسمح بدخول ضوء النهار ، ومن خلالها تسقط أشعة الشمس الساقطة من الفتحات على شكل أعمدة رفيعة ، لا يبدو أن المارة يخترقونها ، بل تبدو وكأنها تخترق المارة .

الناس فى البازار هادئين مهذبين صامتين كالأشباح . لو نوه أحد التجار عن بضاعته فإنه يفعل ذلك بصوت خفيض ؛ لا ينادون بأصوات عالية أو كلمات منغمة كما يفعل العرب فى الأسواق العربية .

نسيج الحياة هنا من نفوس هادئة ، الناس لا يتزاحمون ولا يدفع بعضهم بعضاً : كانوا مهذبين – ذلك النوع من التهذيب الذى يبدو كأنه ينحنى أمامك من فرط تأدب ، إلا أنه فى الواقع يوقفك على بعد ذراع .

يغلب عليهم العبوس ولا يبادرون بفتح حوار مع غريب ، وإذا تحدثوا فإن شفاههم هى التى تتكلم ، أما أرواحهم فإنها هناك فى خلفية بعيدة ، تنتظر ، وتزن الأمور وتوازنها ، منفصلة عن الواقع العاش ...

على مقهى جلس عمال على حشايا من القش ، كانوا خليطًا من فنانى النسخ وعمال ، وسائقى شاحنات ، مجتمعين حول قصعة معدنية مليئة بالجمرات الملتهبة وإرجيلتين طويلتين من الخزف ، كانت رائحة الحشيش النفاذة تعبق المكان ، يدخنون فى صمت ؛ كل فى دوره يجذب أنفاسًا عميقة ، ثم يمرر القصبة إلى من يليه . ثم أدركت ما لم أدركه من قبل : كثيرين ، كثيرين جدًا ، من يدخنون الحشيش ، بعضهم فى العلن ، وآخرين خفية . أصحاب المتاجر داخل خاناتهم الصغيرة ، والمتسكعين تحت أقواس بوابات الخانات الكبيرة ؛ طارقى النحاس ومشكليه داخل محلاتهم فى أوقات راحتهم : كلهم يدخنون الحشيش وكلهم تعلو وجوههم ملامح الوجوه المنسحبة من الواقع ، ومنهكة ، ونظراتهم تحملق فى فراغ لا تعرف مداه ...

كانت أزهار الخشخاش ببراعمها الممتلئة تباع فى جميع أنحاء البازار ، وهناك طريقة أخرى تناسب الأطفال ، فقد كان الأطفال يأكلون بذوره فى مداخل البيوت وفى الأركان الخالية . يقسم طفلان أو ثلاثة ما معهم من بذور بأناة وتؤدة الكبار ، دون ذاتية طفولية – ولكن أيضًا بلا مرح الأطفال وحيويتهم .

ولكن كيف يمكن أن يكونوا غير ذلك ؟ لقد أعطوهم من مهدهم شراب بذور الأفيون حين كانوا يبكون ، فيعطونهم ذلك الشراب حتى يناموا ولا يزعجونهم . وحين كبروا وبدأوا يجوبون الطرقات والشوارع ، كانت صفات الهدوء والطيبة والوداعة قد بهتت وتلاشت .

أدركت بعد ذلك السر فيما شدنى وهزَّ أعماقى حين شاهدت أول مرة العيون الحزينة التعيسة للإيرانيين : كانت العيون الحزينة تعبر عن القدر المأساوى لذلك الشعب . أدركت أن الأفيون ينتمى إليهم كما تنتمى الابتسامة التعيسة لتعاستهم الداخلية – والأفيون ينتمى إلى فقرهم الشديد وإملاقهم ، ولا يبدو عيبًا ولا نقيصة – بل ربما كان ذا فائدة لهم ، وعونًا لهم – عون ضد ماذا ؟ إنها أرض العجائب التى لا تكف عن طرح تساؤلات كثيرة ...

توقف فكرى طويلاً عند انطباعاتى عن مدينة « كيرمنشاه » ، أول مدينة إيرانية أتوقف فيها ، وظلت انطباعاتى متغايرة الشكل إلا أن مادتها لم تتغير على مدى عام ونصف قضيتها بإيران . كان السائد والدائم فى كل مكان فى أنحاء إيران تلك التعاسة والاكتئاب والانقباض الذى تراه على كل الوجوه . تلاحظه فى القرى كما تلاحظه فى المدن ، فى حياة الناس اليومية كما فى المناسبات والأعياد والاحتفالات الدينية . وبالفعل ، كانت مشاعرهم الدينية تختلف عن المشاعر الدينية للعرب ، فهى تحمل صبغة قوية من الحزن والحداد - لأنهم مازالوا يبكون أحداث مأساوية وقعت من ثلاثة عشر قرنًا مضت - يبكون استشهاد الإمام علىّ رضى اللّـه عنه ، ابن عم الرسول]وزوج ابنته رضى اللّـه عنها ، ويبكون استشهاد ابنى علىّ ، الحسن والحسين رضى اللّـه عنهما - ويبدو ذلك عندهم أهم مما يدعو إليه الإسلام وعما يدفع البشر إليه ، ويحثهم على انتهاجه فى الحياة الدنيا ...

فى الأمسيات ، فى مدن وقرى إيران ، ترى مجموعة من الرجال والنساء مجتمعين فى حلقة كبيرة حول درويش متجول ، داعية دينى يلبس ملابس بيضاء . وجلد فهد معلق على ظهره ، يمسك بيد عصا طويلة وبالأخرى وعاء من ثمرة جوز الهند مفرغة يجمع بها الصدقات . يلقى إنشاداً نصف مغنى ، نصف مرتل ، عن صراع الخلافة بعد موت الرسول فى القرن السابع الميلادى ، قصة حزينة مأساوية دامية ، مكونة من إيمان ودم وموت - تجرى بشكل ما فى حكايتها كما يلى :

استمعوا إلىّ أيها الناس ، استمعوا لما حدث لمن اختارهم اللّـه ، وكيف سال دم نسل الرسول على الأرض .

كان هناك نبى أحبه اللّـه وحباه بالهداية إلى مدينة المعرفة ؛ وكان باب تلك المدينة أنقى وأخلص وأشجع وأحكم أتباعه ، وزوج ابنته ، أسد اللّـه وخليفته الشرعى ، إلا أن أشقياء البشر وأشرارهم اغتصبوا حق أسد اللّـه وجعلوه آخر خليفة للرسول ؛ وبعد موت أول مغتصب ، تلاه واحد مثله من محبى الشر ؛ وتلاه ثالث بعده .

وتحققت إرادة اللّـه فقط بعد موت المغتصب الثالث ، وتبوأ أسد اللّـه مقعده الشرعى كقائد للمؤمنين .

إلا أن أعداء علىّ وأعداء اللّـه كانوا كثيرين ؛ وفى يوم كان ساجداً بين يدى ربه ، اغتالوه بالسيف . اهتزت أركان الأرض من بشاعة الفعل الكافر ، وناحت الجبال وذرفت حجارة الأرض الدموع .

فلتحل لعنة اللّـه على الأشرار ، ويحل عليهم عذاب اللّـه الأبدى .

استولى مغتصب جديد على الخلافة وأنكر حق أبناء أسد اللّـه ، الحسن والحسين ، ابنى فاطمة المباركة . قتلوا الحسن بقسوة بدس السم له ؛ ولما هبَّ الحسين للدفاع عن الحق ، أزهقوا روحه الطاهرة فى كربلاء حين كان منحنيًا على بركة ماء ليروى ظمأه بعد المعركة .

فلتحل لعنة اللّـه على الأشرار ، ولتروى دموع الملائكة ثرى كربلاء المباركة . اجتثت رأس الحسين رضى اللّـه عنه – التى كان يُقبلها الرسول - بقسوة ، وعاد بدنه بدون رأس إلى الخيمة التى كان أولاده يبكونه فيها وينتظرون عودته .

منذ ذلك اليوم يدعو المؤمنون اللّـه أن ينزل لعنته على المعتدين منذ ذلك اليوم يبكون موت علىّ والحسن والحسين رضى اللّـه عنهم ؛ وأنتم أيضًا يا مؤمنين ، ارفعوا أصواتكم بالعويل والنواح على مصرعهم – اللّـه يغفر ذنوب مَنْ يبكون نسل الرسول ...

وتدفع المرثية النساء إلى نهنهة البكاء ، بينما تنسال دموع صامتة على لحى الرجال .

مثل تلك « المناحات » تمثل فعلاً صرخة عميقة مستمدة من صورة تاريخية حقيقية لتلك الأحداث المبكرة الدامية التى أحدثت شرخًا لم يمكن جبره وانقسامًا لم يمكن تخطيه فى عالم المسلمين : انقسم المسلمون إلى سُنَّة ، وهم الأغلبية ويؤمنون أن مبدأ اختيار الخليفة كان صحيحاً ، والشيعة الذين يصرون على أن الرسول اختار علىّ ،

زوج ابنته ، كوريث شرعى وخليفة له . وفى الحقيقة ، مات الرسول دون أن يسمى أى خليفة له قبل وفاته ، فاختار المسلمون أقدم رفيق مخلص له كخليفة ، وهو أبو بكر ، وتلا أبو بكر عمر ، ثم تلاه عثمان ، ولم يبايع المسلمون علىّ للخلافة إلا بعد وفاة عثمان رضى اللّـه عنهم .

لم تكن هناك شائبة فى أى من الخلفاء الذين سبقوا علىّ ، وكنت أعرف ذلك أثناء وجودى فى إيران وقبل إسلامى . كانوا بالفعل الأنبل والأعظم فى التاريخ الإسلامى بعد الرسول ، وكانوا فى حياته أخلص وأقرب الصحابة ؛ لم يكونوا بالتأكيد «مغتصبين» للخلافة ، واختارهم المسلمون بإرادة حرة خلقها فيهم الإسلام . لم يسعوا إلى السلطة ، وأدى رفض علىّ وأتباعه القبول باختيار عموم المسلمين للخلفاء إلى نشوب الصراع على السلطة بعد ذلك ، وإلى مصرع علىّ ، كما أدى إلى تحول الخلافة فى عصر الخليفة الخامس ، معاوية ، من شكل الانتخاب الديموقراطى للخليفة ، إلى ملك يتوارثه الأبناء ، ثم أدى بعد ذلك إلى مصرع الحسين فى كربلاء .

بلى ، كنت أعرف كل ذلك قبل وصولى إلى إيران ؛ إلا أننى صُدمت بعد وصولى إلى إيران من كم المشاعر التى تثيرها تلك الأحداث التى وقعت من ثلاثة عشر قرنًا ، بين أبناء الشعب الإيرانى كلما ذكر اسم علىّ ، أو الحسن ، أو الحسين .

بدأت أتساءل : هل هى السوداوية الدفينة فى الإيرانيين ومشاعرهم المأساوية التى دفعتهم إلى تبنى المذهب الشيعى ؟ أم أن حجم المأساة التى وقعت للشيعة هى التى أدت إلى صياغة الإيرانيين تلك الصياغة المأساوية ؟

بدأت الإجابة المذهلة تتكون فى ذهنى على مراحل وعلى مدى شهور . ففى منتصف القرن السابع الميلادى ، قهرت جيوش عمر الإمبراطورية الساسانية فى بلاد فارس ، ودخل الإسلام إلى تلك البلاد ، كانت العقيدة الزرادشتية الفارسية قد تقلصت وانكمشت إلى مجرد مبادئ إصلاحية متصلبة ، ولم تصمد أمام الفكر الدينى الجديد الملىء بالحيوية والقادم من الجزيرة العربية . فى الوقت الذى دخل فيه الغزو العربى بلاد فارس ، كانت إيران تمر بمرحلة اختمار جماعى وفكرى كانت تشى بإرهاصات

ميلاد قومى جديد . وأضاع الغزو العربى الأمل فى إعادة الخلق القومى الفارسى ؛ توقف الامتداد القومى التاريخى لفارس ، بعد أن تبنوا ثقافة وفكر وأخلاق الإسلام الذى جاء مع الفاتحين .

مثّل دخول الإسلام لإيران ، كما مثّل لبلاد كثيرة أخرى ، طفرة اجتماعية تقدمية كبيرة ، فقد دمر الإسلام النظام الطبقى وخلق مجتمعًا جديدًا مبنيًا على الحرية والمساواة ، وفتح قنوات جديدة لانطلاق الفكر والطاقات الخلاقة التى ظلت جامدة ومكبوتة لعصور طويلة : إلا أن أهل بلاد فارس لم ينسوا أنهم أبناء داريوس ، وإكسيركسس ولم ينسوا مشاعرهم القومية ، ولم ينسوا الرابط العضوى بين ماضيهم وحاضرهم ، الذى تفجر فجأة فى موجهة فكر جديد . كان شعب فارس يجد نفسه فى الثنائية المعقدة بين الزرادشتية وبين عقيدة وحدة الوجود الممثلة فى العناصر الأربعة – الهواء ، والماء ، والنار ، والتراب – ووجدت تلك الثنائية الدينينة نفسها فى مواجهة ديانة توحيدية لا تهادن ولا تصالح وتتطلع إلى المطلق . كان الانتقال حادًا ومؤلمًا لم يسمح للإيرانيين بوضع وعيهم القومى والدفين فى مرتبة تابعة للمفهوم الإسلامى الذى يتجاوز القوميات ويعلو فوقها . وبالرغم من تسارعهم إلى اعتناق الإسلام وقبولهم الإرادى للديانة الجديدة ، إلا أنهم قرنوا فى لا وعيهم بين انتصار الإسلام والهزيمة القومية الفارسية ؛ وكان إحساسهم بأنهم هزموا ، إحساس مؤلم بكل ما يحتويه من غموض وأدى إلى تقويض إحساسهم القومى بالثقة بالنفس على مدى قرون تالية . وبعكس أمم كثيرة دخلها الإسلام وأدى اعتناقهم له إلى خلق نبضات إيجابية دافعة للتطور ، كان أول رد فعل إيرانى – وهو ما دام بعد ذلك طويلاً – إحساس شديد بالهوان ، وكبح للاستياء فى أعماقهم .

كان عليهم كبح استيائهم وتخفيف وطأته فى ثنايا وأعماق اللاوعى ؛ لأن الإسلام أصبح العقيدة السائدة فى إيران . وفى مواجهتهم النفسية لكراهيتهم للعرب لغزوهم بلادهم ، لجأ الإيرانيون بلا وعى منهم إلى ما يطلق عليه علماء التحليل النفسى «المغالاة» أو «المبالغة المضادة» ، بدأوا يعتبرون الدين الذى دخل بلادهم على أيدى

الغزاة العرب دينًا خاصًا بهم هم ، وهم أصحابه . قاموا بذلك بلا وعى من خلال تحويل وعى العرب المسلمين العقلى بوحدانية اللّـه الذى لا غموض فيه إلى نقيضه : غموض خيالى وعواطف انقباضية غانمة .

تحول الإيمان الذى يمثل للعرب واقعية وإحساس بالحاضر الزمنى ومصدر للحرية وراحة النفس ، إلى تحرق للغيبيات والغموض والرمز .

كما تحول الفكر الإسلامى الذى يؤكد على وجود اللّـه الذى لا تدركه الأبصار إلى مبادئ غامضة (كان لها سوابق فى فارس قبل الإسلام) - عن التجلى المادى للّـه ، خاصة فيمن ماتوا ممن اختارهم اللّـه ، والذين نقلوا الاختيار الإلهى بالوراثة إلى أبنائهم وذريتهم من بعدهم . بمثل ذلك الميل ، مثل اعتناق الإيرانيين لأفكار الشيعة قناة واسعة رحبة ناسبت ذلك التكوين النفسى ، فلا يوجد شك أن تبجيل الشيعة بما يقرب من التأليه لعلىّ ونسله يخفى فى ثناياها تجسيد الإله واستمرار تجسيده فى نسله - وهى فكرة دخيلة تمامًا على الإسلام وغريبة علي محتواه ، إلا أنها قريبة جدًا من القلب الإيرانى .

لم يكن مصادفة أن يموت الرسول دون أن يسمى خليفة له ، وقد رفض بالفعل تسمية خليفة له حين سئل فى ذلك من قبل فترة قصيرة من وفاته . لقد أرادأن يؤسس بذلك الموقف : أولاً ، أن الجانب الروحى من الدين والنبوة لا يمكن « توريثه » . وثانيًا : أن قيادة الأمة لابد أن تنتج عن انتقاء حر يقوم به المسلمون بأنفسهم ، لا أن تكون « بأمر » من الرسول أو « بترسيم » منه (وقد كان تسميته لخليفة يتضمن كل ذلك - إلا أنه لم يفعل) لقد ألغى عامدًا فكرة أن تكون قيادة الأمة قيادة رسولية وراثية ، إلا أن ذلك ما هدفت إليه شريعة الشيعة . لم يصر فقط على التشريع على مبدأ الخلافة الرسولية (فى تناقض واضح مع روح الإسلام) ، بل احتفظ بذلك الحق الخلافى الرسولى « لنسل الرسول » فقط ، أى قصره على ابن عم الرسول [و]زوج ابنته ، علىّ ونسله رضى اللّـه عنهم من بعده .

لقد جاء ذلك متلائمًا تمامًا مع الميول النفسية الغامضة للإيرانيين . لقد انضموا إراديًا إلى معسكر أولئك الذين ادعوا أن جوهر روح محمد انتقلت إلى علىّ ونسله ، لم يكتف الإيرانيون بإشباع روح الغموض والألغاز فيهم ، كان هناك دافع لا إرادى آخر لاختيارهم تلك المبادئ واعتناقها ، فإن كان عليًا هو الوريث والخليفة الشرعى للرسول ، فإن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا علىّ ، لابد أن يصنفوا كمغتصبين للخلافة ، وكان منهم عمر ، وهو عمر ذاته الذى غزا إيران . ووفر ذلك سببًا لتحويل الكره القومى لمن غزا الإمبراطورية الساسانية إلى كره عقائدى ودينى - تلك العقيدة التى أصبحت خاصة بإيران : أصبح عمر هو منْ نزع حق علىّ وأبنائه الحسن والحسين وحرمهم من حقهم الإلهى فى خلافة الرسول ، وأن عمر بفعله ذاك لم ينصع لإرادة اللّـه ، بل عاداه ؛ وأنهم لدعم إرادة اللّـه ومشيئته ، لابد من دعم حزب علىّ ... ومن داخل عداء قومى ، ولدت شريعة دينية مغايرة .

كان تعظيم وتمجيد الإيرانيين للعقيدة الشيعية تعبيرًا عن احتجاج صامت على غزو العرب لإيران . أدركت الآن لماذا يلعن الإيرانيون عمر بكراهية تفوق فى مرارتها تلك اللعنات التى توجه إلى « المغتصبين » الآخرين لخلافة علىّ .. أبو بكر ، وعثمان - فمن المفروض من وجهة نظر الشريعة الشيعية أنْ يكون أبو بكر ، الخليفة الأول ، المعتدى الرئيسى والمغتصب الأول ، إلا أن عمر هو من غزا إيران .

كان ذلك هو السبب الكامن وراء التشدد المبالغ فيه فى تبجيل علىّ فى إيران . أصبح ذلك التبجيل الذى يصل إلى حد القداسة رمزًا للانتقام الإيرانى من العرب المسلمين (مع أن الإسلام ينهى بشدة عن تقديس البشر بما فيهم محمد) . ومع أن الشريعة الشيعية والتشيع بوجه عام لم يبدأ ولم ينبت فى بدايته فى إيران ، وهناك شيعة آخرون فى بلاد إسلامية أخرى ، فإن مشاعر الشيعة الآخرين خارج إيران ليست حادة مثلما هى فى إيران ، حيث تسيطر كليًا على مشاعرهم وخيالهم . وحين يخرج الإيرانيون مشاعرهم الدفينة ويعبرون عنها بالحداد والنواح على مصرع علىّ ، والحسن والحسين ، فإنهم لا ينوحون فقط على مصرع علىّ وأبنائه ، بل يبكون أنفسهم وضياع عظمتهم القومية التى زالت للأبد ...

الإيرانيون شعب سوداوى ومكتئب بالفعل . وانهكست كآبتهم على براريهم وأرضهم - تلك الأصقاع الممتدة التى تبدو بلا نهاية ، وعلى ممراتهم الجبلية وطرفهم الممتدة بين المدن ، وعلى قراهم المنتشرة فى مساحات واسعة المبنية من الطين ، وعلى مشهد قطعان الأغنام التى تساق فى المساء فى موجات بنية رمادية إلى الآبار . وعلى حياة المدن التى تنسل كتساقط القطرات الشحيحة البطيئة على الدوام ، دون تقدم صناعى أو معرفى بالمرح ؛ كل شىء يبدو مغلفًا فى أحلام محجبة ، وكل وجه تعلوه إمارات انتظار كسول متراخ . لا تسمع أبدًا أى موسيقى فى الشوارع . إذا علا صوت أحد التتاريين بالغناء فى حظيرة استراحة على طريق نائى ، فإنه غناء يخرق الأذن بغرابة . لا يغنى علنًا إلا المنشدون من الدراويش ، وهم بدورهم لا ينشدون إلا تلك الأناشيد العتيقة القديمة عن علىّ والحسن والحسين ، أناشيد مغلفة بالموت والدموع ، وتمضى كالخمر المركز المعتق فى رءوس المستمعين ، رعب مخلوط بحزن ، أو رعب الحزن ، إلا أنه حزن محبب ومرغوب فيه ، يغلف كل الشعب .

فى أمسيات الصيف فى طهران ، ترى الرجال والنساء جالسين بلا حركة حول مجارى المياه التى تجرى فى الشوارع تحت ظلال أشجار الدردار الضخمة . يجلسون محملقين فى المياه الجارية ، لا يوجه أحدهم الحديث الآخر . يستمعون فقط إلى صوت خرير الماء فى صمت لا يقطعه إلا صوت حفيف أوراق الأشجار عند هبوب النسيم . كلما رأيتهم تذكرت مزمار داود :

« على ضفاف نهر بابل ، جلسنا وبكينا ...

يجلسون على ضفاف الماء مثل طيور ضخمة داكنة خرساء ، شاردى الذهن فى الصمت المصاحب لخرير الماء ، أفكارهم منسحبة إلى بعد مقصور عليهم . عليهم وحدهم ، وخاص بهم وحدهم ... ماذا ينتظرون ..؟ ولأى هدف ؟ وأنشد داود :

« علقنا قيثاراتنا على أشجار الصفصاف ».

[٣]

« انهض يا زيد ، هيا بنا » - وضعت رسالة على أغا فى جيبى ، ونهضت مودعًا الزغبى الذى هـز رأسـه قائـلاً : « لا يا أخى ، اترك زيد معى ، ما دمت تبخـل عـلى بحكاية مـا صـادفك فى الشـهور الماضـية ، دعه يحك لى مـا صـادفكم . أم تظن أن أصدقائك لم يعودوا يهتمون بما يحدث لك ؟ » .

الفصل العاشر

دجـــال

سرت عبر حوارى ضيقة متعرجة فى أقدم حى من أحياء المدينة : بيوته من الحجر ، بنوافذ كستنائية اللون ، وشرفات معلقة فوق الحوارى ؛ مما حولها إلى ما يشبه الدهاليز الضيقة ، يزداد ضيقها فى بعض المواضع حتى لا تسمح بمرور شخصين متقابلين إلا بالكاد ، وجدت نفسى أمام واجهة مكتبة حجرية بناها من مائة عام باحث تركى . كان الصمت العميق يسود الفناء الخارجى الذى يلى البوابة .

[١]

عبرت الفناء ذى الأرض الممهدة بأحجار مستوية متساوية الحجم وتتوسطه شجرة ساكنة فروعها بلا حركة ، دخلت القاعة المسقوفة تحيط جوانبها من الداخل خزائن كتب بواجهات زجاجية ، يصطف خلفها آلاف من المخطوطات اليدوية ، تضم أندر أنواع المخطوطات فى العالم الإسلامى . كتب ومخطوطات قديمة خلقت عظمة الحضارة الإسلامية : عظمة انقضت وابتعدت مثل رياح الأمس .

حين كنت أنظر إلى الكتب والمخطوطات ذات الأغلفة الجلدية ، كان اختلاف الحال بين مسلمى الأمس واليوم يوجعنى كلكمة مؤلمة ...

سمعت صوتًا أخرجني من شرودى : « ماذا يشغلك يا بنى ؟ ولماذا نظرة المرارة تلك المرسومة على وجهك ؟ ».

استدرت باتجاه الصوت - رأيت المتحدث جالسًا على بساط بين نافذتين ، على ركبتيه مجلد ضخم ، كان صديقى القديم ، الشيخ عبد اللّـه بن بليحيد . كانت عيناه النافذتان تحييانى بنظرة دافئة وأنا أُقبل جبهته وأجلس إلى جواره . كان ابن بليحيد من أعظم علماء نجد ، وبالرغم من تشدد الوهابيين وتزمتهم ، إلا أنه كان واحداً من أعظم العقول التى عرفتها فى البلاد الإسلامية . كانت صداقتنا عونًا كبيراً لى فى حياتى بالجزيرة العربية وأضفت كثيراً من البهجة والسعادة على حياتى ، وكانت كلمته مسموعة فى مملكة ابن سعود أكثر من أى إنسان آخر ، باستثناء الملك بالطبع . أغلق المجلد الذى كان يقرأه وأدنانى منه ، وهو يتطلع إلىَّ متسائلاً فى صمت .

قلت له : « كنت أفكر يا شيخ فى المدى الذى ابتعدنا فيه عن هذا حتى وصلنا إلى حاضرنا البائس وهوان المنزلة التى نحن عليه » ، قلت ذلك وأنا أشير إلى الكتب . أجاب الشيخ : « نحن لا نحصد يا بنى إلا ما زرعناه . كنا عظماء ذات يوم : الإسلام هو ما جعلنا عظماء . كنا حملة رسالة ، وبقدر ما أخلصنا فى حمل تلك الرسالة ، كانت قلوبنا ملهمة وعقولنا مستنيرة ؛ ولكن بمجرد أن نسينا الغرض الذى كلفنا اللّـه به من حمل الرسالة ، سقطنا ... لقد ابتعدنا كثيراً عن هذا » وأشار بدوره إلى الكتاب ، « لأننا ابتعدنا كثيراً عما علمنا إياه الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ثلاثة عشر قرنًا مضت » .

بعد فترة صمت وتأمل سألنى : « كيف يمضى عملك ؟ » ، كان يعلم أننى كنت مشغولاً بدراسات مرتبطة بالتاريخ الإسلامى المبكر .

قلت له : « أعترف لك يا شيخ أنها لا تمضى على الوجه الذى أبغيه ، لا أجد راحة فى أعماقى ولا أدرى سبباً لذلك . عدت من جديد إلى التجوال فى الصحراء » .

نظر إلى ابن بيلحيد بعيون باسمة - تلك العيون الحكيمة التى تنفذ إلى أعماق الأمور - ثم مسد لحيته المصبوغة بالحناء بأصابعه ، وقال :

« لعقلك عليك حقًا ، كما أن لبدنك عليك حقًا ... تزوج ».

كنت أدرك بالطبع أن الزواج يعد فى نجد حلاً لأى نوع من أنواع الحيرة ، لذلك لم إستطع أن أمنع ضحكة عالية خرجت منى : « ولكنك يا شيخ تعرف أنى تزوجت منذ عامين ، وولد لى ابن هذا العام ».

هزّ الرجل العجوز كتفيه وقال : « إذا كان قلب الرجل مستريحًا مع زوجه ، فإنه يقضى فى بيته أغلب وقته ، وأنت لا تمكث فى البيت ... وعدا ذلك لن يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية » (كان هو ذاته له ثلاث زوجات ، وقيل لى : إن أصغرهن ، التى تزوجها من شهرين تبلغ بالكاد السادسة عشر ، مع أنه تجاوز السبعين) .

استأنفت الحديث متسائلاً : « كما تقول ربما لا يضر المرء أن يتخذ لنفسه زوجة ثانية ، ولكن ماذا عن الأولى ؟ ألن يضرها ذلك ؟ ».

رد قائلا : « يا بنى ، لو كانت المرأة تستحوذ على قلب زوجها كله ، لن يفكر ولن يحتاج للزواج من أخرى . أما إن لم يكن جماع قلبه معها - هل يفيدها أن تحتفظ بنصف قلبه ونصف مشاعره ؟ ».

لم أجد بالطبع إجابة أرد بها على ذلك . فالإسلام يوصى بالتأكيد بالزواج من واحدة ، إلا أنه يسمح بالزواج من أربع زوجات فى أحوال استثنائية ، وقد يسأل امرئ لماذا لم يمنح الإسلام الحق نفسه للمرأة أيضًا ، إلا أن الإجابة بسيطة : فبغض النظر عن حقيقة الحب والعواطف الذى دخل حياة البشر على مدى تطور الجنس البشرى ، فإن السبب « البيولوجى » الكامن وراء الرغبة الجنسية فى كلا الجنسين هو التناسل ، وبينما يكون بقدرة الأنثى أن تحمل طفلاً فى المرة الواحدة من رجل واحد فقط ، وتحمل الطفل فى أحشائها لمدة تسعة أشهر قبل أن يصبح لديها القدرة على حمل طفل أخر ، نجد أن طبيعة خلق الرجل مختلفة حتى إنه من الممكن أن يهب طفلاً فى كل مرة يضاجع فيها امرأة . وهكذا نجد أن طبيعة الخلق لن تضيف شيئًا إذا وهبت المرأة غريزة وحق تعدد الأزواج ، نجد أن غريزة التعدد لدى الرجل من وجهة نظر التناسل

مبررة ومشروعة . ومن الواضح أن العنصر البيولوچى المرتبط بالمتعة البدنية واحد - ولا يوجد اختلاف على أنه أهم عنصر فى شئون الحب : أى عنصر أساسى وهو المحدد فى شئون مؤسسة الزواج الاجتماعية . ومع الحكمة التى تأخذ فى اعتبارها الكامل الطبيعة البشرية ، فقد أخذ التشريع الإسلامى فى حسبانه الوظيفة الاجتماعية - البيولوچية للزواج (والذى يشمل بالطبع العناية بالنسل) ، لذلك سمح للرجل بالزواج من أكثر من امرأة ، بينما لم يسمح للمرأة بالزواج من أكثر من رجل ، وحيث إن الجوانب العاطفية لا يمكن قياسها فإنها خارج نطاق التشريع ؛ ولذا تركت لتقييم أطراف العلاقة الزوجية ؛ أى أنه إذا كان هناك حب عميق ومتبادل ، فإن مسألة الزواج بأخرى لا ترد بذهنه ؛ وحين لا يجد الرجل أنه يحب زوجه من كل قلبه ومشاعره ولا يريد أن يفقدها لأسباب العناية بالنسل ، فبإمكانه الزواج من أخرى ، مع موافقة الزوجة الأولى بمشاركة امرأة أخرى لها فى زوجها ، وإن لم توافق على ذلك ، فمن حقها الحصول على الطلاق ويكون لها حرية الزواج مرة أخرى من رجل آخر . على كل الأحوال - حيث إن الزواج فى الإسلام ليس مقدسًا ، بل تعاقد مدنى - فإن حق الطلاق متاح دائمًا لطرفى العلاقة . ومشاعر العار التى تصاحب الطلاق بدرجة أو أخرى فى المجتمعات غير الإسلامية غير موجودة فى الإسلام (مع استثناء المسلمين الهنود ، الذين تأثروا فى هذا الشأن بتواجدهم على مدى قرون فى مجتمع هندوسى يحرم الطلاق تحريمًا مطلقًا) .

وفى الوقت الذى تتيح فيه الشريعة الإسلامية لكل من الرجال والنساء حرية الزواج والطلاق ، فإنه يعد الزنا من أشنع وأبشع الكبائر ، فمع تلك الحقوق ، لا يوجد تبرير عاطفى ولا حسى لمقترف كبيرة الزنا ، وقد كان لتخلف المسلمين على مدى قرون طويلة أثره على التخلف الاجتماعى الذى جعل من الصعب على المرأة أن تطالب بحقها فى الطلاق بالحرية التى قصدها التشريع : لذلك ، لا يلام الإسلام فى عزلة المرأة على مدى قرون فى مجتمعات إسلامية كثيرة ، بقدر ما تلام العادات الاجتماعية المختلفة ، ولا نجد فى القرآن ولا فى حياة الرسول أى محاذير على ممارسة المرأة لحقها فى طلب الطلاق ، إلا أن تلك الشوائب الاجتماعية تسربت إلى حياة المسلمين من المجتمع البيزنطى .

قطع الشيخ ابن بليحيد استغراقى فى التفكير بفهم العراف للنفس البشرية قائلاً : « لا حاجة بك إلى اتخاذ قرار متسرع . ستتخذ ذلك القرار يا بنى . حين يتوجب عليك اتخاذه وتشعر بالحاجة إليه ».

[٢]

ساد الصمت أرجاء المكتبة ؛ كنت والشيخ ابن بيلحيد بمفردنا فى الغرفة المسقوفة . سمعنا صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب من مسجد صغير قريب من المكتبة ، وبعد لحظة ارتفع الآذان من المآذن الخمس لمسجد الرسول التى لا نراها من موضعنا وترتفع فى فخار حول القبة الخضراء للمسجد .

بدأ مؤذن إحدى المآذن الخمس فى ترديد : اللّـه أكبر فى صوت عميق خفيض .. وقبل أن ينهى تكبيراته الأولى بدأ المؤذن فى المئذنة القريبة منا فى الأذان بنغمة صوتية أعلى قليلاً من الأول : اللّـه أكبر ، اللّـه أكبر ، وبينما كان مؤذن الثالثة يرتفع صوته بالتكبير بتباطؤ . كان الأول قد انتهى من التكبير ، وبدأ – والآن تصاحبه التكبيرات الأولى من المئذنة الرابعة والخامسة – النداء الثانى : أشهد أن لا إله إلا اللّـه – بينما كانت أصوات المؤذنين من المئذنة الثانية ثم الثالثة تنزلق على أجنحة صوتية ناعمة .. أشهد أن محمد رسول اللّـه . بالطريقة نفسها كان كل نداء يتكرر مرتين من كل من المؤذنين الخمسة ، واستمر الأذان يتتابع وتتداخل أصواته ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، بدا كل صوت وكأنه يوقظ النداء الذى يليه ثم يجتمعون معًا بعد ذلك ، ليتلاشى ، ويرتفع من جديد عند موضع آخر لمؤذن آخر ، وهكذا حتى نهاية الأذان : اللّـه أكبر ، اللّـه أكبر ، اللّـه أكبر، لا إله إلا اللّـه .

ذلك التمازج الصوتى الفريد بين مؤذنى المآذن وتوافقهم وتوحدهم من المآذن المختلفة يشكل أصواتًا إنسانية فريدة . عند الأذان يخفق قلبى ويقفز إلى حلقى فى جب

مثير لهذه المدينة وأصوات مؤذنيها ، بدأت أدرك كل تجوالى لم يكن له إلا هدف واحد : وهو أن أصل وأحقق المعنى من ذلك الأذان ...

قال الشيخ ابن بليحيد : « هيا بنا إلى المسجد لنصلى المغرب ».

* * *

كان مسجد الرسول قد أصبح على وضعه الحالى فى منتصف القرن التاسع عشر ، إلا أن بعضاً منه يعود إلى عصور أقدم – بعضه يعود إلى عصور المماليك المصرية ، وأجزاء أخرى أقدم من ذلك .

كانت ساحة المسجد ، التى تحتوى على قبر الرسول ، تشغل المساحة نفسها التى شيدها عليها خليفة المسلمين الثالث ، عثمان رضى اللّـه عنه ، فى القرن السابع الميلادى . وفوق تلك المساحة تنهض القبة الكبيرة الخضراء ، مزخرفة من الداخل وعليها آيات قرآنية ، وتحمل السقف صفوف عديدة من أعمدة الرخام وتقسم الساحة الداخلية تقسيماً متناغماً ومتناسقاً . وتغطى الأرض الرخامية أبسطة نفيسة ، وفوق المحاريب الثلاثة مصابيح زيتية من البرونز ، وكل محراب عبارة عن تجويف حائطى باتجاه مكة : واحد منهم للإمام الذى يؤم المصلين فى صلاة الجماعة ، ومئات المصابيح معلقة فى سلاسل نحاسية طويلة ، وهى مصابيح من البللور الزجاجى ، فى داخل كل منها مصباح زيتى يضاء بزيت الزيتون وتنشر كلها فى الليل ضوءاً رقيقاً على صفوف المصلين . أثناء النهار يمتلئ المسجد بنور أقرب إلى الأخضر وتجعله يشبه قاع البحيرة ؛ ويبدو المصلين بأقدامهم العارية كأنهم يصلون فى ماء ، فى حين يأتى صوت الإمام من أول ساحة المسجد خافتاً بلا سدى .

أما قبر الرسول فهو غير مرئى ، وتخفيه ستائر سميكة محاطة بأسوار برونزية أقامها فى القرن الخامس عشر الميلادى السلطان المملوكى المصرى قايتباى . وفى الحقيقة ، لا توجد مقبرة بالمعنى المفهوم للكلمة . فالنبى قد دفن فى حفرة فى باطن فى

الغرفة نفسها فى المنزل البسيط الذى عاش به ومات به . فى أزمنة لاحقة تم بناء سور بلا باب حول المنزل ، وبذلك تم عزل المنزل عن العالم الخارجى . كان المنزل فى حياة الرسول ملاصقًا للمسجد ؛ وعلى مر العصور ، ثم توسيع المسجد حتى شمل المنزل والمدفن معًا .

صفوف الأبسطة تغطى الباحة الداخلية للمسجد ؛ وصفوف من البشر جالسين يقرأون القرآن ، أو يتحاورون ، وبعضهم صامت فى انتظار إقامة صلاة المغرب . كان ابن بليحيد مستغرق تمامًا فى صلاة صامتة .

من على بعد ، بالقرب من المحراب ، ارتفع صوت قارئ يتلو آيات القرآن كما يحدث دائمًا قبل صلاة المغرب . كان يتلو فى ذلك اليوم « سورة العلق » ، وهى أول ما نزل على محمد من قرآن – والتى تبدأ بآيات : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ بتلك الكلمات نزل وحى اللّــه لأول مرة على محمد فى غار حراء بالقرب من مكة .

كان محمد يتعبد وحيدًا ، كما اعتاد أن يفعل ، يصلى للحقيقة بقلبه ، حين ظهر له فجأة ملاك . أمره قائلاً : « اقرأ » . كان محمد شأنه شأن أهل عصره وموطنه لم يتعلم أبدًا القراءة ، وفضلاً عن ذلك ، لم يعرف ما الذى يريده الملاك أن يقرأ ، أجابه فى روع : « ما أنا بقارئ » . حينئذ ، ضمه الملاك ضمة قوية شعر محمد معها أنه فقد قواه ؛ ثم أطلقه الملاك وأعاد عليه الأمر : « اقرأ » ، ومرة ثانية يجيبه محمد : « ما أنا بقارئ » ، فضمه الملاك ضمة أخرى حتى خارت قواه وظن أنه ملاق حتفه ؛ ثم أطلقه ، ومرة ثالثة يأتيه الأمر كالرعد : « اقرأ » ، وحين أجابه محمد للمرة الثالثة فى روع : « ما أنا بقارئ » ، قال الملاك :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وهكذا ، بإشارة ضمنية من القرآن إلى وعى البشر وفكرهم ومعرفتهم ، بدأ نزول القرآن على محمد ، واستمر نزوله على مدى ثلاثة وعشرين عامًا ، حتى توفى الرسول فى المدينة فى سن الثالثة والستين .

إن قصة تجربته الأولى مع تجلى الملاك له ، تتذكر المرء بشكل ما ، بمصارعة يعقوب لملاك الرب كما جاء فى سفر التكوين من التوراة . ولكن بينما قاوم يعقوب الملاك واشتبك معه فى صراع ، أسلم محمد نفسه لضم الملاك له فى خشية ورهبة وفزع حتى « خارت قواه » ولم تتبق فيه قدرة إلا على سماع صوت لا يستطيع معه أن يحدد إن كان الصوت يأتى من خارجه أم من داخله . لم يكن يعلم أن عليه منذ تلك اللحظات أن يكون ممتلئًا وخاليًا فى الآن نفسه : ممتلىء كبشر ، فالبشر تملأهم الاحتياجات والرغبات البشرية والوعى بحياتهم وذاتهم ، وفى الآن نفسه أداة خالية متلقية لتعاليم الرسالة من الوحى . لقد تجلت أمامه الحقائق غير المرئية للحقيقة الأزلية – الحقيقة التى تضفى وحدها قيمة ومعنى على كل المدرك وكل الحادث فى الوجود ؛ طلب منه الملاك أن « يقرأ » ما يدركه منها على كل البشر ، فقد يعلم منها الإنسان « مالم يعلم » ، وما لا يمكن أن يعرفوه بذاتهم .

ارتاع محمد من المضامين العظيمة التى تضمنتها تلك الرؤية فى أول آيات نزلت عليه ، كان مثله مثل موسى أمام العليقة المشتعلة فى البريَّة ، يشعر أنه دون ما يطلب منه وأنه لا يستحق وضه النبوة السامى ويرتعد أمام فكرة أن اللَّـه اختاره هو دون غيره من البشر . وقيل : إنه عاد مرتجفًا إلى مكة ، ودخل بيته وهو ينادى زوجه خديجة قائلاً وهو يرتعد : « زملينى ، زملينى » ، كان يرتعد مثل غصن شجرة فى مهب الريح . فدثرته بدثار ، حتى سكن روعه . ثم أخبرها بما وقع له ، وقال : « أنا خائف » ، إلا أن خديجة (رضي الله عنها) بوضوح رؤيتها الذى لا ينتج إلا عن حب ، أدركت على الفور أنه خائف من عظم المسئولية التى ألقيت على عاتقه ؛ وقالت له مطمئنة لخوفه : « أَبْشِر ، فواللَّـه لا يُخزيك اللَّـه أبدًا ، وواللَّـه إنَّك لتصل الرَّحِم ، وتصدق الحديث ، وتؤدِّى الأمانة ، وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضَّيف ، وتُعين على نوائب الحق » ، ثم انطلقت به إلى ورقة وهو ابن عم لخديجة كان يدين بالمسيحية ؛ وكان يقرأ الكتاب المقدس بالعبرية ؛ كان ورقة بن نوفل فى ذلك الوقت رجلاً مسنًا . وكان بصره قد كُف . قالت خديجة لورقة : « اسمع من ابن أخيك » ، وحين أعاد عليه محمد ما وقع له ،

رفع ورقة ذراعيه فى ورع وخشية وقال له : « هـذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران ، ليتنى فيها جذع ! ليتنى أكون حيًا حين يخرجك قومك ! » ، سأله محمد فى دهشة ! « أمخرجى هم ؟ » قال ورقة : « نعم ، إنه لم يجىء رجل قط بما جئت به إلا عودى ».

وبالفعل ، عاداه قومه على مدى ثلاثة عشر عامًا ، حتى هجر مكة إلى المدينة كان أهل مكة غلاظ الأكباد قساة القلوب .

* * *

وعلى أى حال ، هل من العسير أن نتخيل قسوة القلب التى أظهرها أهل مكة حين أنبأهم محمد بدعوته أول مرة ؟ كانوا مجردين من أى دوافع روحية ولا يعرفون إلا النوازع المادية والحسية : لم يؤمنوا إلا بأن الحياة الأفضل لا تتحقق إلا بكسب المال والمزيد من المال . مثل أولئك الناس تبدو فكرة تسليم أنفسهم بلا مساومة إلى دعوة أخلاقية ودينية – فكلمة إسلام تعنى حرفيًا الاستسلام والتسليم لإرادة اللّـه – دعوة مستحيلة لا يمكن قبولها . عدا ذلك ، كانت دعوة محمد تهديدًا مباشرًا للنظام القائم ولتقاليد القبائل وترتيب السلطة ، وكان كل ذلك عزيزًا على أهل مكة . وحين بدأ بالدعوة إلى التوحيد وأعلن أن عبادة الأصنام إثم عظيم ، فإنهم لم يروا فى ذلك تهجمًا فقط على معتقداتهم الموروثة عن أجدادهم وأسلافهم ، بل رأوا فيها محاولة لتدمير نظامهم الاجتماعى . على وجه الخصوص ، لم يعجبهم ولم يرضهم تدخل الإسلام فى شئونهم « الدنيوية » التى اعتبروا أنها خارج نطاق الدين والعبادات – مثل الشئون الاقتصادية ، والمساواة بين البشر ، والسلوك الاجتماعى العام – وكان تدخل الدين الجديد فى تلك الجوانب لا يتفق مع مصالحهم المادية ، ونسق حياتهم كما يعيشونه ، ومصالح قبائلهم . بالنسبة لهم ، كانت العقيدة جانبًا شخصيًا – مسألة موقف فردى أكثر من كونها سلوك اجتماعى .

كان ما يرونه على النقيض تماماً لما دعى إليه النبى العربى من إيمان . كانت دعوته تشمل الممارسات الاجتماعية والمؤسسات الاجتماعية والسلوكيات الاجتماعية ، وكانت تصيبه الدهشة حين يقولون له إن الدين ليس إلا وعياً شخصياً فقط ولا دخل له بالسلوك الاجتماعى . كان ذلك الجانب من دعوته ما كان مكروهاً لهم أكثر من أى جانب عداه . ولو لم تتدخل العقيدة التى يدعو إليها محمد فى الجوانب الاجتماعية ، ربما كانت عداوتهم ورفضهم للدعوة أقل حدة .

بلا شك تضايقوا من الدعوة إلى الإسلام لأن مضامينه الدينية كانت تتناقض ومعتقداتهم الوثنية ؛ إلا أنه كان من الممكن لهم أن يؤمنوا بها بعد بعض المقاومة وبعض التذمر – تماماً كما استسلموا وتوائموا مع الدعوات الفردية لاعتناق المسيحية قبل ذلك – إذا كان الرسول قد اتبع نمط التبشير المسيحى وكرس نفسه فقط لدعوة الناس إلى عبادة اللّـه ، وإلى الصلاة له من أجل خلاص نفوسهم ، وأن يسلكوا سلوكاً حسناً فى أمورهم الشخصية . إلا أنه لم يتبع النمط المسيحى ، ولم تقتصر دعوته على الإيمان باللّـه ، ولا القيم والمعنويات الفردية . كيف يجرؤ ؟

إن ربه يأمره أن يقول فى صلاته : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة » ، لقد سبقت « آتنا فى الدنيا حسنة » ، ثم تبعتها « وفى الآخرة حسنة » ، وذلك لأن الحاضر يسبق المستقبل ، وثانياً ، لأن الإنسان مكون من مركبات تتطلب الإشباع البدنى الدنيوى قبل أن يكون لديه قدرة على التطلع إلى نداء الروحانيات وخير الآخرة . لم تكن دعوة محمد تدعو إلى جوانب روحية منفصلة ومستقلة عن حياة البشر المادية الدنيوية : كانت الدعوة ترتكز كلياً على مفهوم : أن الروح والبدن ليسا إلا وجهان للوجود البشرى . لم تقتصر دعوة محمد على الاهتمام بالجانب الروحى وحده لدى أفراد منفصلين ، وكانت دعوته تهدف إلى منهج اجتماعى يضمن لك فرد من أفراد المجتمع الإسلامى أكبر قدر من الإشباع البدنى والمادى ، وبذلك يوفر له أسباب النمو والتطور الروحى .

بدأ يدعو الناس إلى أن أعمالهم جزء من الإيمان : فاللّـه لا يأمر البشر بالإيمان فقط ولكن يأمرهم أيضًا بالعمل الطيب . ودعا بقوة إلى مساندة الضعيف إذا تعرض لظلم ممن هو أقوى منه . ودعا إلى ما لم يسمع به أهل مكة من قبل من أن المرأة والرجل متساويان أمام اللّـه ، وأنهما مكلفان بالتساوى ؛ ومضى إلى ما هو أبعد من ذلك حين أعلن – وهو ما أرعب كل كفار مكة – أن للمرأة حقوق ، لا بانتسابها للرجل كأم أو أخت أو زوجة أو ابنة ، بل ككيان إنسانى مستقل بذمته المالية ، أى أن تكون لها ملكيتها الخاصة ، وأن تقوم بالأعمال المالية والتجارية بنفسها ولنفسها ، وأن تكون مسئولة عن نفسها فى أمور زواجها . وأدان الميسر والخمور وحرمهما ، لأنهما كما ذكر القرآن : « رجس من عمل الشيطان ».

ونهى الإسلام عن استعباد بشر لبشر ؛ ونهى عن الربا ، والاحتكار والمتاجرة باحتياجات الناس الأساسية – وهو ما يسمى فى عالمنا المعاصر « المضاربة » ؛ كما نهى عن الحكم بصحة السلوكيات أو خطئها متأثرين بمنزلة الفرد من قبيلة أو أمة . ودعا إلى أن الشرعية الوحيدة – المقبولة أخلاقيًا – تهدف إلى مصلحة الجماعة التى تسبق مصلحة الفرد ، وأنها لا تتحقق إلا بحرية البشر وقبولهم المشترك والواعى للهدف من الحياة المعتمد على مقاييس أخلاقية .

لذلك أصر النبى على إعادة النظر فى كل المفاهيم الاجتماعية والتى كانت حتى ذلك الوقت منيعة وفوق أى مراجعة ، وهكذا ، كما نقول فى عصرنا « أدخل الدين فى السياسة » ، وقد كان ذلك توجهًا ثوريًا فى ذلك الوقت .

كان مشركو مكة ، شأنهم شأن البشر فى كل مكان وزمان ، على اقتناع تام بأن ما نشأوا عليه من نظم اجتماعية وعادات فكرية وسلوكيات ، هى الأفضل . لذلك كان طبيعيًا أن يرفضوا تدخل الدين الجديد فى نمط العلاقات القائمة ، أى رفضوا أن يكون الوعى والإيمان بوحدانية اللّـه مرتبطًا بتغيير اجتماعى جذرى ، فاتهموا دعوته بأنها غير أخلاقية ، وتحريضية ، و « تناقض كل أعراف الملكية السائدة » . وحين تأكد لهم أنه ليس مجرد حالم ، بل يعرف كيف يلهم الناس ، لجأوا إلى مواجهته بالعنف وراحوا يؤذونه هو وأتباعه ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ...

بطريقة أو بأخرى ، تحدى كل الأنبيـاء « القيم الراسخة » التى كانت سائدة فى عصورهـم ، لذلك تجد أنهم قد سخر منهم جميعًا واضطهدوا من أقوامـهم - وآخرهم وخاتمهم محمد ، مازال يسخر منه فى الغرب حتى اليوم .

[٣]

بمجرد الانتهاء من صلاة المغرب ، أحاط البدو بالشيخ ابن بيليحيد ، كانوا من بدو نجد وأبناء المدن الراغبين فى الاستفادة من علمه وحكمته ؛ بينما كان يحب أن يستمع إلى تجارب الناس وما يواجهونه من مشاكل وما يرونه فى أسفارهم البعيدة . لم يكن السفر إلى مناطق بعيدة بمستغرب على أهل نجد ؛ بل كان عادة من عاداتهم حتى إنهم يطلقون على أنفسهم « أهل الشداد » أى أهل سروج الجمال - وسرج الجمل لكثيرين منهـم آلف من الفراش - ولابد أن سـرج الجمـل كان أكثـر ألفة لذلك الشـاب من قبيلة حرب الذى كان قد انتهى بالكاد من حكاية ما صادفه بالعراق ، حيث رأى لأول مرة « الفرنجة » من الأوروبيين (ويدينون بذلك الاسم إلى الفرانك الذين عرفهم العرب أثناء الحروب الصليبيـة) .

سـأله الشاب : « قل لى يا شيخ . لمـاذا يضع الفرنجة قبعات على رءوسهم تظلل أعينهم ؟ كيف يمكن أن يروا السماء ؟ ».

أجاب الشيخ وهو يغمز لى بعينه : « لأنها آخر ما يودون رؤيتـه ، ربمـا يخشون أن تذكرهم السماء باللّــه ، وهم لا يريدون أن يتذكروه خـلال أيام الأسـبوع ، ويتـذكرونه فى آخره فقط ».

ضحكنا جميعًا ، إلا أن البدوى الشـاب كان مصرًا فى بحثه عن المعرفة فسـأل من جديد : « ولمـاذا يكون اللّــه كريمًا مـعهم كل هـذا الكرم ويهبـهم كل هـذه الثروات ويضـن بها على المؤمنين ؟ ».

رد الشيخ بليحيد : « آه ، الأمر سهل يا بنى ، إنهم يعبدون الذهب . ولذلك فإلاههم جيبهم – ولكن صديقى هنا » - ووضع يده على ركبتى « يعلم عنهم أكثر مما أعلم فقد أتى من بينهم ، وأخرجه اللّـه – جلت قدرته – من ذلك الظلام إلى نور الإسلام ».

التفت إلىّ البدوى الشغوف بالمعرفة وسألنى : « هل ذلك صحيح يا أخى ، هل كنت من الفرنجة ؟ » وحين هززت رأسى بالإيجاب ، وجدته يهمس قائلاً : «تبارك اللّـه ، تبارك اللّهه الذى يهدى من يشاء .. قل لى يا أخى ، لماذا لا يهتم الفرنجة بذكر اللّـه ؟ » .

أجبته : « تلك قصة طويلة ، لا يمكن شرحها بكلمات قليلة . كل ما أستطيع أن أقوله لك بإيجاز أن عالم « الفرنجة » أصبح عالم « الدجال » ، المخادع ، المبهر ، هل سمعت حديث النبى عن أنه فى آخر الزمان سيتبع أكثر الناس الدجال ، معتقدين إنه اللّـه ».

وبينما كان يتطلع إلىّ والتساؤل على وجهه ، رويت له ، بعد أن رأيت علامات الاستحسان على وجه الشيخ ابن بليحيد ، نبوءة النبى عن ظهور ذلك المخلوق الغامض ، « الدجال » ، والذى سيأتى بعين واحدة ، ولكنه وُهبَ قُوَى خاصة اختصه اللّـه بها ، حتى إنه سيرى بعينه الواحدة كل ما يحدث وما يجرى مهما بَعُد موضعه ، ويسمع بأذنيه أى حديث مهما بعد فى أركان الأرض القصية ؛ ويكون بإمكانه الطيران والتحليق حول الأرض ، وسيكشف عن كنوز من الذهب والفضة من تحت أعماق الأرض ، وسيُسقط الفىء ويجعل النبات ينمو سريعًا بأمر منه ، سيُميت ويحيى حتى إن كل ضعيفى الإيمان سيعتقدون أنه اللّـه وسيسجدون أمامه ويعبدونه . لن يعرفه إلا المؤمنون أقوياء الإيمان ويتمكنون من قراءة ما كتب على جبهته بحروف من نار : « كافر باللّـه » ، سيعرف أولئك فقط أنه مخادع ، وقد جاء ليختبر قوة إيمانهم باللّـه » .

بينما كان البدوى الشاب ينظر إلىّ مشدوهًا وهو يتمتم : « أعوذ باللّـه » ، استدرت إلى الشيخ ابن بليحيد وقلت : « أليس ذلك رمزًا يا شيخ ، ووصف ينطبق على الحضارة الغربية التقنية المعاصرة ؟ إنها « ذات عين واحدة » ، أى لا تنظر إلا إلى جانب واحد من الحياة – وهو التقدم المادى – ولا تعى جانبها الروحى . وبمعاونة

مخترعاتها العلمية العجيبة تمكن الإنسان من أن يسمع ويرى ما فى آخر الأرض بما يفوق قدرته المباشرة على الرؤية والسمع ، ويغطى مساحات شاسعة من الأرض فى زمن بسيط وسرعة كبيرة . وبمعارف الحضارة الغربية المعاصرة « تسقط الأمطار وتنمو النباتات أسرع من معدلاتها العادية » ، كما تكشف عن الثروات الخبيئة بباطن الأرض ، وعقاقيرها الطبية تشفى مَنْ أشرف على الهلاك ، بينما تدمر الحروب والجوانب العلمية المرعبة الحياة على الأرض ، وبلغ تقدمها المادى قوة تشكل إغراءً وبريقًا حتى إن ضعيف الإيمان يعتقد أنها القوة الحقيقية فى الوجود أو أنها اللّه ، إلا أن مَنْ ظلوا على إيمانهم بخالقهم يعرفون بوضوح أنهم إن عبدوا « الدجال » فإنهم فى الوقت ذاته يُنكرون وجود اللّه الخالق الواحد ... ».

صاح الشيخ ابن بيلحيد : « أصبت يا محمد ، أصبت » قال ذلك وهو يدق براحة يده على ركبتى فى حماس : « لم ترد إلى ذهنى مثل تلك الرؤية للدجال ؛ إلا أنك مُحْق ، فبدلاً من أن يوقن البشر أن تقدمهم وتقدم العلوم هبة من اللّه ، راحوا يعتقدون بشكل متزايد فى حماقة ، أن ذلك التقدم غاية فى ذاته ، وأنه يستحق العبادة .

* * *

فعلاً – فكرت بينى وبين نفسى – سخر الإنسان الغربى نفسه لعبادة « الدجال ». لقد فقد من زمن طويل كل براءة وفطرة وكل تكامل داخلى مع الطبيعة . أصبحت الحياة لغزًا أمامه . أصبح متشككًا ، وبذلك عزل نفسه عن مجتمعه من البشر وأصبح يعيش فى عزلة داخلية . وحتى لا يفنى فى تلك الوحدة ، فإنه يسعى إلى قهر الحياة والتغلب عليها بوسائل خارجة عن فطرته . لم تعد حقيقة أنه حى تهبه أمانًا داخليًا : لابد أن يصارع على الدوام من أجل مزيد من الحياة ، بمعاناة وكد ، من لحظة إلى لحظة من أجل مزيد من الحياة كأنها غاية فى ذاتها . ولأنه فقد كل تكيف روحى لما

فوق المادة ، قرر أن يحيا بلا بُعد روحى ، ودفعه ذلك إلى اختراع وسائل آلية ميكانيكية تكون حليفة له ونما عنده الميل المحموم اليائس إلى التقنية والتمكن من قوانينها ووسائلها . راح يخترع كل يوم آلات جديدة ، ويضفى على كل منها بعضًا من روحه ويدعها تقاتل بدلاً منه ليستمر وجوده زمنًا أطول . إنهم يفعلون ذلك ؛ إلا أن ذلك يخلق لهم على الدوام احتياجات جديدة ، ومخاطر جديدة ، ومخاوف أكثر تدفعه إلى اختراع حلفاء جدد مصنوعة ، فى عطش لا يرتوى أبدًا . لقد فقد جانبه الروحى فى العجلات الدائرة للآلات المنتجة ، وفقدت الآلات الهدف الرئيسى منها - أن تكون حامية ومخصبة للحياة الإنسانية - وتحولت إلى آلهة بذاتها ، آلهة مفترسة من الصلب . ويبدو أن مبشرى ودعاة ذلك الإله لا يرتوى لا يعون أن سرعة تطور التقنية الحديثة ليست فقط نتيجة لنمو العقلى ، بل نتيجة لليأس الروحى ، وأن تلك المنجزات العظمى التى يعتقد أنه يقهر بها الطبيعة ليست فى حقيقتها إلا ميل دفاعى : فخلف واجهاتها البراقة يكمن الخوف من المجهول .

فشلت الحضارة الغربية فى تحقيق توازن متآلف بين حاجات الإنسان الدنيوية وتطلعاته الروحية . ألغى الغرب القيم الروحية الأخلاقية السابقة دون أن يكون قادرًا على تقديم أى نسق أخلاقى وروحى آخر . أخضع كل شيء للسببية العقلية . وبالرغم من كل التقدم فى مجال التعليم ، لم تقدر الحضارة الغربية على كبح ميل الإنسان الأحمق فى السقوط فريسة للشعارات والنظريات الاقتصادية ، مهما كان عبثيتها التى يعتقد الديماجوجيون الفوضويون أنها ملائمة . وتبنت الحضارة الغربية مفهوم تقنية وتنظيم الفنون الرفيعة - إلا أن أمم الغرب تظهر على الدوام عجزها عن السيطرة على القوى التى أطلق علماؤهم عقالها ، ووصلوا إلى مرحلة أصبحت فيها القوة العلمية المطلقة ، ماضية يدًا بيد مع الفوضى العالمية المتزايدة . ومع غياب أى قيم دينية وروحية ، أصبح المواطن الغربى غير مستفيد أخلاقيًا وروحيًا من نور المعرفة الهائل الذى يطرحه العلم ، ولذلك ينطبق عليهم ما ذكره القرآن :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (صدق الله العظيم)

إلا أنهم فى عجرفة عمائهم ، يعتقدون عن اقتناع أن حضارتهم هى التى ستنير العالم وتحقق له السعادة ... فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فكروا فى ترويج الدين المسيحى فى جميع أنحاء العالم ؛ إلا أن حماسهم الدينى قد فتر حتى إنهم أصبحوا بعد ذلك يعتبرون الدين موسيقى خلفية ملطفة فى حياة البشر . يسمح له بملازمة الحياة لا التأثير فيها فى سعيه للحياة « الحقة » - وبدأوا يروجون بدلاً من الدين ، التعاليم المادية لنمط « الحياة الغربية » : وهو الإيمان بأن كل المشاكل البشرية يمكن حلها فى المصانع والمعامل وعلى مكاتب المحللين الاقتصاديين والإحصائيين . وبذلك كله تتحقق نبوءة « الدجال » ...

[٤]

ساد الصمت لفترة طويلة . ثم تحدث الشيخ من جديد : « هل كان تحققك من معرفة الدجال هو ما دفعك إلى اعتناق الإسلام يا بنى ؟ ».

قلت : « بشكل ما كان كذلك على ما أظن ؛ إلا أن ذلك كان الخطوة الأخيرة » ، قال : « نعم ، الخطوة الأخيرة ، لقد إخبرتنى ذات مرة بقصة إيمانك بالإسلام ، ولكن متى وكيف أشرق فى ذهنك لأول مرة أن الإسلام هو هدفك ومبتغاك ؟ ».

قلت : متى ؟ دعنى أتذكر ... أظن أن ذلك كان فى يوم شتوى فى أفغانستان حين فقد جوادى حدوة ، وبحثت عن حداد فى قرية تبعد عن الطريق الذى كنا نسير عليه ؛ فى تلك القرية قال لى رجل : « ولكنك مسلم ، أنت فقط لا تعرف ذلك » .. كان ذلك قبل إسلامى بثمانية أشهر .. كنت فى ذلك الوقت فى طريقى من مدينة « حيرات » إلى مدينة « كابول » ...

* * *

كنت فى طريقى من مدينة « حيرات » إلى مدينة « كابول » ، كنا على جيادنا ، أنا ، وإبراهيم التتارى ، وأحد الجنود الأفغان ، كنا نقطع وقتها سهول وممرات منطقة

هندو – كوش المغطاة بالجليد فى وسط أفغانستان . كان الجو شديد البرودة والجليد الأبيض يغطى كل الجهات وتنهض فى كل الجهات جبال شاهقة الارتفاع ، جبال سوداء وأخرى بيضاء من تراكم الجليد عليها .

كنت فى ذلك اليوم أشعر بالأسى والسعادة فى آن . شعرت بالأسى لانفصال الناس الذى عشت بينهم ، بأستار حجب سميكة داكنة عن نور العقل والقوة والنماء الذى يمكن أن يوفره لهم إيمانهم بالإسلام ، وكنت سعيداً لاقترابى من نور ذلك الإيمان ، الذى رأيته قريباً منى ومن فكرى وأراه كما أرى تلك الجبال السوداء والبيضاء – كان قريباً منى حتى أكاد أمسكه بيدى .

بدأ الجواد يعرج وظهر صوت رنين عند حافره : كانت حدوة أحد حوافره توشك على السقوط ولم تعد مثبتة إلا بمسمارين فقط .

سألت مرافقنا الأفغانى : « هل توجد قرية قريبة يمكن أن نجد بها حداداً ؟ » أجاب : « قرية دح – زانچى على مسافة فرسخ من هنا ، بها حداداً ، وحكيم (حاكم) حزاراچات له حصن بها ».

وهكذا ، توجهنا إلى دح – زانچى فوق جليد ناصع البياض ، سرنا ببطء حتى لا أوذى الجواد .

كان الحكيم ، أو حاكم الإقليم ، رجلاً شاباً قصير القامة بوجه مرح ، كان ودوداً وأسعده أن يكون لديه ضيف أجنبى ، فقد كان يشعر بالوحدة فى حصنه المتواضع . وبالرغم من أنه كانت تربطه علاقة قرابة وثيقة بالملك أمان اللـه ، ملك أفغانستان فى ذلك الوقت ، إلا أنه كان من أكثر من قابلت تواضعاً فى كل أفغانستان . وأصر على استضافتى يومين .

فى مساء اليوم الثانى جلسنا حول غذاء فخم وفير كالمعتاد . بعد الغداء ، قام رجل من القرية بالترفيه عنا بأغانى محلية غناها بمصاحبة عزف على عود بثلاثة أوتار .

غنى بلغة الباشتو - وهى لغة لم أفهم منها شيئًا - إلا أن بعض الكلمات الفارسية كانت تنتشر بين كلمات الأغاني بحيوية ، وكانت الغرفة دافئة أرضها مغطاة بالأبسطة وتيار برد ثلجي يأتي من النافذة . غنى على ما أذكر عن معركة داوود وجوليات - عن الإيمان حين يواجه قوة غاشمة - وبالرغم من عدم تمكنى من متابعة كلمات الأغنية ، إلا أن مفهومها كان واضحًا فى ذهنى ، بدأت الأغنية هادئة متواضعة ، ثم ازداد وقعها فى صعود انفعالى عنيف حتى وصلت إلى صيحة النهاية العالية المنتصرة .

حين انتهت الأنشودة علق الحاكم قائلاً : « كان داوود صغيراً ، إلا أن إيمانه كان كبيراً » ، فلم أتمالك نفسى وقلت باندفاع : « وأنتم كثيرون وإيمانكم قليل » . نظر إلى مضيفى مندهشًا ، خجلت مما قلت دون أن أتمالك نفسى ، وبدأت بسرعة فى توضيح ما قلت . واتخذ تفسيرى شكل أسئلة متتابعة كسيل جارف ، قلت : « كيف حدث أنكم معشر المسلمين فقدتم الثقة بأنفسكم ، تلك الثقة التى مكنتكم من نشر عقيدتكم فى أقل من مائة عام ، من الجزيرة العربية باتجاه الغرب حتى المحيط الأطلنطى ، وإلى الشرق حتى أعماق الصين ، والآن مستسلمين بكل سهولة وكل ضعف إلى أفكار وعادات الغرب ؟ أضاء أجدادكم العالم بالعلوم والمعارف والفنون فيما كانت أوروبا تائهة فى بربرية وجهل ، لماذا لا تقدرون على استجماع قواكم وشجاعتكم وتستعيدوا إيمانكم الفعال ؟ وكيف يصبح أتاتورك ، ذلك المتنكر التافه الذى ينكر كل قيمة للإسلام ، رمزًا لكم فى الإحياء والنهوض والإصلاح ؟ ».

ظل مضيفى صامتًا دون أن يفوه بكلمة . كان الجليد قد بدأ فى التساقط من الخارج . وشعرت مرة أخرى بموجة مختلطة من الأسى مع تلك السعادة الداخلية مثل تلك التى شعرت بها ونحن نقترب من دح - زانچى . أحسست بالعظمة التى كانت عليها تلك الأمة ، وبالخزى الذى يغلف ورثتها المعاصرين .

أردفت مكملاً سيل أسئلتى : « قل لى ، كيف دفن علماؤكم الدينيون الإيمان الذى أتى به نبيكم بكل صفائه ونقائه ، تحت ركام من المناقشات العقيمة لتوافه الأمور ؟

وكيف حدث أن نبلاءكم وكبار ملاك أراضيكم يغرقون فى الثروة والغنى والنعيم ، بينما يغرق أغلبية المسلمين فى الفقر والقذارة والصمت – مع أن نبيكم علمكم أن : « لا يؤمن أحدكم إن شبع وجاره جائع ؟ هل يمكن أن تفسر لى كيف دفعتم النساء إلى هامش الحياة – مع أن النساء فى عصر الرسول والصحابة ساهمن فى كل شئون حياة أزواجهن ؟ وكيف أصبحت أغلبيتكم جاهلة وأمية ، وأقليتكم مَنْ يعرفون القراءة والكتابة ؟ بالرغم من أن نبيكم أعلن : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ».

كان ضيفى مازال يحملق فىّ دون كلمة ، وبدأت أعتقد أن انفجارى ربما سبب له ضيقًا . كان الرجل صاحب العود والذى لا يعرف الفارسية ينظر مشدوهًا لذلك الأجنبى الذى يتحدث بتلك الحدة وذلك الحماس إلى الحاكم . فى النهاية جذب الحاكم ثوبه الأصفر الواسع وأحكمه حول جسمه ، كما لو كان يشعر بالبرد ؛ ثم همس : « ولكن ... أنت مسلم ».

ضحكت وأجبته : « كلا ، لست مسلمًا ، ولكنى رأيت الجوانب العظيمة فى رسالة الإسلام مما يجعلنى أشعر بالغضب وأنا أراكم تضيعونه ... سامحنى إن كنتُ تحدثت بحدة . أنا لست عدواً على أى حال ».

إلا أن مضيفى هزّ رأسه : « كلا ، أنت كما قلت لك : أنت مسلم ، إلا أنك لا تعلم ذلك ... لماذا لا تعلن الآن وهنا « أشهد أن لا إله إلا اللّـه ، وأن محمداً رسول اللّـه – وتصبح مسلمًا بالفعل بدلاً من أن تكون مسلمًا فى قلبك فقط ؟ قلها يا أخى ، قلها الآن ، وسأذهب معك غداً إلى كابول وأصحبك إلى الأمير ، سيستقبلك بأذرع وأحضان مفتوحة كواحد منا . وسيهبك بيوتًا وبساتين وماشية ، سنحبك جميعًا ، قلها يا أخى ... ».

قلت له : « لو قلتها فى أى وقت ، فسأقولها حين يستقر فكرى عليها ويستريح لها ، لا من أجل منازل الأمير وبساتينه ».

استمر إصرار الحاكم : « ولكنك تعرف عن الإسلام أكثر مما يعرف أى منا ، فما الذى لم تعرفه أو تفهمه بعد ؟ ».

قلت له : « الأمر ليس مسألة فهم ، بل أن أكون مقتنعًا ، أن أقتنع أن القرآن هو كلمة اللّـه ، وأنه ليس ابتداع ذكى لعقلية بشرية عظيمة ».

ولم تمح كلمات صديقى الأفغانى من ذهنى على مدى شهور طويلة بعدها . من كابول تجولت فى أفغانستان على مدى أسابيع ، عبر مدينة « غازنى » القديمة ، والتى انطلق منها من ألف عام مضت الغازى العظيم محمود فى غزواته للهند ، ثم عبر « قندهار » التى تميز أهلها بأنهم أصلب وأشد المقاتلين ؛ ثم عبر صحراء أفغانستان الجنوبية الغربية ، ثم عدت إلى مدينة « حيرات » ، نقطة بداية جولتى الأفغانية .

كان ذلك عام ١٩٢٦ ، وقرب نهاية الشتاء غادرت « حيرات » فى طريقى عبر رحلة طويلة للعودة إلى موطنى فى أوروبا ، ركبت القطار من حدود أفغانستان إلى مدينة « مارف » فى تركستان السوفييتية إلى سمرقند وبخارى وطشقند ، ثم عبرت أصقاع تركمان إلى جبال الأورال ثم إلى موسكو .

بدأ انطباعى الأول (والذى استمر بعد ذلك) عن روسيا السوفييتية فى محطة قطار « مارف » فى تركستان السوفييتية ، كان بالمحطة ملصق كبير ضخم يصور أحد أفراد « البلوريتاريا » (*) الشباب يرتدى زى العمال الأزرق ويركل رجلاً مسنًا بلحية بيضاء يرتدى ثوبًا فضفاضًا ويخرجه من بين سحب السماء ، ومكتوب تحت الملصق :

« هكذا أطاح عمال الاتحاد السوفييتى بالله فى سماواته » والتوقيع « اتحاد بوزبوزينكى » (وتعنى اتحاد الملاحدة) فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » .

كانت الدعاية الرسمية الملحدة تفرض نفسها فى كل مكان : فى المبانى العامة وفى الشوارع ، وكانت الأماكن المثالية المفضلة لتلك الملصقات بجوار دور العبادة ، وفى

(*) الطبقة العاملة (المترجم) .

تركستان كانت المساجد الإسلامية هى المستهدفة . ففى حين لم تكن صلاة الجماعة ممنوعة بقرار رسمى ، إلا أن السلطات كانت تقوم بكل ما من شأنه إعاقة الناس عن الصلاة . وقيل لى فى أكثر من مناسبة ، خاصة فى بخارى وطشقند : إن جواسيس السلطة يسجلون أسماء كل من يتوجه إلى أى مسجد لأداء الصلاة ، وجمعت السلطات نسخ القرآن وأخفوها وألقوها فى الزرائب ومزقوها . وكانت الوسيلة المفضلة لشباب الملاحدة إلقاء رءوس خنازير فى ساحات المساجد .

عبرت حدود بولندا حتى آخر حدود الاتحاد السوفييتى بمشاعر عميقة من الارتياح بعد أسابيع قضيتها فى عبور المناطق الآسيوية والأوروبية لروسيا السوفييتية . توجهت رأساً إلى فرانكفورت وذهبت فى الحال إلى مقر الصحيفة الذى أصبح أكثر ألفة لى . عرفت أن اسمى أصبح من الأسماء المعروفة فى فترة سفرى الأخير ، وأننى أصبحت واحداً من أشهر مراسلى صحف وسط أوروبا .

بعض مقالاتى خاصة تلك المقالات التى تناولت التركيبة النفسية شديدة التعقيد للإيرانيين جذبت اهتمام كثير من المستشرقين البارزين ولقيت ما يفوق الاعتراف بأهميتها . وتلقيت دعوة لإلقاء سلسلة محاضرات فى أكاديمية الجغرافيا السياسية فى برلين – وقيل لى : إنه لم يحدث من قبل أن رجلاً فى مثل عمرى (لم أكن قد جاوزت بعد السادسة والعشرين) قد حقق ذلك التميز . وأعيد نشر مقالاتى الأخرى فى صحف كثيرة بالاتفاق مع « فرانكفورتر ذيتونج » ؛ حتى إن واحدة من تلك المقالات نشرت فى ثلاثين مطبوعة مختلفة . وبوجه عام ، كانت جولتى الإيرانية مثمرة جداً ...

* * *

خلال وجودى تلك المرة فى أوروبا تزوجت إلزا . لم تضعف حبنا الفترة التى ابتعدتها عن أوروبا على مدى عامين ، وجدت أن حبنا قد ازداد أكثر واستطعت أن أنزع من فكرها مشكلة فارق السن بيننا .

احتجت فى البداية قائلة : « كيف يمكن أن نتزوج ؟ أنك لم تكمل السادسة والعشرين ، وأنا تخطيت الأربعين . فكر فى هذا : حين تكون فى الثلاثين ، سأكون أنا فى الخامسة والأربعين ، وحين تكون فى الأربعين ، سأكون أنا عجوز شمطاء ... ».

ضحكت وقلت لها : « لا يهم ، لا أتخيل أى مستقبل بدونك ».

واستسلمت فى النهاية .

لم أكن مبالغًا حين قلت لها إننى لا أتخيل أى مستقبل بدونها . كان جمالها وعطفها ونقاءها الغريزى يجعلها تبدو لى شديدة الجاذبية حتى إننى لم أكن أرى أى امرأة غيرها ؛ وكان حسن فهمها لما أريد من الحياة يضىء آمالى وتطلعاتى ويجعلها أشد صلابة ، وأقرب إلى التحقيق .

فى واحدة من المناسبات ، وكانت بعد أسبوع تقريبًا من زواجنا ، قالت : «ما أغربك دون كل الناس ، تستنكر الغموض وترفضه فى كل دين .. مع أنك أنت نفسك غامض ، تصل وتتواصل مع الحياة من حولك بأطراف أناملك وترى فى الأمور اليومية العادية أنماطًا من الغموض والتعقيد فيما يبدو للناس الآخرين أمورًا عادية ... ولكن فى اللحظة التى تتحدث فيها عن الدين ، تتحول إلى عقلانى تمامًا . الأمر عكس ذلك عند كل الناس ... ».

غير أن إلزا لم تكن مندهشة بالفعل ، فقد كانت تعلم ما أبحث عنه حين كنت أحدثها عن الإسلام ، ومع أنها لم تشعر بنفس إلحاح البحث كما كنت أشعره ، إلا أن حبها لى جعلها تشاركنى كل اهتماماتى .

كثيرًا ما كنا نقرأ القرآن معًا ونتناقش حول ما ورد به من أفكار ؛ وأصبحت إلزا تتأثر مثلى يومًا بعد آخر بالتكامل الداخلى بين تعاليمه الروحية وإرشاداته الدنيوية . لم يطلب اللـه من البشر كما جاء بالقرآن طاعته بغباء طاعة عمياء بلا عقل أو فهم أو إدراك ، بل كان القرآن يوجه الخطاب دائمًا إلى العقل والفهم والإدراك . لم يتناء اللـه بذاته عن مصير البشر ، بل يقول لهم : إنه أقرب إليهم من حبل الوريد ، كما

لم يفصل بين الإيمان به وسلوك البشر الاجتماعى ، وفوق كل ذلك ، لم يقر مبدأ أن الحياة صراع بين المادة والروح أى الجسد والروح ، كما لم يقر منهج أن الطريق إلى النور يستلزم تحرير الروح من أعباء مطالب البدن (الخلاص فى المفهوم المسيحى) ، وأدان النبى كل شكل من أشكال رفض الحياة أو رفض رغبات البدن أو إماتتها أو كبتها حين قال : « لا رهبنة فى الإسلام ».

لم يعترف برغبات البدن كغريزة إيجابية فقط ، بل تعامل مع البدن كفضيلة أخلاقية مُسلَّم بها ، كنعمة من نعم اللّـه التى أنعم بها على البشر . ولم يُعلِّم المسلمين فقط أن يتمتعوا بحياتهم وفق ما أحل اللّـه لهم ، بل إنهم مأمورين بذلك .

كانت صور نهائية متكاملة للإسلام تتبلور فى ذهنى ، وبيقين، كان يدهشنى فى أوقات كثيرة وهو يتكون داخلى بما يشبه الارتشاح العقلى والفكرى ، أى أنها كانت تتم دون وعى وإرادة منى ، كانت الأفكار تتجمع ويضمها ذهنى إلى بعضها فى عملية « تنظيم ومنهجة » لكل الشذرات مع المعلومات التى عرفتها عن الإسلام خلال الأعوام الأربعة الأخيرة . رأيت فى ذهنى عمل معمارى متكامل تتضح معالمه رويداً رويداً ، بكل ما يحتويه من عناصر الاكتمال وتناغم الأجزاء والمكونات مع الكل المتكامل فى توازن لا يخل جزء منه بآخر ، توازن مقتصد بلا خلل ويشعر المرء أن منظور الإسلام ومسلماته كلها « فى موضعها الملائم والصحيح من الوجود ».

لقد وقف رجل من ثلاثة عشر قرنًا وقال : « لست إلا بشر فان ؛ كلفنى خالق الوجود أن أحمل رسالته إليكم حتى تحيوا فى صلاح يتفق مع منهج خلقه ، أمرنى أن أذكركم بوجوده ، وهو القادر ، العليم ، وأن أقدم لكم منهجًا للدنيا والآخرة . إن قبلتم تذكيرى لكم ورسالتى إليكم فاتبعونى » .

كان ذلك هو جوهر رسالة محمد .

كان المنهج الاجتماعى الذى قدمه على قدر من البساطة يتناسب مع عظمته . بدأ ذلك المنهج من المقدمة الموضوعية بأن البشر مخلوقات اجتماعية وذات احتياجات

بيولوچية عضوية وأن اللّـه خلقهم هكذا حتى يعيشوا فى جماعات وشعوب وقبائل حتى يشبعوا احتياجاتهم البدنية والمعنوية والفكرية : فهم باختصار يعتمدون على بعضهم البعض ، وأن رقى الفرد الروحى (الهدف من كل الأديان) يتوقف على مدى ما يتلقاه من عون وتشجيع وحماية من حوله من أفراد المجتمع - الذين يتوقعون منه بالطبع أن يقوم بالدور نفسه تجاههم - هذا التساند الاجتماعى البشرى المتبادل بين أفراد المجتمع كان السبب الأساسى فى عدم انفصال الإسلام عن الجوانب الاقتصادية والسياسية . كان المفهوم الإسلامى يعتمد بشكل أساسى على تكافل وتساند أفراد المجتمع ، ولذلك كان تنظيم علاقات أفراد المجتمع لابد أن يرتكز على عدم وجود أى عراقيل فى حياة الفرد مع وجود كثير من المساندة لتطوير شخصيته ، كان هذا هو المفهوم الأساسى للإسلام لوظيفة المجتمع . لذلك كانت رسالة محمد التى ثابر على نشرها على مدى ثلاثة وعشرين عامًا لا تنحصر فقط فى الجانب الدينى الروحى الخاص بالعبادة وحدها ، بل فى تأسيس مجتمع تسوده العدالة . تضمن المنهج الإطار السياسى العام لما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامى - الإطار العام فقط ؛ لأن تفاصيل الاحتياجات السياسية مرتبطة بالظروف التاريخية ، ولذلك فتفاصيلها متروكة لظروف المجتمع ، كما تضمن حقوق الفرد على المجتمع وواجبات المجتمع على ضوء التطور التاريخى لنمو المجتمعات . تضمن التشريع الإسلامى كل نواحى الحياة ، الروحية والبدنية حقوق الفرد وحق الجماعة على الفرد ؛ مشاكل البدن ومشاكل الروح والفكر ، المشاكل الجنسية والاقتصادية ، مضت كلها جنبًا إلى جنب مع مشاكل الإيمان والعبادة ، احتلت كل الجوانب مواضعها فى تعليمات النبى لم يعد أى جانب من جوانب حياة البشر غير مهم أو تافه ولم تشمله مبادئ التشريع - لم يستثن التشريع أى أمر « دنيوى » مثل التجارة ، والوراثة ، وحقوق الملكية أو امتلاك الأراضى .

كل مواد التشريع الإسلامى وضعت لفائدة كل أعضاء المجتمع الإسلامى ، دون تمييز بالولادة ، أو الجنس ، أو الانتماء القبلى أو مرتبة اجاماعية . لم يخص النبى نفسه بأى امتيازات لنفسه أو لذريته . لم تعد هناك امتيازات خاصة لمرتبة اجتماعية

عليا أو مثالب تقع على مرتبة دنيا ؛ واختفى من الإسلام تماماً مفهوم الطبقة الاجتماعية . كل الحقوق والواجبات والفرص المتاحة تنطبق بالتساوى على كل أفراد المجتمع من المسلمين . لا احتياج لكاهن كوسيط بين الإنسان وخالقه ، لأن اللّـه : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ، لم يعترف الإسلام بغير طاعة اللّـه ورسوله ، ثم الولاء للمجتمع الإسلامى الملتزم بشرعة تأسيس مجتمع إسلامى طبقًا لما أمر اللّـه به ، وحرم ذلك الولاء والطاعة لأمة سيان بالحق أم بغيره . ولترسيخ مبدأ أن الطاعة للّـه أعلن النبى أكثر من مرة : ليس منا من تشيع لقبيلته ، وليس منا من حارب فى سبيل انتماء لقبيلة ، وليس منا من مات فى سبيل قبيلته .

كانت كل المؤسسات السياسية والتوجهات السياسية المبنية على معتقد دينى محصورة فى الفهم الضيق للقبيلة أو الدولة . وحتى الملوك الآلهة فى مصر القديمة لم يتجاوز فكرهم وادى النيل وسكانه ، وفى الدولة الدينية المبكرة لليهود العبرانيين ، حيث كان من المفترض أن الحاكمية للّـه ، فإن الرب هناك كان رب أبناء إسرائيل فقط . أما فى الفكر القرآنى الإسلامى فإن الأمر عكس ذلك تماماً ، لا وجود للانتماء إلى قبيلة ولا اعتبار خاص لسلالة خاصة . المبدأ الأساسى فى الإسلام إقامة مجتمع إسلامى لا يعرف الولاء التقليدى لقبيلة ولا لجنس بذاته . وبهذا الخصوص ، يُعَد الإسلام والمسيحية ذوا توجه واحد ، فكليهما لهما توجه واحد من إقامة مجتمع من البشر تربطهم عقيدة واحدة بغض النظر عن انتماءاتهم القبلية أو القومية . إلا أن المسيحية قد قيدت نفسها بتوجه دينى فقط ، وحثت مَنْ آمنوا بها على أن « يعطوا ما لقيصر لقيصر » ، وبذلك قصرت دعوتها على الجانب الدينى الروحى فقط . أما الإسلام فقد قدم بوضوح بناء سياسى يعد فيه الإيمان باللّـه المنبع الذى تستمد منه سلوكيات المؤمنين ، كما يعد الإيمان باللّـه الأساس الوحيد لكل المؤسسات الاجتماعية . وهكذا محققًا للبشر ما لم تحققه لهم المسيحية – خط الإسلام فصلاً خاميًا فى التطور الإنسانى ، لقد خلق مجتمعًا إنسانيًا مفتوحًا أمام كل البشر المؤمنين بالإسلام مقارنة بما سبقه من ديانات ، قصرت الدين على جنس بعينه ، أو ديانات قصرت الدين على منطقة بعينها .

لقد أوجدت رسالة الإسلام حضارة لا مكان فيها لجنس على آخر ، لا مكان فيه «لامتيازات خاصة» ، ولا تقسيم طبقى ، لا كهنوت وتسلط هيئات دينية ، ولا كهانة ، ولا حقوق متوارثة لنبالة محتد ؛ وفى الحقيقة لم ينطوى على أى امتيازات بالوراثة على الإطلاق كان الهدف خلق مجتمع يدين للّـه بالإسلام ويحكم نفسه بديموقراطية واختيار للحاكم . كانت أهم صفة بارزة لحضارة الإسلام – وهى الصفة التى انفرد بها دونًا عن كل الحضارات البشرية السابقة عليه أو اللاحقة له – أنها منبثقة من إرادة حرة لشعوبها . لم تكن مثل حضارات أخرى سابقة وليدة قهر وضغط وإكراه أو تصارع إرادات أو الصراع على مصالح ، ولكنها كانت جزء وكل من رغبة حقيقية أصيلة لدى كل المسلمين . مستمدة من إيمانهم باللّـه وما حثهم عليه من إعمال فكر وعمل . وبكلمات أخرى كان تعاقد اجتماعى أصيل : لا مجرد كلام أجوف يدافع به جيل تل عن امتيازات خاصة بهم وتعود بالنفع عليهم ، ولكن كمصدر حقيقى وتاريخ للحضارة الإسلامية . يقول القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (صدق اللّـه العظيم) .

لقد أدركت أن ذلك « الفوز العظيم » – العقد الاجتماعى الوحيد المسجل تاريخيًا – تحقق فقط على مدى زمنى قصير جداً ، أو على الأصح أن على مدى زمنى قصير تحقق العقد على نطاق واسع . فبعد أقل من مائة عام من موت الرسول بدأ الشكل النقى الأصيل للإسلام يدب فيه الفساد ، وفى القرون التالية بدأ المنهج القويم يزاح إلى الخليفة . وبدأت الصراعات القبلية والعرقية من أجل الهيمنة والسلطة تحل محل العقد الاجتماعى الإسلامى المبنى على رجال أحرار ونساء أحرار ، وبدأت الوراثة الملكية تحل محل الانتقاء الحر للقيادة وهو ما كان متعارضًا مع المفهوم السياسى للإسلام كتعارض الشرك مع التوحيد ، وترتب على ذلك صراع الانتماء العائلى والقبلى ، والتفضيل القبلى والاضطهاد ، وتقهقر الدين حتى أصبح وسيلة للسلطة والقوة :

باختصار تحول إلى « صراع المصالح » المعروف على مدى التاريخ . وعلى مدى زمنى حاول المفكرون الإسلاميون أن يحفظوا نقاء العقيدة ، إلا أن مَنْ أتوا بعدهم كانوا أقل قدرة من سابقيهم وتقاعسوا عن الاجتهاد ولاكوا واجتروا أفكار مَنْ سبقوهم ، وتوقفوا عن التفكير المبدع والاجتهاد الخلاق واكتفوا بترديد أفكار مَنْ سبقوهم من أجيال حاولت الاجتهاد - وتناسوا أن كل الاجتهادات رهينة بزمنها ولا تصلح لغيرها من أزمان وأنها غير معصومة ، وبالتالى تحتاج إلى تجديد مستمر . كانت القوة الدافعة الأولى للإسلام ، كافية لوضعه فى قمة سامية من الرقى الحضارى والفكرى - فى العلوم والآداب والفنون مما دفع المؤرخين إلى وصفها بالعصر الذهبى للإسلام ؛ إلا أن تلك القوة الدافعة قد ماتت لنقص الغذاء الروحى الدافع لها ، وركدت الحضارة الإسلامية عصراً بعد عصر لافتقاد القوة الخلاقة المبدعة .

* * *

لم يكن لدى أى أوهام عن الحالة المعاصرة للعالم الإسلامى بينت الأربعة أعوام التى قضيتها فى مجتمعات إسلامية أن الإسلام مازال حيًا ، وأن الأمة الإسلامية متمسكة به بقبول صامت لمنهجه ومبادئه وتعاليمه ، إلا أن المسلمين كانوا كالمشلولين ، غير قادرين على تحويل إيمانهم إلى أفعال مثمرة لا مجرد أقوال . إلا أن ما شغلنى أكثر من فشل المسلمين المعاصرين فى تحقيق منهج الإسلام ، الإمكانيات المتضمنة فى المنهج ذاته . كان يكفينى أن أعرف أنه خلال مدى زمنى قصير ، اقتصر على بداية التاريخ الإسلامى ، كانت هناك محاولة ناجحة لتطبيق هذا المنهج ؛ وما أمكن تحقيقه فى وقت ما ، يمكن تحقيقه فى وقت غيره . ما كان يهمنى ، كما فكرت فى داخلى ، أن المسلمين شردوا عن التعليمات الأصيلة للدين وركنوا إلى التراخى والكسل والجهل ؟ ما الذى حدث وجعلهم يبتعدون عن المثاليات التى علمهم إياها الرسول العربى من ثلاثة عشر قرنًا مضت - ما دامت تلك المثاليات مازالت متاحة لهم إن أرادوا الاستماع إلى ما تحمله من رسالة سامية ؟

بدا لى كما فكرت ، أننا نحن فى عصرنا الحالى نحتاج إلى تعاليم تلك الرسالة أكثر كثيراً من البشر الذين عاشوا فى عصر محمد . لقد عاشوا فى بيئات وظروف أبسط كثيراً مما نعيش فيه الآن ، ولذلك كانت مشاكلهم وصعابهم أقل بكثير من مشاكلنا ومصاعبنا . العالم الذى كنت أحيا فيه - كله - كان يتخبط لغياب أى رؤية عامة لما هو خير وما هو شر فيما يخص الإيمان والجانب الروحى للبشر وبالمثل غياب رؤية عامة للجانب الاجتماعى والاقتصادى . لم أؤمن أن ما يحتاجه الفرد هو «خلاص الروح» بالمفهوم المسيحى ، بقدر ما آمنت أن المجتمع المعاصر هو الذى يحتاج للخلاص . لقد أحسست بيقين تام أكثر من أى وقت مضى أن مجتمعنا المعاصر يحتاج إلى أسس فكرية عقائدية توفر شكلاً من أشكال التعاقد الاجتماعى بين أفراده ، وأنه يحتاج إلى إيمان يجعله يدرك خواء التقدم المادى من أجل التقدم لذاته - وفى الوقت نفسه يعطى للحياة نصيبها ؛ وأن ذلك سيدلنا ويرشدنا إلى كيفية تحقيق التوازن بين احتياجاتنا الروحية واحتياجاتنا البدنية ، وأن ذلك سينقذنا من كارثة محققة نتجه إليها بأقصى سرعة .

* * *

لن أبالغ إن قلت : أثناء تلك الفترة من حياتى شغلت فكرى مشكلة الإسلام كما لم يشغل ذهنى شىء آخر من قبل . كنت فى ذلك الوقت قد تجاوزت مرحلة الاستغراق الفكرى ، وتجاوز فكرى مرحلة الاهتمام العقلى والذهنى بدين غريب وثقافة غريبة ، لقد تحول إلى بحث محموم عن الحقيقة ، ولاستغراقى فى البحث عن الحقيقة ، تحولت المغامرات الممتعة التى مررت بها فى آخر عامين إلى أفكار وذكريات باهتة بلا معنى . حتى إنه أصبح من الصعب على أن أركز فكرى لكتابة الكتاب الجديد الذى كلفنى رئيس تحرير صحيفة « فرانكفورتر ذيتونج » بكتابته .

فى البداية ، لاحظ دكتور سيمون بتسامح نفورى من المضى فى كتابة مادة الكتاب . ورأى أننى عائد من رحلة طويلة أستحق معها بعض الراحة ؛ ثم وجد أن زواجى أيضاً

يستدعى التوقف لفترة عن الكتابة . ولكن حين امتدت راحة السفر ، وامتدت إجازة الزواج أكثر مما اعتقد دكتور سيمون أنه كافٍ لى ، ذكر لى أنه قد آن الأوان أن أعود إلى أرض الواقع .

وفى حقيقة الأمر ، كان الرجل فى غاية التفهم والتقدير لكل ظرفى ؛ إلا أنه لم يبد لى كذلك فى حينه . كان سؤاله المتكرر والملح عن مدى التقدم فى إنجاز الكتاب يأتى بآثار عكسية لما يريده هو . وأحسست أنه يضغط علىّ لا مبرر ؛ وفقدت كل رغبة فى إنجاز ذلك الكتاب . كنت أكثر اهتمامًا بما أسعى للكشف عنه أكثر ما كنت مهتمًا بوصف ما رأيت .

فى النهاية علق دكتور سيمون على ذلك فى سخط قائلا : « لا أظن أنك ستكتب هذا الكتاب أبدًا . إن ما تعانى منه هو رعب الحرية » وبشىء من الاستفزاز أجبته :

« ربما كان مرضى أكثر خطورة مما تعتقد . ربما أعانى من خوف الكتابة ».

رد بحدة : « حسنًا ، إذا كان هذا ما تعانى منه ، هل تعتقد أن « فرانكفورتر ذيتونج » هى المكان الملائم لك ؟ ».

وأدت كلمة إلى رد ، وأدى رد إلى استفزاز ، حتى تحول الأمر إلى تشاجر . فى اليوم نفسه استقلت من العمل فى صحيفة « فرانكفورتر ذيتونج » وبعدها بأسبوع رحلت أنا وإلزا إلى برلين .

لم أكن أنوى بالطبع هجر الصحافة ، لأنها بغض النظر عن الحياة الجيدة التى توفرها لى ، والمتعة التى أشعر بها فى الكتابة ، كانت الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن أعود من خلالها إلى المجتمع الإسلامى ، وقد أردت العودة إلى ذلك العالم الإسلامى بأى ثمن . وبالسمعة الجيدة التى حققتها فى الأعوام الأربعة الأخيرة ، لم يكن من الصعب الاتفاق مع صحف أخرى . وتوصلت إلى اتفاق سريع مع صحف ثلاث أخرى هى : صحيفة « نيو زيوريخ ذيتونج » التى تصدر من زيوريخ ، وصحيفة «تليجرام» التى تصدر من أمستردام ، وصحيفة « كولون ذيتونج » التى تصدر من

كولونيا . أصبحت مقالاتى عن الشرق الأوسط تنشر فى ثلاث صحف - لا تصل إلى مستوى فرانكفورتر ذيتونج - غير أنها من أهم الصحف الأوروبية .

استقر بنا المقام مؤقتًا أنا وإلزا فى برلين ، ونويت أن أكمل سلسلة محاضراتى التى كنت ألقيها فى أكاديمية الجغرافيا السياسية ، كما نويت أن أواصل دراستى للإسلام .

وسعد أصدقاء الثقافة والفكر بعودتى من جديد إلى برلين ، إلا أننى وجدت أنه من الصعب استعادة علاقتنا القديمة كما كانت عليه فى الوقت الذى سافرت فيه إلى الشرق الأوسط . شعرت ببعض الغربة عنهم ؛ لم نعد نتحدث من نفس المنطلقات الفكرية . على وجه الخصوص ، لم أجد أحدًا من أولئك الأصدقاء يمكننى أن أحدثه عن انشغالى بالإسلام وأتوقع منه أن يأخذ الأمر بجدية ويتفهم ما يهمنى . لقد هزوا رءوسهم جميعاً فى دهشة وتعجب حين حاولت أن أشرح لهم أن الإسلام كمفهوم فكرى واجتماعى يمكن أن يقارن بكل النظريات والمعتقدات الأخرى . وبالرغم من تفهمهم أحيانًا لمعقولية بعض ما يذهب إليه الإسلام إلا أن أغلبهم كان يرى أن الأديان القديمة أصبحت شيئًا ينتمى إلى الماضى ، وأن عصرنا وزماننا يحتاج إلى منهج « إنسانى » آخر جديد .

ولكن ، حتى من كانوا لا يرفضون الأديان رفضًا كليًا ، كانوا يميلون بلا سبب إلى تبنى المفهوم الغربى الشائع الذى يرى أن الإسلام يهتم أساسًا بالشئون الدنيوية ، وأنه ينقصه الروحانيات التى يتوقع أى امرئ أن يجدها فى أى دين .

ما أدهشنى بالفعل ، أن أكتشف أن ذلك الجانب من الإسلام هو ما جذبنى إليه من أول لحظة - وهو عدم فصل الإسلام بين الوجود المادى والوجود الروحى للبشر والتأكيد على السببية العقلية كسبيل للإيمان ، وهو الجانب ذاته الذى يعترض عليه مفكروا أوروبا الذين يتبنون السببية العقلية كمنهج للحياة . ولا يتخلون عن ذلك المنهج العقلانى إلا حين يرد ذكر الإسلام .

لم أجد أى فارق بين الأقلية المهتمة بالأديان والأغلبية التى ترى أن الدين أصبح من المفاهيم البالية التى عفا عليها الزمن .

مع الوقت ، أدركت مكمن الخطأ فى منهج كل منهما . أدركت أن مفاهيم مَنْ تربوا فى أحضان الأفكار المسيحية فى أوروبا بما تتضمنه من تأكيد على قوى ما فوق الطبيعة التى يجب أن توجد بشكل أصيل فى أى دين - تبنوا مفهومًا عقليًا يسود بينهم جميعًا وينتقص من الجوانب الروحية . كان ذلك مقصورًا على المؤمنين بالمسيحية . فمع طول تعود أوروبا على نسق الفكر المسيحى ، تعلم حتى «اللاأدريين» أن ينظروا إلى أى دين آخر من خلال عدسات مسيحية ، فيعدون أى فكر دينى «صالح» لأن يكون دينًا ، إذا غلفته مسحة غامضة خارقة للطبيعة تبدو خافية وفوق قدرة العقل البشرى على استيعابها . ومن منظورهم ، لم يف الإسلام بتلك المتطلبات : فقد أكد الإسلام على تكامل الجسد والروح فى الحياة البشرية فى تكامل فريد . إن نظرة الإسلام إلى الوجود تختلف عن الرؤية المسيحية التى ترتكز عليها كل المفاهيم الغربية ، وإن قبلت ما لا مفر من قبوله فسيؤدى بك إلى مناقشة صلاحية ما يليه .

عن نفسى ، كنت أوقن أننى فى طريقى إلى الإسلام ، وجعلنى تردد اللحظة الأخيرة أؤجل الخطوة النهائية التى لا مفر منها . كانت فكرة اعتناق الإسلام تمثل لى عبور قنطرة فوق هاوية تفصل ما بين عالمين مختلفين تمامًا : قنطرة طويلة حتى إن المرء عليه أن يصل إلى نقطة اللاعودة أولاً قبل أن يتمكن من تبن الطرف الآخر للقنطرة وبداية الجانب الآخر . كنت أعى تمامًا أننى لو اعتنقت الإسلام سأضطر لخلع نفسى نهائيًا من العالم الذى ولدت ونشأت فيه . لم تكن هناك حلول أخرى . فلم يكن من الممكن لامرئ مثلى أن يتبع دعوة محمد ويظل بعدها محتفظًا بروابطه الداخلية مع مجتمع يتصف بثنائية للمفاهيم المتعارضة والمتناقضة . كان تساؤلى الأخير الذى كنت مترددًا أمامه هو : هل الإسلام رسالة من عند اللَّه ، أم أنه حصيلة حكمة رجل عظيم ، إلا أنه غير مفهوم ...؟

* * *

ذات يوم - كان ذلك فى سبتمبر ١٩٢٦ - كنت أنا وإلزا ننتقل بقطار الأنفاق فى

برلين عائدين إلى بيتنا . كنا بعربة الدرجة الأولى التى يستقلها الأغنياء وميسورى الحال . وقع نظرى بطريقة عفوية على الرجل الذى كان يجلس مواجهًا لى ، كان يرتدى ملابس أنيقة غالية الثمن ، كان من الواضح أنه من رجال الأعمال الناجحين وكان يضع حقيبة أوراق ومستندات غالية الثمن على ركبتيه ، كما كان يضع فى أحد أصابعه خاتمًا ماسيًا ثمينًا . طاف بذهنى بصورة آلية أن ذلك الرجل بما هو عليه من مظاهر ثراء يتماشى ويتناسب مظهره مع حالة الرخاء والانتعاش التى كانت سائدة فى وسط أوروبا فى ذلك الوقت . كان رخاءً واضحًا للعيان بعد أعوام من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع معدلات الكساد والتضخم ، ثم انقلب الحال رأسًا على عقب وحلت فترة الرخاء التى كان حسن المظهر أحد دلائلها ، وأصبحت الغالبية ترتدى أفخم الثياب وتتناول أغلى المأكولات . لم يكن الرجل الذى كان يجلس مواجهًا لى استثناءً للحال . حين طاف بصرى بوجهه ، لم أجد أى أثر لسعادة ، كان يبدو عليه القلق ، لم يكن قلقًا فقط ، بل تبدو عليه التعاسة ، ونظرته تحملق إلى لا شىء وزاويتى فمه متقلصتان كما لو كان يعانى ألمًا - إلا أنه ألم غير عضوى - وحتى لا أبدو صفيقًا حولت بصرى عن وجهه ونظرت إلى من كان بجواره ، كانت سيدة أنيقة ، تحمل أيضًا على وجهها علامات التعاسة ، كما لو كانت تتمثل فى عقلها تجربة ما غير سارة ، أو تمر بتجارب سيئة وحياة تعسة تسبب لها آلامًا داخلية ؛ إلا أنها كانت ترسم على شفتيها ابتسامة مرسومة جامدة ربما اعتادت عليها .

بدأت أتطلع حولى إلى كل الوجوه فى العربة التى كنا بها - كانت كلها وجوه تنتمى إلى طبقة تنعم بملبس جيد ومأكل جيد ، إلا أن كل منها كان يشى بتعاسة داخلية عميقة ومعاناة واضحة على الملامح ، تعاسة عميقة حتى أن صاحبها لم يع أنها تبدو على صفحة وجهه .

كانت ظاهرة غريبة . لم أر من قبل كل هذا الكم من الوجوه البائسة التعيسة ، أو ربما أنى لم أكن أدقق كثيرًا فى وجوه الناس فى أوروبا من حولى . كان انطباعى من القوة حتى إننى همست به إلى إلزا ، فراحت هى الأخرى تتفحص خفية الوجوه التى

تحيط بنا بخبرة الفنانة الرسامة التى لها دراية بتفحص ملامح الوجوه قبل رسمها بالفرشاة . استدارت إلىّ مندهشة ، وقالت : « أنت على حق ، يبدو عليهم كأنهم يعانون عذاب الجحيم .. لا أدرى إن كانوا يعون معاناتهم أم لا ...؟ ».

كنت أوقن أنهم غير واعين ، وإلا ما كانوا استمروا فى إهدار حياتهم علي هذا المنوال ، دون أى تماسك داخلى ، دون أى هدف أسمى من مجرد « تحسين مستوى معيشتهم » ، ودون أمل يزيد عن الاستحواذ المادى ، أكبر قدر منه ، وقد يحقق لهم مزيد من القوة والسطوة .

عدنا إلى البيت ومازلنا نفكر بما رأيناه ، تطلعت بالصدفة إلى مكتبى ، كانت عليه نسخة مفتوحة من القرآن كنت أقرأ فيه قبل خروجنا . وبصورة آلية ، التقطت المصحف لأعيده إلى مكانه ، حين هممت بإغلاقه ، سقط بصرى على الصفحة التى كانت مفتوحة أمامى ، وقرأت :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ (صدق اللـه العظيم) .

وقفت لحظات مشدوهاً وأنا أحبس أنفاسى ، وأحسست أن يداى ترتجفان ، فناولته لإلزا وقلت لها : اقرئى هذا ، ألا تجيب هذه السورة على ما رأينا فى قطار الأنفاق ؟

لقد كان القرآن يتضمن الإجابة ، إجابة حاسمة قضت على كل شكوكى وأطاحت بها بلا رجعة . أيقنت يقيناً تاماً أن القرآن الذى أمسكه بين يدى من عند اللـه : ومع أنه أمام الناس من ثلاثة عشر قرناً مضت . إلا أنه تنبأ بما سيأتى من عصر آلى معقد ، تمتطيه الأشباح ، كعصرنا .

لقد اتصف البشر بالطمع فى كل العصور ، إلا أنه لم يصل الدرجة التى أصبح عليها فى عصرنا ، حتى أنه تحول إلى هاجس يعمى الأبصار عن رؤية أى شىء آخر عداه . تطلع ورغبة لا تقاوم للاستحواذ على المزيد ، الحصول على المزيد اليوم أكثر مما حصلنا عليه أمس ، والحصول فى الغد على أكثر مما حصلنا عليه اليوم ، عفريت

يركب أعناق البشر ويجلد قلوبهم ويدفعهم إلى الركض نحو أهداف تومض وتبرق على البعد ، وبمجرد أن يحصلوا عليها يكتشفون أنها هباء وأن هناك أهدافًا أخرى أشد بريقًا ، ما تزال نائية فى الآفاق البعيدة إلا أنها أكثر إغراءً فيركضون من جديد ليكتشفوا أنها أيضًا لا قيمة لها بمجرد تحققها . جوع لا يشبع لتحقيق مكاسب لا تنتهى ، وينخر فى روح الإنسان : « كلا ، لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ».

أيقنت أن تلك الآيات لم تكن نتاج حكمة رجل عاش من ثلاثة عشر قرنًا فى الجزيرة العربية النائية عن أوروبا . لم يكن بمقدوره مهما أوتى من حكمة أن يتنبأ بهذا العذاب النفسى والمعنوى والتعاسة والجحيم الذى سيصيب أبناء القرن العشرين .

كان الصوت الصادر من القرآن أعظم كثيرًا من صوت محمد ...

[٥]

حل الظلام على باحة مسجد الرسول]، لم يبدده إلا ضوء المصابيح الزينية المدلاة بسلاسل طويلة بين الأعمدة الرخامية الحاملة لعقود المسجد . كان الشيخ عبد اللّـه بن بليحيد جالسًا ورأسه مدلاة بين كتفيه على صدره وعيناه مغمضتان . يظن مَنْ لا يعرفه أنه غارق فى النعاس ؛ ولكنى أعرف أنه كان يستمع إلى حكايتى وتفاصيل قصة إسلامى باستغراق عميق ، يوائمها بما يعرف عن تجارب البشر وخبرات حياتهم ومحتوى قلوبهم . بعد فترة طويلة رفع رأسه وفتح عينيه ، سألنى : «وبعد ، ماذا فعلت بعد ذلك ؟ ».

قلت : « فعلت ما يجب على أن أفعله يا شيخ ، كان لى صديق مسلم بحثت عنه حتى عثرت عليه ، كان هنديًا وكان رئيسًا لرابطة المسلمين فى برلين ، قلت له : إننى أستقر رأيى على اعتناق الإسلام . مد لى يده اليمنى ، ووضعت كفى فى كفه ، وفى حضور اثنين من الشهود ، أعلنت :

« أشهد أن لا إله إلا اللّـه ، وأشهد أن محمداً رسول اللّـه ». (*)

وبعد ذلك بعدة إسابيع أسلمت زوجتى أيضاً .

سألنى : « وماذا قال الناس عن ذلك ؟ ».

قلت : « لم يعجبهم ذلك بطبيعة الحال . حين أرسلت إلى أبى رسالة وعرفته بإسلامى ، لم يرد على رسالتى ، بعد ذلك بعدة شهور أرسلت إلى شقيقتى رسالة قالت فيها : أن أبى يعتبرنى قد مت ... ثم أرسلت إليه برسالة ثانية قلت له فيها : إن إسلامى لم يغير موقفى منه ولم يقلل من حبى له ، بل على العكس أمرنى الأسلام أن أبر والدى أكثر من أى مخلوق آخر .. ولم أتلق رداً على تلك الرسالة أيضاً .

قال ابن بليحيد : « لابد أن أبيك متمسك جداً بدينه ... ».

قلت : « كلا يا شيخ ، ليس متمسكاً بدينه كما تظن ، وهذا هو الجانب الغريب ، لقد اعتبرنى مرتداً ، لا عن دينه (لم أر منه أى تمسك بدين) ، ولكن عن المجتمع الذى نشأنا بين ظهرانيه وثقافة وفكر ذلك المجتمع ».

سألنى : « ألم تره أبداً منذ ذلك الحين ؟ ».

قلت له : « كلا ، بعد فترة قصيرة من إسلامنا أنا وزوجتى رحلنا عن أوروبا ، لم نحتمل أن نبقى بها أكثر من ذلك . ولم أعد إلى هناك من ذلك الحين ». (**)

(*) يعد إعلان الإسلام هذا شرطاً ضرورياً لأن تصبح مسلماً . وفى الإسلام نجد أن صفتى « رسول » و« نبى » صفات متبادلة وتطلق على كبار الأنبياء الذين حملوا رسالة جديدة للبشر ، مثل محمد وعيسى ، وموسى ، وإبراهيم .

(**) استعدت علاقتى بأبى عام ١٩٣٥، بعد أن تفهم أبى فى النهاية الأسباب التى حملتنى على اعتناق الإسلام . وعلى الرغم من أننا لم نلتق أبداً ، فإن المراسلات استمرت متبادلة بيننا حتى عام ١٩٤٢ ، حين تم ترحيله هو وشقيقتى من مدينة ڤيينا على أيدى النازيين ثم مات في أحد معسكرات الاعتقال .

الفصل الحادى عشر

جهــاد

[1]

«وأنا أغادر مسجد الرسول ، أطبقت يد على يدى : ولما استدرت مستطلعًا ، رأيت العينين الطيبتين لسيدى محمد الزواوى السنوسى . قال بسعادة : «ما أسعدنى وأنا أراك بعد كل هذه الشهور الطويلة ، بارك اللّه تلك الخطوة فى مدينة الرسول المباركة ... ».

سرنا يدًا بيد على الطريق المعبد بالحجارة المستوية والذى يفضى من مسجد الرسول إلى السوق . كان يرتدى البرنس الأبيض الذى يرتديه أهل شمال أفريقيا ، وكان من الشخصيات المعروفة فى المدينة ، فقد عاش بها لأعوام طويلة ، توقفنا أكثر من مرة ، فقد كان من يقابلنا يصافحه بحرارة وإجلال ، لم يكن ذلك يعود إلى كبر سنه البالغ سبعين عامًا ، بل يعود إلى كونه أحد قادة أبطال ليبيا الذين يحاربون فى سبيل استقلال بلادهم .

قال ونحن سائرون : «أود أن أعرفك يا بنى أن سيد أحمد موجود هنا بالمدينة ، صحته ليست على ما يرام ، سيسعده أن يراك . إلى متى ستبقى بالمدينة هذه المرة ؟ ».

أجبته : «حتى بعد غد ، لن أغادر المدينة بالطبع قبل أن أزور سيد أحمد ، والأفضل أن أزوره الآن ».

لم أحب أحداً بالجزيرة مثلما أحببت سيد أحمد ، لم يدانه أحد فى تضحياته التى ضحاها بجهده وبكل ما يملك لتحقيق هدف غير شخصى وهو تحقيق استقلال وطنه » .

كان عالماً ومقاتلاً ، كرس كل حياته لإحياء مجتمع إسلامى مترابط ، يناضل من أجل استقلاله السياسى ، وكان على يقين من أنه لا يمكن تحقيق أى من الهدفين بمعزل عن الآخر .

مازلت أذكر أول لقاء لنا من سنين طويلة فى مكة ...

فإلى شمال مكة يقع جبل «أبو قبيس » الذى دارت حوله أساطير كثيرة فى الموروث الثقافى . فوق قمته كان يوجد مسجد أبيض بمئذنتين قصيرتين ، ومن هذا المسجد يمكنك أن ترى منظر وادى مكة الرائع والكعبة فى قاعة تحوطها منازل ملونة متدرجة فى ارتفاعها على سفوح الجبال من كل الجوانب . وإلى أسفل قليلاً من قمة جبل أبو قبيس ، كان هناك تجمعاً من مبانى حجرية معلقة على حافة صخرية مثل تجمع أعشاش الصقور : كان ذلك التجمع هو مركز الآخوة السنوسية .

كان فى ذلك الوقت منفياً ولا سبيل إلى عودته إلى ليبيا بعد ثلاثين عاماً من القتال ضد الاستعمار الإيطالى لبلاده وسبعة أعوام فى رحلات مكوكية من البحر الأسود حتى اليمن ، وكان اسمه شهير فى العالم الإسلامى ، فقد كان سيد أحمد هو السنوسى الكبير . لم يضارعه أحد فى تأريق مضاجع المستعمرين فى شمال إفريقيا ، لا عبد القادر الجزائرى فى القرن التاسع عشر ضد الاستعمار الفرنسى ، ولا عبد الكريم فى المغرب ضد الاستعمار الفرنسى أيضاً . وعلى الرغم من أنها أسماء لا ينساها المسلمون إلا أن أهدافهما كانت سياسية فى المقام الأول تسعى إلى تحقيق الاستقلال . بعكس منهج سيد أحمد الذى كان ينطوى على إحياء دينى إسلامى يتحقق من خلاله الاستقلال والنهضة الإسلامية الجديدة .

قدمنى إليه فى مكة فى ذلك الوقت حاجى عجوز سالم زعيم مسلمى جاوة ، والذى كان يقود هو الآخر حركة نضال مسلمى أندونيسيا من أجل الاستقلال ، وكان قد

حضر إلى مكة ليؤدى فريضة الحج . حين علم سيد أحمد أننى اعتنقت الإسلام حديثًا ، مدّ إلىّ يده مصافحًا وقال فى ود :

«مرحبًا بك بين إخوتك ، يا أخى الأصغر ... » .

كانت ملامحه تحمل إمارات التعب والإجهاد ، وتبدو المعاناة محفورة على جبهته فوق عينيه ، كان بلحية قصيرة شيباء ، وفم حسى تحوطه تجاعيد الآلام المرتسمة على ملامحه ، كان تعبًا ، يرتخى جفناه فى إجهاد على عينيه فبدتا ناعستين ؛ كان صوتًا هينًا إلا أنه ملىء بالأسى . غير أن وجهه كان يشتعل فى أحيان أخرى بالحماس فتستعيد العينان بريقهما ويرتفع صوته قويًا مجلجلاً ، ومن ثنايا العباءة البيضاء يرتفع ذراعه فى حماس كجناح صقر يهم بالطيران .

كان صاحب فكرة ورسالة لو كتب لها التحقق ، ربما كانت قد أحيت نهضة إسلامية جديدة : وفى متاعب شيخوخته ومرضه وانهيار نتاج كل عمره ، لم يفقد بطل شمال إفريقيا بريقه .

لم يكن يملك حق اليأس : إذ كان على يقين أن التطلع إلى إحياء العقيدة الإسلامية وتحقيق الاستقلال السياسى - والتى نشأت من أجلهما الحركة السنوسية - لا يمكن محوه من قلب المسلمين .

* * *

كان جد سيد أحمد ، وهو العالم الإسلامى الجزائرى محمد بن على السنوسى (ويعود اللقب إلى قبيلة بنى سنوس) ، قد آمن بفكرة الأخوة الإسلامية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وأنها إن تحققت ستمهد الطريق لإحياء وحدة إسلامية جديدة . وبعد أعوام من التجوال والدراسة بين بلاد عربية عديدة أقام محمد بن على أول زاوية سنوسية على جبل أبو قبيس فى مكة سرعان ما التف حوله فيها كثيرين من بدور الحجاز . ولم يبق بمكة وعاد إلى شمال أفريقيا ، واستقر فى جغبوب ، وهى

واحات تقع بين ولاية فزان في ليبيا ومصر ، ومن جغبوب انتشرت رسالته مثل انتشار النار في الهشيم في جميع أنحاء ليبيا وما جاورها . وحين مات محمد بن على عام ١٨٥٩ كان السنوسى (وأصبح اسم كل كبير للحركة) قد مدّ رسالته على منطقة واسعة تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى المنطقة الإستوائية فى أفريقيا وحتى منطقة قبائل الطوارق فى الصحراء الجزائرية .

ولا ينطبق مصطلح «دولة » ، لا على المنطقة التى انتشرت فيها رسالته ، ولا على محتوى ومضمون الرسالة التى آمن بها ، فالسنوسى الأول الكبير لم يهدف أبدًا إلى تأسيس حكم خاص له أو لنسله من بعده : كل ما هدف إليه ، تهيئة أسس ملائمة لإعادة الإحياء والنهضة الإسلامية فى كل جوانبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . ولتحقيق ذلك الهدف ، لم يسع إلى ما يعكر أو يثير التنظيم القبلى القائم ، كما لم يتحد الحاكم المعين على ليبيا من قبل الدولة العثمانية التى كانت ليبيا تابعة لها ، بل كرس كل جهوده لتعليم البدو فى خيامهم مبادئ الإسلام ، ويزرع فيهم الوعى بأخوة المسلمين التى حض عليها القرآن والتى اختفت خلال القرون الماضية بسبب النزاعات والصراعات القبلية . ومن خلال الزوايا العديدة التى انتشرت فى شمال أفريقيا ، حمل السنوسيون رسالتهم إلى أبعد القبائل ، وحققوا فى خلال عقود قليلة تحولاً إعجازيًا بين العرب والبربر على حد سواء .

قلت المشاكل المزمنة بين القبائل تدريجيًا واختفت المشاحنات ، وتحول مَنْ كانوا محاربين صحراويين جموحين إلى إخوة متعاونين بروح لم تعرف بينهم من قبل ، كان أبناؤهم يتلقون التعليم فى الزاوية - كان تعليماً يشمل تعاليم الإسلام ، كما يشمل الفنون اليدوية والمشغولات التى كانت القبائل تزدرى العمل بها - كما قاموا بحفر كثير من الآبار الأكبر والأجود فى مناطق كانت غير مأهولة على مدى قرون ، وبإرشادهم ظهرت للوجود مجتمعات إسلامية منتعشة وواعدة فى مناطق عديدة من الصحراء ، كما شجعوا أعمال التجارة وساعد السلام الذى أرسوا أسسه بين القبائل على تأمين طرق التجارة مما جعل الانتقال آمنًا على الطرق التى كانت تخشى القوافل المرور بها

لتجنب الاعتداء عليها رسلبها ونهبها . كان نفوذ الحركة السنوسية حافزًا على التغيير ، بينما رفع التزامها الدينى من المستوى الروحى والأخلاقى فى المجتمعات الجديدة . على وجه التقريب ارتضت كل القبائل بالزعامة الروحية للسنوسى الكبير ؛ بل إن السلطات التركية العثمانية التى كانت تحكم مدن الساحل الليبى وجدت أن سلطة الحركة على القبائل تسهل الأمور فى تعاملهم مع القبائل التى كانت تثير المشاكل من قبل .

هكذا ، فى الوقت الذى ركزت فيه الحركة مجودها على ترقية ونمو وتعليم شعوب الداخل ، تحول نفوذها مع الزمن إلى شكل لا يختلف كثيرًا من نفوذ الحكومات . ذلك النفوذ وتلك القوة اعتمدا على قدرة الحركة على تحويل البدو البسطاء وقبائل طوارق شمال إفريقيا من شكل دينى لا يعرف إلا القشور ، إلى بدو أكثر وعيًا بروح الإسلام الحقة ، وتنمية الوعى بروح الاستقلال والسعى إلى الحرية والكرامة الإنسانية والأخوة الإسلامية .

ولم تظهر فى العالم الإسلامى بعد العصر الذهبى للإسلام حركة إسلامية واسعة النطاق تمهد الطريق إلى وحدة إسلامية تماثل الحركة السنوسية .

إلا أن ذلك العهد المسالم من نشر الدعوة والوعى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وصل إلى نهايته ، عندما راحت القوات الفرنسية تزحف جنوبًا من الجزائر باتجاه إفريقيا الاستوائية ، محتلين جزءًا بعد جزء أماكن كانت مستقلة ، كانت تحت النفوذ الروحى للحركة السنوسية . ووجد ابن مؤسس الحركة ، محمد المهدى ، وخليفة أبيه من بعد موته ، نفسه مجبرًا على تجريد السيف الذى لم يغمد بعد ذلك أبدًا . وكان ذلك النضال الطويل جهادًا إسلاميًا حقيقيًا – فقد كانت حرب للدفاع عن النفس والعقيدة ، ويقول القرآن فى تعريف الجهاد :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (صدق اللـه العظيم) .

إلا أن الفرنسيين لم ينتهوا كما تذكر الآية ، فقد حملوا رايتهم ثلاثية الألوان على سناكى بنادقهم إلى أعمق وأعمق فى بلاد إسلامية .

ولما مات محمد المهدى عام ١٩٠٢ ، تولى ابن شقيقه ، سيد أحمد ، قيادة الحركة السنوسية ، كان قبل توليه وبعد توليه يخوض غمار الحروب ضد القوت الفرنسية التى راحت تضغط عليهم بما يعرف الآن إفريقيا الاستوائية الفرنسية ، وحين غزا الإيطاليون طرابلس وبرقة عام ١٩١١ ، أصبح لزامًا عليه أن يقاتل فى جبهتين ، إلا أن ذلك جعله يحول كل جهد الحركة إلى العدو الجديد الذى احتل شمال ليبيا . حاربهم فى البداية بمعاونة من الأتراك ، ولما انسحب الأتراك من ليبيا فى الحرب العالمية ، وجد نفسه يحارب وحده . وشنّ سيد أحمد والمجاهدون السنوسيون غاراتهم على الغزاة بنجاح بالرغم من تفوق الإيطاليين الكاسح فى العدد والسلاح ، وتقلص نفوذهم حتى لم يتجاوز بعض المدن الساحلية .

كان البريطانيون قد ثبتوا أقدامهم فى مصر ولم يكن فى صالحهم تمدد وتوسع إيطاليا فى شمال إفريقيا ، كما لم يكونوا على عداء مع الحركة السنوسية ؛ لذلك كان موقفهم المحايد فى مصلحة الحركة ، فقد كانت كل إمدادات المجاهدين السنوسيين تصل إليهم من مصر ، وكان شعب مصر يتعاطف مع الحركة ويؤيدها . وكان يمكن للحركة أن تنجح فى طرد الإيطاليين من برقة نهائيًا مع توفر حياد بريطانيا .

ولكن فى عام ١٩١٥ ، دخلت تركيا الحرب العالمية متحالفة مع ألمانيا ، وطلب السلطان العثمانى بصفته خليفة المسلمين من الحركة السنوسية أن يقفوا إلى جانب الأتراك بمهاجمة القوات البريطانية فى مصر . وكان البريطانيون قد طلبوا من سيد أحمد أن يظل على الحياد مقابل اعترافهم السياسى بشرعية الحركة السنوسية فى ليبيا ، وأن يتخلوا له عن بعض الواحات المصرية فى الصحراء الغربية .

لو كان سيد أحمد قد قبل ذلك العرض ، لكان اتبع ما يمليه عليه التفكير المنطقى ، فهو لا يدين بشىء للأتراك الذين انسحبوا أمام الإيطاليين من ليبيا وتركوه يقاتلهم وحده ، فى الوقت الذى لم يقدم فيه البريطانيون على أى عمل عدائى ضد الحركة السنوسية ، بل على العكس ، أغمضوا عيونهم عن الإمدادات التى تنقل إليهم من مصر - وكانت المصدر الوحيد للحركة - وفوق كل ذلك ، كان الجهاد مع برلين التى تحالفت معها تركيا لا يحقق ما يذكره القرآن عن الجهاد : فتركيا المسلمة فى ذلك الوقت لم تكن فى حالة دفاع عن النفس وتحالفت مع قوة غير إسلامية فى حرب عدوانية .

وهكذا ، كانت الاعتبارات الدينية والسياسية تلزمه اتجاه واحد لا بديل له ، وهو أن يظل بعيداً عن حرب ليست حربه . كان كثير من قادة الحركة السنوسية - ومنهم صديقى سيدى محمد الزواوى - ينصحون سيد أحمد أن يظل على الحياد فى الحرب الدائرة بين تركيا وبريطانيا ، إلا أن فروسيته «الدون كيشوتية » تجاه خليفة الإسلام غلبت مناطق العقل ودفعته إلى اتخاذ القرار الخطأ ، وهاجم الإنجليز فى صحراء مصر الغربية .

كان صراع الضمير أكثر مأساوية فى حالة سيد أحمد ، فلم يكن هناك مكسب أو خسارة شخصية ، بل كانت الخسارة للحركة التى حملت قضية كبرى كرس سيد أحمد حياته من أجلها وحياة جيله وجيلين من قبله . وبمعرفتى الوثيقة به ، لم يكن لدى شك أن دوافعه لهذا القرار الخطأ لم يكن بها دوافع شخصية ، بل كانت من وجهة نظره رغبة فى الحفاظ على وحدة مسلمى العالم ، إلا أنه من وجهة نظر سياسية ، كان قراره أسوأ قرار اتخذه فى حياته بأجمعها . فبدخوله الحرب ضد البريطانيين ، ضحى ، دون أن يعى ذلك فى حينه ، بكل مستقبل الحركة السنوسية .

من ذلك الحين ، وجد نفسه مجبراً على القتال فى ثلاث جبهات : فى الشمال ضد الإيطاليين ، وفى الجنوب الغربى ضد الفرنسيين ، وفى الشرق ضد البريطانيين .

فى البداية حقق بعض النجاح ، كان البريطانيون يعانون من تقدم القوات التركية والألمانية باتجاه قناة السويس من فلسطين ، فأخلوا الواحات فى الصحراء الغربية

لتركيز قواتهم فى منطقة قناة السويس ، فاحتلها على الفور سيد أحمد ، وهرعت قواته الراكبة الجمال والتى كان يقودها محمد الزواوى (الذى عارض بحكمة وقوة ذلك القرار) ، وأخترقوا الصحراء الغربية حتى مشارف القاهرة .

ثم تغير مسار الحرب العالمية : توقف التقدم السريع للقوات الألمانية والتركية نحو قناة السويس من شبه جزيرة سيناء ، وتحول هجومهم إلى تقهقر ، ثم بدأت بريطانيا هجومًا مضادًا على السنوسيين فى الصحراء الغربية ، وأعادوا احتلالهم للواحات الحدودية وآبار المياه ، وقطعت المصدر الوحيد لإمدادات المجاهدين من مصر . كانت المؤن الداخلية والسلاح والذخيرة لا تكفى ولا تفى بحاجات سكان مشتبكين فى معارك حياة أو موت ضد إيطاليا ؛ كما لم تقدم الغواصات الألمانية والنمساوية التى كانت تقوم بعمليات إنزال سرية إلا معونات رمزية .

فى عام ١٩١٧ وأمام ذلك الوضع الحرج أقنعه مستشاروه أن يذهب إلى أسطنبول سرًا فى غواصة ومن هناك يرتب لدعم أكثر فاعلية . وعهد قبل أن يسافر بقيادة الحركة فى منطقة طبرق إلى ابن عمه ، سيد محمد الإدريسى (*)، الذى كان أكثر ميلاً للمهادنة والتصالح مع الإنجليز والإيطاليين ، ووافق البريطانيون - الذين لم يحبوا من البداية أن يدخلوا فى صراع مع السنوسيين لا فائدة لهم من وراءه - على الصلح ؛ وضغطوا على إيطاليا لقبول التصالح .

وبعد فترة اعترف به الإيطاليون «أميرًا على السنوسيين »واحتفظ باستقلال شكلى فى ولاية برقة حتى عام ١٩٢٢ ، بعد أن رجع الإيطاليون عن اعترافهم حتى يسيطروا على كل ليبيا ، وغادر سيد إدريس محتجًا إلى مصر فى بداية عام ١٩٢٣ ، بعد أن عهد بقيادة السنوسيين إلى زميل من أهل الثقة هو عمر المختار ، ووقع خرق الإيطاليين للاتفاق سريعًا ، واشتعلت الحرب فى فزان من جديد .

(*) أصبح ملكًا على ليبيا عام ١٩٥٢ .

فى الوقت نفسه ، واجـه سيد أحمد فى تركيا خزلانًا بعد خزلان . كانت نيتـه أن يعود إلى فزان بمجرد أن يحقق الغرض الذى جاء من أجله ؛ إلا أن ما جاء من أجله لم يتحقق أبدًا .

فبمجرد أن وصل إلى إستانبول ، واجه مكائد كثيرة أرجأت عودته من أسبوع إلى أسبوع ، ومن شهر إلى شهر ، وكان من الواضح أن دوائر صنع القرار المحيطة بالسلطان العثمانى لا تريد للحركة السنوسية النجاح . كان الأتراك يخشون أن يأتى يوم يصحوا فيه العرب ويستعيدون زعامة العالم الإسلامى ، وكان انتصار السنوسيين من عوامل التعجيل بتلك الصحوة ، التى قد يحتل فيها السنوسى الكبير موضع الخليفة العثمانى ، ومع أنه لم يضمر ذلك الطموح ، إلا أن ذلك لم يقض على شكوك الباب العالى . وعلى الرغم من أنه عومل باحترام شديد فى تركيا كقائد للمجاهدين السنوسيين ، إلا أنه أصبح بصورة غير رسمية محجوزًا فى تركيا . وانهارت الدولة العثمانية عام ١٩١٨ ، وتلى انهيارها احتلال الحلفاء لإستانبول ، وكان ذلك علامة على انهيار آماله التى عقدها على تركيا ، وفى الوقت نفسه أغلقت أمامه كل احتمالات العودة إلى برقة .

كان إلحاح العمل من أجل قضية وحدة المسلمين لا يترك لسيد أحمد أى فرصة أن يعيش بلا نشاط . فبينما كانت قوات الحلفاء تنزل فى إستانبول ، عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى لينضم إلى كمال أتاتورك – الذى كان يُعرف فى ذلك الوقت باسم مصطفى كمال – وكان قد بدأ لتوه فى تنظيم المقاومة التركية داخل الأناضول .

ولابد أن نتذكر أن النضال البطولى لكمال أتاتورك فى البداية كان تحت رايات الإسلام ، وأن الحماس والحمية الإسلامية للدفاع عن الدين الإسلامى هما وحدهما اللذان وهبا الأمة التركية فى ذلك الوقت المظلم القوة للقتال ضد القوة الطاغية لليونانيين المدعومين بكل موارد ومصادر الدعم من الحلفاء .

وضع سيد أحمد كل ثقله الروحى فى خدمة القضية التركية ، فكان ينتقل فى أرجاء الأناضول مناشدًا مسلمى تركيا دعم الغازى «المدافع عن الإسلام» مصطفى كمال .

كانت جهوده ووزن اسمه إضافة كبيرة أدت إلى نجاح الحركة الكمالية بين فلاحى الأناضول المسلمين البسطاء الذين لم تكن تعنى لهم الشعارات القومية أى شىء بقدر ما كان يعنى لهم الإسلام كل شىء حتى التضحية بأرواحهم فى سبيله .

ومرة أخرى يرتكب «السنوسى الكبير» خطأ جديداً فى حكمه على الأمور – وبالتالى خطأ قراراته – لا فيما يخص الشعب التركى المسلم الذى قاده حماسه الدينى إلى تحقيق النصر ، بل فيما يخص نوايا قائدهم الذى بمجرد أن تحقق له النصر ، كشف عن هدف رئيسى يختلف عن الأهداف التى ترك شعبه يتوقعها . فبدلاً من أن يجعل الإسلام منطلقًا لرغبته فى التغيير ، تخلى أتاتورك عن الدين الإسلامى الذى أعلن أنه غير ضرورى . كان بإمكانه أن يوظف حماس شعبه الدينى لإنجاز التقدم دون أن يعزله عن كل ما يشكل ثقافته الروحية الإسلامية وجعل منه أمة عظيمة .

بعدم رضا مرير عن إصلاحات أتاتورك المعادية للإسلام ، انسحب سيد أحمد من كل الأنشطة السياسية نهائيًا فى تركيا . وغادرها أخيرًا عام ١٩٢٣ إلى دمشق . ومن هناك ، بالرغم من معارضته لسياسات أتاتورك الداخلية ، حاول أن يخدم قضية وحدة المسلمين بإغراء سوريا بالاتحاد مع تركيا . وراقبت حكومة الانتداب الفرنسية على سوريا ما يفعله بعدم ارتياح ، وبنهاية عام ١٩٢٤ ، عرف أصدقاؤه أن القبض عليه من السلطات الفرنسية أصبح وشيكًا ، فهرب بسيارة من دمشق عبر صحراء سوريا حتى مشارف نجد ؛ ومنها وصل إلى مكة ، واستقبله بترحاب الملك ابن سعود .

[٢]

سألت الزواوى : «كيف حال المجاهدين يا سيدى محمد ؟ »سألته لأنى لم أكن أعرف شيئًا عن أحوال برقة منذ عام .

أظلم وجه سيدى محمد الزواوى المستدير ذو اللحية البيضاء وقال : «الأنباء ليست جيدة يا بنى . انتهى القتال من شهور . لقد انكسر المجاهدون ؛ أطلقوا آخر رصاصة . لا توجد إلا رحمة اللّه تحمى شعبنا التعس من انتقام المحتلين ... ».

سألته : و«سيد إدريس ؟ »

أجابنى وهو يتنهد : «سيد إدريس ! سيد إدريس مازال بمصر ، ينتظر لا حول له ولا قوة – ينتظر ماذا ؟ إنه رجل جيد . باركه اللّـه ، إلا أنه ليس مقاتل . إنه يحيا مع كتبه ، السيف غير ثابت فى يده ولا يناسبها ... ».

قلت : « ولكن عمر المختار – بالتأكيد لم يستسلم للأعداء ؟ هل فرّ إلى مصر ؟ ».

توقف سيدى محمد عن السير والتفت إلىّ محملقًا فى دهشة : «عمر ! إنك حتى لم تعرف هذا ؟ ».

سألته : «أعرف ماذا ؟ ».

قال برقة : «يا بنى ، سيد عمر يرحمه اللّـه ، مات من عام ».

مات عمر المختار ...؟ أسد برقة ، الذى لم تعقه سنواته السبعين عن القتال من أجل حرية بلده : مات ... لقد كان على مدى عشرة أعوام كئيبة روح ورمز لشعبه للمقاومة ضد هدف ميئس – ضد القوات الإيطالية التى تفوقهم عدداً بعشر مرات ومسلحين بأحدث الأسلحة ، من سيارات مصفحة ، إلى طائرات حربية ومدفعية – بينما لا يملك عمر والمجاهدين نصف الجائعين إلا بنادق وبعض خيل يستخدمونه فى شن هجمات فدائية فى بلدهم التى تحولت إلى معتقل كبير ...

لم أصدق أن ذلك كان صوتى وأنا أقول له : «على مدى العام ونصف الأخيران منذ أن عدت من برقة كنت أعرف أنه هو ورجاله ميتين . كم حاولت حينها بإقناعه بالانسحاب إلى مصر مع من تبقى معه من أحياء من المجاهدين ليحتفظ بحياته من أجل شعبه .. وكان بكل هدوء يرفض محاولات إقناعه ، وهو يوقن أن الموت ولا شىء غير الموت ينتظره فى طبرق : والآن ، بعد مائة معركة ، حل الموت الذى طال توقعه ... ولكن قل لى ... متى سقط ؟ »

هز محمد الزواوى رأسه فى أسى ، كنا حينها نخرج من شارع السوق الضيق إلى ميدان المناخة الواسع المظلم ، وقال :

«لم يسقط فى معركة . لقد جرح ووقع أسيرًا ، ثم قتله الإيطاليون ... شنقوه مثلما يشنق أى لص عادى ... ».

تعجبت متسائلاً : «وكيف جرأوا على ذلك ؟ لا يجرؤ جراتسيانى ذاته أن يقوم بذلك العمل الهمجى ».

أجاب بابتسامة مريرة : «ولكنه فعل ، كان الجنرال جراتسيانى ذاته هو من أمر بشنق عمر المختار . كان سيدى عمر ورجاله فى عمق منطقة يسيطر عليها الإيطاليون ، كان فى تلك المنطقة قبر سيدى رافع من الصحابة ، فذهبوا لزيارة قبره والترحم عليه ، وعلم الإيطاليون بوجوده وحاصروا الوادى بقوات كبيرة . لم يكن هناك أى طريق للهرب ، ودافع سيدى عمر هو والمجاهدون عن أنفسهم حتى لم يبق إلا هو واثنان من المجاهدين . وفى النهاية أصابت جواده رصاصة وسقط من علي صهوته سقطة شديدة قاسية ، إلا أن الأسد العجوز استمر يطلق رصاص بندقيته حتى أصابته طلقة فى يده ؛ فاستمر فى إطلاق النار بيده الأخرى حتى نفذت ذخيرته ، فأسروه وكبلوه وساقوه إلى سولوق . وهناك مثل أمام الجنرال جراتسيانى الذى سأله : « ما قولك لو أن الحكومة الإيطالية بعطف منها ورحمة دعتك تعيش ، هل تعد أن تعيش ما تبقى لك من عمر فى هدوء وسلام ؟

إلا أن سيدى عمر أجابه : لن أتوقف عن حربكم حتى تغادروا بلدى ، أو تغادر روحى بدنى . وأقسم لك باللّـه الذى يعلم ما تخفى الصدور لو لم تكن يداى مقيدتان فى هذه اللحظة لضربتك بيدى الخاليتين وأنا عجوز ومصاب كما أنا ... وضحك الجنرال جراتسيانى وأصدر أمره بشنقه فى ساحة سوق بلدة سولوق ؛ وشنقوه . ثم ساقوا آلافًا من المسلمين بالقوة رجالاً وسناءً من معسكرات التجميع التى كانوا بها وأجبروهم على مشاهدة قائدهم وهو معلق فى حبل المشنقة (*) ».

(*) وقع هذا العمل « الفروسى » الإيطالى فى ١٦ سبتمبر عام ١٩٣١ .

[٣]

كانت يدى مازالت بيد سيدى محمد الزواوى ونحن نقترب من الزاوية السنوسية . كان الظلام مخيمًا على الميدان الواسع ، وابتعدنا عن ضوضاء السوق الذى أصبح خلفنا ، لم نكن نسمع إلا صوت الرمال المنسحقة تحت صنادلنا . كانت إبل نقل البضائع باركة فى مجموعات متفرقة ونرى أشباحها فى الظلام ، ومنازل بعيدة فى الطرف البعيد من الميدان تبدو بغير وضوح أمام خلفية من سماء ملبدة بالغيم . ذكرتنى هيئة البيوت بحافة غابة بعيدة - كانت مثل غابات أشجار الصنوبر فى هضبة طبرق حيث التقيت للمرة الأولى والأخيرة بسيدى عمر المختار ، وراحت ذكرى تلك الرحلة ألتى لم تثمر شيئًا تتراكم داخلى برائحتها المأساوية من ظلام ومخاطر وموت ، ورأيت بين سيل الذكريات وجه سيدى عمر المكفهر وهو ينحنى على لهب نار صغيرة ، وأتذكر صوته الأجش : «لابد أن نقاتل فى سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت ... لا يوجد خيار آخر ... » .

* * *

كانت مهمة غريبة تلك التى ساقتنى إلى طبرق فى آخر يناير عام ١٩٣١ قبل المهمة ببضعة شهور - فى خريف عام ١٩٣٠ على وجه الدقة - وصل السنوسى الكبير إلى المدينة . قضيت ساعات معه بصحبة محمد الزواوى ، نناقش الوضع الميئوس منه للمجاهدين الذين كانوا يناضلون فى برقة تحت قيادة عمر المختار . تبين أنهم إن لم يتلقوا مساعدة عاجلة وفعالة من خارج ليبيا ، لن يتمكنوا من الصمود .

كان الموقف إجمالاً فى برقة كما يلى : كانت كل المدن الساحلية ، وبعض المراكز شمال الجبل الأخضر تحت سيطرة الإيطاليين ، وكانوا يسيرون دوريات بين تلك المراكز مكونة من عربات مصفحة وأعداد كبيرة من الخيالة ، وأغلبهم من الجنود الأريتريين ، وتدعمهم أسراب طائرات مقاتلة تشن الغارات على مناطق المجاهدين . لم

يكن البدو (وهم الكتلة الرئيسية من مجاهدى عمر المختار) يتحركون من أى مكان دون أن يتم رصد تحركهم فوراً وتهاجمهم الطائرات من الجو . حدث كثيراً أن طائرات الاستطلاع كانت ترصد وجود تجمع للقبائل وتبلغ أقرب نقطة حصينة باللاسلكى عن أماكن تواجد البدو ، فى الوقت الذى تمنعهم الطائرات من التفرق بمدافعها الرشاشة حتى تصل المدرعات ، وتسير مباشرة باتجاه الخيام بما فيها من بدو ، وتقتل بلا تمييز كل ما يمكن قتله من رجال ونساء وأطفال وإبل وماشية ، ومن يبقى على قيد الحياة كان يساق إلى الشمال إلى معسكرات تجميع هائلة محاطة بأسوار شائكة أقامها الإيطاليون على الساحل .

فى ذلك الوقت ، بالقرب من نهاية عام ١٩٣٠ ، كانوا قد ساقوا إلى تلك المعسكرات حوالى ثمانين ألف بدوى ومئات الآلاف من الإبل والماشية والأغنام ، ولا يوجد بتلك المعسكرات ما يكفى لإطعام ربع هذا العدد ؛ فراح الموت من المجاعة يحصد أرواحهم بشكل مخيف . عدا ذلك كان الإيطاليون يقيمون سوراً عازلاً من الأسلاك الشائكة يفصل ليبيا عن مصر يمتد من الساحل حتى واحة جغبوب لمنع المجاهدين من الحصول على إمدادات من مصر . كانت قبيلة المغاربة تقاتل فى شراسة واستبسال تحت زعامة قائد «الأطاوش » ذراع عمر المختار الأيمن ، فى غرب منطقة الساحل من طبرق ، فى حين كان الإيطاليون قد اكتسحوا مناطق باقى القبائل بتفوقهم فى العدد والتسليح . وفى عمق الجنوب كانت قبيلة زواوية تحت زعامة أبو كريم البالغ من العمر تسعين عامًا ما تزال تقاوم فى يأس بعد أن أزاحهم الإيطاليون عن موطنهم فى واحة جالو . أما فى الوسط ، فكان الجوع والأمراض يحصدان البدو حصداً .

لم تتجاوز القوات التى يوظفها عمر المختار فى أى وقت الألف رجل ، لم يكن ذلك لنقص فى الرجال ، بل لأن نمط حرب الإغارات المفاجئة الذى كان عمر المختار يقوم به يتطلب سرعة الحركة لمجموعات صغيرة ضاربة تظهر فجأة من حيث لا يشعر بها أحد لتهاجم قافلة إيطالية متحركة أو نقطة ثابتة حصينة لتستولى منها على السلاح ، وتختفى فجأة كما ظهرت فجأة فى غابات أشجار الصنوبر أو فى وديان خفية بين

جبال منطقة طبرق . لم يكن من الممكن لتلك العصابات صغيرة العدد مهما كانت شجاعتها وإصرارها على الشهادة أن تحقق نصراً حاسماً على عدو يمتلك إمدادات ومصادر سلاح غير محدودة من رجال وعتاد . كان السؤال المطروح هو كيف ندعم المجاهدين لتمكينهم ليس فقط من إنزال خسائر بالغزاة ، بل لاسترداد المواقع التى تمركز فيها العدو واحتلها ، ثم التمسك بتلك المواقع عند أى هجوم مضاد لاستردادها .

كان دعم المجاهدين السنوسيين يعتمد على عدة عناصر : تدفق مستمر لإمدادات الغذاء من مصر ، حيث يعاني المجاهدون من نقص الغذاء معاناة شديدة ؛ وأسلحة قادرة على الصمود أمام الطائرات المغيرة والعربات المدرعة - كانوا يحتاجون بنادق مضادة للمدرعات ، ومدافع رشاشة ثقيلة ، وأفراد مدربين تدريباً جيداً وقادرين على استخدام تلك الأسلحة وتدريب المجاهدين على استعمالها ؛ وأخيراً ، إيجاد نظام اتصال لاسلكى بين مختلف مجموعات المجاهدين فى هضبة طبرق وبين مسئولى الإمداد والتموين من خلال الحدود المصرية .

رحنا نجتمع على مدى أسبوع تقريباً كل ليلة ، أنا ، والسنوسى الكبير سيدى محمد ، لمناقشة ما يمكن عمله . كان رأى سيدى محمد أن الإمدادات غير المنتظمة للمجاهدين لن تجدى . كان يؤمن أن واحة الكفرة ، فى جنوب صحراء ليبيا ، والتى كانت مركز قيادة الحركة السنوسية فى أيام سيدى أحمد لابد أن تصبح من جديد النقطة المركزية لقيادة كل أعمال المقاومة الحربية القادمة ؛ لأن الكفرة كانت ما تزال بعيدة عن أيدى الإيطاليين . وقد تكون أفضل لقوافل الإمداد (على الرغم من طول الطريق وصعوبته) فى الانتقال ما بينها وبين واحتى الفرافرة والبحرية فى مصر ، وبذلك يكون هناك ضمان أفضل لوصول الإمدادات بطريقة منتظمة ، كما أن الكفرة من الممكن أن تكون مكاناً صالحاً لإيواء آلاف البدو الذين يلجأون إلى مصر ويحيون فى معسكرات بها ، وبذلك يتوفر مصدر للمقاتلين لتدريبهم على أعمال الحرب تحت قيادة عمر المختار فى الشمال . فإذا تم تحصين الكفرة فإنها من الممكن أن تصمد أمام هجوم الطائرات

المغيرة ويصبح القصف بالقنابل من ارتفاعات عالية غير مؤثر فى تجمعات حصينة منتشرة فى منطقة واسعة .

وقال السنوسى الكبير : إنه إذا كان ممكنًا إعادة تنظيم خطط النضال فإنه سيعود بنفسه إلى الكفرة لقيادة العمليات الجديدة من هناك . أما أنا فقد أصررت أنه لكى تنجح مثل تلك الخطة فإنه من المحتم على سيد أحمد أن يعيد تأسيس علاقات جيدة مع البريطانيين الذين هاجمهم بلا داع عام ١٩١٥ . وكان تحسين العلاقات لا يبدو مستحيلاً ، فالبريطانيين لم يكونوا سعداء بنوايا إيطاليا التوسعية ، خاصة بعد أن أعلن «موسولينى» للعالم أجمع نواياه فى إعادة «إحياء الإمبراطورية الرومانية» على سواحل البحر المتوسط ، وكانت عينه على مصر بوجه خاص .

كان اهتمامى بالحركة السنوسية لا يعود إلى إعجاب شخصى ببطولتهم الفائقة وشجاعتهم فى قضيتهم العادلة ؛ ما كان يهمنى أكثر من ذلك هو الأثر الذى سيتركه الانتصار السنوسى إن تحقق على العالم العربى كله . ومثلى مثل كل المسلمين ، كان ابن سعود محط آمالنا كقائد حتمى لحركة إحياء الأمة الإسلامية ، ثم ثبت لى أنها كانت آمال وهمية ، ولم أجد فى العالم الإسلامى كله حركة أصيلة تتبنى تحقيق المجتمع الإسلامى مثلما وجدت فى الحركة السنوسية ، وكانت الحركة السنوسية فى ذلك الوقت تحارب معركة الخندق الأخير من أجل البقاء .

ولمعرفة سيد أحمد بمشاعرى تجاه القضية السنوسية ، استدار ونظر نظرة مباشرة إلى عينى وقال :

«هل تذهب إلى طبرق باسمنا وتتعرف بنفسك على ما يجب عمله لمساعدة المجاهدين ؟ ربما كان بإمكانك أن ترى الأشياء أوضح مما تراه عيوننا ».

نظرت إليه وهززت رأسى بالموافقة ، دون كلمة ، بالرغم من يقينى بثقته بى ، إلا أن ما طلبه منى جعلنى أحبس أنفاسى . كان الإقدام على مغامرة بهذه الجسامة يجعلنى لا أجد الكلمات المناسبة ؛ ما أثارنى هو احتمال أن أقوم بشىء للحركة التى ضحى رجال كثيرين بأنفسهم فى سبيلها .

مد سيد أحمد يده إلى رف فوق رأسه وتناول مصحف ملفوف فى قماش حريرى . وضع كتاب اللـه على ركبتيه ، وتناول كفى الأيمن بين كفيه ووضعها على القرآن ووضعها على القرآن ، وقال : «أقسم يا محمد ، باللـه الذى يعلم ما تخفى الصدور ، أنك ستظل مخلصاً للمجاهدين ... ».

أقسمت ؛ ولم أكن على يقين وإيمان بقسم أقسمته فى حياتى مثلما كنت على يقين من التزامى المطلق بهذا القسم .

* * *

كانت المهمة التى أسندها إلى سيد أحمد تتطلب سرية مطلقة ؛ ولأن علاقتى بالسنوسى الكبير كانت معروفة ، وتحت بصر البعثات الأجنبية فى جدة ، لم يكن من المستحب أن أسافر إلى مصر بشكل واضح وظاهر وأتعرض لاحتمال مراقبتى وإجهاض مهمتى . كان كشفى لخفايا استمرار تمرد فيصل الداويش والجهات التى تمول تمرده لا يدعم موقفى مع البريطانيين ، ولابد أنهم سيراقبوننى بكل صرامة لو علموا بوصولى إلى مصر . لذاك اتفقنا أن أذهب إلى مصر خفية دون إن يشعر بى أحد . قررنا أن أعبر البحر الأحمر فى أحد المراكب الشراعية العربية وأنزل خفية على أحد السواحل المهجورة جنوب مصر دون أوراق أو جواز سفر أو تأشيرة دخول . وفى مصر أتنقل فى هيئة رجل حجازى ، وكان بمصر كثير من أهل مكة والمدينة الذين يذهبون إليها لأغراض التجارة أو البحث عمن ينوون أداء فريضة الحج ، وقد كان ذلك من المشاهد المألوفة فى ريف مصر ومدنها - ولأننى أتحدث اللهجة الحجازية بإتقان مطلق ، كان بإمكانى أن أنتقل بحرية فى مصر بصفتى أحد أبناء المدينتين المقدستين .

تطلب الإعداد للسفر بضعة أسابيع ، وشمل تبادل الرسائل سراً مع سيدى عمر المختار فى طبرق ومع المراكز السنوسية فى مصر ، وبدأت السفر فى الأسبوع الأول

من يناير عام ١٩٣١ ، بصحبة زيد من ميناء ينبع بالحجاز من مكان غير مطروق على الشاطئ . اخترنا ليلة بلا قمر ، وكان سيرنا على ممشى غير ممهد بصنادلنا غير يسير ومضنى ، فقد تعثرت وسقطت على الأرض وفى سقطتى ضرب مقبض المسدس الذى كنت أخفيه تحت قفطانى الحجازى ضلوعى ، وأحيا بذلك فى ذهنى جوانب خطورة مهمتى التى كنت مقدماً عليها .

ها أنذا أمضى إلى موعد مع ربان مركب عليه أن يأخذنى فى مركبه عبر البحر الأحمر وينزلى خفية على شواطئ مصر ، لم آخذ معى أى وثائق تفضح شخصيتى ، فإذا قبض على فى مصر ، لن يكون من السهل أن أثبت لهم من أنا . ورغم ذلك فإن خطر البقاء عدة أسابيع فى السجون المصرية لا يقارن بالمخاطر الأخرى التى قد أتعرض لها . كان علىّ أن أشق طريقى عبر كل الصحراء الغربية لمصر ، متجنباً عيون الجواسيس الذين يعملون لصالح إيطاليا لرصد المتسللين عبر الصحراء الغربية المتاخمة لليبيا ، وقد تصادفنا دوريات من العربات المصفحة المجنزرة فى أعماق بلد لا يتحدث فيها إلا السلاح .

لماذا أفعل ذلك ؟

على الرغم من أن اقتحام المخاطر لم يكن جديداً علىّ ، فإننى لم أسع إلى المخاطر لمجرد الإثارة . وحين كنت أقتحم المخاطر فإن ذلك كان دائماً استجابة لاحتياج ملح ، يرتبط بوعى أو بلا وعى بنمط حياتى كما اخترته . فكيف ينطبق ذلك على المهمة التى أنا بسبيلى إليها ؟ هل هناك أى احتمال أن ما أفعله قد يحول دفة الأمور لصالح المجاهدين ؟ أردت أن أصدق ذلك ، إلا أننى كنت أوقن فى أعماقى أننى خرجت إلى مهمة لا طائل من ورائها . إذن لماذا بحق اللّه أغامر بحياتى كما لم أغامر بها من قبل وبدون أمل من وراء تلك المغامرة ؟

إلا أن الإجابة كانت حاضرة حتى قبل أن يكتمل السؤال فى لا وعيىّ .

فحين اعتنقت الإسلام وقبلته كمنهج لحياتى ، اعتقدت أن كل تساؤلاتى وسعى للبحث قد رست على نهاية . ولكن تدريجياً ، وببطء ، بدأت أعى أن مجرد إسلامى لم

يكن النهاية ، لقد وجدت أن قبولى لمنهج الحياة ، كان يعنى ، لى على الأقل ، الارتباط الكامل بمن لهم إيمانك نفسه - لا بالإحساس والمشاعر فقط ، ولكن بالعمل على ما فيه صالح المجتمع الذى أنتمى إلى إيمانه . بالنسبة لى ، كان الإسلام طريقًا ؛ إلا أنه لم يكن نهاية - وكان مجاهدى عمر المختار يقاتلون بيأس ويبذلون دماءهم من أجل الحرية ليسيروا على الطريق نفسه الذى اخترته ، طريق الإسلام ، كما فعل صحابة الرسول من ثلاثة عشر قرنًا ، وأن أكون نافعًا لهم مهما يكن يقينى من عدم جدوى المهمة ونتائجها ، كان يبدو لى فريضة كالصلاة ...

ها نحن وصلنا إلى الشاطئ ، كان هناك قارب بمجدافين تأرجحه الأمواج راسيًا على حصى الشاطئ بانتظارنا لينقلنا إلى المركب الشراعى الذى كان ينتظرنا فى عمق المياه بعيدًا فى الظلام ، وحين كان ينهض الرجل الممسك بالمجدافين ونحن نقترب ، قلت لزيد :

«أخى زيد ، هل تعرف أننا ذاهبون إلى مغامرة أخطر كثيرًا من المهمة التى قمنا بها لكشف سر استمرار تمرد فيصل الداويش والإخوان ؟ ألا تتطلع إلى الحياة الآمنة بالمدينة ولقاء الأصدقاء ؟ ».

أجاب زيد : «طريقك طريقى يا عمى ، ألم تقل لى بنفسك أن المياه الراكدة تتعطن ؟ هيا بنا - حتى تجرى المياه وتظل نقية ... ».

كانت المركب واحدة من تلك المراكب الشراعية الكبيرة التى تسمى «دهو » ويمضى كثير منها بين السواحل والموانى العربية ، مشيدة بأجمعها من الخشب ، وتنبعث منها رائحة الأسماك وأعشاب البحر ، بمؤخرة عالية مرتفعة عن سطح الماء ، وصاريتين على الطراز اللاتينى ، وبينهما قمرة واسعة واطئة السقف . كان ربان المركب رجلاً عجوزًا من مسقط ، له عينان ضيقتان مثل خرزتين تطلان من تحت عمامة هائلة ملونة ، نظراته تشى بكثرة المخاطر التى واجهها فى حياته والمغامرات الكثيرة التى صادفها ؛ ولم يبد أن خنجره الكبير المعقوف ذى المقبض الفضى المثبت فى حزامه قد وضع لمجرد الزينة .

قال ونحن نصعد إلى سطح المركب : «مرحبًا ، يا مرحبًا يا أصدقائى ، هـذه ساعة سعد ».

تساءلت فى عقلى ، كم مرة من قبل رحب بالحجاج الفقراء الذين ينقلهم من مصر دون تفكير فى راحتهم وينزلهم على سواحل الحجاز حتى يتجنوا الأعباء المالية الثقيلة التى تفرضها السلطات السعودية على من يؤدون أداء فريضة الحج للّـه ؟ وكم مرة وجه عبارات الترحيب ذاتها إلى تجار الرقيق الذين يخالفون الشريعة الإسلامية ويأسرون الأثيوبيـين الفقراء التعساء لبيعهم فى أسواق الرقيق فى اليمن ؟

عزيت نفسى عن ذلك بأن الخبرات التى اكتسبها ريس المركب ، مهما كانت أسبابها ودوافعها قد تكون مفيدة لنا ، فهو يعرف طريقه فى البحر الأحمر بخبرة لا توجد إلا لدى قليل من البحارة ، ويمكننا الاعتماد عليه فى إنزالنا بمكان مأمون على سواحل مصر .

* * *

بعد أربع ليال قضيناها على ظهر الدهو ، نزلنا من جديد إلى قارب المجاديف ونزلنا بموضع على الساحل المصرى شمال ميناء القصير جنوب مصر رفض الريس أن يقبل أجرًا ؛ لأنه كما قال مكشرًا « قبض ثمن النقل من رؤسائه » ، و «اللّـه معكم » .

كما توقعت ، لم يكن من الصعب أن نتخفى فى القصير ، التى اعتاد أهلها رؤية أهل الحجاز بملابسهم المميزة . فى الصباح التالى ركبنا سيارة عامة متهالكة متوجهة إلى أسيوط على نهر النيل ، وانحشرت بين سيدة بدينة جدًا كانت تحمل على حجرها قفصًا مليئًا بالدجاج ورجل فلاح عجوز ، بمجرد أن رآنا راح على الفور يروى ذكريات حجه الذى أداه من عشرة أعوام ، ومن القصير بدأنا أنا وزيد أول خطوات رحلتنا الإفريقية .

كنت أعتقد على الدوام أن المتخفى يشعر أنه محط الأنظار المتشككة من جانب كل من يرونه ، وأن الناس سرعان ما تكشف حقيقته ، إلا أننى لم أشعر بذلك ، فخلال السنين التى قضيتها بالجزيرة العربية ذبت فى حياة أهلها حتى صرت بالفعل واحداً منهم ك وبرغم أننى لم أشارك أهل مكة ولا المدينة شؤن التجارة ، إلا أننى لم أشعر بافتعال وأنا أقوم بدور متعهد الحجاج فى مناقشات مطولة مع ركاب آخرين عن فضائل الحج ، كما تقمص زيد الدور نفسه بانغماس كامل ، وقضينا الساعات الأولى من رحلتنا فى مناقشات ممتعة .

من أسيوط ركبنا القطار حتى مدينة صغيرة هى بنى سويف ، وذهبنا مباشرة إلى منزل حلقة اتصالنا بالسنوسيين ، وهو إسماعيل الدهنى ، وهو رجل قصير بدين ذو ملامح مرحة ، يتحدث لهجة أهل صعيد مصر . كان تاجر ملابس متوسط الحال ، ولم يكن من المشهورين فى المدينة ك إلا أن ولاءه للحركة السنوسية كان شديداً وخاصة لسيد أحمد . وبالرغم من وصولنا إلى بيته فى ساعة متأخرة ، إلا أنه أيقظ الخادم ليعد لنا وجبة طعام ، وحين كنا بانتظار الطعام ، أعاد علينا سرد الترتيبات التى أعدها لرحلتنا .

بمجرد أن تلقى رسالة سيد أحمد ، اتصل بشخصية معروفة فى العائلة المالكة فى مصر من المؤيدين للحركة السنوسية ، وتحمس ذلك الأمير جداً للمهمة التى أقوم بها ؛ وأمر بوضع كل الأموال اللازمة تحت تصرفى ، وإعداد الإبل واثنين من الأدلاء الأكفاء لقيادتنا حتى طبرق . فى تلك اللحظة ، أخبرنا مضيفنا أنهم بانتظارنا بأحد بساتين النخيل خارج مدينة بنى سويف .

وتخلصت أنا وزيد من الزى الحجازى ، الذى قد يثير الشكوك فى الصحراء الغربية ولبسنا سراويل قطنية وقمصان على نمط ما يلبسه أهل شمال إفريقيا وبرنس صوفى ، وكذلك الذى يرتدونه غرب مصر وشمال ليبيا . وأحضر لنا من طابق تحت الأرض بمنزله مسدسين من صناعة إيطالية : «حتى يكون من السهل علينا الحصول على ذخيرة لهما من التى حوذة المجاهدين » . فى الليلة التالية قادنا مضيفنا إلى

خارج المدينة . كان دليلانا من قبائل بدو أولاد على الذين يعيشون غرب مصر وشمال ليبيا . وكانت الحركة السنوسية تضم كثير منهم ؛ كان أولهما واسمه عبد اللـه ، شديد الحيوية وشارك فى العام السابق فى معارك منطقة طبرق بين المجاهدين والجيش الإيطالى ، وزودنا بمعلومات كثيرة عما يمكن أن يواجهنا هناك . والآخر ، الذى نسيت اسمه ، كان نحيلاً معتل المزاج نادراً ما يتحدث إلا أنه كان من الثقاة . كان معهم أربعة جمال بدا أنها قوية وسريعة من فصائل جمال البشارية وتم اختيارها بعناية ، وعليها سروج لا تختلف عن تلك التى ألفتها فى الجزيرة العربية . ولما كان علينا أن نتحرك طول الوقت وبسرعة ، لم يكن هناك وقت لإعداد وجبات مطهية ؛ لذلك كان تموينا بسيطًا : جوال من التمر ، وجوال أصغر من البسكويت المحلى المخبوز برقائق تمر ، وقرب ماء على ثلاثة من الجمال .

قبل منتصف الليل بقليل ، احتضننا إسماعيل الدهبى مودعًا وهو يدعو اللـه أن يشملنا برعايته ، كان متأثراً بعمق . وبقيادة عبد اللـه غادرنا بستان النخيل ، وسرعان ما كنا تحت ضوء قمر ساطع ، نجرى بالجمال فى إيقاع سريع فوق سهل صحراوى حصوى باتجاه الشمال الغربى .

ابتعدنا عن طريق القوافل المعتادة حتى لا نلتقى بدوريات حرس الحدود المصرية ، إلا أن السير إلى الشمال لم يكن يشكل خطراً .

قطعنا فى الليلة الأولى حوالى ثلاثين ميلاً ، وتوقفنا فى النهاية بين تجمعات لأشجار الطرفاء والأعشاب ، فى الليالى التالية قطعنا الطريق بمعدلات أكبر ، وفى فجر اليوم الرابع كنا قد وصلنا إلى حافة المنخفض الكبير الذى توجد به الواحات البحرية .

توارينا خلف صخور ضخمة على حافة المنخفض - كانت الواحات عبارة عن تجمعات سكنية متباعدة يُشكل كل تجمع إحدى القرى ، كانت القرية الرئيسية هى قرية الباويطى - نزل عبد اللـه منحدراً من الحافة الصخرية إلى المنخفض الذى تنمو به أشجار النخيل بغزارة ليقابل حلقة الاتصال بالواحات المقيم بقرية الباويطى . كنا نعرف أنه لن يعود إلا بعد حلول الليل ولذلك تمددنا لننام فى ظل الصخور العملاقة : راحة

ممتعة بعد ليلة من الركوب الطويل فى ليلة باردة ، لم أتمكن من النوم نومًا عميقًا فقد شغلت ذهنى أفكار كثيرة .

أعدت فى ذهنى مراحل خطتنا ، بدا لى أنه لن يكون صعبًا المحافظة على طريق دائم ومنتظم بين بنى سويف والواحات البحرية بقوافل يتم الإعداد لها بعناية . وعلى الرغم من أن مكتب مراقبة الحدود كان بقرية الباويطى (وكنا نرى مبانيه البيضاء ونحن على الحافة الصخرية التى تعلو المنخفض) ، كما يمكن أن ننشئ محطة اتصال لاسلكية فى إحدى تلك القرى المنعزلة جنوب الواحات البحرية . وأكد لى عبد اللّـه ذلك بعد أن عاد هو والحلاق العجوز الذى كان حلقة اتصالنا بالباويطى . لم تكن الواحات البحرية تحت سيطرة محكمة ولا رقابة دقيقة ، والأهم من ذلك أن كل أهل الواحات كانوا يؤيدون الحركة السنوسية .

بعد أربع ليال أخرى من السير المتواصل ، عبر وديان حصوية ، ثم عبر فوالق صخرية كثيرة ، ، ثم كثبان رملية مسطحة ؛ تجاوزنا واحات «سترا » غير المأهولة ببحيراتها المالحة التى يحيطها نبات البوص والنخيل الكثيف ، ثم عبر قوس «أرڤ » بصخوره الجيرية المتعرجة الرائعة التكوينات والتى كان ضوء القمر يخلق منها أشباحًا مخيفة كأننا فى العالم الآخر ؛ وعند نهاية الليلة الخامسة ، تبدت لنا أول ملامح واحة سيوة .

كان من أعز أمنياتى لزمن طويل أن أزور تلك الواحات النائية التى كان بها معبد آمون صاحب النبوءات الشهيرة فى العالم القديم ؛ ولم تتحقق رغبتى قبل ذلك . وها هى الآن تبدو أمامى على ضوء الفجر المتزايد : امتداد هائل لأشجار النخيل لا أرى نهايته يحيط تل مرتفع تقع عليه بيوت أهل الواحة . كانت البيوت تبدو كأنها مقامة فى كهوف صخرية تنهض طابقًا فوق طابق على منحدرات التل وتصعد باتجاه مئذنة مخروطية تحتل أعلى التل . كان تجمعًا غريبًا للمساكن مثل تلك التى تراها فى الأحلام .. أمسكت بتلابيبى رغبة ملحة أن أطوف بنواحيها الغامضة وأن أتجول عبر شوارعها التى شهدت عصور الفراعنة وأن أشاهد حطام المعبد الذى استمع فيه

«كروسوس » ملك ليديا إلى نبوة كهنة المعبد بموته ، وعلم فيه الإسكندر الأكبر بأنه سيقهر العالم كله . ولكن بقى شغفى مرة أخرى دون تحقق ، فبالرغم من قربها منى إلا أنها ستظل مغلقة دونى . مكان مثل هذا معزول عن العالم الخارجى يلاحظ فيه أى وجه غريب بمنتهى السهولة ، وسيكون من الحماقة أن أفعل ذلك : كانت الواحة تكاد تقع على الحدود الليبية وبالتالى كانت تحت الرقابة الصارمة للإدارة الإيطالية عن طريق ناقلى الأخبار الذين تدفع لهم السلطات الإيطالية . أقنعت نفسى فى أسى أنه ليس من نصيبى أن أزور سيوة هذه المرة ، وصرفتها عن ذهنى .

لففنا حول الواحة فى نصف دائرة من جنوبها ، ثم أنخنا الجمال فى فج بين الصخور ينمو فيه نخيل برى . ودون أن يرتاح عبد اللّـه ، لأنه لم يكن لدينا النية للتوقف طويلاً فى منطقة الحدود إلا للضرورة ، ذهب للقاء حلقة الاتصال وطلب منه أن يتلقانا فور عبورنا الحدود . بعد بضع ساعات عاد ومعه دليلان آخران وأربعة جمال أخرى غير مستنفذة القوة . كان الدليلان من بدو برصه بالجبل الأخضر ومن رجال عمر المختار ، وأرسلهم بنفسه ليقودانا عبر المفصل بين واحات جغبوب التى يحتلها الإيطاليون وواحات جالو ، حتى هضبة طبرق ، حيث كنت سألتقى بعمر المختار .

ودّعنا عبد اللّـه وصديقه اللذان استدارا عائدين إلى قريتهما بمصر ؛ وبقيادة المجاهدين ، خليل وعبد الرحمن ، بدأنا رحلة الأسبوع فى صحراء بلا ماء تصعد بالتدريج حتى هضبة الجبل الأخضر . كانت أصعب رحلة صحراء عرفتها فى حياتى . وبالرغم من عدم وجود مخاطر كبيرة من اكتشاف الدوريات الإيطالية لنا ، إلا أننا لجأنا إلى الاختفاء والسكون نهاراً والسير ليلاً ، وكانت ضرورة الابتعاد عن خط الآبار التى تفصلها مساحات شاسعة تجعل من الرحلة عذاباً مهلكًا ويحيلها إلى ما يشبه الكابوس . لم نتمكن إلا مرة واحدة من سقى جمالنا وإعادة ملء قِرَب مياهنا من بئر منعزلة نائية فى وادى المرا ؛ وأثبت ذلك قلة حيلتنا . وصلنا البئر متأخرين عما خططنا له ، كان نور الفجر قد بدأ ينبلج حين كنا نسحب أول دلو لسقى الجمال ، وعندما انتهينا كانت

حافة الشمس قد بزغت فوق الأرض ، وكان يفصلنا عن المنخفض الصخرى الذى نوينا أن نختفى فيه نهاراً ساعتين من السير السريع بالجمال . ولكن بمجرد أن عاودنا السير سمعنا صوت مشئوم لمحرك طائرة يحطم صمت الصحراء ، بعد دقائق كانت طائرة ذات محرك واحد تحوم فوقنا ، راحت تنخفض فى دوائر . لم يكن يوجد مكان للاختباء ولا للاحتماء فقفزنا من على ظهور الجمال وانتشرنا متفرقين ، فى تلك اللحظة فتح الطيار نيران رشاشاته ، صحت : «انبطحوا ، انبطحوا على الأرض ، ولا تتحركوا ، تظاهروا بالموت » . إلا أن خليل الذى اعتاد على تلك المواجهات لم « يتظاهر بالموت » ، فقد تمدد على ظهره ورأسه على حجر ، وثبّت البندقية على ركبته وبدأ فى إطلاق النار على الطائرة الهابطة فى اتجاهنا .. لم يكن يطلق النار عشوائياً ، بل كان يصوب قبل كل طلقة ، كما لو كان فى تدريب على الرماية . كانت بطولة فائقة من خليل ، اتجهت إليه الطائرة مباشرة فى هبوط انقضاضى ، وأثارت زوبعة من الرمال المنطلق منها ، ولابد أن إحدى طلقات خليل قد أصابت الطائرة ، فقد ارتجت فجأة ثم وجهت مقدمتها إلى السماء ، وطارت على ارتفاع عال . كان من الواضح أن قائدها قد قرر أن أربعة رجال لا يمكن أن يكونوا هدفاً يستحق المخاطرة بالطائرة . حام مرة أو مرتان فوقنا ، ثم اختفى فى اتجاه الشرق ، فى اتجاه واحة جغبوب .

قال خليل بهدوء ونحن نعيد تجمعنا : « الإيطاليين أولاد كلب جبناء ، يعشقون قتل البشر ، ولكن لا يحبون أن تتعرض بشرتهم لخدش ».

لم يصب أحد منا بأذى ، إلا أن جمل عبد الرحمن مات برصاصة . نقلنا قِرَب الماء التى كانت معلقة بالجمل الميت إلى جمل زيد ، وركب عبد الرحمن رديفاً لزيد .

بعد ذلك بثلاث ليال وصلنا إلى غابات أشجار الصنوبر بالجبل الأخضر وأبدلنا ونحن نشعر بامتنان جمالنا المجهدة بخيول كانت بانتظارنا فى منطقة نائية فى حراسة مجموعة من المجاهدين ، من تلك اللحظة أصبحت الصحراء خلفنا ؛ وسرنا عبر هضبة متدرجة فى الارتفاع يقطعها عدد لا نهائى من مجارى المياه الجافة ومليئة بأشجار الصنوبر المتناثرة التى تتجمع فى بعض المناطق بكثافة لا يمكن اختراقها . تلك المنطقة

البرية التى لا مسالك فيها والواقعة فى قلب المنطقة التى تحتلها إيطاليا هى أرض الصيد بالنسبة للمجاهدين .

* * *

حملتنا أربع ليال أخرى من السير إلى «وادى التعبان » - وكان اسمًا على مسمى ، حيث وصلناه ونحن فى غاية التعب والإجهاد ، كنا سنلتقى فى ذلك الوادى بعمر المختار ، كان مكانًا خفيًا فى منطقة أشجار كثيفة ، ربطنا خيولنا إلى نتوء صخرى ، وانتظرنا وصول أسد الجبل الأخضر . كانت ليلة باردة لم تظهر فى سمائها نجوم ويسودها صمت عميق .

كانت أمامنا بضعة ساعات قبل وصول سيدى عمر المختار ؛ ولأن الليلة كانت مظلمة ظلامًا دامسًا ، رأى البدويان من قبائل برصة أن نتخلص من ماء القِرَب ونُعيد ملئها بماء جديد نقى من بئر «بوصفية » الواقع على بُعد عدة أميال إلى الشرق ، وكانت توجد نقطة إيطالية حصينة تبعد نصف ميل فقط من بئر «بوصفية».

قال خليل : «لن يجازف أولئك الملاعين بترك تحصيناتهم فى ليلة مظلمة » . وهكذا ، انطلق خليل بصحبة زيد على ظهور الخيل ومعهما قربتى ماء فارغتين بعد أن لفوا ثيابًا قديمة على حوافر الجياد حتى لا يصدر عنها صوت على الأرض الصخرية . اختفيا فى الظلام ، بينما تلاصقنا أنا وعبد الرحمن طلبًا للدفء بجوار صخرة واطئة . كان من الخطر الشديد إشعال أى نار .

بعد ساعة أو نحو ذلك ، طقطقت بعض أفرع أشجار الصنوبر ، وصدر صوت خفيف لصندل على الصخور . تيقظ صديقى فى الحال ووقف منتبهًا للحظة وبندقيته بين يديه وتقدم فى الظلام ، وصدر صوت مثل صوت ابن آوى من بين الأحراش الكثيفة ، كور عبد الرحمن كفيه حول فمه بصوت مماثل فظهر أمامنا شبحين لرجلين كانا على أقدامهما ويحملان بندقيتين . حين اقتربا قال أحدهما :

«طريق اللّـه » ، ورد عبد الرحمن : « لا حول ولا قـوة إلا باللّـه » ، وكان من الواضح أنها كلمة السر المتفق عليها .

كان عبد الرحمن يعرف أحد القادمين ، لأنه أمسك بيديه الاثنتين معًا وهزهما فى شوق ، كان الاثنان يرتديان الجردة الليبية إلا أن ملابسهما كانت رثـة - قدمنى إليهما عبد الرجمن ، وشد المجاهدان على يدى بحرارة وأنا أصـافحهمـا . قال أحدهمـا :

« اللّـه معك ، سيدى عمر قادم ».

وقـفنا نتـنصت فى الظلام ، بـعد عشـر دقـائق أخرى طقطقت أشـجـار الصـنوبر وظهرت أشباح ثلاثة رجـال آخـرين ، ظهر كل واحـد منـهم من جـهة مـختلفة وبنادقـهم فى وضـع استعداد ، وحين تيقـنوا مـن صـحـة شـخـصـيـاتنا ، انـتشروا من جـديد بين أشجار الصـنوبر فـى اتجاهات مـختلفة ، كانت إجراءات وقـائية للحـفـاظ على سلامة زعيمـهم ، ثم رأيته قادمًا راكبًا جواده وحوافره ملفوفة أيضًا بأقمشـة قديمة وعلى كل جانب ، يسـيـر رجلان وآخرين من خلفه ، وحين وصل إلى الصـخـور التى كنا ننتظر عندها ، سـاعده أحـد الرجال على الترجل من على ظـهر جواده ، لاحظت أنه يسـير بصـعوبة (عرفت بعد ذلك أنـه أصـيب فى اشتباك مـع العـدو قبل عشرة أيام) ، على ضوء القمر الذى بدأ فى الظهور بدأت أراه بوضوح ؛ كان رجلاً متوسط القامة ، قـوى البنيـة ، تحيط وجهه لحية بيضـاء قصيرة ، وخطوط عميقة فى ثنايا وجهه ، كانت عيناه عميقتـى المحجرين ، ومن التغضنات التى حولهما يمكنك أن تخمن أنهمـا فى ظروف مغايرة من الممكن أن ينفرجا فى ضحك من القلب . أما فى تلك اللحظة ، فلم يكن بهما إلا ظلمة ومعاناة وشجاعة فائقة .

خطوت للأمام للقائه وأحسست بقبضته القوية .

قال : « مرحبًا يا بنى » ، كانت عيناه وهو يقول ذلك تمسحـانى بدقة واستحسان ، كانت عينا رجل أصبحت المخاطر خبزه اليومى .

فَرِدَ أحد الرجـال بطانية على الأرض جلس عليها سيدى عمر بثقل من إصابته . انحنى عبد الرجمن وقَبَّـل يده ، وبعد أن استأذنه ، انشـغل بإشـعال نار صـغيرة تحت

الجانب المخفى للصخرة . وعلى الضوء الشاحب للنار الصغيرة راح سيدى عمر يقرأ رسالة سيدى أحمد التى أرسلها معى . قرأها بعناية ، ثم طواها ، ووضعها على رأسه للحظات – وهى علامة احترام وإخلاص لم أر مثيلاً لها فى الجزيرة العربية – ثم استدار إلىَّ مبتسماً ، وقال :

«سيدى أحمد ، أطال اللّـه عمره ، يقول عنك كلامًا طيبًا . يقول إنك مستعد لمعاونتنا ، ولكنى لا أعلم من أين تأتى المساعدة ماعدا معونة اللّـه ، القادر ، الكريم ، لقد وصلنا إلى نهاية وقتنا ».

قلت : «ولكن الخطة التى يعرضها سيد أحمد ، ألا يمكن أن تشكل بداية جديدة ؟ إذا كان من المكمن ترتيب إمدادات منتظمة لواحة الكفرة وتصبح قاعدة عمليات للأيام القادمة ، ألا يمكن بذلك السيطرة على الإيطاليين .

لم أر فى حياتى ابتسامة مرة كتلك الابتسامة التى لا أمل فيها على وجه عمر المختار ولا كلماته التى رد بها علىَّ قائلاً : « الكفرة ؟ ... ضاعت الكفرة . احتلها الإيطاليون من أسبوعين ... ».

أذهلتنى تلك الأنباء . لقد رحنا أنا وسيد أحمد نضع الخطط على مدى الشهور الماضية ، وكانت كلها تعتمد على أن تكون الكفرة مركز المقاومة المنيع . بضياع الكفرة لم يتبق تحت أيدى السنوسيين إلا الهضبة المعذبة للجبل الأخضر – لا شىء متاح أمام تضييق الخناق المتواصل الذى يقوم به الإيطاليون ، ويضيع موقع بعد موقع ، خنق بطىء مستمر ، إلا أنه لا يتوقف ...

سألت : «كيف سقطت الكفرة ؟ ».

بإشارة واهية من يده أشار عمر المختار لأحد الرجال بالتقدم ، وقال : «هذا الرجل يحكى لك كيف سقطت ... إنه واحد من قلائل استطاعوا النجاة من الكفرة ، ووصل بالأمس فقط » .

جلس الرجل متربعًا أمامى وجذب أطراف برنسه البالى حول بدنه . تحدث ببطء دون ارتجاف فى صوته ، إلا أن وجهه النحيل كان ينقل علامات كل الرعب الذى شهده ،

قال : «جاء الإيطاليون إلى الكفرة فى ثلاثة أرتال من السيارات المدرعة والمدفعية الثقيلة من ثلاثة اتجاهات مختلفة . وجاءت الطائرات على ارتفاع منخفض وقصفت المنازل والمساجد وبساتين النخيل لم يكن بالواحة إلا بضعة مئات من الرجال القادرين على حمل السلاح ؛ وكان باقى السكان من النساء والأطفال والعجائز . دافعنا من بيت إلى بيت ، إلا أنهم كانوا يفوقوننا كثيراً ، ولم تبق إلا قرية الحوارى التى تركوها . كانت بنادقنا عديمة الجدوى فى مواجهة عرباتهم المصفحة ، أرعبونا ، قليل منا من استطاع الهرب . وهربت أنا إلى بستان نخيل ، واختبأت بمكان غير ظاهر ، وانتظرت فرصة أعبر فيها من بين قواتهم ؛ طول الليل كنت أسمع صرخات النساء والجنود يغتصبونهن . فى اليوم التالى أتت امرأة عجوز إلى مخبأى وأحضرت لى خبزاً وماءً ، وقالت : إن الجنرال الإيطالى أحضر كل الأحياء وجمعهم أمام مقبرة سيدى محمد المهدى ؛ ومزّق أمام أعينهم القرآن إلى مزق ، وألقاها على الأرض وداس عليها بحذائه ، وصاح :

«دعوا نبيكم البدوى يساعدكم الآن ، إذا استطاع » ، ثم أمر بقطع أشجار النخيل وتدمير الآبار وحرق كتب مكتبة سيد أحمد . وفى اليوم التالى أمر بأخذ الرجال الكبار وعلماء الدين فى طائرة .. ثم قذفوهم منها من على ارتفاع كبير .. طوال الليلة الثانية كنت أسمع بكاء النساء وصراخهن وضحكات الجنود الإيطاليين وطلقات رصاصهم .. استطعت فى النهاية أن أزحف إلى الصحراء مستتراً بالظلام ووجدت جملاً شارداً قدته مبتعداً عن الكفرة ... ».

حين انتهى الرجل من حكايته المرعبة ، أدنانى سيدى عمر منه بلطف ومال على قائلاً : «هكذا يا بنى ، لقد اقتربنا كما ترى من نهاية وقتنا ».

وكإجابة على تساؤل بدا فى عينى دون أن أقوله ، قال : «نحن نقاتل لأننا لابد أن نقاتل فى سبيل ديننا وفى سبيل حريتنا حتى نجلى الغاصب أو نموت دون ذلك . ليس أمامنا اختيار آخر . إنا للّـه وإنا إليه راجعون . لقد أرسلنا النساء والأطفال إلى مصر ، حتى لا ننشغل بهم وبأمنهم حتى يأذن اللّـه بموتنا ».

تزايد صوت كان مكتومًا فى البداية ثم أصبح عاليًا ومقتربًا فى السماء . بحركة تلقائية سريعة ألقى أحد الرجال برمال على النار فأطفأها ، كانت طائرة لم تظهر إلا بشكل غامض على صفحة السماء ، مرت من فوقنا متجهة إلى الشرق ، ثم اختفى صوت محركها تدريجيًا .

قلت له : «ولكن يا سيدى عمر ، أليس من الأفضل لك أنت والمجاهدين الانسحاب إلى مصر والطريق مازال مفتوحًا ؟ من مصر يمكنك جمع اللاجئين من طبرق وتكوين جيش أفضل تنظيمًا . لابد أن يتوقف النضال من هنا لفترة حتى يستعيد المجاهدين قواهم .. البريطانيون فى مصر لا يسعدهم وجود إيطالى قوى إلى جوارهم ؛ وقد يغمضون أعينهم عن إعداد قواتك فى مصر خاصة إن أقنعتهم أنك لا تعاديهم ... ».

قال : «لا يا بنى ، لقد فات أوان ذلك . ما تتحدث عنه كان يمكن ترتيبه من خمسة أو عشرة أو ستة عشر عامًا مضت ، قبل أن يقرر سيد أحمد أطال اللّـه عمره أن يهاجم البريطانيين لمساعدة الأتراك اللذين تخلوا عنا بعد ذلك ، الآن فات الأوان . لن يحرك البريطانيون إصبعًا لجعل مهمتنا أسهل ؛ وقرر الإيطاليون أن يحاربوننا حتى النهاية لسحق أى احتمال للمقاومة فى المستقبل ، وإن ذهبت الآن أنا والمجاهدين إلى مصر ، لن نتمكن أبدًا من العودة ، فكيف نخذل أبناء شعبنا ونتركهم بلا قيادة لقمة سائغة ليبيدهم أعداء اللّـه ؟ ».

سألته : «وماذا عن سيد إدريس ؟ هل يشاركك الرأى يا سيدى عمر ؟ ».

قال : «سيد إدريس رجل طيب وابن طيب لأب عظيم ، إلا أن اللّـه لم يمنحه القلب القادر على مواصلة الجهاد ... ».

كان فى صوت عمر المختار هم ثقيل ، ولكن بلا قنوط ، وهو يشرح لى المسار الطويل الذى لابد من سلوكه من أجل الحرية ، كان يدرك أنه لم يبق أمامه إلا الموت . إلا أن ذلك لم يحمل له أى جَذَع ولا خوف ، لم يكن بالطبع يسعى إليه ؛ إلا أنه أيضًا لم يحاول أن يتفاداه .

كنت على يقين أنه حتى لو عرف نوع الموت الذى ينتظره ، لم يكن أيضًا قد حاول أن يتفاداه أو يتجنبه . كان يبدو واعيًا بكل خلجات نفسه أن كل إنسان يحمل مصيره داخله ، أينما حل ، وكيفما فعل .

بدت بعض أصوات صادرة من جهة الأعشاب ، كانت خافتة حتى إن المرء لا يعيها فى الأحوال العادية ، إلا أن الحال الذى كنا فيه لم يكن عاديًا . ميزت أصوات واهية توقفت فجأة ، وبدأت من جديد بعد لحظات . وتباعدت الأعشاب وظهر من بينها زيد وخليل بصحبة اثنين من الحراس ، وكانت الخيول محملة بقرب الماء المنتفخة . وعندما رأى خليل ، عمر المختار ، اندفع لتقبيل يده ، واستقرت عينا سيدى عمر برضا على وجه زيد ؛ وضع يده على كتف زيد ، وقال : «مرحبًا بك يا أخى من موطن آبائى . من أى عرب أنت ؟ » - أخبره زيد أنه ينتمى إلى قبائل شمار ، أومأ عمر مبتسمًا : «إذن أنت من قبيلة حاتم الطائى ، أكرم رجل عرفه العرب ... » (*) .

وضع أحد رجال عمر بعض التمر على قطعة قماش أمامنا ؛ ودعانا إلى تناول تلك الوجبة البسيطة . أكلنا بعض التمر ، ونهض المقاتل العجوز وقال : «حان وقت ذهابى يا إخوانى . نحن قريبون من النقطة الإيطالية الحصين فى «بوصفية » وأوشك النهار على الطلوع ولا نريده أن يضىء ونحن هنا ».

ركبنا وسرنا خلف سيدى عمر ، بينما تبعنا الباقون سيرًا على الأقدام وبمجرد أن خرجنا من الأخدود ، وجدت أن مرافقى سيدى عمر كانوا أكثر كثيرًا مما كنت أتوقع : واحدًا بعد آخر راحوا يظهرون من خلف الصخور والأشجار وينضمون إلينا ، بينما كانت هناك جماعات منفردة بعيدًا إلى اليمين وإلى اليسار . عدا ثلاثين رجلاً من خلفنا يتحركون فى سكون وفى خفة الهنود الحمر .

(*) مقاتل وشاعر من عهد ما قبل الإسلام ، اشتهر بالكرم ، وأصبح أسمه رمزًا لتلك الفضيلة التى يوليها العرب اهتمامًا فائقًا . وكانت قبيلة شمار التى ينتمى إليها زيد أحد أفرع قبيلة الطائى .

قبل الفجر وصلنا إلى مركز القوة الرئيسية لعمر المختار ، وكانت قواته فى ذلك الوقت تربو على مائتى رجل . كان مركزهم فى أُخدود عميق ضيق ، ونيران صغيرة مشتعلة هنا وهناك تخفيها الصخور ولا تظهر من الخارج . كان بعض الرجال نائمين على الأرض ؛ وآخرين يبدون كأشباح فى ضوء الليل الشحيح مشغولين بمهام مختلفة - ينظفون السلاح ، يجلبون ماء ، يطهون طعامًا ، أو يعتنون بالجياد التى كانت مربوطة إلى أشجار هنا وهناك . كانوا كلهم يرتدون أسمالاً بالية ، لم أر منهم من يرتدى برنسًا كاملاً . كان بعضهم يضع ضمادات فى أماكن مختلفة من أجسامهم مما دل على اشتباك وقع حديثًا مع العدو .

لدهشتى وجدت امرأتين بالمعسكر ، واحدة مسنة والأخرى شابة . كانتا جالستان بالقرب من نار صغيرة ، يصلحان سرجًا مقطوعًا بمخرز كبير .

قال سيدى عمر وهو يرى دهشتى الصامتة : «الأختان يذهبان معنا حيثما ذهبنا ، رفضتا الحياة فى أمان فى مصر مع النساء والأطفال الذين رحلوا . إنهما أم وابنتها . كل رجالهما ماتوا فى النضال ».

بحثنا على مدى يومين وليلة - انتقل أثناءها المعسكر إلى مكان آخر فى غابات الجبل الأخضر - أنا وسيدى عمر كل احتمالات ترتيب إمدادات منتظمة للمجاهدين ، فقد كانت المعونات التى تصل من مصر بسيطة وغير منتظمة .

فمنذ أن توصل سيد إدريس المقيم بمصر إلى تفاهم مع البريطانيين ، أصبحوا يتسامحون مع النشاط السنوسى عبر الحدود طالما كان بسيطًا ، ولم يهتموا بمجموعات المقاتلين الصغيرة التى تخترق الحدود حتى مدينة السلوم الساحلية المصرية ليبيعوا غنائم الحرب - وأغلبها بغال إيطالية - ويستبدلونها بأغذية هم فى مسيس الحاجة إليها .

كانت تلك المهام فى غاية الخطورة بالنسبة للمجاهدين ، ولم يكونوا قادرين على القيام بها كثيرًا خاصة بعد أن أنجز الإيطاليون قسمًا كبيرًا من جدار الأسلاك

الشائكة الذى يفصل ليبيا عن مصر . وافقنى سيدى عمر على أن البديل الوحيد من الممكن أن يكون طريق إمدادات عبر الواحات البحرية والفرافرة وسيوة فى مصر ، إلا أنه تشكك فى إمكانية أن يظل هذا المسار خافيًا عن أعين الإيطاليين .

(ثبت بعد ذلك أن مخاوف عمر كانت فى محلها . فبعد ذلك بشهور وصلت قافلة إمدادات إلى المجاهدين ، إلا أن الإيطاليين رصدوها وهى تعبر من الفجوة الأمنية بين واحتى جغبوب وجالو . فأقاموا نقطة حصينة فى المسافة بين الواحتين فى بير طرفاوى ، كما زادوا من دوريات الطائرات ، مما جعل من تكرار تلك المهمة مستحيلاً) .

كان علىّ أن أفكر بالعودة ، لم أكن متحمسًا للعودة من المسار الذى جئت منه ، فقد كان طويلاً ومهلكًا ، وسألت سيدى عمر إن كان هناك طريقًا أقصر ، وأخبرنى أن هناك طريقًا أقصر ، إلا أنه شديدة الخطورة : من خلال حائط السلك الشائك الذى أقامه الإيطاليون ، ثم إلى السلوم ، وكان هناك جماعة من المجاهدين سيذهبون فى ذلك المسار لإحضار طحين من السلوم ، وقال لى : إن شئت يمكنك الذهاب معهم . وقررت أن أذهب معهم وودعت أنا وزيد الشيخ عمر المختار الذى لن أراه بعد ذلك أبدًا ، لأنه أسر بعد ذلك بثمانية شهور وشنقه الإيطاليون .

* * *

بعد أسبوع من السير – ليلاً فقط – على أرض وعرة وعبر غابات الصنوبر على الحافة الشرقية للجبل الأخضر ، وصلنا إلى الحدود بالقرب من النقطة التى قررنا أن نخترق حائط الأسلاك منها . لم نختر ذلك الموضع عشوائيًا ؛ فعلى الرغم من أن حائط الأسلاك كان قد امتد إلى أغلب مناطق الحدود ، فلم يكن قد اكتمل تمامًا فى بعض مواضعه . فى بعض المناطق ، ومنها المنطقة التى اخترناها كانت هناك طبقة واحدة يبلغ عرضتها أربعة أقدام وارتفاعها ثمانية أقدام ، بينما فى مناطق أخرى كان يوجد ثلاثة أسوار متتالية معلقة فى أعمدة خرسانية ذات قواعد أسمنتية قويه .

وكانت النقطة التى اخترناها تبعد نصف ميل فقط عن نقطة إيطالية حصينة مكونة من سيارات مصفحة ؛ كان التفضيل لهذه النقطة عن غيرها أنه لا توجد حراسة قريبة منها إلا أنها مكونة من ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة القوية .

كانت الترتيبات قد أعدت لنلتقى بجماعة من مؤيدى الحركة السنوسية عبر الحدود ينتظروننا بحيوانات ركوب . لذلك لم يكن ضروريًا أن نعرض الخيل للخطر ، فأعدناها بصحبة بعض المجاهدين العائدين ، بينما اقتربت المجموعة من الأسلاك الشائكة على الأقدام قبل انتصاف الليل . كان الظلام هو الحماية الوحيدة لنا بعد أن قطع الإيطاليون أى أشجار وأعشاب طويلة الحدود .

نشرنا حراسة على بُعد بضعة مئات من الياردات إلى الشمال والجنوب ، وتقدم ستة رجال ومعهم قصافات أسلاك وقفازات جلدية سميكة حصلوا عليها من غارات سابقة على الإيطاليين العاملين بالسور . زحف المجاهدون على بطونهم ؛ وغطينا تقدمهم ببنادقنا المستعدة للعمل . كانت لحظة عصيبة أرهفت فيها سمعى لأوهى صوت ، لم أسمع إلا صوت احتكاك الحصى تحت الزاحفين نحو الأسلاك وصيحة طائر مر من فوقنا ، ثم بدأ صرير المناشير التى راحت تعمل فى الأسلاك – وبدت فى سمعى رغم وهنها كأنها أصوات انفجارات – ثم تبعها صوت قصافات الأسلاك ، ونشر وقطع ، إلى أعمق وأعمق فى لفات السلك المتراكمة بعرض أربعة أقدام . انطلقت صيحة أخرى لطائر عبر الظلام ؛ إلا أن الصوت هذه المرة كان من أحد رجال الحراسة كإشارة تنبيه معلنة عن خطر قادم ، فى اللحظة نفسها ميزنا صوت محرك يقترب . وظهر من بعيد نور كشاف مائل فى الهواء . مثل رجل واحد انبطحنا أرضًا ، ما عدا جماعة الأسلاك التى راحت تعمل بسرعة يائسة وتخلوا عن الحذر وراحوا يعملون بكل قوة وسرعة يدقون بمقابض البنادق ويقصون بالمقصات والقصافات كأن مسهم جن . بعد بضع ثوانى انطلقت رصاصة من حارسنا الشمالى . كان طاقم السيارة المدرعة قد رأوه حين سقط نورهم الكاشف عليه ، ثم سمعنا الصوت الكئيب للمدرعة يتقدم نحونا ، وسقط النور الكاشف علينا وتلته طلقات من المدفع الرشاش ،

ومرت الطلقات فوق رؤوسنا وهي تئز وتدوى . وأطلقنا نيران بنادقنا عليهم ونحن منبطحون على الأرض .

صاح أحد المجاهدين : «النور الكاشف ، النور الكاشف ، صوبوا على النور » - ثم انطفأ النور الكاشف بعد أن حطمته إصابة محكمة فتوقفت السيارة المدرعة عن تقدمها ، إلا أن مدفعها استمر فى الانطلاق بعشوائية . فى تلك اللحظة سمعنا صوتًا من رجال الأسلاك تعلن أنهم أنجزوا المهمة ، حشرنا أنفسنا واحداً بعد آخر فى الفتحة الضيقة وملابسنا وأجسامنا تحتك بشوك الأسلاك ، وسمعنا أصوات ركض فردى حراستنا وهم يلحقون بنا . كان الإيطاليون لا يغادرون المدرعات ولا يشتبكون فى معركة مفتوحة ، فظلوا فى مكانهم . بعد لحظات كنا على أرض مصرية واستمررنا فى العدو تلاحقنا الطلقات من الجانب الآخر من الحدود . أضاء نور الفجر ونحن على أرض مصرية بعيداً عن الخطر . من بين عشرين رجلاً – وهم عدد جماعتنا – كان هناك خمسة مفقودين ، من المؤكد أنهم ماتوا ، كما أصيب أربعة إلا أن إصابتهم كانت غير خطيرة .

قال أحد المجاهدين المصابين : «كان اللّـه رحيمًا بنا ، أحيانًا نفقد نصف الرجال عند عبور الأسلاك . ولكن لن يموت من لم يشأ له اللّـه الموت ... ألا يقول اللّـه فى كتابه العزيز : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ .

فى الأسبوعين التالين ، رحلنا مروراً بمرسى مطروح إلى الإسكندرية ، ثم إلى صعيد مصر ، ومن الصعيد على ساحل البحر الأحمر بالدهو إلى ميناء ينبع ، ثم وحدنا أنفسنا أنا وزيد من جديد بالمدينة .

استغرقت المهمة بأكملها شهرين ، ولم يلحظ أحد غيابنا عن الحجاز .

* * *

حين كنت أقترب بصحبة محمد الزواوى من الزواية السنوسية المتواضعة بالمدينة كان صدى أصوات الموت واليأس يدوى فى ذهنى . تختلط الأصوات برائحة أشجار

الصنوبر ، وقلبى ينقبض من صوت رصاص طائر فوق رأسى ، وألم تساؤل يائس ، ثم اختفت ذكريات هضبة طبرق ، وظل الألم يستحوذ على نفسى .

[٤]

مرة أخرى أقف أمام السنوسى الكبير ، تطلعت إلى الوجه المتعب للمقاتل العجوز ؛ ومرة أخرى قَـبَّلْت اليد التى أمسكت بالسيف كل هـذا الزمن الطويل حتى إنها لم تعد تقدر على حمله أكثر من هذا .

قال لى : «بارك اللّـه فيك يا بنى وسلمك من كل سوء ... مرّ أكثر من عام منذ أن التقينا آخر مرة ؛ وكان ذلك العام يحمل معه نهاية آمالنا ، ولكن الحمد للّـه مهما كانت مشيئته ... ».

كان عامًا مؤسفًا بالفعل لسيد أحمد : أصبحت التجاعيد حول فمه أعمق وصار صوته أخفت . لقد انكسر الصقر العجوز . كان يجلس متداعيًا على البساط ، والبرنس الأبيض محبوك حول بدنه اتقاءً للبرد ، يحملق دون أن يتكلم فى أبعاد بلا نهاية .

همس : «لو كنا أنقذنا عمر المختار ، لو كنا أغريناه بالفرار إلى مصر حين كانت الفرصة ما تزال سانحة ... ».

واسيته قائلاً : «لم يكن بمقدور أحد إنقاذ سيدى عمر ، لم يكن يريد أن ينجو . كان يفضل الموت إذا لم ينتصر . كنت على يقين من ذلك حتى آخر لحظة غادرته فيها يا سيدى أحمد ».

أومأ سيد أحمد بشدة : «نعم ، أنا أيضًا كنت أعرف ذلك ، أعرف ذلك .. إلا أننى عرفته متأخرًا جدًا . أفكر أحيانًا أننى أخطأت فى ذهابى إلى إستانبول لمتابعة القضية من هناك ، سبعة عشر عامًا مرت ... ألم يكن ذلك بداية الموت ، لا لعمر وحده ، بل لكل السنوسية ؟ » .

لم أجد إجابة مناسبة أرد بها ، خاصة وأننى آمنت على الدوام أن قرار سيد أحمد بشن حرب لم تكن ضرورية ضد البريطانيين كان أكبر خطأ قاتل أرتكبه فى حياته بأجمعها .

أضاف سيد أحمد : «لكن ، كيف كان يمكن أن أفعل العكس حين طلب منى خليفة المسلمين أن أعاونه ؟ هل كنت مصيبًا ، أم كنت أحمق ؟ ولكن من غير اللّـه ، يمكن أن يقرر إن كان المرء مصيبًا أم أحمق ، خاصة إذا اتبع نداء ضميره ؟ ».

تساءلت فى نفسى :

من يستطيع حقًا أن يقرر ؟

كان رأس السنوسى الكبير يتأرجح ببطء من جانب إلى جانب فى حيرة مؤلمة ، وعيناه محجوبتان خلف جفونه المنسدلة ؛ وبيقين مفاجئ أدركت أنهما لن يلتمعا ببريق أمل بعد ذلك أبدًا (*) .

(*) توفى سيد أحمد بالمدينة فى العام التالى (١٩٣٣) .

الفصل الثانى عشر

نهاية الطريق

تركنا المدينة فى وقت متأخر من الليل ، سالكين الطريق «الشرقى» الذى سار عليه النبى فى آخر حج له إلى مكة ، قبل وفاته بعدة أشهر . ظللنا راكبين طول الليل وقسط من الفجر الذى بدأ ينبلج . بعد وقفة قصيرة لأداء صلاة الفجر أكملنا سيرنا فى ضوء النهار الوليد ، كان نور اليوم الجديد رماديًا ينفذ من سماء ملبدة بالغيوم . بعد الظهر بدأ المطر يهطل . سرعان ما ابتللنا حتى التصقت ملابسنا بأبداننا . عثرنا على تجمع صغير للبدو بعيداً إلى يسار الطريق ، قررنا أن نأوى عندهم فى إحدى الخيام حتى توقف المطر .

[١]

كان تجمعاً صغيراً لبدو ينتمون إلى قبيلة حرب ، استقبلونا بترحاب : «أطال اللـه أعماركم ، مرحباً بكم » .فردت بطانيتى على جلد ماعز كان مفروشاً بخيمة الشيخ ، فى حين راحت زوجته – لم تكن منقبة الوجه كعادة بدويات تلك المنطقة – ترحب بنا هى الأخرى . بعد ليل قضيته راكباً ، غلبنى النوم بسرعة على صوت تساقط المطر على سقف الخيمة .

استيقظت بعد عدة ساعات على صوت المطر الذى كان مازال ينهمر ، كان الظلام يحيطنى ، كلا ، لم يكن ظلام ليل ، كان ظلام الخيمة ؛ التى امتلأت برائحة الصوف المبتل . فردت ذراعى متمطيًا فاصطدمت يدى بسرج جمل كان خلف رأسى على الأرض . كانت نعومة خشب السرج تغرى باللمس ، جرت أصابعى أعلى رمانة السرج ونزلت حتى وصلت إلى أمعاء الجمال الجافة التى تربط أجزاء السرج معًا ، كانت بحواف حادة ولها صلابة الحديد . لم يكن بالخيمة أحد غيرى .

نهضت بعد فترة وتوجهت إلى فتحة الخيمة . كانت قطرات الأمطار تحفر حفرًا فى الرمال ، حفر لا تعد ولا تحصى ، تظهر فى لحظة وتختفى فى لحظة تحت وقع قطرات أخرى . كانت قطرات المطر ترش سطح صخور الجرانيت المجاورة إلى اليمين . لم أر أحدًا على مرمى بصرى ، فى هذا الوقت من اليوم يخرج الرجال للرعى ؛ كانت الخيام الأخرى تقع إلى أسفل قليلاً فى الوادى بجوار شجرة أكاسيا صامتة صمت عصر يوم مطير . خرجت من إحدى الخيم نفثة من دخان صعدت فى الهواء – لقد بدأ الاستعداد لإعداد وجبة العشاء ، كانت نفثة دخان ضعيفة واهية لا تصمد أمام يوم مطير ، زحفت إلى جانب ، حاولت الثبات بلا جدوى ، كانت تبدو مثل شعر امرأة يتطاير فى الهواء ، بدت التلال الواطئة ومرتفعات الرمال الصغيرة كأنها تتمايل خلف قطرات المطر المنهمر ؛ كان الجو معبق بروائح الماء وشجر الأكسيا والصوف المبتل .

قل تساقط المطر تدريجيًا حتى توقف ، وبدأت السحب فى التشتت تحت أشعة شمس المساء ، سرت باتجاه صخرة جرانيت عملاقة . كان بسطحها فجوة فى حجم قصعة كبيرة تتسع لخروف كامل مشوى فوق أرز مطهى ؛ كانت الفجوة مليئة بالماء . لما وضعت ذراعى بها وصل الماء إلى كوعى ، كان دافئًا ويدغدغ يدى ؛ ولما حركت ذراعى داخله ، أحسست كأن جلدى يرتوى . خرجت امرأة من إحدى الخيام تحمل إناء نحاسى ضخم على رأسها ، كانت ذاهبة لملئه من تجمعات ماء الصخور ، ذراعاها ممتدان إلى الجانبين لأعلى وتمسك بأصابعها أطراف ثوبها الأحمر الواسع الفضفاض ، فبدت وكأن لها جناحين ، تمايلت برقة وهى تقترب كما يتمايل الماء الساقط من أعلى الصخور ، ورأيت أنها فى جمال الماء .. من مسافة سمعت أصوات

الإبل العائدة من الرعى ، ظهرت فى مجموعات من خلف تل صخرى ، تتأرجح على وقع خطوات مرنة ، يسوقهم الرعاة بأصوات حادة قصيرة «غررر ، غررررر ... »، ثم يدعونها تبرك فتهتز أسنمتها البنية فى حركات رجراجة متماوجة ، ومع هبوط الليل كانوا عقلوا سيقانها الأمامية ، ثم توجه الرجال إلى الخيام ، كل إلى خيمته .

أقبل الليل بظلامه الرقيق وبرودته المنعشة ، أضاءت نار مشتعلة أمام كل خيمة ، كانت تصل إلى مسامعى أصوات أوانى الطعام وهى تتصادم وتحتك ببعضها ، وضحكات النساء التى تتداخل معها نداءات الرجال أحيانًا ، ثغت الماعز والأغنام التى رجعت بعد الجمال ، وينبح كلب أحيانًا كما تنبح الكلاب عادة فى كل الليالى ، فى كل خيام البدو فى الجزيرة العربية ، لم أر زيدًا ؛ ربما كان مازال نائمًا فى إحدى الخيام . سرت ببطء باتجاه الجمال الباركة ، كانت قد حفرت بثقلها حفرًا فى الرمال فبركت فى ارتياح ، كان بعضهم يجتر ما أكله فى حين مدت جمال أخرى أعناقها على الرمال .

هدر بعضها وأنا أمر أمامها مداعبًا سنامها الدهنى . رأيت فلوًا صغيرًا يلتصق بأمه بشدة ؛ كان مذعورًا من مداعباتى فقفز واقفًا ، بينما أدارت أمه رأسها باتجاهى وهدرت بفم واسع مفتوح . أمسكت برقبة الفلو بسرعة ودفنت وجهى فى صوف ظهره ، سكن فى الحال ، وهدأ ، زال خوفه . كان دفء جسم الحيوان الصغير يخترق وجهى وصدرى ؛ تحت راحة يدى أحسست بدمه يتدفق فى شريان رقبته ؛ أحسست أنه يسرى فى شرايينى أنا ويبعث فىّ إحساسًا طاغيًا بالالتحام بالحياة ، غلبتنى رغبة طاغية أن أذوب فيها ذوبانًا تامًا وكليًا .

[٢]

ركبنا وسرنا ، كانت كل خطوة تقطعها الجمال تدنينى من نهاية الطريق . سرنا أربعة أيام فى سهول ساطعة شمسها ؛ كنا ننام الليل تحت صفحة نجوم السماء على الرمال ، ونستيقظ فى برودة الفجر ؛ كنت أقترب ببطء من نهاية طريقى .

لم يكن لى طريق آخر عدا هذا الطريق ؛ ومع أنى لم أتعرف عليه على مدى سنوات بداية عمرى ، إلا أن مكة كانت دائمًا هى هدفى واتجاهى . كانت تناديني من زمن طويل قبل أن يعى عقلى أنها تناديني ، كانت تعلن بصوت قوى : «مملكتى فى الحياة الدنيا كما هى فى العالم الآخر ؛ فمملكتى للجسم كما هى للروح ، تسع ما يفكر به الإنسان وما يحسه ببدنه وما يفعله - تجارته وصلاته ، فراش نومه وعلاقته بالآخرين ؛ مملكتى لا تعرف حداً ولا نهاية »، وحين أيقنت من ذلك على مدى الأعوام ، أدركت إلى أين أنتمى ، كانت أخوة الإسلام بانتظارى من مولدى ؛ واعتنقت الإسلام ، وتحققت آمالى فى الانتماء ، لأكون جزءًا من كل واحد .

من الغريب أن أول تجربة لى كمسلم بين مسلمين ، كانت تجربة أخوة ... ففى الأيام الأولى من يناير عام ١٩٢٧ ، تركت أوروبا من جديد ، ولكن كانت إلزا زوجتى تصحبنى تلك المرأة ومعها ابنها الصغير ، متجهين إلى الشرق الأوسط ؛ أدركت أن رحيلى تلك المرة عن أوروبا سيكون الأخير وإلى الأبد .

مضت بنا السفينة على مدى أيام فى البحر المتوسط ، فى أيام مشرقة السماء وعلى سطح البحر ، نرى أحيانًا سواحل بعيدة ، ودخان سفن أخرى تمضى إلى جهات مختلفة . اختفت أوروبا بعيداً خلفنا ونسيتها على وجه التقريب .

كنت أنزل أحيانًا من قمرتى الفخمة العلوية وأجوس فى الأدوار السفلى الرخيصة بأسرتها الحديدية المثبتة إلى الجدران ، وكان أغلب ركاب الأدوار السفلى من الصينيين ، وبعض مواطنى الشرق الأوسط من الحرفيين والتجار العائدين إلى بلادهم بعد أعوام من العمل المضنى قضوها فى أوروبا . وكانت هناك مجموعة صغيرة العدد من عرب اليمن ركبوا من «مارسيليا » .كانوا عائدين إلى بلادهم ، كانت ضوضاء وروائح الموانئ الأوروبية مازالت عالقة بهم ؛ كانوا مازالوا تحت تأثير الأعوام التى قضوها فى تزويد مراجل السفن بالفحم فى سفن أمريكية وإنجليزية وألمانية ؛ يحكون عن المدن الغربية : نيويورك ، بوينوس إيرس ، وهامبورج .

تطلعوا ذات يوم إلى بريق المجهول ، فرحلوا من ميناء عدن كعمال سفن ؛ غادروا عالمهم الذى يعرفونه واعتقدوا أنهم ينمون أنفسهم باحتضان غرابة العالم غير المفهوم لهم : سرعان ما تصل السفينة إلى عدن وتتراجع ذكرياتهم عن العالم الغريب وتصبح ماضيًا . يستعيدون وضع العمامة أو الكوفية بدلاً من القبعة ، يحتفظون بالأمس كذكرى ، ويعودون إلى قراهم فى أعماق الجبال فى اليمن .

ولكن هل يعودون الرجال أنفسهم كحالهم الذى خرجوا عليه ؟ أم يعودون بشر مختلفين ؟ هل قبض الغرب على أرواحهم أم مسح مشاعرهم ؟ تحولت مشكلتهم فى ذهنى إلى مشكلة أكبر ذات مضمون أشمل .

لم يصل العالم الإسلامى والعالم الغربى إلى درجة الاحتكاك التى أصبحا عليها اليوم . وكان الاحتكاك يتضمن صراعًا ظاهرًا وخافيًا . وتحت وطأة ثقافة الفكر الغربى ، ترتجف أرواح كثير من المسلمين والمسلمات . لقد سقطوا تحت وطأة مفهوم متناقض مع مفاهيمهم ، يتضمن أنه لكى يحققوا مستوى أفضل من العيش ، لابد أن يحسنوا مستوى إدراكهم . فسقطوا فى وثنية التقدم التى سقط فيها الغرب حين قلص دور الدين إلى نغمة خافتة مصاحبة ؛ وبذلك تأقزموا ولم ينموا : فكل محاكاة معادية للإبداع ، ولابد أن تجعل البشر أقزامًا ...

لا أرفض أن يتعلم المسلمين من الغرب ، خاصة العلوم والتقنية فاكتساب العلم ليس تقليدًا ولا محاكاة . فالعلم ليس شرقيًا ولا غربيًا ، وكل المكتشفات العلمية ليست إلا حلقات فى سلسلة لا تنتهى من المساعى العقلية للجنس البشرى كله . كل عالم يكمل على ما أنجزه الآخرون إن كانوا من أمته أو من أمة أخرى ؛ عملية متواصلة من البناء من عصر إلى عصر ، ومن حضارة إلى حضارة . حتى إنه لا يجوز أن ننسب منجزات علمية معينة كملك مقصور على عصر بعينه دون آخر يليه .

فى كل عصر ، كانت توجد أمة أنشط من غيرها من الأمم ، تضيف إلى الموجود من المعارف ؛ ولكن على المدى البعيد يصبح ما أضافته علمًا مشتركًا ومشروعًا لكل البشر أن يزيدوا عليه . لقد كان هناك عصر كانت فيه الأمة الإسلامية أكثر نشاطًا وحيوية من

غيرها من الأمم ، ونقلت إلى أوروبا كثير من المخترعات التى كانت رائدة فى حينها ، بل نقلت إلى أوروبا ما هو أهم كثيراً من المخترعات ، وهو «المنهج العلمى »الذى شيدت عليه أوروبا علمها وحضارتها .

لم تجعل مكتشفات وأبحاث «جابر بن حيان » من الكيمياء «كيمياء عربية »؛ ولا يمكن وصف الجبر والهندسة بأنها علوم «إسلامية »، مع أن الجبر ظهر للوجود على يد «الخوارزمى »، وظهرت الهندسة على يد «البتانى » وكلاهما كان مسلماً ، تماماً كما لا يمكن لأحد أن يتحدث عن نظرية الجاذبية الأرضية «الإنجليزية »، مع أن من اكتشفها وصاغها كان رجلاً إنجليزياً . كل المنجزات والمعارف ملكية عامة للجنس البشرى ، لذلك تبنى المسلمون ، كما يجب أن يفعلوا المناهج المعاصرة الحديثة فى العلوم والتقنية ، لا يكونون إلا كمن يتبع غريزة التطور التى تتيح للبشر الاستفادة من إنجازات الجنس البشرى . ولكن إذا تبنوا – ولا يجب أن يفعلوا – أشكال وأنماط الحياة الغربية وسلوكيات أهل الغرب وعاداته ومفاهيمه الاجتماعية ، سيكونون خاسرين ، لأن ما سيأخذونه عن الغرب فى تلك المناحى ليس أفضل مما وهبته لهم ثقافتهم وما توجههم إليه عقيدتهم الإسلامية .

لو احتفظ المسلمون برباطة جأشهم وقبلوا التقدم كوسائل لا غايات ، لن يستعيدوا فقط حريتهم الداخلية ، بل ربما ينقلون للمواطن الغربى السر المفقود لحلاوة الحياة .

* * *

كان بين اليمنيين بالسفينة رجل قصير نحيف له أنف مثل الصقر ووجه حاد كأن النار مشتعلة فى ملامحه ؛ إلا أنه كان هادئًا ومتزنًا . حين علم أننى أسلمت حديثًا ، أظهر لى وداً صادًا ، كنا نجلس ساعات على سطح السفينة يحكى لى عن قريته باليمن . كان اسمه محمد صالح .

ذات مساء زرته فى الأدوار السفلى من السفينة . كان أحد رفاقه من اليمنيين راقداً فى سريره يعانى من حمى شديدة ، ولم يهتم طبيب السفينة بالنزول إليه لفحصه . ولما تبينت أنه يعانى من حمى الملاريا ، أعطيته بعض حبوب «الكينين »حين كنت مشغولاً بالمريض ، اجتمع اليمنيون فى أحد الأركان حول محمد صالح ضئيل الجسم ، كانوا فى اجتماعهم الجانبى المتهامس ينظرون إلىّ ، فى النهاية تقدم واحد منهم - رجل طويل ذو وجه بنى زيتونى وعيناه سوداوتان حادتان - ومد لى يده ببعض الفرنكات الفرنسية المجعدة ، وقال : «جمعنا هذا المبلغ ، للأسف هو مبلغ بسيط ، تفضل واقبله » .

خطوت للخلف مندهشًا ، وقلت لهم : إننى لم أعط صديقهم دواء مقابل مال . قالوا : «كلا ، كلا ، نحن نعلم ذلك ، ولكن تفضل واقبله ، هو ليس ثمنًا ، بل هدية من إخوتك : نحن سعداء بك ، ولذلك نهبك النقود ، أنت مسلم وأخونا ، بل أنت أفضل منا ، لأننا ولدنا مسلمين ، وآباؤنا وأجدادنا كانوا مسلمين . أما أنت فعرفت الإسلام بقلبك ... اقبلها يا أخى .. من أجل خاطر النبى » .

كنت مازلت أسير قناعاتى الأوروبية ، ودافعت عن موقفى قائلاً : «لا يمكن أن أقبل هبة أو هدية مقابل خدمة أسديتها إلى صديق مريض ... عدا أننى معى ما يكفينى من مال ؛ أنتم بالتأكيد تحتاجونه أكثر منى . على أى حال ، إن كنتم مصرين على وهب تلك النقود ، هبوها للفقراء فى بورسعيد ».

أعاد اليمنى الاعتراض : «كلا ، اقبلها منا وإن لم تشأ الاحتفاظ بها ، هبها من نفسك للفقراء ».

كانوا يضغطون ملحين ، وصدمهم رفضى فأصبحوا صامتين فى حزن ، كما لو كنت رفضت ، لا نقودهم ، بل حبهم الذى يقدمونه إلىّ ، وأدركت فجأة أننى ربيت فى مجتمعات تقيم جدرانًا بين الأفراد ، بعكس المجتمع العربى الإسلامى الذى لا توجد به أى حوائط تعزل أبنائه عن بعضهم قلت : «هاتوا النقود يا إخوتى ، قبلتها وأشكركم » .

[٣]

قلت لزيد : «غداً إن شاء اللّـه نكون بمكة ، ستكون النار التى تشعلها الآن يازيد آخر نار ؛ وصلت الرحلة إلى نهايتها ».

رد زيد : «بالتأكيد يا عمى ستكون هناك نيرانًا أخرى ، ورحلات أخرى بانتظارنا معًا ».

قلت له : «ربما يا أخى زيد ، إلا أننى أعتقد أن الرحلات الأخرى لن تكون فى هذه البلاد . تجولت بالجزيرة العربية كثيراً حتى أصبحت فى دمى ، وأخشى إن لم أغادرها الآن ألا أغادرها أبداً ، لابد أن أرحل يا زيد، ألا تذكر المثل : إن الماء لابد أن يتدفق ويتحرك حتى يظل نقيًا ؟ أريد وأنا مازلت شابًا أن أرى كيف يعيش إخواننا المسلمين فى باقى بلاد العالم – فى الهند ، والصين ، وجاوة ... » .

قال زيد بفزع : «لا أظن يا عمى أنك أصبحت لاتحب بلاد العرب ؟ »

قلت له : «كلا يا زيد ، بالطبع أحبها كما أحببتها على الدوام ، وربما أكثر من ذى قبل – إنه يؤلمنى التفكير فيما يمكن أن يجلبه لها المستقبل من مشكلات بعد أن عرفت أن الملك يفكر فى فتح البلاد أمام الفرنجة ، ليجلب الأموال إلى البلاد : سيسمح لهم بالتنقيب عن النفط فى الحسا ، والبحث عن الذهب فى الحجاز – يعلم اللّـه وحده ما يجلبه ذلك على البدو . لن تظل هذه البلد على ما هى عليه الآن ».

من بين طنين صمت ليل الصحراء الساكن ارتفع صوت أقدام جمل يعدو . أتى راكب وحيد وأحزمة السرج محلولة تتطاير من حوله ، وعباءته تطير خلفه وهو خارج من الظلام ، وتقدم باتجاه نارنا ، وأوقف جمله بطريقة مفاجئة ، وقفز من فوقه دون أن ينيخه . وبعد «السلام عليكم »، و«عليكم السلام» جلس محملقًا دون أن ينطق كلمة أخرى ، ثم قام وفك سرج الجمل ، وكوم خروجه بجانب النار ، ثم جلس على الأرض ، وهو فى صمته ، بوجه محتقن الملامح .

قال زيد ، الذى اتضح أنه يعرف الرجل : «وهبك اللّـه عمرًا يا أبا سيد »، ظل أبو سيد صامتًا فى حين استدار زيد قائلاً : «هـذا الشيطان واحد مـن رجاجيل ابن سعود ».

كان أبو سيد فاحم السواد ؛ وشت شفتاه الغليظتان وشعره الأجعد ، الذى لمَّ أطرافه الطويله فى خصلتين خلفه بأصله الإفريقى . كان يرتدى ملابس ثمينة ، وكان خنجره – وربما كان هدية من الملك – مطلى بالذهب ؛ وكانت ناقته من السلالات الغالية الثمن ، فقد كان لونها عسليًا ، من سلالة «شمالية »، رفيعة الأطراف ، دقيقة الرأس ، بكتفين قويين ، وكفلين ضامرين .

سأله زيد وقد حيره صمته الذى طال : «ماذا جرى لك يا أبو سيد ؟ ألا تريد الحديث مع أصحابك ؟ هل ركبك جن ؟ ».

همس أبو سيد : «إنها نورا »، بعد أن حلت القهوة الساخنة عقدة لسانه ، حكى لنا عن «نورا »، كانت فتاة نجدية من مدينة «الراس » (ذكر اسم أبيها وكنت أعرفه) ، كان قد رآها خفية من فوق سور وهى تجلب الماء مع النساء – قال : «شعرت وأنا أراها أن قطعة من جمر ملتهبة سقطت فى قلبى . عشقتها ، إلا أن أباها الكلب ، لم يرض أن يزوجنى إياها ، راعى الخنازير – قال : إن ابنته تخاف حين ترانى ، عرضت عليه مهرًا كبيرًا ، ومساحة من أرضى ؛ وأصر على الرفض ، ثم زوجها من ابن عمها ، لعنه اللّـه هو وابنته ».

كان وجهه الأسود القوى يضىء أحد جوانبه نور النار المشتعلة ، وجعله تراقص ضوء النار على وجهه يشبه من يعانى عذاب الجحيم . لم يحتمل أن يجلس أكثر من ذلك ، نهض واقفًا ، شغل نفسه للحظات بالسرج ، ثم عاد قرب النار . وفجأة ، ركض فى الظلام . كنا نسمعه وهو يجرى فى دائرة واسعة حول المكان الذى كنا نجلس به ، يصيح ، ويصيح : «نار نورا تحرقنى ، نار نورا تحرق صدرى »، ثم يصيح منتحبًا «نورا ، نورا».

اقترب من النار من جديد وراح يعدو حولها فى دائرة ، وقفطانه يتطاير مثل شبح ليلى على ضوء النار المتراقص ، والظلام المحيط . هل فقد عقله ؟ لم أظن ذلك . ربما خرجت من ثنايا عقله البدائى الأول انفعالات الأجداد الإفريقيين الذين كانوا يعيشون بين الأعشاب ، ذكريات من عاشوا على ذكر العفاريت والألغاز والغموض فى الغابات الإفريقية ، فى وقت قريب من الزمن الذى نزلت فيه الومضة الإلهية على وعى البشر وحولت وعى الحيوان إلى وعى الإنسان ؛ ولم تكن الشرارة بالقوة التى تكبح جماح الدوافع غير المكبلة وتحولها إلى انفعالات راقية - للحظة بدا لى أننى أرى قلب أبو سيد أمامى ، كتلة من لحم ودم يصعد منها نار ودخان الغرام كما لو كان يحترق فى نار حقيقية - وبشكل ما بدا لى من الطبيعى أن يصرخ بذلك الصوت المفزع المخيف ، ويجرى فى دوائر مثل مجنون ، حتى أجبر جمالنا المعقولة أن تنهض خوفًا منه على ثلاثة أرجل ...

عاد إلينا وألقى بنفسه على الأرض . تبينت ملامح امتعاض بادية على وجه زيد من انفجارات أبا سيد الفالتة من أى تحكم - كان المزاج العربى الراقى الأصيل يزدرى الانفعالات والمشاعر الغرامية المنفلتة - إلا أن قلب زيد ـالرقيق سرعان ما رقّ لحاله . أمسك بأبى سيد من أكمامه فرفع رأسه وحملق فى زيد بعينين غائمتين ، جذبه زيد إليه ؛ وقال : «أبو سيد ، كيف تنسى نفسك إلى هذا الحد ؟ أنت مقاتل ، أبو سيد .. لقد قتلت كثير من الرجال وكدت أن تُقْتَل مرات - والآن تطيح بك امرأة ؟ يوجد نساء كثيرات غير نورا ... يا أبا سيد ... يا بطل .. يا أحمق ».

أنّ الرجل فى صوت خفيض ، ورفع كفيه إلى وجهه، فى حين استطرد زيد : «اسكت وارفع رأسك : هل ترى ذلك الخط المنير فى السماء ؟»

رفع أبو سيد بصره إلى السماء فى دهشة ، وتابعت أنا بطريقة لا إرادية إصبع زيد المشير إلى صفحة السماء وتابعت الخط الشاحب الأكثر نورًا وغير المتساو فى كل مواضعه ويجرى من أفق إلى أفق .. كان درب التبانة ، ولكن حكمة بدو الصحراء لا ترى فيه إلا المسار السماوى للكبش الذى نزل لإبراهيم حين أطاع أمر ربه والإيمان

يملأ قلبه ورفع السكين ليذبح ابنه البكر . وظل مسار الكبش باقيًا إلى الأبد على صفحة السماء ، تذكرة برحمة اللّـه ونعمته . وذكرى للفداء الذى أنزل لشفاء ألم قلب إنسانى ، هو قلب إبراهيم - وسلوى لمن يأتون من بعده . ولمن يعانون الوحدة أو تاهو فى الصحراء ، ولمن يتعثرون فى الحياة ، ويبكون فى وحدتهم منعزلين فى بيداء حياتهم . استمر زيد ، ويده مرفوعة فى اتجاه السماء ، يتحدث بوقار ويقين ، كما يتحدث حكماء العرب : «هذا مسار الكبش الذى أرسله اللّـه إلى سيدنا إبراهيم حين هم بالتضحية بابنه البكر طاعة لأمر ربه هكذا يُظهر اللّـه رحمته لعبيده ... هل تظن أنه ينساك ؟ »

تحت وقع كلمات زيد ، رق وجه أبا سيد فى تساؤل مثل ذلك الذى يظهر على وجوه الأطفال ، أصبح أهدأ حالاً ؛ وراح مثل تلميذ يتابع معلمه ينظر باتجاه السماء ، محاولاً أن يجد على صفحتها إجابة على يأسه الذى يغمر قلبه .

[٤]

بسهولة ويسر ترد صورة إبراهيم وكبش للفداء إلى الذهن فى هذا البلد ، لاحظت أن ذكرى أبا الأنبياء حية بقوة بين العرب أكثر مما هى حية بين مسيحى الغرب الذين ترتكز عقيدتهم على العهد القديم والإنجيل ؛ وكذا اليهود الذين تمثل لهم التوراة كلمة الرب الأولى والأخيرة لا تحس بالحضور الروحى القوى لإبراهيم إلا فى الجزيرة العربية والعالم الإسلامى . لا من غزارة التسمى باسمه فقط ، بل من ذكره المتكرر فى القرآن وفى صلوات المسلمين اليومية كأول من دعا إلى عبادة واعية للّـه الواحد : ويفسر ذلك الأهمية التى يوليها الإسلام للحج السنوى إلى مكة والذى ارتبط من عصور سحيقة بقصة إبراهيم .

لم يصبح إبراهيم معروفًا للعرب - كما يظن أهل الغرب - بعد أن أقحم محمد اسمه فى رسالته فى محاولة منه «لاستعارة »عناصر الدين الإسلامى من اليهودية ،

لأنه من الثابت تاريخيًا أن شخصية إبراهيم كانت معروفة للعرب قبل الإسلام من عصور قديمة ترجع إلى عصر إبراهيم ذاته ، كما أن ما ذكر فى القرآن عن إبراهيم معبر عنه بدقة لا تترك شكًا فى أنه يعيش فى واجهة الوعى العربى من عصور طويلة قبل محمد : فاسمه وسيرة حياته يذكران على الدوام دون تمهيد للتعريف به ، حتى إن القرآن حين كان يتلى بعد نزوله على أول من استمعوا إليه ، لم يتساءلوا عن ذلك الاسم ولا عَمَّن يكون . وكان يحتل أيضًا مكانة مرموقة فى أنساب العرب ، كأب أول من خلال إسماعيل لعرب الشمال الذين يكونون اليوم حوالى نصف عرب الجزيرة العربية وتنتمى إليهم قبيلة محمد وهم عرب قريش .

لم تذكر التوراة إلا بداية قصة إسماعيل وأُمه هاجر ، لأن تطوراتها اللاحقة لا تهم الأمة العبرية ، إلا أن الموروث المعرفى لعرب ما قبل الإسلام لديه كثير من تفاصيل قصة إسماعيل .

وطبقًا لذلك الموروث المعرفى المتناقل شفاهة ، ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل فى المنطقة التى توجد بها مكة الآن ، فى وادٍ بين جبال صخرية عارية قاحلة تحت شمس حارقة ، ورياح ساخنة لافحة حتى إن الطيور الجارحة تعاف نزوله ، وحتى اليوم مع امتلاء وادى مكة بالبيوت والشوارع والبشر من كل الأجناس ، مازالت مكة تعانى من قسوة الطبيعة وتحوم فوق المتزاحمين حول الكعبة أشباح تلك الآلاف من السنين منذ أن وضع إبراهيم أول أساس لبيت اللّـه فى مكان موحش وصامت ويخلو من أى أثر للحياة .

بعث المكان اليأس فى قلب هاجر ، جارية إبراهيم المصرية التى تزوجها وولدت له ابنًا فكرهتها سارة زوجة إبراهيم الأولى . كان لابد لإبراهيم أن يبعد هاجر وابنها إسماعيل وكان حزينًا وهو يقوم بذلك ، إلا أنه كان عميق الإيمان برحمة اللّـه التى بلا حد ، ويقول سفر التكوين فى التوراة إن اللّـه خفف عنه قائلاً :

«لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك .. وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك».

ترك إبراهيم المرأة الباكية وطفلهما فى الوادى ، وترك معهما قربة ماء ، وكيسًا مليئًا بالتمر ،، وعاد راجعًا إلى الشمال باتجاه ميديان ، ومنها إلى كنعان . وكان بالوادى شجرة «سرحا »وحيدة ، جلست هاجر فى ظلها وطفلها فى حجرها ، لم يكن حولها إلا رمال ومنحدرات صخرية وشمس حارقة يبهر ضوءها المنعكس على الرمال والصخور البصر . كان ظل الشجرة أروع ما فى المكان ، إلا أنه صامت صمت القبور ، صمت مرعب لأى كائن حى ! كان الوقت يمضى متثاقلاً ببطء فكرت هاجر : لو يظهر أى كائن حى هنا ، طائر ، حيوان ، أو حتى وحش مفترس . ولكن لم يظهر إلا الليل الذى حل ، كان الليل مريحًا مثل كل ليالى الصحراء ، قبة كبيرة من الظلام ونجوم تلطف من حرارة يأسها . دبت فيها بعض الشجاعة ، أطعمت طفلها بعض التمر وارتويا من قربة الماء .

مر الليل ، وجاء يوم آخر ، وليلة أخرى ، ولما حل اليوم الثالث بحرارته الشديدة ، كان ماء القربة قد نفذ ، وأطبق اليأس عليها بكل قوته ، أصبح الأمل مثل وعاء مهشم . وبكى الطفل وراح صوت بكائه يضعف كلما مر الوقت ، صرخت هاجر داعية ربها ؛ ولم يظهر أى جديد ، طار لبها من معاناة ابنها المحتضر ، راحت تركض غادية وراجعة وذراعاها مرفوعتان إلى السماء ، راحت تركض بين تلين : والإحياء ذكرى سعيها ذاك ، يسعى الحجاج مثلما فعلت بين التلين سبع مرات ، راحت تصيح كما صاحت من قبل : «أنت الكريم ، يارحيم ، منْ يرحمنا إن لم ترحمنا أنت ؟ ».

ثم أتتها إجابة ما سألت : انفجر من الأرض ماء غزير راح يتدفق على الرمال ، صاحت هاجر من الفرح ومالت بوجه طفلها إلى الماء المتدفق حتى يرتوى ، وشربت من بعده وهى تصيح بين شهقاتها المتوسلة : «زمى ، زمى » ، – وهى كلمة لا معنى لها ، ربما كانت محاكاة لصوت الماء المتفجر من الأرض وكأنها تقول : «تدفق ، تدفق »، وخوفًا من ضياع الماء فى الرمال ، صنعت حوله حافة من الرمال ، وتحول مع الوقت إلى بئر يعرف الآن باسم بئر زمزم موجود حتى الآن .

أصبحا الآن بمأمن من الموت عطشًا ، وكفاهم التمر لوقت طويل . بعد بضعة أيام ، مرت جماعة من البدو مهاجرة من جنوب الجزيرة ، كانوا يبحثون عن مكان رعى جديد ، مروا بالقرب من الوادى فرأوا أسرابًا من الطيور تحوم فوقه ، فعلموا أن به ماء دخل منهم بعض الرجال إلى الوادى مستطلعين ، وجدوا سيدة تجلس وحيدة ومعها طفلها بجوار حافة بئر عظيمة . استأذن منها الرجال فى أدب إن كانت تسمح لهم بالإقامة فى واديها . وافقت بشرط أن يظل البئر ملكًا لابنها إسماعيل وأبنائه من بعده .

أما إبراهيم ، فيذكر الموروث المعرفى العربى أنه عاد إلى الوادى بعد زمن ووجد هاجرًا وابنه أحياءً ، كما وعده اللّـه . منذ ذلك الوقت راح يزورهما كثيرًا ، حتى بلغ إسماعيل مبلغ الرجال وتزوج بفتاة من قبيلة جنوبية . بعد ذلك بأعوام رأى إبراهيم رؤيا تأمره ببناء بيت للّـه بجوار بئر زمزم ، وهكذا ، بمساعدة ابنه إسماعيل بنى النموذج الأول لبيت اللّـه الذى مازال قائمًا حتى اليوم ويعرف باسم الكعبة ، حين كانا يقطعان الصخر لبناء البيت فى دين التوحيد ، أدار إبراهيم بصره فى السماء وقال ملبيًا : «لبيك اللهم لبيك» .لذلك يرفع المسلمون أصواتهم بالتلبية نفسها حتى اليوم وهم يقتربون من مكة للحج .

[٥]

«لبيك اللهم لبيك».

كم مرة سمعت فيها تلك التلبية فى المرات الخمس التى قمت فيها بأداء فريضة الحج ؟ بدا لى أننى أسمعها الآن ، وأنا ممدد على الرمال بالقرب من زيد وأبى سيد بجوار النار المشتعلة .

أغلقت عينى فاختفت النجوم واختفى القمر . وضعت ذراعى على عينى وأنا مستلق على ظهرى ، فحجبت الضوء النافذ من جفونى إلى عينى ، وراحت الأصوات تخفت ،

لا أسمع إلا «لبيك »في عقلي وخفقان تدفق الدماء في أذني كان الدم يخفق مثل أمواج متتابعة ترتطم بجدار سفينة ، ويخفق مثلما يخفق صوت ماكينة ، كنت أسمع خفقات الماكينة وأشعر بارتجاف سور السفينة وأشم دخانها ورائحة زيتها وأسمع نداء «لبيك اللهم لبيك »صادر من مئات الحناجر على متن السفينة التي حملتني عند أول حج لي من ستة أعوام ، من مصر إلى الجزيرة العربية ، فوق صفحة البحر الأحمر . كانت جبال قارة إفريقيا إلى يميننا ؛ وجبال شبه جزيرة سينلء إلى يسارنا – وكلاهما صخري عاري ، وكانت المسافات بينهما تتباعد كلما مضينا بالخليج حتى أصبحت أشباحًا بعيدة تشعر لمرآها أن هناك يابسة إلا أنك لا تراها . بعد الظهر ، دخلت السفينة إلى متسع البحر المفتوح ، كانت المياه زرقاء مثل مياه البحر المتوسط .

كان كل ركاب السفينة من الحجاج ، أعداد كبيرة لا أعرف كيف اتسعت لهم . كانت شركة النقل الجشعة قد ملأت السفينة حتى حافتها بالحجاج دون أي تفكير في راحتهم ، على السطح ، في القمرات وفي الممرات ، على الدرج ، وفي قاعات طعام الدرجة الأولى والثانية ، في أماكن ربط السفينة عند الرسو : في كل ثغرة متاحة حشر الناس حشرًا . كان أغلب الحجاج من مصر ومن شمال إفريقيا . كانوا كلهم في غاية التواضع لا يشغل ذهنهم إلا ما سعوا إليه ، وهو فريضة الحج ، فتحملوا دون تذمر كل أنواع المصاعب التي كان يمكن تجنبها لولا جشع أصحاب السفن .

كانوا يجلسون على ممرات السطح ، في مجموعات متزاحمة ، رجال ونساء وأطفال ، يدبرون بصعوبة وجبات طعامهم ؛ كانوا يناضلون ذهابًا وعودة لجلب بعض الماء في كيزان من الصفيح ، كل حركة كانت عذابًا بسن هذا الحشد البشري المضغوط ؛ كانوا يتجمعون في زحام عشد حول صنابير المياه القليلة للوضوء في أوقات الصلاة ؛ كما كانوايعانون من الهواء الراكد في أعماق السفينة ، التي كانت تستعمل أثناء العام في غير موسم الحج كمخازن لنقل البالات وصناديق البضائع : من يرى ذلك يدرك قوة إيمان أولئك الحجاج . لم يهتموا بتلك المصاعب ، كانوا مستغرقين أينما كانوا في التفكير بمكة . لا يتحدثون إلا عن الحج ، في انفعال يضيء وجوههم . والنساء

تغنى أغنيات جماعية عن المدينة المقدسة ، ومرات بعد مرات يتكرر النداء : «لبيك اللهم لبيك ».

في اليوم التالي دوت صافرة السفينة معلنة عن وصولها إلى ميناء رابغ الصغير شمال مدينة جدة ، وطبقًا لعادة ، كان حجاج شمال إفريقيا يرتدون ثوب الإحرام في هذا الموضع ، وهو مكون من جزأين غير مخيطين من نسيج أبيض قطني أو صوفي ، أحدهما يلف حول الخصر حتى ما يلى الركبتين ، والآخر يلف على الكتف والصدر ، وتبقى الرأس عارية . حتى لا تكون هناك مشاعر اغتراب أو اختلاف بين المسلمين القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارة بيت اللـه ، لا فرق بين وجوه وقوميات وأجناس وأعراق وغني وفقير ، لا فرق بين عالي المكانة في قومه أو بسيطها حتى يعلم البشر أنهم متساوون أمام اللـه ، وأنهم أخوة في اللـه .

اختفت من حولي كل الملابس الملونة للرجال : لا ترى طربوشًا تونسيًا أحمر ، ولا برنس مغربي أبيض ، ولا جلابيب مصرية ملونة ، في :ل ما حولك لا ترى إلا ملابس الإحرام البيضاء المتواضعة خالية من أي تزويق ، ملتفة حول أبدان تتحرك بعزة وفخار . أما النساء فيبقين بملابسهن حتى لا يتعرضن إلى كشف أجزاء من أبدانهن ، لم يظهر على السفينة بعد لبس ملابس الإحرام إلا اللونين ، الأبيض للرجال والنساء ، والأسود لبعض النساء المصريات .

في فجر اليوم الثالث رست السفينة أمام سواحل الجزيرة العربية ، تجمع عدد كبير من الحجاج بجوار حاجز السفينة يتطلعون إلى أرض الجزيرة التي كانت تتضح بالتدريج مع انقشاع ضباب الصباح . على صفحة البحر، انتشرت أشباح سفن أخرى تحمل الحجاج ، وصفحة الماء صفراء شاحبة في مواضع وخضراء عقيقية في مواضع أخرى ، بدت ألوان الشعب المرجانية تكون سلسلة محاذية للساحل ، في الشرق باتجاه الساحل بدا ما يشبه التل ، منخفض وداكن ، ولما أشرقت الشمس ، اتضح أنها مدينة جدة التي ترتفع مبانيها من الحافة باتجاه المركز ، مشيدة من أحجار وردية ورمادية صفراء من صخور مرجانية . راحت تتضح تفاصيل النوافذ المنقوشة ،

وأسوار الشرفات الخشبية ، التى تحولت بفعل الرطوبة والزمن إلى الأخضر الرمادى ، ارتفعت مئذنة فى المنتصف ، بيضاء مستقيمة كأصبع مرتفع .

تصاعد من جديد صوت التلبية : «لبيك اللهم لبيك »، صيحة تهز الأعمال فيها استسلام للّـه ، وحماس انتشر بين الحجاج على السفينة وعبر صفحة الماء باتجاه البلد الذى به معقد الآمال العظيمة كانت أملهم وأملى : بالنسبة لى كانت رؤية ساحل الجزيرة العربية خلاصة سنوات من البحث . نظرت إلى إلزا التى كانت ترافقنى فى الحج ، قرأت المشاعر نفسها فى عينيها ...

ثم رأينا أجنحة بيضاء كثيرة تخفق من الأرض باتجاهنا ، كانت القوارب الساحلية بأشرعتها البيضاء اللاتينية تشق طريقها فوق صفحة الماء الهادئة بنعومة ودون صوت بين الشِّعَاب المرجانية المختفية تحت سطح الماء . اقتربت ودنت حتى التصقت بالسفينة ، وطوت أشرعتها واحداً بعد آخر فى خفة وسرعة كما لو كانت تختبئ من عملاق قادم ليأكلها ، ثم ارتفع صياح النوتية الذين راحوا يقفزون من مركب إلى مركب ، ثم اكتسحوا سُلَّم السفين ليأخذوا أمتعة الركاب الذين امتلأوا سعادة لمرأى الأرض المقدسة .

كانت المركب التى نزلنا بها ثقيلة وعريضة وخشنة التصميم عند مقارنتها بالصوارى العالية الرشيقة والأشرعة العريضة : لابد أن المركب الذى ركبه المغامر البحرى سندباد كان من الطراز نفسه ، كان سندباد ينطلق إلى مغامرات لم تطلب منه ، يرسى إلى جزيرة ، وفجأة يكتشف أنها ظهر حوت ... فى مراكب مشابهة أبحر الفينيقيون قبل سندباد جنوباً فى هذا البحر وعبر الخليج العربى لجلب التوابل والعطور وكنوز بلاد أوفير ...

الآن ، نحن الورثة الأقزام لأولئك المغامرين العظماء ، نبحر عبر شِعَاب مرجانية ، متجنبين مواضعها فى استدارات واسعة : الحجاج فى ملابس الإحرام البيضاء مدسوسين بين حقائب وصناديق وحزم مربوطة ، ضيوف صامتون فى نشوة منتظرة .

كنت أنا أيضاً تملأنى الأحلام والتوقعات ، يد زوجتى فى يدى ، هل يوجد ما يعمق حياتنا أكثر من الحج ؟ وجدت نفسى مجبراً على التفكير فى سندباد من جديد ، فحين غادر شواطئ بلده ، كان مثلى تماماً - لا يفكر فيما يجلبه المستقبل ، لم يتنبأ ولم يخطر بذهنه كل ما وقع له من مغامرات كل ما أراه أن يتاجر ويكسب مالاً ؛ بينما لم أرد أنا إلا أداء الحج : ولكن حين وقعت له تلك المغامرات كما وقعت لى مغامراتى ، لم يستطع أى منا بعدها أن ينظر إلى العالم كما كان ينظر إليه قبل مروره بتلك المغامرات .

ومع أنه لم تصادفنى أشياء غريبة فى طريقى مثل جان أو عفاريت مسحورة أو طائر رُخ عملاق مثلما صادف السندباد بحار البصرة ، إلا أن حجى الأول كان مقدر له أن يعمق حياتى أكثر مما عمقت حياته المغامرات العجيبة التى صادفته . أما إلزا ، فقد كان الموت ينتظرها هناك ؛ ولم يكن لدى أى منا أى توقع بمدى قربه منها ؛ ولكننى لم أدرك أننى أغادر ماضى كله وأتركه خلفى ، ودون أى إنذار ، وصل عالمى القديم إلى نهايته ، عالم أفكار الغرب ومشاعره ، ومساعيه وتصوراته ومفاهيمه . كان باب عالمى القديم يغلق فى صمت من خلفى ، صمت مطلق حتى إننى لم أدرك ذلك ولم أشعر به ؛ اعتقدت أنها رحلة مثل كل رحلاتى السابقة التى تحولت فيها فى بلاد أجنبية ، وعدت بعدها إلى ماضى الذى تركته ، إلا أن الأيام كانت ستكشف عن وجه آخر ، تتغير معه كل اتجاهات آمالى ورغباتى .

* * *

فى ذلك الوقت ، كنت قد زرت دولاً كثيرة من دول الشرق ، كنت أعرف إيران ومصر أفضل مما أعرف البلاد الأوروبية ، وأعرف كابول معرفة تامة منذ أن كفت عن أن تكون غريبة بالنسبة لى ؛ وأسواق دمشق وأصفهان التى اعتدتها . لذلك قفز إلى ذهنى تعبير «ما أبسطه »حالما رأيت سوق جدة لأول مرة . لم أر إلا خليطاً غير متجانس وتقليد بلا روح لما كنت أراه بكميات هائلة وإتقان فريد فى أسواق الشرق الأخرى . كانت

شوارع السوق مغطاة بخيش وأقمشة بالية لحمايتها من الشمس الحارقة ؛ كانت أشعة الشمس تنفذ من ثقوبها فى أعمدة مائلة منيرة . بالشوارع مطاعم مفتوحة يشوى أمامها غلمان سود قطع اللحم المشكوكة فى أسياخ على الفحم المشتعل ؛ ومقاهى منتشرة بأدوات وأراجيل نحاسية لامعة ومقاعد مصنوعة من جريد النخيل ؛ محلات لا تحمل معنى مليئة بنفايات البضائع الأوروبية والشرقية . الحرارة الشديدة وروائح الأسماك والشِّعابُ المرجانية والتراب فى كل مكان . زحام فى كل الأماكن ، حجاج كثيرون فى ملابس الإحرام البيضاء مقابل الملابس الملونة لأهل جدة الذين اعتادوا وألفوا الاختلاط بكل مسلمى العالم . تجد أحيانًا أبًا من الهند ، بينا أبا الأم خليط من الملاير والعرب – ربما تزوج جدة كانت من جهة أباها من أصل أوزبكى ، ومن جهة أمها من نسل صومالى : نوادر حية نتاج قرون من مواسم الحج ونتاج المجتمع الإسلامى الذى لا يعرف تفرقة على أساس من لون ولا جنس .

وعدا الاختلاط الناتج عن الحج ، كانت جدة فى تلك الأيام المكان الوحيد فى الحجاز المسموح فيه بإقامة غير المسلمين . كان من المعتاد أن ترى لافتات محلات بلغات أجنبية وأناس بأزياء استوائية بيضاء وقبعات للحماية من الشمس ، كما كانت توجد بها القنصليات الأجنبية .

كانت الروائح والأصوات تنتمى إلى عالم البحر أكثر من انتمائها إلى عالم اليابسة : إصوات روائح الميناء ، والسفن التى ألقت مراسيها خارج الشِّعَاب المرجانية ، ومراكب الصيد ذات الأشرعة المثلثة البيضاء – عالم لا يختلف عن عالم البحر المتوسط .

أما المنازل ، فالبرغم من الاختلافات القليلة بينها ، فقد كانت مفتوحة لنسيم البحر بواجهات غنية بالزخارف ، نوافذ من خشب معشق على الطراز العربى تسمح لمن بالداخل أن يرى من الخارج ولا يمكن لمن بالخارج أن يرى من بالداخل ، منازل لا تنتمى فى طرازها إلى البحر المتوسط ، كما أنها لا تعتبر أيضًا عن الجزيرة العربية ؛ كانت جدة تنتمى بشكل أخص إلى عالم سواحل البحر الأحمر ، الذى ينتج الطرز المعمارية ذاتها على ساحليه .

أما الجزيرة العربية ذاتها فقد أعلنت عن نفسها بسماء فى لون الصلب ، وتلال صخرية جرداء ، وكثبان رملية إلى الشرق من جدة ، وأنفاس العظمة والندرة اللذان يختلطان بغرابة فى السهوب العربية الواسعة .

* * *

بعد ظهر اليوم الثانى من وصولنا إلى جدة بدأت قافلتنا رحلتها إلى مكة ، شاقة طريقها خلال زحام الحجاج ، والبدو ، والجمال المحملة وغير المحملة ، وجمال الركوب والحمير المزينة عند الباب الشرقى للمدينة ، وسيارات رائحة وراجعة - كانت السيارات الأولى فى السعودية - محملة بالحجاج وأبواقها تصدر أصواتًا عالية . يبدو أن الجمال أحست أن السيارات أعدائها الجدد ، فقد كانت تجفل كلما مرت سيارة ، وتركض إلى جوار الحوئط وتمد أعناقها للأمام والخلف لا تعرف إلى أين تهرب . عهد جديد يبزغ على تلك الحيوانات العالية الصبورة ، عهد يشعرها بالخوف والتشاؤم .

بعد فترة كانت المدينة البيضاء قد أصبحت خلفنا ، وجدنا أنفسنا فجأة فى الصحراء فى واد متسع رمادى بنى ، مهجور ، تنبت فيه أعشاب شوكية متناثرة وبقع حشائش جافة ، وتلال رملية منعزلة واطئة تبرز من الوادى كما تبرز الجزر من البحار ، وتحدها من الشرق مرتفعات صخرية رمادية زرقاء ، خطوطها حادة ولا حياة فيها . كانت قوافل الحجاج تسير فى هذا السهل ، جمال بلا عدد ، واحد وراء آخر ، مئات وآلاف من الجمال محملة ببضائع وحجاج وحقائب ، تختفى أحيانًا خلف تلال لتظهر من جديد . بالتدريج اتحدت مساراتها فى طريق رملى واحد ، صنعته مسيرات الجمال والبشر عبر القرون .

فى صمت الصحراء ، وخلفية صوتية من أقدام الجمال التى لا تحطم الصمت بقدر ما تكون خلفية ثابتة له ، ونداءات عشوائية من سائقى الجمال من البدو ، أو أغانى الحجاج الخافتة هنا أو هناك ، غلبنى فجأة إحساس جارف - كان من القوة

حتى إن المرء من الممكن أن يطلق عليه رؤيا : رأيت نفسى على قنطرة تمتد فوق هاوية غير مرئية ، قنطرة طويلة حتى إن الجهة التى كنت قد بدأت منها العبور اختفى بين الضباب لبعدها الذى أصبحت عليه ؛ بينما طرفها الآخر الذى كنت أتجه إليه ، يتضح بالكاد دون تفصيل . كنت أقف بالمنتصف . وخفق قلبى رعبًا وأنا فى منتصفها بين طرفيها ، ابتعدت عن بدايتها إلا أننى لم أدن من نهايتها ، بدا لى على مدى ثوان طويلة ، أننى سأبقى هكذا بين طرفيها ، فوق هاوية سحيقة - حتى صاحت امرأة مصرية فجأة بصوت أيقظتنى : «لبيك اللهم لبيك »، انقطعت رؤياى وتلاشت .

فى كل الجوانب كنت أسمع الناس تتحدث بكل اللغات ، يصيح بعضهم أحيانًا معًا «لبيك اللهم لبيك »، أو تغنى فلاحة مصرية أغنية فى حب الرسول ، بينما ترسل امرأة عربية من أعماق حلقها غطروفة (وهو صوت عالى يعبر عن الفرح والسعادة تطلقه الإناث العربيات ، ويطلق عليها فى مصر زغرودة) ، اعتدن على إطلاقها فى المناسبات السعيدة - مثل الزواج ، ولادة مولود ، ختان ، مناسبات دينية ومنها الحج بالطبع فى عصور الحروب المبكرة ، كانت بنات رؤساء القبائل تركب مع الرجال وتخرج للحروب حتى يحثون الرجال على الإقدام والشجاعة (كما كان من العار أن تقتل إحداهن والأسوأ أن تؤسر) ، فكانت الغطرفة تسمع فى ميادين القتال .

كان أغلب الحجاج على محفات ، اثنان على كل جمل - كان السير يبعث الدوار ويثير الأعصاب ، هزهزة لا تتوقف . يغفو المرء لبضع دقائق ، ليصحوا على توقف مفاجئ وهزة مفاجئة ، ثم ينام من جديد ، ليستيقظ من جديد ، وسائق قافلة الجمال يرافقها على الأقدام ينادى الجمال بأصوات مفاجئة وحادة ، وواحد أو أكثر منهم ينشد على إيقاع الخطوات الواسعة للجمال .

فى الصباح وصلنا قرية «بحرا »، وتوقفت القافلة ؛ لتقضى بها النهار كان السير يبدأ ليلاً لتجنب قيظ النهار وحرارته اللافحة .

تلك القرية - فى الحقيقة لم تكن إلا صفين من المقاهى عبارة عن أكواخ من جريد النخيل ومسجد صغير - إلا أن ذلك الموضع كان فى منتصف المسافة بين جدة ومكة .

معالم الصحراء كما هى بلا تغير منذ أن غادرنا جدة : تلال رملية متناثرة ، وجبال صخرية فى الشرق تفصل الأرض الساحلية الواطئة عن هضبة المنتصف العالية . إلا أن تلك الصحراء تحولت إلى ما يشبه معسكر جيش ضخم بعدد لا يُحصى من الخيام ، والجمال ، والمحفات ، ولغات كثيرة مختلفة - عربى ، هندوستانى ، ملاوى ، فارسى ، صومالى ، تركى ، باشتو ، أمهرى ، ويعلم اللّـه كم هناك من لغات غير ذلك : كان ذلك هـو التجمع الحقيـقى للأمم رايـة واحدة ، والكل يرتدى الملابس ذاتها وهى ملابس الإحرام ، ومن العسير ملاحظة أى اختلاف ، بدا أن كل الأجناس ليست إلا جنسًا واحدًا هو الجنس البشرى .

كان الحجاج منهمكين بعد رحيل الليل ، لم يعرف إلا قليل منهم كيف يستغل وقت الراحة ، كانوا لا يرتاحون ، يتحركون من مكان لآخر ، إيديهم تبحث عن شىء تفعله ، حتى لو كان فتح الحقائب وإعادة إغلاقها ، وإلا فقد الإحساس بذاته كما لو كان فى بحر من سعادة غير راضية .

كان ذلك ما حدث لأسرة فى الخيمة المجاورة لخيمتى ، كانوا حجاجًا من قرية بنغالية ، لم يتبادلوا كلمة واحدة ، جلسوا متربعى السيقان على الأرض ، وراحوا يحملقون بنظرات ثابتة باتجاه الشرق ، اتجاه مكة ، إلى الصحراء التى كانت تموج بحرارة لافحة وتنفث نارًا ، ملامح تفيض بالسلام كما لو كانوا أمام بيت اللّـه ، أو فى حضرته . كان رجالهم على درجة عالية من الجمال ، رشيقى الأجسام ، شعرهم طويل حتى الكتفين ، وحى كثة . واحد منهم رقد مريضًا على سجادة وجلست إلى جواره شابتان ، مثل طائرتين ملونين صغيرتين بسراويلهن الزرقاء والحمراء الفضفاضة وفستان فضى مزركش بألوان كثيرة ، وضفائر شعرهن السميكة تتدلى على ظهورهن ؛ أصغرهن كانت تضع حلقة ذهبية فى منخارها .

بعد الظهر ، مات الرجل المريض ، لم ترفع النساء أصواتها بالنواح كما يفعلن فى دول الشرق ، لأن الرجل مات فى الحج ، على التراب المقدس ، فهو شهيد . قام الرجال بغسله ، ثم لفوه بملابس الإحرام كآخر ما يلبس . وقف واحد منهم أمام الخيمة وكور

كفيه حول فمه ونادى للصلاة : «اللّـه أكبر ، اللّـه أكبر ، أشهد أن لا إله إلا اللّـه ، وأن محمداً رسول اللّـه .. صلاة الميت ، وليرحمكم اللّـه جميعًا ».

تقاطر الرجال من كل النواحى بملابس الإحرام ، ووقفوا صفوفًا خلف الإمام كجند جيش عظيم ، حين صلوا عليه ، حفروا قبرًا ، وقرأ رجل عجوز بعض من القرآن ، ثم أهالوا الرمال على الحاج الميت ، الذى مددوه على جانبه ، حتى يتجه وجهه إلى مكة .

* * *

قبل شروق شمس اليوم الثانى ، راح السهل الرملى يضيق ، وتقاربت التلال من بعضها ؛ مررنا عبر ممر ضيق ، ورأينا على ضوء الفجر الشاحب زول مبانى مكة ، ودخلنا إلى شوارعها مع شروق الشمس .

كانت بيوت مكة تماثل بيوت جدة ، بنوافذ غربية من الأخشاب المعشقة والشرفات ذات الأسوار ؛ ولكن بدا أن الأحجار التى بنيت منها كانت أثقل من الأحجار المرجانية لمبانى جدة . كان الوقت مبكرًا فى الصباح ، إلا أن الحرارة كانت شديدة . أمام منازل كثيرة ، كانت توجد أرائك ينام عليها المتعبون . ضاقت الشوارع أكثر ، وكانت غير معبدة سرنا عبرها باتجاه مركز المدينة . كان قد بقى أيام على موعد الحج وزحام الشوارع شديد . أعداد هائلة من الحجاج بملابس الإحرام وأعداد لا تقل عنها مازالت بملابسها العادية التى تنتمى إلى جميع دول الأرض . سقائين يسيرون منحنين يحملون على ظهورهم قرب الماء الثقيلة أو يحملون عصا غليظة على أكتافهم يتدلى منها من كل ناحية صفيحة نفط تستعمل لحمل المساء للسقاية ؛ مكاريين ، حمير ركوب بأجراس معلقة فى رقابها وزينة على سروجها ، وحتى تكتمل الفوضى ، تأتى جمال من اتجاه معاكس محملة بمحفات خالية ، تخور وتهدر بكل الأصوات ، كانت هناك فوضى فى الشوارع الضيقة ، حتى إنك تعتقد أن الحج الذى يتم كل عام على مدى قرون طويلة ، قد أتى فجأة لأول مرة ودون استعداد . فى النهاية ، لم تعد قافلتنا قافلة ، تحولت إلى فوضى من جمال ومحفات وأمتعة وحجاج وسائقى جمال وضوضاء .

كنت قد رتبت من جدة أن نسكن فى منزل مطوف مشهور اسمه حسن عبيد ، إلا أنه لم تكن هناك فرصة للعثور على بيته أو عليه فى تلك الفوضى . فجأة ، سمعت صوتًا ينادى : «حسن عبيد ، هل هناك حجاج لحسن عبيد ؟ »، ومثلما يخرج جن من زجاجة وجدت شابًا يقف أمامنا ، وبانحناءة عميقة ، طلب منا أن نتبعه ، كان حسن عبيد قد أرسله ليقودنا إلى منزله .

بعد إفطار غنى قدمه لنا المطوف ، خرجت ، يرشدنى الشاب الذى استقبلنا قبل ذلك إلى طريق الحرم . سرنا خلال شوارع مزدحمة ، أمام جزارين سلخوا جلود الماعز وعلقوها ؛ وأمام بائعى خضراوات فرشوها على حصر من قش مجدول على الأرض ، وبين أسراب من ذباب ورائحة خضراوات ، وتراب وعرق ؛ ثم عبر شارع سوق ضيق مغطى لا توجد به إلا محلات ملابس : مهرجان من ألوان . وكأى أسواق أخرى فى غرب آسيا وشمال إفريقيا ، كانت الحوانيت عبارة عن فجوات صغيرة تعلو الأرض بباردة ، ويجلس كل صاحب حانوت متربعًا أمامه ، تحيطه أكوام ملابس من كل أنوا ع الأقمشة وبمختلف الألوان ، ومعلقة فوق رأسه كل طُرُز ملابس الأمم الإسلامية .

مرة أخرى ، شعوب من كل بقا ع الأرض ، وأزياء ، وتعبيرات متباينة ، بعضهم بعمائم وبعضهم عارى الرأس ، بعضهم يسير صامتًا خافضًا وجهه ومسبحته فى يده ، وآخرين يركضون فى حماس فى الزحام ؛ خليط ، أجسام بنية للصوماليين ، يلمعون كالنحاس فى ملابس صارخة الألوان ؛ وعرب من أعماق الجزيرة العربية ، وجوه نحيلة بلحى كثة وخطوات متثاقلة ، وآخرين ضخام الأجسام أوزبكيين من بخارى ، وكانوا مازالوا بملابس بلادهم ، من قفطان سميك وحذاء طويل حتى الركبة بالرغم من جو مكة اللافح ، بنات من جاوة بوجوه مكشوفة وأعين مثل اللوز ، مغاربة متثاقلى الخطو يتيهون بالبرنس الأبيض ، وأهل مكة بملابسهم البيضاء ورءوسهم المغطاة ، فلاحون مصريون بوجوه تعلوها فرحة وإثارة ، ونساء هنديات بزيهن التقليدى فبدين مثل خيام متحركة ؛ الفلولاتا السودمن تمبكتو وداهومى فى ملابسهم الزرقاء وغطاء رأس أحمر ؛ سيدات صينيات دقيقات الحجم مثل فراشات ملونة ، وخطوات صغيرة وأقدام دقيقة مثل حوافر الغزلان .

صياح وزحام من كل ناحية حتى تشعر أنك فى قلب موجة عاتية ولا تتمكن من رؤية تفاصيل صورة مكتملة . كل المشاهد طافية على عدد كبير من اللغات واللهجات ، إيماءات حماسية وإثارة حتى وجدنا أنفسنا أمام باب من أبواب الحرم .

كانت بوابة ثلاثية الأقواس بدرج حجرى يصعد إليها ، جلس عليها شحاذ هندى نصف عاريمد إلينا ذراعًا محيلة . ثم رأيت لأول مرة الساحة الداخلية التى كانت فى مستوى أوطأ من مستوى الخارج - أوطأ كثيرًا - كانت مفتوحة أمام العين كالوعاء : مساحة مربعة واسعة تحيطها من كل جانب عقود شبه دائرية محمولة على أعمدة ، فى مركزها مكعب ارتفاعه أربعين قدمًا ، تنزل عليه ستائر سوداء بحزام عريض مذهب فى أعلاها وعليه آيات من القرآن .

هذه هى إذن الكعبة ، موضع شوق وتوق ملايين الناس على مدى قرون طويلة . فى سبيل وصولهم إليها ضحوا تضحيات عظمى على مدى القرون ؛ فى الطريق إليها مات كثيرون ؛ ووصل إليها كثيرون ممن يعانون الحرمان وشظف العيش ؛ كان هذا المبنى المكعب غايتهم وأسمى زهدافهم ، وكان الوصول إليه هو كامل التحقق .

هاهى الكعبة هناك فى المنتصف ، مكعب مكتمل (ويدل الاسم العربى على الشكل) ، مغطى تمامًا بستائر سوداء ، يقف جزيرة هادئة فى ساحة الحرم الواسعة : أهدأ من أى شكل معمارى آخر فى العالم . أراد أول من بنى الكعبة - أعيد بناءها من عهد إبراهيم عدة مرات على الشكل نفسه - أن يصنع مثلاً لتواضع البشر أمام اللّـه . لقد أدرك من بناها أنه لا يوجد جمال فى الإيقاع المعمارى والهندسى ، ولا اكتمال فى الخطوط ، مهما كانت عظمتها ، يمكن أن يتناسب مع عظمة اللّـه ، لذلك لجأ إلى أبسط مجسم ثلاثى الأبعاد يمكن تخيله - مكعب من الصخر .

لقد زرت مساجد وجوامع ومزارات إسلامية كثيرة صنعت منها الأيدى الخلاقة كل أنواع الفنون والأشكال ، رأيت جوامع شمال إفريقيا- التى تبدو كقصور رائعة للصلاة مشيدة من الرخام والمرمر الأبيض ، ورأيت مسجد قبة الصخرة فى القدس : قبة عظيمة مكتملة فوق بناء رشيق ، حلم من الخفة والثقل دون تعارض ؛ ورأيت

الجوامع العظمى فى إستانبول ، جامع السليمانية ، وجامع «ينى فاليد »، وجامع بايزيد ، وجوامع برصة ، فى آسيا الصغرى ، وجامع السفاقيد فى إيران - إيقاع ملوكى من الحجارة والصخور والميوليق الخزفى الملون ، والفسيفساء ، ومداخل هائلة تعلوا الأبواب المفضضة ، ومآذن شاهقة مستديرة من المرمر بشرفات من الأزرق التركوازى ، وساحات مغطاة بالرخام ، ونوافير مياه وأشجار نادرة عتيقة ، عظيمة حتى فى قدمها .

رأيت كل ذلك - إلا أننى لم أشعر برهبة أمام أى منها كما أشعر بها الآن أمام الكعبة . لقد اقترب بانيها تمامًا من التعبير عن مفاهيمه الدينية . فى البساطة المطلقة للمكعب ، فى التخلى عن كل ادعاء بشرى للجمال الفنى ، لقد فكر : «مهما كان قدر الجمال الشكلى الذى يمكن للإنسان أن يصنعه بعقله ويده ، سيكون من قصور الخيال أن يظن أنه يتناسب مع عظمة اللّـه ؛ ولذلك ، فإن أبسط شكل يمكن أن يدركه العقل البشرى هو أعظم شكل يتناسب مع عظمة اللّـه » ويبدو أن المنطق نفسه هو الذى وجه مصمم بساطة الأهرام المصرية - على الأقل وجد الذهن البشرى متنفسًا لخياله فى الأبعاد الهائلة التى بنى عليها الأهرام . أما هنا ، فى الكعبة ، فيتحدث الشكل عن التخلى البشرى عن كل ادعاء ، ويتحدث عن التسليم للّـه ، ولا يوجد مثيل ولا شبيه للبساطة العظيمة لبناء الكعبة على وجه الأرض كلها .

* * *

لا يوجد إلا مدخل واحد للكعبة ، وهو باب مغطى بطبقة رقيقة من الفضة فى الجانب الشمالى الشرقى ، على ارتفاع سبعة أقدامك من سطح الأرض ، ولا يمكن الوصول إليه إلا باستعكال سلم يوضع أمام باب الكعبة بضعة أيام من كل عام . والكعبة من الداخل ، وهى مغلقة عادة (رأيتها من الداخل بعد ذلك فى مناسبات أخرى) ، بسيطة جدًا : أرضها من الرخام عليها بضعة بسط ، ومصابيح من البرونز والفضة تتدلى من دعامات السقف تالخشبية ، وداخل الكعبة ، لا يحمل فى الحقيقة أى

معنى فى ذاته ، فقداسة الكعبة تخص المبنى بأكمله كقبلة لكل العالم الإسلامى . فى اتجاه هذا الرمز إلى وحدانية اللّـه ، يوجه مئات الملايين من المسلمين أوجههم نحوها فى الصلوات الخمس كل يوم .

فى الركن الشرقى من مبنى الكعبة يوجد حجر أسود متروك دون ستائر ، ويحيطه إطار فضى عريض ، وأحدث تقبيل المسلمين له على مدى أجيال متتالية وقرون طويلة من الزمن ، تجويفًا بالحجر ، وكان تقبيل المسلمين له سببًا فى سوء فهم كبير من المسلمين ، فقد أشاعوا أنه جزء من صنم قد وضعه محمد كتصالح مع مشركى مكة ، وذلك مجافى تمامًا للحقيقة . فالكعبة موضع تبجيل لا موضع عبادة ، أى أنها لا تعبد ، وكذلك الحجر الأسود موضع تبجيل لأنه كل ما تبقى من البيت الذى أسسه إبراهيم ، ولأن شفتى محمد قبلته فى حجة الوداع قبل موته ، فإن الحجاج يفعلون ذلك اقتداء به ، كان الرسول واعيًا أن كل أجيال المسلمين من بعده ستقتدى به فى كل أفعاله وأعماله ، وكان يعلم أنه بتقبيله للحجر ستلتقى شفاه كل أجيال المسلمين من بعده فى وضع تقبيله للحجر فى اختضان رمزى ، أقوى من الزمن ، وأقوى من الموت ، لكل أُمته فى حجها . والحجاج ، حين يُقَبِّلُونَ الحجر الأسود ، كأنما يحتضنون الرسول ويحتضنون كل المسلمين الذين جاءوا هنا من قبلهم وكل المسلمين الذين سيأتون هنا من بعدهم .

لا ينكر أى مسلم أن الكعبة كانت موجودة من عصور طويلة قبل محمد ؛ ويكمن مغزاها فى تلك الحقيقة ، والنبى لم يدع أنه أوجد دينًا جديدًا . على العكس ، قال : إن الاستسلام للّـه ، والتسليم لمشيئته - الإسلام - كان طبقًا لما يذكر القرآن ، فطرة الإنسان التى خلق عليها منذ فجر الوعى الإنسانى ، وأن ذلك هو ما دعى إليه إبراهيم ، وموسى ، وعيسى من قبله وكل من جاء إلى البشر من أنبياء كانوا مسلمين - ورسالة القرآن ليست إلا خاتمة الرسالات من اللّـه . كذلك لا ينكر أى مسلم أن ساحة الحرم المقدس كانت مليئة بالأصنام والرموز الوثنية قبل أن يحطمها محمد ؛ تمامًا كما حطم موسى العجل الذهبى الذى صنعه قومه فى طُور سيناء : لقد كان البشر يعبدون اللّـه

فى موضع بيته الذى أقامه إبراهيم قبل عصور من ظهور الأصنام فى ساحته . لم يفعل محمد إلا أن استعاد البيت الذى أقامه إبراهيم للغرض الأصلى الذى شيد من أجله .

* * *

وقفت أتأمل البيت الذى أقامه إبراهيم وأتدبر عظمته دون قدرة على التفكير (الأفكار والانعكاسات تأتى إلى المرء بعدها بزمن طويل) ، من نواة فرح داخلى انبثقت بهجة وفرح ازدادت وعلت مثل الصوت الشجى .

كان بلاط الرخام يغطى الأرض فى دوائر حول الكعبة تعكس ضوء الشمس يسير عليها بشر كثيرون ، رجال ونساء ، يطوفون حول بيت اللّـه . كان من بينهم من يبكون ، وآخرون يدعون اللّـه جهرة فى الصلاة ، وغيرهم ممن لم يجد كلامًا ولا دمعًا ، راح يطوف ورأسه منكس فى الأرض ...

من شعائر الحج أن تطوف سبع مرات حول الكعبة . لا لتظهر تبجيلك للكعبة ، ولكن لتذكير المسلمين بأساسيات الحياة ، فالكعبة رمز لوحدانية اللّـه ، وطواف المسلمين حولها رمز لأنشطة الحياة ، يتضمن أن عبادة اللّـه لا تكون بالفكر والمشاعر وحدهما - وكل ما يمكن تسميته «الحياة الداخلية» -بل بالفعل البدنى والجسدى ، أى بالمسعى والفعل ، وبذلك يكون الوجود الإلهى محور الوعى الذهنى والفعل البدنى .

طُفْت أنا أيضًا ببطء وأصبحت جزءًا من التدفق الدائر حول الكعبة . يظهر ويختفى رجل أو امرأة بالقرب منى ، صور منفصلة تظهر أمام بصرى وتختفى ، رجل أسود عملاق بملابس الإحرام ، وسبحة خشبية ضخمة يلفها حول معصمه . ظهر ثم اختفى بين الزحام ، رجل مالاوى عجوز حاذانى لفترة يحرك يديه كأنه فى حيرة ، ثم اختفى . عينان خضراوان تحت حواجب شعثاء - إلى من تنتمى ؟ ضاعت فى الزحام . ضمن

زحام الناس أمام الحجر الأسود ، كانت هناك امرأة هندية شابة ، كان من الواضح أنها عليلة ، على وجهها الرقيق توق واشتياق ، واضح وضوح قاع الماء الشفاف ، كفيها مرفوعان فى ضراعة فى اتجاه الكعبة ، أصابعها ترتجف كما لو كانت فى صلاة صامتة .

طفت ، وطفت ، مرت الدقائق لا أعرف لها عداً ، اختفى كل ما كان بقلبى من مرار ومشاغل ، أصبحت جزءاً من تيار يدور آه ، هل كان ذلك هو معنى ما نفعله : أن نعى أن المرء جزء يدور فى فلك ؟ هل يصبح إدراك ذلك نهاية كل حيرة ؟ ذابت الدقائق ، وتوقف الزمن ، وكأن الكعبة مركز الكون .

* * *

ماتت إلزا بعد ذلك بتسعة أيام .

ماتت فجأة بعد مرض لم يستغرق أسبوعاً ، بدا المرض فى أوله كأنه توعك من الجو الحار والطعام الذى لم تعتده ، إلا أنه تطور ليصبح مرض استوائى غامض وقف أمامه الأطباء السوريين حائرين وعاجزين . وأطبق الظلام واليأس الخالص من حولى . دفنتها فى مقبرة من الرمال فى مكة . ووضعت حجراً على مدفنها . لم أشأ أن أنقش عليه أى شىء ؛ فالتفكير فى نقش يمثل تفكيراً فى المستقبل ، ولم أكن قادراً على استيعاب أى تفكير فى المستقبل عند موتها .

بقى معى ابن إلزا الصغير ، أحمد ، لمدة عام رافقنى فى أول رحلة لى إلى أعماق الجزيرة العربية - وكان شجاعاً وهو ابن عشرة أعوام . بعد فترة كان علىّ أن أودعه أيضاً ، فقد أقنعنى أهل أمه أن الأفضل له أن يذهب إلى مدرسة فى أوروبا ، لم يبق من إلزا إلا ذكريات وحجر على مدفنها فى مدافن مكة ، وظلام لم يرتفع عنى إلا بعد زمن . بعد زمن طويل من ارتمائى فى أحضان الجزيرة العربية .

[٦]

أوغل الليل ، إلا أننا بقينا جالسين حول النار . كان أبو سيد قد خرج من حالته الانفعالية وتحول إلى حالة من الهدوء ؛ كانت عيناه حزينتان ومتعبتان ويبدو عليه الإنهاك ؛ تحدث إلينا عن نورا كما يتحدث امرئ عن شخص عزيز مات من زمن . قال لزيد : «لم تكن جميلة ، أنت تعرف ذلك ، لقد أحببتها ... ».

القمر مكتمل فوقنا ، مثل اكتمال خلق الوجود الإنسانى . لم يكن من الغريب أن يعتقد عرب الجاهلية أن القمر من «بنات الرب » - وتخيلوها ذات شعر طويل وأنها ربة الخصب وأسموها «اللات »، ذات قوة غامضة خاصة بالتناسل على الأرض وبذلك تهب الحياة للبشر والحيوانات .

واحتفاء بها اعتاد الشباب والشابات فى مكة والطائف قبل الإسلام على الاحتفال باكتمال القمر كل شهر فى الخلاء ، يقضون الليل فى قصف وعربدة والتناكح بلا قيود وإلقاء الشعر . يراق الخمر من أوانيه الفخارية ؛ ولأن النبيذ كان أحمراً مثل الدم ويهبهم نشوة ، ربط الشعراء بينه وبين دم المرأة فى قصائدهم الشعرية - كان الفخر وحيوية الشباب يتدفقان فى حجر اللات «التى تتألق مثلما يتألق القمر فى تمامه ، وتعلو كما يعلو طائر مالك الحزين » .وانتقلت ربة الشباب والتناسل القادرة بأجنحتها من جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال حتى وصلت إلى اليونان على شكل الربة «ليتو » ، أم «أبو للو ».

من فوضى الطبيعة الغامضة لعبادة اللات وآلهة أخرى حتى الوصول إلى مفهوم وحدانية الخالق فى القرآن ، كان الطريق طويلاً ، إلا أن إنسان الجزيرة اعتاد على قطع مسافات طويلة على طريق الروح مثل باقى البشر ، حتى إنه يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الطويل ، «تاريخ البحث عن إيمان ».

كان التساؤل والسعى الدائمان ، يبحثان عن المطلق .

حتى فى العصور المبكرة ، حين ملأ العالم المحير لهم أذهانهم بصور الآلهة والعفاريت والجان ، كانوا يدركون أن هناك إلهًا واحدًا فوق كل الآلهة التى يصورونها ، إله غير مرئى ، لا يمكن إدراكه لأنه فوق قوة الإدراك ، إله أزلى فوق كل موجوداته . لم تكن اللات وأخواتها المقدسات ، مناة والعزى ، إلا بنات الرب «الوسيطات بين الإله الذى لا يدركونه والعالم الذى يدركونه ، رموز لقوى لا يفهمونها أحاطت بالطفولة البشرية ، إلا أن أعماقهم كانت تدرك وجود الإله الواحد ، كامن فى أعماقهم ، جاهز على الدوام ليشتعل متحولاً إلى إيمان واعى كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك .

لقد كانوا بشرًا عاشوا فى عزلة بين سماء قاسية وأرض أقسى ، وكانت حياتهم جافة بين تلك الفراغات اللانهائية الموحشة القاسية ، لذلك وجدوا أنفسهم فى حاجة إلى قوة تحتضن وتحتوى كل الوجود ، قوة معصومة وتتصف بعدل مطلق ورحمة ، معاناتهم وحكمة عظمى ، اللّـه المطلق ، يقطن فى المطلق ويشع حكمته فى اللانهائى – ولكن لأنك من صنعه ، فهو أقرب إليك من حبل الوريد ..

* * *

انطفأت النار ، نام زيد وأبو سيد ، بالقرب منا جمالنا الثلاثة ، باركة على الرمال المغمورة بضوء القمر ، تجتر طعامها ويصدر منها صوت مضغ هادئ ، وتتوقف من حين لآخر . حيوانات عظيمة .. كان بعضها يغير موضعه ويحك صدره بالرمال ، أو يهدر من أنفه كأنه يتنهد ، حيوانات عظيمة بلا تعبير معين يميزها بخلاف الخيل التى – غالبًا – ما يكون لها شخصية متميزة ؛ نعم ، تختلف الجمال عن كل الحيوانات التى يسخرها الإنسان ، فهى مثل الصحراء الواسعة التى تنتمى إليها والتى تختلف بدورها عن أى أرض أخرى ، دون تعبيرات محددة تتأرجح بين أضداد ومتناقضات ، حالة مزاجية متقلبة ، إلا أنها متواضعة إلى أبعد حد .

لم أتمكن من النوم ، قمت أتجول واعتليت أحد التلال ، كان القمر منخفضًا فى الأفق الغربى وينير التلال الصخرية الغربية والتى ترتفع من السهل على هيئة أشباح . من هذا الموضع حتى مكة ، تنخفض الأرض فى انحدار متدرج حتى ساحل البحر الأحمر ، تخلو من أى حياة ، بلا قرى ، بلا منازل ، بلا أشجار صلبة فى تجردها الواضح تحت ضوء القمر . من تلك الأرض الموحشة الخالية من الحياة ، من بين هذه الوديان الرملية والتلال صماء ، انبعثت أكبر عقيدة دينية مؤكدة للحياة فى تاريخ الإنسانية .

كانت الليلة دافئة وساكنة . الضوء الشحيح والمسافات البعيدة أظهرت التلال وكأنها تتمايل . تحت ضوء القمر الساطع تذبذب ضوء أزرق شاحب ، من وسطه انزلق ضوء رمزى شفاف ، ذكرى شبحية ، تحمل كل ألوان الأرض ، إلا أن النور الأزرق غير الأرضى نسخها جميعاً ، ظهر ثابتًا دون تحول ولا تبدل ، كأنه أفق ثابت ، كأنه دعوة إلى ما لايعرف كنهه .

غير بعيد من هنا ، يقع سهل عرفات ، مختفيًا عن عينى فى منتصف هذه البرية ، يجتمع عليه الحجاج فى يوم من العام كتذكرة لهم بآخر تجمع ، حين يكون على كل امرئ أن يجيب أمام اللـه بكل ما فعله فى حياته ، كم مرة وقفت هناك ، حاسر الرأس ، فى ملابس الإحرام ، بين حشد المحرمين فى ملابسهم البيضاء حاسرى الرؤوس ، من القارات الثلاث ، وجوهنا متجهة إلى جبل الرحمة الصاعد من وسط السهل الواسع ، تقف منتظراً فى الظهيرة وفيما بعد الظهر ، فى تماثل لذلك اليوم الذى لا مفر منه :

وأنا واقف على الحافة الصخرية للتل الذى كنت عليه ، أتطلع باتجاه سهل عرفات الذى لا أراه ، وضوء القمر الفضى يسطع على السهل الذى أمامى والذى كان ميتًا من لحظة مضت ، انبعثت به فجأة الحياة ، ظهر على أديمه كل البشر الذين مروا به من بداية الإسلام ، وتصاعد منه أصوات ملايين الرجال والنساء الذين ساروا بين مكة وعرفات عبر ثلاثة عشر قرنًا من الزمان . استيقظت أصواتهم وأصوات الحيوانات التى ركبوها ، رأيتهم يبعثون ويركبون حيواناتهم ويتجمعون فى حشد لا نهائى - كل

الحشود التى حجت فى ثلاثة عشر قرنًا أسمع أصوات أيامهم الماضية ؛ جمعتهم أجنحة الإيمان معًا فى أرض ليس فيها إلا صخور ورمال وتبدو ميتة بلا خفقة قلب ، الآن تموج بدفء الحياة فوق قوس الزمن ، وجذبتنى قوة الأجنحة الهائلة إلى مجالهم ودرت فى مدارهم وفلكهم ، وجذبت أيام ماضى النائية وحولتها إلى حاضر ، ومرة أخرى أركب عابرًا وادى عرفات ...

أركب فى ركض مرعد فوق السهل ، وسط آلاف وآلاف من البدو المحرمين فى أثواب بيضاء ، عائدين من عرفات إلى مكة – كنت نقطة ضئيلة فى بحر ، بين موجة من عدد لا نهائى من جمال راكضة عليها راكبوها تهز الأرض هزًا ، وترجها رجًا ، موجة لا يقف أمامها شىء ، وبيارق القبائل تخفق على صواريها العالية ، تخفق مثل الطبول ، وصياح الحرب القبلى الموروث يمزق الفراغ : «يا رواجا ، يا راواجا »يحيى بها أبناء قبيلة عتيبة اسم جدهم العظيم الأول ، ويرد عليه هتاف آخر من جهة أخرى فى قوة : «يا عوف ، يا عوف » من حناجر أبناء حرب ، ويرد بعدهم فى صوت متحد : «شمار ، يا شمار »، من أقصى الجناح الشرقى للحشود المندفعة .

عُدْنَا راكبين ، مندفعين عبر الوادى ، نطير فوق السهل ، أحسست أننا نطير على أجنحة ، مغمورين فى سعادة وصفاء خالص ، سعادة لا تعرف نهاية ولا حدًا ... والرياح تهمى بصيحات من المرح والفرح فى أذنى : «أبدًا، أبدًا ، لن تكون غريبًا بعد الآن ».

أخ عن يمينى وآخر عن يسارى ، لا أعرفهم ، إلا أنهم ليسوا غرباء عنى ، فى اندفاعنا العنيف الصاخب كنا جسدًا واحدًا يمضى إلى هدف واحد . العالم رحب أمامنا ، وفى قلوبنا تشتعل الشرارة التى اشتعلت فى قلوب صحابة الرسول .

يعلم إخوتى عن يمينى وإخوتى عن يسارى أنهم قصروا عن الغرض المتوقع منهم ، ويعلمون أنه بمرور القرون تضاءلت قلوبهم وباخت عزيمتهم ، إلا أن وعد التحقق باقٍ فى قلوبهم ... فى قلوبنا ...

بدل أحد الراكبين صيحة قبيلته بنداء إيمانى : «نحن أخوة فى اللّـه ، ونسلم أمرنا للّـه »، ورد عليه آخر «اللّـه أكبر ، اللّـه أكبر ».

توحد كل حجاج القبائل فى صيحة واحدة . لم يعودوا بدو نجد المستغرقين فى فخرهم القبلى ، يعرفون أن الأسرار الإلهية فى انتظارهم ... فى انتظارنا ... وسط آلاف من أقدام الجمال العادية ، وخفق البيارق ، تحولت صياحتهم إلى هدير منتصر : «اللّـه أكبر ».

تدفقت الصيحة ، كموجة هائلة فوق رؤوس حجاج الجزيرة على الجمال المندفعة عَدْواً وامتدت لتشمل السهل كله ، وتجتاح لتمتد وتشمل الأرض بأجمعها : «اللّـه أكبر » . تجاوز الرجال الحياة الصغيرة الخاصة بكل منهم ، يدفعهم إيمانهم للأمام ، فى توحد ، نحو آفاق غير مرئية .. فى توق لم يعد ضئيلاً ولا مخفيًا ؛ حشود وجدت بعثها ويقظتها ، شروق شمس التحقق . فى هذا التحقق ، يقف الإنسان أمام كل النعم التى وهبها اللّـه له ؛ وقفته فرح ، ومعرفته حرية ، وعالمه أرض بلا حدود ...

رائحة أجسام الجمال ، لهاثها وشخيرها وهديرها ، وقع أقدامها المدوى ؛ صياح الرجال ، خبط علاقات البنادق بأجناب السروج ، غبار وعرق ووجوه سعيدة مستبشرة ؛ وسعادة مفاجئة تحل بى وتسرى فى أعطافى .

استدرت ملتفتًا خلفى وأنا على سرج ناقتى ، رأيت خلفى الكتلة المتماوجة المنسوجة من الاف الراكبين فى ملابس بيضاء ، وخلفهم ، القنطرة التى عبرت عليها طريق حياتى وجئت عبرها إلى هنا : كانت نهايتها خلفى تمامًا فى تلك الحشود البيضاء ، بينما كانت بدايتها قد اختفت فى أعماق أخفت معالمها .

المؤلف فى سطور

محمد أسد (ليوبولد ڤايس)

ولد لأبوين يهوديين بإحدى مقاطعات النمسا عام ١٩٠٠م التى ضمت لألمانيا بعد ذلك ، اسمه الأصلى ليوبولد ڤايس ، وتسمى بعد إسلامه باسم محمد أسد عام ١٩٢٦ . عمل صحفيًا ومراسلاً لكثير من صحف وسط أوروبا وألمانيا وهولندا وسويسرا عن منطقة الشرق الأوسط وإيران وأفغانستان والهند . عاصر وشارك فى كثير من الأحداث التى شكلت مستقبل المنطقة الممتدة من ليبيا حتى الهند قبل وبعد إعلان دولة باكستان الإسلامية المستقلة . من أهم أعماله :

- مقالات صحفية من فلسطين فى عشرينيات القرن العشرين مؤيدة للحق العربى وذلك قبل إسلامه .

- الإسلام على مفترق الطرق .

- مجلة عرفات الإسلامية بباكستان .

- الطريق إلى مكة ، وكتب بالإنجليزية ونشر بامريكا ثم إنجلترا . وترجم بعدها إلى الألمانية والسويدية والهولندية والفرنسية والأوردية .

المترجم فى سطور

رفعت السيد على

تخرج فى كلية الطب جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م

حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الأنثروبولوجيا من جامعة القاهرة عام ١٩٩٤ .

كاتب مقالات سياسية وأدبية وعلمية بعديد من الصحف والمجلات .

الأعمال المترجمة المنشورة :

١ - عصور فى فوضى - من الخروج إلى إخناتون

إيما نويل فلايكوفسكى	دار سينا	١٩٩٥	طبعة أولى
	دار حور	٢٠٠٠	طبعة ثانية

٢ - عوالم فى تصادم

إيما نويل فلايكوفسكى	دار حور	١٩٩٩	طبعة أولى

٣ - التاريخ الإجرامى للجنس البشرى

كولن ويلسون	دار حور	ديسمبر ٢٠٠١	طبعة أولى

٤ - الحياة الجنسية فى مصر القديمة

ليز مانيش	دار حور	٢٠٠٢	طبعة أولى

٥ - قزم بين العمالقة

مات رولوف وتريسى سومز	دار شرقيات	٢٠٠٢	طبعة أولى

٦ - ردود العالم

كارل ساجان	دار حور والعروبة	٢٠٠٣	طبعة أولى

٧ - والت ديزنى

كاترين وريتشارد جرين	مختارات ثقافية	٢٠٣٣	طبعة أولى
		٢٠٠٥	طبعة ثانية

٨ – تهويد التاريخ – خمسة مجلدات

إيمانويل فلايكوفسكى – بالمشاركة مع رضا الطويل – أحمد عمر شاهين – أحمد عباس – فاروق فريد العروبة وحور ٢٠٠٤ طبعة أولى

٩ – توت عنخ آمون – مؤامرة الخروج

أندرو كولينز وكريس أوجيلفى هيرالد دار العلوم ٢٠٠٥ طبعة أولى

١٠ – مراسلات عظماء ملوك الشرق الأدنى

تريفور برايس دار العلوم طبعة أولى

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	چون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	چورچ چيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوڤا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إڤيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	ڤيسواڤا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورچ سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	چون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوڤاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوپكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روچر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريچيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوڤاليس وس . روچسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣- مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧- نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠- وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥- مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١- النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣- قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبـة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	پول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيڤا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩- الحس والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدراقيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شوبكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا آديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مورين	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وچودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وألن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوپر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياڤللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى ڤارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديسًا (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقّع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير روناك ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	پاتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: چان بودريار	كريس هورروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو آليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحفلى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥- الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	چوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحي العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چي دي موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود ڤيڤيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	چوستنيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	چونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام چونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	پول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧- حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨- العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥- فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨- دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٤٠- خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١- الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢- أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣- الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥- المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨- تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩- إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠- الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣- التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤- الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥- تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦- ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧- تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨- الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدوًا و صديقًا	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تيبرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	التطور ومعامل التطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦-	آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانيل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المصرية	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أهل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	ڤرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥-	تشيخوف: حياة في صور	بيتر أوربان	علاء عزمي
٨٣٦-	بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوي
٨٣٧-	عناكب في المصيدة	ناتاليا فيكو	على فهمي عبدالسلام
٨٣٨-	في تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكي	لبنى صبري
٨٣٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين فان لون	جمال الجزيري
٨٤٠-	الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٨٤٢-	منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسي	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات في الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	ألفريد آدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨-	تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادي أبو ريدة
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	الطب التجريبي (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمي
٨٥٣-	العمارة في الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفي
٨٥٤-	العمارة في الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفي
٨٥٥-	فهم الاستعارة في الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث بانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادچا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامري
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومي قنديل
٨٥٩-	السياسة في الشرق القديم	إيڤ شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحي تكلا
٨٦١-	الإسلام والمسلمون في أمريكا	چين سميث	محمد الخولي
٨٦٢-	ببغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفي	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعي
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيري إيجلتون	شوقي جلال
٨٦٦-	رسائل خمس في الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبري محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسي المعاصر	ساعد باقري ومحمد رضا محمدي	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقي جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجاني

٨٧٣- معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤- النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥- النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦- دراسات في الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنري جورج فارمر	أماني المنياوي
٨٧٧- أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينتشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨- ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن
٨٧٩- ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن
٨٨٠- الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازي وأمير نبيه
٨٨١- المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢- أغاني شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازي	إبراهيم الشواربي
٨٨٣- أغاني شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازي	إبراهيم الشواربي
٨٨٤- تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدي سالم
٨٨٥- روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عروبكي
٨٨٦- الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧- غزليات سعدي (شعر)	سعدي الشيرازي	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨- أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفري	هويدا عزت
٨٨٩- سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠- منتخبات أشعار فراغي	مخدومقلي فراغي	الصفصافي أحمد القطوري
٨٩١- مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢- تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣- عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدري عمارة
٨٩٤- الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد علي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٩٥٦٠ / ٢٠٠٥

ينفرد هذا الكتاب عن غيره بأن كاتبه عاش تجارب فريدة لم تتح لغيره. الكاتب يهودى نمساوى رحل إلى الشرق الأوسط كمراسل لصحف ألمانية إلا أن طبيعته كمفكر وباحث عن الحقيقة أفضت به إلى اعتناق الإسلام، وأصبح من كبار المفكرين الإسلاميين، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل شارك وساهم فى أهم أحداث عشرينيات القرن العشرين فى الشرق الأوسط، مع الفلسطينيين ضد النزوح اليهودى المكثف إليها، ومع عمر المختار فى ليبيا بعد أن وصل إليه فى مغامرة خطيرة محفوفة بالهلاك، ومع عبد العزيز بن سعود أثناء حروبه فى إقامة المملكة وتوحيد أجزائها، وحضر كفاح الشعب العراقى ضد الاحتلال الإنجليزى، وجاء إلى مصر فى فورة ثورتها ضد الاحتلال الإنجليزى، والتقى بمحمد رضا أثناء توليه رئاسة وزارة إيران قبل أن يتحول إلى شاه إيران وكتب تحليلا رائعا لظاهرة تعصب شيعة إيران ورحل إلى أفغانستان وخالط حكامها، ثم إلى مسلمى الهند ليلتقى بمحمد على جناح والشاعر محمد إقبال ومعا وضعوا مشروع إقامة دولة إسلامية مستقلة عن الهند هى دولة باكستان، ونجحوا فى تحقيق ذلك. كان الكاتب من أهم المدافعين عن الإسلام فى الغرب برؤية فريدة ومنظور واع للإسلام لم يقدمه غيره. ونشر بالولايات المتحدة وإنجلترا، ثم ترجم ونشر بالألمانية والهولندية والسويدية والفرنسية والأردية.

الغلاف: هشام نوار